مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م)

ينشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق
أ. م. محمد طه بويالق أحمد أيتب
أ. م. ضياء الدين القالش محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ. م. محمد طه بويالق

المجلد الثاني

نشريات وقف الديانة التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

إرشاد العقل السليم
إلى مزايا الكتاب الكريم

مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية

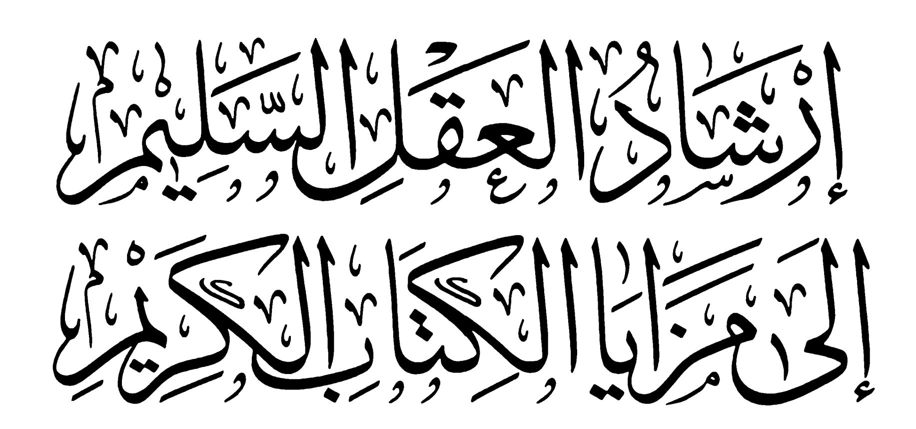
تمّ إدراج "مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية" كمشروع إطاري يضم في طياته عدة مشاريع فرعية في جدول الأعمال من قِبَل مركز البحوث الإسلامية (إسام/İSAM) بهدف إخضاعِ التراكم الفكري فيما بين القرنين الهجريين السابع والثالث عشر (١٣-١٩م) -الذي يمكن أن يطلق عليه اسم "العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية"- لدراسة علمية كما يليق به، واستخراجِ ما حملته هذه الفترة من أبعاد علمية وفكرية لما يقارب سبعة قرون. وفي تصور كتابة التاريخ المعاصرة قد سُعي إلى كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية على أساس فرضية أن تطور الحضارة الإسلامية بصفة عامة والفكر الإسلامي وعلومه بصفة خاصة قد تعرض للانقطاع بعد الغزو المغولي. فإن وجهة النظر هذه التي تشكلت في الغرب في القرن التاسع عشر، وانتشرت بين المسلمين أثناء فترة الاستعمار هي التي جعلت أحكامنا المتعلقة بالتاريخ الإسلامي ناقصة، مما حال بيننا وبين أن نتناول تاريخ الإسلام بفكره وفنونه ومؤسساته وشخصياته الرائدة وأدبه وأحداثه في وحدة متماسكة.

ولا تسلّط الدراسات في هذا المجال الضوء على فترة من فترات التاريخ الإسلامي فحسب؛ بل ستجلي أيضا حقبة مهمة من حقب التاريخ البشري. وإن هذا المشروع سيكون وسيلة لبعثِ المسائل العلمية المناقشة في العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية من جديد، وإلحاقِها بقضايا العالم العلمي والفكري، وبالتالي سيستفاد إلى أقصى حد من التراث العريق في بناء عهد جديد واستدراك المسائل الراهنة وتحليلها وانتقادها ومناقشتها.

وفي إطار الأعمال العلمية المتعلقة بهذه الفترة سيفسح هذا المشروع المجال لعقد دراسات عن العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي وتاريخ العلوم الإسلامية التجريبية، وكذلك العلوم البشرية وميادين الفنون في الحضارة الإسلامية إلى جانب الدراسات المقارنة بين الإسلام وسائر الحضارات الأخرى. وستركّز المشاريع المرتقبة على أراضي الدولة العثمانية وجنوب الصحراء الكبرى، وكذلك على شبه القارة الهندية منذ سلطنة دلهي، بالإضافة إلى آسيا الوسطى وإيران بعد الغزو المغولي. هذا، ويتوقع إصدار منشورات في إطار المشروع مثل الفهرسة والتأليف والتحقيق والترجمة.

المنهج الفكري عند ابن تيمية ونقده للمتكلمين (بالتركية)، مَحمَد سعيد أوزَروارلي، ٢٠٠٨؛ ٢٠١٧.
دراسة فتح الباري وعمدة القاري من جهة تحليل المتن(بالتركية)، ياووز كُوكْطاش، ٢٠٠٩؛ ٢٠٢٠.
الوزارة في العهد المملوكي (بالتركية)، فاتح يحيى آياز، ٢٠٠٩؛ ٢٠١٧.
التاريخ الإداري والاقتصادي للعثمانيين (بالتركية)، خليل إينالجيق، ٢٠١١؛ ٢٠١٨.
مدرسة فخر الدين الرازي في أصول الفقه (بالتركية)، طونجاي باش أوغلو، ٢٠١١؛ ٢٠١٤.
عبد القادر الجيلاني والقادرية، (بالتركية)، عدالت چاقر، ٢٠١٢؛ ٢٠٢١.
فخر الدين الرازي في عهد التحول للفكر الإسلامي (بالتركية)، عثمان دمير - عمر تورك أر (تحرير)، ٢٠١٣.
الكفاية في الهداية، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد آروتشي، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
المنتقى من عصمة الأنبياء، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد بولوط، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
الطرق الصوفية في تركيا: تاريخ وثقافة (بالتركية)، سميح جيحان (تحرير)، ٢٠١٥.
مرشد الشيوخ الثلاثة: الخلوتية وفرع الرمضانية وكوستندلي علي علاء الدين أفندي (بالتركية)، سميح جيحان، ٢٠١٥
تراث الحواشي في التفسير وحاشية شيخ زاده على أنوار التنزيل (بالتركية)، شكري معدن، ٢٠١٥
فهرس الوقفيات لسجلات محاكم إستانبول الشرعية (بالتركية)، إعداد: ب. آيدين، إ. يورداقول، آ. ايشيق، إ. قورت، أ. ييلديز، ٢٠١٥.
كتاب القواعد الكلّيّة في جملة من الفنون العلميّة، محمد الإصفهاني، تحقيق: منصور كوشينكاغ - بلال تاشقين، ٢٠١٧.
عضد الدين الإيجي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، أشرف آلطاش (تحرير)، ٢٠١٧.
القاضي البيضاوي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، مستقيم آريجي (تحرير)، ٢٠١٧.
العلاقة بين النحو وأصول الفقه (بالتركية)، عثمان كومان، ٢٠١٧.
سلامة الإنسان في محافظة اللسان، ميرزا زاده محمد سالم، تحقيق: مراد صولا، ٢٠١٨.
معاني الأسماء الإلهيّة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
شرح الفاتحة وبعضِ سورة البقرة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
دليل تحقيق النصوص لمركز البحوث الإسلامية (إسام) (بالتركية)، إعداد: أوقان قدير يلماز، ٢٠١٨.
شيخ بدر الدين: فقيه عثماني (بالتركية)، مصطفى بولند داداش، ٢٠١٨.
رسالة في أدب المفتي، محمد فقهي العيني، تحقيق: عثمان شاهين، ٢٠١٨.
كتاب تقريب الغريب، قاسم بن قطلوبغا، تحقيق: عثمان كسكين‌أر، ٢٠١٨.
كشف الأسرار وهتك الأستار، يوسف بن هلال الصفدي، تحقيق: بهاء الدين دارما، ١-٥، ٢٠١٩.
تراث الكشاف: أثر الكشاف للزمخشري في تراث التفسير (بالتركية) مَحمَد طه بُويالِق، ٢٠١٩.
التسهيل شرح لطائف الإشارات، الشيخ بدر الدين، تحقيق: مصطفى بُولَنْدْ دَادَاش، ١-٣، ٢٠١٩.
جامع الأصول، ركن الدين السمرقندي، تحقيق: عصمت غريب الله شِمْشَك، ١-٢، ٢٠٢٠.
تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد - حاشية التجريد - منهوات الجرجاني والحواشي الأخرى، محمود الإصفهاني - الجرجاني، تحقيق: أ. آلطاش، م. علي قُوجَا، ص. كونْ آيْدِن، م. يتيم، ١-٣، ٢٠٢٠؛ ١-٢، ٢٠٢١.
لبّ الأصول، ابن نجيم، تحقيق: محمد فال السيد الشنقيطي، ٢٠٢٠.
التسديد في شرح التمهيد، السغناقي، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ١-٢، ٢٠٢٠.
نظام الحقوق العثماني: أساس الدولة العلية، مَحمَد عاكف آيدن (بالتركية)، ٢٠٢٠.
نظرية الجسم في الفلسفة الإسلامية: تراث حكمة العين، مَحمَد سامي باغا (بالتركية)، ٢٠٢٠.
تراث الشروح والحواشي في كتابة السير: مُغْلَطاي بن قليج نموذجًا، كُولْلُو ييلديز (بالتركية)، ٢٠٢٠.
علي القوشجي مفسّرًا، مَحمَد جِيجَك (بالتركية)، ٢٠٢١.
حاشية علي القوشجي على شرح الكشاف للتفتازاني، علي القوشجي علاء الدين علي بن محمد السمرقندي، تحقيق: مَحمَد جِيجَك، ٢٠٢١.
شرح عقود رسم المفتي، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحسيني الدمشقي، تحقيق: شَنُول صَيْلان، ٢٠٢١.
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: محمد طه بويالق، أحمد أيتب، ضياء الدين القالش، محمد عماد النابلسي، ١-٩، ٢٠٢١.

مركز البحوث الإسلامية
إستانبول
سِلْسِلَةُ عيُونِ التُّرَاثِ الإسْلَامِيِّ



تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/١٥٧٤م)

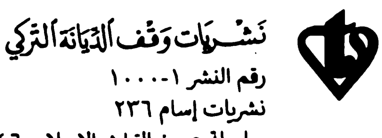
يُنشر لأوّل مرّة عن نُسخة المؤلّف مع منهواته (تعليقاته) بخطّ يده

تحقيق
أ. م. محمد طه بويالق — أحمد أيتب
أ. م. ضياء الدين القالش — محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ. م. محمد طه بويالق

المجلد الثاني

نشريات وقف الديانة التركي



رقم النشر ١-١٠٠٠٠
نشريات إسام ٢٣٦
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٤٦

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي

المجلد الثاني

تحقيق محمد طه بُوبَالِق - أحمد أَيْنَبْ [المقدمة - البقرة ٩٨؛ النساء - التوبة]
ضياء الدين القَالِش [البقرة ٩٩ - آل عمران ٣٢؛ يونس - هود؛ الحجر - طه؛ الذاريات - الناس]
محمد عماد النابلسي [آل عمران ٣٣-٢٠٠؛ يوسف - إبراهيم؛ الأنبياء - ق]

تم إعداد كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق
بمركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.



İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سُعَادْ مَرْتْ أوغْلُو
إشراف الطبع أَرْدَالْ جَساز
تحرير قسم التحقيق أوقَانْ قَدير يِلْمازْ
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَمِيرْآيْ
تنقيح الأسلوب والصياغة لقسم الدراسة (التركي) مَتِين قَرَه بَاشْ أوغْلُو
الترجمة (العربي) مروة داغستاني بازِسِيكْ
التصحيح (العربي) سعيد قاياجي، منذر شيخ حسن، محمد شاهين
(التركي) عيسى قايا أَلْبْ، عبد القادر شَنَلْ، عنايت بَبَكْ
التصميم علي حيدر أولُوصُويْ، إبراهيم درويش مؤذن (تطبيق)،
حسن حسين جَانْ (غلاف)، رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر منذر شيخ حسن، سماء دُوغانْ

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام/ İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجَايْ بَاشْ أوغْلُو

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
بتاريخ ٢٠٢٠/٠٦/٠١ ورقم ٢٠٢٠/٠٥.

الطبعة الأولى: أنقرة، يوليو ٢٠٢١م / ١٤٤٢هـ
ISBN 978-625-7581-31-8 (مجموعة)
978-625-7581-33-2 (المجلد الثاني)

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.




Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم / شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي؛ التحقيق: محمد طه بُوبَالِق، أحمد أَيْنَبْ، ضياء الدين القَالِش، محمد عماد النابلسي. – أنقرة: وقف الديانة التركي، ٢٠٢١. المجلد الثاني، ٥٦٠ صفحة؛ ٢٤ سم. – (نشريات وقف الديانة التركي؛ ١-١٠٠٠٠. نشريات إسام؛ ٢٣٦. سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٤٦)
يحتوي على الفهارس والمصادر
ISBN 978-625-7581-31-8 (مجموعة) 978-625-7581-33-2 (المجلد الثاني)

فهرس المحتويات

سورة آل عمران

مدنيّة، وهي[1] مائتا آيةٍ.[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾

﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قد سلف أنّ ما لا تكون مِن هذه الفواتح مفرَدةً كـ"صاد" و"قاف" و"نون"، ولا موازِنةً لمفردٍ كـ"حاميم" و"طاسين" و"ياسين" الموازنةِ لـ"قابيل" و"هابيل"، وكـ"طاسين ميم" الموازنةِ لـ"دارابْجِرْد" حسبما ذَكَره سيبويهِ في **الكتاب**،[3] فطريقُ[4] التلفّظ بها الحكايةُ فقط، ساكنةَ الأعجاز على الوَقْف، سواءً جُعِلت أسماءً أو مسرودةً على نمط التعديد وإن لزِمها التقاءُ الساكنين؛ لِما أنّه مغتفَر في باب الوقف قطعًا.[5] فحقُّ هذه الفاتحة أن يوقَف عليها ثمّ يُبدَأ بما بعدها، كما فعله أبو بكر[6] روايةً عن عاصم.[7]

وأمّا ما فيها مِن الفتح على القراءة المشهورة،[8] فإنّما هي حركة همزة الجلالة أُلقيَت على الميم لتدلّ على ثبوتها، إذ ليس إسقاطها للدَّرْج؛ بل للتخفيف،

---

١ ي – مدنيّة، وهي.

٢ س – وهي مائتا آية؛ س + وآيها مائتان.

٣ وفي هامش ط ي أ: وقد(١) نُقل في فاتحة سورة البقرة. «منه». | (١) هامش ي: هذا. | انظر: **كتاب سيبويه**، ٢٥٨/٣، وجاء لفظ "درابْجرد" مِن غير ألف بعد الدال، وجاء لفظها بتلك الألف في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٤/١؛ و**معجم البلدان** للحموي، ٤١٩/٢، وفيه أنّ دارابْجِرد: ولاية بفارس يُنسَب إليها كثير مِن العلماء.

٤ السياق: أنّ ما لا تكون... فطريق التلفّظ...

٥ مضى في أوّل سورة البقرة. وانظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٣٤/١-٤٠.

٦ هو شعبة بن عيّاش بن سالم الأسدي الكوفي، أبو بكر الحنّاط (ت. ١٩٣هـ/٨٠٩م). واختُلف في اسمه على ثلاثة عشر قولًا أصحُّها شُعبة. المُقرئ المشهور الفقيه المحدِّث. عرض القرآن على عاصم بن أبي النَّجود وعطاء بن السائب وأسلم المنقري. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٩٥/٨-٥٠٨؛ و**غاية النهاية** لابن الجزري، ٣٢٥/١-٣٢٦.

٧ انظر: **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٠٠.

٨ انظر: **السبعة** لابن مجاهد، ص ٢٠٠.

فهي ببقاء حركتها في حُكم الثابت المبتدَإِ به، والميمُ بكون الحركة لغيرها في حُكم الوقف على السكون دون الحركة، كما تُوهِّم. واعتُرض بأنّه غيرُ معهود في الكلام.[١] وقيل: هي[٢] حركة لالتقاء السواكن التي هي الياء والميم ولام الجلالة بعد سقوط همزتها.[٣] وأنت خبير بأنّ سقوطها مَبنيّ على وقوعها في الدَّرْج، وقد عرفتَ أنّ سكون الميم وَقفيٌّ موجِب لانقطاعها عمّا بعدها مستدعٍ لثبات الهمزة على حالها، لا كما في الحروف والأسماء المَبنيّة على السكون، فإنّ حقّها الاتّصال بما بعدها وضعًا واستعمالًا، فتَسقط بها همزة الوصل، وتُحرَّك أعجازها لالتقاء الساكنَين.

ثمّ إن جُعلت مَسرودةً على نمط التعديد، فلا محلّ لها مِن الإعراب كسائر الفواتح. وإن جُعلت اسمًا للسورة، فمحلُّها إمّا الرفع على أنّها[٤] خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وإمّا النصب على إضمار فعل يَليق بالمقام كـ"اذكر" أو "اقرأ" أو نحوهما. وأمّا الرفع بالابتداء، أو النصبُ بتقدير فعل القَسم، أو الجرُّ بتقدير حرفه، فلا مَساغَ لشيء منها لِما أنّ[٥] ما بعدها غيرُ صالح[٦] للخبريّة، ولا للإقسام عليه؛ فإنّ الاسم الجليل مبتدأ، وما بعده خبرُه، والجملة مستأنَفة، أي: هو المستحِقّ للمعبوديّة لا غيرُ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ خبر[٧] آخرُ له، أو لمبتدأ محذوف، أي: هو الحيّ القيّوم لا غيرُ. وقيل: هو[٨] صفة للمبتدأ، أو بدل منه، أو مِن الخبر الأوّل، أو هو الخبر، وما قبله اعتراض بين المبتدأ والخبر مقرِّر لِما يفيده الاسم الجليل، أو حال منه.[٩] وأيًا ما كان فهو كالدليل على اختصاص استحقاق

---

١ ونسب أبو حيّان القول بالوقف على الحركة إلى الزمخشري، ورَدّ ذلك على أنّه له. ثمّ بيّن السمين الحلبي أنّ ذلك لا يُفهم مِن كلام الزمخشري. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١/٢٥٧؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣/١٠؛ و**الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٣/٧-٩؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥/٦.

٢ ي – هي.

٣ انظر: **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٣/١٧؛ و**اللباب** لابن عادل، ٥/٤-٥.

٤ ي: أنّه.

٥ ي + أنّ.

٦ ي: صالحة.

٧ ي: خبرًا.

٨ ي – هو.

٩ انظر هذه الأعاريب في **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٢/٥٣٩ (البقرة، ٢/٢٥٥)؛ و**اللباب** لابن عادل، ٤/٣١٣-٣١٤ (البقرة، ٢/٢٥٥).

المعبوديّة به سبحانه وتعالى لِما مرّ مِن أنّ معنى ﴿ٱلْحَىُّ﴾: الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء، ومعنى ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: الدائمُ القيامِ بتدبير الخلق وحفظِه، ومِن ضرورة اختصاصِ ذَيْنك الوصفين به تعالى اختصاصُ استحقاق المعبوديّة به تعالى لاستحالة تحقّقِه بدونهما.

وقد رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «اسمُ الله الأعظمِ في ثلاث سوَر:[١] في سورة البقرة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة، ٢/٢٥٥]، وفي آل عمران ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وفي طه ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه، ٢٠/١١١]».[٢] ورُوي أنّ / بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام عن اسم الله [٨٦و]
الأعظم، قال: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. ويُروى أنّ عيسى عليه السلام كان إذا أراد إحياء الموتى يدعو "يا حيُّ يا قيُّوم". ويقال: إنّ آصف بن برخيا حين أتى بعرش بِلْقيس دعا بذلك.[٣] وقُرئ: "الحَيُّ القَيَّامُ".[٤]

وهذا ردٌّ على مَن زعَم أنّ عيسى عليه السلام كان ربًّا. فإنّه[٥] رُوي أنّ وفد نجران قدِموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا ستّين راكبًا فيهم أربعةَ عشرَ رجلًا مِن أشرافهم، ثلاثةٌ منهم أكابرُ إليهم يئُول أمرُهم: أحدُهم: أميرُهم وصاحبُ مشورتهم العاقبُ، واسمُه عبدُ المسيح، وثانيهم: وزيرُهم ومُشيرُهم السيِّد واسمُهُ الأيهَم، وثالثهم: حَبرُهم وأُسقُفّهم وصاحبُ مِدْراسهم[٦] أبو حارثة بن عَلْقمة، أحدُ بني بَكْر بنِ وائل، وقد كان ملوك الرومِ شرّفوه ومَوَّلوه وأكرموه لِما شاهدوا مِن عِلمه واجتهاده في دينهم وبنَوا له كنائس،

---

١ ي: سورة.

٢ بلفظ قريب في المعجم الكبير للطبراني، ١٨٣/٨ (٧٧٥٨)؛ والمستدرك للحاكم، ٦٨٦/١ (١٨٦٦)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٢/١.

٣ خبر بني إسرائيل وعيسى عليه السلام وآصف في تفسير السمرقندي، ١٩٢/١؛ وتفسير القرطبي، ٢٧١/٣ (البقرة، ٢/٢٥٥)؛ واللباب لابن عادل، ٣١٥/٤ (البقرة، ٢/٢٥٥).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن الخطّاب وابن مسعود وحذيفة والنخَعي. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٧؛ والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٦٦.

٥ ي – فإنّه.

٦ المِدراس: البيت الذي يدرسون فيه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «درس».

فلما خرجوا مِن نجرانَ رِكِب أبو حارثة بغلتَه، وكان أخوه كُرْز بنُ علقمة[١] إلى جنبه، فبينا بَغْلة أبي حارثة تسير إذ عثَرت، فقال كُرز: «تعسًا للأبعَد»، يريد به رسولَ الله عليه السلام، فقال له أبو حارثة: «بل تَعِستْ أمُّك»، فقال كُرْز: «ولِمَ يا أخي؟» قال: «إنّه واللهِ النبيُّ الذي كنّا ننتظره»، فقال له كُرز: «فما يَمنعُك عنه وأنت تعلم هذا؟» قال: «لأنّ هؤلاء الملوكَ أعطَوْنا أموالًا كثيرةً وأكرمونا، فلو آمنّا به لأخذوا منّا كلَّها»، فوَقَع ذلك في قلب كُرز وأَضمَره إلى أن أَسلَم فكان يُحدِّث بذلك.

فأتَوا المدينة ثمّ دخلوا مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد صلاة العصر، عليهم ثيابُ الحِبَرات[٢] جُبَبٌ وأرديةٌ فاخرة، يقول بعضُ مَن رآهم مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «ما رأينا وفدًا مِثلَهم». وقد حانت صلاتُهم فقاموا ليصلُّوا في المسجد، فقال عليه السلام: «دَعُوهم»،[٣] فصلُّوا إلى المَشرِق.

ثمّ تكلّم أولئك الثلاثةُ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا تارةً: عيسى هو الله؛ لأنّه كان يُحيي الموتى، ويُبرِئ الأسقام، ويُخبِر بالغيوب، ويَخلُق مِن الطين كهيئة الطير فيَنفُخ فيه فيَطير؛ وتارةً أخرى: هو ابنُ الله، إذ لم يكن له أبٌ يُعلَم؛ وتارةً أخرى: إنّه ثالث ثلاثة، لقوله تعالى: فَعلْنا وَقُلْنا، ولو كان واحدًا لقال: فعلتُ وقلتُ. فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أسلِموا»، قالوا: «أَسلمْنا قبلك»، قال عليه السلام: «كذبتُم! يَمنعُكم مِن الإسلام دعاؤكم لله تعالى[٤] ولدًا»، قالوا: «إن لم يكن ولدًا لله فمَن أبوه؟» فقال عليه السلام: «ألستُم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا ويُشبِه أباه؟» فقالوا: «بلى»، قال: «ألستُم تعلمون

---

[١] هو كُرز بن علقمة بن هلال الخُزاعي (ت. نحو ٤٥هـ/٦٦٥م). صحابيّ مِن المعمَّرين، عاش زمنًا في الجاهليّة، وأسلم يوم فتح مكّة. وهو الذي قفا أثر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر رضي الله عنه حين جاءا إلى المدينة، فانتهى إلى باب الغار فقال: ههنا انقطع الأثر. وهو الذي وضع للناس معالم الحَرَم في زمن معاوية. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٥٨/٥؛ **والاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٣١١/٣؛ **والإصابة** لابن حجر، ٤٣٥/٥-٤٣٧.

[٢] الحِبَرات جمع حِبَرة: وهي ضرب مِن برود اليمن موشّاة مُخطّطة. انظر: **لسان العرب** لابن منظور، «حبر».

[٣] ط س: دعوه.

[٤] ي - تعالى.

أنّ ربّنا حيٌّ لا يَموت وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء؟» قالوا: «بلى»، قال عليه السلام: «ألستُم تعلمون أنّ ربّنا قيُّوم على كلّ شيء يَحفَظه ويَرزُقه؟» قالوا: «بلى»، قال عليه السلام: «فهل يَملِك عيسى مِن ذلك شيئًا؟» قالوا: «لا»، فقال عليه السلام: «ألستُم تَعلمون أنّ الله تعالى[١] لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟» قالوا: «بلى»، قال عليه السلام: «فهل يعلم عيسى مِن ذلك إلّا ما عُلِّم؟» قالوا: «لا»، قال عليه السلام: «ألستُم تعلمون أنّ ربّنا صوَّر عيسى في الرَّحِم كيف شاء،[٢] وأنّ ربّنا لا يَأكُل ولا يَشرَب ولا يُحْدِث؟» قالوا: «بلى»، قال عليه السلام: «ألستُم تَعلمون أنّ عيسى حَملتْه أمُّه كما تَحمِل المرأة، ووضعَته كما تضَع المرأةُ ولدها، ثمّ غُذّي كما يُغذّى الصبيُّ، ثمّ كان يَطعَم الطعام ويشرَب الشراب ويُحْدِثُ الحدثَ؟»[٣] قالوا: «بلى»، قال عليه السلام: «فكيف يكون هذا كما زعمتُم؟» فسكتوا فأبَوا إلّا جُحودًا، فأنزل الله عزّ وجلّ مِن أوّل السورة إلى نيِّف وثمانين آيةً.[٤] تقريرًا لِما احتجّ به عليه السلام عليهم، وأجاب به عن شُبَهِهم، وتحقيقًا للحقّ الذي فيه يَمترون.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ③﴾

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: القرآنَ، عُبّر عنه باسم الجنس إيذانًا بكمال تَفوُّقه على بقيّة الأفراد في حِيازة كمالات الجنس، كأنّه هو الحقيق بأن يُطلَق عليه اسم الكتاب دون ما عداه، كما يُلوِّح به التصريحُ باسمي **التوراة والإنجيل**. وصيغة التفعيل للدلالة[٥] على التفخيم.[٦] وتقديم الظرف على المفعول لِما مرّ مِن الاعتناءِ بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر. والجملة إمّا[٧] مستأنَفة، أو خبر آخرُ عن[٨] الاسم الجليل، أو هي الخبر. وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾... إلخ، اعتراض أو حال،

---

١ ي – تعالى.
٢ ي: يشاء.
٣ ي – الحدث.
٤ مِن قوله: "فإنّه رُوي أنّ وفد نجران" بمعناه عن الكلبي والربيع في جامع البيان للطبري، ٥/١٧١-١٧٤؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢/٥٨٥. وعنهما بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢/٥.
٥ ي: للدالة.
٦ ي: التنجيم.
٧ ي – إمّا.
٨ ط: مِن.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ صفة أو بدل كما مرّ. وقُرئ: "نَزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابُ" بالتخفيف ورفعِ "الكتاب"،[١] فالظاهر حينئذ أن تكون مستأنفة. وقيل: يجوز كونها خبرًا بحذف العائد،[٢] أي: نزَل الكتابُ مِن عنده.

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ حال مِن الفاعل أو المفعول، أي: نزَّله مُحِقًّا في تنزيله على ما هو عليه، أو ملتبِسًا بالعدل في أحكامه، أو بالصدق في أخباره التي مِن جملتها خبرُ التوحيد وما يَليه، وفي وعده ووعيدِه، أو بما يُحقِّق[٣] أنّه مِن عند الله تعالى مِن الحُجج البيِّنة.

﴿مُصَدِّقٗا﴾ حال مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بالاتّفاق، على تقدير كون قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ حالًا مِن فاعل ﴿نَزَّلَ﴾. وأمّا على تقدير حاليّته مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فهو عند مَن يُجوِّز تعدّد الحال بلا عطف ولا بدليّة حالٌ منه بعد حال. وأمّا عند مَن يَمنعه فقد قيل: إنّه حال مِن محلّ الحال الأولى على البدليّة. وقيل: مِن المستكِنّ في الجارّ والمجرور؛[٤] لأنّه حينئذ يتحمّل ضميرًا لقيامه مقامَ عاملِه المتحمِّل له، فيكون حالًا متداخِلةً. وعلى كلّ حال فهي حال مؤكِّدة. وفائدة تقييد التنزيل بها حثُّ أهل الكتابَين على الإيمان بالمنزَّل، وتَنبيهُهم على وجوبه؛ فإنّ الإيمان بالمصدَّق موجِبٌ للإيمان بما يصدِّقه حتمًا.

﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مفعول لـ﴿مُصَدِّقٗا﴾، واللام دِعامة لتقوية العمل، نحوُ ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود، ١١/١٠٧]، أي: مصدِّقًا لِما قبله مِن الكُتب السالفة. وفيه إيماء إلى حضورها وكمالِ ظهور أمرِها بين الناس. وتصديقه إيّاها في الدعوة إلى الإيمان والتوحيد، وتنزيهِ الله عزّ وجلّ عمّا لا يليق بشأنه الجليل، والأمرِ بالعدل والإحسان، وكذا في أنباء الأنبياءِ والأمم الخالية، وكذا في نزوله على النعت المذكور فيها، وكذا في الشرائع التي لا تَختلِف باختلاف الأمم والإعصار،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والنخَعي. انظر: شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٥؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٧.

٢ هذا القول في التبيان للعُكبَري، ١/٢٣٥-٢٣٦؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/١٥؛ واللباب لابن عادل، ٥/١٣.

٣ ط: تحقُّق.

٤ الوجوه الثلاثة في التبيان للعُكبَري، ١/٢٣٦؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/١٥؛ واللباب لابن عادل، ٥/١٤.

ظاهرٌ[١] لا ريبَ فيه. وأمّا ما[٢] في الشرائع المختلفة باختلافهما فمِن حيث إنّ أحكام كلّ / واحدٍ منها واردةٌ حسبما تَقتضيه الحِكمة التشريعيّة بالنسبة إلى خصوصيّات الأُمَم المكلَّفة بها،[٣] مشتمِلةٌ على المصالح اللائقة بشأنهم. [٨٦ظ]

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ تعيين لِما بين يديه وتبيين لرِفعة مَحلِّه، تأكيدًا لِما قبله وتمهيدًا لِما بعده؛ إذ بذلك يترقّى شأنُ ما يُصدِّقه رِفعةً ونباهةً، ويَزداد في القلوب قَبولًا ومَهابةً، ويَتفاحَش حالُ مَن كفَر بهما في الشَّناعة واستتباعِ ما سيُذكر مِن العذاب الشديد والانتقام، أي: أَنزَلهما جُملةً على موسى وعيسى عليهما السلام، وإنّما لم يُذكَرا؛ لأنّ الكلام في الكتابين لا فيمَن أُنزِلا عليه. وهما اسمان أعجميّانِ: **الأوّل** عِبريّ، والثاني سريانيّ.[٤] ويَعضُده القراءةُ بفتح همزةِ "الأنجيل"؛[٥] فإنّ "أَفْعِيل" ليس مِن أبنية العربِ.[٦] والتصدّي لاشتقاقهما مِن "الوري" و"النجْل" تَعسّفٌ.[٧]

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾

﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلِّق بـ﴿أَنزَلَ﴾، أي: أنزلهما مِن قَبْل تنزيل الكتاب. والتصريح به مع ظهور الأمر للمبالغة في البيان. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ في حيّز النصب على أنّه عِلّة للإنزال، أي: أنزلهما لهداية الناس، أو على أنّه حال منهما، أي: أنزلهما حالَ كونهما هُدًى لهم. والإفراد لِما أنّه مَصدر، جُعلا نفس الهُدى مبالغةً، أو حُذف منه المُضاف، أي: ذَوَيْ[٨] هُدى. ثُمّ إن أُريد هِدايتهما بجميع ما فيهما

---

١ خبر "تصديقُه".
٢ ط ي - ما.
٣ وفي هامش ي: الباء لتضمين التكليف معنى الأمر. «منه».
٤ انظر: **التفسير البسيط** للواحدي، ٢٨/٥؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٢٥٧/١؛ **والمُعرَّب** للجواليقي، ص ١٢٣؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٤٣/١.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحَسَن. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٥.
٦ انظر هذا الاستدلال في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٥٧/١؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٤٣/١.
٧ هذا الردُّ في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٤٣/١. وذهب إلى اشتقاقه الزجّاج في **معاني القرآن وإعرابه**، ٣٧٤/١-٣٧٥؛ وابن دريد في **جمهرة اللغة**، ٤٩٢/١ «نجل». وانظر لتفصيل الكلام في اشتقاقهما: **التفسير البسيط** للواحدي، ٢٨/٥؛ **والمُعرَّب** للجواليقي، ص ١٢٣.
٨ ي: ذوا.

مِن حيث هو جميع، فالمراد بـ"الناس" الأُمَم الماضية مِن حين نزولهما إلى زمان نسخِهما، وإن أُرِيد هدايتهما على الإطلاق -وهو الأنسَب بالمقام- فـ"الناس" على عمومه لِما أنّ هدايتهما بما عدا الشرائعَ المنسوخةَ مِن الأمور التي يُصدِّقهما القرآن فيها -ومِن جملتها البِشارةُ بنزوله وبمَبعَث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم- تعمُّ الناس قاطبة.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ في الأصل مَصدر كالغُفران أُطلِق على الفاعل مبالغةً، والمراد به ههنا:

إمّا جِنس الكتب الإلهيّة، عُبّر عنها بوصف شامل لِما ذُكِر منها وما لم يُذكَر، على طريق التتميم بالتعميم إثرَ تخصيصٍ بعضٍ مشاهيرها بالذِّكر، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا﴾ [عبس، ٨٠/٢٧-٢٨] إلى قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً﴾ [عبس، ٨٠/٣١].

وإمّا نفسُ الكتب المذكورة أُعِيد ذكرها بوَصْف خاصّ لم يُذكَر فيما سبق، على طريقة العطف بتكرير لفظِ الإنزال، تنزيلًا للتغايُر الوصفيّ مَنزلةَ التغايُر الذاتيّ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ١١/٥٨].

وإمّا الزبورُ فإنّه مشتمِل على المَواعظ الفارقة بين الحقّ والباطل، الداعية إلى الخير والرَّشاد، الزاجرة عن الشرّ والفساد. وتقديم الإنجيل عليه مع تأخُّره عنه نزولًا لقُوَّة مناسَبته للتوراة في الاشتمال على الأحكام والشرائع، وشيوع اقترانهما في الذِّكر.

وإمّا القرآنُ نفسُه ذُكِر بنعت مادح له بعد ما ذُكِر باسم الجنس تعظيمًا لشأنه ورفعًا لمكانه. وقد بيّن أوّلًا تنزيلَه التدريجيَّ إلى الأرض، وثانيًا إنزالَه الدفعيّ إلى السماء الدنيا. أو أُرِيد بـ"الإنزال" القَدْر المشترك العاري عن قيد التدريج وعدمِه.

وإمّا المعجزاتُ المقرونةُ بإنزال الكتب المذكورة، الفارقة بين المُحقّ والمُبطِل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وُضع مَوضِع الضمير العائد إلى ما فُصِّل مِن الكتب المُنزَلة، أو منها ومِن المعجزات الآيات مُضافَة إلى الاسم الجليل

تعيينًا لحيثيّة كُفرِهم، وتهويلًا لأمرهم، وتأكيدًا لاستحقاقهم العذابَ الشديد، وإيذانًا بأنّ ذلك الاستحقاق لا يُشترَط فيه الكفرُ بالكُلّ؛ بل يكفي فيه الكفرُ ببعضٍ منها. والمراد بالموصول إمّا أهلُ الكتابين، وهو الأنسبُ بمقام المُحاجّة معهم، أو جنسُ الكفَرة، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا، أي: إنّ[١] الذين كفروا بما ذُكِر مِن آيات الله الناطقة بالحقّ، لاسيّما بتوحيده تعالى وتنزيهه عمّا لا يَليق بشأنه الجليل كلًا أو بعضًا، مع ما بها مِن النعوت الموجِبة للإيمان بها، بأن كذّبوا بالقرآن أصالةً وبسائر الكتُب الإلهيّة تبَعًا، لِما أنّ تكذيب المصدِّق موجِب لتكذيب ما يُصدِّقُه حتمًا وأصالةً أيضًا، بأن كذّبوا بآياتها الناطقة بالتوحيد والتنزيه وآياتِها المبشِّرة بنزول القرآن ومَبعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وغيِّروها.

﴿لَهُمْ﴾ بسبب كُفرهم بها[٢] ﴿عَذَابٌ﴾ مرتفِع، إمّا على الفاعليّة مِن الجارّ والمجرور، أو على الابتداء، والجملة خبر "إنّ"، والتنوينُ للتفخيم، أي: أيُّ عذاب؟ عذابٌ[٣] ﴿شَدِيدٌ﴾ لا يُقادَر قَدْره، وهو وعيد جِيء به إثرَ تقرير أمْر التوحيد الذاتيّ والوصفيّ، والإشارةِ إلى ما يَنطِق بذلك مِن الكتب الإلهيّة، حَمْلًا على القَبول والإذعان وزَجْرًا عن الكفر والعصيان.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغالَب، يَفعَل ما يشاء ويَحكُم ما يريد. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ عظيمٍ خارج عن أفراد جنسه. وهو افتعال مِن النِّقْمة: وهي السَّطْوة والتسلُّط، يُقال: انتقم منه إذا عاقبه بجِنايته. والجملة اعتراض تذييليّ مقرِّر للوعيد ومؤكِّد له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ استئناف كلامٍ سِيق لبيان سَعة عِلمه تعالى، وإحاطتِه بجميع ما في العالَم مِن الأشياء التي مِن جملتها ما صدَر عنهم مِن الكُفر والفُسوق سِرًّا وجَهْرًا إثرَ بيان كمال قُدرته وعِزَّتِه، تربيةً لِما قبله مِن الوعيد، وتنبيهًا على أنّ الوقوف على بعض المغيَّبات كما كان

---

[١] ي - إنّ.
[٢] ي - بها.
[٣] ي - عذاب.

في عيسى عليه السلام بمَعزِل مِن بُلوغ رُتبة الصفات الإلهيّة. وإنّما عُبّر عن عِلمه عزّ وجلّ بما ذُكِر بعدم خفائِه عليه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم، ٣٨/١٤]؛ إيذانًا بأنّ عِلمه تعالى بمَعلوماته -وإن كانت في أقصى الغايات الخفيّةِ- ليس مِن شأنه أن يكون على وجه يُمكِن أن تُقارِنه شائبةُ خفاءٍ بوَجْه مِن الوجوه، كما في علوم المخلوقين؛ بل هو في غاية الوضوح والجلاءِ.

والجملة المنفيّة خبر لـ﴿إِنَّ﴾، وتكريرُ الإسنادِ لتقوية الحُكم. وكلمة ﴿فِى﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً / لـ﴿شَىْءٌ﴾ مؤكِّدةً لعُمومه المستفاد مِن وقوعه في [٨٧و]
سياق النفي، أي: لا يَخفى عليه شيء ما كائنٌ في الأرض ولا في السماء أعمُّ مِن أن يكونَ ذلك بطريق الاستقرار فيهما أو الجزئيّة[1] منهما. وقيل: متعلِّقة بـ﴿يَخْفَىٰ﴾.[2] وإنّما عُبّر بهما عن كلّ العالَم لأنّهما قُطْراه. وتقديم ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلِها. وتوسيط حرفِ النفي بينهما للدلالة على الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى، باعتبار القُرب والبُعد منّا المستدعِيَين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ جملة مستأنَفة ناطقة ببعض أحكام قيّوميّته تعالى وجَرَيانِ أحوال الخلق في أطوار الوجود حسب مَشيئته تعالى[3] المَبنيّة على الحِكم البالغة، مقرِّرةٌ لكمال عِلمه، مع زيادة بيانٍ لتعلُّقه بالأشياء قبل دخولِها تحت الوجود، ضرورةَ وجوبِ عِلمه تعالى بالصُّور المختلفة المترتِّبة على التصوير المترتِّب على المشيئة قبل تحقّقها بمَراتبَ.

وكلمة ﴿فِى﴾ متعلِّقة بـ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ضمير المفعول، أي: يُصوِّركم وأنتم في الأرحام مُضَغ. و﴿كَيْفَ﴾ معمول لـ﴿يَشَآءُ﴾.

---

١ ي: والجزئيّة.

٢ في التبيان للعُكبري، ٢٣٧/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٥/٥.

٣ ط س – تعالى.

والجملة في محلّ النصب على الحاليّة، إمّا مِن فاعل ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾، أي: يُصوِّركم كائنًا على مَشيئته تعالى، أي: مريدًا، أو مِن مفعوله، أي: يُصوِّركم كائنين على مَشيئته تعالى تابعين لها في قَبول الأحوال المتغايرة، مِن كونكم نُطَفًا ثمّ عَلَقًا ثمّ مُضَغًا غيرَ مخلَّقة ثمّ مخلَّقة، وفي الاتّصاف بالصفات المختلِفة مِن الذُّكورة والأُنوثة والحُسن والقُبح وغير ذلك مِن الصفات. وفيه مِن الدلالة على بُطلان زَعْم مَن زَعَم رُبوبيّة عيسى عليه السلام، وهو مِن جملة أبناءِ النواسِيت[١] المتقلِّبين في هذه الأطوار على مَشيئة الباري عزّ وعلا، وكمالِ ركاكةِ عقولِهم ما لا يخفى. وقُرِئ: "تَصَوَّرَكُمْ" على صيغة الماضي،[٢] مِن التفعُّل، أي: صوَّركم لنفسه وعبادتِه.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يتَّصِف بشيء ممّا ذُكِر مِن الشئون العظيمة الخاصّة بالألوهيّة أحدٌ، ليُتوهَّم ألوهيّتُه. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المتناهي في القدرة والحِكمة، ولذلك يَخلقُكم على ما ذُكِر مِن النمط البديع.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ شروع في إبطال شُبَهِهم الناشئة عمّا نَطَق به القرآن في نَعْت عيسى عليه السلام بطريق الاستئناف، إثرَ بيان اختصاص الربوبيّةِ ومَناطِها به سبحانه وتعالى[٣] تارةً بعد أخرى، وكونِ كلِّ مَن عداه مَقهورًا تحت مَلَكوته تابعًا لمشيئته.

قيل: إنّ وفد نجرانَ قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ألستَ تَزعُم يا محمّد أنّ عيسى كلمة الله ورُوح منه؟» قال عليه السلام: «بلى»، قالوا:

---

[١] النواسيت جمع الناسوت: وهو مِن منازل الخلائق، وتنطبق عليه جميع الأوصاف الحيوانيّة؛ إذ يطلق على الطبيعة البشريّة. انظر: **كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم** للتهانوي، ١/٥٥٠.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طاوس. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٥-٢٦.

[٣] ي - وتعالى.

«فحَسبُنا ذلك».[١] فنُعيَ عليهم زيغهم وفتنتهم وبُيِّن أنّ الكتاب مؤسَّس على أصول رَصينة وفروع مَبنيّة عليها ناطقةٍ بالحقّ قاضيةٍ ببُطلان ما هم عليه مِن الضلال.

والمراد بـ"الإنزال" القَدْر المشترَك المجرّد عن الدلالة على قَيْد التدريج وعدمِه. ولام ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهد، وتقديمُ الظرف عليه لِما أُشِير إليه فيما قبل مِن الاعتناء بشأن بِشارته عليه السلام، بتشريف الإنزال عليه، ومِن التشويق إلى ما أُنزِل. فإنّ النفس عند تأخير ما حقُّه التقديم -لاسيّما بعد الإشعار برِفعة شأنه أو بمَنفعتِه- تبقى مترقِّبة له؛ فيَتمكّن لديها عند وُروده عليها فَضْلَ تمكّن، وليتَّصل به تقسيمه إلى قسميه.

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ﴾ الظرف خبر، و﴿ءَايَٰتٌ﴾ مبتدأ، أو بالعكس، بتأويلٍ مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ الآية [البقرة، ٨/٢]. **والأوّل** أوفَق بقواعد الصناعة، **والثاني** أدخَل في جزالة المعنى؛ إذ المقصود الأصليّ انقسام الكتاب إلى القِسمين المعهودين، لا كونُهما مِن الكتاب، فتَذكَّرْ. والجملة مستأنَفة، أو في حيّز النصب على الحاليّة مِن ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: هو الذي أنزَل الكتابَ كائنًا على هذه الحال، أي:[٢] منقسِمًا إلى محكَم ومتشابِه. أو الظرف هو الحال وحدَه، و﴿ءَايَٰتٌ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة. ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾ صفةٌ ﴿ءَايَٰتٌ﴾، أي: قطعيّة الدلالة على المعنى المراد، محكَمة العبارة، محفوظةٌ مِن الاحتمال والاشتباه.

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصل فيه وعمدة يُردّ إليها غيرُها. فالمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ كلُّه. والإضافة بمعنى "في"، كما في "واحدِ العَشرةِ"، لا بمعنى اللام؛ فإنّ ذلك يُؤدّي إلى كون ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عبارةً عمّا عدا المحكَمات. والجملة إمّا صفة لِما قبلها، أو مستأنَفة. وإنّما أُفرِد "الأمّ" مع تعدّد الآيات لِما أنّ المراد بيانُ أصليّة كلّ واحدة منها، أو بيانُ أنّ الكلّ بمَنزلة آية واحدة، كما في قوله تعالى:

---

[١] لم أجِده بهذا اللفظ في مظانّه. وهو عن الربيع بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣/٨.

[٢] ي - أي.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ٩١/٢١]. وقيل: اكتُفيَ بالمفرد عن الجمع، كما في قول الشاعر:[١]

بها جِيَفُ الحَسْرى فأمّا عِظامُها فبِيضٌ وأمّا جِلْدُها فصَليبُ[٢]

أي: وأمّا جُلودها.[٣]

﴿وَأُخَرُ﴾ نَعْت لمحذوف معطوف على ﴿ءَايَٰتٌ﴾، أي: وآيات أُخَر، وهي جَمْع "أُخرى". وإنّما لم يَنصرِف؛ لأنّه وصف مَعدولٌ مِن "الآخَر" أو مِن "آخَر مِن". ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ صفة لـ﴿أُخَرُ﴾، وفي الحقيقة صفة للمحذوف، أي: محتمِلات لمَعانٍ متشابِهة لا يَمتاز بعضها مِن بعض في استحقاق الإرادة بها، ولا يتّضح الأمر إلّا بالنظر الدقيق والتأمّل الأنيق، فالتشابه في الحقيقة وصف لتلك المعاني، وُصِفَ به الآياتُ على طريقة وَصْف الدالّ بوصف المدلول.

وقيل: لمّا كان مِن شأن الأمور المتشابِهة أن يَعجِز العقل عن التمييز بينها سُمِّي كلّ ما لا يَهتدي إليه العقل متشابهًا، وإن لم يكن ذلك بسبب التشابه. كما أنّ المشكِل في الأصل ما دخل في أشكاله وأمثاله ولم يُعلَم بعينه، ثمّ أُطلِق على كلّ غامضٍ وإن لم يكن غُموضُه مِن تلك الجهة.[٤]

وإنّما جُعِل ذلك كذلك ليظهر فضل العلماء ويزدادَ حِرصهم على الاجتهاد في تدبّرها وتحصيل العلوم التي نِيط بها استنباط ما أُرِيد بها مِن الأحكام الحَقّة،

---

١ القول مع التمثيل بالبيت عليه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٥/٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٩/٥.

٢ البيت لعلقمة بن عَبَدة المُلقَّب بالفَحل في ديوانه بشرح الشَّنتمَري، ص ٤٠؛ والمفضَّليّات للمُفضَّل الضَّبّي، ص ٣٩٤؛ وكتاب سيبويه، ٢٠٩/١؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٥٥٩/٧. ونُسِب إلى الراعي النُّميري في الكشف والبيان للثعلبي، ٩٥/٣ (البقرة، ٧/٢)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١١٥/٢ (البقرة، ٧/٢). وليس في أصل ديوان الراعي، وأورده مُحقِّقه في المُلحَق المنسوب خطأً إليه. انظر: ديوانه، ص ٢٩٩. والضمير في "بها" عائد إلى الطريق التي قطعها الشاعر في فلاة إلى الممدوح. والحسرى: الرواحل المُعيِية التي يتركها أصحابها فتموت. وجعل عظامها بيضًا لقدم عهدها. والصليب: اليابس الذي لم يُدبَغ. انظر: شرح الشنتمري على ديوان علقمة، ص ٤١.

٣ وهذا البيت شاهد على ما جاء فيه اللفظ مُفردًا بمعنى الجمع في كتاب سيبويه، ٢٠٩/١؛ ومعاني القرآن للأخفش، ٢٤٥/١ (النساء، ٤/٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٣٨٥/٦ (النساء، ٤/٤).

٤ انظر القول في اللباب لابن عادل، ٣٢/٥.

[٨٧ظ] فينالوا بها وبإتعاب القرائح / في استخراج مقاصدِها الرائقة ومعانيها اللائقة المَدارجَ العالية ويَعرِجوا بالتوفيق بينها وبين المحكَمات مِن اليقين والاطمئنان إلى المَعارج القاصية.

وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود، ١/١١]، فمعناه: أنّها حُفِظت مِن اعتراء الخَلَل أو مِن النَّسخ، أو أُيِّدت بالحُجَج القاطعة الدالّة على حَقِّيتها، أو جُعِلت حَكيمة لانطوائها على جلائل الحِكَم البالغة ودقائقها. وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر، ٢٣/٣٩]، معناه: متشابِه الأجزاء، أي: يُشبِه بعضُها بعضًا في صحّة المعنى وجزالةِ النظم وحَقّيّة المدلول.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ أي: مَيْل عن الحقّ إلى الأهواء الباطلة. «قال الراغب:[١] الزيغُ: المَيْل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين».[٢] وفي جعل قلوبهم مَقرًّا للزَّيغ مبالغةٌ في عُدولهم عن سَنن الرشاد وإصرارِهم على الشرّ والفساد. ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ مُعرِضين عن المحكَمات، أي: يتعلّقون بظاهر المتشابه مِن الكتاب، أو بتأويل باطل، لا تَحرِّيًا للحقّ بعد الإيمان بكونه مِن عند الله تعالى؛ بل ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي: طلبَ أن يَفتِنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكَم بالمتشابه، كما نُقِل عن الوفد.[٣] ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: وطلبَ أن يُئوِّلوه حسبما يَشتهونه مِن التأويلات الزائغة، والحال أنّهم بمَعزِل مِن تلك الرتبة. وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، فإنّه حال مِن ضمير ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ باعتبار العِلّة الأخيرة، أي: يتَّبعون المتشابه لابتغاء تأويله، والحالُ أنّه مخصوص به تعالى وبمَن وفَّقه له مِن عباده الراسخين في العلم، أي: الذين ثبَتوا وتمكّنوا فيه ولم يَتزلزلوا في مَزالّ الأقدام، وفي تعليل الاتّباع

---

١ هو الحسين بن محمّد بن المفضّل الأصفهاني، أبو القاسم (ت. ٥٠٢هـ/١١٠٨م). المعروف بالراغب. كان مِن أذكياء المتكلّمين. سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يُقرن بالإمام الغزّالي. مِن كتبه محاضرات الأدباء، والذريعة إلى مكارم الشريعة، والمفردات في غريب القرآن، وحلّ متشابهات القرآن، وتفصيل النشأتين. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٢٠/١٨؛ والأعلام للزركلي، ٢٥٥/٢.

٢ الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٧/٣؛ واللباب لابن عادل، ٣٥/٥. وهو بمعناه في مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٣٨٧.

٣ يقصد وفد نجران، ومضى خبرهم آنفًا.

بابتغاء تأويله دون نفسِ تأويلِه، وتجريدِ التأويل عن الوصف بالصحّة أو الحقّيّة إيذانٌ[١] بأنّهم ليسوا مِن التأويل في شيء، وأنّ ما يَبتغونه ليس بتأويل أصلًا، لا أنّه تأويل غيرُ صحيح قد يُعذَر صاحبه.

ومَن وَقَف في ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسَّر المتشابه بما استأثر اللهُ عزّ وعلا بعِلمه، كمدّة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواصّ الأعداد كعدد الزَّبانية، أو بما دلّ القاطع على عدم إرادة ظاهره ولم يدلّ على ما هو المراد به.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالمتشابه -وعدم التعرُّض لإيمانهم بالمحكَم لظهوره- أو بالكتاب. والجملة على الأوّل استئناف موضِّح لحال الراسخين أو حال منهم، وعلى الثاني خبر لقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ مِن تمام المَقول مقرِّر لِما قبله ومؤكِّد له، أي: كلُّ واحدٍ منه ومِن المحكم، أو كلُّ واحدٍ مِن متشابهه ومحكمه مُنزَل مِن عنده لا مخالفةَ بينهما. أو آمنّا به وبحَقّيّته على مراده تعالى.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ حقَّ التذكُّر ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقول الخالصة عن الرُّكون إلى الأهواء الزائغة. وهو تذييل سِيق مِن جهته تعالى مَدْحًا للراسخين بجَوْدة الذِّهن وحُسْن النظر، وإشارةً إلى ما به استعَدُّوا للاهتداء إلى تأويله مِن تجرّد العقل عن غواشي الحِسّ. وتعلُّق الآية الكريمة بما قبلها -مِن حيث إنّها جواب عمّا تشبَّث به النصارى مِن نحو قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء، ١٧١/٤]- على وَجْه الإجمال. وسيجيء الجواب المفصَّل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران، ٥٩/٣].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ مِن تمام مَقالة الراسخين، أي: لا تُزِغ قلوبنا عن نَهج الحقّ إلى اتّباع المتشابه بتأويلٍ لا تَرتضيه. قال صلّى الله عليه وسلّم: «قَلْب ابن آدم

---

١ ي: إيذانًا.

بين أصبعين مِن أصابع الرحمن إن شاء أقامه على الحقّ وإن شاء أزاغه عنه».[١] وقيل: معناه: «لا تَبلُنا ببلايا تُزيغ فيها قلوبنا».[٢] ﴿بَعْدَإِذْهَدَيْتَنَا﴾ أي: إلى الحقّ والتأويل الصحيح، أو إلى الإيمان بالقِسمين. و﴿بَعْدَ﴾ نصب بـ﴿لَا تُزِغْ﴾ على الظرف. و﴿إِذْ﴾ في محلّ الجرّ بإضافته إليه، خارج مِن الظرفيّة، أي: بعد وقت هدايتِك إيّانا. وقيل: إنّه بمعنى "أنْ".[٣]

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارّين متعلِّق بـ﴿هَبْ﴾. وتقديم الأوّل لِما مرّ مِرارًا. ويَجوز تعلُّق الثاني بمحذوف هو حال مِن المفعول، أي: كائنة مِن لدنك. و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية المجازيّة. و"لَدُنْ" في الأصل ظرف بمعنى أوّلُ غايةِ زمانٍ أو مكان أو غيرهما مِن الذوات، نحو "مِن لَدُنْ زيدٍ"، وليست مرادِفة لـ"عند"، إذ قد تكون فَضْلة، وكذا "لدى". وبعضُهم يخُصُّها بظرف المكان. وتُضاف إلى صريح الزمان، كما في قوله:

تَنتفضُ الرِّعدةُ في ظُهَيْري مِن لَدن الظُّهرِ إلى العُصَيرِ[٤]

ولا تُقطع عن الإضافة بحال، وأكثرُ ما تضاف إلى المفردات، وقد تضاف إلى "أنْ" وصلتِها، كما في قوله:

ولم تقْطعَ أصلًا مِن لدنْ أنْ وَلِيتَنا قرابةَ ذي رَحْمٍ ولا حقَّ مسلمٍ[٥]

أي: مِن لَدُن وِلايتِك إيّانا. وقد تُضاف إلى الجملة الاسميّة، كما في قوله:

---

[١] بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٨١/١١ (٦٦١٠)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٣٠/٥؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٣٦٦/٢٣ (٨٦٥). وبلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٥/١؛ وفتوح الغيب للطيبي، ٢٩/٤.

[٢] الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/١. وانظره في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٥/١.

[٣] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٦/١.

[٤] لم أهتدِ إلى قائل هذا الرجز. وهما في لسان العرب لابن منظور، «نهض»، ممّا أنشده الأصمعي لبعض الأغفال. وبلا نسبة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٢/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٥/٥. وقال العينيّ في قائلهما: «هو راجز مِن رُجّاز طيّئ، لم أقف على اسمه». المَقاصد النحويّة، ١٣٤٣/٣.

[٥] لم أهتدِ إلى قائله. وهو بلا نسبة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٢/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٥/٥؛ وصدره في خزانة الأدب للبغدادي، ١١١/٧. ورواية صدره في تلك المصادر:

وَلِيتَ فلم تقطع لَدُن أن وَلِيتنا

تَــذَكَّـــرُ[١] نُـعـمـاه لَـــدُنْ أنـــتَ يـافـعٌ[٢]

وإلى الجملة الفعليّة أيضًا، كما في قوله:

لـزِمـنـا لَـــدُنْ سـالـمـتـمـونـا وِفـاقَـكـم فـلا يَـكُ منكـم لـلـخِلاف جُـنـوحُ[٣]

وقلّما تخلو عن "مِن"،[٤] كما في البيتين الأخيرين.

﴿رَحْمَةً﴾ واسعةً تُزلِفُنا إليك ونَفوز بها عندك، أو توفيقًا للثبات على الحقّ. وتأخير المفعول الصريح عن الجارّين لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر؛ فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفسُ مترقِّبة لوروده، لاسيّما عند الإشعار بكونه مِن المَنافع باللام، فإذا أوردها يتمكّن عندها فَضْلَ تمكّن.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ تعليل للسؤال، أو لإعطاء المسئولِ. و﴿أَنتَ﴾ إمّا مبتدأ، أو فَصْل، أو تأكيد لاسمِ "إنّ". وإطلاق ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ ليتناوَل كلَّ موهوب، وفيه دلالة على أنّ الهُدى والضلال مِن قِبَله تعالى، وأنّه متفضِّل بما يُنعِم به على عباده مِن غير أن يَجِب عليه شيء.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾

/ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ أي: لحساب يومٍ، أو لجزاء يوم. حُذِف [٨٨و]
المضاف وأُقيم مُقامه المُضاف إليه تهويلًا له وتفظيعًا لِما يقع فيه. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في وقوعه ووقوع ما فيه مِن الحشر والحساب والجزاء. ومقصودهم بهذا عَرْض كمال افتقارهم إلى الرحمة وأنّها المَقصِد الأسنى عندهم، والتأكيدُ لإظهار ما هم عليه مِن كمال الطُّمَأنينة وقوّة اليقين بأحوال الآخرة.

---

١ ط: مذكّرٌ.

٢ وفي هامش أ: تمامه: إلى أنت ذا فرس أبيض كالنسر. «منه». | ولم أهتدِ إلى قائله. وهو صدر بيت غير منسوب في ارتشاف الضَّرَب لأبي حيّان، ١٤٥٣/٣؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٢/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٥/٥. وعجزه فيها:

إلى أنتَ ذو فَودين أبيضَ كالنسرِ

٣ لم أهتدِ إلى قائله. وهو بلا نسبة في مغني اللبيب لابن هشام، ٢١١/٥؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٢/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٥/٥.

٤ مِن قوله: "ولَدُنْ في الأصل ظرف" مع جميع الشواهد الشعريّة بلفظ قريب في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٢/٣-٣٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٥/٥-٤٧.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ تعليل لمضمون الجملة المؤكَّدة، أو لانتفاء الريب، والتأكيدُ لِما مرّ. وإظهار الاسم الجليل مع الالتفات لإبراز كمالِ التعظيم والإجلالِ الناشئ مِن ذِكْر اليوم المَهيب الهائل -بخلاف ما في آخر السورة الكريمة؛[1] فإنّه مقامُ طَلَب الإنعام، كما سيأتي- وللإشعار بعِلَّة الحُكم؛ فإنّ الألوهيّة منافِية للإخلاف. وقد جُوّز أن تكون الجملة مَسوقةً مِن جهته تعالى لتقرير قول الراسخين.[2] و﴿الميعادُ﴾ مصدر كـ"المِيقات".[3] «واستدلّ به الوَعيديّة.[4] وأُجِيب بأنّ وعيدَ الفسّاقِ مَشروط بعدم العفو بدلائلَ مفصَّلة، كما هو مَشروط بعدم التوبة وِفاقًا».[5]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إثرَ ما بيَّن الدِّين الحقّ والتوحيد، وذُكِر أحوال الكتب الناطقة به، وشُرِح شأن القرآن العظيم وكيفيّةُ إيمان العلماء الراسخين به، شُرِع[6] في بيان حالِ مَن كفر به. والمرادُ بالموصول جنس الكَفَرة الشامل لجميع الأصناف. «وقيل: وفد نجرانَ، أو اليهودُ مِن قُرَيظةَ والنَّضِير، أو مُشركو العَرب».[7]

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي: لن تنفعَهم. وقُرِئ بالتذكير وبسكون الياء[8] جدًّا في استثقال[9] الحركة على حروف اللِّين. ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾ التي يبذُلونها في جَلْب المَنافع ودَفْع المَضارّ. ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ الذين بهم يَتناصرون في الأمور المُهِمَّة، وعليهم يُعوِّلون في الخُطوب المُلِمَّة. وتأخير "الأولاد" عن "الأموال" مع توسيط حرفِ النفي بينهما إمّا لعَراقة الأولاد في كَشْف الكروب، أو لأنّ الأموال أوّل عُدَّة يُفزَع إليها عند نزول الخطوب. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِن عذابه تعالى. ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء.

---

[1] يعني إضمار اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران، ٣/١٩٤].

[2] انظر تجويز ذلك في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٣٤؛ واللباب لابن عادل، ٥/٤٧.

[3] ي: المقيات.

[4] يعني: المعتزلة.

[5] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤٦.

[6] السياق: شُرِعَ... إثر ما بيّن...

[7] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤٦.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن السُّلمي وابن مِقسَم والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٧؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥٦٨.

[9] ي: استقلال.

وقيل: كلمة ﴿مِن﴾ بمعنى البدل، والمعنى: بدلَ رحمة الله تعالى،[١] أو بدلَ طاعته،[٢] كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس، ٣٦/١٠]، أي: بدلَ الحقّ. ومنه قوله: «ولا يَنفَع ذا الجَدّ منك الجَدُّ»،[٣] أي: لا يَنفعه[٤] جَدُّه بذلك، أي: بدلَ رحمتِك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ، ٣٧/٣٤]. وأنت خبير بأنّ احتمال سدّ أموالِهم وأولادهم مَسدَّ رحمة الله تعالى أو طاعته ممّا لا يَخطُر ببال أحد حتّى يُتصدَّى لنفيه. والأوّل هو الأليَق بتفظيع حال الكَفَرة وتهويل أمرهم، والأنسَب بما بعده مِن قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، ومِن قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾،[٥] أي: أولئك المتّصفون بالكفر حطب النار وحَصَبها الذي تُسعَّر به.

فإن أُرِيد بيان حالهم عند التسعير فإيثارُ الجملة الاسميّة للدلالة على تحقّق الأمر وتقرّره، وإلّا فهو للإيذان بأنّ حقيقة حالهم ذلك، وأنّ أحوالهم الظاهرة بمَنزِلة العدم، فهم حالَ كونهم في الدنيا وَقودُ النار بأعيانهم. وفيه مِن الدلالة على كمال ملابَستهم بالنار ما لا يخفى. و﴿هُمْ﴾ يَحتمِل الابتداء وأن يكون ضميرَ الفَصل. والجملة إمّا مستأنَفة مقرِّرة لعدم الإغناء، أو معطوفة على خبر ﴿إِنَّ﴾. وأيًا ما كان ففيها تعيين للعذاب الذي بيَّن أنّ أموالهم وأولادهم لا تُغني عنهم منه شيئًا. وقُرِئ: "وُقُودُ النَّارِ" بضمّ الواو،[٦] وهو مصدر، أي: أهل وقودها.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأب مصدر "دَأَب" في العمل إذا كَدَح فيه وتَعِب، غَلَب استعماله في معنى الشأن والحال والعادة. ومحلّ الكاف الرفع على أنّه خبر

---

١ ط س – تعالى.

٢ انظر القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٦/١.

٣ مسند أحمد، ٣٤٣/١٨ (١١٨٢٧)؛ صحيح البخاري، ١٦٨/١ (٨٤٤)؛ صحيح مسلم، ٣٤٣/١ (٤٧١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦١/١.

٤ ط: ينفع.

٥ آل عمران، ١١/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة ومجاهد وطلحة بن مصرف. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٦٩.

لمبتدأ[١] محذوف. وقد جُوِّز النصب بـ﴿لَن تُغْنِيَ﴾، أو بـ"الوَقود"، أي: لن تغني عنهم كما لم تُغنِ عن أولئك، أو تُوقَد بهم النارُ كما تُوقَد بهم.[٢]

وأنت خبير بأنّ المذكور في تفسير "الدَّأْب" إنّما هو التكذيب والأَخذ، مِن غير تعرّض لعدم الإغناء، لاسيّما على تقدير كونِ ﴿مِن﴾ بمعنى البدل، كما هو رأيُ المجوِّز، ولا لإيقاد النار فيُحمَل على التعليل، وهو خِلاف الظاهر. على أنّه يلزَمُ الفصلُ بين العامل والمعمول بالأجنبيّ على تقدير النصب بـ﴿لَن تُغْنِيَ﴾، وهو قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾،[٣] إلّا أن يُجعل استئنافًا لا معطوفًا على خبر ﴿إِنَّ﴾. فالوجه هو الرفع على الخبريّة، أي: دَأْب هؤلاء في الكفر وعدمِ النجاة مِن أخْذِ الله تعالى وعذابه كدأب آل فرعون. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مِن قَبْل آل فرعون مِن الأُمَم الكافرة، فالموصول في محلّ الجرّ عطفًا على ما قبله.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيان وتفسير لدأبهم الذي فعلوا، على طريقة الاستئناف المَبنيّ على السؤال. كأنّه قيل: كيف كان دأبهم؟ فقيل: كذَّبوا بآياتنا. وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تفسير لدَأْبهم الذي فُعل بهم، أي: فأخَذهم الله[٤] وعاقَبهم، ولم يَجدوا مِن بأس الله تعالى مَحيصًا، فدَأْب هؤلاء الكفرة أيضًا كدَأْبهم. وقيل: ﴿كَذَّبُواْ﴾... إلخ، حال مِن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ على إضمار "قد"، أي: دَأْب هؤلاء كدَأْب أولئك وقد كذّبوا... إلخ.[٥] وأمّا كونه خبرًا مِن الموصول -كما قيل-[٦] فممّا يَذهَب برَونق النظم الكريم. والالتفات إلى التكلُّم أوّلًا للجَري على سَنن الكبرياء، وإلى الغَيبة ثانيًا بإظهار الجلالة لتربية المَهابة وإدخالِ الروعة.

---

[١] ي: مبتدأ.

[٢] جوّز الوجهين الزمخشريُّ في الكشّاف، ٢٦١/١. وذكروا في نصب الكاف سبعة وجوه أخرى. انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٨/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٢/٥.

[٣] بهذا اعترض أبو حيّان على الزمخشري في هذا الوجه. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٧/٣.

[٤] ط - الله.

[٥] انظر هذا الوجه في التبيان للعُكبَري، ٢٤٢/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٩/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٤/٥.

[٦] انظر هذا الوجه في كشف المشكلات للأصفهاني الباقولي، ٢١٧/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٩/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٤/٥.

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ إن أُرِيد بها تكذيبهم بالآيات فالباء للسببيّة جيء بها تأكيدًا لِما تُفيده الفاء مِن سببيّة ما قبلها لِما بعدها، وإن أُرِيد بها سائرُ ذنوبهم فالباء للملابَسة جِيء بها للدلالة على أنّ لهم ذنوبًا أُخَر، أي: فأخَذهم ملتبِسين بذنوبهم / غيرَ تائبين عنها، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة، ٥٥/٩]. والذنب في الأصل: التِّلْو والتابع، وسُمِّي الجريمة ذَنْبًا؛ لأنّها تتلو، أي: يَتبَع عِقابُها فاعلَها.[1] [٨٨ظ]

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تذييل مقرِّر لمَضمون ما قبله مِن الأخذ وتكملة له.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المراد بهم اليهود لِما رُوِي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ يهود المدينة لمّا شاهدوا غلَبة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على المشركين يوم بدر قالوا: «واللهِ إنّه النبيُّ الأمّيُّ الذي بشَّرَنا به موسى وفي التوراة نعتُه، وهمُّوا باتّباعه»، فقال بعضهم: «لا تَعجَلوا حتّى ننظُر إلى وَقْعة له أخرى». فلمّا كان يومُ أُحُد شكُّوا، وقد كان بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عَهْد إلى مُدَّة فنقضوه، وانطلق كعب بن الأشرَف[2] في ستّين راكبًا إلى أهل مكّة، فأجمَعوا أمرهم على قتال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت.[3]

وعن سَعيد بن جُبير وعِكرمة عن ابن عبّاس رضي الله عنهم: أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا أصاب قريشًا ببدر ورجَع إلى المدينة جمَع اليهودَ

---

١ انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤١/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٤/٥.

٢ هو كعب بن الأشرف الطائي مِن بني نبهان (ت. ٣هـ/٦٢٤م). شاعر جاهليّ. كانت أمّه مِن بني النضير فدَانَ باليهوديّة. وكان سيّدًا في أخواله. أدرك الإسلام ولم يُسلم. وأكثر مِن هَجْو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، وتحريض القبائل عليهم وإيذائهم والتشبيب بنسائهم. وخرج إلى مكّة بعد وقعة بدر فندب قتلى قريش وحضّ على الأخذ بثأرهم وعاد إلى المدينة. أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بقتله، فانطلق إليه خمسة مِن الأنصار فقتلوه. انظر: الروض الأنُف للسُّهيلي، ٣٠٦/٤، ٣٩٦/٥-٤١٥؛ والأعلام للزركلي، ٢٢٥/٥.

٣ لم أجِده في مظانّه. وهو عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس في الكشف والبيان للثعلبي، ٨٣/٨؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ١٠٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦١/١؛ واللباب لابن عادل، ٥٦/٥.

في سوق بني قَينُقاع،[١] فحذَّرهم أن يَنزِل بهم ما نزَل بقريش، فقالوا: «لا يَغُرَّنك أنّك لقِيتَ قومًا أغمارًا[٢] لا عِلم لهم بالحرب فأَصبتَ منهم فُرصة، لئن قاتلتَنا لعَلِمتَ أنّا نحن الناسُ»، فنزلت.[٣]

أي: قل لهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ البتّةَ عن قريب في الدنيا. وقد صدَق الله عزّ وجلّ وعدَه بقَتْل بني قُريظة، وإجلاء بني النَّضِير، وفَتْح خَيبر، وضَرْب الجزية على مَن عداهم. وهو مِن أوضَح شواهد النبوّة. وأمّا ما رُوي عن مقاتل مِن أنّها نزلت قبل بدر، وأنّ الموصول عبارة عن مشركي مكّة، ولذلك قال لهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوم بدر: «إنّ الله غالبكم وحاشركم إلى جهنّم وبئس المهاد»،[٤] فيُؤدّي[٥] إلى انقطاع الآية الكريمة عمّا بعدها لنزوله بعد وقعة بدر.

﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أي: في الآخرة[٦] ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾. وقُرئ الفعلان بالياء،[٧] على أنّه عليه السلام أُمِر بأن يَحكيَ لهم ما أَخبَر الله تعالى به مِن وعيدهم بعبارته، كأنه قيل: أَدِّ إليهم هذا القول. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ إمّا مِن تمام ما يقال لهم، أو استئناف لتهويل جهنّمَ وتفظيع حالِ أهلها. والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: وبئس المِهادُ جهنّمُ، أو ما مَهَدوه لأنفسهم.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ جوابُ قسم محذوف، وهو مِن تمام القول المأمور به، جِيء به لتقرير مضمونِ ما قبله وتحقيقِه. والخطاب لليهود أيضًا. والظرف خبر ﴿كَانَ﴾

---

١ قبيلة مِن اليهود كانوا في المدينة مع بني قُريظة وبني النضير. وكانوا أوّل يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد غزوة بدر، فحاربهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأجلاهم عن المدينة. انظر: أنساب الأشراف للبلاذُري، ١/٣٠٨-٣٠٩؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ٤/٥٥٤، ٥/٣١٨-٣٢١.

٢ الأغمار جمع غُمْر: وهو الجاهل الغِرّ الذي لم يُجرِّب الأمور. لسان العرب لابن منظور، «غمر».

٣ سنن أبي داود، ٤/٦١٦ (٣٠٠١)؛ جامع البيان للطبري، ٥/٢٣٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٢٦١.

٤ تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٢٦٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٣.

٥ السياق: وأمّا ما رُوي... فيؤدّي...

٦ ط - أي: في الآخرة.

٧ قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف. انظر: السبعة لابن مجاهد، ص ٢٠٢؛ والنشر لابن الجزري، ٢/٢٣٨.

على أنّها ناقصة، ولتَوسُّطه بينها وبين اسمها تُرِك التأنيث، كما في قوله:

إنّ امــــرأ غـــرّه مـنـكـنّ واحــدةٌ   بعدي وبعدكِ في الدنيا لَمَغرورُ[1]

على أنّ التأنيث ههنا غير حقيقيّ، أو هو متعلِّق بـ﴿كَانَ﴾ على أنّها تامّة. وإنّما قُدِّم على فاعلها لِما مرّ مِرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم والتشويق إلى ما أُخِّر، أي: واللهِ قد كان لكم أيُّها المغترُّون بعددهم وعُدَدهم ﴿ءَايَةٌ﴾ عظيمة دالّة على صِدْق ما أقول لكم: إنّكم ستُغلَبون. ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾[2] أي: فرقتين أو جماعتين. فإنّ المَغلوبة منهما كانت مدِلَّةً بكثرتها معجِبة[3] بعِزّتها، وقد لقِيَها ما لَقِيَها فسيُصيبُكم ما يُصيبكم.[4] ومحلّ الظرف الرفع على أنّه صفة لـ﴿ءَايَةٌ﴾. وقيل: النصب على خبريّة ﴿كَانَ﴾، والظرف الأوّل متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةٌ﴾.[5] ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ في حيّز الجرّ على أنّه صفةُ فئتين، أي: تلاقتا بالقتال يوم بدر.

﴿فِئَةٌ﴾ بالرفع خبرُ مبتدأ محذوف، أي: إحداهما فئة، كما في قوله:

إذا مِتُّ كان الناسُ حزبين شامتٌ   وآخَرُ مُثنٍ بالذي كنتُ أَصنعُ[6]

أي: أحدهما شامت وآخر مثنٍ، وقولِه:

حتّى إذا ما استقلّ النجمُ في غَلَسٍ   وغُودِر البقلُ مَلويٌّ ومَحصودُ[7]

والجملة مع ما عُطِف عليها مستأنَفة لتقرير ما في الفئتين مِن "الآية".

---

١ لم أهتدِ إلى قائله. وهو بلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ٣٠٨/٢ (القصص، ٥٧/٢٨)؛ والخصائص لابن جنّي، ٤١٤/٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٧٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٥٧/٥.

٢ وفي هامش ط ي: مِن "فاء إليه". «منه»؛ وفي هامش ط: مِن "فأت رأيه". «منه»

٣ ضُبِطت على صيغة اسم الفاعل في ط.

٤ ي: يصيبهم.

٥ انظر هذا الوجه لإعرابهما في التبيان للعُكبَري، ٢٤٢/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٨/٥.

٦ البيت للعُجير السّلولي في النوادر لأبي زيد الأنصاري، ص ٤٤٣، والرّواية فيه:

إذا مِتُّ كان الناس نصفين شامتٌ
ومُثنٍ بصَرعَي بعض ما كنتُ أصنعُ

وهو له في كتاب سيبويه، ٧١/١. وهو بلا نسبة في اللباب لابن عادل، ٥٨/٥.

٧ البيت لذي الرُّمّة في ديوانه بشرح الباهلي، ١٣٦٦/٢، وعجزه فيه:

وأُحصِد البقلُ أو مُلوٍ ومحصودُ

وهو بلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٩٣/١؛ وجامع البيان للطبري، ١٢٦/٢٠ (ص، ٥٧/٣٨)، وفيه «أضاء» مكان «استقلّ»؛ واللباب لابن عادل، ٥٩/٥. | وفي شرح الباهلي: استقلّ النجم، أي: طلع بعد النور عند الصبح. وألوى إلواء إذا جفّ. ومحصود: قد حُصِد. ولم يشرح الغَلَس وهو: ظلمة آخر الليل. لسان العرب لابن منظور، «غلس».

وقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في محلّ الرفع على أنّه صفةُ ﴿فِئَةٌ﴾، كأنّه قيل: فئة مؤمنة، ولكن ذُكِر مكانَه مِن أحكام الإيمان ما يَليق بالمَقام مدحًا لهم واعتدادًا بقتالهم وإيذانًا بأنّه المَدار في تحقيق[١] الآية، وهي رؤية القليل كثيرًا. وقُرئ: "يُقَاتِلُ"،[٢] على تأويل "الفئة" بالقوم أو الفريق.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ نعت لمبتدأ محذوف، معطوفٌ على ما حُذِف مِن الجملة الأولى، أي: وفئة[٣] أخرى. وإنّما نُكِّرت -والقياس تعريفها كقرينتها- لوضوح أنّ التفريق لنفس المثنّى المقدَّم ذِكْره، وعدمِ الحاجة إلى التعريف. وقوله تعالى: ﴿كَافِرَةٌ﴾ خبرُ المبتدأ المحذوفِ. وإنّما لم تُوصَف هذه الفئة بما يُقابِل صفة الفئة الأولى إسقاطًا لقتالهم عن درجة الاعتبار، وإيذانًا بأنّهم لم يَتصدَّوا للقتال لِما اعتراهم مِن الرُّعب والهَيبة.

وقيل: كلّ مِن المتعاطِفَين بدل مِن الضمير في ﴿ٱلْتَقَتَا﴾، وما بعدهما صفة.[٤] فلا بُدّ مِن ضمير محذوف عائد إلى المُبدَل منه مُسوِّغ لوصف البدل بالجملة العارية عن ضميره، أي: فئة منهما تُقاتِل... إلخ، وفئة أخرى كافرة. ويَجوز أن يكون كلّ منهما مبتدأ وما بعدهما خبرًا، أي: فئة منهما تُقاتل... إلخ، وفئة أخرى كافرة. وقيل: كلّ منهما مبتدأ محذوفُ الخبر، أي: منهما فئة تقاتل... إلخ.[٥] وقُرئ: "فِئَةٍ"،[٦] بالجرّ على البدليّة مِن ﴿فِئَتَيْنِ﴾، بدلَ بعض مِن كلّ. وقد مرّ أنّه لا بُدَّ مِن ضمير عائد إلى المُبدَل منه ويُسمّى بدلًا تفصيليًا، كما في قول كُثَيِّر عزّة:[٧]

---

١ ط: تحقُّق.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٨.

٣ وفي هامش ي: وهي المبتدأ المحذوف مِن الجملة الأولى. «منه».

٤ انظر هذا القول في التبيان للعُكبَري، ٢٤٣/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٤/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٨/٥.

٥ انظر القولين الأخيرين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٥/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥٩/٥.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري وكِرداب ومجاهد وابن مِقْسَم والزعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٨؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٥٦٩.

٧ هو كُثَيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخُزاعي، أبو صخر (ت. ١٠٥هـ/٧٢٣م). شاعر مُتيَّم مشهور. مِن أهل المدينة أكثر إقامته بمصر. مُقرَّب مِن عبد الملك بن مروان ومِن بني مروان. وكان شاعر أهل الحِجاز في الإسلام، لا يُقدِّمون عليه أحدًا. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٤٩٤/١-٥٠٨؛ والأعلام للزركلي، ٢١٩/٥.

وكنتُ كذي[1] رِجلين رِجلٍ صحيحةٍ ورِجلٍ رمى فيها الزمانُ فَشَلَّتِ[2]

وقُرئ: "فِئَةً"،[3] بالنصب على المدح والذمّ، أو على الحاليّة مِن ضمير ﴿ٱلْتَقَتَا﴾.[4] كأنّه قيل: التقتا مؤمِنةً وكافرةً. فيكون "فئة" و"أخرى" توطئةً لِما هو الحال حقيقةً؛ إذ المقصود بالذِّكر وصفاهما، كما في قولك: جاءني زيد رجلًا صالحًا.

﴿يَرَوْنَهُم﴾ أي: ترى الفئةُ الأخيرة الفئةَ الأولى. وإيثار صيغة الجمع للدلالة على شمول الرُّؤية لكلّ واحدٍ واحدٍ مِن آحاد الفئة. والجملة في محلّ الرفع على أنّها صفة للفئة الأخيرة، أو مستأنَفة / مبيِّنة لكيفيّة الآية. ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي: [٨٩و]
مِثلَي عدد الرائين قريبًا مِن ألفين، إذ[5] كانوا قريبًا مِن ألف. كانوا تسعمائةٍ وخمسين مقاتلًا رأسَهم عُتْبة بن رَبيعة بن عبد شمس،[6] وفيهم أبو سفيان وأبو جهل.[7] وكان فيهم مِن الخيل والإبل مائةُ فرسٍ وسبعُمائة بعير، ومِن أصناف الأسلحة عددٌ لا يُحصى.[8]

عن محمّد بن أبي الفرات عن سعد بن أوس أنّه قال: أَسَر المشركون رجُلًا مِن المسلمين فسألوه: «كم كنتُم؟» قال: «ثلثمائة وبضعةَ عشرَ»، قالوا:

---

١ ط س ي: لدى. | كذا ورد في الأصول، ولا يستقيم به معنًى، وأثبتُّ ما جاء في الديوان والمصادر المذكورة في تخريج البيت.

٢ البيت في ديوان كُثَيِّر عزَّة، ص ٩٩. وهو له في كتاب سيبويه، ٤٣٣/١. وبلا نسبة في معاني القرآن للفرّاء، ١٩٢/١؛ وجامع البيان للطبري، ٢٤٣/٥؛ واللباب لابن عادل، ٥٩/٥.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦.

٤ هذان القولان في توجيه القراءة مع آخَرين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٤٥/٣-٤٦؛ واللباب لابن عادل، ٥٩/٥-٦٠.

٥ ي: إذا.

٦ ي: الشمس. | هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب القُرشي، أبو الوليد (ت. ٢هـ/٦٢٤م). كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهليّة. وكان موصوفًا بالرأي والعلم والفضل خطيبًا نافذ القول. توسّط للصلح في حرب الفِجار بين هوازن وكنانة، وقد رضي الفريقان بحكمه وانقضت الحرب على يده. أدرك الإسلام وطغى وشهد بدرًا مع المشركين وقاتل قتالًا شديدًا، فأحاط به عليّ بن أبي طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث فقتلوه. انظر: الروض الأنف للسهيلي، ٢٣٥/٢-٢٣٦؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٦٤/١. وفي ترجمة ابنه الصحابيّ الجليل أبي حذيفة بن عُتبة انظر: الأعلام للزركلي، ٢٠٠/٤.

٧ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤٧/٥-٢٤٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٤/٢.

٨ انظر: اللباب لابن عادل، ٦٨/٥.

«ما كنّا نراكم إلّا تَضعُفون علينا، أو مِثلَي عدد المَرئيِّين»، أي: ستّمائة ونيِّفًا وعشرين.[١]

حيثُ كانوا ثلثَمائة وثلاثةَ عشرَ رجُلًا: سبعة وسبعون رجُلًا مِن المهاجرين، ومائتان وستّة وثلاثون مِن الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وكان صاحبَ راية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمهاجرين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وصاحبَ راية الأنصار سعدُ بن عُبادة الخزرجيُّ رضي الله عنه. وكان في العَسكر تسعون بعيرًا، وفرَسان، أحدُهما للمِقداد بن عَمْرو،[٢] والآخر لمَرْثَد بن أبي مَرْثَد، وستُّ أدرع، وثمانيةُ سيوف.[٣] وجميع مَن استُشهد يومئذ مِن المسلمين أربعةَ عشرَ رجلًا: ستَّة مِن المهاجرين، وثمانية مِن الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

أراهم الله عزّ وجلّ كذلك مع قِلّتهم ليَهابوهم ويَجبُنوا عن قتالهم، مَدَدًا لهم منه سبحانه، كما أَمدّهم بالملائكة عليهم السلام، وكان ذلك عند التقاء الفئتين بعد أن قلَّلهم في أعينهم عند ترائيهما ليجترئوا عليهم ولا يَهرُبوا مِن أوّل الأمر حين يُنجِيهم الهرب.

وقيل: ترى الفئةُ الأولى الفئةَ الأخيرةَ مِثلَي أنفسِهم مع كونهم ثلاثةَ أمثالِهم؛ ليثبُتوا ويَطمئِنّوا بالنصر الموعود في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال، ٦٦/٨].[٤]

---

[١] لم أجده فيما وقفت عليه مِن المصادر. وورد ذِكْر عدد المسلمين يوم بدر وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجُلًا فيما رُوي عن قتادة وابن جريج والربيع. انظر: **جامع البيان للطبري**، ٢٤٨/٥-٢٤٩.

[٢] هو المِقداد بن عمرو -ويعرف بابن الأسود- الكِندي البهراني الحضرمي، أبو معبد أو أبو عمرو (ت. ٣٣هـ/٦٥٣م). أحد السبعة الذين كانوا أوّل مَن أظهر الإسلام. وهو أوّل مَن قاتل على فَرس في سبيل الله. شهد بدرًا والمشاهد كلَّها. وسكن المدينة، وتوفّي على مقربة منها، فحُمل إليها ودفن فيها. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٤٨٠/٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ٣٠٦/١٠؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٨٢/٧.

[٣] انظر: **تفسير مقاتل بن سليمان**، ٢٦٥/١-٢٦٦؛ **ومعالم التنزيل للبغوي**، ١٣/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ٦٨/٥.

[٤] انظر هذا القول في **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ٢٤٧/١؛ **واللباب** لابن عادل، ٦٢/٥.

والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ رؤيةِ المِثلَين غير متعيّنة مِن جانب المؤمنين؛ بل قد وقعتْ رؤية المِثْل؛ بل أقلَّ منه أيضًا. فإنّه رُوي أنّ ابن مسعود رضي الله عنه قال: «قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يَضعُفون علينا، ثمّ نظرنا إليهم فما رأيناهم يَزيدون علينا رجُلًا واحدًا»،[١] ثمّ قلَّلهم الله تعالى[٢] أيضًا في أعينهم حتّى رأتهم عددًا يسيرًا أقلَّ مِن أنفسهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر حتى قلتُ لرجُل إلى جنبي: "تراهم سبعين؟" قال: "أراهم مائة"، فأسَرنا منهم رجلًا، فقلنا: "كم كنتُم؟" قال:[٣] "ألفًا"».[٤]

فلو أُريد رؤية المؤمنين المشركين أقلَّ مِن عددهم في نفس الأمر كما في سورة الأنفال لكانت رُؤيتهم إيّاهم أقلَّ مِن أنفسهم أحقَّ بالذِّكْر في كونها آيةً مِن رؤيتهم مِثلَيهم. على أنّ إبانة آثار قُدرة[٥] الله[٦] تعالى وحكمتِه للكفرة، بإراءتهم القليلَ كثيرًا والضعيفَ قويًا وإلقاءِ الرعب في قلوبهم بسبب ذلك، أَدخَلُ[٧] في كونها آيةً لهم وحُجّةً عليهم وأقربَ إلى اعتراف المخاطبين بذلك لكثرة مخالطتِهم الكفرةَ المشاهِدين للحال، وكذا تعلُّق الفعل بالفاعل أشدُّ مِن تعلُّقه بالمفعول، فجَعْل أقرب المذكورَين السابقَين فاعلًا وأبعدِهما مفعولًا سواءٌ جُعِل الجملة صفة أو مستأنَفة أَوْلى مِن العكس. هذا ما تَقضيه جزالةُ التنزيل على قراءة الجمهور.

ولا ينبغي جَعْل الخطاب لمشركي مكّة كما قيل؛[٨] أمّا إن جُعِل الوعيد[٩] عبارةً عن هزيمة بدر كما صرّحوا به فظاهر لا سُترة به، وأمّا إن جُعِل عبارةً عن هزيمة أخرى فلأنّ الفئةَ التي شاهدت تلك الآيةَ الهائلة هم المخاطَبون حينئذ،

---

١ جامع البيان للطبري، ٥/٢٤٥-٢٤٦؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٤.

٢ ي – تعالى.

٣ ي + قال.

٤ جامع البيان للطبري، ٥/٢٥١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٤.

٥ ي: قدرته.

٦ ي – الله.

٧ السياق: على أنّ إبانة آثار... أدخَلُ...

٨ القول في معالم التنزيل للبغوي، ١/٤١٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٦١. وهو أحد قولين في التفسير الوسيط للواحدي، ١/٤١٧؛ وأحد ثلاثة أقوال في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٤٧.

٩ وفي هامش أ: بقوله تعالى: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ الآية. «منه». | هو في الآية السابقة.

فالتعبير عنهم بفئة مبهَمةٍ تارة وموصوفةٍ أخرى، ثمّ إسنادُ المشاهَدة إليها مع كون إسنادها إلى المخاطَبين أَوقَعُ في إلزام الحُجّة وأَدخَلُ في التبكيت ممّا لا داعيَ إليه. وبهذا يتبيَّن حال جَعْل الخطابِ الثاني للمؤمنين.

وأمّا قراءة "تَرَوْنَهُمْ" بتاء الخطاب،[1] فظاهرُها وإن اقتضى توجيه الخطاب الثاني إلى المشركين لكنّه ليس بنصّ في ذلك؛ لأنّه وإن اندفع به المحذور الأخير فالأوّل باقٍ بحاله، فلعلّ رؤية المشرِكين نُزِّلت مَنزلةَ رؤية اليهود لِما بينهم مِن الاتّحاد في الكفر والاتّفاق في الكلمة لاسيّما بعد ما وقَع بينهم بواسطة كعب بن الأشرف مِن العهد والمِيثاق، فأُسنِدت الرؤية إليهم مبالغةً في البيان وتحقيقًا لعُروض مثل تلك الحالة لهم. فتَدبَّر.

وقيل: المراد جميعُ الكفرة. ولا ريب في صحّته وسَداده.

وقُرئ: "يُرَونَهُمْ"،[2] و"تُرَونَهُمْ"[3] على البناء للمفعول، مِن الإراءة، أي: يُريهم أو يُريكم الله تعالى كذلك.

﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿يَرَوْنَهُم﴾ إن كان الرؤية بصريّة، أو مصدر تشبيهيّ إن كانت قلبيّةً، أي: رؤية ظاهرة مكشوفة جارية مَجرى رُؤية العين.

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾ أي: يُقوّي ﴿بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُؤيّده مِن غير توسيط الأسباب العاديّة، كما أيَّد الفئة المقاتِلة في سبيله بما ذُكِر مِن النصر، وهو مِن تمام القول المأمور به.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكِر مِن رؤية القليل كثيرًا المستتبِعةِ لغَلَبة القليلِ العديمِ العُدَّةِ على الكثير الشاكي السلاحِ،[4] وما فيه مِن معنى البعد للإيذان ببُعد مَنزلة المشار إليه في الفضل. ﴿لَعِبْرَةً﴾ "العِبرة": فِعلَة مِن العُبور،

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٠١؛ النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٨.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والصرصري وابن مِقْسَم والمَلَطي عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٧٠.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة والسُلَمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٧٠.

[4] شاكي السلاح وشائك السلاح: ذو الشوكة والحدّ في سلاحه. لسان العرب لابن منظور، «شاك».

كالرِّكْبة مِن الرُّكوب والجِلْسة مِن الجُلوس، والمراد بها الاتِّعاظ فإنّه نوع مِن العُبور، أي: لَعِبرة عظيمة كائنة. ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لذوي العقول والبصائر. وقيل: لمَن أبصرهم.[١] وهو إمّا مِن تمام الكلام الداخلِ تحت القول، مقرِّر لِما قبله بطريق التذييل، وإمّا وارد مِن جهته تعالى تصديقًا لمَقالته صلّى الله عليه وسلّم.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان حقارة شأن الحظوظ الدنيويّة بأصنافها، وتزهيدِ الناس فيها، وتوجيهِ رغباتهم إلى ما عنده تعالى إثرَ بيان عدم نَفْعها للكَفَرة / الذين كانوا يَتعزَّزون بها. والمراد بـ"الناس" الجنس. ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الشهوة: نُزوع النفس إلى ما تُريده، والمراد ههنا المشتهَيات، عُبِّر عنها بالشهوات مبالغة في كونها مشتهاةً مَرغوبًا فيها، كأنّها نفس الشهوات، أو إيذانًا بانهماكِهم في حُبّها بحيث أحبُّوا شهواتِها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [ص، ٣٢/٣٨]، أو استرذالًا لها، فإنّ الشهوة مسترذَلة مَذمومة مِن صفات البهائم. والمزيِّن هو الباري سبحانه وتعالى، إذ هو الخالق لجميع الأفعال والدواعي. [٨٩ظ]

والحكمة في ذلك ابتلاؤهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ﴾ الآية [الكهف، ٧/١٨]، فإنّها ذريعة لنيل سعادة الدارين عند كون تعاطيها على نهج الشريعة الشريفة، ووسيلةٌ إلى بقاء النوع. وإيثار صيغة المبنيّ للمفعول للجري على سَنن الكبرياء. وقُرئ على البناء للفاعل.[٢] وقيل: المزيِّن هو الشيطان

---

١ انظر القول في معالم التنزيل للبغوي، ١١٤/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٧/١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد وكِرداب وابن مِقْسَم وأبي البرهسم والبَزّي عن ابن محيصن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٨؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٥٧٠.

لِما أنّ مَساق الآية الكريمة على ذمّها. وفرّق الجُبّائي[١] بين المباحات وأَسنَد تزيينها إليه تعالى، وبين المحرّمات فنسَب تزيينها إلى الشيطان.[٢]

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾ في محلّ النصب على أنّه حال مِن ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، وهي مفسِّرة لها في المعنى. وقيل: ﴿مِنۡ﴾ لبيان الجنس.[٣] وتقديم ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ على ﴿ٱلۡبَنِينَ﴾ لعراقتهنّ[٤] في معنى الشهوة، فإنّهنّ حبائل الشيطان. وعدم التعرّض للبنات لعدم الاطِّراد في حُبّهنّ.

﴿وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ﴾ جمعُ "قِنطار": وهو المالُ الكثير.[٥] وقيل: مائة ألف دينار.[٦] وقيل: مِلء مَسْك ثور.[٧] وقيل: سبعون ألفًا.[٨] وقيل: أربعون ألف مِثقال.[٩] وقيل: ثمانون ألفًا.[١٠] وقيل: مائة رطل.[١١] وقيل: ألف ومائتا مِثقال.[١٢] وقيل: ألفُ[١٣] دينار.[١٤]

---

١ هو محمّد بن عبد الوهّاب بن سلام البصري الجُبّائي، أبو عليّ (ت. ٣٠٣هـ/٩١٦م). نسبته إلى جبّى مِن قُرى البصرة. أحد شيوخ المعتزلة، وكان إمامًا في علم الكلام، وإليه نسبة الطائفة الجُبّائيّة. له آراء ومقالات انفرد بها. أخذ العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشَّحّام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة في عصره. وأخذ عنه علم الكلام أبو الحسن الأشعري ثمّ خالفه ونابذه. وخلف أبا عليّ ابنه أبو هاشم. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خَلِّكان، ٢٦٧/٤-٢٦٩؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٨٣/١٤-١٨٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٥٦/٦.

٢ انظر القول وتَفرِقة الجُبّائي في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٤٨/١.

٣ يُفهم مِن عبارة الزمخشري في **الكشّاف**، ٢٦٣/١؛ وبيّن ذلك في **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٥٨/٣.

٤ ي: لعراقتها.

٥ مرويّ عن أنس بن الربيع. **جامع البيان** للطبري، ٢٥٩/٥؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥/٢.

٦ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٣/١؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٤٨/١.

٧ مَرويّ عن أبي سعيد الخُدري وأبي نَضرة. **جامع البيان** للطبري، ٢٥٩/٥؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥/٢؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٣/١.

٨ مَرويّ عن ابن عمر وطاوس ومجاهد. **جامع البيان** للطبري، ٢٥٨/٥-٢٥٩؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥/٢.

٩ مَرويّ عن السُّدّي. **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥/٢.

١٠ مَرويّ عن سعيد بن المُسيّب وقَتادة. **جامع البيان** للطبري، ٢٥٧/٥؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥/٢.

١١ مَرويّ عن أبي صالح والسُّدّي وقتادة. **جامع البيان** للطبري، ٢٥٨/٥؛ **تفسير ابن أبي حاتم**، ٦٠٨/٢.

١٢ مَرويّ عن ابن عبّاس والضحّاك ومعاذ بن جبل وابن عمر وأبي هريرة وأُبيّ بن كعب. **جامع البيان** للطبري، ٢٥٤/٥-٢٥٥؛ **تفسير ابن أبي حاتم**، ٦٠٨/٢؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥/٢.

١٣ ط س: ألفا. | وليس فيما رُوي.

١٤ مَرويّ عن ابن عبّاس وأنس والضحّاك. **جامع البيان** للطبري، ٢٥٦/٥؛ **تفسير ابن أبي حاتم**، ٦٠٨/٢؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥/٢.

وقيل: مائة مَنٍّ[١] ومائة رطل ومائة مِثقال ومائة دِرهَم.[٢] وقيل: دية النفس.[٣] واختُلِف في أنّ وزنه "فِعْلال" أو "فِنْعال". ولفظُ ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ مأخوذ منه للتأكيد، كقولهم: بَدْرةٌ مبدَّرة.[٤] وقيل: المقَنطَرة: المُحْكمة المُحْصنة.[٥] وقيل: الكثيرة المُنضَّدة بعضُها على بعض،[٦] أو المَدفونة.[٧] وقيل: المَضروبة المَنقوشة.[٨]

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ بيان لـ﴿ٱلْقَنَـٰطِيرِ﴾، أو حال. ﴿وَٱلْخَيْلِ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْقَنَـٰطِيرِ﴾. قيل: هي جَمْع لا واحد له مِن لفظه كـ"القوم" و"الرهط".[٩] والواحد فرس، وقيل: واحده خائل.[١٠] وهو مُشتقّ مِن الخُيَلاء.[١١] ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ أي: المُعْلَمة مِن السَّومة وهي العلامة، أو المَرعيّة، مِن أسام الدابّة وسوَّمها إذا أرسلها وسيَّبها للرَّعي، أو المُطَهَّمة[١٢] التامّة الخَلْق. ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ أي: الإبل والبقر والغنم. ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ أي: الزرع، مصدر بمعنى المفعول.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكِر مِن الأشياء المعهودة ﴿مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يُتمتَّع به في الحياة الدنيا أيّامًا قلائلَ فتفنى سريعًا. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ حُسْن المَرجِع. وفيه دلالة على أن ليس فيما عُدِّد عاقبة حميدة. وفي تكرير الإسناد بجَعْل الجلالة مبتدأً وإسنادِ الجملة الظرفيّة إليه زيادةُ تأكيد وتفخيم، ومَزيدُ اعتناء بالترغيب فيما عند الله عزّ وجلّ مِن النعيم المقيم والتزهيد في مَلاذّ الدنيا وطيّباتها الفانية.

---

١ المَنّ: الكيل أو الميزان الذي يُوزَن به. لسان العرب لابن منظور، «مني».

٢ مَرويّ عن سعيد بن جبير وعكرمة. معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٣ مَرويّ عن الحسن. جامع البيان للطبري، ٢٥٧/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٤ مِن قوله: "واختُلِف" في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٧/١.

٥ مَرويّ عن الضحّاك. معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٦ مَرويّ عن الربيع بن أنس وقتادة. جامع البيان للطبري، ٢٦٠/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٧ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٨ مَرويّ عن السُّدّي. جامع البيان للطبري، ٢٦٢/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

٩ القول في التفسير البسيط للواحدي، ٩٨/٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥/٢.

١٠ انظر القول في اللباب لابن عادل، ٧٦/٥.

١١ انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٩٨/٥؛ واللباب لابن عادل، ٧٦/٥.

١٢ المُطهَّم مِن الناس والخيل: الحسن التامّ كلّ شيء منه. لسان العرب لابن منظور، «طهم».

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ إثرَ ما بُيِّن شأن مُزخرَفات الدنيا وذكر ما عنده تعالى مِن حُسْن المآب إجمالًا، أُمِر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بتفصيل ذلك المجمَل للناس، مبالغة في الترغيب. والخطاب للجميع. والهمزة للتقرير، أي: أأُخبِركم[1] بما هو خير ممّا فُصِّل مِن تلك المستلذّات المزيَّنة لكم؟ وإبهام "الخير" لتفخيم شأنه والتشويق إليه.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ استئناف مبيِّن لذلك المبهَم، على أنّ ﴿جَنَّاتٌ﴾ مبتدأ، والجارّ خبر، أو على أنّ ﴿جَنَّاتٌ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة عند مَن لا يَشترِط في ذلك اعتمادَ الجارّ، على ما فُصِّل في مَحلّه. والمراد بـ"التقوى" هو التبتُّل إلى الله تعالى والإعراضُ عمّا سواه، على ما تُنبئ عنه النعوت الآتية. وتعليق حصول الجنّات وما بعدها مِن فنون الخيرات[2] للترغيب في تحصيله والثبات عليه. و﴿عِندَ﴾ نصب على الحاليّة مِن ﴿جَنَّاتٌ﴾، أو متعلِّق بما تعلَّق به الجارّ مِن معنى الاستقرار، مفيد لكمال عُلوّ رتبة الجنّات وسُموّ طبقتها.

والتعرُّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المتّقين لإظهار مَزيد اللطف بهم. وقيل: اللام متعلِّقة بـ"خير"، وكذا الظرفُ، و﴿جَنَّاتٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والجملة مبيِّنة لـ"خير". ويُؤيِّده قراءة "جَنّاتٍ"،[3] بالجرّ على البدليّة مِن "خير".[4] ولا يخفى أنّ تعليق الإخبار والبيان بما هو خير لطائفة ربّما يُوهِم أن هناك خيرًا آخرَ لآخَرين.

---

[1] ي: أخبركم.
[2] ط س + به.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حاتم وكِرداب والأصمعي وأبي قرّة ومُغيث والقُورُسي عن أبي جعفر وأبو خُليد عن نافع. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٢٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٠٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٥٧١.
[4] القول مع تأييده بقراءة الجرّ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٨/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦٥/٣؛ واللباب لابن عادل، ٨٣/٥.

﴿تَجۡرِي﴾ في محلّ الرفع أو الجرّ صفة لـ﴿جَنَّٰتٌ﴾ على حسب القراءتين. ﴿مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ متعلّق بـ﴿تَجۡرِي﴾. فإن أُريد بالجنّات نفسُ الأشجار -كما هو الظاهر- فجريانُها مِن تحتها ظاهر، وإن أُريد بها مجموع الأرض والأشجار فهو باعتبار جُزئها الظاهر كما مرّ تفصيله مِرارًا. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدَّرة مِن المستكِنّ في ﴿لِلَّذِينَ﴾، والعامل ما فيه مِن معنى الاستقرار. ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ عطفٌ على ﴿جَنَّٰتٌ﴾، أي: مبرّأة ممّا يُستقذَر مِن النساء مِن الأحوال البدنيّة والطبيعيّة. ﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾ التنوين للتفخيم. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوف وقَع صفة له مؤكِّدة لِما أفاده التنوين مِن الفخامة، أي: رضوان وأيُّ رضوانٍ، لا يُقادر قَدْره كائن مِن الله عزّ وجلّ. وقُرئ بضمّ الراء.[1]

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ وبأعمالهم فيُثيب ويُعاقِب حسبما يَليق بها، أو بَصير بأحوال الذين اتَّقَوا، ولذلك أعدّ لهم ما ذُكِر. وفيه إشعار بأنّهم المستحقّون للتسمية باسم العبد.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ في محلّ الرفع على أنّه خبر مبتدأ محذوفٍ، كأنّه قيل: مَن أولئك المتَّقون الفائزون بهذه الكرامات السنِيّة؟ فقيل: هم الذين... إلخ، أو النصبِ على المدح أو الجرّ على أنّه صفة للمتّقين / أو للعباد، أو بدلٌ [٩٠و] مِن أحدهما،[2] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[3] حينئذ معترِضة. وتأكيد الجملة لإظهار أنّ إيمانهم ناشئ مِن وُفور الرغبة وكمال النشاط، وفي ترتيب الدعاء بقولهم ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ على مجرّد الإيمان دلالةٌ على كفايته في استحقاق المَغفرة والوقاية مِن النار.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هو -على تقدير كون الموصول في محلّ الرفع- منصوب

---

١ قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٨.

٢ مِن قوله: "على أنّه صفة..." في ي: على أنّه تابع للمتّقين نعتًا أو بدلًا أو للعباد كذلك. والأوّل أظهر.

٣ في الآية السابقة.

على المدح بإضمار "أعني"؛ وأمّا على تقدير كونه في محلّ النصب أو الجرّ فهو نعت له. والمراد بالصبر: هو الصبر على مشاقّ الطاعات وعلى البأساء والضرّاء وحينَ البأس. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أقوالهم ونيّاتهم وعزائمهم.

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المداومين على الطاعات المواظِبين على العبادات. ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أموالَهم في سبيل الله تعالى.[١] ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ قال مجاهد وقَتادة والكلبي: «أي: المصلِّين بالأسحار».[٢] وعن زيد بن أَسلَم:[٣] «هم الذين يُصلُّون الصبح في جماعة».[٤] وقال الحسَن: «مدُّوا الصلاة إلى السَّحَر ثمّ استغفروا».[٥] وقال نافع: «كان ابن عمر رضي الله عنه يُحيي الليلة، ثمّ يقول: يا نافع أَسْحَرْنا؟ فأقول: لا، فيُعاود الصلاة، فإذا قلتُ: نعم، قعد[٦] يَستغفر الله ويدعو حتّى يُصبِح».[٧] وعن الحسَن: «كانوا يُصلُّون في أوّل الليل حتّى إذا كان السَّحَر أخذوا في الدعاء والاستغفار».[٨] وتخصيص الأسحار بالاستغفار؛ لأنّ الدعاء فيها أقربُ إلى الإجابة، إذ العبادة حينئذ أشقّ والنفس أصفى والروح أَجمَع لاسيّما للمتهجّدين.[٩] وتوسيط الواو بين الصفات المعدودة للدلالة على استقلال كلّ منها وكمالهم فيها، أو لتغايُر الموصوفِين بها.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ﴾ بفتح الهمزة، أي: بأنّه، أو على أنّه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي:

---

١ ط - تعالى.

٢ تفسير مقاتل بن سليمان، ٢٦٧/١؛ جامع البيان للطبري، ٢٧٤/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٦/٢.

٣ هو زيد بن أسلم العدوي العُمري، أبو أسامة وأبو عبد الله (ت. ١٣٦هـ/٧٥٣م). الإمام الحُجّة القدوة الفقيه المفسِّر. تابعيّ حدّث عن والده أسلم مولى عمر وعن عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك. وحدّث عنه مالك بن أنس وسفيان الثوري وسفيان بن عُيينة. وكان له حلقة للعلم في المسجد النبويّ. وله تفسير رواه عنه ابنه عبد الرحمن. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣١٦/٥؛ والأعلام للزركلي، ٥٦/٣-٥٧.

٤ جامع البيان للطبري، ٢٧٥/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٦/٢.

٥ معالم التنزيل للبغوي، ١٧/٢.

٦ ط: فقد.

٧ جامع البيان للطبري، ٢٧٤/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٧/٢.

٨ لم أجِده فيما وقفت عليه مِن مَظانّه. وهو عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/١؛ وبلا نسبة في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٤٩/١.

٩ ط س: للمجتهدين.

بيَّن وحدانيّتَه بنصب الدلائل التكوينيّة في الآفاق والأنفس وإنزال الآيات التشريعيّة الناطقة بذلك. عُبِّر عنه بالشهادة على طريقة الاستعارة إيذانًا بقوّته في إثبات المطلوب وإشعارًا بإنكار المنكِر. وقُرئ: "إنّهُ" بكسر الهمزة،[١] إمّا بإجراء ﴿شَهِدَ﴾ مُجرى "قال"، وإمّا بجَعْل الجملة اعتراضًا وإيقاع الفعل على قوله تعالى: "أنّ الدِّينَ"... إلخ، على قراءة "أنّ" بفتح الهمزة، كما سيأتي.[٢] وقُرئ: "شُهَداءَ لله" بالنصب[٣] على أنّه حال مِن المذكورين، أو على المدح؛ وبالرفع[٤] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، ومَآله الرفع على المدح، أي: هم شهداءُ لله. وهو إمّا جَمْع شهيد كـ"ظُرفاء" في جمع "ظريف"، أو جَمْع "شاهد" كـ"شُعراء" في جَمْع "شاعر".

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عطفٌ على الاسم الجليل بحمل الشهادة على معنًى مَجازيّ شامل للإقرار والإيمان بطريق عموم المجاز، أي: أقرُّوا بذلك. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: آمنوا به واحتجُّوا عليه بما ذُكِر مِن الأدلّة[٥] التكوينيّة والتشريعيّة. قيل: المراد بهم الأنبياء عليهم السلام.[٦] وقيل: المهاجرون والأنصار.[٧] وقيل: علماء مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأضرابه.[٨] وقيل: جميع علماء المؤمنين الذين عرفوا وَحدانيّته تعالى بالدلائل القاطعة.[٩] وارتفاعهما على القراءتين الأخيرتين، قيل: بالعطف على الضمير في "شُهَداء" لوقوع الفصل بينهما.[١٠] وأنت خبير بأنّ ذلك

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والحسن. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٧٢.

٢ في الآية الآتية، وتخريج القراءة ثمّة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي المُهلب ومُحارب بن دِثار وقتيبة بن أبي جعفر والشُّيزري عن الكسائي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٠٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٧١.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقْسَم. **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٥/١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ٥٧١.

٥ ي: الدلالة.

٦ انظر القول في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٧/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ٩٤/٥.

٧ عن عطاء عن ابن عبّاس في **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤٢١/١؛ وعن ابن كيسان في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٨/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ٩٤/٥.

٨ **تفسير مقاتل بن سليمان**، ٢٦٧/١. وعن مقاتل في **معالم التنزيل** للبغوي، ١٨/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ٩٤/٥.

٩ مَرويّ عن السُّدِّي والكلبي. **جامع البيان** للطبري، ٢٧٧/٥؛ **والوسيط** للواحدي، ٤٢١/١؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ١٨/٢؛ **واللباب** لابن عادل، ٩٥/٥.

١٠ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٥/١.

على قراءة النصب على الحاليّة يُؤدّي إلى تقييد حال المَذكورين بشهادة الملائكة وأولي العلم، وليس فيه كثير فائدةٍ. فالوجه حينئذ كون ارتفاعِهما بالابتداء، والخبرُ محذوف لدلالة الكلام عليه، أي: والملائكة وأولو العلم شهداءُ بذلك. ولك أن تَحمِل القراءتين على المدح نصبًا ورفعًا، فحينئذ يَحسُن العطف على المستتِر على كلّ حال.

وقوله تعالى:[١] ﴿قَآبِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: مُقيمًا للعدل في جميع أموره. بيان لكماله تعالى في أفعاله إثرَ بيان كماله في ذاته. وانتصابه على الحاليّة مِن ﴿ٱللَّهُ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا﴾ [البقرة، ٩١/٢]. وإنّما جاز إفرادُه -مع عدم جواز "جاء زيد وعمرو راكبًا"- لعدم اللَّبس، كقوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾ [الأنبياء، ٧٢/٢١]. ولعلّ تأخيره عن المعطوفَين للدلالة على عُلوّ رتبتهما وقُرْب منزلتهما والمسارعةِ إلى إقامة شهود التوحيد اعتناءً بشأنه ورفعًا لمَحلّه. وهو السرّ في تقديمه على المعطوفَين مع ما فيه مِن الإيذان بأصالته تعالى في الشهادة به، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة، ٢٨٥/٢].

أو مِن ﴿هُوَ﴾،[٢] وهو الأوجَه، والعامل فيها معنى الجملة، أي: تفرَّد، أو أُحِقّه؛ لأنّها حال مؤكِّدة. أو على المدح.[٣] وقيل: على أنّه صفة للمَنفيّ، أي: لا إله قائمًا... إلخ، والفَصل بينهما مِن قَبيل توسِعاتهم.[٤] وهو مندرِج في المشهود به إذا جُعِل صفة أو حالًا مِن الضمير أو نصبًا على المدح منه. وقُرئ: "القائِمُ بِالقِسْطِ"[٥] على البدليّة مِن ﴿هُوَ﴾، فيَلزَم الفصل بينهما، كما في الصفة، أو على أنّه خبر لمبتدأ محذوف. وقُرئ: "قيّمًا بالقِسْطِ".[٦]

---

١ ط س - وقوله تعالى.

٢ السياق: وانتصابُه على الحاليّة: مِن ﴿ٱللَّهُ﴾... أو مِن ﴿هُوَ﴾...

٣ السياق: وانتصابُه على الحاليّة... أو على المدح...

٤ انظر القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٤/١. واعترُض عليه. انظر: **الدرّ المصون** للسمين الحلبي، ٧٧/٣-٧٨؛ واللباب لابن عادل، ٩٧/٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٤/١؛ **المغني في القراءات** للنَّوْزاواري، ص ٥٧٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حنيفة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٠٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٦٤/١.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تكرير للتأكيد ومَزيدِ الاعتناء بمعرفة أدلّة التوحيد والحُكمِ به بعد إقامة الحُجّة، وليُجريَ عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فيُعلمَ أنّه المَنعوت بهما. ووجه الترتيب تقدُّم العِلم بقدرته على العِلم بحكمته تعالى. ورَفْعهما على البدليّة مِن الضمير، أو الوصفيّة لفاعل ﴿شَهِدَ﴾، أو الخبريّة لمبتدأ مضمَر.

وقد رُوي في فضلها أنّه عليه السلام قال: «يُجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عزّ وجلّ: إنّ لِعبدي هذا عندي عهدًا، وأنا أحقّ مَن وفّى بالعهد، أَدخِلوا عبدي الجنّة»،[1] وهو دليل على فَضْل عِلم أصول الدين وشرفِ أهله. ورُوي عن سعيد بن جُبير: «أنّه كان حول البيت ثلاثُمائة وستّون صنمًا، فلمّا نزلت هذه الآية الكريمة خرَرْنَ سُجّدًا».[2]

وقيل: نزلت في نصارى نَجران.[3] وقال الكلبي: قدِم على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حَبْران مِن أحبار الشام، فلمّا أبصرا المدينة قال أحدهما: «ما أشبَه هذه المدينةَ بصفة مدينة النبيّ عليه السلام[4] الذي يخرُج في آخر الزمان!» فلمّا دخلا عليه عليه السلام عرفاه بالصفة، فقالا له عليه السلام: «أنت محمّد؟» قال صلّى الله عليه وسلّم: «نعم»، قالا: «وأنت أحمد؟» قال عليه السلام: «أنا محمّد وأحمد»، قالا: / «فإنّا نسألك عن شيء فإن أخبرتنا به آمنّا بك وصدّقناك»، قال [٩٠ظ]
عليه السلام: «سلا»، فقالا: «أَخبِرْنا عن أعظَم شهادة في كتاب الله عزّ وجلّ»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأَسلَم الرجُلان.[5]

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ جملة مستأنَفة مؤكِّدة للأولى، أي: لا دين مَرضيًا

---

١ المعجم الكبير للطبراني، ٢٤٥/١٠ (١٠٤٥٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢١/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٠/١؛ واللباب لابن عادل، ١٠٧/٥.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٥/٨؛ تفسير القرطبي، ٤٠/٤؛ اللباب لابن عادل، ٩٣/٥.

٣ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٧/٢.

٤ ط س – عليه السلام.

٥ انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ١٠١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٧/٢.

لله تعالى سوى الإسلام الذي هو التوحيد والتدرّع بالشريعة الشريفة. وعن قتادة: «أنّه شهادةُ ألّا إله إلّا الله، والإقرارُ بما جاء مِن عند الله تعالى».[١] وقُرئ: "إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ لَلإسْلَامُ"،[٢] وقُرئ: "أنّ الدِّينَ".. إلخ،[٣] على أنّه بدل مِن ﴿أَنَّهُۥ﴾ بدلَ الكلّ إن فُسِّر الإسلامُ بالإيمان أو بما يتضمَّنه، وبدلَ الاشتمال إن فُسِّر بالشريعة، أو على أنّ ﴿شَهِدَ﴾[٤] واقع عليه على تقدير قراءة "إنّه" بالكسر،[٥] كما أُشِير إليه.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام الذي جاء به النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم وأنكروا نبوّته.[٦] والتعبير عنهم بالموصول وجعلُ إيتاءِ الكتاب صلة له لزيادة تقبيح حالهم، فإنّ الاختلاف ممّن أُوتيَ ما يُزيله ويَقطَع شأفته في غاية القُبح والسماجة. وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال أو أعمّ الأوقات، أي: وما اختلفوا في حال مِن الأحوال، أو في وقت مِن الأوقات إلّا بعد أن عِلموا بأنّه الحقُّ الذي لا مَحيد عنه، أو بعد أن عِلموا حقيقة الأمر وتمكّنوا مِن العِلم بها بالحُجج النيّرة والآيات الباهرة. وفيه مِن الدلالة على ترامي حالهم في الضلالة ما لا مَزيد عليه، فإنّ الاختلاف بعد حصول تلك المَرتبة ممّا لا يَصدُر عن العاقل. وقوله تعالى: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: حسدًا كائنًا بينهم وطلبًا للرئاسة، لا لشبهة وخفاءٍ في الأمر، تشنيعٌ إثرَ تشنيع.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بآياته الناطقةِ بما ذُكِر مِن أنّ الدِّين عند الله تعالى[٧] هو الإسلام، ولم يعمَل بمُقتضاها أو بأيّة آيةٍ كانت مِن آياته تعالى على أن يَدخُل فيها ما نحن فيه دخولًا أوّليًا. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ قائم مَقام جواب الشرط عِلّة له، أي: ومَن يَكفر بآياته تعالى فإنّه تعالى يجازيه ويعاقِبه عن قريب،

---

١ جامع البيان للطبري، ٥/٢٨١-٢٨٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٩.

٣ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٨.

٤ في الآية السالفة.

٥ الآية السالفة. ومضى تخريجها ثمّة.

٦ انظر: جامع البيان للطبري، ٥/٢٨٢-٢٨٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢/١٩.

٧ ط - تعالى.

فإنّه سريع الحساب، أي: يأتي حسابُه عن قريب، أو يتمّ ذلك بسرعة. وإظهار الجلالة لتربية المَهابة وإدخال الرَّوعة. وفي ترتيب العِقاب على مطلَق الكفر بآياته تعالى مِن غير تعرّضٍ لخصوصيّة حالِهم -مِن كون كفرِهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطِّلاع على ما فيه وكونِ ذلك للبغي-[1] دلالةٌ على كمال شِدّة عقابهم.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ٢٠﴾

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾،أي: في كون الدِّين عند الله الإسلامَ، أو جادلوك فيه بعد ما أقمتَ عليهم الحُجَج. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: أخلصتُ نفسي وقلبي وجملتي، وإنّما عُبّر عنها بالوجه؛ لأنّه أشرف الأعضاء الظاهرة ومَظهر القُوى والمَشاعر، ومَجمَع معظَم ما تقع به العبادة مِن السجود والقراءة، وبه يحصل التوجّه إلى كلّ شيء. ﴿لِلَّهِ﴾ لا أُشرِك به فيها غيرَه، وهو الدِّينُ القويم الذي قامت عليه الحُجَج ودعَت إليه الآيات والرسُل عليهم السلام. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ عطفٌ على المتّصِل في ﴿أَسْلَمْتُ﴾، وحَسُن ذلك لمكان الفَصْل الجاري مَجرى التأكيد بالمنفصل، أي: وأَسلَم مَن اتَّبعني، أو مفعولٌ معه.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: مِن اليهود والنصارى. وُضِع الموصول مَوضِع الضمير لرعاية التقابل بين وصفي المتعاطفَين. ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: الذين لا كتابَ لهم مِن مُشركي العَرب. ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ متّبعين لي، كما فعَل المؤمنون، فإنّه قد أتاكم مِن البيّنات ما يُوجِبه ويَقتضيه لا مَحالةَ، فهل أسلمتُم وعمِلتُم بقضيّتها، أو أنتم على كفركم بعدُ؟ كما يقول مَن لخّص لصاحبه المسألة ولم يَدَع مِن طرق التوضيح والبيان مَسلكًا إلّا سلكه: فهل فهِمتَها؟ على منهاج[2] قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة، ٩١/٥]، إثرَ تفصيل الصوارف عن تعاطي الخمر والمَيسِر. وفيه مِن استقصارهم وتعييرهم بالمُعانَدة وقلّة الإنصاف وتوبيخهم بالبلادة وكَلّة القريحةِ ما لا يخفى.

[1] ط: للنفي.

[2] ط: مناهج.

﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ﴾ أي: كما أسلمتم. وإنّما لم يُصرَّح به، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة، ١٣٧/٢]؛ ختمًا لباب إطلاق اسم الإسلام على شيء آخر بالكلّيّة. ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ أي: فازوا بالحظّ الأوفَر ونجَوا عن مَهاوي الضلال.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: أعرَضوا عن الاتّباع وقَبول الإسلام. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ قائم مقامَ الجواب، أي: لم يَضرُّوك شيئًا إذ ما عليك إلّا البلاغ، وقد فعلتَ على أبلغ وجه. رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: «أسلمنا»، فقال صلّى الله عليه وسلّم لليهود: «أَتشهَدون أنّ عيسى كلمةُ الله وعبده ورسوله؟» فقالوا: «معاذَ الله». وقال عليه الصلاة والسلام للنصارى: «أَتشهَدون أنّ عيسى عبدُ الله ورسوله؟» فقالوا: «معاذَ الله أن يكون عيسى عبدًا». وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾.[١] ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ عالم بجميع أحوالهم. وهو تذييل فيه وعد ووعيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أيّ آية كانت، فيَدخُل فيهم الكافرون بالآيات الناطقة[٢] بحقّيّة الإسلام على الوجه الذي مرّ تفصيله دُخولًا أوّليًا.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ هم أهل الكتاب، قتَلَ أوّلوهم الأنبياء عليهم السلام، وقتلوا أتباعَهم وهم راضون بما فعلوا، وكانوا -قاتلهم الله تعالى- حائمين حول قتل النبيّ صلّى الله غليه وسلّم، لولا أن عصَم الله عزّ وجلّ ساحته المَنيعة، وقد أُشير إليه بصيغة الاستقبال. وقُرئ بالتشديد[٣] للتكثير. والتقييد بـ"غير حقّ" للإيذان بأنّه كان عندهم أيضًا بغير حقّ.

---

١ ي - ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾. | انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٣/٨؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٢٠/٢؛ اللباب لابن عادل، ١١٢/٥.

٢ ط: القاطعة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مِقْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٠٩؛ المغني في القراءات للنُوزاوازي، ص ٥٧٣.

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: بالعدل. ولعلّ تكرير الفعل للإشعار بما بين القتلين مِن التفاوت، أو باختلافهما في الوقت. عن أبي عُبيدة بن الجرّاح: قلتُ: «يا رسول الله أيُّ الناسِ أشدُّ عذابًا يوم القيامة؟» قال: «رجل قتَل نبيًا أو رجلًا أمَر بمعروف ونهى عن منكَر.» ثمّ قرأها، ثمّ قال: «يا أبا عُبيدة قتلَت / بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيًا مِن أوّل النهار في ساعة واحدة، فقام مائة [٩١و] واثنا عشرَ رجُلًا مِن عُبّاد بني إسرائيل فأمَروا قَتَلَتَهم بالمعروف ونهَوهم عن المنكر، فقُتلوا جميعًا مِن آخر النهار».[١] وقُرئ: "ويُقاتِلُونَ الذِينَ".[٢]

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. والفاء لتضمّن اسمها معنى الشرط، فإنّها بالنَّسخ لا تُغيِّر معنى الابتداء؛ بل تَزيده تأكيدًا، وكذا الحال في النَّسخ بـ"أنّ" المفتوحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال، ٤١/٨]، وكذا النَّسخ بـ"لكنّ"، كما في قوله:

فوالله ما فارقتُكم عن مَلالةٍ ولكنّ ما يُقضى فسوف يَكونُ[٣]

وإنّما يتغيّر معنى الابتداء في النسخ بـ"ليت" و"لعلّ". وقد ذهب سيبويه والأخفش إلى مَنْع دخول الفاء عند النسخ مُطلقًا؛[٤] فالخبر عندهما قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، كما في قولك: الشيطان -فاحذَر-[٥] عدُوّ مبين.

وعلى الأوّل هو استئناف، واسم الإشارةِ مبتدأ، وما فيه مِن معنى البعد للدلالة على ترامي أمرهم في الضلال، وبُعد منزلتهم في فظاعة[٦] الحال.

---

١ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٩١/٥؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢١/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/١.

٢ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٣٨/٢.

٣ البيت لذي القرنين أبي المُطاع بن حمدان في تاج العروس للزّبيدي، «برد». ونُسِب إلى الأفوه الأودي في التذييل والتكميل لأبي حيّان، ١١٢/٤، وليس في ديوانه ولا في شعراء مَذحِج. وهو بلا نسبة في أمالي القالي، ٩٩/١؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ١٣٥/٨. وهو في المصادر السالفة جميعًا «قاليًا لكم» مكان «عن مَلالة». وهو بالرِّواية ههنا وبلا نسبة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٩٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ١١٣/٥.

٤ في مذهبهما تفصيل أوسع ممّا ذكره المصنِّف، ولغيرهما مِن النحاة مذاهب فيه. انظر: التذييل والتكميل لأبي حيّان، ١٠٩/٤-١١٤؛ وكتاب سيبويه، ١٠٢/٣-١٠٣.

٥ ط: فاحذره.

٦ س: فضاعة.

والموصول بما في حيّز صلته خبره، أي: أولئك المتّصفون بتلك الصفات القبيحة، أو المبتلون[1] بأسوأ الحال، الذين بطلت أعمالُهم التي عمِلوها مِن البرّ والحسنات، ولم يبقَ لها أثر في الدارين؛ بل بقيَ لهم اللعنة والخزيُ في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم مِن بأس الله وعذابه في إحدى الدارين. وصيغة الجمع لرعاية ما وقع في مقابَلته، لا لنفي تعدّد الأنصار مِن كلّ واحد منهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة، ٢/٢٧٠].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ مَن يتأتّى منه الرُّؤية مِن حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم، وتقريرٌ لِما سبق مِن أنّ اختلافهم في الإسلام إنّما كان بعد ما جاءهم العلم بحقّيّته، أي: ألَم تنظُر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أي: **التوراة**، على أنّ اللام للعهد. وحَمْله على جنس الكتب الإلهيّة[2] تطويل للمسافة، إذ تمام التقريب حينئذ بكون **التوراة** مِن جملتها؛ لأنّ مَدار التشنيع والتعجيب إنّما هو إعراضهم عن المحاكَمة إلى ما دُعوا إليه، وهم لم يُدعَوا إلّا إلى **التوراة**.

والمراد بما أُوتوه منها ما بُيِّن لهم فيها مِن العلوم والأحكام التي مِن جملتها ما علِموه مِن نعوت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وحقّيّة الإسلام. والتعبير عنه بـ"النصيب" للإشعار بكمال اختصاصه بهم، وكونه حقًّا مِن حقوقهم التي يَجِب مراعاتُها والعملُ بموجَبها. وما فيه مِن التنكير للتفخيم. وحَمْله على التحقير[3] لا يساعده مَقام المبالغة في تقبيح حالهم.

---

١ ط س: المبتلين.

٢ انظر حمله على الجنس في **الكشّاف** للزمخشري، ١/٢٦٧؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ١/٢٥١.

٣ حَمَله الزمخشري على التعظيم، وجوّز فيه البيضاويُّ التعظيم والتحقير. انظر: **الكشّاف**، ١/٢٦٧؛ **وأنوار التنزيل**، ١/٢٥١.

﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ الذي أُوتوا نصيبًا منه وهو التوراة.[١] والإظهار في مَقام الإضمار لإيجاب الإجابة، وإضافتُه إلى الاسم الجليل لتشريفه، وتأكيدِ وجوب المراجعة إليه. والجملة استئناف مبيّن لمَحلّ التعجيب مبنيّ على سؤال نشأ مِن صَدْر الكلام، كأنّه قيل: ماذا يَصنعون حتّى يُنظَر إليهم؟ فقيل: يُدعَون إلى كتاب الله تعالى. وقيل: حال مِن الموصول.[٢] ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دخل مِدْراسَهم،[٣] فدعاهم إلى الإيمان، فقال له نُعيم بن عمرو والحارث بن زيد: «على أيّ دين أنت؟» قال صلّى الله عليه وسلّم: «على مِلّة إبراهيم»، قالا: «إنّ إبراهيم كان يَهوديًّا»، قال صلّى الله عليه وسلّم لهما: «إنّ بيننا وبينكم التوراة فهلُمّوا إليها»، فأبَيا.[٤] وقيل: نزلت في الرَّجم، وقد اختلفوا فيه.[٥] وقيل: ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: القرآن،[٦] فإنّهم قد علِموا أنّه كتاب الله لم يَشكُّوا فيه. وقُرئ: "لِيُحكَمَ" على بناء المجهول،[٧] فيكون الاختلاف بينهم بأن أسلم بعضُهم كعبد الله بن سلام وأضرابه وعاداهم الآخَرون.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعاد لتولّيهم بعد علمِهم بوجوب الرجوع إليه. ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إمّا حال مِن ﴿فَرِيقٌ﴾ لتخصّصه بالصفة، أي: يتولّون مِن المَجلِس وهم مُعرِضون بقلوبهم، أو اعتراض، أي: وهم قوم دَيْدنهم الإعراض عن الحقّ والإصرارُ على الباطل.[٨]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٩٣/٥؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٦٢٢/٢.

٢ القول في التبيان للعُكبَري، ٢٤٩/١؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٩٥/١؛ واللباب لابن عادل، ١١٧/٥.

٣ المِدراس: البيت الذي يدرسون فيه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «درس».

٤ جامع البيان للطبري، ٢٩٣/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥١/١.

٥ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢/١؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥١/١.

٦ مَرويّ عن قتادة والحسن وابن جُريج. انظر: جامع البيان للطبري، ٢٩٤/٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥١/١.

٧ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٢٧/٢، ٢٣٩.

٨ ي: الباصل.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ مِن التولّي والإعراض. وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: حاصل بسبب أنّهم ﴿قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ باقتراف الذنوب وركوب المعاصي ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، وهي مِقدار عبادتهم العجل، ورَسَخ اعتقادهم على ذلك، وهوَّنوا عليهم الخطوب. ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ مِن قولهم ذلك، وما أشبَهه مِن قولهم: إنّ آباءنا الأنبياء يَشفَعون لنا، أو إنّ الله تعالى وعَد يعقوب عليه السلام ألّا يُعذِّب أولاده إلّا تَحِلّةَ القَسَم؛ ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا مِن القبائح.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿فَكَيْفَ﴾ ردٌّ لقولهم المذكور، وإبطال لِما غرَّهم باستعظام ما سيَدهَمهم، وتهويلُ ما سيحيق بهم مِن الأهوال، أي: فكيف يكون حالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أي: لجزاء يوم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في وقوعه ووقوع ما فيه. رُوي[١] أنّ أوّل راية تُرفَع يوم القيامة مِن رايات الكُفر راية اليهود، فيَفضَحهم الله عزّ وجلّ على رءوس الأشهاد، ثمّ يأمُر[٢] بهم[٣] إلى النار.[٤]

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: جزاء ما كسبت مِن غير نقصٍ أصلًا كما يَزعُمون. وإنّما وُضِع المَكسوبُ مَوضِعَ جزائه للإيذان بكمال الاتّصال والتلازم بينهما كأنّهما شيء واحد. وفيه دلالة على أنّ العبادة لا تُحبَط، وأنّ المؤمن لا يُخلَّد في النار؛ لأنّ تَوفية جزاء إيمانه وعمله لا تكون في النار ولا قَبل دخولها، فإذن هي بعد الخلاص منها.[٥] ﴿وَهُمْ﴾ أي: كلّ الناس المدلول عليهم بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة عذاب أو بنقص ثواب؛ بل يُصيب كلًّا منهم مِقدارُ ما كسَبه.

---

١ ي: وروي.
٢ ي: يأمرهم.
٣ ي - بهم.

٤ الخبر مِن غير نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٨/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٢/١.
٥ مِن قوله: "وفيه دلالة" بلفظ قريب جدًا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٢/١.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ الميم عِوَض عن حرف النداء؛ ولذلك لا يجتمعان.[١] وهذا مِن خصائص الاسمِ الجليل كدخوله عليه مع حرف التعريف، وقطع همزته، ودخول تاء القَسم عليه.[٢] وقيل: أصله "يا الله أُمَّنا بخير"، أي: اقصدنا به، فخُفِّف بحذف حرف النداء ومتعلَّقات الفعل / وهمزته.[٣] ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: مالك جنسِ المُلْك على الإطلاق مُلْكًا حقيقيًا، بحيثُ تتصرَّف فيه كيفما تشاء إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتةً وتعذيبًا وإثابةً مِن غير مُشارِك ولا مُمانِع. وهو نداء ثانٍ عند سيبويه؛ فإن الميم عنده تَمنَع الوصفيّة.[٤] [٩١ظ]

﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ﴾ بيان لبعض وجوه التصرّف الذي تَستدعيه مالكيّة المُلْك، وتحقيق لاختصاصها به تعالى حقيقةً وكونِ مالكيّة غيره[٥] بطريق المجاز، كما يُنبئ عنه إيثارُ الإيتاء الذي هو مجرّد الإعطاء على التمليك المُؤذِن بثبوت المالكيّة حقيقة. ﴿مَن تَشَآءُ﴾ أي: إيتاءه إيّاه. ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي: نَزْعَه منه، فالمُلْك الأوّل حقيقيّ عامّ ومملوكيّته حقيقيّة، والآخران مجازيّان خاصّان ونِسبتُهما إلى صاحبهما مجازيّة. وقيل: المُلْك الأوّل عامّ، والآخران بَعضان منه.[٦] فتأمَّلْ. وقيل: المراد بالمُلْك النبوّةُ، ونَزْعُها نقلُها مِن قوم إلى آخرين.[٧] ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ أن تُعِزَّه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أن تُذِلّه في إحداهما أو فيهما مِن غير ممانعة مِن الغير ولا مدافعة.

---

١ إذ لا يجتمع المُعوَّض والمُعوَّض عنه.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٢٦٨.

٣ انظر القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٢.

٤ انظر: كتاب سيبويه، ٢/١٩٦، وعبارته فيه: «وإذا ألحقت الميم لم تَصِف الاسم؛ مِن قِبَل أنّه صار مع الميم عندهم بمنزلة صوت كقولك: يا هَناهُ». وانظر تفصيل الكلام على مذهبه والاحتجاج له، ومذهب مَن خالفه مِن النحاة في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٩٩-١٠١.

٥ ي: غير.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ١/٢٦٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٢.

٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٢.

﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ تعريفُ ﴿ٱلْخَيْرُ﴾ للتعميم، وتقديمُ الخبر للتخصيص، أي: بقُدرتك الخيرُ كلّه لا بقُدرة أحد مِن غيرك، تتصرّف فيه قبضًا وبسطًا حسبما تقتضيه مشيئتك. وتخصيص ﴿ٱلْخَيْرُ﴾ بالذِّكْر لِما أنّه مَقضيّ بالذات، وأمّا الشرّ فمَقضيّ بالعَرَض؛ إذ ما مِن شرّ جُزئيّ إلّا وهو متضمِّن لخير كُلّيّ. أو لأنّ في حصول الشرّ دَخْلًا لصاحبه في الجملة؛ لأنّه مِن أَجزِية أعماله، وأمّا الخير ففَضْل مَحْض. أو لِرعاية الأدب. أو لأنّ الكلام فيه؛ فإنّه رُوي: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا خطّ الخندق عام الأحزاب، وقطَع لكلّ عشرة مِن أهل المدينة أربعين ذِراعًا وأخذوا يَحفِرونه، خرج مِن بطن الخندق صخرة كالتَّلّ لم تَعمَل فيها المَعاوِل؛ فوجَّهوا سلمان إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُخبِره، فجاء عليه السلام وأخذ منه المِغول فضربها ضربة صدعَتْها وبرَق منها بَرْق أضاء ما بين لابتَيها،[1] لكأنّ مِصباحًا في جَوْف بيت مُظلِم، فكبَّر وكبَّر معه المسلمون وقال: «أضاءت لي منها[2] قصور الحِيرة[3] كأنّها أنياب الكلاب»، ثمّ ضرب الثانية فقال: «أضاءت لي منها القصور الحُمْر في أرض الروم»، ثمّ ضرب الثالثة فقال: «أضاءت لي قصور صنعاء، وأخبرني جبريل عليه السلام أنّ أمّتي ظاهرة على كلّها فأبشِروا». فقال المنافقون: «ألا تَعجَبون! يُمنّيكم ويَعِدُكم الباطل ويُخبِركم أنّه يُبصِر مِن يثرب قصور الحِيرة ومدائن[4] كسرى، وأنّها تُفتَح لكم وأنتم تَحفِرون الخندقَ مِن الفَرَق[5] لا تستطيعون أن تبرُزوا»، فنزلت.[6]

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل لِما سبق وتحقيق له.

---

[1] اللابة واللُّوبة: الحرّة، وهي الأرض التي اشتدّ سواد حجارتها، وغلُظت، وارتفعت قليلًا. لسان العرب لابن منظور، «لوب».

[2] ط - منها.

[3] هي مدينة كانت على ثلاثة أميال مِن الكوفة، على موضع يقال له: النجف. كانت مسكن ملوك العرب في الجاهليّة مِن زمن نصر ثمّ مِن لخم النعمان وآباؤه. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣٢٨/٢.

[4] المدائن: هي دار مُلك الأكاسرة بالعراق، وهي على مسافة يوم مِن بغداد، ويشتمل مجموعها على مدائن متّصلة مبنيّة على جانبي دجلة شرقًا وغربًا، ودجلة تشقّ بينها، ولذلك سُمّيت المدائن. الرَّوض المِعطار للحميري، ٩/١.

[5] ي: العرق. | والفرَق: الخوف. لسان العرب لابن منظور، «فرق».

[6] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٣٩/١٩-٤٢ (الأحزاب، ١٢/٣٣)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٣/٦-٣٢٤ (الأحزاب، ٩/٣٣)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٨/١-٢٦٩؛ واللباب لابن عادل، ١٢٧/٥.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ أي: تُدخِله فيه بتعقيبه إيّاه أو بنَقص الأوّل وزيادة الثاني. ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ على أحد الوجهين. ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: تُنشئ الحيوانات مِن مَوادِّها أو مِن النُّطفة. وقيل: تُخرِج المؤمن مِن الكافر.[1] ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: تُخرِج النُّطفة مِن الحيوان. وقيل: تُخرِج الكافر مِن المؤمن.[2]

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قال أبو العبّاس المُقرئ:[3] ورد لفظُ "الحِساب" في القرآن على ثلاثة أوجهٍ: بمعنى التعب، قال تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ وبمعنى العَدد، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر، ١٠/٣٩]؛ وبمعنى المطالَبة، قال تعالى: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص، ٣٩/٣٨].[4] والباء متعلِّقة بمحذوف وقع حالًا مِن فاعل ﴿تَرْزُقُ﴾، أو مِن مفعوله، وفيه دلالة على أنّ مَن قدَر على أمثال هاتِيك الأفاعيل العظام المحيِّرة للعقول والأفهام فقُدرته على أن يَنزعَ المُلْك مِن العَجم ويُذِلّهم ويُؤتيَه العَرب ويُعِزَّهم أهونُ مِن كلّ هيِّن.

عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ "فاتحة الكتاب"، و"آية الكرسيّ"، وآيتين مِن "آل عمران": ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران، ١٨/٣] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران، ١٩/٣]،

---

١ مَرويّ عن الحسن وعطاء. جامع البيان للطبري، ٣١٠/٥-٣١١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٤/١. وبلا نسبة في التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٣/١.

٢ مَرويّ عن الحسن وعطاء. جامع البيان للطبري، ٣١٠/٥-٣١١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٤/١. وبلا نسبة في التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢٧/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٣/١.

٣ ما عرفتُه على وجه التعيين؛ لكثرة مَن كُنّوا بأبي العبّاس المُقرئ. وقد نقل عنه ابن عادل في اللباب في عدّة مواضع يظهر منها أنّه كان مُفسِّرًا أو مؤلِّفًا في غريب القرآن وتفسير ألفاظه. على أنّ السمين الحلبي كان يُكنى بأبي العبّاس المُقرئ، كما ذكر الداوودي في طبقات المفسِّرين، ١٠١/١، لكن يظهر أنّه غير المراد ههنا؛ لأنّ صاحب اللباب يذكر السمين بلقبه "شهاب الدّين"، ولأنّي نظرتُ في المواضع التي نقلها ابن عادل عن أبي العبّاس المُقرئ فما وجدتها في الدرّ المصون ولا في عُمدة الحفّاظ للسمين، فلعلّها له في كتبه التي لم تنتهِ إلينا، أو لعلّ المراد بأبي العبّاس هذا رجلٌ غير السمين.

٤ انظر: اللباب لابن عادل، ١٣٦/٥.

و﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾ إلى قوله:[١] ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران، ٣/٢٦-٢٧] معلَّقات،[٢] ما بينهنّ وبين الله[٣] حجابٌ. قُلن: يا ربّ تُهبِطنا إلى أرضك وإلى مَن يَعصيك؟ قال الله عزّ وجلّ: "إنّي حلفتُ أنّه لا يَقرؤكنّ أحد دُبُرَ كلّ صلاة إلّا جعلتُ الجَنّة مَثواه على ما كان منه، وأسكنتُه في حظيرة القدس، ونظرتُ إليه بعيني كلّ يوم سبعين مرة وقضيتُ له سبعين حاجة أدناها المغفرة، وأَعذتُه مِن كلّ عدوّ وحاسدٍ، ونصرتُه عليهم"».[٤] وفي بعض الكُتب:[٥] «أنا الله مَلِك الملوك، قلوبُ الملوك ونواصيهم بيدي فإنِ العِبادُ أطاعوني جعلتُهم لهم رحمة، وإنِ العِبادُ عصَوني جعلتُهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبّ المُلوك، ولكن تُوبوا إليّ أُعطِّفهم عليكم».[٦] وهو معنى قوله عليه السلام: «كما تكونون يُولّى عليكم».[٧]

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نُهوا عن مُوالاتهم لقرابة أو صداقة جاهليّة ونحوهما مِن أسباب المصادَقة والمعاشَرة، كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة، ٦٠/١]، وقولِه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة، ٥/٥١]، حتّى لا يكون حبُّهم ولا بغضهم إلّا لله تعالى،[٨] أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينيّة.

---

١ ط س + تعالى.

٢ السياق: إنّ فاتحة الكتاب... مُعلّقات...

٣ ط س + تعالى.

٤ عمل اليوم والليلة لابن السُّنّي، ص ١١١ (١٢٥)؛ الوسيط للواحدي، ١/٤٢٦؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٥، وقال فيه: «رواه الحارث عن عمرو وهو ضعيف»؛ اللباب لابن عادل، ٥/١٣٦. وفصّل الكلام عليه ابن عرّاق في تنزيه الشريعة، ١/٢٨٧-٢٨٨.

٥ وردت هذه العبارة في الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٠٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٣، بلفظ «قال الله عزّ وجلّ في بعض الكتب». ويُبيّن ذلك ما جاء في المُصنَّف لابن أبي شيبة، ١٨/٥٣٩ (٣٥٣٥٩): «كان في زبور داود مكتوبًا...». وما نقله المصنِّف ههنا عبارة الزمخشري في الكشّاف، ١/٢٦٩.

٦ المُصنَّف لابن أبي شيبة، ١٨/٥٣٩ (٣٥٣٥٩)؛ حلية الأولياء لأبي نُعيم، ٦/١٧٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٣.

٧ شعب الإيمان للبيهقي، ٩/٤٩٢ (٧٠٠٦)، بلفظ «كما تكونوا كذلك يُؤمَّر عليكم»؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٢٦٩. وانظر: الكافي الشاف لابن حجر، ص ٢٥.

٨ س - تعالى.

﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في مَوضِع الحال، أي: متجاوِزين المؤمنين إليهم استقلالًا أو اشتراكًا. وفيه إشارة إلى أنّهم الأحقّاء بالمُوالاة، وأنّ في مُوالاتهم مَندوحةً عن مُوالاة الكَفَرة.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: اتّخاذهم أولياءَ.[١] والتعبير عنه بالفعل للاختصار، أو لإيهام الاستهجان بذِكْره. ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن وَلايته تعالى ﴿فِى شَىْءٍ﴾، يصِحّ أن يُطلَق عليه اسم الوَلاية، فإنّ مُوالاة المتعاديَين ممّا لا يكاد يدخُل تحت الوقوع. قال:

تَـــودّ عَــــدوّي ثُــمّ تـزعُـم أنّـني   صديقُك ليس النَّوْكُ عنك بعازبِ[٢]

والجملة / اعتراضيّة. [٩٢و]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ﴾ على صيغة الخطاب بطريق الالتفات استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال. والعامل فعل النهي معتبَرًا فيه الخطاب، كأنّه قيل: لا تتّخذوهم أولياءَ ظاهرًا وباطنًا في حال مِن الأحوال إلّا حال اتّقائكم. ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: مِن جهتهم ﴿تُقَىٰةً﴾ أي: اتّقاء أو شيئًا يَجِب اتّقاؤه، على أنّ المصدر واقع مَوقِع المفعول. فإنّه يجوز إظهار المُوالاة حينئذ مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء، وانتظارِ زوال المانع مِن قَشْر العصا وإظهارِ ما في الضمير، كما قال عيسى عليه السلام: «كُن وسَطًا وامشِ جانبًا».[٣] وأصل ﴿تُقَىٰةً﴾ "وُقَيَة"، ثمّ أُبدِلت الواو تاء كـ"تُخَمَة" و"تُهَمَة"، وقُلبت الياء ألفًا. وقُرئ: "تَقِيَّة".[٤]

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ذاتَه المقدّسة، فإنّ جواز إطلاق لفظ "النفس" -مرادًا به الذات- عليه سبحانه بلا مُشاكَلة ممّا لا كلام فيه عند المتقدِّمين،

---

١ ي: الأولياء.

٢ البيت لبشّار بن بُرد في ديوانه، ص ٢١؛ وبلا نسبة في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٠/١. وقد يُنسَب لغير بشار، وفيه روايات أخرى. انظر ذلك مع تفصيل تخريجه في عمل مُحقِّق ديوانه، ص ١٩-٢١. | والنَّوْك: الحُمْق. والعازب: البعيد والغائب. لسان العرب لابن منظور، «نوك»، «عزب».

٣ مجمع الأمثال للميداني، ١٥٧/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٠/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٤/١.

٤ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

وقد صرّح بعضُ مُحقِّقي المتأخِّرين[١] بعدم الجواز، وإن أُريد به الذات إلّا مُشاكلة. وفيه مِن التهديد ما لا يخفى عِظَمه. وذِكْر "النفس" للإيذان بأنّ له عقابًا هائلًا لا يُؤبَه دونه بما يُحذَر مِن الكَفَرة. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تذييل مُقرِّر لمضمون ما قبله ومُحقِّق لوقوعه حتمًا.

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ مِن الضمائر التي مِن جملتها وَلاية الكَفَرة. ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ فيما بينكم ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيُؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه. وتقديم الإخفاء على الإبداء قد مرّ سِرّه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة، ٢/٢٨٤]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة، ٢/٧٧].

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلام مستأنَف غيرُ معطوف على جواب الشرط، وهو مِن باب إيراد العامّ بعد الخاص تأكيدًا له وتقريرًا. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيَقدِر على عقوبتكم بما لا مَزيد عليه إن لم تنتهوا عمّا نُهيتُم عنه. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المَهابة وتهويل الخَطْب، وهو تذييل لِما قبله مبيِّن لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران، ٣/٢٨]، بأنّ ذاته المقدّسة -المتميِّزة عن سائر الذوات المتّصفة بما لا يتَّصِف به شيء منها مِن العِلم الذاتيّ المتعلِّق بجميع المعلومات- متّصفةٌ بالقدرة الذاتيّة الشاملة لجميع المقدورات بحيث لا يَخرُج مِن ملكوته شيءٌ قطّ.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: مِن النفوس المكلَّفة. ﴿مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾

---

[١] في هامش ط س ي: الفاضل الشريف والفاضل التفتازاني رحمهما الله تعالى ذكراه في شرح المفتاح. «منه». | انظر: شرح المفتاح للتفتازاني، ٢٨٨و؛ والمصباح في شرح المفتاح للشريف الجرجاني، ص ٧٣٠.

عندها بأمر الله تعالى. وفيه مِن التهويل ما ليس في "حاضرًا". ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ عطفٌ على ﴿مَا عَمِلَتْ﴾. والإحضار معتبَر فيه أيضًا، إلّا أنّه خُصّ بالذِكْر في الخير؛ للإشعار بكون الخير مرادًا بالذات، وكونِ إحضار الشرّ مِن مقتضَيات الحكمة التشريعيّة.

﴿تَوَدُّ﴾ عامل في الظرف، والمعنى: تودّ وتتمنّى يوم تَجِد صحائف أعمالها مِن الخير والشرّ أو أَجزِيتَها مُحضَرة. ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي: بين ذلك اليوم ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ لغاية هو له. وفي إسناد الودادة إلى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ -سواءٌ كان لها عملٌ سيّء أو لا؛ بل كانت متمحِّضة في الخير- مِن الدلالة على كمال فَظاعة[1] ذلك اليوم وهَول مَطلَعه ما لا يخفى. اللّٰهمّ إنّا نعوذ بك مِن ذلك.

ويجوز أن يكون انتصاب ﴿يَوْمَ﴾ على المفعوليّة بإضمار "اذكروا". و﴿تَوَدُّ﴾ إمّا حال مِن ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، أو استئناف مبنيّ على السؤال، أي: اذكروا يوم تَجِد كلّ نفس ما عملت مِن خير وشرّ مُحضَرًا وادّة أنّ بينها وبينه أمدًا بعيدًا. أو كأنّ سائلًا قال حين أُمِروا بذِكْر ذلك اليوم: فماذا يكون إذ ذاك؟ فقيل: تَودّ لو أنّ بينها... إلخ. أو ﴿تَجِدُ﴾ مقصور على ﴿مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾، و﴿تَوَدُّ﴾ خبرُ ﴿مَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾. ولا تكون ﴿مَا﴾ شرطيّة؛ لارتفاع ﴿تَوَدُّ﴾. وقُرئ: "وَدَّتْ"،[2] فحينئذ يجوز كونها شرطيّة. لكنّ الحَمْل على الخبر أَوقَع معنًى؛ لأنّها حكاية حال ماضية، وأَوفَقُ للقراءة المَشهورة.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ تكرير لِما سبق وإعادة له، لكن لا للتأكيد فقط؛ بل لإفادة ما يُفيده قوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ مِن أنّ تحذيره تعالى مِن رأفته بهم ورحمته الواسعة، أو أنّ رأفته بهم لا تَمنَع تحقيق ما حذّرهموه[3] مِن عقابه، وأنّ تحذيره ليس مَبنيًا على تناسي[4] صفة الرأفة؛ بل هو متحقِّق مع تحقّقها أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار، ٨٢/٦]. فالجملة على الأوّل اعتراض، وعلى الثاني حال. وتكرير الاسم الجليل لتربية المَهابة.

---

[1] ي: فضاعة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٢٧٠/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٥٥/١.

[3] س: حذرتموه.

[4] ي: تناهي.

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ المحبّة: مَيل النفس إلى الشيء لكمال أدركَته فيه، بحيث يَحمِلها على ما يقرِّبها إليه. والعبد إذا عَلِم أنّ الكمال الحقيقيَّ ليس إلّا لله عزّ وجلّ، وأنّ كلّ ما يراه كمالًا مِن نفسه أو مِن غيره فهو مِن الله وبالله وإلى الله، لم يكن حبُّه إلّا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرَّغبة فيما يُقرِّبه إليه، فلذلك فُسِّرت المحبّة بإرادة الطاعة وجُعِلت مستلزِمة لاتّباع الرسول صلّى الله عليه وسلّم في عبادته والحرصِ على مطاوَعته.

﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يَرضَ عنكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ أي: يَكشِف الحُجُب عن قلوبكم بالتجاوز عمّا فرَط منكم، فيقرِّبكم مِن جناب عزِّه ويبوِّئكم في جوار قُدْسه. عُبِّر عنه بالمَحبّة بطريق الاستعارة أو المشاكَلة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: لمَن يَتحبّب إليه بطاعته ويتقرّب إليه باتّباع نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، فهو تذييل مقرِّر لِما قبله مع زيادة وَعْد الرحمة. ووَضْع الاسم الجليل مَوضِع الضمير للإشعار باستتباع وصفِ الألوهيّة للمغفرة والرحمة. رُوي أنّها نزلت لمّا قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحبّاؤه.[1] وقيل: نزلت في وَفْد نَجران لمّا قالوا: إنّا نعبد المَسيح حبًّا لله تعالى.[2] وقيل: في أقوام زعموا على عهده عليه الصلاة والسلام أنّهم يحبُّون الله تعالى فأُمِروا أن يجعلوا لقولهم مِصداقًا مِن العمل.[3]

[٩٢ظ] وروى الضحّاك / عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[4] أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وَقَف على قريش وهم في المَسجِد الحرام يَسجدون للأصنام[5] وقد علّقوا عليها بَيض النَّعام وجعلوا في آذانها الشُّنوف، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

---

١ مَرويّ عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس. انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ١٠٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٥.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥/٣٢٦؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ١٠٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٥.

٣ مَرويّ عن الحسن وابن جُريج. انظر: جامع البيان للطبري، ٥/٣٢٥-٣٢٦؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٢٧١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٢٥٥.

٤ ي - رضيَ الله عنهما.

٥ ي: الأصنام.

«يا معشر قريش، لقد خالفتم مِلّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام»، فقالت قريش: «إنّما نعبدها حبًا لله تعالى ليُقرّبونا إلى الله زُلفى»، فقال الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ تعالى وتعبدون الأصنام لتُقرّبكم إليه ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾، أي: اتَّبعوا شريعتي وسُنّتي ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فأنا رسوله إليكم وحُجّته عليكم.[١]

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَ﴾ أطيعوا ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ أي: في جميع الأوامر والنواهي فيَدخلُ في ذلك الطاعةُ في اتّباعه عليه الصلاة والسلام دخولًا أوّليًا. وإيثار الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثيّة الإطاعة والإشعار بعِلّتها، فإنّ الإطاعة المأمور بها إطاعته عليه الصلاة والسلام مِن حيث إنّه رسول الله، لا مِن حيث ذاتُه ولا ريب في أنّ عُنوان الرسالة مِن مُوجِبات الإطاعة ودواعيها.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ إمّا مِن تمام مَقول القول فهي صيغة المضارع المخاطَب، بحذف إحدى التاءين، أي: تتولّوا، وإمّا كلام متفرّع عليه مَسوق مِن جهته تعالى، فهي صيغة الماضي الغائب. وفي تَرْك ذِكْر احتمال الإطاعة -كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟﴾ [آل عمران، ٢٠/٣]- تلويح[٢] إلى أنّه غير محتمَل منهم. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ نفيُ المَحبّة كناية عن بُغضه تعالى لهم وسُخطِه عليهم، أي: لا يرضى عنهم ولا يُثني عليهم. وإيثار الإظهار على الإضمار[٣] لتعميم الحُكم لكلّ الكَفَرة والإشعار بعِلّته، فإنّ سُخطه تعالى عليهم بسبب كفرهم، والإيذانِ بأنّ التولّيَ عن الطاعة كفر وبأنّ مَحبّته عزّ وجلّ مخصوصة بالمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لمّا بيّن الله عزّ وجلّ[٤] أنّ الدِّين المَرضيّ عنده هو الإسلام والتوحيد، وأنّ اختلاف أهل الكتابَين فيه

---

١ بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ١٠٥-١٠٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٧/٢.
٢ وفي هامش ي: بتضمين التلويح معنى الإشارة. «منه».
٣ ي - على الإضمار.
٤ ي: تعالى.

إنّما هو للبغي والحسد، وأنّ الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوطٌ باتّباع الرسولِ صلّى الله عليه وسلّم[١] وطاعته؛ شرَعَ في تحقيق رسالته وكونِه مِن أهل بيت النبوّة القديمةِ، فبدأ ببيان جلالةِ أقدارِ الرسل عليهم السلام[٢] كافّةً، وأتبعه ذِكرَ مبدأ أمرِ عيسى عليه السلام وأمِّه وكيفيّةِ دعوته للناس إلى التوحيد[٣] والإسلام تحقيقًا للحقّ، وإبطالًا لِما عليه أهلُ الكتابَين في شأنهما مِن الإفراط والتفريط.

ثمّ بيّن بطلانَ مُحاجّتهم في إبراهيمَ عليه السلام،[٤] وادعائِهم الانتماءَ إلى مِلّته، ونزّه ساحتَه العليّة عمّا هم عليه مِن اليهوديّة والنصرانيّة.[٥] ثمّ نصّ على أنّ جميع الرسل عليهم السلام دعاةٌ إلى عبادة الله عزّ وجلّ[٦] وحدَه وطاعتِه، منزَّهون عن احتمال الدعوة إلى عبادة أنفسِهم أو غيرِهم مِن الملائكة والنبيّين،[٧] وأنّ أممهم قاطبةً مأمورون بالإيمان بمَن جاءهم مِن رسولٍ مصدّقٍ لِما معهم[٨] تحقيقًا لوجوب الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم[٩] وكتابه المصدِّق لِما بين يديه مِن التوراة والإنجيل، وتحتّمِ الطاعة له حسبما سيأتي تفصيله. وتخصيص آدمَ عليه السلام[١٠] بالذكر لأنّه أبو البشر، ومنشأ النبوّة. وكذا حال نوحٍ عليه السلام، فإنّه آدمُ[١١] الثاني.

وأمّا ذكرُ "آل إبراهيمَ" فلترغيب المعترفين باصطفائهم في الإيمان بنبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[١٢] واستمالتِهم نحوَ الاعترافِ باصطفائه بواسطة كونِه مِن زُمرتهم، مع ما مرّ مِن التنبيه على كونه عليه السلام عريقًا في النبوّة

---

١ ي: عليه السلام.

٢ ط: الصلاة والسلام.

٣ وفي هامش ط س ي: بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ الآيةَ [آل عمران، ٥١/٣]. «منه».

٤ وفي هامش ط س ي: بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية [آل عمران، ٦٥/٣]. «منه».

٥ وفي هامش ط س ي: بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ الآية [آل عمران، ٦٧/٣]. «منه».

٦ ي: تعالى.

٧ وفي هامش ط س ي: بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾... إلى آخر الآيتين [آل عمران، ٧٩/٣-٨٠]. «منه».

٨ وفي هامش ط س ي: بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾... إلى آخر الآية [آل عمران، ٨١/٣]. «منه».

٩ ي: عليه السلام.

١٠ ي - عليه السلام

١١ ط + عليه السلام.

١٢ ي: عليه السلام.

مِن زمرة المصطفَيْنَ الأخيار. وأمّا ذكر "آلِ عمرانَ" مع اندراجهم في "آل إبراهيمَ" فلإظهار مزيدِ الاعتناء بتحقيق أمرِ عيسى عليه السلام؛ لكمال رسوخِ الخلاف في شأنه، فإنّ نسبة الاصطفاءِ إلى الأب الأقرب أدلُّ على تحقّقه في الآل، وهو الداعي إلى إضافة الآلِ إلى إبراهيمَ دون نوحٍ وآدمَ عليهم السلام. والاصطفاء: أخذُ ما صفا مِن الشيء، كالاستصفاء، مثّل به اختيارَه تعالى إيّاهم بالنفوس القدسيّة وما يَليق بها مِن المَلَكات الروحانيّةِ والكمالاتِ الجسمانيّة المستتبعةِ للرّسالة في نفس المصطفى، كما في كافّة الرسل عليهم السلام، أو فيمن يلابسه وينشأ منه، كما في مريمَ.

وقيل: اصطفى آدمَ عليه السلام بأن خلقه بيده في أحسنِ تقويمٍ، وبتعليم الأسماء، وإسجادِ الملائكة إياه، وإسكانِ الجنّة. واصطفى نوحًا عليه السلام بكونه أوّلَ مَن نسخ الشرائعَ؛ إذ لم يكن قبل ذلك تزويجُ المحارم حرامًا، وبإطالة عُمره، وجعْلِ ذرّيّته هم الباقين، واستجابةِ دعوتِه في حقّ الكفَرة والمؤمنين، وحملِه على متن الماء.

والمراد بـ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: إسماعيلُ وإسحاقُ والأنبياءُ مِن أولادهما الذين مِن جملتهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وأمّا اصطفاء نفسِه عليه السلام فمفهوم مِن اصطفائهم بطريق الأولويّة. وعدمُ التصريح به للإيذان بالغنى عنه لكمال شهرةِ أمرِه في الخِلّة، وكونِه إمامَ الأنبياء وقدوةَ الرسل عليهم السلام، وكونِ اصطفاء آله بدعوته بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [البقرة، ١٢٩/٢]، ولذلك قال عليه السلام: «أنا دعوةُ أبي[١] إبراهيمَ».[٢]

وبـ﴿ءَالَ عِمْرَٰنَ﴾: عيسى عليه السلام[٣] وأمُّه مريمُ ابنةُ عِمرانَ بنِ ماثانَ بنِ العاذار بن أبي هوذ بن ربّ بابل بن ساليان بن يوحيّا بن أوشا بن أموذر بن ميشك بن حارفا بن أحاد بن يونام بن عزريا بن يوزان بن ساقط بن إيشا بن راجعيم بن سليمانَ بنِ داودَ عليهما السلام ابن إيشا بن عويل بن سلمون بن

---

[١] ط س - أبي.

[٢] مسند الإمام أحمد، ٣٧٩/٢٨ (١٧١٥٠)؛ المستدرك للحاكم، ٤٥٣/٢ (٣٥٦٦).

[٣] ط س - عليه السلام.

ياعر بن يحشون[١] بن عمياد بن دام بن حضروم بن فارض بن يهوذا بنِ يعقوبَ عليه السلام. وقيل: موسى وهارون عليهما السلام ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام، وبين العِمرانين ألفٌ وثمانمائة سنةٍ، فيكون اصطفاء عيسى عليه السلام حينئذ بالاندراج في آل إبراهيمَ عليه السلام،
[٩٣و] والأوّل هو الأظهر، بدليل تعقيبِه بقصّة مريمَ واصطفاءِ / موسى وهارون عليهما السلام بالانتظام في سلك آلِ إبراهيمَ عليه السلام انتظامًا ظاهرًا.

والمرادُ بـ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾: أهلُ زمان كلّ واحدٍ منهم، أي: اصطفى كلّ واحد منهم على عالَمي زمانه.

﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿ذُرِّيَّةً﴾ نصب على البدليّة مِن "الآلَيْن"، أو على الحاليّة منهما. وقد مرّ بيان اشتقاقها في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [البقرة، ٢/١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ في محلّ النصب على أنّه صفة لـ﴿ذُرِّيَّةً﴾، أي: اصطفى الآلَيْن حالَ كونهم ذرّيةً متسلسلةً متشعّبةَ البعضِ مِن البعض في النسَب، كما ينبئ عنه التعرّضُ لكونهم ذرّيّة. وقيل: بعضُها مِن بعض في الدِّين. فالاستمالة على الوجه الأوّل تقريبيّة، وعلى الثاني برهانيّة.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال العباد، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم البادية والخافية، فيصطفي مِن بينِهم لخِدمته مَنْ يظهر استقامتُه قولًا وفعلًا على نهج قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام، ٦/١٢٤]. والجملة تذييل مقرِّرٌ لمَضمون ما قبلها.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ في حيّز النصب على المفعوليّة بفعل مقدّرٍ على طريقة الاستئنافِ؛ لتقرير اصطفاءِ آلِ عمرانَ، وبيانِ كيفيّته، أي: اذكر لهم وقت قولِها... إلخ.

---

[١] ي: يحشو.

وقد مرّ مرارًا وجهُ توجيه التذكيرِ إلى الأوقات مع أنّ المقصود تذكير ما وقع فيها مِن الحوادث.[١]

وقيل: هو منصوب على الظرفيّة لِما قبله، أي: سميع لقولها المحكيّ، عليمٌ بضميرها المَنْويّ.

وقيل: هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه بـ﴿ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ المذكور، كأنّه قيل: واصطفى آلَ عمران إذ قالت... إلخ، فكان مِن عطف الجُمل على الجُمل، دون عطفِ المفردات على المفردات؛ ليلزَمَ كونُ اصطفاء الكلِّ في ذلك الوقت.

و﴿ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ هي حنّةُ بنتُ فاقوذ جدّةُ عيسى عليه السلام. وكانت لعِمرانَ بنِ يَصْهرَ بنتٌ اسمُها مريمُ أكبرُ مِن موسى وهارون عليهما السلام فظُنّ أنّ المراد زوجتُه، وليس بذلك،[٢] فإنّ قصّة كفالةِ زكريّا عليه السلام قاضيةٌ بأنّها زوجةُ عِمرانَ بنِ ماثانَ؛ لأنّه عليه السلام كان معاصرًا له، وقد تزوّج إيشاع أختَ حنّة أم يحيى عليه السلام. وأمّا قوله صلّى الله عليه وسلّم[٣] في شأن يحيى وعيسى عليهما السلام: «هما ابنا خالة»،[٤] فقيل: تأويله: أنّ الأخت كثيرًا ما تُطلق على بنت الأخت، وبهذا الاعتبار جُعِلا عليهما السلام ابنيْ خالة. وقيل: كانت إيشاعُ أختَ حنّةَ مِن الأمّ، وأختَ مريمَ مِن الأب، على أنّ عِمرانَ نكحَ أوّلًا أمَّ حنّة، فولدت لهما إيشاع، ثمّ نكح حنّة بناءً على حِلّ نكاح الربائبِ في شريعتهم، فولدَتْ مريمَ فكانت إيشاعُ أختَ مريمَ مِن الأب وخالتَها مِن الأمّ؛ لأنّها أخت حنّة مِن الأمّ.

روي أنّها كانت عجوزًا عاقرًا، فبينما هي ذاتَ يوم في ظلِّ شجرة إذ رأت طائرًا يُطعِم فرخَه فحنّت إلى الولد وتمنّته، وقالت:[٥] «اللّهمّ إنّ لك عليّ نذرًا إن رَزقتني ولدًا أن أتصدّق به على بيت المقدس فيكونَ مِن سَدَنته». وكان هذا النذرُ

---

[١] وفي هامش ط ي: وهو المبالغة في إيجاب ذكرها؛ لِما أنّ إيجابَ ذكر الوقت إيجابٌ لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني، ولأنّ الوقت مشتمل على ما وقع فيه مِن الحوادث، فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنّها مشاهدة عيانًا. «منه».

[٢] ط: بذاك.

[٣] ي: عليه السلام.

[٤] صحيح البخاري، ١٦٣/٤ (٣٤٣٠)؛ صحيح ابن حبّان، ٢٣٧/١ (٤٨).

[٥] ي: فقالت.

مشروعًا عندهم في الغِلمان، ثمّ هلك عِمران وهي حامل.[١] وحينئذ فقولها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ لا بدّ مِن حمله على التكرير؛ لتأكيد نذرِها وإخراجِه عن صورة التعليق إلى هيئة التنجيز.

والتعرض لوصف الربوبيّة المنبِئة عن إفاضة ما فيه صلاحُ المَربوب مع الإضافة إلى ضميرها لتحريك سلسلة الإجابة، ولذلك قيل: إذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدعُ الله بما يناسبه مِن أسمائه وصفاته.

وتأكيد الجملة لإبراز وفورِ الرغبة في مضمونها. وتقديم الجارّ والمجرور لكمال الاعتناءِ به. وإنّما عُبّر عن الولد بـ"ما" لإبهام أمرِه وقصورِه عن درجه العقلاء.

﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: مُعْتقًا لخدمة بيتِ المقدس، لا يشغَلُه شأن آخر، أو مُخلَصًا للعبادة. ونصبُه على الحاليّة مِن الموصول، والعامل فيه ﴿نَذَرْتُ﴾. وقيل: مِن ضميره في الصلة، والعامل معنى الاستقرار، فإنّها في قوّة: ما استقرّ في بطني. ولا يخفى أنّ المراد تقييدُ فعلِها بالتحرير، ليحصُل به التقرّبُ إليه تعالى، لا تقييدُ ما لا دخلَ لها فيه مِن الاستقرار في بطنها.

﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ أي: ما نذرتُه. والتقبُّل: أخذُ الشيء على وجه الرضى. وهذا في الحقيقة استدعاءٌ للولد؛ إذ لا يُتصوّر القَبولُ بدون تحقّق المقبول؛ بل للولد الذكَرِ؛ لعدم قَبول الأنثى.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لجميع المسموعات التي مِن جملتها تضرّعي ودعائي. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكلّ المعلومات التي مِن زمرتها ما في ضميري لا غير، وهو تعليل لاستدعاء القَبول، لا مِن حيث إنّ كونه تعالى سميعًا لدعائها[٢] عليمًا بما في ضميرها مصحّحٌ للتقبّل في الجملة؛ بل مِن حيث إنّ علمَه تعالى بصحّة نيّتها وإخلاصِها مستدعٍ لذلك تفضّلًا وإحسانًا. وتأكيد الجملة لعرض قوّةِ يقينها بمضمونها، وقصرُ صفتَي السمعِ والعلم عليه تعالى لعرض اختصاص دعائِها به تعالى وانقطاعِ حبل رجائها عمّا عداه بالكلّيّة مبالغةً في الضراعة والابتهال.

---

[١] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٤/٢.

[٢] ط: لدعائه.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أي: ما في بطنها. وتأنيث الضمير العائد إليه لِما أنّ المقام يستدعي ظهورَ[1] أنوثتِه، واعتبارَه في حيّز الشرط؛ إذ عليه يترتّب جوابُ "لمّا"، أعني: قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، لا على وضع ولدٍ ما،[2] كأنّه قيل: فلمّا وضعت بنتًا قالت... إلخ. وقيل: تأنيثُه لأنّ ما في بطنها كان أنثى في علم الله تعالى، أو لأنّه مئوّل بالحبْلة أو النفْس أو النَّسَمة. وأنت خبير بأنّ اعتبارَ شيءٍ[3] ممّا ذُكر في حيّز الشرط لا يكون مدارًا لترتّب الجواب عليه.

وقوله تعالى: ﴿أُنثَىٰ﴾ حال مؤكِّدة مِن الضمير أو بدلٌ منه، وتأنيثُه للمسارعة إلى عَرْض ما دَهمها[4] مِن خيبة الرجاء، أو لِما مرّ مِن التأويل بالحبْلةِ أو النسَمة، فالحال حينئذ مبيِّنة. وإنّما قالته / تحزُّنًا وتحسّرًا على خيبة رجائِها وعكسِ [٩٣ظ] تقديرِها؛ لِما كانت ترجو أن تلدَ ذكَرًا، ولذلك نذرَتْه محرّرًا للسِّدانة، والتأكيدُ للردّ على اعتقادها الباطل.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيم مِن جهته تعالى لموضوعها، وتفخيمٌ لشأنه، وتجهيلٌ لها بقدَره، أي: والله أعلم بالشيء الذي وضعتْه وما علِقَ به مِن عظائم الأمور، وجعلِه وابنه آية للعالمين، وهي غافلةٌ عن ذلك. والجملة اعتراضيّة. وقُرئ: "وَضَعْتِ"[5] على خطاب الله تعالى لها، أي: إنّك لا تعلمين[6] قدرَ هذا الموهوبِ، وما أودع الله فيه مِن علوّ الشأنِ وسموّ المقدار. وقُرئ: "وَضَعْتُ"[7] على صيغة التكلّم، مع الالتفات مِن الخطاب إلى الغَيبة؛ إظهارًا لغاية الإجلال، فيكون ذلك منها اعتذارًا لله[8] تعالى؛ حيث أتت بمولود لا يصلُح لِما نذَرَته مِن السدانة،

---

١ س: ظهور.
٢ ي – ما.
٣ ي: الشيء.
٤ ط س: دهمه.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٠.
٦ ط: لا تعلمن.
٧ قرأ بها ابن عامر ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٩.
٨ ي: اعتذار إلى الله.

أو تسليةً لنفسها على معنى: لعلّ لله تعالى فيه سرًّا وحكمة، ولعلّ هذه الأنثى خيرٌ مِن الذكر، فوَجهُ الالتفاتِ[١] ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ اعتراض آخرُ مبيِّن لِما في الأوّل مِن تعظيم الموضوعِ ورفع منزلتِه. واللامُ في "الذكَر" و"الأنثى" للعهد، أي: ليس الذكَر الذي كانت تطلُبه وتتخيّل فيه كمالًا قُصاراه أن يكون كواحد مِن السَّدَنة كالأنثى التي وُهِبتْ لها، فإنّ دائرةَ علمِها وأمنيّتها لا تكاد تُحيط بما فيها مِن جلائل الأمور. هذا على القراءتين الأُولَيَيْن وأمّا على التفسير الأخير للقراءة الأخيرة فمعناه: وليس الذكَر كهذه الأنثى في الفضيلة؛ بل أدنى منها. وأمّا على التفسير الأوّل لها فمعناه: تأكيدُ الاعتذارِ ببيان أنّ الذكَر ليس كالأنثى في الفضيلة والمزيّة وصلاحيةِ خدمة المتعبِّدات، فإنّهنّ بمَعزِل مِن ذلك، فاللامُ للجنس.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطفٌ على ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وغرَضُها مِن عَرْضها على علّام الغيوب التقرّبُ إليه تعالى، واستدعاءُ العِصمة لها، فإنّ مريمَ في لغتهم بمعنى: العابدة. قال القرطبي: «معناه خادمُ الربّ»،[٢] وإظهارُ أنّها غيرُ راجعة عن[٣] نيّتها وإن كان ما وضعته أنثى، وأنّها إن لم تكن خليقةً بسَدانة بيت المقدس فلتكنْ مِن العابدات فيه.

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ عطفٌ على ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا﴾، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، أي: أُجيرُها بحفظك. وقُرئ بفتح ياء المتكلّم في المواضع التي بعدها همزةٌ مضمومة إلّا في موضعين: ﴿بِعَهْدِيٓ أُوفِ﴾ [البقرة، ٢/٤٠]، ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ﴾ [الكهف، ١٨/٩٦].[٤]

﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ عطفٌ على الضمير، وتقديمُ الجارّ والمجرور عليه لإبراز كمالِ العناية به.

---

[١] ط ي + حينئذ.

[٢] تفسير القرطبي، ٤/٦٨.

[٣] ي: في.

[٤] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/١٦٩.

﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي: المطرود، وأصلُ الرجم: الرميُ بالحجارة. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:[١] «ما مِن مولودٍ يولد إلّا والشيطانُ يَمَسّه حين يولد، فيستهِلُّ صارخًا مِن مسّه إلّا مريمَ وابنَها»،[٢] ومعناه: أنّ الشيطان يطمع في إغواء كلِّ مولود بحيث يتأثّر منه إلّا مريم وابنها، فإنّ الله تعالى عصَمَهما ببركة هذه الاستعاذة.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾

﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ أي: أخذ مريمَ ورضيَ بها في النذر مكانَ الذَّكَر. ﴿رَبُّهَا﴾ مالكها ومبلِّغها إلى كمالها اللائق، وفيه مِن تشريفِها ما لا يخفى.

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٖ﴾ قيل: الباء زائدة، و"القَبول": مصدر مؤكِّد للفعل السابق بحذف الزوائد، أي: تقبّلها قَبولًا حسنًا، وإنّما عدَلَ عن الظاهر للإيذان بمقارنة التقبُّل لكمال الرضى، وموافقتِه للعناية الذاتيّة، فإنّ صيغة التفعّل مُشعِرةٌ بحسب أصل الوضعِ بالتكلّف، وكونِ الفعل على خلاف طبع الفاعل، وإن كان المراد بها في حقّه تعالى ما يترتّب عليه مِن كمال قوّةِ الفعل وكثرتِه.

وقيل: "القبول": ما يقبل به الشيء، كالسَّعوط[٣] واللَّدود[٤] لِما يُسعَط به ويُلَدّ. وهو اختصاصه تعالى إيّاها بإقامتها مُقام الذكَر في النَّذر، ولم تُقبلْ قبلها أنثى، أو بأن تُسلِّمها مِن أمّها عَقيبَ الوِلادة قبل أن تنشأ وتصلُحَ للسدانة.

رُوي أنّ حنّة حين وَلدتها لفّتها في خِرقة، وحملتْها إلى المسجد، ووضعتها عند الأحبار أبناءِ هارونَ، وهم في بيت المقدس كالحَجَبة في الكعبة، فقالت لهم:

---

١ ي: عليه السلام.

٢ صحيح البخاري، ١٦٤/٤ (٣٤٣١)؛ صحيح مسلم، ١٨٣٨/٤ (٢٣٦٦).

٣ السَّعوطُ: الدواءُ يُصَبّ في الأنف. الصحاح للجوهري، «سعط».

٤ اللَّدود: هو ما يُصبّ مِن الأدوية في أحد شِقَّي الفم. الصحاح للجوهري، «لدد».

«دونكم هذه النَّذيرة، فتنافسوا فيها»؛ لأنّها كانت بنتَ إمامِهم، وصاحبِ قُربانهم، فإنّ بني ماثانَ كانت رءوسَ بني إسرائيلَ وملوكَهم. وقيل: لأنّهم وجدوا أمرَها وأمرَ عيسى عليه السلام في الكتب الإلهيّة، فقال زكريّا عليه السلام: «أنا أحقُّ بها، عندي خالتُها»، فأبَوا إلّا القُرْعة، وكانوا سبعةً وعشرين، فانطلقوا إلى نهر فألقَوْا فيه أقلامَهم، فطفا قلمُ زكريّا عليه السلام، ورسَبَ أقلامُهم، فتكفّلها.[١]

وقيل: هو مصدر، وفيه مضاف مقدّر، أي: فتقبّلها بذي قبولٍ، أي: بأمرٍ ذي قَبول حسن.

وقيل: "تقبّل" بمعنى: استقبل، كتقصَّى بمعنى استقصى، وتعجَّل بمعنى استعجل، أي: استقبلها في أوّل أمرِها حين وُلدت بقَبول حسن.

﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾ مجاز عن تربيتها بما يُصلِحها في جميع أحوالها، ﴿نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مصدر مؤكِّد للفعل المذكور بحذف الزوائد. وقيل: بل لفعل مضمَر موافقٍ له، تقديرُه: فنبت نباتًا حسنًا.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ أي: جعله عليه السلام كافلًا لها، وضامنًا لمصالحها، قائمًا بتدبير أمورِها، لا على طريقة الوحي؛ بل على ما ذُكر مِن التفصيل، فإنّ رغبته عليه السلام في كفالتها وطُفوَّ قلمِه ورسوبَ أقلامِهم وغيرَ ذلك مِن الأمور الجارية بينهم كلُّها مِن آثار قدرته تعالى. وقُرئ: "أَكْفَلَهَا"،[٢] وقُرئ: "زَكَرِيَّاءَ" بالنصب والمدّ،[٣] وقُرئ بتخفيف الفاء وكسرِها ورفع "زَكَرِيَّاءُ" ممدودًا.[٤] وقُرئ: "فَتَقَبَّلْهَا[٥] رَبَّهَا" و"أَنْبِتْهَا" و"كَفِّلْهَا" على صيغة الأمر في الكلّ ونصبِ "رَبَّهَا" على الدعاء،[٦] أي: فاقبلها يا ربَّها وربِّها تربيةً حسنةً، واجعلْ زكريّا كافلًا لها، فهو تعيين لجهة التربية.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٦/١. ونحوه مسندًا عن عكرمة في جامع البيان للطبري، ٣٥٠/٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١١.

٣ وهي رواية شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

٤ قرأ بها كلٌّ مِن نافع وأبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

٥ ط: فتقبلها.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٦.

قيل: بنَى عليه السلام لها مِحرابًا في المسجد، أي: غرفةً يُصعَد إليها بسُلّم، وقيل: المحرابُ أشرفُ المجالس ومُقدَّمُها، كأنّها وضِعت في أشرف موضعٍ مِن بيت المقدس. وقيل: كانت مساجدُهم تسمّى المحاريب.

رُوي أنّه كان لا يدخل عليها إلّا هو وحده، / وإذا خرج غلّق عليها سبعة أبواب.[١] [٩٤و]

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ تقديم الظرف على الفاعل لإظهار كمالِ العناية بأمرِها، ونصبُ ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ على التوسّع، وكلمة ﴿كُلَّمَا﴾ ظرف على أنّ "ما" مصدريّة، والزمان محذوف، أو نكرةٌ موصوفة معناها: الوقتُ، والعائد محذوف، والعامل فيها جوابها، أي: كلَّ زمانِ دخولِه عليها، أو كلَّ وقتٍ دخل عليها فيه ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أي: نوعًا منه غيرَ معتاد؛ إذ كان ينزل ذلك مِن الجنّة، وكان يجد عندها في الصيف فاكهةَ الشتاء، وفي الشتاء فاكهةَ الصيف، ولم ترضَعْ ثديًا قطّ.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال زكريّا عليه السلام عند مشاهدةِ هذه الآية؟ فقيل: قال: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: مِن أين يجيء لكِ هذا الذي لا يُشبه أرزاقَ الدنيا والأبوابُ مغلَقةٌ دونك؟ وهو دليل على جواز الكرامةِ للأولياء، ومَن أنكرها جعلَ هذا إرهاصًا وتأسيسًا لرسالة عيسى عليه السلام. وأمّا جعلُه معجزةً لزكريّا عليه السلام فيأباه اشتباهُ الأمر عليه، وإنّما خاطبها عليه السلام بذلك مع كونها بمَعزِل مِن رتبة الخطاب لِما علم بما شاهده أنّها مؤيَّدة مِن عند الله تعالى بالعلم والقدرة.

﴿قَالَتْ﴾ استئناف كما قبله، كأنّه قيل: فماذا صنعت مريمُ وهي صغيرة لا قدرةَ لها على فهم السؤال وردِّ الجواب؟ فقيل: قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فلا تعجبْ ولا تستبعد، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يرزُقَه ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقدير لكثرته، أو بغير استحقاق تفضّلًا منه تعالى. وهو تعليل لكونه مِن عند الله، إمّا مِن تمام كلامِها، فيكونُ في محلّ النصب، وإمّا مِن كلامه عزّ وجلّ، فهو مستأنَف.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٥٨؛ وهو بسنده عن الربيع في جامع البيان للطبري، ٥/٣٥٦.

روي أنّ فاطمةَ الزهراءَ رضي الله تعالى عنها أهدَت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رغيفين وبضعةَ لحم، فرجع بها إليها، فقال: «هلُمّي يا بنيّة»، فكشف عن الطبَق، فإذا هو مملوء خبزًا ولحمًا، فقال لها: «أنّى لكِ هذا؟»، قالت: «هو مِن عند الله، إنّ الله يرزق مَن يشاء بغير حساب»، فقال عليه السلام: «الحمدُ لله الذي جعلك شبيهةَ سيّدةِ بني إسرائيل»، ثمّ جمَع عليًا والحسَنَ والحسينَ رضي الله عنهم[1] وجميعَ أهلِ بيته، فأكلوا وشبِعوا، وبقي الطعام كما هو، فأوسعت على جيرانها.[2]

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ كلام مستأنَف، وقصة مستقلّة، سيقت في تضاعيف حكايةِ مريمَ؛ لِما بينهما مِن قوّة الارتباطِ وشدّةِ الاشتباك مع ما في إيرادها مِن تقرير ما سيقت له حكايتُها مِن بيان اصطفاءِ آل عمران، فإنّ فضائل بعض الأقرباء أدلّةٌ على فضائل الآخَرين. و"هنا" ظرف مكانٍ، واللام للدلالة على البُعد، والكاف للخطاب، أي: في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريمَ في المحراب، أو في ذلك الوقت؛ إذ يستعار "هنا" و"ثمّة" و"حيث" للزمان.

﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ لمّا رآى كرامةَ مريمَ على الله تعالى ومنزلتَها منه تعالى رغِب في أن يكون له مِن إيشاعَ ولدٌ مثلُ ولدِ حنّةَ في النجابة والكرامة على الله تعالى، وإن كانت عاقِرًا عجوزًا فقد كانت حنّة كذلك. وقيل: لمّا رأى الفواكهَ في غير إبّانِها تنبّه لجواز وِلادةِ العجوز العاقرِ مِن الشيخ الفاني، فأقبل على الدعاء مِن غير تأخير، كما يُنبئ عنه تقديمُ الظرف على الفعل، لا على معنى أنّ ذلك كان هو الموجِبَ للإقبال على الدعاء فقط؛ بل كان جزءًا أخيرًا مِن العِلّة التامّة التي مِن جملتها كِبَرُ سِنّه عليه السلام، وضَعفُ قواه، وخوفُ مَواليه، حسبما فُصِّل في سورة مريم.[3]

---

١ ط: رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

٢ بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/١؛ وهو بإسناده في الكشف والبيان للثعلبي، ٥٧/٣؛ وقال السيوطي: أخرجه أبو يعلى عن جابر. انظر: الدرّ المنثور للسيوطي، ١٨٦/٢.

٣ انظر: تفسير سورة مريم، الآيات ٤-٦.

﴿قَالَ﴾ تفسير للدعاء، وبيان لكيفيّته، لا محلّ له مِن الإعراب. ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ كلا الجارَّين متعلِّق بـ﴿هَبۡ﴾؛ لاختلاف معنيَيهما، فاللام صِلة له، و﴿مِن﴾ لابتداء الغايةِ مجازًا، أي: أعطني مِن مَحْض قدرتِك مِن غير وسطٍ معتاد ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كما وهبتَها لحنّةَ. ويجوز أن يتعلّق ﴿مِن﴾ بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿ذُرِّيَّةً﴾، أي: كائنة مِن لدنك. و"الذرّيّة": النسلُ، تقع على الواحد والجمع، والذكر والأنثى. والمراد ههنا ولد واحد، فالتأنيث في الصفة لتأنيث لفظ الموصوف، كما في قول مَن قال:

أبــوكَ خـليـفـةٌ ولَـدتْـه أُخـرَى   وأنــتَ خـليـفـةٌ، ذاكَ الـكـمـالُ[1]

وهذا إذا لم يُقصَدْ به واحد معيّن، أمّا إذا قُصد به المعيَّن امتنع اعتبار اللفظ، نحو: طلحة وحمزة، فلا يجوز أن يقال: جاءت طلحة، وذهبت حمزة.

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: مجيبُه، وهو تعليل لِما قبله، وتحريك لسلسلة الإجابة.

﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾

﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كان المنادي جبريل عليه السلام، كما يُفصح عنه قراءةُ مَن قرأ: "فناداهُ جِبريلُ".[2] والجمع كما في قولهم: فلان يركب الخيلَ ويلبَس الثياب وما له غيرُ فرس وثوب. قال الزجّاج: «أي: أتاه النداءُ مِن هذا الجنس»؛[3] الذين هم الملائكة. وقيل: لمّا كان جبريل عليه السلام رئيسَهم عَبّر عنه باسم الجماعة تعظيمًا له. وقيل: الرئيس لا بدّ له مِن أتباع، فأسند النداء إلى الكلّ، مع كونه صادرًا عنه خاصّة. وقُرئ: "فَنَادَاهُ" بالإمالة.[4]

﴿وَهُوَ قَآئِمٞ﴾ جملة حاليّة مِن مفعول النداء مقرِّرةٌ لِما أفاده الفاءُ مِن حصول البِشارة عَقيب الدعاء. وقوله تعالى: ﴿يُصَلِّي﴾ إمّا صفة لـ﴿قَآئِمٞ﴾، أو خبر ثانٍ

---

[1] أنشده الفرّاء كما في الصحاح للجوهري، «خلف»؛ ولسان العرب لابن منظور، «خلف».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٣٦٤/٦.

[3] معاني القرآن للزجّاج، ٤٠٥/١.

[4] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

عند مَن يرى تعدّدَه عند كون الثاني جملةً، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه، ٢٠/٢٠]، أو حال أخرى منه على القول بتعدّدها بلا عطف ولا بدليّة، أو حال مِن المستكِنّ في ﴿قَآئِمٌ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ أي: في المسجد، أو في غرفة مريمَ، متعلِّق بـ﴿يُصَلِّي﴾ أو بـ﴿قَآئِمٌ﴾ على تقدير كونِ ﴿يُصَلِّي﴾ حالًا مِن ضمير ﴿قَآئِمٌ﴾؛ لأنّ العامل فيه وفي الحال حينئذ شيء واحد، فلا يلزَم الفصل بالأجنبيّ كما يلزَم على التقادير الباقية.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾ أي: بأنّ الله، وقُرئ بكسر الهمزة[1] على تقدير القول أو إجراء النداء مُجراه؛ لكونه نوعًا منه. وقُرئ: "يُبْشِرُكَ"[2] مِن الإبشار، و"يَبْشُرُكَ"[3] مِن الثلاثيّ. وأيًا ما كان ينبغي أن يكون هذا الكلام إلى آخره / محكيًّا بعبارته [٩٤ظ] مِن الله[4] عزّ وجلّ على منهاج قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الزمر، ٥٣/٣٩]، كما يلوّح به مراجعته عليه السلام في الجواب إليه تعالى بالذات لا بواسطة الملك.

والعدولُ عن إسناد التبشير إلى نون العظمة حسبما وقع في سورة مريم؛[5] للجري على سنَنِ الكبرياء، كما في قول الخلفاء: أميرُ المؤمنين يرسُم لك كذا، وللإيذان بأنّ ما حُكي هناك مِن النداء والتبشير وما يترتّب عليه مِن المحاورة كان كلّ ذلك بتوسّط الملَك بطريق الحِكاية منه سبحانه، لا بالذات كما هو المتبادَر، وبهذا يتّضح اتّحادُ المعنى في السورتين الكريمتين، فتأمّل. و"يَحيى" اسم أعجميّ، وإن جعل عربيًّا فمنعُ صرفه للتعريف ووزنِ الفعل.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: «إنّما سُمّي يحيى لأنّ[6] الله[7] تعالى أحيى به عُقرَ أمّه».[8] وقال قتادة: «لأنّه تعالى أحيى قلبه بالإيمان».[9]

---

[1] قرأ بها ابن عامر وحمزة. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١١.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢٣٩/٢.

[4] ي – مِن الله.

[5] في قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [مريم، ٧/١٩].

[6] ي: لأنّه.

[7] ي – الله.

[8] الكشف والبيان للثعلبي، ٦٢/٣.

[9] الكشف والبيان للثعلبي، ٦٢/٣.

قال القرطبي: «كان اسمه في الكتاب الأوّل حيًا».[١] ولا بدّ مِن تقدير مضافٍ يقود إليه الحالُ، أي: بوِلادة يحيى، فإنّ التبشير لا يتعلّق بالأعيان.

﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مقدّرة مِن يحيى. ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، وإنّما سمّي "كلمةً"؛ لأنّه وجد بكلمة "كن"، مِن غير أبٍ، فشابه البديعيّات التي هي عالم الأمر. و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية مجازًا، متعلّقةٌ بمحذوف وقع صفة لـ"كلمة"، أي: بكلمة كائنة منه تعالى. قيل: هو أوّل مَن آمن به، وصدّق بأنّه كلمة الله ورُوحٌ منه.

وقال السُّدّي: «لقِيَتْ أمُّ يحيى أمَّ عيسى، فقالت: "يا مريم أشَعرتِ بحبَلي؟" فقالت مريم: "وأنا أيضًا حُبلى"، قالت: "فإنّي وجدتُ ما في بطني يسجد لِما في بطنك"، فذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ﴾... إلخ».[٢] وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ يحيى كان أكبرَ مِن عيسى عليهما السلام بستّة أشهرٍ»،[٣] وقيل: بثلاث سنين، وقيل: قبل رفعِ عيسى عليه[٤] السلام بمدّة يسيرةٍ، وعلى كلّ تقديرٍ يكون بين وِلادة يحيى وبين البِشارة بها زمان مديد؛ لِما أنّ مريمَ ولَدت وهي بنتُ ثلاثَ عشرةَ سنةً، أو بنتُ عشرِ سنين. وقيل: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بكتابِ الله، سمّي "كلمةً" كما قيل: "كلمة الحُوَيدرة" لقصيدته.[٥]

﴿وَسَيِّدًا﴾ عطفٌ على ﴿مُصَدِّقًا﴾، أي: رئيسًا يسود قومَه ويفوقهم في الشرف، وكان فائقًا للناس قاطبةً، فإنّه لم يُلِمَّ بخطيئة، ولم يَهُمَّ بمعصية، فيا لها مِن سِيادة ما أسناها!

﴿وَحَصُورًا﴾ عطفٌ على ما قبله، أي: مبالِغًا في حصر النفس وحبسِها عن الشهوات مع القدرة. روي أنّه مرَّ في صِباه بصبيان فدعَوْه إلى اللعب، فقال: «ما لِلَّعب خُلقتُ».[٦]

---

١ تفسير القرطبي، ٧٥/٤.

٢ جامع البيان للطبري، ٣٧٣/٥، بسنده إلى السدّي.

٣ تفسير الرازي، ٢١١/٨؛ وأخرجه الطبري بسنده دون قوله: «بستّة أشهر». انظر: جامع البيان للطبري، ٣٧٢/٥.

٤ ي: عليهما.

٥ روي أنّ الحُويدرة ذُكِر لحسّان، فقال: "لعَن الله كلمتَه"، أي: قصيدتَه. البحر المحيط لأبي حيّان، ١٣١/٣. والحُوَيدرة لقب شاعر جاهليّ اسمه قُطبة بن الحصين الغطفاني. انظر: تاج العروس للزبيدي، «حدر».

٦ جامع البيان للطبري، ٤٧٤/١٥ (مريم، ١٢/١٩).

﴿وَنَبِيًّا﴾ عطفٌ على ما قبله، مترتِّب على ما عُدِّد مِن الخصال الحميدة.

﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: ناشئًا منهم؛ لأنّه كان مِن أصلاب الأنبياء عليهم السلام، أو كائنًا مِن جملة المشهورين بالصلاح، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة، ١٣٠/٢]. والمراد بالصلاح ما فوق الصلاحِ الذي لا بدّ منه في منصِب النبوّة البتّة مِن أقاصي مراتبه، وعليه مبنيٌّ دعاءُ سليمانَ عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل، ١٩/٢٧].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قال زكريّا عليه السلام حينئذ؟ فقيل: قال: ﴿رَبِّ﴾، لم يخاطِب الملَكَ المناديَ له بملابسة أنّه المباشرُ للخطاب، وإن كان ذلك بطريق الحكاية عنه تعالى؛ بل جرى على نهجِ دعائه السابق مبالغةً في التضرّع والمناجاة، وجِدًّا في التبتّل إليه تعالى، واحترازًا عمّا عسى يوهم خطابُ الملَكِ مِن توهّم أن علمه سبحانه بما يصدُر عنه يتوقّف على توسّطه كما يتوقّف وقوفُ البشر على ما يصدر عنه سبحانه على توسّطه في عامّة الأحوال، وإن لم يتوقّف عليه[1] في بعضها.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ فيه دلالة على أنّه قد أُخبِر بكونه غلامًا عند التبشير، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم، ٧/١٩]، و﴿أَنَّىٰ﴾ بمعنى: كيف، أو "مِن أين"، و"كان" تامّةٌ، و﴿أَنَّىٰ﴾ واللام متعلّقتان بها، وتقديمُ الجارِّ على الفاعل لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بما قُدِّم، والتشويقِ إلى ما أُخِّر، أي: كيف -أو مِن أين- يحدُث لي غلام؟ ويجوز أن يتعلّق اللامُ بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿غُلَٰمٌ﴾؛ إذ لو تأخّر لكان صفة له. أو ناقصةٌ[2] واسمها ظاهرٌ، وخبرها إمّا ﴿أَنَّىٰ﴾، واللام متعلِّقة بمحذوف كما مرّ، أو هو الخبر، و﴿أَنَّىٰ﴾ منصوب على الظرفيّة.

---

[1] ط - عليه.

[2] السياق: "كان" تامّة... أو ناقصة...

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ حال مِن ياء المتكلِّم، أي: أدركَني كِبَرُ السِّنِّ وأثّر فيَّ، كقولهم: أدركَته السِّنُّ، وأخذَته السِّنّ. وفيه دلالة على أنّ كِبَر السِّنّ مِن حيث كونُه مِن طلائع الموت طالبٌ للإنسان لا يكاد يتركه. قيل: كان له تسعٌ وتسعون سنةً. وقيل: اثنتان وتسعون. وقيل: مائة وعشرون. وقيل: ستّون. وقيل: خمس وستّون. وقيل: سبعون. وقيل: خمس وسبعون. وقيل: خمس وثمانون، ولامرأته ثمانٍ وتسعون.

﴿وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ﴾ أي: ذاتُ عُقرٍ، وهو أيضًا حال مِن ياء ﴿لِى﴾ عند مَن يجوّز تعدّد الحال، أو مِن ياء ﴿بَلَغَنِىَ﴾، أي: كيف يكون لي ذلك والحال أنّي وامرأتي على حالةٍ[1] منافيةٍ له كلَّ المنافاة؟ وإنّما قاله عليه السلام مع سبق دعائه بذلك وقوّة يقينه بقدرة الله تعالى عليه[2] لا سيّما بعد مشاهدته عليه السلام للشواهد السالفة استعظامًا لقدرة الله سبحانه، وتعجيبًا منها، واعتدادًا بنعمته عزّ وجلّ[3] عليه في ذلك، لا استبعادًا له. وقيل:[4] بل كان ذلك للاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبِشارة ستّون سنةً،[5] وكان قد نسِيَ دعاءَه، وهو بعيد. وقيل: كان ذلك استفهامًا عن كيفيّة حدوثه.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿يَفْعَلُ﴾ في قوله عزّ وجلّ:[6] ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: ما يشاء أن يفعلَه مِن تعاجيب الأفاعيل الخارقةِ للعادات. فـ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿يَفْعَلُ﴾ خبره، والكاف في محلّ / النصب على أنّها [٩٥و]
في الأصل نعتٌ لمصدر محذوف، أي: الله يفعل ما يشاء أن يفعله فعلًا مثلَ ذلك الفعل العجيبِ، والصنعِ البديعِ، الذي هو خلقُ الولد مِن شيخٍ فانٍ وعجوزٍ عاقر، فقُدِّم على العامل لإفادة القصر بالنسبة إلى ما هو أدنى مِن المشار إليه.

واعتبرت الكافُ مقحَمةً؛ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة مِن الفخامة، وقد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة، ٢/١٤٣]،

---

١ ي: حال.
٢ ي - عليه.
٣ ي: تعالى.
٤ وفي هامش س ي: وهو قول الحسَن وابن كَيسان «منه».
٥ قال أبو حيّان: «نقل عن سفيان». **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٣٥/٣.
٦ ي: تعالى.

أو على أنّها حال مِن ضمير المصدرِ المقدّر معرِفة، أي: يفعل الفعل كائنًا مثل ذلك، أو في محلّ الرفع على أنّها خبر والجلالة مبتدأ، أي: على نحو هذا الشأن البديع شأنُ الله تعالى، و﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ بيان لذلك الشأن المبهَم، أو ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: الأمر كذلك، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ بيان له.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ أي: علامة تدلّني على تحقّق المسئول، ووقوعِ الحبَل. وإنّما سألها لأنّ العُلوق أمرٌ خفيّ، لا يوقَف عليه، فأراد أن يُطلعه الله تعالى عليه؛ ليتلقّى تلك النعمةَ الجليلة مِن حين حصولِها بالشكر، ولا يؤخِّرَه إلى أن يظهر ظهورًا معتادًا.

ولعلّ هذا السؤالَ وقع بعد البِشارة بزمانٍ مديد؛ إذ به يظهر ما ذُكر مِن كون التفاوت بين سِنَّي يحيى وعيسى عليهما السلام بستّة أشهر، أو بثلاثِ سنينَ؛ لأنّ ظهورَ العلامة كان عَقيبَ تعيينها؛ لقوله تعالى في سورة مريم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ الآيةَ [مريم، ١١/١٩]، اللّهمّ إلّا أن يكونَ المجاوَبةُ بين زكريّا ومريمَ في حالة كِبَرها، وقد عُدّت مِن جملة مَن تكلّم في الصِّغَر بموجب قولها المحكيّ، والجعلُ إبداعيّ، واللام متعلِّقة به، والتقديم لِما مرّ مرارًا مِن الاعتناء بما قدّم، والتشويق إلى ما أُخّر، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةٗۖ﴾. وقيل: هو بمعنى التصيير المستدعي لمفعولين؛ أوّلُهما ﴿ءَايَةٗۖ﴾، وثانيهما ﴿لِّيٓ﴾، والتقديم لأنّه لا مسوّغ لكون ﴿ءَايَةٗۖ﴾ مبتدأً عند انحلال الجملة إلى مبتدأ وخبر سوى تقديم الجارّ، فلا يتغيّر حالهما بعد دخول الناسخ.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أن لا تقدر على تكليمهم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: متوالية؛ لقوله تعالى في سورة مريم: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم، ١٠/١٩]، مع القدرة على الذكر والتسبيح. وإنّما جُعلت آيتُه ذلك لتخليص المدّة لذكر الله تعالى وشكره قضاءً لحقّ النعمة، كأنّه قيل: آيةُ حصولِ المطلوب ووصول النعمة أن تحبِسَ لسانك إلّا عن شكرها، وأحسنُ الجواب ما اشتقّ مِن السؤال.

﴿إِلَّا رَمۡزٗا﴾ أي: إشارةً بيدٍ أو رأس أو نحوِهما، وأصلُه التحرّكُ، يقال: ارتمزَ،[١] أي: تحرّك، ومنه قيل للبحر: الراموز. وهو استثناء منقطعٌ؛ لأنّ الإشارة ليست مِن قبيل الكلام، أو متّصلٌ على أنّ المراد بالكلام ما فهم منه المرام، ولا ريب في كون الرمز مِن ذاك القبيل. وقُرئ: "رَمَزًا" بفتحتين[٢] على أنّه جمع رَامز، كخَدَم، وبضمَّتين[٣] على أنّه جمع رَمُوز، كرُسُل، على أنّه حال منه ومِن ﴿ٱلنَّاسَ﴾ معًا، بمعنى: مترامزين، كقوله:

متَى[٤] ما[٥] تلْقَني فردَيْنِ تَرجُف   رَوانِفُ أليَتَيكَ وتُستطارا[٦]

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ أي: في أيام الحبْسة شكرًا لحصول التفضُّل والإنعام، كما يُؤْذِن به التعَرّضُ لعنوان الربوبيّة. ﴿كَثِيرٗا﴾ أي: ذكرًا كثيرًا، أو زمانًا كثيرًا. ﴿وَسَبِّحۡ﴾ أي: سبِّحه تعالى، أو افعل التسبيحَ. ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ أي: مِن الزوال إلى الغروب، وقيل: مِن العصر إلى ذهاب صدر الليل. ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ مِن طلوع الفجرِ إلى الضحى. قيل: المرادُ بـ"التسبيح": الصلاةُ؛ بدليل تقييده بالوقت، كما في قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ [الروم، ١٧/٣٠]، وقيل: الذِكر اللّسانيّ، كما أنّ المراد بالذِّكر: الذِّكرُ القلبيّ، وقُرئ: "الأَبْكَارِ" بفتح الهمزة،[٧] على أنّه جمعُ "بِكر"، كسِحرٍ وأسحارٍ.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ شروع في شرح بقيّةِ أحكامِ اصطفاء آلِ عمران إثرَ الإشارة إلى نُبَذٍ مِن فضائل بعضِ أقاربهم، أعني: زكريّا ويحيى عليهما السلام؛ لاستدعاء المقامِ إيّاها حسبما أشير إليه، وقُرئ بتذكير الفعل.[٨]

---

١ ي: ايرتمز.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والأعمش وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٢.

٤ ي: متيما.

٥ ي – ما.

٦ لعنترة في لسان العرب لابن منظور، «طير»؛ وأساس البلاغة للزمخشري، «رنف».

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٢.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٢.

والمرادُ بـ﴿ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ جبريلُ عليه السلام، وقد مرّ ما فيه مِن الكلام.[١] و﴿إِذۡ﴾ منصوب بمضمَر معطوفٍ على المضمَر السابق عطفَ القِصّة على القصّة، وقيل: معطوف على الظرف السابق، أعني: قولَه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ﴾ [آل عمران، ٣٥/٣]، منصوب بناصِبه، فتدبّرْ، أي: واذكر أيضًا مِن شواهد اصطفائِهم وقتَ قولِ الملائكة عليهم السلام: ﴿يَـٰمَرۡيَمُ﴾، وتكريرُ التذكير للإشعار بمزيد الاعتناء بما يُحكى مِن أحكام الاصطفاءِ والتنبيهِ على استقلالها وانفرادِها عن الأحكام السابقة، فإنّها مِن أحكام التربية الجُسمانيّة اللائقة بحال صِغَر مريمَ عليها السلام، وهذه مِن باب التربية الروحانيّة بالتكاليف الشرعيّةِ المتعلِّقة بحال كِبَرها. قيل: كلّموها شِفاهًا كرامةً لها، أو إرهاصًا لنبوّة عيسى عليه السلام؛ لمكان الإجماعِ على أنّه تعالى لم يَستنبِئ امرأةً.[٢] وقيل: ألهموها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ أوّلًا حيث تقبّلكِ مِن أمّكِ بقَبولٍ حسن، ولم يتقبّل غيرَكِ أنثى، وربّاكِ في حِجْرِ زكريّا عليه السلام، ورزَقكِ مِن رِزق الجنّةِ، وخَصّكِ بالكرامات السنيّة.

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: ممّا يُستقذَر مِن الأحوال والأفعال، وممّا قذَفكِ[٣] به اليهودُ بإنطاق الطفلِ.

﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ آخِرًا ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ بأن وهبَ لكِ عيسى عليه السلام مِن غير أب، ولم يكن ذلك لأحدٍ مِن النساء، وجعلكما آيةً للعالمين، فعلى هذا ينبغي أن يكون تقديمُ حكاية هذه المقاولة على حكاية بشارتِها بعيسى عليه السلام؛ لِما مرّ مرارًا مِن التنبيه على أنّ كلًّا منهما مستحِقٌّ للاستقلال بالتذكير، ولو رُوعي الترتيبُ الخارجيُّ لَتبادر كونُ الكلّ شيئًا واحدًا.

---

١ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ الآيةَ [آل عمران، ٣٩/٣].

٢ كذا في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٦/٢. وقال السيوطي: «قلت: دعوى الإجماع عجيب، فإنّ الخلاف في نبوّة نسوة موجود، خصوصًا مريم، فإنّ القول بنبوّتها شهير؛ بل قال الشيخ تقي الدين السُّبكي في الحلبيّات إلى ترجيحِه، وقال: إنّ ذكرها مع الأنبياء في سورة الأنبياء قرينة قويّة لذلك». نواهد الأبكار للسيوطي، ٥٣١/٢.

٣ ي: قرفك.

وقيل: المراد بالاصطفاءَين واحد، والتكرير للتأكيد وتبيينِ مَن اصطفاها عليهنّ، فحينئذ لا إشكالَ في ترتيب النظم الكريم؛ إذ يُحمل حينئذ الاصطفاءُ على ما ذُكر أوّلًا، ويُجعل هذه المقاولة قبل بِشارتها بعيسى عليه السلام إيذانًا بكونها قبل ذلك متوفّرةً / على الطاعات والعبادات حسبما أُمِرت بها، مجتهدةً [٩٥ظ] فيها، مُقْبِلةً على الله تعالى، مُتبتّلةً إليه تعالى، منسلخةً عن أحكام البشريّة، مستعدّةً لفيضان الروح عليها.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾

﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾ تكريرُ النداءِ للإيذان بأنّ المقصودَ بالخطاب ما يرِدُ بعده، وأنّ ما قبله مِن تذكير النِّعم كان تمهيدًا لذِكره، وترغيبًا في العمل بموجبه.

﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: قومي في الصلاة، أو أطيلي القيام فيها له تعالى. والتعرّضُ لعنوان ربوبيّته تعالى لها للإشعار بعِلّة وجوبِ الامتثالِ بالأمر.

﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أُمِرَت بالصلاة بالجماعة بذكر أركانها مبالغةً في إيجاب رعايتها، وإيذانًا بفضيلة كلٍّ منها وأصالتِه. وتقديمُ السجود على الركوع؛ إمّا لكون الترتيب في شريعتهم كذلك، وإمّا لكون السجودِ أفضلَ أركانِ الصلاة، وأقصى مراتبِ الخضوع، ولا يقتضي ذلك كونَ الترتيب الخارجيّ كذلك؛ بل اللائقُ به الترقّي مِن الأدنى إلى الأعلى، وإمّا لِيَقترِن ﴿ٱرۡكَعِي﴾ بـ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ للإشعار بأنّ مَن لا ركوعَ في صلاتهم ليسوا مصلّين. وأمّا ما قيل مِن أنّ الواوَ لا يوجب الترتيبَ فغايتُه التصحيحُ لا الترجيح. وتجريدُ الأمر[١] بالرُّكنين الأخيرين عمّا قُيِّد به الأوّلُ لِما أنّ المراد تقييدُ الأمر بالصلاة بذلك، وقد فعل حيث قيّد به الركن الأوّل منها.

وقيل: المرادُ بـ"القنوت": إدامةُ الطاعات، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزمر، ٩/٣٩]، وبـ"السجود": الصلاةُ؛ لِما مرّ مِن أنّه أفضلُ أركانها، وبـ"الركوع": الخشوعُ والإخباتُ.

---

[١] ي + وتجريد الأمر.

قيل: لمّا أُمِرَت بذلك قامت في الصلاة حتّى ورِمَتْ قدَماها، وسالت دمًا وقَيحًا.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سلف مِن الأمور البديعة، وما فيه مِن معنى البعد للتنبيه على علوّ شأنِ المشارِ إليه، وبُعد منزلتِه في الفضل. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: مِن الأنباء المتعلّقةِ بالغيب. والجملة مستأنَفة لا محلّ لها مِن الإعراب، وقوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ جملة مستقِلّة مبيّنة للأُولى. وقيل: الخبرُ هو الجملة الثانية، و﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ إمّا متعلّق بـ﴿نُوحِيهِ﴾، أو حال مِن ضميره، أي: نوحي مِن أنباء الغيب، أو نوحيه حالَ كونه مِن جملة أنباء الغيب. وصيغةُ الاستقبال للإيذان بأنّ الوحيَ لم ينقطعْ بعدُ.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: عند الذين اختلفوا وتنازعوا في تربية مريمَ، وهو تقرير وتحقيق لكونه وحيًا على طريقة التهكُّم بمُنكِريه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ الآيةَ [القصص، ٢٨/٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ الآيةَ [القصص، ٢٨/٤٥]، فإنّ طريق معرفة أمثالِ هاتِيك الحوادثِ والواقعات إمّا المشاهدةُ وإمّا السماعُ، وعدمُه محقَّقٌ عندهم، فبقيَ احتمال المعاينة المستحيلةِ ضرورةً، فنُفِيَت تهكّمًا بهم.

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ﴾ ظرف للاستقرار العامل في ﴿لَدَيْهِمْ﴾، و﴿أَقْلَـٰمَهُمْ﴾: أقداحَهم التي اقترعوا بها، قيل: اقترعوا بأقلامهم التي كانوا يكتُبون بها التوراة تبرّكًا. ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ متعلّق بمحذوف دلَّ عليه: ﴿يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ﴾، أي: يُلقونها ينظرون، أو ليعلموا أيُّهم يكفُلُها.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: في شأنها تنافُسًا في كفالتها حسبما ذكر فيما سبق. وتكريرُ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ مع تحقّق المقصودِ بعطف ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ على ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء، ١٧/٤٧]؛ للدلالة على أنّ كلَّ واحدٍ مِن عدم حضورِه

صلّى الله عليه وسلّم عند إلقاءِ الأقلام وعدمِ حضوره عند الاختصام مستقِلٌّ بالشهادة على نبوّته عليه السلام لا سيّما إذا أريد باختصامهم تنازعُهم قبل الاقتراعِ، فإنّ تغييرَ الترتيبِ في الذِّكر مؤكِّدٌ له.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ شروع في قصّة عيسى عليه السلام، وهو بدل مِن ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾،[1] منصوب بناصِبه، وما بينهما اعتراض جيءَ به تقريرًا لِما سبَق، وتنبيهًا على استقلاله وكونِه حقيقًا بأن يُعدَّ على حِياله مِن شواهدِ النبوّة، وتركُ العطف بينهما بناءً على اتّحاد المخاطِب والمخاطَب، وإيذانًا بتقارُن الخطابين، أو تقارُبهما في الزمان. وقيل: منصوب بمضمَر معطوفٍ على ناصبه. وقيل: بدل مِن ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، كأنّه قيل: وما كنت حاضرًا في ذلك الزمان المديد الذي وقع في طرَفٍ منه الاختصامُ، وفي طرَفٍ آخرَ هذا الخطابُ إشعارًا بإحاطته عليه السلام بتفاصيلِ أحوالِ مريمَ عليها السلام مِن أوّلها إلى آخرها. والقائلُ جبريلُ عليه السلام، وإيرادُ صيغة الجمعِ لِما مرّ.[2]

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ "مِن" لابتداءِ الغاية مَجازًا متعلِّقةٌ بمحذوف وقعَ صفةً لـ"كلمة"، أي: بكلمة كائنةٍ منه عزّ وجلّ،[3] ﴿ٱسْمُهُ﴾ ذُكر الضميرُ الراجعُ إلى "الكلمة"؛ لكونها عبارةً عن مذكّر، وهو مبتدأ، خبرُه: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾، وقوله تعالى: ﴿عِيسَى﴾ بدل منه، أو عطفُ بيانٍ، وقيل: خبر آخرُ، وقيل: خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقيل: منصوب بإضمار "أعني" مدحًا. وقوله تعالى: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة لـ﴿عِيسَى﴾.

وقيل: المرادُ بالاسم ما به يتميّز المسمّى عمّن سواه، فالخبرُ حينئذ مجموعُ الثلاثةِ؛ إذ هو المميّز له عليه السلام تمييزًا عن جميع مَن عداه. و﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ لَقَبُه عليه السلام وهو مِن الألقاب المشرّفة كالصدّيق، وأصلُه بالعبريّة "مسيحا"،

---

١ آل عمران، ٤٢/٣.

٢ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الآية [آل عمران، ٣٩/٣].

٣ ي: تعالى.

ومعناه: المبارَك. و﴿عِيسَى﴾ معرّب مِن "إيشوع"، والتصدّي لاشتقاقهما مِن المسْح والعيْس، وتعليلُه بأنّه عليه السلام مُسِحَ بالبركة، أو بما يطهّره مِن الذنوب، أو مَسَحَه جبريلُ عليهما السلام، أو مسَح الأرضَ ولم يُقِمْ في موضع، أو كان عليه السلام يمسَح ذا العاهةِ فيبرأُ، وبأنّه كان في لونه عيس، أي: بياض يعلوه حُمرةٌ؛ مِن قَبيل الرَّقْم على الماء. وإنّما قيل: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ مع كون الخطابِ لها تنبيهًا على أنّه يُولد مِن غير أبٍ فلا يُنسب إلّا إلى أمّه، وبذلك فُضّلت على نساء العالمين.

﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ "الوجيهُ": ذو الجاه، وهو القوّةُ والمنَعةُ والشرَفُ. وهو حال مقدّرة مِن "كَلِمَةٍ"، فإنّها وإن كانت نكرةً لكنّها صالحة لِأن ينتصِبَ بها الحال، وتذكيرُها باعتبار المعنى. والوَجاهةُ في الدنيا: النبوّة والتقدّمُ على الناس، وفي الآخرة: الشفاعةُ وعلوُّ الدرجة في الجنّة.

﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: مِن الله عزّ وجلّ، قيل: هو إشارة إلى رفعه عليه
[٩٦و] السلام[1] إلى السماء وصُحبةِ الملائكة. وهو عطفٌ على / الحال الأولى، وقد عُطف عليه قوله تعالى:

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي: يكلّمهم حال كونِه طفلًا وكهلًا كلامَ الأنبياء مِن غير تفاوت. و﴿ٱلْمَهْدِ﴾ مصدر سُمّي به ما يُمهَّد للصّبيّ، أي: يُسوَّى مِن مضجعه. وقيل: إنّه رُفع شابًّا، والمراد: وكهلًا بعد نزوله، وفي ذكر أحوالِه المختلفة المتنافيةِ إشارة إلى أنّه بمَعزِل مِن الألوهيّة.

﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حال أخرى مِن "كَلِمة"، معطوفة على الأحوال السالفة،[2] أو مِن الضمير في ﴿يُكَلِّمُ﴾.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

---

[1] س - عليه السلام.

[2] ي: السابقة.

﴿قَالَتْ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قالت مريمُ حين قالت لها الملائكة ما قالت؟[١] فقيل: قالت متضرّعةً إلى ربّها: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ أي: كيف يكونُ، أو مِن أين يكون ﴿لِي وَلَدٌ﴾ على وجه الاستبعاد العاديّ والتعجّب واستعظامِ قدرةِ الله عزّ وجلّ.[٢] وقيل: على وجه الاستفهامِ والاستفسارِ بأنّه بالتزوّج أو بغيره.

و﴿يَكُونُ﴾ إمّا تامّة، و﴿أَنَّىٰ﴾ و"اللّام" متعلّقتان بها، وتأخيرُ الفاعل عن الجارّ لِما مرّ مِن الاعتناء بالمقدّم والتشويقِ إلى المؤخّر، ويجوز أن يتعلّق اللامُ بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿وَلَدٌ﴾؛ إذ لو تأخّرَ لكان صفةً له. وإمّا ناقصة واسمُها ﴿وَلَدٌ﴾، وخبرها إمّا ﴿أَنَّىٰ﴾ و"اللّامُ" متعلّقة بمضمَر وقع حالًا كما مرّ، أو خبر و﴿أَنَّىٰ﴾ نصبَ على الظرفيّة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ جملة حاليّة محقِّقة للاستبعاد، أي: والحال أنّي على حالة منافيةٍ للوِلادة.

﴿قَالَ﴾ استئناف كما سلف، والقائلُ هو الله تعالى، أو جبريلُ عليه السلام، ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ الكلامُ في إعرابه كما مرّ في قصّة زكريّا[٣] بعينه، خلا أنّ إيراد ﴿يَخْلُقُ﴾ ههنا مكانَ "يفعلُ" هناك لِما أنّ وِلادةَ العذراءِ مِن غير أن يمسَّها بشرٌ أبدعُ وأغربُ مِن وِلادة عجوزٍ عاقرٍ مِن شيخ فانٍ، فكان الخلق المُنبئ عن الاختراع أنسَبَ بهذا المقام مِن مطلَق الفعل، ولذلك عُقّب ببيان كيفيّته، فقيل: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ مِن الأمور، أي: أراد شيئًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ [يس، ٨٢/٣٦]. وأصلُ "القضاءِ": الإحكامُ، أُطلق على الإرادة الإلهيّة القطعيّةِ المتعلّقةِ بوجود الشيءِ لإيجابها إيّاه البتّةَ. وقيل: الأمرُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء، ٢٣/١٧].

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ لا غيرُ ﴿فَيَكُونُ﴾ مِن غير ريثٍ، وهو كما ترى تمثيل لكمال قدرته تعالى وسهولةِ تأتّي المقدوراتِ حسبما يقتضيه مشيئتُه، وتصويرٌ

---

١ ي - ما قالت.
٢ ي: تعالى.
٣ في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران، ٤٠/٣].

لسرعة حدوثِها بما هو علم فيها مِن طاعة[1] المأمورِ المطيعِ للآمرِ القويّ المطاعِ، وبيانٌ لأنّه تعالى كما يقدِر على خلق الأشياءِ مُدرّجًا بأسباب وموادَّ معتادةٍ يقدِر على خلقها دفعةً مِن غير حاجة إلى شيء مِن الأسباب والموادّ.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: الكتابةَ، أو جنسَ الكتُبِ الإلهيّة. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: العلومَ وتهذيبَ الأخلاق. ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ إفرادُهما بالذِّكر -على تقدير كونِ المرادِ بـ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾: جنسَ الكتب المنزّلة- لزيادة فضلِهما وإنافتِهما على غيرهما. والجملة عطفٌ على ﴿يُبَشِّرُكَ﴾،[2] أو على ﴿وَجِيهًا﴾،[3] أو على ﴿يَخْلُقُ﴾،[4] أو هو كلام مبتدَأ سيق تطييبًا لقلبها، وإزاحةً لِما أهمّها[5] مِن خوف اللائمةِ لمّا علِمَت أنّها تلِدُ مِن غير زوجٍ.[6] وقُرئ: "ونُعَلِّمُهُ" بالنون.[7]

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ منصوب بمضمَر يقود إليه المعنى، معطوفٍ على ﴿يُعَلِّمُهُ﴾، أي: ويجعله رسولًا إلى بني إسرائيلَ، أي: كلِّهم، وقال بعضُ اليهود: إنّه كان مبعوثًا إلى قوم مخصوصين. ثمّ قيل: كان رسولًا حالَ الصِّبَا، وقيل: بعد البلوغ. وكان أوّلَ أنبياءِ بني إسرائيلَ يوسفُ، وآخِرَهم عيسى عليهما السلام، وقيل: أوّلُهم موسى وآخِرُهم عيسى عليهم السلام.

---

[1] ي: إطاعة.
[2] آل عمران، ٣/٣٩.
[3] آل عمران، ٣/٤٥.
[4] آل عمران، ٣/٤٧.
[5] وفي هامش ي: أي: أحزنها وأقلقها. «منه».
[6] ط: زواج.
[7] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٠.

وقوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾ معمول لـ﴿رَسُولًا﴾؛ لِما فيه مِن معنى النُّطقِ، أي: رسولًا ناطقًا بأنّي... إلخ. وقيل: منصوب بمضمَر معمولٍ لقولٍ مضمَرٍ معطوفٍ على ﴿يُعَلِّمُهُ﴾، أي: ويقول: أُرسِلتُ رسولًا بأنّي قد جئتُكم... إلخ. وقيل: معطوف على الأحوال السابقةِ، ولا يقدَحُ فيه كونُها في حكم الغَيبة مع كونِ هذا في حكم التكلّم؛ لِما عرَفتَ مِن أنّ فيه معنى النُّطقِ، كأنّه قيل: حالَ كونه وجيهًا ورسولًا ناطقًا بأنّي... إلخ. وقُرئ: "وَرَسُولٍ" بالجرّ[1] عطفًا على "كَلِمَة".

والباء في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعل الفعلِ على أنّها للملابَسة، والتنوينُ للتفخيم دون الوحدة؛ لظهور تعدّدها وكثرتها، وقُرئ: "بِآيَاتٍ".[2] أو بـ﴿جِئْتُكُم﴾ على أنّها للتّعدية.

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ لابتداء الغاية مجازًا متعلِّقةٌ بمحذوف وقعَ صفةً لـ"آيةٍ"، أي: قد جئتُكم ملتبسًا بآية عظيمةٍ كائنةٍ مِن ربّكم، أو آتيتكم آيةً عظيمةً كائنةً منه تعالى. والتعرّضُ لوصف الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين لتأكيد إيجاب الامتثالِ بما سيأتي مِن الأوامر.

وقوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ بدل مِن قوله تعالى: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾، ومحلّه النصبُ على نزع الجارّ عند سيبويهِ والفرّاء، والجرُّ على رأي الخليلِ والكسائي،[3] أو بدلٌ مِن "آية"، وقيل: منصوب بفعل مقدَّر، أي: أعني: أنّي... إلخ، وقيل: مرفوع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هي[4] ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾. وقُرئ بكسر الهمزةِ على الاستئناف،[5] أي: أقدّرُ لكم -أي: لأجل تحصيلِ إيمانِكم ودفعِ تكذيبِكم إيّايَ- مِن الطين شيئًا مثلَ صورةِ الطير، ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ الضمير للكاف، أي: في ذلك الشيءِ المماثلِ لهيئة الطيرِ.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليزيدي. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٧.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١٦٣/٣.

[3] انظر: **شرح الكافية** لابن مالك، ٦٣٤/٢.

[4] ط – هي.

[5] قرأ بها نافع وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢٤٠/٢.

وقُرئ: "فَأَنفُخُ فِيهَا"[١] على أنّ الضميرَ للهيئة المقدّرةِ، أي: أخلُق لكم مِن الطين هيئةً كهيئة الطيرِ فأنفخُ فيها، ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ حيًّا طيّارًا كسائر الطيور ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأمرِه تعالى، أشارَ بذلك إلى أنّ إحياءَه مِن الله تعالى، لا منه.

قيل: لم يَخلُقْ غيرَ الخفّاش؛ رُوي أنّه عليه السلام لمّا ادّعى النبوّة وأظهر المعجزاتِ طالبوه بخلق خفّاشٍ،[٢] فأخذ طينًا وصوّره ونفخَ فيه، فإذا هو يطيرُ بين السماء والأرض. قال وهْبٌ: «كان يطير ما دام الناسُ ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميّتًا ليتميّز مِن خلق الله تعالى».[٣] قيل: إنّما طلبوا خلق الخفّاشِ [٩٦ظ] / لأنّه أكملُ الطير خلقًا، وأبلغ دلالة على القدرة؛ لأنّ له ثُديًا وأسنانًا، وهي تحيض وتطْهر وتلِد كسائر الحيوان، ويضحك كما يضحك الإنسانُ، ويطير بغير ريش، ولا يُبصِرُ في ضوء النهار ولا في ظلمة اللّيل، وإنّما يرى في ساعتين: ساعةٍ بعد الغروب، وساعةٍ بعد طلوع الفجر. وقيل: خَلَق أنواعًا مِن الطير.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ أي: الذي وُلد أعمى، أو الممسوحَ العين، ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ المبتلى بالبَرَص، لم تكن العربُ تنفِرُ مِن شيءٍ نَفْرتَها منه، ويقال له: الوَضَح أيضًا. وتخصيصُ هذين الداءَين لأنّهما ممّا أعيى الأطبّاءَ، وكانوا في غاية الحَذاقةِ في زمنه عليه السلام، فأراهم الله تعالى المعجزةَ مِن ذلك الجنس. رُوي أنّه ربّما كان يجتمعُ عليه[٤] عليه السلام ألوفٌ مِن المرضى، مَن أطاق منهم أتاه، ومَن لم يُطِقْ أتاه عيسى عليه السلام، وما يداويه إلّا بالدعاء.[٥]

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كرّره مبالغةً في دفع وَهْمِ مَن توهّم فيه اللاهوتيّة.

قال الكلبيُّ: «كان عليه السلام يُحيي الموتى بـ"يا حيُّ يا قيُّومُ"».[٦] أحيى عازَرَ وكان صديقًا له فعاش ووُلدَ له، ومرّ على ابن عجوز ميّت فدعا اللهَ تعالى فنزل عن سريره حيًّا، ورجع إلى أهله وبقي ووُلدَ له، وبنت العاشر أحياها

---

١ قراءة شاذّة، ولم أجد مَن قرأ بها، وقال الفرّاء: «وفي قراءة عبد الله "فأنفُخُها" بغير "في"، وهو ممّا تقوله العرب: ربّ ليلة قد بتُّ فيها وبتُّها». معاني القرآن للفرّاء، ١/٢١٤.

٢ ي: الخفّاش.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٧١.

٤ ي - عليه.

٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٨. وهو عن وهب في جامع البيان للطبري، ٥/٤٢٥.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٧٣.

وولَدت بعد ذلك، فقالوا: «إنّك تُحيي مَن كان قريبَ العهدِ مِن الموت، فلعلّهم لم يموتوا؛ بل أصابتهم سكتةٌ، فأحْيِ لنا سامَ بنَ نوحٍ»، فقال: «دُلّوني على قبره»، ففعلوا، فقام على قبره، فدعا الله عزّ وجلّ، فقام مِن قبره وقد شاب رأسُه، فقال عليه السلام: «كيف شِبْتَ ولم يكن في زمانكم شيبٌ؟» قال: «يا روحَ الله؛ لمّا دعَوْتَني سمعتُ صوتًا يقول: "أجبْ روحَ الله"، فظننتُ أنّ الساعةَ قد قامت، فمِنْ هولِ ذلك شِبْتُ»، فسألَه عن النزْع قال: «يا روحَ الله؛ إنّ مرارتَه لم تذهَبْ مِن حنْجَرَتي»، وكان بينه وبين موته أكثرُ مِن أربعة آلافِ سنةٍ، وقال للقوم: «صدِّقوه، فإنّه نبيّ»، فآمن به بعضُهم، وكذّبه آخرون، فقالوا: «هذا سحرٌ، فأرِنا آيةً»، فقال: «يا فلان أكلتَ كذا، ويا فلان خُبِئ لك كذا»،[1] وذلك قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بالمغيَّبات مِن أحوالكم التي لا تشكّون فيها، وقُرئ: "تَذْخَرُونَ" بالذال والتخفيف.[2]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر مِن الأمور العِظام ﴿لَآيَةً﴾ عظيمةً، وقُرئ: "لَآيَاتٍ"[3] ﴿لَّكُمْ﴾ دالّةً على صِحّة[4] رسالتي دَلالةً واضحة. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ جواب[5] الشرطِ[6] محذوفٌ؛ لانصباب المعنى إليه، أو دلالةِ المذكورِ عليه، أي: انتفعتم بها، أو إن كنتم ممّن يتأتّى منهم الإيمانُ دلّتْكم على صحّة رسالتي والإيمانِ بها.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ عطفٌ على المضمَر الذي تعلَّق به قوله تعالى: ﴿بِآيَةٍ﴾،[7] أي: قد جئتُكم ملتبسًا بآية... إلخ، ومصدِّقًا لِما بين... إلخ،[8]

---

[1] انظر: تفسير القرطبي، ٩٥/٤.
[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك والزيدي وأيّوب السختياني وأبي السمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٣.
[3] قراءة شاذّة، وذكر ابن عطيّة أنّها في مصحف ابن مسعود كذلك. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤٤١/١.
[4] ي – صحّة.
[5] ي: جوب.
[6] ي: شرط.
[7] آل عمران، ٤٩/٣.
[8] ي: يديّ.

أو على ﴿رَسُولًا﴾[١] على الأوجه الثلاثةِ، فإنّ ﴿مُصَدِّقًا﴾ فيه معنى النُطقِ كما في ﴿رَسُولًا﴾، أي: ويجعله مصدِّقًا ناطقًا بأنّي أُصَدِّق... إلخ، أو ويقول: أُرسلتُ رسولًا بأنّي قد جئتُكم... إلخ، ومصدِّقًا... إلخ، أو حالَ كونه مصدِّقًا ناطقًا بأنّي أُصدّق... إلخ، أو منصوبٌ بإضمار فعلٍ دلَّ عليه ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾،[٢] أي: وجئتكم مصدِّقًا... إلخ. وقوله: ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ إمّا حال مِن الموصول، والعاملُ ﴿مُصَدِّقًا﴾، وإمّا مِن ضميره المستترِ في الظرف الواقعِ صلةً، والعاملُ الاستقرارُ المضمَرُ في الظرف، أو نفسُ الظرف؛ لقيامه مَقامَ الفعل.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ معمول لمضمَرٍ[٣] دلّ عليه ما قبله، أي: وجِئتكم لأُحِلَّ... إلخ، وقيل: عطفٌ على معنى ﴿مُصَدِّقًا﴾، كقولهم: جئتُه معتذرًا ولأجتلِبَ رضاه، كأنّه قيل: جئتُكم لأصدِّق ولأحِلّ... إلخ، وقيل: عطفٌ على ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، أي: جئتُكم بآية مِن ربكم، ولأُحِلَّ لكم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في شريعة موسى عليه السلام مِن الشحومِ والشُّروبِ والسمكِ ولحومِ الإبلِ والعملِ في السبت، قيل: أحَلَّ لهم مِن السمك والطير ما لا صيصية[٤] له، واختلف في إحلال السبت. وقُرئ: "حَرَّمَ" على تسمية الفاعل،[٥] وهو ما بين يديّ، أو الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "حَرُمَ"[٦] بوزن كَرُم. وهذا يدلّ على أنّ شرعَه كان ناسخًا لبعض أحكام التوراةِ، ولا يُخِلّ ذلك بكونه مصدِّقًا لها؛ لِما أنّ النَّسخَ في الحقيقة بيان تخصيص في الأزمان. وتأخيرُ المفعول مِن الجارِّ والمجرور لِما مرّ مرارًا مِن المبادرة إلى ذِكر ما يسُرُّ المخاطَبين، والتشويقِ إلى ما أُخِّر.

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ شاهدةٍ على صحّة رسالتي، وقُرئ: "بِآيَاتٍ".[٧]

---

١ آل عمران، ٣/٤٩.
٢ آل عمران، ٣/٤٩.
٣ ي: المضمر.
٤ س: ضنضئة؛ ط ي: صنصنة. | وأثبتُّ ما في الكشّاف للزمخشري، ١/٣٦٥، وغيره مِن كتب التفسير: "ما لا صيصية له". قال الجوهري: «الصِّيصية: شَوكة الحائك التي يُسوِّي بها السَّداةَ واللُّحمةَ، ومنه صِيصية الديك التي في رجليه». الصحاح للجوهري، «صيص».
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن قطيب وعكرمة واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٣.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم ويحيى. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٣؛ مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٧.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/١٦٣.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في عدم قَبولها ومخالفةِ مدلولها، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمرُكم به وأنهاكم عنه بأمر الله تعالى.

وتلك الآية[١] هي قولي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، فإنّه الحقُّ الصريحُ الذي أجمع عليه الرسلُ قاطبةً، فيكون آيةً بيّنة على أنّه عليه السلام مِن جملتهم. وقُرِئ: "أَنَّ اللهَ" بالفتح[٢] بدلًا مِن "آية"، أو: قد جئتكم بآية على أنّ الله ربّي وربُّكم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ اعتراض، والظاهرُ أنّه تكرير لِما سبق، أي: قد جئتكم بآية بعد آية ممّا ذكرتُ لكم، مِن خلق الطير، وإبراءِ الأكمهِ، والإحياءِ، والإنباءِ بالخفيّات، وبغيرِه مِن وِلادتي بغير أبٍ، ومِن كلامي في المَهد، ومن غير ذلك، **والأوّلُ**: لتمهيد الحجّة، **والثاني**: لتقريبها إلى الحكم، ولذلك رُتّب عليه بالفاء قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: لمّا جئتُكم بالمعجزات الباهرةِ والآياتِ الظاهرة فاتّقوا الله في المخالفة، وأطيعونِ فيما أدعوكم إليه.

ومعنى قراءةِ مَن فتح: ولأنّ الله ربّي وربّكم فاعبدوه، كقوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾... إلخ [قريش، ١٠٦/١]. ثمّ شرع في الدعوة وأشار إليها بالقول المجمل فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إشارةً إلى استكمالِ القوّةِ النظريّةِ بالاعتقاد الحقّ الذي غايتُه التوحيدُ، وقال: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ إشارةً إلى استكمال القوّةِ العمليّةِ، فإنّه يلازِمُ الطاعة التي هي الإتيانُ بالأوامر، والانتهاءُ عن المناهي، ثمّ قرّر ذلك بأن بيّن أنّ الجمعَ بين الأمرين هو الطريقُ المشهودُ له بالاستقامة، ونظيرُه قوله عليه السلام: «قُل آمَنتُ ثمّ استَقِم».[٣]

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ شروع في بيان مآلِ أحوالِه عليه السلام

---

١ ي: الآيات.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأخفش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٣.

٣ صحيح مسلم، ٦٥/١ (٣٨)؛ صحيح ابن حِبّان، ٢٢٢/٣.

[٩٧و] إثرَ / ما أشير إلى طرَفٍ منها بطريق النقلِ عن الملائكة. والفاءُ فصيحة تُفصِحُ عن تحقُّق جميعِ ما قالته الملائكة عليهم السلام. وخروجُه مِن القوّة إلى الفعل حسبما شرحتُه كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، بعد قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ [النمل، ٢٧/٤٠]، كأنّه قيل: فحمَلته فوَلدتْه، فكان كيتَ وكيتَ، وقال: ذيتَ وذيتَ. وإنّما لم يُذكَر اكتفاءً بحكاية الملائكة عليهم السلام،[١] وإيذانًا بعدم الخُلْفِ، وثقةً بما فُصّل في المواضع الأُخَرِ. وأمّا عدمُ نظمِ بقيّة أحوالِه عليه السلام في سلك النقلِ؛ فإمّا للاعتناء بأمرِها، أو[٢] لعدم[٣] مناسبتها لمقام البِشارة؛ لِما فيها مِن ذِكر مُقاساتِه عليه السلام للشدائد ومعاناتِه للمكائد.

والمرادُ بالإحساس: الإدراكُ القويُّ الجاري مَجرَى المشاهدةِ، وبالكفر: إصرارُهم عليه وعتوُّهم ومكابرتُهم فيه مع العزيمة على قتله عليه السلام، كما ينبئ عنه الإحساسُ، فإنّه إنّما يُستعمل في أمثال هذه المواقعِ عند كونِ مُتعلَّقِه أمرًا محذورًا مكروهًا، كما في قوله عزّ وجلّ:[٤] ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ [الأنبياء، ٢١/١٢]. وكلمةُ "مِن" متعلِّقة بـ﴿أَحَسَّ﴾، والضميرُ المجرورُ لبني إسرائيلَ، أي: ابتدأ الإحساسَ مِن جهتهم، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصريحِ لِما مرّ غيرَ مرّةٍ مِن الاعتناء به، والتشويقِ إلى المؤخَّر. وقيل: متعلِّقة بمحذوف وقعَ حالًا مِن الكفر.

﴿قَالَ﴾ أي: لخُلّصِ أصحابِه، لا لجميعِ بني إسرائيلَ؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الآية [الصف، ٦١/١٤]. وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾ [الصف، ٦١/١٤] ليس بنصّ في توجيه الخطابِ إلى الكلّ؛ بل يكفي فيه بلوغُ الدعوة إليهم. ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ﴾ "الأنصارُ": جمع نصير، كأشراف جمع شريف.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوف وقعَ حالًا مِن الياء، أي: مَنْ أنصاري متوجِّهًا إلى الله، ملتجِئًا إليه، أو بأنصاري مضمَّنًا معنى الإضافةِ، كأنّه قيل: مَنِ الذين

---

[١] س ي - عليهم السلام.
[٢] ي - أو.
[٣] ي: ولعدم.
[٤] ي: تعالى.

يُضيفون أنفسَهم إلى الله عزّ وجلّ ينصُرونني كما ينصُرني؟ وقيل: ﴿إِلَى﴾ بمعنى "في"، أي: في سبيل الله، وقيل: بمعنى اللام، وقيل: بمعنى "مع".

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال ينساقُ إليه الذهنُ، كأنّه قيل: فماذا قالوا في جوابه عليه السلام؟ فقيل: قال ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ جمعُ "حَواريّ"، يقال: فلان حَواريّ فلان، أي: صفوتُه وخاصّتُه، مِن الحَوَر؛ وهو البياضُ الخالص، ومنه الحواريّاتُ للحَضَريّات؛[١] لخُلوص ألوانِهنّ ونقائِهنّ. سُمّي به أصحابُ عيسى عليه السلام؛ لخُلوص نيّاتِهم ونقاءِ سرائرِهم، وقيل: لِما عليهم مِن آثار العبادةِ وأنوارِها.

وقيل: كانوا مُلوكًا يلبَسون البِيضَ، وذلك أنّ واحدًا مِن المُلوك صنعَ طعامًا وجمع الناسَ عليه، وكان عيسى عليه السلام على قَصْعةٍ لا يزال يأكلُ منها ولا تنقُص، فذكروا ذلك للمَلك فاستدعاه عليه السلام، فقال له: «مَن أنت؟» قال: «عيسى ابن مريم»، فترك مُلكَه فتبِعه[٢] مع أقاربه، فأولئك هم الحَواريّون.[٣]

وقيل:[٤] كانوا صيّادين يصطادون السمكَ، يلبَسون الثيابَ البيض، فيهم شمعونُ ويعقوبُ ويوحنّا، فمرّ بهم عيسى عليه السلام، فقال لهم: «أنتم تصيدون السمكَ، فإن اتّبعتموني صِرتم بحيث تصيدون الناسَ بالحياة الأبديّة»، قالوا: «مَن أنت؟» قال: «عيسى ابنُ مريم، عبدُ الله ورسولُه»، فطلبوا منه المعجِز،[٥] وكان شمعونُ قد رمى شبكتَه تلك اللّيلةَ فما اصطاد شيئًا، فأمر عيسى عليه السلام بإلقائها في الماء مرّةً أخرى، ففعل، فاجتمع في الشبكة مِن السمك ما كادَتْ تتمزّقُ، واستعانوا بأهل[٦] سفينةٍ أخرى وملأوا السفينتين، فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام.[٧]

---

[١] قال الزبيدي: الحوارِيّات: نساء الأمصار، هكذا تسمّيهنّ الأعراب؛ لبياضهنّ وتباعدهنّ عن قَشف الأعراب بنظافتهنّ. تاج العروس للزبيدي، «حور».

[٢] ي: وتبعه.

[٣] نسبه الثعلبي إلى ابن عون. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٧٧/٣.

[٤] وفي هامش ط س ي: قائله مجاهد والسدّي «منه».

[٥] ي: المعجزة.

[٦] ي: بل.

[٧] انظر: تفسير الرازي، ٢٣٣/٨. وأخرج الطبري بسنده عن سعيد بن جبير، قال: سئل ابن عبّاس عن الحواريّين، قال: «سمّوا لبياض ثيابهم، كانوا صيّادي السمك». جامع البيان للطبري، ٦٢١/٢٢.

وقيل:[١] كانوا اثنَيْ عشرَ رجلًا آمَنوا به عليه السلام واتّبعوه، وكانوا إذا جاءوا قالوا: «جُعْنا يا روحَ الله»، فيضرِب بيده الأرضَ، فيخرُجُ منها لكلّ واحد رَغيفان، وإذا عطِشوا قالوا: «عطِشنا»، فيضرب بيده الأرضَ، فيخرُج منها الماءُ، فيشربون، فقالوا: «مَن أفضلُ منّا؟» قال عليه السلام: «أفضلُ منكم مَن يعمل بيدِه، ويأكُلُ مِن كَسْبه»، فصاروا يغسِلون الثيابَ بالأُجرة، فسُمّوا حَواريّين.[٢]

وقيل: إنّ أمّه سلّمته إلى صبّاغ، فأراد الصبّاغُ يومًا أن يشتغل ببعض مهمّاتِه، فقال له عليه السلام: «ههنا ثياب مختلفة، قد جَعَلْتُ لكلّ واحدٍ منها علامةً معيّنةً»، فاصبغْها بتلك الألوانِ، فغاب فجعل عليه السلام كلَّها في جُبّ واحدٍ، وقال: «كوني بإذن الله كما أُريد»، فرجع الصبّاغُ، فسأله، فأخبره بما صنع، فقال: «أفسدتَ عليّ الثيابَ»، قال: «قمْ فانظرْ»، فجعل يُخرِجُ ثوبًا أحمرَ، وثوبًا أخضرَ، وثوبًا أصفرَ، إلى أن أخرج الجميعَ على أحسنِ ما يكون حسبما كان يريد، فتعجَّبَ منه الحاضرون وآمنوا به عليه السلام، وهم الحواريّون.[٣]

قال القفّالُ: «ويجوزُ أن يكون بعضُ هؤلاء الحواريّين الاثنَي عشرَ مِن المُلوك، وبعضُهم مِن صيّادي السمك، وبعضُهم مِن القصّارين، وبعضُهم مِن الصبّاغين. والكلُّ سُمّوا بالحَواريّين؛ لأنّهم كانوا أنصارَ عيسى عليه السلام وأعوانَه، والمخلِصين في طاعته ومحبّتِه».[٤]

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار دينه ورسولِه، ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ استئناف جارٍ مَجرى العلّةِ لِما قبله، فإنّ الإيمان به تعالى موجبٌ لنُصرة دينِه، والذَّبِّ عن أوليائه، والمحاربةِ مع أعدائه. ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلِصون في الإيمانِ، منقادون لِما تريد منّا مِن نُصرتك. طلبوا منه عليه السلام الشهادةَ بذلك يومَ القيامة يومَ يشهد الرسلُ عليهم السلام لأُمَمهم وعليهم إيذانًا بأنّ مرمى غرضِهم السعادةُ الأخرويّة.

---

[١] وفي هامش ط س ي: حسَن «منه». | يعني: الحسَن البصري.

[٢] تفسير الرازي، ٢٣٤/٨.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٧٦/٣؛ تفسير الرازي، ٢٣٤/٨.

[٤] تفسير الرازي، ٢٣٤/٨.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾ تضرّعٌ إلى الله عزّ وجلّ[١] وعرض لحالهم عليه تعالى بعد عرضِها على الرسول مبالغةً في إظهار أمرِهم. ﴿وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: في كلّ ما يأتي ويذرُ مِن أمور الدينِ، فيدخُل فيه الاتّباعُ في النُّصرة دخولًا أوّليًّا. ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: مع الذين يشهدون بوحدانيّتك، أو مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم، أو مع أمّة محمّد عليه السلام، فإنّهم شهداءُ على الناس قاطبةً، وهو حال / مِن مفعول "اكتُبنا". [٩٧ظ]

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾

﴿وَمَكَرُواْ﴾ أي: الذين علِمَ عيسى عليه السلام كفرَهم مِن اليهود، بأن وكّلوا به مَن يقتُله غِيلةً.

﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بأن رفعَ عيسى عليه السلام، وألقى شَبَهَه على مَن قصَد اغتيالَه حتّى قُتل. و"المكرُ" -مِن حيث إنّه في الأصل حيلةٌ يُجلَب بها غيرُه إلى مَضرّة- لا يمكن إسنادُه إليه سبحانه إلّا بطريق المشاكلة.

روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ ملِكَ بني إسرائيلَ لمّا قصد قتلَه عليه السلام أمَره جبريلُ عليه السلام أن يدخُلَ بيتًا فيه رَوزنة،[٢] فرفعه جبريل عليه السلام مِن تلك الرَّوزنة إلى السماء، فقال الملِكُ لرجل خبيثٍ منهم: «ادخُل عليه فاقتُله»، فدخل البيت، فألقى الله عزّ وجلّ شَبَهَه عليه، فخرج يُخبرهم أنّه[٣] ليس في البيت، فقتلوه وصلَبوه.[٤]

وقيل: إنّه عليه السلام جمع الحواريّين ليلةً وأوصاهم، ثمّ قال: «لَيَكفرَنّ بي أحدُكم قبل أن يَصيح الديكُ، ويَبيعني بدراهِمَ يسيرة»، فخرجوا وتفرّقوا،

---

١ ي: تعالى.

٢ الرَّوزنة: الخرق في أعلى السقف. تاج العروس للزبيدي، «رزن».

٣ ط: أن.

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٢٢/٢٢ (الصف، ١٤/٦١)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٩/٣ (النساء، ١٥٨/٤)؛ وتفسير الرازي، ٢٣٦/٨.

وكانت اليهودُ تطلُبه، فنافق أحدُهم فقال لهم: «ما تجعلون لي إن دَلَلْتُكم على المسيح»؟ فجعلوا له ثلاثين درهمًا، فأخذها ودلّ[١] عليه، فألقى الله عزّ وجلّ[٢] عليه شبَهَ عيسى عليه السلام، ورفعه إلى السماء، فأخذوا المنافِقَ وهو يقول: «أنا دليلُكم»، فلم يلتفتوا إلى قوله وصَلَبوه، ثمّ قالوا: «وجهُه يُشبه وجهَ عيسى، وبَدَنُه يشبه بدنَ صاحبِنا، فإن كان هذا عيسى فأين صاحبُنا؟ وإن كان صاحِبَنا فأين عيسى»؟ فوقع بينهم قتال عظيم.[٣]

وقيل: لمّا صُلب المَصلوب جاءت مريمُ عليها السلام[٤] ومعها امرأةٌ أبرأها الله تعالى مِن الجُنون بدعاء عيسى عليه السلام، وجعلتا تبكِيان على المَصلوب، فأنزل الله عيسى عليه السلام، فجاءهما، فقال: «علامَ تبكيان؟» قالتا: «عليك»، فقال: «إن الله تعالى رفعني ولم يُصِبني إلّا خيرٌ، وإنّ هذا شيءٌ شُبِّه لهم».[٥]

قال محمّد بنُ إسحاقَ:[٦] «إنّ اليهودَ عذّبوا[٧] الحواريّين بعد رفعِ عيسى عليه السلام، ولقُوا منهم الجَهْدَ، فبلغ ذلك مِلكَ الرّومِ، وكان مِلكُ اليهود مِن رعيّته، فقيل له: "إنّ رجلًا مِن بني إسرائيلَ ممّن تحت أمرِك كان يخبرهم أنّه رسولُ الله، وأراهم إحياءَ الموتى وإبراءَ الأكمهِ والأبرص وفعل وفعل"، فقال: "لو علِمْتُ ذلك ما خلَّيْتُ بينهم وبينه"، ثمّ بعَث إلى الحواريّين فانتزعهم مِن أيديهم، وسألهم عن عيسى عليه السلام، فأخبروه فبايعهم على دينهم، وأنزل المصلوبَ فغيّبه، وأخذ الخشبةَ فأكرمها، ثمّ غزا بني إسرائيلَ، وقتل منهم خلقًا عظيمًا، ومنه ظهر أصلُ النصرانيّةِ في الروم، ثمّ جاء بعده مِلكٌ آخرُ يقال له:

---

١ ط ي: ودلّهم.

٢ ي: تعالى.

٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٥٢/٧ (النساء، ١٥٨/٤)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٧٩/٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٤/٥.

٤ ي - عليه السلام.

٥ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٥٢/٧ (النساء، ١٥٨/٤)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٨٠/٣.

٦ هو محمّد بن إسحاق بن يسار المطّلبي بالولاء المدني، أبو بكر (ت. ١٥١هـ/٧٦٨م). الحافظ، الأخباري، صاحب السيرة النبويّة، كان جدّه يسار مِن سبي عَين التمر، رأى أنسَ بن مالك وسعيدَ بن المسيّب. قال الذهبي: «هو أوّل مَن دوّن العلم بالمدينة، وذلك قبلَ مالك وذَويه، وكان في العلم بحرًا عَجاجًا، ولكنّه ليس بالمجوِّد كما ينبغي». انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٣/٧؛ والأعلام للزركلي، ٢٨/٦.

٧ س: عذّب.

طيطوس، وغزا بيتَ المقدس بعد رفع عيسى عليه السلام بنحوٍ مِن أربعين سنةً، فقتَلَ وسبَى، ولم يترُكْ في مدينة بيتِ المقدسِ حجرًا على حجر، فخرج عند ذلك قُريظةُ والنَّضيرُ إلى الحجاز».[1]

قال أهلُ التواريخ: حملت مريم بعيسى عليه السلام وهي بنتُ ثلاثَ عشرةَ سنةً، ووَلدته ببيت لَحْمَ مِن أرض "أورى شَلَّم"[2] لمُضيِّ خمسٍ وستين سنةً مِن غلبة الإسكندرِ على أرض بابلَ، وأوحى الله تعالى إليه على رأس ثلاثينَ سنةً، ورفعه إليه مِن بيت المقدس ليلة القدر مِن شهر رمضانَ وهو ابنُ ثلاثٍ وثلاثين سنةً، وعاشت أمُّه بعد رفعِه ستَّ سنين.[3]

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أقواهم مكرًا، وأنفذُهم كَيدًا، وأقدرُهم على إيصال الضرر مِن حيث لا يحتسب. وإظهارُ الجلالة في موقع الإضمار لتربية المَهابة، والجملة تذييل مقرِّر لمَضمون ما قبله.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ ظرف لـ﴿مَكَرَ ٱللَّهُ﴾،[4] أو لمضمَر، نحو: وقع ذلك. ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مستوفي أجلك، ومؤخِّرُك إلى أجلك المسمَّى، عاصِمًا لك مِن قتلهم، أو قابضُك مِن الأرض، مِن "توفَّيتُ مالي"، أو متوفِّيك نائمًا؛ إذ رُوي: أنّه رُفع وهو نائم. وقيل: مُميتُك في وقتك بعد النزول مِن السماء ورافعُك الآن، أو مُميتُك مِن الشهوات العائقة عن العُروج إلى عالم الملكوت، وقيل:

---

[1] انظر: تفسير الرازي، ٢٣٦/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٤/٥.

[2] وفي هامش ط س ي: شَلَّم كبَقَّم؛ موضع بالشام، وقيل: هو اسم مدينة بيت المقدس بالعبرانيّة «منه». | انظر: الصحاح للجوهري، «شلم». وقال الفيروزابادي: «شَلَّم كبَقَّم وككتف وجبل». القاموس المحيط للفيروزابادي، «شلم».

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٨٠/٣؛ اللباب لابن عادل، ٢٧٠/٥.

[4] في الآية السابقة.

أماته الله تعالى سبعَ ساعاتٍ ثمّ رفعه إلى السماء، وإليه ذهبت النصارى، قال القرطبيُّ:

والصحيح أنّ الله تعالى رفعه مِن غير وفاةٍ ولا نومٍ كما قال الحسنُ وابنُ زيد، وهو اختيار الطبري،[١] وهو الصحيح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأصل القصّة: أنّ اليهود لمّا عزموا على قتله عليه السلام اجتمع الحواريّون -وهم اثنا عشرَ رجلًا- في غرفة، فدخل عليهم المسيحُ مِن مِشكاة الغرفة، فأخبر بهم إبليسُ جميعَ اليهود، فركِبَ منهم أربعةُ آلافِ رجلٍ، فأخذوا باب الغرفة، فقال المسيحُ للحواريّين: «أيُّكم يخرجُ ويُقتل، ويكونُ معي في الجنّة؟» فقال واحد منهم: «أنا يا نبيَّ الله»، فألقى عليه مَدرَعةً[٢] مِن صوفٍ وعِمامةً مِن صوفٍ، وناوله[٣] عُكّازَة، وأُلقيَ عليه شبَهُ عيسى عليه السلام، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه. وأمّا عيسى عليه السلام فكساه الله تعالى[٤] الريشَ والنورَ،[٥] وألبسه النورَ، وقطع عنه شهوةَ المطعمِ والمشرب، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، فطار مع الملائكة. ثمّ إنّ أصحابه حين رأَوْا ذلك تفرّقوا ثلاثَ فِرَقٍ، فقالت فِرقة: «كان الله فينا ثمّ صعِدَ إلى السماء»، وهم اليعقوبيّةُ، وقالت فرقة أخرى: «كان فينا ابنُ الله ما شاء الله ثمّ رفعه الله إليه»، وهم النُّسطوريّة، وقالت فرقة أخرى منهم: «كان فينا عبدُ الله ورسولُه ما شاء الله ثمّ رفعه الله إليه»، وهؤلاء هم المسلمون، فتظاهرت[٦] عليهم الفرقتانِ الكافرتان فقتلوهم، فلم يزل الإسلامُ منطَمِسًا إلى أن بعث الله تعالى محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم.[٧]

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إلى محلّ كرامتي ومقرِّ ملائكتي، ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: مِن سوء جوارِهم وخبثِ صُحبتِهم ودنَسِ معاشرتِهم.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ قال قتادةُ والربيعُ والشعبيُّ ومقاتل والكلبيُّ: «هم أهل الإسلام الذين صدّقوه واتّبعوا دينَه مِن أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، دون الذين كذّبوه وكذَبوا عليه مِن النصارى».[٨]

---

١ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٠/٥.
٢ ي: مذرعة.
٣ ي: ناوله.
٤ ط س - تعالى.
٥ ي - والنور.
٦ ي: فناظرت.
٧ ي: عليه السلام. | تفسير القرطبي، ١٠١/٤، مع تغيير ونقص في بعض ألفاظه.
٨ انظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٤/٥؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٨٣/٣.

﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وهم الذين مكَروا به عليه السلام ومَن يسير بسيرتهم مِن اليهود، فإنّ أهلَ الإسلام فوقهم ظاهرين بالعزّة والمَنَعة والحُجّة. وقيل: هم الحواريّون، فينبغي أن يُحمل فوقيّتُهم على فوقيّة المسلمين بحكم الاتّحادِ في الإسلام والتوحيد. وقيل: هم الرومُ. وقيل: هم / النصارى. فالمرادُ بـ"الاتّباع": [٩٨و]
مجرَّدُ الادّعاء والمحبّة، وإلّا فأولئك الكفرةُ بمَعزِلٍ مِن اتّباعه عليه السلام.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ غاية للجعل أو للاستقرار[١] المقدّرِ في الظرف، لا على معنى أنّ الجعلَ أو الفوقيّةَ ينتهي حينئذ ويتخلّص الكفَرةُ مِن الذِلّة؛ بل على معنى: أنّ المسلمين يعلُونهم إلى تلك الغاية، فأمّا بعدها فيفعل الله تعالى بهم ما يريد.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي رجوعكم بالبعث، و﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي، وتقديمُ الجارّ والمجرور للقصر المفيدِ لتأكّد الوعدِ والوعيد، والضمير لعيسى عليه السلام وغيرِه مِن المتّبعين له والكافرين به على تغليب المخاطَب على الغائب في ضمن الالتفاتِ، فإنّه أبلغُ في التبشير والإنذار.

﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يومئذ إثرَ رجوعكم إليّ ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِن أمور الدين. و﴿فِيهِ﴾ متعلِّق بـ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾، وتقديمُه عليه لرعاية الفواصل.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تفسير للحكم الواقعِ بين الفريقين وتفصيل لكيفيّته. والبِداية لبيانِ حالِ الكفرة؛ لِما أنّ مساقَ الكلامِ لتهديدهم وزجرِهم عمّا هم عليه مِن الكفر والعِناد. وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ متعلّق بـ"أعذّبهم"، لا بمعنى إيقاعِ كلٍّ واحدٍ مِن التعذيب في الدنيا والتعذيبِ في الآخرة وإحداثِهما يومَ القيامة؛ بل بمعنى إتمامِ مجموعِهما يومئذ. وقيل: إنّ المرْجِعَ أعمُّ مِن الدنيويّ والأخرويّ. وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٢] غاية للفوقيّة لا للجَعلِ، والرجوعُ متراخٍ عن الجَعل، وهو غيرُ محدودٍ، لا عن الفوقيّة المحدودةِ،

---

[١] ط: الاستقرار.

[٢] آل عمران، ٣/٥٥.

على نهج قولِك: سأُعيرك سكنى هذا البيتِ شهرًا ثمّ أخلَع عليك بخلْعة، لزم تأخّرُ الخَلْع عن الإعارة لا عن الشهر.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يُخلِّصونهم مِن عذاب الله في الدارين. وصيغةُ الجمعِ لمقابلة ضميرِ الجمعِ، أي: ليس لواحد منهم ناصرٌ واحدٌ.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما أُرسِلْتُ به ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كما هو ديدَنُ المؤمنين ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: يعطيهم إيّاها كاملة. ولعلّ الالتفاتَ إلى الغَيبة للإيذان بما بين مصدري التعذيبِ والإثابةِ مِن الاختلاف مِن حيث الجلالُ والجمال. وقُرئ: "فَنُوَفِّيهِمْ"[١] جريًا على سَنن العظمةِ والكبرياء.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يبغُضهم، فإنّ هذه الكناية فاشيةٌ في جميع اللّغاتِ، جاريةٌ مَجرى الحقيقةِ. وإيراد الظلم للإشعار بأنّهم بكفرهم متعدّون متجاوزون عن الحدودِ، واضعون[٢] للكفر مكانَ الشكرِ والإيمانِ. والجملة تذييل لِما قبله[٣] مقرِّر لمَضمونه.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ٥٨﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما سلف مِن نبأ عيسى عليه السلام، وما فيه مِن معنى البُعد للدلالة على عِظَمِ شأنِ المُشار إليه وبُعدِ منزلتِه في الشرف، وعلى كونه في ظهور الأمرِ ونباهةِ الشأن بمنزلة المشاهَد المعايَن. وهو مبتدأ، وقوله عزّ وعلا:[٤] ﴿نَتْلُوهُ﴾ خبرُه، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلِّق بـ﴿نَتْلُوهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ حال مِن الضمير المنصوب، أو خبر بعد خبرٍ، أو هو الخبرُ وما بينهما حال مِن اسمِ الإشارة، أو ﴿ذَٰلِكَ﴾ خبر لمبتدأ مضمَرٍ، أي: الأمرُ ذلك، و﴿نَتْلُوهُ﴾ حال كما مرّ، وصيغةُ الاستقبال إمّا لاستحضار الصورةِ، أو على معناها؛ إذ التلاوةُ لم تتِمّ بعدُ.

---

١ قرأ بها الجمهور غير حفص ورُويس. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٠.
٢ ي: وواضعون.
٣ س – لما قبله.
٤ ي: تعالى.

﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أي: المشتملِ على الحِكَم، أو المُحكمِ الممنوعِ مِن تطرُّق الخَلَلِ إليه. والمراد به القرآن، فـ﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة، أو بعضٌ مخصوصٌ منه، فـ﴿مِنْ﴾ بيانيّة، وقيل: هو اللوح المحفوظ، فـ﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي: شأنَه البديعَ المنتظِمَ لغرابته في سلك الأمثال ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في تقديره[1] وحُكمِه ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي: كحاله العجيبةِ التي لا يرتاب فيها مرتاب، ولا ينازِعُ فيها منازِع. ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ تفسير لِما أُبهم في المَثَل، وتفصيل لِما أُجمِلَ فيه، وتوضيح للتّمثيل ببيان وجهِ الشبَهِ بينهما، وحسْم لمادّة شُبَه الخصومِ، فإنّ إنكار خلقِ عيسى عليه السلام بلا أبٍ ممّن اعترف بخلقِ آدمَ عليه السلام بغير أبٍ وأمٍّ ممّا لا يكاد يصحّ. والمعنى: خلق قالَبَه مِن تراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي: أنشأه بَشَرًا، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون، ١٤/٢٣]، أو قدّر تكوينَه مِن التراب ثم كوّنه، ويجوز كونُ ﴿ثُمَّ﴾ لتراخي[2] الأخبار، لا لتراخي المُخبَرِ به. ﴿فَيَكُونُ﴾ حكايةُ حالٍ ماضية.

روي أنّ وفدَ نجرانَ قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:[3] «ما لَك تشتمُ صاحبَنا؟» قال: «وما أقول؟» قالوا: «تقول: إنّه عبدٌ»، قال: «أجل، هو عبدُ الله ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى العذراء البتولِ»، فغضِبوا وقالوا: «هل رأيتَ إنسانًا بغير[4] أبٍ؟ فحيثُ سلَّمتَ أنّه لا أبَ له مِن البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى»،[5] فقال عليه السلام: «إنّ آدمَ عليه السلام ما كان له أبٌ ولا أمّ، ولم يلزَم مِن ذلك كونُه ابنًا لله سبحانه[6] وتعالى، فكذا حالُ عيسى عليه السلام».[7]

---

١ س: تقدير.
٢ ط + في.
٣ ي: عليه السلام.
٤ ط ي: مِن غير.
٥ س ي - تعالى.
٦ ي - سبحانه.

٧ القصّة في جامع البيان للطبري، ٤٦١/٥، بغير هذه الألفاظ، وفيه: فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا جبريل؛ إنّهم سألوني أن أخبرهم بمثل عيسى»، قال جبريل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران، ٥٩/٣]، فلمّا أصبحوا عادوا، فقرأ عليهم الآيات.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو الحقُّ، أي: ما قصصنا عليك مِن نبأ عيسى عليه السلام وأمِّه، والظرف إمّا حال، أي: كائنًا مِن ربك، أو خبر ثانٍ، أي: كائنٌ منه تعالى. وقيل: هما مبتدأ وخبر، أي: الحقُّ المذكورُ مِن الله تعالى. والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبِ لتشريفه عليه السلام، والإيذانِ بأنّ تنزيلَ هذه الآياتِ الحقّةِ الناطقةِ بكنه الأمر تربيةٌ له صلّى الله عليه وسلّم[1] ولُطفٌ به.

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في ذلك، والخطاب إمّا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم[2] على طريقة الإلهابِ والتهييجِ لزيادة التثبيتِ والإشعارِ بأنّ الامتراء في المحذوريّة بحيث ينبغي أن ينهى عنه مَن لا يكاد يمكن صدوره عنه، فكيف بمَن هو بصدد الامتراء؟ وإمّا لكلّ مَن له صلاحية الخطاب.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ أي: مِن النصارى؛ إذ هم المتصدّون للمُحاجّة. ﴿فِيهِ﴾ أي: في شأن عيسى وأمِّه زعمًا منهم أنّه ليس على الشأن المحكيّ. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: ما يُوجِبُه إيجابًا قطعيًا مِن الآيات البيّناتِ، وسمعوا ذلك منك فلم يرعَوُوا عمّا هم عليه مِن الغيّ والضلال. ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْاْ﴾ أي: هلُمّوا بالرأي والعزيمة ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ اكتُفيَ بهم عن ذكر البنات؛ لظهور كونِهم أعزَّ منهنّ، وأمّا النساء فتعلّقُهنّ / مِن جهة أخرى، ﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: ليدعُ كلّ منّا ومنكم نفسَه وأعِزّةَ أهلِه وألصقَهم بقلبه إلى المُباهَلة ويحمِلهم عليها. [٩٨ظ]

وتقديمهم على النفس في أثناء المُباهلةِ التي هي مِن باب المَهالكِ ومظانّ التلفِ، مع أنّ الرجل يخاطرُ لهم بنفسه، ويحارب دونهم؛ للإيذان بكمال أمنِه

---

[1] ي: عليه السلام.

[2] ي: عليه السلام.

صلّى الله عليه وسلّم،[١] وتمامِ ثقتِه بأمره، وقوّةِ يقينِه بأنّه لن يُصيبَهم في ذلك شائبةُ مكروهٍ أصلًا. وهو السرّ في تقديم جانبِه عليه السلام على جانب المخاطَبين في كلّ مِن المقدّم والمؤخّرِ مع رعاية الأصلِ في الصيغة، فإنّ غير المتكلّم تبعٌ له في الإسناد.

﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتباهلْ بأن نلعنَ الكاذبَ منّا، والبُهلةُ -بالضمّ والفتح-: اللعنة، وأصلُها: الترك، مِن قولهم: بَهَلْتُ الناقةَ، أي: تركتُها بلا صِرار. ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ عطفٌ على ﴿نَبْتَهِلْ﴾ مبيّنٌ لمعناه.

روي أنّهم لمّا دُعوا إلى المُباهلة قالوا: «حتّى نرجِعَ وننظُرَ»، فلمّا تخالَوا قالوا للعاقب -وكان ذا رأيهم-: «يا عبدَ المسيح ما ترى؟» فقال: «واللهِ لقد عرفتم يا معشرَ النّصارى أنّ محمّدًا نبيّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل مِن أمر صاحبِكم، واللهِ ما باهل قومٌ نبيًّا قطُّ فعاش كبيرُهم، ولا نبت صغيرُهم، ولئن فعلتم لتهلِكُنّ، فإن أبيتُم إلّا إلفَ دينِكم والإقامة على ما أنتم عليه فوادِعوا الرجلَ، وانصرِفوا إلى بلادكم». فأتَوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم[٢] وقد غدا محتضِنًا[٣] الحسينَ آخذًا بيد الحسَنِ، وفاطمةُ تمشي خلفَه، وعليٌّ خلفها، رضي الله عنهم أجمعين،[٤] وهو يقول: «إذا أنا دعوتُ فأمِّنوا»، فقال أُسقفُ نجرانَ:[٥] «يا معشرَ النصارى، إنّي لأرى وجوهًا لو شاء الله تعالى أن يُزيل جبلًا مِن مكانه لأزاله بها، فلا تُباهلوا وتهلِكوا ولا يبقى على وجه الأرضِ نصرانيٌّ إلى يوم القيامة»، فقالوا: «يا أبا القاسم، رأينا أن لا نباهِلَك، وأن نُقِرَّك على دينك ونثبُتَ على ديننا»، قال صلّى الله عليه وسلّم:[٦] «فإذا أبيتم المُباهلةَ فأسلِموا يكنْ لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم»،[٧] فأبَوا، قال: «فإنّي أناجِزُكم»، فقالوا: «ما لنا بحربِ العربِ طاقةٌ، ولكن نصالِحُك على أن لا تغزونا ولا تُخيفَنا ولا تردَّنا عن ديننا على أن نؤدّي إليك كلَّ عامٍ ألفي حُلّةٍ، ألف في صَفَر،

---

١ ي: عليه السلام.
٢ ي: عليه السلام.
٣ ي: متحضّنًا.
٤ ي - أجمعين.
٥ ي: النجران.
٦ ي: عليه السلام.
٧ ي: على المسلمين [صحح في الهامش].

وألف في رجبٍ، وثلاثين دِرعًا عاديّة مِن حديد»، فصالحهم على ذلك، وقال: «والذي نفسي بيده؛ إنّ الهلاكَ قد تدلَّى على أهل نجرانَ، ولو لاعنوا لَمُسِخوا قِردةً وخنازيرَ، ولاضْطَرَمَ عليهم الوادي نارًا، ولاستأصَلَ الله نجرانَ وأهلَه حتّى الطيرَ على رءوس الشجر، ولَمَا حال الحولُ على النصارى كلِّهم حتّى يهلكوا».[1]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما قُصّ مِن نبأ عيسى عليه السلام[2] وأمِّه ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ دون ما عداه مِن أكاذيبِ النصارى، فـ"هو" ضميرُ الفصلِ دخلتْه اللامُ؛ لكونه أقربَ إلى المبتدأ مِن الخبر، وأصلها أن تدخُلَ المبتدأَ. وقُرئ: "لَهْوَ" بسكون الهاء،[3] و﴿ٱلْقَصَصُ﴾ خبرُ ﴿إِنَّ﴾، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفتُه، أو "هو" مبتدأ، و﴿ٱلْقَصَصُ﴾ خبره، والجملة خبر لـ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صرّح فيه بـ﴿مِن﴾ الاستغراقيّة تأكيدًا للردّ على النصارى في تثليثهم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر على جميع المقدوراتِ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المحيط بالمعلومات، لا أحدَ يشاركُه في القدرة والحِكمة ليشاركَه في الألوهيّة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن التوحيد وقَبولِ الحقِّ الذي قُصّ عليك بعد ما عاينوا تلك الحُججَ النيِّرة والبراهينَ الساطعة، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: بهم، وإنّما وُضِعَ موضعَه ما وُضِع للإيذان بأنّ الإعراض عن التوحيد والحقِّ الذي لا محيدَ عنه بعد ما قامت به الحججُ إفسادٌ للعالَم، وفيه مِن شدّة الوعيدِ ما لا يخفى.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٨٥.

[2] س - عليه السلام.

[3] قرأ بها أبو عمرو والكسائي وأبو جعفر وقالون. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أمرٌ بخطاب أهلِ الكتابَين، وقيل: بخطاب وفدِ نجْرانَ، وقيل: بخطاب يهودِ المدينةِ، ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها الرسلُ والكتبُ، وهي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: نوحِّدُه بالعبادة، ونُخلِصُ فيها، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولا نجعلَ غيرَه شريكًا له في استحقاق العبادةِ، ولا نراه أهلًا لأن يُعبد، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن نقولَ: عزيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله، ولا نُطيعَ الأحبارَ فيما أحدثوا مِن التحريم والتحليل؛ لأنّ كلًّا منهم بعضُنا، بشرٌ مثلُنا.

روي أنّه لمّا نزلت: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة، ٣١/٩] قال عديُّ بنُ حاتم:[١] «ما كنّا نعبُدهم يا رسولَ الله»، فقال عليه السلام: «أليس كانوا يُحِلّون لكم ويحرِّمون، فتأخذون بقولهم؟»، قال: «نعم»، قال عليه السلام: «هو ذاك».[٢]

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عمّا دعوتَهم إليه مِن التوحيد وتركِ الإشراك ﴿فَقُولُوا۟﴾ أي: قل لهم أنت والمؤمنون: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: لزِمَتكم الحُجّةُ، فاعترِفوا بأنّا مسلمون دونكم، أو اعترِفوا بأنّكم كافرون[٣] لِما نطقَتْ به الكتُب، وتطابقت عليه الرسلُ عليهم السلام.

تنبيه: انظُر إلى ما روعيَ في هذه القصّة مِن المبالغة في الإرشاد وحسنِ التدرُّج في المُحاجّة حيث بيّن أوّلًا أحوالَ عيسى عليه السلام، وما توارد عليه

---

١ عَديّ بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عديّ الطائي، أبو طَريف (ت. ٦٨هـ/٦٨٧م). صاحب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. أسلم في سنة تسع مِن الهجرة، وكان نصرانيًا قبل ذلك، وثبت على إسلامه في الردّة، وأحضر صدقة قومِه إلى أبي بكر رضي الله عنه، وشهد فتح العراق، ثمّ سكن الكوفة، وشهد صفّين مع عليّ. عاش أكثر مِن مئة سنة. انظر: الإصابة لابن حجر، ٣٨٨/٤؛ والأعلام للزركلي، ٢٢٠/٤.

٢ بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٣٧١/١. وأخرجه بنحوه الترمذي في السنن، ٢٧٨/٥ (٣٠٩٥).

٣ وفي هامش ط س ي: فيكون قوله: ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ تعريضًا لهم بأنّهم كافرون. «منه».

مِن الأطوار المنافيةِ للإلهيّة، ثـمّ ذُكر كيفيّةُ دعوتِه للناس إلى التوحيد والإسلامِ، فلمّا ظهَر عنادهم دُعُوا إلى المُباهلة بنوع مِن الإعجاز، ثمّ لمّا أعرَضوا عنها وانقادوا بعضَ الانقياد دُعوا إلى ما اتّفق عليه عيسى عليه السلام[١] والإنجيلُ وسائرُ الأنبياء والكتُب، ثمّ لمّا ظهر عدمُ إجدائِه أيضًا أُمِرَ بأن يقال لهم: ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ مِن اليهود والنصارى ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: في مِلّته وشريعتِه.

تنازعت اليهودُ والنصارى في إبراهيمَ عليه السلام، وزعَم كلّ منهم أنّه عليه السلام منهم، وترافَعوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[٢] فنزلت.[٣]

والمعنى: لـمَ تدّعون أنّه عليه السلام كان منكم؟ ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ على موسى عليه السلام ﴿وَٱلْإِنجِيلُ﴾ على عيسى عليه السلام ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ حيث كان بينه وبين موسى عليهما السلام ألفُ سنةٍ، وبين موسى وعيسى عليهما
[٩٩و] السلام ألفَا سنةٍ، فكيف يمكن / أن يتفوَّهَ به عاقلٌ؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تتفكّرون فلا تعقِلون بطلانَ مذهبِكم؟ أو أتقولون ذلك، فلا تعقلون بُطلانه؟

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، صُدِّرت بحرف التنبيه، ثـمّ بُيِّنت بجملة مستأنَفة إشعارًا بكمال غفلتِهم، أي: أنتم هؤلاءِ الأشخاصُ الحمقى حيث ﴿حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في الجملة حيث وجدتموه في التوراة والإنجيل،

---

١ ط س – عليه السلام.
٢ ي: عليه السلام.
٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٥/٤٨١.

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أصلًا؛ إذ لا ذِكْرَ لدين إبراهيمَ عليه السلام[١] في أحد الكتابَين قطعًا. وقيل: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمعنى "الذي"، و﴿حَٰجَجْتُمْ﴾ صلتُه. وقيل: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ أصلُه: "أأنتم" على الاستفهام للتعجّب، قُلبت الهمزةُ هاءً.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما حاججتم فيه، أو كلَّ شيءٍ، فيدخُل فيه ذلك دخولًا أوّليًا. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: محلَّ النزاعِ، أو شيئًا مِن الأشياء التي مِن جملتها ذلك.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ تصريح بما نطَق به البرهانُ المقرِّر، ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن العقائد الزائغةِ كلِّها، ﴿مُّسْلِمًا﴾ أي: منقادًا لله تعالى، وليس المراد أنّه كان على مِلَّة الإسلامِ، وإلّا اشترك الإلزامُ.[٢]

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بأنّهم مشركون بقولهم: عزيرٌ ابنُ الله، والمسيحُ ابنُ الله، وردٌّ لادّعاء المشركين أنّهم على ملّته عليه السلام.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: أقربَهم إليه وأخصَّهم به ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: في زمانه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لموافقتهم في أكثرِ ما شَرعه[٣] لهم على الأصالة. وقُرئ: "النَّبِيَّ"[٤] بالنصب[٥] عطفًا على الضمير في ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، وبالجرّ[٦] عطفًا على "إبراهيمَ".

---

١ ط س - عليه السلام.

٢ قال القونوي: «واشتراك الإلزام بأن يقال: إنّ الإسلام حدث بنزول القرآن على محمّد عليه السلام، وكان إبراهيم عليه السلام قبل رسولنا عليه السلام بدهر طويل، ودفعه ما ذُكر». حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، ١٨٢/٦.

٣ ط: شرعهم.

٤ ط س ي: والنبيّ. | بالواو، وهو سهو.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٥.

٦ قراءة شاذّة، وعزاه ابن خالويه إلى بعضهم. انظر: مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٢٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٠٣/٣.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ينصُرهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم. وتخصيص المؤمنين بالذكر ليثبُتَ الحكمُ في النبيّ عليه السلام بدلالة النصِّ.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ نزلت في اليهود حين دعَوا حُذيفةَ وعمّارًا ومُعاذًا إلى اليهوديّة،[١] و﴿لَوْ﴾ بمعنى "أن". ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ جملة حاليّة جيء بها للدلالة على كمال رسوخِ المخاطَبين وثباتِهم على ما هم عليه مِن الدين القويم، أي: وما يتخطّاهم الإضلالُ، ولا يعود وبالُه إلّا إليهم؛ لِما أنّه يُضاعفُ به عذابُهم. وقيل: وما يُضِلّون إلّا أمثالَهم،[٢] ويأباه قوله تعالى:[٣] ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: باختصاص وبالِه وضررِه بهم.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما نَطَقتْ به التوراةُ والإنجيلُ، ودلّت على نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم،[٤] ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي: والحالُ أنّكم تشهدون أنّها آياتُ الله، أو بالقرآن وأنتم تشهدون نعتَه في الكتابَين، أو تعلمون بالمعجزات أنّه حقّ.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بتحريفكم وإبرازِ الباطِلِ في صورته، أو بالتقصير في التمييز بينهما. وقُرئ: "تَلَبِّسُونَ" بالتشديد،[٥] و"تَلْبَسُونَ" بفتح الباء،[٦] أي: تَلبَسون الحقَّ مع الباطل، كما في قوله عليه السلام:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٧٢.

٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٢٢.

٣ ط - تعالى.

٤ ي: عليه السلام.

٥ قراءة شاذّة، عزاها أبو حيّان إلى أبي مِجلَز، وضبطها بضمّ التاء وكسر الباء المشدّدة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٢٠٧.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٥.

«كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ».[١]

﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ أي: نبوّةَ محمّد عليه السلام ونعتَه، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: حقّيّتَه.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ وهم رؤساؤهم ومفسدوهم لأعقابهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أظهِروا الإيمانَ بالقرآن المنْزلِ عليهم ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: أوّلَه على المؤمنين،[٢] ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ﴾ أي: أظهِروا ما أنتم عليه مِن الكفر به ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾ مُرائين لهم أنكم آمنتم به بادِيَ الرأي مِن غير تأمّلٍ، ثمّ تأمّلتم فيه فوقَفتم على خلَل رأيِكم الأوّلِ، فرجعتم عنه، ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: المؤمنين ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عمّا هم عليه مِن الإيمان به كما رجعتم.

والمرادُ بـ"الطائفة": كعبُ بنُ الأشرفِ ومالكُ بنُ الصيفِ[٣] قالا لأصحابهما لمّا حُوِّلت القِبلة: آمِنوا بما أنزلت عليهم مِن الصلاة إلى الكعبة، وصلّوا إليها أوّلَ النهار، ثمّ صلّوا إلى الصخرة آخِرَه؛ لعلّهم يقولون: هم أعلمُ منّا وقد رجَعوا، فيرجِعون.[٤] وقيل: هم اثنا عشرَ رجلًا مِن أحبار خيبَر، تقاولوا بأن يدخُلوا في الإسلام أوّلَ النهار، ويقولوا آخرَه: نظرنا في كتابنا وشاوَرْنا علماءَنا،

---

١ عن عائشة رضي الله عنها؛ أنّ امرأة قالت: يا رسول الله؛ أقول: إن زوجي أعطاني ما لم يعطني، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «المتشبّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَي زُور». **صحيح البخاري**، ٣٥/٧ (٥٢١٩)؛ **صحيح مسلم**، ١٦٨١/٣ (٢١٢٩). وقال النووي: «قال العلماء: معناه: المتكثّر بما ليس عنده بأن يُظهر أنّ عنده ما ليس عنده؛ يتكثّر بذلك عند الناس، ويتزيّن بالباطل، فهو مذموم كما يذمّ مَن لبس ثوبَي زور. قال أبو عبيد وآخرون: هو الذي يلبَس ثياب أهل الزهد والعبادة والورع ومقصوده أن يُظهِر للناس أنّه متّصف بتلك الصفة، ويُظهِر مِن التخشّع والزهد أكثر ممّا في قلبه». **شرح صحيح مسلم** للنووي، ١١١/١٤.

٢ ط ي – على المؤمنين.

٣ ي: صيف.

٤ انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٩١/٣؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣٧٣/١؛ **وأنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢٣/٢.

فلم نجِدْ محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم[١] بالنعت الذي ورد في التوراة؛ لعلّ أصحابه يشكّون فيه.[٢]

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي: لا تُقِرّوا بتصديقٍ قلبيّ ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لأهل دينِكم، أو لا تُظهِروا إيمانَكم وجهَ النهار إلّا لمَن كان على دينكم مِن قبلُ، فإنّ رجوعَهم أرجى وأهمُّ. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يهدي به مَن يشاءُ إلى الإيمان ويُثبّته عليه.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ، أي: دبّرتم ذلك وقلتم: لأن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم. أو بـ﴿لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي: ولا تظهِروا إيمانكم بأن يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم إلّا لأشياعكم، ولا تُفْشوه إلى المسلمين؛ لئلا يزيدَ ثباتُهم، ولا إلى المشركين؛ لئلا يدعوهم إلى الإسلام.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراض مفيد لكون كيدِهم غيرَ مُجدٍ لطائل، أو خبر ﴿إِنَّ﴾ على أنّ ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾. وقُرئ: "ءَأَنْ يُؤْتَى" على الاستفهام التقريعيّ،[٣] وهو مؤيّد للوجه الأوّل، أي: أَلِأَن يُؤتى أحدٌ... إلخ دبّرتم؟ وقُرئ: "إِنْ"[٤] على أنّها نافية،[٥] فيكونُ مِن كلام الطائفة، أي: ولا تؤمنوا إلّا لمَن تبِعَ دينَكم، وقولوا لهم: ما يؤتى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم.

﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ عطفٌ على ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ على الوجهين الأوّلَين، وعلى الثالث معناه: حتّى يحاجّوكم عند ربِّكم فيدحَضوا حُجّتَكم. والواوُ ضميرُ ﴿أَحَدٌ﴾؛ لأنّه في معنى الجمع؛ إذ المرادُ به غيرُ أتباعِهم.

---

١ ي: عليه السلام.

٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٣٧٣؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٣.

٣ بهمزتين مع تسهيل الهمزة الثانية، قرأ بها ابن كثير المكّي. انظر: النشر لابن الجزري، ١/٣٦٦.

٤ س: أن.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٥.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ردٌّ لهم، وإبطال لِما زعَموه بالحجّة الباهرة.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾ أي: يجعل رحمتَه مقصورةً على ﴿مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ كلاهما تذييل لِما قبله مقرِّرٌ لمَضمونه.

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ شروع في بيان خيانتِهم في المال بعد بيانِ خيانتِهم في الدين، والجارُّ والمجرورُ في محلّ الرفع على الابتداء حسبما مرّ تحقيقُه في تفسير قوله تعالى:[1] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾... إلخ [البقرة، ٨/٢]. خبرُه قوله تعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ / بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ على أنّ المقصود بيانُ اتّصافِهم [٩٩ظ] بمضمون الجملة الشرطيّة، لا كونُهم ذواتِ المذكورين، كأنّه قيل: بعضُ أهلِ الكتاب بحيث إن تأمنْه بقنطار -أي: بمالٍ كثيرٍ- يؤدِّه إليك، كعبد الله بن سلامٍ، استودَعه قرشيٌّ ألفًا ومِائتيْ أوقيّةٍ ذهبًا فأدّاه إليه.[2]

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ كفِنحاصَ بنِ عازوراءَ، استودعه قرشيٌّ آخرُ فجحَده.[3] وقيل: المأمونون على الكثير: النصارى؛ إذ الغالبُ فيهم الأمانة، والخائنون في القليل: اليهودُ؛ إذ الغالبُ فيهم الخيانة. ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال أو الأوقات، أي: لا يؤدّه إليك في حالٍ مِن الأحوال، أو في وقتٍ مِن الأوقات، إلّا في حال دوام قيامِك، أو في وقت دوامِ قيامِك على رأسه مبالِغًا في مطالبته بالتقاضي وإقامةِ البيّنة.

---

١ س ي - تعالى.

٢ انظر: الكشّاف للزمحشري، ٣٧٤/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣/٢.

٣ انظر: الكشّاف للزمحشري، ٣٧٤/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٣/٢.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ترك الأداءِ المدلولِ عليه بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَدِّهِۦٓ﴾، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بكمال غُلوِّهم في الشرّ والفساد. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنّهم ﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: في شأنِ مَنْ ليس مِن أهل الكتاب. ﴿سَبِيلٌ﴾ أي: عتاب ومؤاخذة. ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بادّعائهم ذلك ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم كاذبون مفترون على الله تعالى؛ وذلك لأنّهم استحلّوا ظُلْمَ مَن خالفهم، وقالوا: لم يُجعل في التوراة في حقّهم حُرمةٌ.

وقيل:[١] عامل اليهودُ رجالًا مِن قريشٍ، فلمّا أسلموا تقاضَوْهم، فقالوا: سقَط حقُّكم حيث تركتم دينَكم، وزعَموا أنّه كذلك في كتابهم.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٢] أنّه قال عند نزولِها: «كذَب أعداءُ الله، ما مِن شيء في الجاهليّة إلّا وهو تحت قدميّ إلّا الأمانةَ، فإنّها مؤدّاة إلى البَرِّ والفاجر».[٣]

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦﴾

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لِما نفَوْه، أي: بلى عليهم فيهم سبيلٌ. وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ استئناف مقرِّر للجملة التي سدّ ﴿بَلَىٰ﴾ مسدَّها، والضميرُ المجرور لـ﴿مَنْ﴾، أو لله تعالى. وعموم ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ نائبٌ منابَ الراجعِ مِن الجزاء إلى ﴿مَنْ﴾، ومُشعِر بأنّ التقوى مَلاكُ الأمرِ، عامٌّ للوفاء وغيرِه مِن أداء الواجباتِ والاجتنابِ عن المناهي.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ أي: يستبدلون ويأخُذون ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: بدلَ ما عاهدوا عليه مِن الإيمان بالرسول صلّى الله عليه وسلّم والوفاءِ بالأمانات،

---

١ نقله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٢٤.
٢ ي: عليه السلام.
٣ جامع البيان للطبري، ٥/٥١١.

﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وبما حلفوا به مِن قولهم: لنُؤمِننّ به ولننصُرَنّه، ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ هو حُطامُ الدنيا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفاتِ القبيحةِ ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ لا نصيبَ ﴿لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مِن نعيمها، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: بما يسُرّهم، أو[1] بشيء أصلًا، وإنّما يقع ما يقع مِن السؤال والتوبيخِ والتقريعِ في أثناء الحساب مِن الملائكة عليهم السلام. أو لا ينتفعون بكلماتِ الله تعالى وآياتِه.

والظاهر أنّه كناية عن شدّة غضبِه وسَخَطِه، نعوذ بالله تعالى مِن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فإنّه مَجاز عن الاستهانة بهم والسَّخطِ عليهم، متفرّعٌ على الكناية في حقّ مَن يَجوز عليه النظرُ؛ لأنّ مَن اعتدّ بالإنسان التفت إليه، وأعاره نظر عينيه، ثمّ كثُر حتّى صار عبارةً عن الاعتداد والإحسانِ وإن لم يكن ثمّة نظَرٌ، ثمّ جاء فيمَن لا يجوز عليه النظرُ مجرّدًا لمعنى الإحسان، مَجازًا عمّا وقع، كنايةً عنه فيمَن يجوزُ عليه النظر. و﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّق بالفعلين. وفيه تهويل للوعيد. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: لا يُثني عليهم، أو لا يُطَهِّرهم مِن أوضار الأوزار. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ على ما فعلوه مِن المعاصي.

قيل: إنّها نزلت في أبي رافعٍ ولُبابةَ بنِ أبي الحقيق[2] وحُيَيّ بنِ أخطَبَ، حرّفوا **التوراة**، وبدّلوا نعتَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، وأخذوا الرِّشوةَ على ذلك.[3] وقيل: نزلت في الأشعث بنِ قيسٍ[4] حيث كان بينه وبين رجل نزاعٌ في بئر،

---

١ س: أي.

٢ كذا في الأصول الخطّيّة: "لُبابة" باللام والباء الموحدة، وهو كذلك في مطبوع **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٦/١. وفي **جامع البيان** للطبري، ٥١٦/٥؛ **والكشف والبيان** للثعلبي، ٩٨/٣، وغيرهما: "كِنانة" بالكاف والنون، وهو الصواب. وكِنانة بن أبي الحقيق اليهوديّ مِن بني النضير، كان شاعرًا، وكان قد تزوّج صفيّة بنت حُييّ بن أخطب أمّ المؤمنين قبل إسلامها، وقُتل عنها يوم خيبر. انظر: **معجم الشعراء** للمرزباني، ص ٣٥٢؛ وسير **أعلام النبلاء** للذهبي، ٢٣١/٢؛ **والإصابة** لابن حجر، ٥٣٣/١٣.

٣ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٥١٦/٥؛ **والكشف والبيان** للثعلبي، ٩٨/٣.

٤ هو الأشعث بن قيس بن مَعدي كَرِب الكندي، أبو محمّد (ت. ٤٠هـ/٦٦١م). وفَد على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سنة عشرٍ في سبعين راكبًا مِن كِندة، وكان مِن ملوك كِندة. شهد الأشعث اليرموك بالشام والقادسيّة وغيرها، وسكَن الكوفة، وشهد مع عليّ صِفّين، وله معه أخبار. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٨١/١. **وتهذيب التهذيب** لابن حجر، ٣٥٩/١؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٣٢/١.

فاختصما إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،[١] فقال له: «شاهداك أو يمينُه»، فقال الأشعَث: «إذن يحلِفُ ولا يبالي»، فقال صلّى الله عليه وسلّم:[٢] «مَن حلَف على يمين يستحِقّ بها مالًا هو فيها فاجرٌ لقِيَ الله وهو عليه غضبان».[٣] وقيل: «في رجل أقام سِلعة في السوق، فحلَف لقد اشتراها بما لم يكن اشتراها به».[٤]

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ أي: مِن اليهود المحرِّفين ﴿لَفَرِيقًا﴾ ككعب بنِ الأشرفِ ومالكِ بنِ الصيف وأضرابِهما ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يَفتِلونها بقراءته، فيُميلونها مِن المُنزَّل إلى المحرَّف، أو يَعطِفونها بشَبَه الكتاب. وقُرِئ: "يُلَوُّونَ"[٥] بالتشديد،[٦] و"يَلُونَ" بقلب الواو المضمومة همزةً، ثمّ تخفيفِها بحذفها وإلقاء حركتها على ما قبلها مِن الساكن.[٧]

﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي: المحرَّفَ المدلولَ عليه بقوله تعالى: ﴿يَلْوُۥنَ﴾... إلخ، وقُرِئ بالياء،[٨] والضميرُ للمسلمين. ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: مِن جملته، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حال مِن الضمير المنصوبِ، أي: والحال أنّه ليس منه في نفس الأمرِ وفي اعتقادهم أيضًا.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مع ما ذكر مِن اللَّيِّ والتحريف على طريقة التصريحِ، لا بالتورية والتعريض، ﴿هُوَ﴾ أي: المحرَّفُ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: منزلٌ[٩] مِن عند الله، ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حال مِن ضمير المبتدأ في الخبر، أي: والحالُ أنّه ليس مِن عنده تعالى

---

١ ي: عليه السلام.

٢ ي: عليه السلام.

٣ انظر: **صحيح البخاري**، ٣/١٢١ (٢٤١٦)؛ **وصحيح مسلم**، ١/١٢٢ (١٣٨).

٤ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٢٤. وهو حديث في **صحيح البخاري**، ٣/٦٠ (٢٠٨٨).

٥ ي: يُلوُنها.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر وشيبة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١١٥.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحميد. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١١٥.

٨ قراءة شاذّة، عزاها ابن خالويه لبعضهم. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ٢٧؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣/٢٢٨.

٩ ي: المنزّل.

في اعتقادهم أيضًا. وفيه مِن المبالغة في تشنيعهم وتقبيحِ أمرِهم وكمالِ جرأتهم ما لا يخفى، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ والكتاب في محلّ الإضمارِ لتهويل ما أقدموا عليه مِن القول.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم كاذبون ومفترون على الله تعالى، وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذبِ على الله تعالى والتعمُّد فيه. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هم اليهودُ الذين قدِموا على كعب بنِ الأشرف وغيَّروا التوراةَ، وكتبوا كتابًا بدَّلوا فيه صِفةَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم،[١] ثمّ أخذت قُريظةُ[٢] ما كتبوا فخلَطوه بالكتاب الذي عندهم».[٣]

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ بيان لافترائهم على الأنبياء عليهم السلام، حيث قال نصارى نجرانَ: «إنّ عيسى عليه السلام أمرنا أن نتّخِذَه ربًّا»، حاشاه عليه السلام، وإبطالٌ له إثرَ بيانِ افترائِهم على الله سبحانه وإبطالِه، / أي: ما صحّ وما استقام لأحد. [١٠٠و]
وإنّما قيل: ﴿لِبَشَرٍ﴾ إشعارًا بعلّة الحُكم، فإنّ البشريّة منافية للأمر الذي أسنده الكفرَةُ إليهم.

﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ الناطقَ بالحقّ، الآمرَ بالتوحيد، الناهيَ عن الإشراك. ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الفهم والعلم، أو الحكمة؛ وهي السنّة، ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلك البشرُ بعدما شرّفه الله تعالى بما ذُكر مِن التشريفات، وعرّفه الحقَّ وأطلعه على شئونه العالية ﴿لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى﴾ الجارُّ متعلّق بمحذوف هو صفةُ ﴿عِبَادًا﴾، أي: عبادًا كائنين لي ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بلفظ ﴿عِبَادًا﴾؛ لِما فيه مِن معنى الفعل، أو صفةٌ ثانيةٌ، ويحتمِل الحاليّةَ؛ لتخصّص النكرةِ بالوصف، أي: متجاوزين الله تعالى سواءٌ كان ذلك استقلالًا أو اشتراكًا، فإنّ التجاوز متحقّقٌ فيهما حتمًا.

---

[١] ي: عليه السلام.
[٢] ي: قريضة.
[٣] الكشّاف للزمخشري، ١/٣٧٧؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٢٢٦.

قيل: إنّ أبا رافعٍ القُرَظي[١] والسيّدَ النجرانيّ[٢] قالا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:[٣] «أتريد أن نعبُدَك ونتّخِذَك ربًّا؟» قال:[٤] «معاذَ الله أن يُعبَدَ غيرُ الله تعالى، وأن نأمرَ بعبادة غيرِه تعالى، فما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرَني»، فنزلت.[٥]

وقيل: قال رجل مِن المسلمين: «يا رسول الله؛ نسلِّم عليك كما يُسلِّم بعضُنا على بعض، أفلا نسجُد لك؟» قال عليه السلام: «لا ينبغي أن يُسجَدَ لأحد مِن دون الله تعالى، ولكن أكرِموا نبيَّكم، واعرِفوا الحقَّ لأهله».[٦]

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ﴾ أي: ولكن يقول: كونوا ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ الربانيّ: منسوب إلى الربّ بزيادة الألف والنون، كاللِّحيانيّ والرُّقبانيّ.[٧] وهو الكاملُ في العِلم والعمل، الشديدُ التمسّكِ بطاعة الله تعالى[٨] ودينِه.

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: بسبب مُثابرتِكم على تعليم الكتابِ ودراستِه، أي: قراءتِه، فإنّ جعْلَ خبرِ "كان" مضارعًا لإفادة الاستمرارِ التجدّديّ. وتكريرُ ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ للإيذان باستقلال كلّ مِن استمرار التعليمِ

---

١ هو أبو رافع القرظي اليهودي، اسمه سلّام بن أبي الحَقيق؛ وقيل: عبد الله بن أبي الحَقيق، عن ابن إسحاق: لمّا انقضى شأن الخندق وأمر بني قريظة، وكان أبو رافع فيمن حزّب الأحزاب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، استأذنت الخزرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قتله، فأذِن لهم. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢/١٠؛ وفتح الباري لابن حجر، ٧/٣٤٢.

٢ السيّد النجراني، كان مِن وفْد نَجران الذين وفَدوا على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فناظرَهم على النصرانيّة، ثمّ إنّه قدم على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأسلَم، وأنزله عليه الصلاة والسلام دار أبي أيّوب الأنصاري. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١/٣٥٧؛ والإصابة لابن حجر، ٤/٥٥٨.

٣ ي: عليه السلام.

٤ ط ي: فقال.

٥ انظر: جامع البيان للطبري، ٥/٥٢٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٥.

٦ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٠١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٥. قال السيوطي: «أخرجه عبد بن حميد عن الحسَن». الدرّ المنثور للسيوطي، ٢/٢٥٠. وفي السنن مِن حديث قيس بن سعد: ... فأنت يا رسول الله أحقّ أن نسجد لك، قال: «أرأيت لو مررت بقبري، أكنت تسجد له؟» قال: قلت: لا، قال: «فلا تفعلوا، لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهنّ، لِما جعل الله لهم عليهنّ مِن الحقّ». سنن أبي داود، ٣/٤٧٥ (٢١٤٠).

٧ اللِّحياني -بكسر اللام-: عظيم اللِّحية، والرُّقباني: غليظ الرَّقبة. حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، ٦/٧٩.

٨ ط س - تعالى.

واستمرارِ القراءةِ بالفضل وتحصيلِ الربّانية. وتقديمُ التعليم على الدراسة لزيادة شرفِه عليها، أو[١] لأنّ[٢] الخطابَ الأوّلَ لرؤسائهم، والثاني لمَن دونهم. وقُرئ: "تَعْلَمُونَ"[٣] بمعنى: عالمين، و"تُدَرِّسُونَ"[٤] مِن التدريس، و"تُدْرِسُونَ"[٥] مِن الإدراس بمعنى: التدريس، كأكرَمَ بمعنى كرَّم، ويجوز كون القراءة المشهورة أيضًا بهذا المعنى، على تقدير: بما تدْرُسونه على الناس.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ بالنصب عطفًا على ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾،[٦] و﴿لَا﴾ مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾،[٧] أي: ما كان لبشر أن يستنبئَه الله تعالى ثمّ يأمرَ الناس بعبادة نفسِه ويأمرَ باتّخاذ الملائكة والنبيّين أربابًا. وتوسيطُ الاستدراك بين المعطوفَين للمسارعة إلى تحقيق الحقّ ببيان ما يليق بشأنه ويحِقُّ صدورُه عنه إثرَ تنزيهه عمّا لا يليقُ به ويمتنِعُ صدورُه عنه.

وأمّا ما قيل مِن "أنّها[٨] غيرُ مزيدةٍ على معنى: أنّه ليس له أن يأمُرَ بعبادته ولا يأمرَ باتّخاذِ أكفائِه أربابًا؛ بل ينهى عنه، وهو أدنى مِن العبادة"؛[٩] فيقضي بفساده ما ذُكِر مِن توسيط[١٠] الاستدراكِ بين الجملتين المتعاطفتين ضرورةَ أنّهما حينئذ في حكم جملةٍ واحدة، وكذا قوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ فإنّه صريح

---

١ ي - أو.

٢ ي: ولأنّ.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٦.

٦ في الآية السابقة.

٧ في الآية السابقة.

٨ ط - وتوسيطُ الاستدراك بين المعطوفَين للمسارعة إلى تحقيق الحقّ ببيان ما يليق بشأنه ويحِقُّ صدورُه عنه إثرَ تنزيهه عمّا لا يليقُ به ويمتنِعُ صدورُه عنه، وأمّا ما قيل مِن أنّها؛ ط + أو.

٩ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٥. | ط + وقُرئ بالرفع على الاستئناف، ويحتمل الحال. ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ﴾ إنكار لِما نفي عن البشر، والضمير له، وقيل: لله سبحانه. | وقعت هذه الزيادة كذلك في نسخة س ثمّ ضرب عليها.

١٠ ي: توسّط.

في أنّ المراد بيانُ انتفاءِ كِلا الأمرَين قصدًا، لا بيانُ انتفاءِ الأوّلِ لانتفاءِ الثاني، ويعضُده قراءةُ الرفع[1] على الاستئناف. وتجويز الحاليّة بتقدير المبتدأ -أي: وهو لا يأمرَكم... إلى آخره- بيِّن الفساد لِما عرَفته آنفًا.

وقوله تعالى:[2] ﴿بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ وهذا[3] دليل[4] على أنّ الخطابَ للمسلمين، وهم المستأذِنون للسجود له صلّى الله عليه وسلّم.[5]

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ منصوب بمضمَر خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[6] أي: اذكرْ وقتَ أخذِه تعالى ميثاقَهم.

﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ قيل: هو على ظاهره، وإذا[7] كان هذا حكمَ الأنبياءِ كان الأممُ بذلك أولى وأحرى. وقيل: معناه: أُخِذ الميثاقُ مِن النبيّين وأممِهم، واستُغنيَ بذكرهم عن ذكرهم. وقيل: إضافة الميثاقِ إلى النبيّين إضافةٌ إلى الفاعل، والمعنى: وإذ أخذ الله الميثاقَ الذي وثّقه الأنبياءُ على أممهم. وقيل: المراد أولادُ النبيّين على حذف المضافِ، وهم بنو إسرائيلَ، أو سمّاهم نبيّين تهكّمًا بهم؛ لأنّهم كانوا يقولون: نحن أولى[8] بالنبوّة مِن محمّد صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّا أهلُ الكتاب والنبيّون كانوا منّا.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٠.

[2] ط س - فيقضي بفساده ما ذُكِر مِن توسيط الاستدراكِ بين الجملتين المتعاطفتين ضرورةَ أنّهما حينئذ في حكم جملةٍ واحدة، وكذا قوله تعالى: ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ﴾، فإنّه صريحٌ في أنّ المرادَ بيانُ انتفاءِ كِلا الأمرَين قصدًا، لا بيانُ انتفاءِ الأوّلِ لانتفاءِ الثاني، ويعضُده قراءةُ الرفعِ على الاستئناف، وتجويزُ الحاليّة بتقدير المبتدأ -أي: وهو لا يأمرَكم... إلى آخره- بيِّن الفساد لِما عرَفته آنفًا. وقوله تعالى ["صح" في هامش س].

[3] ي - وهذا.

[4] ي: يدلّ.

[5] ي: عليه السلام.

[6] ي: عليه السلام.

[7] ي: وإذ.

[8] صحّح في هامش ط: أحقّ.

واللام في ﴿لَمَا﴾ موطِّئة للقسَم؛ لأنّ أخذَ الميثاق بمعنى الاستحلافِ، و"ما" يحتملُ الشرطيةَ، و﴿لتُؤمِنُنّ﴾ سادٌّ مسدَّ جوابِ القسم والشرط، ويحتمل الخبريّة. وقُرئ: "لِمَا" بالكسر[١] على أنّ "ما" مصدريّة، أي: لأجل إيتائي إيّاكم بعضَ الكتاب ثمّ لمجيء رسولٍ مصدّقٍ أخذَ الله الميثاقَ لتؤمِنُنَّ به ولَتنصُرُنّه، أو موصولةٌ، والمعنى: أخذَه للذي آتيتُكموه وجاءكم رسول مصدّق له. وقُرئ: "لَمّا"[٢] بمعنى: حين آتيتُكم، أو لَمِنْ أجل ما[٣] آتيتُكم، على أنّ أصله "لَمِنْ ما" بالإدغام، فحُذف إحدى الميمات الثلاثِ استثقالًا.

﴿قَالَ﴾ أي: الله تعالى بعد ما أخذَ الميثاقَ: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بما ذُكر ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: عهدي، سُمّيَ به لأنّه يؤصَرُ، أي: يُشَدّ. وقُرئ بضمّ الهمزة،[٤] وهي إمّا لغةٌ فيه، كعِبْر وعُبْر،[٥] أو جمع إصار؛ وهو ما يشدّ به. ﴿قَالُوٓاْ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا قالوا عند ذلك؟ فقيل: قالوا: ﴿أَقْرَرْنَا﴾، وإنّما لم يُذكر أخذُهم الإصر اكتفاءً بذلك. ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ أي: فليشهدْ بعضُكم على بعض بالإقرار. وقيل: الخطابُ فيه للملائكة. ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: وأنا أيضًا على إقراركم ذلك وتشاهُدِكم شاهدٌ. وإدخال "مع" على المخاطبين لِما أنّهم المباشِرون للشّهادة حقيقةً، وفيه مِن التأكيد والتحذيرِ ما لا يخفى.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عمّا ذكر ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الميثاقِ والتوكيدِ بالإقرار والشهادة، فمعنى البُعد في اسم الإشارةِ لتفخيم الميثاق، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى "مَنْ". والجمعُ باعتبار المعنى، كما أنّ الإفراد في ﴿تَوَلَّىٰ﴾ باعتبار اللّفظ. وما فيه مِن معنى البُعد للدلالة على ترامي أمرِهم في السوء وبُعد منزلتِهم في الشر والفساد،

---

١ قرأ بها حمزة الزيّات. النشر لابن الجزري، ٢٤١/٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٦.
٣ ي - ما.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٦.
٥ وفي هامش ي: هو شطّ النهر. «منه».

أي: فأولئك المُتولُّون المتّصفون بالصفات القبيحةِ ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمرّدون الخارجون عن الطاعة مِن الكَفَرة، فإنّ الفاسق مِن كلّ طائفةٍ مَنْ كان متجاوزًا عن الحدّ.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ عطفٌ على مقدّر، أي: أيتولّون[1] فيبغون غيرَ دينِ الله؟ وتقديمُ المفعولِ لأنّه المقصود إنكارُه، أو على الجملة المتقدّمةِ، / والهمزةُ متوسّطة بينهما؛ للإنكار. وقُرئ بتاء الخطاب[2] على تقدير: وقل لهم. [١٠٠ظ]

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جملة حاليّة مفيدة لوكادة[3] الإنكار. ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: طائعين بالنظر واتّباعِ الحجّةِ، وكارهين بالسيف ومعاينةِ ما يُلجئ إلى الإسلام، كنَتْق الجبلِ، وإدراكِ الغرقِ، والإشرافِ على الموت، أو مختارين كالملائكة والمؤمنين، ومسخَّرين كالكَفَرة، فإنّهم لا يقدِرون على الامتناع عمّا قُضيَ عليهم.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي: مَنْ فيهما، والجمعُ باعتبار المعنى. وقُرئ بتاء الخطاب.[4] والجملة إمّا معطوفة على ما قبلها منصوبة على الحاليّة، وإمّا مستأنَفة سيقت للتّهديد والوعيد.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أمرٌ للرسول صلّى الله عليه وسلّم[5] بأن يُخبرَ عن نفسه

---

[1] ي: يتولّون.

[2] قرأ بها الجمهور غير أبي عمرو ويعقوب وحفص. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤١.

[3] قال المطرّزي: «الوكادة: بمعنى التوكيد، غير ثبت». المُغرب للمطرّزي، «وكد».

[4] قرأ بها الجمهور غير يعقوب وحفص. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤١.

[5] ي: عليه السلام.

ومَنْ معه مِن المؤمنين بالإيمان بما ذُكر، وجمع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ وهو القرآنُ؛ لِما أنّه منزل عليهم أيضًا بتوسّط تبليغِه إليهم، أو لأنّ المنسوب إلى واحد مِن الجماعة قد يُنسَب إلى الكلّ، أو عن نفسه فقط، وهو الأنسبُ لِما بعده. والجمعُ لإظهار جلالةِ قدرِه عليه السلام ورفعةِ محلِّه بأمره بأن يتكلّم عن نفسه على دَيْدَن الملوكِ، ويجوز أن يكون الأمرُ عامًّا، والإفرادُ لتشريفه صلّى الله عليه وسلّم،[1] والإيذانِ بأنّه عليه السلام أصل في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق، ١/٦٥].

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَـٰعِيلَ وَإِسۡحَـٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ مِن الصحُف. والنزولُ كما يعدّى بـ"إلى" -لانتهائه إلى الرسل- يعدّى بـ"على"؛ لأنّه مِن فوق، ومَن رامَ الفرق بأنّ "على" لكون الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[2] و"إلى" لكون الخطاب للمؤمنين فقد تعسّف، ألا يرى إلى قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾... إلخ [البقرة، ٤/٢]، وقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلخ [آل عمران، ٧٢/٣]. وإنّما قدّم المُنْزلُ على الرسول صلّى الله عليه وسلّم[3] على ما أنزِل على سائر الرسل عليهم السلام مع تقدّمه عليه نزولًا؛ لأنّه المعرّفُ له والعيار عليه. و﴿ٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ جمع سِبْط، وهو الحافد، والمرادُ بهم حفَدَةُ يعقوبَ عليه السلام وأبناؤه الاثنا[4] عشرَ وذراريّهم، فإنّهم حفدةُ إبراهيمَ عليه السلام.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ مِن التوراة والإنجيلِ وسائرِ المعجزاتِ الظاهرةِ بأيديهما، كما يُنبئ عنه إيثارُ "الإيتاءِ" على الإنزالِ الخاصِّ بالكتاب. وتخصيصُهما بالذكر لِما أنّ الكلام مع اليهود والنصارى. ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ عطفٌ على ﴿مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ عليهما السلام، أي: وبما أوتي النبيّون مِن المذكورين وغيرِهم ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ مِن الكتب والمعجزاتِ.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ كدأبِ اليهودِ والنصارى، آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض؛ بل نؤمن بصِحّةِ نبوّةِ كلّ منهم، وبحقّيّة ما أُنزل إليهم في زمانهم. وعدمُ التعرّضِ

---

[1] ي: عليه السلام.
[2] ي: عليه السلام.
[3] ي: عليه السلام.
[4] ط: الاثنى.

لنفي التفريق بين الكتبِ لاستلزام المذكورِ إيّاه، وقد مرّ تفصيلُه في تفسير قولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة، ٢٨٥/٢]. وهمزة ﴿أَحَدٍ﴾ إمّا أصليّة، فهو اسم موضوع لمَن يصلُح أن يخاطَبَ، يستوي فيه المفرد والمثنّى والمجموع والمذكّر والمؤنّث، ولذلك صحّ دخول ﴿بَيْنَ﴾ عليه، كما في مثل: المالُ بين الناس. وإمّا مُبدَلة مِن الواو، فهو بمعنى واحد، وعمومُه لوقوعه في حيّز النفي، وصِحّةُ دخول ﴿بَيْنَ﴾ عليه باعتبار معطوفٍ قد حُذف لظهوره، أي: بين أحدٍ منهم وغيرِه، كما في قول النابغة:

فما كان بينَ الخيرِ إذ جاء سالمًا أبو حَجَرٍ[1] إلّا لَيالٍ[2] قلائلُ[3]

أي: بين الخير وبيني.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون، أو مخلصون له تعالى أنفسنا، لا نجعلُ له شريكًا فيها. وفيه تعريض بإيمان أهلِ الكتاب، فإنّه بمَعزِلٍ مِن ذلك.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: غيرَ التوحيد والانقيادِ لحكم الله تعالى كدأب المشركين صريحًا، والمدّعين[4] للتّوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين.

﴿دِينًا﴾ ينتحِلُ إليه، وهو نصب على أنه مفعول لـ﴿يَبْتَغِ﴾، و﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ حال منه؛ لِما أنّه كان صفةً له، فلمّا قُدِّمت عليه انتصبت حالًا، أو هو المفعول، و﴿دِينًا﴾ تمييز؛ لِما فيه مِن الإبهام، أو بدل مِن ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾.

﴿فَلَن يُقْبَلَ﴾ ذلك ﴿مِنْهُ﴾ أبدًا؛ بل يُردّ أشدَّ ردَ وأقبحَه. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إمّا حال مِن الضمير[5] المجرور، أو استئناف لا محلّ له

---

١ كذا ضبطها المصنّف في موضع آخر.

٢ ي: أبو حجر الليالي.

٣ ديوان النابغة الذبياني، ص ١٢٠. وهو مِن قصيدة يرثي بها النعمان بن الحارث الغساني. و"أبو حجر" كُنية النعمان، و"أبو حجر" في البيت فاعل "جاء"، و"سالمًا" حال منه، و"قلائلُ" صفة "ليال". والشاهد في البيت: قوله: "بينَ الخير لو جاء سالمًا" حيث حذف فيه المعطوف بالواو؛ إذ التقدير: فما كان بين الخير وبيني لو جاء سالمًا. انظر: المقاصد النحويّة للعَيني، ١٦٥٣/٤.

٤ ي: والمدّعيين.

٥ ي: ضمير.

مِن الإعراب، أي: مِن الواقعين في الخُسران. والمعنى: أنّ المُعرِض عن الإسلام والطالبَ لغيره فاقدٌ للنّفع، واقعٌ في الخسران بإبطال الفطرةِ السليمةِ التي فُطر الناسُ عليها. وفي ترتيب الردّ والخُسران على مجرّد الطلبِ دلالةٌ على أنّ حال مَن تديّن بغير الإسلام واطمأنّ بذلك أفظعُ وأقبحُ. واستُدِلّ به على أنّ الإيمان هو الإسلامُ، إذ لو كان غيرَه لم يقبل، والجوابُ: أنّه ينفي قَبولَ كلِّ دينٍ يُغايرُه، لا قبولَ كلّ ما يغايرُه.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ﴾ إلى الحقِّ[1] ﴿قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ قيل: هم عشرَةُ رهطٍ ارتدّوا بعد ما آمنوا ولحِقوا بمكّة.[2] وقيل: هم يهودُ قُريظةَ والنَّضِير ومَنْ دان بدينهم، كفروا بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم[3] بعد أن كانوا مؤمنين به قبل مَبْعثِه.

﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ استبعاد لأن يهديَهم الله تعالى، فإنّ الهائد[4] عن الحقّ بعد ما وضَحَ له مُنهمِكٌ في الضلال، بعيدٌ عن الرشاد. وقيل: نفيٌ وإنكار له، وذلك يقتضي أن لا يقبلَ توبة المرتدّ. وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓا۟﴾ عطفٌ على ﴿إِيمَـٰنِهِمْ﴾ باعتبار انحلالِه إلى جملة فعليّةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾... إلخ [الحديد، ١٨/٥٧]، فإنّه في قوّة أن يقال: بعد أن آمنوا. أو حال مِن ضمير ﴿كَفَرُوا۟﴾ بإضمار "قد". وهو دليل على أنّ الإقرار باللّسان خارج عن حقيقة الإيمان.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: الذين ظلموا أنفسَهم بالإخلال بالنظر، ووضعِ الكفر موضِعَ الإيمان، فكيف مَن جاءه الحقُّ وعرَفه ثمّ أعرض عنه؟ والجملة اعتراضيّة، أو حاليّة.

---

١ س - إلى الحقّ.
٢ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨١/١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٥١/٣.
٣ ي: عليه السلام.
٤ الهائد: اسم فاعل مِن "هاد" إذا رجع، قال ابن الأعرابي: «هاد إذا رجع مِن خير إلى شرّ، أو مِن شرّ إلى خير». انظر: لسان العرب لابن منظور، «هود».

﴿أُولَٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتّصافِهم بما مرّ مِن الصفات الشنيعة، وما فيه مِن معنى البعدِ لِما مرّ مرارًا. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ مبتدأ ثانٍ، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ خبرُه، والجملة خبر لـ﴿أُولَٰئِكَ﴾. وهذا يدلُّ بمنطوقه على جواز لعنِهم، وبمفهومِه ينفي / جوازَ لعنِ [١٠١و] غيرِهم، ولعلّ الفرقَ بينهم وبين غيرِهم أنّهم مطبوع على قلوبهم، ممنوعون مِن الهدى، آيِسون عن الرحمة رأسًا، بخلاف غيرِهم. والمرادُ بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾: المؤمنون، أو الكلُّ؛ فإنّ الكافر أيضًا يَلعن مُنكِرَ الحقِّ والمرتدَّ عنه، ولكن لا يعرِف الحقَّ بعينه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في اللّعنة والعقوبةِ، أو النار وإن لم تُذكر؛ لدلالة الكلامِ عليها. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يُمهَلون.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعد الارتدادِ ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أي: ما أفسدوا، أو دخلوا في الصلاح ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيَقبلُ توبتَهم ويتفضّلُ عليهم، وهو تعليل لِما دلّ عليه الاستثناء. وقيل:[١] نزلت في الحارثِ بنِ سويد[٢] حين ندِم على رِدّته، فأرسل إلى قومه أن يسألوا: هل لي مِن توبة؟ فأرسل إليه أخوه الجُلاس[٣] الآيةَ، فرجَع إلى المدينة فتاب.[٤]

---

١ ي: قيل.

٢ هو الحارث بن سُويد بن الصامت الأنصاري الأوسي. كان قد ارتدّ على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولحِق بالكفّار، فنزلت هذه الآية، فرجع وأسلم وحسن إسلامه. قال ابن الأثير: اتّفق أهل النقل على أنّه الذي قتل المُجذَّر بن ذِياد، فقتله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم به، وكان سبب قتله المُجذَّر أنّ المُجذَّر قتل أباه سويد بن الصامت في الجاهليّة، فرأى الحارثُ مِن المُجذَّر غِرّة يوم أُحُد فقتله وهرَب. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البر، ٣٠٠/١؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٣٥٧/٢.

٣ هو جُلَاس بن سُويد بن الصامت الأنصاري، أخو الحارث بن سُويد، له صحبة، وله ذِكر في المغازي. كان مِن المنافقين، ثمّ تاب وحسنت توبته. انظر: **أسد الغابة** لابن الأثير، ٣٤٦/١؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٢١٩/٢.

٤ انظر: **جامع البيان** للطبري، ٥٥٧/٥.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا﴾ كاليهود كفروا بعيسى والإنجيلِ بعد الإيمانِ بموسى عليه السلام[١] والتوراة، ثمّ ازدادوا كفرًا حيث كفروا[٢] بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم والقرآنِ، أو كفروا به عليه السلام بعد ما آمنوا به قبل مَبعثِه، ثمّ ازدادوا كفرًا بالإصرار عليه، والطعنِ فيه، والصدِّ عن الإيمان، ونقضِ الميثاق، أو كقومٍ ارتدّوا ولحِقوا بمكّة ثمّ ازدادوا كفرًا بقولهم: نتربّصُ بهم رَيْبَ المنون، أو نرجِعُ إليه فننافِقُه بإظهار الإيمان.

﴿لَن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ لأنّهم لا يتوبون إلّا عند إشرافِهم على الهلاك، فكُنِي عن عدم توبتِهم بعدم قَبولِها تغليظًا في شأنهم، وإبرازًا لحالهم في صورة الآيسين مِن الرحمة، أو لأنّ توبتهم لا تكون إلّا نفاقًا؛ لارتدادهم وازديادِهم كفرًا، ولذلك لم يدخُلْ فيه الفاء. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ الثابتون على الضلال.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦ﴾ لمّا كان الموتُ على الكفر سببًا لامتناع قَبولِ الفِديةِ زيدت الفاءُ ههنا للإشعار به. وملءُ الشيءِ: ما يُملأ به، و﴿ذَهَبٗا﴾ تمييز. وقُرئ بالرفع[٣] على أنّه بدل مِن ﴿مِلۡءُ﴾، أو الخبرُ[٤] محذوف.[٥] ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ﴾ محمول على المعنى، كأنّه قيل: فلن يُقبل مِن أحدهم فدية ولو افتدى بمِلء الأرضِ ذهبًا، أو معطوف على مضمَر، تقديرُه: فلن يقبل مِن أحدهم مِلءُ الأرض ذهبًا لو تصدّق به في الدنيا ولو افتدى به مِن العذاب في الآخرة، أو المرادُ: ولو افتدى بمثلِه،

---

١ ط س - عليه السلام.

٢ ط س - حيث كفروا.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن سراج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٧.

٤ ي: خبر.

٥ ي: لمحذوف.

كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ [الزمر، ٤٧/٣٩]. و"المِثلُ" يحذف ويزاد كثيرًا؛ لأنّ المِثلَين في حكم شيءٍ واحد.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتّصافِهم بالصفات الشنيعة المذكورة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلمٌ. اسم الإشارةِ مبتدأ، والظرف خبرُه، ولاعتماده على المبتدأ ارتفع به ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على الفاعليّة. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ في دفع العذابِ عنهم، أو في تخفيفه. و﴿مِن﴾ مزيدة للاستغراق، وصيغة الجمعِ لمراعاة الضميرِ، أي: ليس لواحد منهم ناصرٌ واحد.

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾ مِن "ناله نيلًا" إذا أصابه. والخطابُ للمؤمنين. وهو كلام مستأنَف، سيق لبيان ما ينفعُ المؤمنين ويُقبلُ منهم إثرَ بيانِ ما لا ينفعُ الكفرةَ ولا يُقبل منهم. أي: لن تبلُغوا حقيقةَ البِرِّ الذي يتنافس فيه المتنافسون، ولن تُدركوا شأوَه، ولن تلحَقوا بزُمرة الأبرارِ، أو لن تنالوا برَّ الله تعالى؛ وهو ثوابه ورحمته ورضاه وجنّته ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟﴾ أي: في سبيل الله عزّ وجلّ رغبةً فيما عنده. و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ تبعيضيّة، ويؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "بَعْضَ مَا تُحِبُّونَ".[١] وقيل: بيانية، و"مَا" موصولة أو موصوفة، أي: ممّا تهوَوْن ويُعجبُكم مِن كرائمِ أموالِكم وأحبّها إليكم، كما في قوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة، ٢٦٧/٢]، أو ممّا يعُمّها وغيرَها مِن الأعمال والمُهجة، على أنّ المراد بالإنفاق: مطلقُ البذلِ. وفيه مِن الإيذان بعزّة منالِ البرِّ ما لا يخفى.

وكان السلفُ رضي الله تعالى[٢] عنهم أجمعين[٣] إذا أحبّوا شيئًا جعلوه لله عزّ وجلّ.[٤] ورُوي أنّها لمّا نزلت جاء أبو طلحةَ، فقال: «يا رسولَ الله؛ إنّ أحبَّ

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٣٨٥/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٦١/٣.

٢ س ي - تعالى.

٣ س ي - أجمعين.

٤ ي: تعالى.

أموالي إليَّ بَيْرَحاء،[١] فضعْها يا رسولَ الله حيث أراك الله»، فقال صلّى الله عليه وسلّم:[٢] «بخٍ بخٍ، ذاك مالٌ رابحٌ -أو رائجٌ- فإنّي أرى أن تجعلَها في الأقربين»، فقسَمها في أقاربه.[٣]

وجاء زيدُ بن حارثةَ بفرسٍ له كان يحبُّها، فقال:[٤] «هذه في سبيل الله»، فحمل عليها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم[٥] أسامةَ بنَ زيدٍ، فكأنّ زيدًا وجَدَ في نفسه، وقال: «إنّما أردتُ أن أتصدّقَ به»، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:[٦] «أما إنّ الله تعالى قد قبِلها منك».[٧] قيل: وفيه دلالة على أنّ إنفاق أحبِّ الأموالِ على أقربِ الأقاربِ أفضل.

وكتب عمرُ رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه: أن يشتريَ له جاريةً مِن سبْي جَلولاء[٨] يوم فُتِحت مدائنُ كسرى، فلمّا جاءت أعجبتْه، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فأعتَقها.[٩]

وروي أنّ عمرَ بنَ عبد العزيز رضي الله عنه[١٠] كانت لزوجته جاريةٌ بارعةُ الجمال، وكان عمر راغبًا فيها، وكان قد طلبها منها مرارًا، فلم تُعطِها إيّاه، ثمّ لمّا وُلّيَ الخِلافةَ زيّنَتها وأرسلتها إليه، فقالت: «قد وهبتُكَها يا أميرَ المؤمنين،

---

١ بيرحاء: قال النووي: «اختلفوا في ضبط هذه اللفظة على أوجه»، ثمّ نَقل عن القاضي عياض قولَه: «رَوينا هذه اللفظة عن شيوخنا بفتح الراء وضمّها مع كسر الباء، وبفتح الباء والراء»، وذَكر غيرَ ذلك، ثمّ قال: «وهو حائط يسمّى بهذا الاسم، وليس اسم بئر، والحديث يدلّ عليه». انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، ٨٤/٧.

٢ ي: عليه السلام.

٣ ي: أقربائه. | انظر: صحيح البخاري، ١١٩/٢ (١٤٦١)، ١٠٢/٣ (٢٣١٨)؛ وصحيح مسلم، ٦٩٣/٢ (٩٩٨).

٤ ي + له.

٥ ي: عليه السلام.

٦ ي: عليه السلام.

٧ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٤/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧٧/٥.

٨ جَلولاء: مدينة في العراق في أوّل الجبل، وهي مدينة صغيرة عامرة بها نخل وزروع، ومنها إلى خانقين سبعة وعشرون ميلًا. وعليها كانت الوقيعة بالفُرس أيّام عمر رضي الله عنه، وكان فتحها يسمّى فتح الفتوح، وكانت غنيمة المسلمين فيها أكثر منها يوم القادسيّة، بلغ السهم ستّة آلاف درهم. انظر: معجم البلدان للحموي، ١٥٦/٢؛ والروض المعطار للحميري، ص ١٦٧.

٩ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٤/١. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧٤/٥.

١٠ ط س - رضي الله عنه.

فلتخدُمْك»»، قال: «مِن أين ملكتِها؟» قالت: «جئتُ بها مِن بيت أبي عبدِ الملك»»، ففتّش عن كيفيّة تملُّكِه إيّاها، فقيل: إنّه كان على فلانٍ العاملِ ديونٌ، فلمّا تُوفّيَ أُخِذت مِن تركَته، ففتّش عن حال العاملِ وأحضر ورثته وأرضاهم جميعًا بإعطاء المالِ، ثمّ توجّه إلى الجارية وكان يهواها هوًى شديدًا، فقال: «أنت حرّةٌ لوجه الله تعالى»»، فقالت: «لمَ يا أميرَ المؤمنين وقد أزحْتَ عن أمرها كلَّ شُبهة؟» قال: «لستُ إذن ممّن نهى النفسَ عن الهوى»».[1]

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ ﴿مَا﴾ شرطيّة جازمة لـ﴿تُنفِقُواْ﴾، منتصبة به على المفعوليّة، و﴿مِن﴾ تبعيضيّة متعلّقة بمحذوف هو صفة لاسم الشرطِ، أي: أيَّ شيءٍ تنفقوا كائن مِن الأشياء، فإنّ المفرد في / مثل هذا الموضعِ واقع موقعَ [١٠١ظ]
الجمعِ. وقيل: محلّ الجارِّ والمجرور النصبُ على التميز، أي: أيَّ شيءٍ تنفقوا طيّب تحبّونه أو خبيث تكرَهونه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ تعليل لجواب الشرط، واقع موقِعَه، أي: فمجازيكم بحسَبه، جيّدًا كان أو رديئًا، فإنّه تعالى عليم بكلّ شيءٍ تُنفِقونه عِلمًا كاملًا بحيث لا يخفى عليه شيءٌ مِن ذاته وصفاته. وتقديم الجارِّ والمجرور لرعاية الفواصل. وفيه مِن الترغيب في إنفاق الجيّدِ والتحذيرِ عن إنفاق الرديء ما لا يخفى.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٩٣﴾

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي: كلُّ أفرادِ المطعوم، أو كلُّ أنواعِه ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: حلالًا لهم، فإنّ الحِلّ مصدر نُعت به، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث، كما في قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمۡ﴾ [الممتحنة، ١٠/٦٠].

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ استثناء متّصل مِن اسم ﴿كَانَ﴾، أي: كان كلّ المطعوماتِ حلالًا لبني إسرائيلَ إلّا ما حرّم إسرائيلُ -أي: يعقوبُ عليه السلام- على نفسه، وهو لحوم الإبلِ وألبانها. قيل: كان به وجعُ النِّسا، فنذَرَ:

---

[1] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، ١٩٣/٦٨ (٩١٨٤)؛ واعتلال القلوب للخرائطي، ٤٠/١ (٧٢).

لئن شُفِيَ لا يأكلُ أحبَّ الطعامِ إليه، وكان ذلك أحبَّه إليه.[١] وقيل: فعل ذلك للتداوي بإشارة الأطبّاءِ، واحتجّ به مَن جوّز للنبيّ الاجتهادَ. وللمانع أن يقول: كان ذلك بإذنٍ مِن الله تعالى فيه، وهو كتحريمه ابتداءً.

﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿كَانَ حِلّٗا﴾، ولا ضيرَ في توسيط الاستثناءِ بينهما، وقيل: متعلِّق بـ﴿حَرَّمَ﴾، وفيه أنّ تقييد تحريمِه عليه السلام بقَبْليّة تنزيلِ **التوراة** ليس فيه مزيدُ فائدة، أي: كان ما عدا المستثنى حلالًا لهم قبلَ أن تنزّلَ **التوراةُ** مشتمِلةً على تحريم ما حُرِّم عليهم لظلمهم وبغيهم عقوبةً وتشديدًا. وهو ردٌّ على اليهود في دعواهم البراءةَ عمّا نَعى عليهم قوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء، ١٦٠/٤]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾ الآيتين [الأنعام، ١٤٦/٦-١٤٧]، بأن قالوا: لسنا أوّلَ مَن حُرِّمتْ عليه، وإنّما كانت محرّمةً على نوحٍ وإبراهيمَ ومَنْ بعدَهما حتّى انتهى الأمر إلينا فحُرِّمت علينا كما حُرِّمت على مَن قبلنا، وتبكيتٌ لهم في منع النَّسخِ والطَّعنِ في دعوى الرسولِ صلّى الله عليه وسلّم[٢] موافقتَه لإبراهيمَ عليه السلام بتحليله لحومَ الإبلِ وألبانِها.

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ﴾ أُمِر عليه السلام بأن يُحاجَّهم بكتابهم الناطقِ بأنّ تحريم ما حُرِّم عليهم تحريمٌ حادثٌ مترتِّبٌ على ظلمهم وبغيهم، كلّما ارتكبوا معصيةً مِن المعاصي التي اقترفوها حُرِّم عليهم نوع مِن الطيّبات عقوبةً لهم، ويكلّفَهم[٣] إخراجَه وتلاوتَه؛ ليُبَكِّتَهم ويُلقِمَهم الحجَرَ ويُظهرَ كذِبَهم. وإظهار اسم **التوراةِ** لكون الجملة كلامًا مع اليهود منقطعًا عمّا قبله.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في دعواكم أنّه تحريم قديم. وجواب الشرط محذوف؛ لدلالة المذكور عليه، أي: إن كنتم صادقين **فأتوا بالتوراة** فاتلوها، فإنّ صدقكم ممّا يدعوكم إلى ذلك البتّةَ. روي أنّهم لم يجسروا

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٥/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨/٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٧٨/٥.

٢ ي: عليه السلام.

٣ السياق: أُمر بأن يُحاجّهم... ويكلّفهم...

على إخراج التوراةِ فبُهتوا وانقلبوا صاغرين،[١] وفي ذلك مِن الحجّة النيّرة على صدق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[٢] وجوازِ النَّسخ الذي يجحَدونه ما لا يخفي. والجملة مستأنَفة مقرّرة لِما قبلها.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٩٤﴾

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ أي: اختلقه عليه سبحانه بزَعمه أنّه حُرِّم ما ذُكر قبل نزولِ التوراةِ على بني إسرائيلَ ومَنْ تقدَّمهم مِن الأمم ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ مِن بعد ما ذُكر مِن أمرهم بإحضار التوراةِ وتلاوتِها، وما ترتّب[٣] عليه مِن التبكيت والإلزامِ. والتقييدُ به للدلالة على كمال القُبحِ. ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافِه بما في حيّز الصلةِ. والجمعُ باعتبار معناه، كما أنّ الإفراد في الصلة باعتبار لفظِه. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعدِ منزلتِهم في الضلال والطُّغيان، أي: فأولئك المُصِرُّون على الافتراء بعد ما ظهرت حقيقةُ الحال وضاقت عليهم حَلْبةُ المُحاجّة والجدالِ ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ المفرِطون في الظُّلم والعُدوان المُبْعِدون فيهما. والجملة مستأنَفة لا محلَّ لها مِن الإعراب، مَسوقةٌ مِن جهته تعالى لبيان كمالِ عُتوّهم. وقيل: هي في محلّ النصبِ داخل تحت القولِ عطفًا على قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.[٤]

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٥﴾

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ أي: ظهر وثبت صِدقُه تعالى فيما أنزل في شأن التحريم. وقيل: في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾... إلخ [آل عمران، ٣/٦٧]، أو صَدَق[٥] في كلّ شأنٍ مِن الشئون، وهو داخلٌ في ذلك دخولًا أوّليًا، وفيه تعريضٌ بكذبهم الصريح.

﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: ملّةَ الإسلامِ التي هي في الأصل ملّةُ إبراهيمَ عليه السلام، فإنكم ما كنتم متّبعين[٦] لمِلّته كما تزعُمون، أو فاتّبعوا مثل مِلَّته حتّى

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٨٦.
٢ ي: عليه السلام.
٣ ط: يترتّب.
٤ في الآية السابقة.
٥ ط – صدق.
٦ ي: متّبعون.

تتخلّصوا مِن اليهوديّة التي اضطَرَّتْكم إلى التحريف والمُكابرةِ وتلفيقِ الأكاذيبِ لتسوية الأغراضِ الدنيئةِ الدنيويّةِ، وألزمتكم تحريمَ طيّباتٍ محلَّلةٍ لإبراهيمَ عليه السلام ومَن تبِعَه. والفاء للدلالة على أنّ ظهور صدقِه تعالى موجبٌ للاتّباع وتركِ ما كانوا عليه. ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلًا عن الأديان الزائغة كلِّها.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: في أمر مِن أمور دينِهم أصلًا وفرعًا. وفيه تعريض بإشراك اليهودِ، وتصريح بأنّه عليه السلام ليس بينه وبينهم علاقةٌ دينيّةٌ قطعًا. والغرض بيانُ أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[1] على دين إبراهيمَ عليه السلام في الأصول؛ لأنّه لا يدعو إلّا إلى التوحيد والبراءة عن كلّ معبود سواه سبحانه وتعالى.[2] والجملة تذييل لِما قبلها.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ شروع في بيان كفرهم ببعضٍ آخرَ مِن شعائر ملّته عليه السلام إثرَ بيانِ كفرهم بكون كلّ المطعومات حِلًّا له عليه السلام. رُوي أنّهم قالوا: «بيتُ المَقدس أعظمُ مِن الكعبة؛ لأنّه مُهاجَرُ الأنبياء وفي الأرض المقدّسة»، وقال المسلمون: «بل الكعبة أعظم»، فبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم،[3] / فنزلتْ.[4] أي: إنّ أوّل بيتٍ وُضع للعبادة وجُعِل مُتعبَّدًا لهم، والواضعُ هو الله تعالى، ويؤيّده القراءةُ على البناء للفاعل.[5] [١٠٢و]

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ خبر لـ﴿إِنَّ﴾. وإنّما أُخبر بالمعرفة مع كون اسمها نكرةً لتخصّصها بسببين: الإضافةِ والوصفِ بالجملة بعدها، أي: لَلبيتُ الذي ببكّة، أي: فيها. وفي ترك الموصوف مِن التفخيم ما لا يخفى. و"بكّة" لغةٌ في مكّة، فإنّ العرب تعاقِبُ بين الباء والميم، كما في قولهم: ضربةُ لازبٍ ولازمٍ، والنَّميط والنَّبيط في اسم موضعٍ بالدَّهناء،[6] وقولِهم: أمرٌ راتبٌ وراتمٌ، وسبَّد

---

[1] ي: عليه السلام.

[2] ي – وتعالى.

[3] ي: عليه السلام.

[4] انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١١٤؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١/٤٧٠.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وكِرْداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٨.

[6] الدهناء: موضع ببلاد تميم، يمدّ ويقصر. الصحاح للجوهري، «دهن».

رأسَه وسمَّدَها،[١] وأغبَطت[٢] الحمّى وأغمَطت.[٣] وهي عَلَم للبلد الحرام، مِن "بَكَّه" إذا زحَمه؛ لازدحام الناس فيه. وعن قتادةَ: «يبُكّ الناسُ بعضُهم بعضًا».[٤] أو[٥] لأنّها[٦] تبُكُّ أعناقَ الجبابرة، أي: تدُقُّها، لم يقصِدْها جبّار إلّا قصمَه الله عزّ وجلّ.[٧]

وقيل: "بكّةُ" اسم لبطن مكّةَ. وقيل: لموضع البيت. وقيل: للمسجد نفسِه، و"مكّةُ" اسم للبلد كلّه. وأيّد هذا بأنّ التَّباكّ -وهو الازدحام- إنّما يقع عند الطواف. وقيل: "مكّةُ" اسم للمسجد والمَطاف، و"بكّةُ" اسم للبلد؛ لقوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾. رُوي أنّه عليه السلام سُئل عن أوّل بيت وُضع للنّاس، فقال: «المسجدُ الحرام ثمّ بيتُ المَقدس»، وسئل: كم بينهما؟ فقال: «أربعون سنة».[٨] وقيل: أوّل مَن بناه إبراهيم عليه السلام. وقيل: آدم عليه السلام، وقد استوفينا ما فيه مِن الأقاويل في سورة البقرة.[٩] وقيل: أوّل بيتٍ بالشرف لا بالزمان.

﴿مُبَارَكًا﴾ كثيرَ الخير والنفع؛ لِما يحصُل لمَن حجَّه واعتمره واعتكف دونه وطاف حوله مِن الثواب وتكفيرِ الذنوب. وهو حال مِن المستكِنّ في الظرف؛ لأنّ التقدير: لَلذي ببكّةَ هو. والعامل فيه ما قُدّر في الظرف مِن فعل الاستقرار.

﴿وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ لأنّه قبلتُهم ومُتعبَّدُهم، ولأنّ فيه آياتٍ عجيبةً دالّةً على عظيم قدرتِه تعالى وبالغِ حكمتِه، كما قال:

﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

---

١ تَسبيد الرأس: استئصال شَعره. والتسبيد أيضًا: ترك الادّهان. الصحاح للجوهري، «سبد».

٢ ي: وأعطبت.

٣ ي: أعطمت. | أغبطت عليه الحمّى، أي: دامت. وأغمطت: لغة في أغبطت. الصحاح للجوهري، «غبط» «غمط».

٤ تفسير عبد الرزّاق، ١/٤٠٣ (٤٣٢). وتمامه: «وبكّة: يبكُّ الناس بعضُهم بعضًا، الرجال والنساء، يصلّي بعضُهم بين يدَي بعض، ويمرُّ بعضهم بين يدَي بعض، لا يصلح ذلك إلّا بمكّة».

٥ ي - أو.

٦ ي: ولأنّها.

٧ ي: تعالى.

٨ صحيح البخاري، ٤/١٤٥ (٣٣٦٦)؛ صحيح مسلم، ١/٣٧٠ (٥٢٠).

٩ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [البقرة، ٢/١٢٧].

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ واضحاتٌ، كانحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار، ومخالطةِ ضواري السِّباعِ الصُّيودَ في الحرَم مِن غير تعرّضٍ لها، وقهرِ الله تعالى لكلّ جبّارٍ قصَده بسوء كأصحاب الفيل.[١] والجملة مفسِّرة للهدى، أو حال أخرى.

﴿مَقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: أثرُ قدميه عليه السلام في الصخرة التي كان عليه السلام يقوم عليها وقتَ رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه، أو عند غسل رأسِه على ما رُوي أنّه عليه السلام جاء زائرًا مِن الشام إلى مكّةَ، فقالت له امرأة إسماعيلَ عليه[٢] السلام: «انزلْ حتّى أغسِلَ رأسَك»، فلم ينزِل، فجاءته بهذا الحجر فوضعتْه على شقّه الأيمنِ، فوضع قدمَه عليه حتّى غسَلت شِقَّ رأسِه، ثمّ حوّلتْه إلى شِقّه الأيسر حتّى غسلت الشِّقَّ الآخَر، فبقيَ أثرُ قدميه عليه.[٣]

وهو إمّا مبتدأ حُذف خبره، أي: منها مقامُ إبراهيمَ، أو بدَل مِن ﴿ءَايَٰتٌ﴾[٤] بدلَ البعض مِن الكلّ، أو عطفُ بيانٍ إمّا وحدَه باعتبار كونه بمنزلة آياتٍ كثيرةٍ؛ لظهور شأنِه، وقوّة دلالتِه على قدرة الله تعالى وعلى نبوّة إبراهيمَ عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل، ١٦/١٢٠]، أو باعتبار اشتماله على آياتٍ كثيرةٍ؛ فإنّ كلّ واحدٍ مِن: أثر قدمه في صخرةٍ صمّاءَ، وغوْصِه فيها إلى الكعبين، وإلانةِ بعضِ الصخور دون بعضٍ، وإبقائِه دون سائر آيات الأنبياءِ عليهم السلام، وحفظِه مع كثرة الأعداء ألوفَ سنةٍ؛ آيةٌ مستقلّةٌ.[٥] ويؤيّده القراءة على التوحيد.[٦]

وإمّا[٧] بما يُفهم مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾، فإنّه وإن كان جملةً مستأنَفةً ابتدائيّةً أو شرطيّةً، لكنّها في قوّة أن يقال: وأَمْنُ مَنْ دَخَله،

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩.

٢ ط: عليهما.

٣ انظر: جامع البيان للطبري، ١٣/٦٩٢؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١/٢٧٠.

٤ ط: آية.

٥ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٨٨؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٢٩.

٦ أي: "فِيهِ آيَةٌ بيّنةٌ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٨.

٧ السياق: أو عطف بيانٍ إمّا وحده... وإمّا بما يُفهم...

فتكون بحسب المعنى والمآلِ معطوفةً على ﴿مَقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾. ولا يخفى أنّ الاثنين نوع مِن الجمع فتكتفي[١] بذلك، أو يُحملُ على أنّه ذُكر مِن تلك الآيات اثنتان، وطُويَ ذِكر ما عداهما دلالةً على كثرتها.

ومعنى أَمْنِ داخِلِه: أمنُه مِن التعرّض له، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت، ٦٧/٢٩]، وذلك بدعوة إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم، ٣٥/١٤]، وكان الرجلُ لوْ جَرّ كلّ جريرةٍ ثمّ لجأ إلى الحرَم لم يُطلَب.

وعن عمرَ رضي الله عنه: «لو ظفِرتُ فيه بقاتل الخطّابِ ما مَسَسْتُه حتّى يخرُجَ منه».[٢] ولذلك قال أبو حنيفة رحمه الله: «مَن لزِمه القتلُ في الحِلّ بقِصاص أو رِدّةٍ أو زنًا فالتجأ إلى الحرَم لم يُتعرَّض له إلّا أنّه لا يُئوى ولا يُطْعَم ولا يُسقى ولا يُبايَع حتّى يُضْطَرَّ إلى الخروج».[٣] وقيل: أمنُه مِن النار. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:[٤] «مَن مات في أحد الحرَمين بُعث يومَ القيامة آمِنًا».[٥] وعنه عليه السلام: «الحَجون والبقيعُ يُؤخذ بأطرافهما ويُنثران في الجنّة»،[٦] وهما مقبرتا مكّة والمدينة. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: وقف رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم[٧] على ثنيّة الحَجونِ، وليس بها يومئذ مقبرةٌ، فقال: «يَبعث الله تعالى مِن هذه البقعة ومِن هذا الحرَم كلِّه سبعين ألفًا، وجوهُهم كالقمر ليلةَ البدر، يدخُلون الجنّة بغير حساب، يشفعُ كلُّ واحدٍ منهم في سبعين ألفًا، وجوهُهم كالقمر ليلة البدر».[٨] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:[٩] «مَن صَبَر على حرّ مكّةَ

---

١ ي: فتكفي.

٢ **الكشّاف للزمخشري**، ٣٨٩/١. وأخرجه عبد الرزّاق في **المصنَّف**، ١٥٢/٥ (٩٢٢٨).

٣ انظر: **ردّ المحتار لابن عابدين**، ٥٤٧/٦.

٤ ي: عليه السلام.

٥ **الكشّاف للزمخشري**، ٣٨٩/١. وأخرجه الطبراني في **المعجم الصغير**، ٨٥/٢ (٨٢٧).

٦ بغير إسناد في **الكشف والبيان للثعلبي**، ١٥١/٣؛ و**الكشّاف للزمخشري**، ٣٨٩/١. قال الزيلعي: «غريب جدًّا». **تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي**، ١٩٩/١.

٧ ي: عليه السلام.

٨ بغير إسناد في **الكشف والبيان للثعلبي**، ١٥١/٣؛ و**الكشّاف للزمخشري**، ٣٨٩/١. قال الزيلعي: «غريب»، وساق شاهدًا له، رواه الدارقطني في غرائب مالك. انظر: **تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي**، ١٩٩/١.

٩ ي: عليه السلام.

ساعةً مِن نهار تباعدَت منه جهنّمُ مسيرةَ مائتَي عام».[١]

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ جملة مِن مبتدأ هو ﴿حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾، وخبرٍ هو ﴿لِلَّهِ﴾.[٢] وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ متعلِّق بما تعلّق به الخبر مِن الاستقرار، أو بمحذوفٍ هو حال مِن الضمير المستكِنّ في الجارّ، والعاملُ فيه ذلك الاستقرارُ. ويجوز أن يكون ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ هو الخبر، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّق بما تعلّق به الخبر. ولا سبيل إلى أن يتعلّق بمحذوفٍ هو حال مِن الضمير المستكِنّ في ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لاستلزامه تقديم الحال على العامل المعنويّ. وذلك ممّا لا مساغَ له عند الجمهور،[٣] وقد جوّزه ابنُ مالكٍ إذا كانت هي ظرفًا أو حرفَ جرّ وعاملُها كذلك،[٤] بخلاف الظرف وحرف الجرّ، فإنّهما يتقدّمان على عاملهما المعنويّ. واللام في ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ للعهد، و"حجُّه": قصْدُه للزّيارة على الوجه المخصوص المعهود. وكسر الحاء لغةُ نجدٍ، وقيل: هو اسم للمصدر، وقُرئ بفتحها.[٥]

﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ / في محلّ الجرّ على أنّه بدل مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ بدلَ البعضِ، مخصِّص لعمومه. فالضمير العائد إلى المُبدَل منه محذوف، أي: مَن استطاع منهم. وقيل: بدلَ الكلّ على أنّ المراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هو البعض المستطيعُ فلا حاجةَ[٦] إلى الضمير. وقيل: في محلّ الرفعِ على أنّه خبرُ مبتدأ مضمَرٍ، أي: هم مَن استطاع... إلخ. وقيل: في حيّز النصب بتقدير: "أعني". وقيل: كلمة ﴿مَن﴾ شرطيّة، والجزاء محذوف؛ لدلالة المذكور عليه، وكذا العائد إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾، أي: مَن استطاع منهم إليه سبيلًا فلله عليه حِجُّ البيت. وقد رُجّح هذا بكون ما بعده شرطيّةً. والضمير المجرور في ﴿إِلَيۡهِ﴾ راجع إلى ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ أو إلى "الحِجّ". والجارّ متعلِّق بـ"السبيل"، قُدِّم عليه اهتمامًا بشأنه، كما في قوله عزّ وجلّ: [١٠٢ظ]

---

١ بغير إسناد في الكشف والبيان للثعلبي، ١٥١/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٨٩/١. قال الزيلعي: «غريب»، وذكر نحوه مِن الضعفاء للعقيلي؛ والفردوس للديلمي. انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٩٩/١.

٢ ي + تعالى.

٣ ط - عند الجمهور.

٤ انظر: شرح التسهيل لابن مالك، ٣٤٣/٢؛ وتوضيح المقاصد للمرادي، ٧١١/٢.

٥ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٤١/٢.

٦ ي: فلاحجة.

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر، ١١/٤٠]، و﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى، ٤٤/٤٢]؛ لِما فيه مِن معنى الإفضاء والإيصالِ، كيف لا وهو عبارة عن الوسيلة مِن مال أو غيرِه؟

فإنّه قد روى أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه،[١] عن رسول الله[٢] صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «السبيلُ الزادُ والراحلة».[٣] وروى ابنُ عمرَ رضي الله عنهما، أنّ رجلًا قال: «يا رسول الله ما السبيل؟»، قال: «الزاد والراحلة».[٤] وهو المراد بما رُوي أنّه عليه السلام فسَّر الاستطاعة بالزاد والراحلة، وهكذا رُوي عن ابن عبّاس وابنِ عمرَ رضي الله تعالى[٥] عنهم،[٦] وعليه أكثر العلماء خلا أنّ الشافعي رحمه الله أخذ بظاهره، فأوجب الاستنابةَ على الزَّمِن القادر على أُجرة مَن ينوب عنه.[٧]

والظاهر أنّ عدم تعرّضه عليه السلام لصِحّة البدن لظهور الأمر، كيف لا والمفسَّرُ في الحقيقة هو السبيل الموصِلُ لنفس المستطيع إلى البيت، وذا لا يُتصوَّرُ بدون الصِّحّة؟ وعن ابن الزُّبير أنّه على قدر القوّة.[٨] ومذهبُ مالك أنّ الرجل إذا وثِق بقوّته لزمه. وعنه ذلك على قدر الطاقة،[٩] وقد يجد الزاد والراحلة مَن لا يقدر على السَّفر، وقد يقدر عليه مَن لا راحلةَ له ولا زادَ. وعن الضحّاك أنّه إذا قدر أن يُؤجِّر نفسه فهو مستطيع.[١٠]

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وُضع ﴿مَن كَفَرَ﴾ موضع "مَن[١١] لم يحجّ" تأكيدًا لوجوبه، وتشديدًا على تاركه، ولذلك قال عليه السلام: «مَن مات ولم يحجّ فليمُت

---

[١] ط - رضي الله عنه.

[٢] ي: النبيّ.

[٣] انظر: سنن الدارقطني، ٢١٥/٣ (٢٤١٨)؛ والمستدرك للحاكم، ٦٠٩/١ (١٦١٥).

[٤] سنن الترمذي، ١٦٨/٣ (٨١٣)؛ المستدرك للحاكم، ٦٠٩/١ (١٦١٣).

[٥] ي - تعالى.

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/١. وانظر: السنن الكبرى للبيهقي، ٥٤٠/٤-٥٤١ (٨٦٤١)؛ وجامع البيان للطبري، ٦١١/٥.

[٧] انظر: المجموع شرح المهذّب للنووي، ٩٤/٧.

[٨] جامع البيان للطبري، ٦١٤/٥؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٤٣٣/٣ (١٥٧٠٥).

[٩] الكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/١.

[١٠] الكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٦/٣.

[١١] ي - مَن.

إن شاء يهوديًا أو نصرانيًا».[١] ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه عليه السلام[٢] قال في خُطبته: «أيّها الناس إنّ الله فرض الحجّ على مَن استطاع إليه سبيلًا، ومَن لم يفعل فليمُت على أيّ حال شاء؛ يهوديًا أو نصرانيًا أو مجوسيًا».[٣]

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وعن[٤] عبادتهم، وحيث كان ﴿مَن كَفَرَ﴾ مِن جملتهم داخلًا فيها دخولًا أوّليًا اكتُفي بذلك عن الضمير الرابط بين الشرط والجزاء.

ولقد حازت الآية الكريمة مِن فنون الاعتبارات المُعرِبة عن كمال الاعتناء بأمر الحجّ والتشديد على تاركه ما لا مزيدَ عليه، حيث أُوثِرت صيغة الخبر الدالّة على التحقّق، وأُبرِزت في صورة الجملة الاسميّة الدالّة على الثبات والاستمرار على وجهٍ يُفيد أنّه حقّ واجب لله سبحانه في ذِمَم الناس لا انفكاكَ لهم عن أدائه والخروج عن عهدته. وسُلك بهم مَسلك التعميم ثمّ التخصيص والإبهام ثمّ التبيين والإجمال ثمّ التفصيل؛ لِما في ذلك مِن مزيد تحقيق وتقرير. وعُبّر عن تركه بالكفر الذي لا قبيحَ وراءَه. وجُعل جزاؤه استغناءه تعالى المُؤذِن بشدّة المقت وعِظَم السخط، لا عن تاركه فقط، فإنّه قد ضُرب عنه صفحًا إسقاطًا له عن درجة الاعتبار، واستهجانًا بذِكره؛ بل عن جميع العالمين ممّن فعل وترك؛ ليدلّ على نهاية شدّة الغضب.

هذا وقال ابن عبّاس رضي الله عنه والحسن وعطاء: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: جحَد فرض الحجّ، وزعم أنّه ليس بواجب.[٥]

وعن سعيد بن المسيِّب: نزلت في اليهود، فإنّهم قالوا: الحجّ إلى مكّةَ غيرُ واجب.[٦]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/١. وهو بنحوه في سنن الترمذي، ١٦٧/٣ (٨١٢).

٢ ط: عليه الصلاة والسلام.

٣ تفسير السمرقندي، ٢٣٣/١؛ تفسير القرطبي، ١٥٣/٤؛ وبمعناه الحديث السابق.

٤ ي: ومن.

٥ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٦/٣؛ وجامع البيان للطبري، ٦١٨/٥.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٣٩١/١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٧/٣.

ورُوي أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ جمَع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أهلَ الأديان كلّهم فخطبهم فقال: «إنّ الله تعالى[١] كتَب عليكم الحجّ فحجّوا»، فآمنت به ملّة واحدة، وهم المسلمون، وكفرت به خمس مِلل، قالوا: لا نؤمن به ولا نصلّي إليه ولا نحجّه، فنزل: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾.[٢]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «حجّوا قبل أن لا تحجّوا، فإنّه قد هُدم البيت مرّتين، ويرفع إلى[٣] السماء في الثالثة».[٤]

وروي: «حجّوا قبل أن يمنع البَرُّ جانبَه».[٥]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «حجّوا هذا البيت قبل أن ينبُت في البادية شجرة لا تأكل منها دابّة إلّا نفقَت».[٦]

وعن عمر رضي الله عنه: «لو ترك الناس الحجّ عامًا ما نوظِروا».[٧]

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٨﴾

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هم اليهود والنصارى. وإنّما خُوطبوا بعنوان أهليّة الكتابِ الموجِبةِ للإيمان به وبما يصدّقه مِن القرآن العظيم[٨] مبالغةً في تقبيح حالهم في كفرهم بهما. وقوله عزّ وجلّ: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون لكفرهم بها سبب مِن الأسباب، وتحقيق لِما يوجِب الاجتنابَ عنه بالكلّيّة.

---

١ س - تعالى.

٢ جامع البيان للطبري، ٦٢١/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩١/١.

٣ ي - إلى.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٩١/١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٧/٣. وهو بنحوه موقوفًا على عبد الله بن عمرو في مصنَّف ابن أبي شيبة، ٤٦١/٧ (٣٧٢٣٣).

٥ الكشّاف للزمخشري، ٣٩١/١. قال الزيلعي: «هو هكذا في الفائق لابن غانم التنيسي»، وساق بمعناه حديثًا مِن سنن الدارقطني. انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٠٦/١.

٦ بغير إسناد في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٢/١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٥٧/٣.

٧ وفي هامش ط س ي: "نفي المناظرة" عبارة عن الإعجال بالعقوبة، أي: لا يناظَر معهم بأن يقال لهم: لِم تركتم الحجّ؟ بل يُهلكون. «منه». | بهذا اللفظ في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٢/١. وقال فيه الزيلعي: «غريب». وفي مصنَّف عبد الرزّاق، ١٣/٥ (٨٨٢٧): أنّ ابن عبّاس قال: «لو ترك الناس زيارَة هذا البيت عامًا واحدًا ما مُطروا». انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٠٧/١.

٨ ط - مِن القرآن العظيم.

والمراد بـ"آياته تعالى": ما يعُمّ الآياتِ القرآنيّةَ التي مِن جملتها ما تُليَ في شأن الحجّ وغيره، وما في التوراة والإنجيل مِن شواهد نبوّته صلّى الله عليه وسلّم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَكْفُرُونَ﴾، مفيدة لتشديد التوبيخ وتأكيد الإنكار. وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لتربية المهابة وتهويل الخَطْب. وصيغة المبالغة في ﴿شَهِيدٌ﴾ للتشديد في الوعيد. وكلمة ﴿مَا﴾ إمّا عبارة عن كفرهم، أو هي على عمومها، وهو داخل فيها دخولًا أوّليًا. والمعنى: لأيّ سبب تكفُرون بآياته عزّ وجلّ،[1] والحال أنّه تعالى[2] مبالِغ في الاطّلاع على جميع أعمالكم وفي مجازاتكم عليها، ولا ريبَ في أنّ ذلك يسُدّ جميعَ أنحاءِ ما تأتونه ويقطع أسبابَه بالكلّيّة؟

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أمرٌ بتوبيخهم بالإضلال إثرَ توبيخهم بالضلال. والتكرير للمبالغة في حمله عليه السلام على تقريعهم وتوبيخهم. وتركُ عطفِه على الأمر السابق للإيذان باستقلالهما، كما أنّ قطْع قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ عن قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ﴾[3] للإشعار بأنّ كلّ واحدٍ مِن "كُفرهم" و"صدِّهم" شناعةٌ على حِيالها مستقِلّةٌ في استتباع اللّائمةِ والتقريعِ. وتكرير الخطاب بعنوان أهليّة الكتابِ لتأكيد الاستقلال وتشديدِ التشنيع، فإنّ / ذلك العنوانَ كما يستدعي [١٠٣و]
الإيمانَ بما هو مصدِّق لِما معهم يستدعي ترغيبَ الناس فيه، فصدُّهم عنه في أقصى مراتبِ القَباحة، ولكون صدِّهم في بعض الصورِ بتحريف الكتاب والكفرِ بالآيات الدالّةِ على نبوّته عليه السلام. وقُرئ: "تُصِدُّونَ"،[4] مِن "أَصَدَّه".

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينه الحقّ الموصِلِ إلى السعادة الأبديّة، وهو التوحيد وملّة الإسلام. ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ مفعول لـ﴿تَصُدُّونَ﴾، قُدِّم عليه الجارّ والمجرور

---

[1] ي: تعالى.
[2] ي: عزّ وجلّ.
[3] في الآية السابقة.
[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذ القراءات للكرماني، ص ١١٨.

للاهتمام به. كانوا يفتِنون المؤمنين، ويحتالون لصدّهم عنه، ويمنعون مَن أراد الدخولَ فيه بجُهدهم، ويقولون: إنّ صفته عليه السلام ليست في كتابهم، ولا تقدّمت البِشارةُ به عندهم. وقيل: أتت اليهودُ الأوسَ والخزرجَ، فذكّروهم ما كان بينهم في الجاهليّة مِن العداوات والحروب ليعودوا إلى ما كانوا فيه.[١]

﴿تَبْغُونَهَا﴾ على إسقاط الجارّ وإيصالِ الفعل إلى الضمير، كما في قوله:

فـتـولّـى غـلامُـهـم ثـمّ نـادى أظَـلـيـمًـا أَصـيـدُكـم أم حِـمـارا[٢]

بمعنى: أصيدُ لكم. أي: تطلُبون لسبيل الله التي هي أقومُ السبل ﴿عِوَجًا﴾ اعوجاجًا بأن تُلَبِّسوا على الناس وتُوهِموا أنّ فيه مَيلًا عن الحقّ بنفي النَّسخِ وتغييرِ صفة الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن وجهها ونحو ذلك. والجملة حال مِن فاعلِ ﴿تَصُدُّونَ﴾، وقيل: مِن ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَصُدُّونَ﴾ باعتبار تقيّدِه بالحال الأولى أو مِن فاعلِ ﴿تَبْغُونَهَا﴾، أي: والحال أنكم شهداءُ تشهدون بأنّها سبيل الله لا يحوم حولَها شائبةُ اعوجاجٍ، وأنّ الصدّ عنها إضلال. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أي: شهداءُ أنّ في التوراة: إنّ دين الله الذي لا يُقبل غيرُه هو[٣] الإسلام».[٤] أو وأنتم عدول فيما بينكم يثِقون بأقوالكم، ويستشهدونكم في القضايا وعظائم الأمور.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ اعتراض تذييليّ، فيه تهديد ووعيد شديد. قيل: لمّا[٥] كان صدّهم للمؤمنين بطريق الخُفْية خُتمت الآيةُ الكريمة بما يحسِمُ مادّةَ حِيلتهم مِن إحاطة علمه تعالى بأعمالهم، كما أنّ كفرهم بآياتِ الله تعالى لمّا كان بطريق العلانية خُتمت الآيةُ السابقةُ بشهادته تعالى على ما تعملون.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٢/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠/٢.

٢ بغير نسبة في شرح شواهد المغني للسيوطي، ٥٩٦/٢. و"الظَّليم": الذكَر مِن النعام. والشاهد فيه: "أصيدكم"، وأصله: أصيد لكم، فحذفت اللام، واتّصل الضمير بالفعل، فصار منصوبًا بعد أن كان مجرورًا. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٣٢٩/٤.

٣ ي: وهو.

٤ تفسير الرازي، ٣٠٨/٨؛ اللباب لابن عادل، ٤٢٤/٥. وأخرج نحوه الطبري في جامع البيان، ٦٢٩/٥، عن قتادة.

٥ ط س: ولمّا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ١٠٠﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين؛[١] تحذيرًا لهم عن طاعة أهل الكتاب والافتتانِ بفتنتهم[٢] إثرَ توبيخهم بالإغواء والإضلالِ ردعًا لهم عن ذلك. وتعليق الردّ بطاعة فريقٍ منهم للمبالغة في التحذير عن طاعتهم وإيجابِ الاجتنابِ عن مصاحبتهم بالكلّيّة، فإنّه في قوّة أن يُقال: لا تُطيعوا فريقًا... إلخ. كما أنّ تعميم التوبيخ فيما قبله للمبالغة في الزجر، أو للمحافظة على سبب النزول:

فإنّه رُوي أنّ نفرًا مِن الأوس والخزرج كانوا جُلوسًا يتحدّثون، فمرّ بهم شاسُ بنُ قيسٍ اليهوديُّ -وكان عظيمَ الكفر شديدَ الحسَد للمسلمين- فغاظه ما رأى منهم مِن تألُفِ القلوب واتّحادِ الكلمةِ واجتماعِ الرأي بعد ما كان بينهم ما كان مِن العداوة والشنَآنِ،[٣] فأمَر شابًّا يهوديًّا كان معه بأن يجلِسَ إليهم ويذكِّرَهم يوم بُعاثَ[٤] -وكان ذلك يومًا عظيمًا اقتتل فيه الحيّان، وكان الظفرُ فيه للأوس- ويُنشِدُهم ما قيل فيه مِن الأشعار، ففعل، فتفاخرَ القومُ وتغاضبوا حتّى تواثبوا، وقالوا: «السلاحَ السلاحَ»، فاجتمع مِن القبيلتين خلقٌ عظيم، فعند ذلك جاءهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابُه فقال: «أتدْعون[٥] الجاهليّة وأنا بين أظهُرِكم بعد أن أكرمكم الله تعالى بالإسلام، وقطع به عليكم[٦] أمرَ الجاهليّة، وألَّف بينكم؟». فعلِموا أنّها نزغة مِن الشيطان، وكيدٌ مِن عدوّهم، فألقَوُا السلاح، واستغفروا، وعانق بعضُهم بعضًا، وانصرفوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[٧]

---

١ ي: للمؤمنين.
٢ ي: والافتتان بفتنهم.
٣ ط ي: والشنعان.
٤ بُعاث: بضمّ أوّله، وهو مَوضع على ميلين مِن المدينة، كان به وقعة بين الأوس والخزرج قُبيل الإسلام. ومنهم مَن ذكره بالغين المعجمة. فتح الباري لابن حجر، ٨٨/١.
٥ ط: أتدّعون.
٦ ي: عنكم.
٧ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٠/٢. وأخرج القصّة بأطول مِن ذلك الطبري في جامع البيان، ٦٢٧/٥.

قال الإمام الواحدي: «اصطفّوا للقتال فنزلت الآيةُ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾،[١] فجاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتّى قام بين الصَّفَّين، فقرَأهنّ ورفعَ صوتَه، فلمّا سمعوا صوت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنصَتوا له، وجعلوا يستمعون له، فلمّا فرَغ ألقَوا السلاح، وعانق بعضُهم بعضًا، وجعلوا يبكون».[٢]

وقوله تعالى: ﴿كَٰفِرِينَ﴾ إمّا مفعول ثانٍ لـ﴿يَرُدُّوكُم﴾، على تضمين "الردِّ" معنى التصيير، كما في قوله:

رمى الحِدْثانُ[٣] نسوةَ آلِ سعدٍ بمقدارٍ سمَدْن له سُمودا[٤]
فردَّ شُعورَهنّ السُّودَ بِيضًا وردَّ وجوهَهنّ البيضَ سُودا[٥]

أو حال مِن مفعوله. والأوّل أدخَل في تنزيه المؤمنين عن نِسبتهم إلى الكفر؛ لِما فيه مِن التصريح بكون الكفرِ المفروضِ بطريق القَسر. وإيراد الظرف مع عدم الحاجة إليه -ضرورةَ سبقِ الخطابِ بعنوان المؤمنين، واستحالة تحقّقِ الردِّ إلى الكفر بدون سبقِ الإيمانِ، مع توسيطه بين المفعولين- لإظهار كمالِ شناعةِ الكفرِ، وغايةِ بُعدِه مِن الوقوع، إمّا لزيادة قُبحِه الصارفِ للعاقلِ عن مباشرته، أو لمُمانعة الإيمانِ له، كأنّه قيل: بعد إيمانكم الراسخ. وفيه مِن تثبيت المؤمنين ما لا يخفى.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ استفهام إنكاريّ، بمعنى إنكار الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾... إلخ [التوبة، ٧/٩]، لا بمعنى إنكار الواقع

---

١ آل عمران، ١٠٣/٣.
٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٧٢/١. وأخرجه بسنده ابن المنذر في تفسيره، ٣١٤/١.
٣ الحِدْثان مِن الدهر: نُوَبُه، كحوادثه وأحداثه. القاموس المحيط للفيروزابادي، «حدث».
٤ قال ابن منظور: «وقيل: السُّمود يكون سرورًا وحزنًا» وأنشد البيتين. لسان العرب لابن منظور، «سمد».
٥ لعبد الله بن الزُّبير -بفتح الزاي- الأسدي في زهر الآداب للقيرواني، ١٤٥٧/٢ والتكملة والذيل للصغاني، ٢٥٤/٢؛ وتاج العروس للزبيدي، «سمد». ولفَضالة بن شريك في عيون الأخبار لابن قتيبة، ٧٦/٣. | و"الحِدثان": نوائب الدهر. و"آل حَرب" المراد بهم: بنو أميّة. و"السُّمود": الغفلة وذهاب القلب عن الشيء. والمعنى: أن نوائب الدهر رمت بسهام الغمّ إلى نسوة آل حربٍ بمقدارٍ صيّرهنّ غافلاتٍ عن كل شيء لِما أصابهنّ مِن شدّة الحزن. انظر: شرح ديوان الحماسة للتبريزي، ٣٩٠/١.

كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾... إلخ [البقرة، ٢٨/٢]. وفي توجيه الإنكار والاستبعادِ إلى كيفيّة الكفر مِن المبالغة ما ليس في توجيهه إلى نفسه بأن يقال: أتكفرون؟ لأنّ كلّ موجودٍ لا بدّ أن يكون وجودُه على حال مِن الأحوال، فإذا أُنكِرَ ونُفِيَ جميعُ أحوال وجوده فقد انتفى وجودُه بالكلّيّة على الطريق البرهانيّ.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جملة وقعتْ حالًا مِن ضمير المخاطَبين في ﴿تَكْفُرُونَ﴾، مؤكِّدة للإنكار والاستبعادِ بما فيها مِن الشئون الداعية إلى الثبات على الإيمان، الوازعةِ عن الكفر. وقوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ معطوف عليها / داخل في حكمها؛ فإنّ تلاوة آياتِ الله [١٠٣ظ] تعالى عليهم وكونَ رسولِه عليه السلام بين أظهُرِهم يعلِّمهم الكتابَ والحِكمةَ ويزكِّيهم بتحقيق الحقّ وإزاحةِ الشُّبَه مِن أقوى الزواجر عن الكفر. وعدمُ إسناد التلاوة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للإيذان باستقلال كلّ منهما في الباب.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: ومَن يتمسَّكْ بدينه الحقّ الذي بيَّنه بآياته على لسان رسوله صلّى الله عليه وسلّم؛ وهو الإسلام والتوحيد المعبَّرُ عنه فيما سبق بـ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾ جواب للشرط. و"قد" لإفادة معنى التحقيق،[1] كأنّ الهدَى قد حصل، فهو يُخبَر عنه حاصلًا. ومعنى التوقّع فيه ظاهر، فإنّ المعتصِم به تعالى متوقِّع للهدى، كما أنّ قاصد الكريم متوقِّع للنَّدى.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصلٍ إلى المطلوب. والتنوين للتفخيم. والوصف بالاستقامة للتصريح بالردّ على الذين يبغون له عِوجًا. وهذا وإن كان هو دينَه الحقَّ في الحقيقة، والاهتداءُ إليه هو الاعتصامَ به بعينه؛ لكن لمّا اختلف الاعتباران وكان العنوان الأخير ممّا يتنافس فيه المتنافسون أُبرز في معرِض الجواب للحثّ والترغيب، على طريقة قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران، ١٨٥/٣].

---

١ ط س: التحقّق.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تكرير الخطاب بعنوان الإيمان تشريف إثرَ تشريف.

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الاتّقاء: افتعال مِن الوقاية؛ وهي فرْطُ الصِّيانة. ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: حقَّ تقواه وما يجب منها؛[١] وهو استفراغ الوُسع في القيام بالمَواجب، والاجتنابِ عن المحارم، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن، ١٦/٦٤]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «هو أن يُطاعَ ولا يُعصى، ويُذكَرَ ولا يُنْسَى، ويُشكَرَ ولا يُكْفَر»،[٢] وقد رُوي مرفوعًا إليه عليه السلام.[٣]

وقيل: هو أن لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ، ويقومَ بالقسط ولو على نفسه أو ابنِه أو أبيه.[٤]

وقيل: هو أن يُنزِّهَ الطاعةَ عن الالتفات إليها، وعن توقّع المُجازاة.[٥]

وقد مرّ تحقيق الحقّ في ذلك عند قوله عزّ وجلّ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢]. و"التُّقاةُ" مِن "اتّقى"، كالتُّؤَدة مِن "اتّأَدَ"، أصلها: وُقَيَة، قلبت واوُها المضمومةُ تاءً، كما في تُهَمة وتُخَمة، وياؤها المفتوحة ألفًا.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون نفوسَكم لله عزّ وجلّ، لا تجعلون فيها شِركةً لِما سواه أصلًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [النساء، ١٢٥/٤]. وهو استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا تموتُنَّ على حال مِن الأحوال إلّا حالَ[٦] تحقّق إسلامكم وثباتِكم عليه، كما ينبئ عنه[٧] الجملة الاسميّة، ولو قيل: "إلّا مسلمين" لم يُفِدْ فائدتها. والعامل في الحال ما قبل ﴿إِلَّا﴾ بعد النقض.

وظاهر النظم الكريم وإن كان نهيًا عن الموت المقيَّد بقيدٍ هو الكون على حالٍ غيرِ حالِ الإسلام؛ لكنّ المقصود هو النهي عن ذلك القيد عند الموت

---

١ ي: عنها.

٢ المعجم الكبير للطبراني، ٩٢/٩ (٨٥٠١)؛ السنن الكبرى للنسائي، ٤٠٤/١٠ (١١٨٤٧).

٣ تفسير ابن أبي حاتم، ٢٢٨/١١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦١/٣.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٨٥/٣.

٥ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١/٢.

٦ ي - حال.

٧ ي: عليه.

المستلزِمِ للأمر بضدّه الذي هو الكون على حال الإسلام حينئذ. وحيث كان الخطاب للمؤمنين كان المراد إيجابَ الثباتِ على الإسلام إلى الموت. وتوجيه النهي إلى الموت للمبالغة في النهي عن قيده المذكور، فإنّ النهي عن المقيَّد في أمثاله نهيٌ عن القيد ورفعٌ له عن أصله بالكلّيّة، مفيدٌ لِما لا يفيده النهيُ عن نفس القيد، فإنّ قولك: "لا تُصلِّ إلّا وأنت خاشعٌ" يفيد مِن المبالغة في إيجاب الخشوع في الصلاة ما لا يفيده قولُك: "لا تترُكِ الخشوعَ في الصلاة"؛ لِما أنّ هذا نهيٌ عن ترك الخشوع فقط، وذاك نهيٌ عنه وعمّا يقارِنُه، ومفيدٌ لكون الخشوعِ هو العمدةَ في الصلاة، وأنّ الصلاة بدونه حقُّها أن لا تُفعل. وفيه نوع تحذيرٍ عمّا وراءَ الموت.

﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

وقوله عزّ وعلا:[1] ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بدين الإسلام، أو بكتابه؛ لقوله عليه السلام: «القرآن حبلُ الله المتينُ، لا تنقضي عجائبُه، ولا يخلَقُ[2] عن كثرة الردِّ، مَن قال به صدَقَ، ومَن عمِل به رَشَد، ومَن اعتصم به هُديَ إلى صراط مستقيم»؛[3] إمّا تمثيل للحالة الحاصلة مِن استظهارهم به ووثوقِهم بحمايته بالحالة الحاصلة مِن تمسّك المتدلّي مِن مكان رفيعٍ بحبل وثيقٍ مأمونِ الانقطاع مِن غير اعتبار مجازٍ في المفردات. وإمّا استعارةٌ للحَبل لِما ذُكر مِن الدين أو الكتابِ، و"الاعتصامُ" ترشيح لها، أو مستعار للوثوق به والاعتمادِ عليه.

﴿جَمِيعًا﴾ حال مِن فاعل ﴿ٱعْتَصِمُوا۟﴾، أي: مجتمعين في الاعتصام. ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ أي: لا تتفرّقوا عن الحقّ بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب. أو كما كنتم متفرِّقين في الجاهليّة يحارب بعضُكم بعضًا. أو لا تُحدِثوا ما يوجب التفرّقَ

---

١ ي: تعالى.

٢ وفي هامش ط س ي: مِن "أخلَق الثوبُ إذا بَلِي". «منه». | انظر: الصحاح للجوهري، «خلق».

٣ الكشّاف للزمخشري، ١/٣٩٤. وهو جزء مِن حديث طويل في سنن الترمذي، ٥/١٧٢-١٧٣ (٢٩٠٦).

ويُزيل الأُلفةَ التي أنتم عليها. ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضافٌ إلى الفاعل. وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متعلِّق به، أو بمحذوف وقع حالًا منه. وقوله تعالى: ﴿إِذۡ كُنتُمۡ﴾ ظرف له، أو للاستقرار في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: اذكروا إنعامه عليكم، أوِ اذْكُروا إنعامه مستقِرًّا عليكم وقتَ كونكم ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ في الجاهليّة، بينكم الإحَنُ والعداواتُ والحروبُ المتواصلة. وقيل: هم الأوسُ والخزرجُ كانا أخوَين لأب وأمّ، فوقعت بين أولادهما العداوةُ والبغضاءُ، وتطاولت الحروبُ فيما بينهم مائةً وعشرين سنةً.[1]

﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾ بتوفيقكم للإسلام، ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾ أي: فصِرْتم ﴿بِنِعۡمَتِهِۦٓ﴾ التي هي ذلك التأليف ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾ خبرُ "أصبَحتُم"، أي: إخوانًا مُتحابّين مُجتمعين على الأُخوّة في الله، متراحمين متناصحين متّفقين على كلمة الحقّ. وقيل: معنى ﴿فَأَصۡبَحۡتُم﴾: فدخلتم في الصباح، فالباء حينئذ متعلِّقة بمحذوف وقَع حالًا مِن الفاعل، وكذا ﴿إِخۡوَٰنٗا﴾، أي: فأصبحتم ملتبسين بنعمته حالَ كونِكم إخوانًا.

﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ شَفا الحفرةِ وشفَتُها: حَرْفها.[2] أي: كنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنّم لكفركم، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها. ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ بأن هداكم للإسلام، ﴿مِّنۡهَا﴾ الضميرُ للحُفرة
[١٠٤و] أو للنّار أو / للشّفا. والتأنيث للمضاف إليه كما في قوله:

وتَشرَقَ بالقول الذي قد أذعتَه كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ مِن الدمِ[3]

أو لأنّه بمعنى الشّفة، فإنّ شَفا البئرِ وشفَتَها: جانبُها، كالجانب والجانبة. وأصله: شَفَوٌ، قُلبت الواو ألفًا في المذكّر، وحُذفت في المؤنّث.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٥/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣١/٢.

٢ ي: طرفها.

٣ للأعشى في لسان العرب لابن منظور، «صدر». | وهو يخاطب عُمير بن عبد الله بن المنذر، وكان بينهما مهاجاة. و"تَشرقَ" بالنصب عطفًا على فعل منصوب في بيت سابق، ومعنى "تَشرَق": ينقطع كلامُك في حلقك، يريد: أنه ينقطع كلامك بسبب ما تذيعه وتنشره مِن السبّ والشتم لي. "كما شَرِقت صدر القناة" يريد: كما يقف الدّم على صدر القناة فيجمُد ولا يذهب. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ١٠٥/٧.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذي بعده، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ درجة المشارِ إليه وبُعدِ منزلته في الفضل، وكمالِ تميُّزه[١] به عمّا عداه، وانتظامِه بسببه في سلك الأمور المشاهَدة. والكاف مُقحَمة؛ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة مِن الفخامة. ومحلّها النصبُ على أنّها صفة لمصدر محذوف، أي: مثل ذلك التبيين الواضحِ.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: دلائله، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ طلبًا لثباتكم على الهدى، وازديادِكم فيه.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أمرهم الله سبحانه بتكميل الغير وإرشادِه إثرَ أمرهم بتكميل النفس وتهذيبِها بما قبله مِن الأوامر والنواهي تثبيتًا للكلّ على مراعاة ما فيها مِن الأحكام، بأن يقوم بعضُهم بمَواجبها، ويحافظَ على حقوقها وحدودها، ويذكِّرَها الناسَ كافّةً، ويزَعَهم[٢] عن الإخلال بها. والجمهور على إسكان لام الأمرِ، وقد قُرئ بكسرها على الأصل.[٣] وهو مِن "كان" التامّة.

و"مِن" تبعيضيّة متعلِّقة بالأمر، أو بمحذوف وقع حالًا مِن الفاعل، وهو ﴿أُمَّةٌ﴾، و﴿يَدْعُونَ﴾ صفتُها، أي: لِتوجَدْ منكم أمّةٌ داعيةٌ إلى الخير. والأمّة: هي الجماعة التي يؤُمّها فِرَقُ الناس، أي: يقصِدونها ويقتدون بها. أو مِن الناقصة، و﴿أُمَّةٌ﴾ اسمُها، و﴿يَدْعُونَ﴾ خبرُها، أي: لتكن منكم أمّةٌ داعين إلى الخير. وأيًّا ما كان فتوجيه الخطاب إلى الكلّ مع إسناد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضيّتها على الكفاية، وأنّها واجبة على الكلّ لكن بحيث إن أقامها البعضُ سقطت عن الباقين، ولو أخلّ بها الكلُّ أثِموا جميعًا، لا بحيث يتحتّم على الكلّ إقامتُها،

---

[١] ي: تميز.

[٢] ي: ويردعهم.

[٣] قراءة شاذّة، ضبطها الكرماني بالياء وكسر اللام، وعزاها إلى الحسن وشيبة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٨.

على ما يُنبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ الآيةَ [التوبة، ١٢٢/٩]، ولأنّها مِن عظائم الأمورِ وعزائمِها التي لا يتولّاها إلّا العلماءُ بأحكامه تعالى ومراتبِ الاحتساب وكيفيّة إقامتِها، فإنّ مَن لا يعلمُها يوشِكُ أن يأمرَ بمنكر[١] وينهى عن معروف، ويُغلِظَ في مقام اللّين، ويُلينَ في مقام الغِلْظة، وينكِرَ على مَن لا يزيده الإنكارُ إلّا التماديَ والإصرارَ.

وقيل: "مِن" بيانيّة،[٢] كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ الآيةَ [الفتح، ٢٩/٤٨]، والأمرُ مِن "كان" الناقصة، والمعنى: كونوا أمّةً يدعون... الآيةَ، كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران، ١١٠/٣]. ولا يقتضي ذلك كونَ الدعوةِ فرضَ عينٍ، فإنّ الجهاد مِن فروض الكفاية مع ثبوته بالخطابات العامّة.

و"الدعاء إلى الخير": عبارة عن الدعاء إلى ما فيه صلاح دينيّ أو دنيويّ، فعطفُ الأمر بالمعروف والنهْيِ عن المنكر عليه بقوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مع اندراجهما فيه مِن باب عطف الخاصّ على العامّ؛ لإظهار فضلهما وإنافتهما[٣] على سائر الخيرات، كعطف "جبريلَ" و"ميكالَ" على "الملائكة" عليهم السلام.[٤] وحذْف المفعول الصريحِ مِن الأفعال الثلاثة إمّا للإيذان بظهوره، أي: يدْعون الناس ويأمُرونهم وينهَونهم، وإمّا للقصد إلى إيجاد نفسِ الفعل، كما في قولك: فلان يعطي ويمنع، أي: يفعلون الدعاءَ إلى الخير والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى "الأمّة" المذكورة باعتبار اتّصافهم بما ذُكر مِن النعوت الفاضلة، وكمالِ تميّزِهم بذلك عمّنْ عداهم، وانتظامِهم بسببه في سلك الأمور المشاهَدة. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعلوّ طبقتهم وبُعدِ منزلتهم في الفضل.

---

١ س - بمنكر.

٢ وفي هامش ط س ي: قال الزجّاج: «ولتكونوا كلّكم، و"مِن" لتخصيص المخاطبين مِن بين سائر الأجناس». «منه». | انظر: **معاني القرآن** للزجّاج، ٤٥٢/١.

٣ إنافتهما: شَرفُهما، مِن "أناف على شيء"، أي: أشرَف. انظر: **الصحاح** للجوهري، «نيف».

٤ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٩٨/٢].

والإفراد في كاف الخطاب إمّا لأنّ المخاطَب كلُّ مَن يصلُح للخطاب، وإمّا لأنّ التعيين غيرُ مقصود، أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكاملة ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم الأخصّاء بكمال الفلاح. و﴿هُمْ﴾ ضمير فصلٍ[1] يفصِلُ بين الخبر والصفة، ويؤكّد النسبةَ، ويفيد اختصاصَ المسنَدِ بالمسنَد إليه. أو مبتدأ خبرُه: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾. وتعريف ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إمّا للعهد، أو للإشارة إلى ما يعرِفُه كلُّ أحدٍ مِن حقيقة المفلحين.

رُوي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه سُئل عن خير الناس، فقال: «آمَرُهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلُهم» أي: للرَّحِم.[2]

وعنه عليه السلام: «مَنْ أمَر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه، وخليفة رسولِه، وخليفة كتابِه».[3]

وعنه عليه السلام: «والذي نفسي بِيَدِهِ لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهَوُنّ عن المنكر، أو لَيُوشِكَنّ الله أن يَبْعَثَ عَلَيْكُم عذابًا مِن عنده، ثمّ لتَدْعُنَّه فلا يُستجاب لكم».[4]

وعن عليّ رضي الله عنه: «أفضل الجهاد الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، ومَن شنِئَ الفاسقين وغضِب لله غضِبَ الله له».[5]

والأمر بالمعروف في الوجوب والندبِ تابعٌ للمأمور به، وأمّا النهي عن المنكر فواجب كلُّه؛ لأنّ جميع ما أنكره الشرع حرامٌ. والعاصي يجب عليه النهيُ عمّا ارتكبه؛ إذ يجب عليه تركُه وإنكارُه، فلا يسقط بترك أحدهما وجوب شيءٍ منهما. والتوبيخ في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] إنّما هو على نسيان أنفسهم، لا على أمرهم بالبِرّ، وعن السلف:

---

[1] ي: للفصل.

[2] الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٣/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٧/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢/٢. وهو بنحوه في مسند الإمام أحمد، ٤٢١/٤٥ (٢٧٤٣٤).

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٢/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٧/١. وأخرجه نُعيم بن حمّاد عن عبد الله بن نُعيم المَعافري، قال: سمعت المشيخة يقولون: «مَن أمر بمعروف»... فذكره. انظر: الفتن لنُعيم بن حمّاد، ١٠٣/١ (٢٤٥).

[4] مسند الإمام أحمد، ٣٣٢/٣٨ (٢٣٣٠١)؛ سنن الترمذي، ٤٦٨/٤ (٢١٦٩).

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٣/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٧/١.

«مُروا بالخير وإن لم تفعلوا».[١]

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٥﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟﴾ هم أهل الكتابَين، حيث تفرّقت اليهود فِرَقًا والنصارى فِرَقًا، ﴿وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ باستخراج التأويلات الزائغة،[٢] وكتمِ الآيات الناطقة وتحريفِها بما أخلدوا إليه مِن حُطام الدنيا الدنيّة، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾[٣] أي: الآياتُ الواضحة المبيِّنة للحقّ، المُوجِبة للاتّفاق عليه واتّحادِ الكلمة، فالنهي متوجّه إلى المتصدِّين للدعوة أصالةً، وإلى أعقابهم تَبَعًا. ويجوز تعميم الموصول للمختلِفين / مِن الأمم السالفة المشارِ إليهم بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة، ٢١٣/٢]. [١٠٤ظ]

وقيل: هم المبتدِعة مِن هذه الأمّة. وقيل: هم الحَروريّة.[٤] وعلى كلّ تقدير فالمنهيُّ عنه إنّما هو الاختلاف في الأصول دون الفروعِ إلّا أن يكون مخالفًا للنصوص البيّنة أو الإجماعِ؛ لقوله عليه السلام: «اختلافُ أمّتي رحمةٌ»،[٥] وقولِه عليه السلام: «مَن اجتهد فأصاب فله أجران، ومَن أخطأ فله أجر واحد».[٦]

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين باعتبار اتّصافِهم بما في حيّز الصِّلة.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٨/١؛ تفسير الرازي، ٣١٥/٨.

٢ ي: الرائغة.

٣ وفي هامش ط س ي: تذكير الفعل لِما بينه وبين فاعله مِن الفصل. «منه».

٤ أي: الخوارج. قال النووي: «هو بفتح الحاء المهملة وضمّ الراء الأولى، وهي نسبةٌ إلى حَروراء، وهي قرية بقُرب الكوفة، قال السمعاني: هو موضع على مِيلين مِن الكوفة، كان أوّل اجتماع الخوارج به. قال الهروي: تعاقدوا في هذه القرية فنُسبوا إليها». شرح صحيح مسلم للنووي، ٢٧/٤.

٥ قال السيوطي: «أخرجه الشيخ نَصر المقدسي في كتاب الحجّة مرفوعًا، والبيهقي في المدخل عن القاسم بن محمد مِن قوله. وعن عمر بن عبد العزيز قال: ما سرّني لو أنّ أصحابَ محمّد لم يَختلفوا؛ لأنّهم لو لم يختلفوا لم تكن رُخصة». انظر: الدرر المنتثرة للسيوطي، ٤٤/١.

٦ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢/٢. وفي الصحيحين عن عمرو بن العاص، أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إذا حكَم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران، وإذا حكَم فاجتهد ثمّ أخطأ فله أجر». صحيح البخاري، ١٠٨/٩ (٧٣٥٢)؛ صحيح مسلم، ١٣٤٢/٣ (١٧١٦).

وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ خبرُه. وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مرتفِع بالظرف على الفاعليّة؛ لاعتماده على المبتدأ. أو مبتدأ والظرفُ خبرُه، والجملة خبر للمبتدَأ الأوّل. وفيه مِن التأكيد والمبالغةِ في وعيد المتفرّقين والتشديدِ في تهديد المشبَّهين بهم ما لا يخفى.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ١٠٦﴾

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه كثيرة. وقُرِئ: "تَبيَاضُّ".[١] ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ كثيرة. وقُرِئ: "تَسْوَادُّ".[٢] وعن عطاءٍ: «تبيضُّ وجوهُ المهاجرين والأنصار، وتسْوَدّ وجوهُ بني قرَيظةَ والنَّضير».[٣] و﴿يَوْمَ﴾ منصوب على أنّه ظرف للاستقرار في ﴿لَهُمْ﴾، أي: لثبوت العذاب العظيم لهم، أو على أنّه مفعول لمضمَر خوطب به المؤمنون تحذيرًا لهم عن عاقبة التفرّق بعد مجيء البيّنات، وترغيبًا في الاتّفاق على التمسّك بالدِّين، أي: اذكُروا يوم تبيضّ... إلخ. وبياض الوجه وسوادُه كنايتان عن ظهور بهجةِ السرورِ وكآبةِ الخوف فيه. وقيل: يوسَمُ أهلُ الحقّ ببياض الوجه والصحيفةِ وإشراقِ البَشرة وسعْيِ النورِ بين يديه وبيمينه، وأهلُ الباطل بأضداد ذلك.[٤]

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها[٥] إجمالًا. وتقديم بيان هؤلاء لِما أنّ المَقام مقامُ التحذير عن التشبّه بهم مع ما فيه مِن الجمع بين الإجمال والتفصيلِ والإفضاءِ إلى ختم الكلامِ بحسن حالِ المؤمنين كما بُدِئ بذلك عند الإجمال.

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ على إرادة القول، أي: فيقال لهم ذلك. والهمزة للتوبيخ والتعجيبِ مِن حالهم. والظاهر أنّهم أهلُ الكتابين، و"كفرُهم بعد إيمانِهم":

---

١ قراءة شاذّة، وضبطها الكرماني بفتح التاء وكسره، وعزاها للزهري. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٨.

٢ قراءة شاذّة، وضبطها الكرماني بفتح التاء وكسره، وعزاها للزهري. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٨.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٩/١.

٤ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢/٢.

٥ ي: لها.

كفرُهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد إيمانِ أسلافِهم، أو إيمانِ أنفسِهم به قبل مبعثِه عليه السلام. أو جميعُ الكفَرة حيث كفروا بعد ما أقرّوا بالتوحيد يومَ الميثاقِ،[١] أو بعدَ ما تمكّنوا مِن الإيمان بالنظر الصحيح والدلائلِ الواضحة والآياتِ البيّنة. وقيل: المرتدّون. وقيل: أهلُ البِدع والأهواء.

والفاء في قوله عزّ وعلا: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: العذابَ المعهود الموصوف بالعِظَم؛ للدلالة على أنّ الأمر بذَوْق العذاب على طريق الإهانةِ مترتّبٌ على كفرهم المذكور، كما أنّ قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ صريحٌ في أنّ نفس الذوق معلَّل بذلك. والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدلالة على استمرار كفرِهم، أو على مُضيّه في الدنيا.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أعني: الجنّةَ والنعيم المخلَّد، عُبّر عنها بالرحمة تنبيهًا على أنّ المؤمِن وإن[٢] استغرق عمرَه في طاعة الله تعالى فإنّه لا يدخُل الجنّة إلّا برحمته تعالى. وقُرِئ: "ابياضَّتْ"، كما قُرِئ: "اسوادَّتْ".[٣]

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن السِّباق، كأنّه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لا يظعَنون عنها ولا يموتون. وتقديم الظرف للمحافظة على رءوس الآي.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار وتعذيبِ الكفّار. ومعنى البُعد للإيذان بعلوّ شأنها وسُموّ مكانها في الشرف. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ خبرُه، وقوله تعالى: ﴿نَتْلُوهَا﴾ جملة حاليّة مِن "الآيات"،

---

١ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف، ١٧٢/٧].

٢ ي: فإن.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الجوزاء وابن يَعمُر. البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩٦/٣.

والعامل فيها معنى الإشارة. أو هي الخبر، و﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بدل مِن اسم الإشارة. والالتفات إلى التكلّم بنون العظمة مع كون التلاوةِ على لسان جبريلَ عليه السلام لإبراز كمالِ العنايةِ بالتلاوة. وقُرئ: "يَتْلُوهَا"[١] على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلِّق بـ﴿نَتْلُوهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال مؤكِّدة مِن فاعل ﴿نَتْلُوهَا﴾، أو مِن مفعوله، أي: ملتبسين، أو ملتبسةً بالحقّ والعدل ليس في حكمها شائبةُ جَوْر بنقص ثوابِ المحسنِ أو بزيادة عقابِ المسيءِ، أو بالعقاب مِن غير جُرْم؛ بل كلُّ ذلك مُوفًّى لهم حسبَ استحقاقهم بأعمالهم بموجَب الوعد والوعيد.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه. فإنّ تنكير الظلم وتوجيهَ النفي إلى إرادته بصيغة المضارع دون نفسه، وتعليقَ الحكم بآحاد الجمع المعرَّف، والالتفاتَ إلى الاسم الجليل إشعارًا بعلّة الحكمِ؛ بيانٌ لكمال نزاهته عزّ وجلّ عن الظلم بما لا مزيدَ عليه،[٢] أي: ما يريد فردًا مِن أفراد الظلم لفردٍ مِن أفراد العالمين في وقت مِن الأوقات فضلًا عن أن يظلِمَهم. فإنّ المضارع كما يفيد الاستمرارَ في الإثبات يفيده في النفي بحسب المقام، كما أنّ الجملة الاسميّة تدلُّ بمعونة المقام على دوام الثبوت، وعند دخول حرفِ النفي تدلّ على دوام الانتفاء، لا على انتفاء الدوام. وفي سَبك الجملة نوعُ إيماءٍ إلى التعريض بأنّ الكفَرة هم ظلَموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس، ١٠/٤٤].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له تعالى وحدَه مِن غير شِرْكةٍ أصلًا، ما فيهما مِن المخلوقات الفائتة للحصر مُلكًا وخلقًا، إحياءً وإماتةً، وإثابةً وتعذيبًا.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نَهيك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٩.

[٢] وفي هامش س ي: فإنّ وصف الألوهيّة يستدعي نفي الظلم.١ «منه». | ١ ي + مطلقًا.

وإيراد كلمة ﴿مَا﴾ إمّا لتغليب غير العقلاءِ على العقلاء، وإمّا لتنزيلهم منزلةَ غيرهم إظهارًا لحقارتهم في مَقام بيان عظمتِه تعالى.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى حُكمه وقضائه، لا إلى غيره شِرْكةً أو استقلالًا، ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: أمورُهم، فيجازي كلًّا منهم بما وَعد له وأوعده مِن غير دخلٍ في ذلك لأحد قطُّ. فالجملة[1] مقرِّرة لمَضمون ما ورد في جزاء الفريقين. وقيل:
[١٠٥و] هي معطوفة على ما قبلها / مقرِّرة لمَضمونه، فإنّ كون العالمين عبيدَه تعالى ومخلوقَه ومرزوقَه يستدعي إرادةَ الخير بهم.[2]

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كلام مستأنَف سِيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه مِن الاتّفاق على الحقّ والدعوة إلى الخير. و﴿كُنتُمْ﴾ مِن "كان" الناقصةِ التي تدلّ على تحقّق شيء بصفة في الزمان الماضي مِن غير دلالة على عدمٍ سابقٍ أو لاحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء، ٩٦/٤]. وقيل: كنتم كذلك في عِلم الله تعالى، أو في اللوح، أو فيما بين الأمم السالفة.

وقيل: معناه: أنتم خيرُ أمّة ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ صفة لـ﴿أُمَّةٍ﴾، واللام متعلِّقة بـ﴿أُخْرِجَتْ﴾، أي: أظهِرَت لهم. وقيل: بـ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾، أي: كنتم خيرَ الناسِ للنّاس، فهو صريح في أنّ الخيريّة بمعنى النفع للناس، وإن فُهم ذلك مِن الإخراج لهم أيضًا، أي: أخرجَتْ لأجلهم ومصلحتهم، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «معناه: كنتم خيرَ الناسِ للنّاس، تأتون بهم في السلاسل، فتُدخِلونهم في الإسلام».[3] وقال قتادةُ: «هم أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم؛ لم يُؤمَر نبيّ قبله بالقتال، فهم يقاتلون الكفّارَ فيُدخلونهم في الإسلام، فهم خير أمّة للناس».[4]

---

١ ط س: والجملة.
٢ وفي هامش س ي: قال بعضُهم: هذا معطوف على الأوّل، كأنّه يقول: وما الله يريد ظُلمًا للعالمين؛ لأنّ كلّهم عبيدُه ومخلوقُه ومرزوقُه، فلا يريد ظلمهم. تفسير أبي الليث. | تفسير أبي الليث السمرقندي، ٢٣٧/١.
٣ صحيح البخاري، ٣٧/٦ (٤٥٥٧)؛ جامع البيان للطبري، ٦٧٤/٥.
٤ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢٧/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٦٥/٥.

﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ استئناف مبيّن لكونهم خيرَ أمّة، كما يقال: زيدٌ كريمٌ، يُطعِم الناسَ ويَكسوهم ويقوم بمصالحهم. أو خبر ثانٍ لـ﴿كُنتُمۡ﴾. وصيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار. وخطاب المشافهة وإن كان خاصًا بمَن شاهد الوحيَ مِن المؤمنين، لكنّ حُكمه عامٌّ للكلّ. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «يريد أمّةَ محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[١] وقال الزجّاج: «أصلُ هذا الخطابِ لأصحاب رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو يعمُّ سائرَ أمّتِه».[٢]

وروى الترمذيُّ عن بَهْزِ بنِ حكيم[٣] عن أبيه عن جدِّه أنّه سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾: «أنتم تُتِمّون سبعين أمّةً أنتم خيرُها وأكرمُها على الله تعالى».[٤] وظاهر أنّ المراد بكلّ أمّةٍ: أوائلُهم وأواخرُهم، لا أوائلُهم فقط، فلا بدّ أن يكون أعقابُ هذه الأمّة أيضًا داخلةً في الحكم. وكذا الحالُ فيما رُوي أنّ مالك بنَ الصيف ووهْبَ بنَ يهودا[٥] اليهوديَّين مرّا بنفرٍ مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيهم ابنُ مسعود وأبيُّ بنُ كعبٍ ومعاذُ بنُ جبل وسالمٌ مولى حذيفةَ رضي الله تعالى[٦] عنهم، فقالا لهم: «نحن أفضلُ منكم، ودينُنا خيرٌ ممّا تدعوننا إليه».[٧] وروى سعيدُ بنُ جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾: الذين هاجروا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة».[٨] ورُوي عن الضحّاك: أنّهم أصحابُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، خاصّةً الرواةُ والدعاةُ الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم.[٩]

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٧٧/١.
٢ معاني القرآن للزجّاج، ٤٥٦/١.
٣ هو بَهْز بن حكيم بن معاوية بن حَيدة القشيري البصري، أبو عبد الملك (ت. نحو ١٥٠هـ/٧٧٠م). الإمام المحدّث، له عدّة أحاديث عن أبيه عن جدّه، وعن زُرارة بن أوفى. وثّقه ابن مَعين وعليّ وأبو داود والنسائي. وقال البخاري: يختلفون في بَهْز. وقال ابن حِبّان: يخطئ كثيرًا، وهو ممّن أستخير الله فيه. وقال الخطيب: روى عنه الزهري. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٥٣/٦؛ وتهذيب التهذيب لابن حجر، ٤٩٨/١.
٤ مسند الإمام أحمد، ١٣٣/١٨ (١١٥٨٧)؛ سنن الترمذي، ٢٢٦/٥ (٣٠٠١).
٥ ي: يهود.
٦ ي – تعالى.
٧ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٦٦/٥، عن عكرمة ومقاتل.
٨ مسند الإمام أحمد، ٢٧٢/٤ (٢٤٦٣)؛ جامع البيان للطبري، ٦٧٢/٥.
٩ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٦/٣؛ جامع البيان للطبري، ٦٦٢/٥.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: إيمانًا متعلِّقًا بكلّ ما يجب أن يؤمَنَ به مِن رسول وكتابٍ وحساب وجزاءٍ، وإنّما لم يصرِّح به تفصيلًا لظهور أنّه الذي يؤمِن به المؤمنون، وللإيذان بأنّه الإيمانُ بالله تعالى حقيقةً، وأنّ ما خلا عن[1] شيء مِن[2] ذلك -كإيمان أهل الكتاب- ليس مِن الإيمان به تعالى في شيء، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء، ٤/١٥٠-١٥١].

وإنّما أُخِّر ذلك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدّمه عليهما[3] وجودًا ورُتبةً؛ لأنّ دلالتهما على خيريّتهم للنّاس أظهرُ مِن دلالته عليها، وليقترن به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾، أي: لو آمنوا كإيمانكم لكان ذلك خيرًا لهم ممّا هم عليه مِن الرِّياسة واستتباع العوامّ، ولازدادت رِياستُهم وتمتُّعهم بالحظوظ الدنيويّة مع الفوز بما وُعِدوه على الإيمان مِن إيتاء الأجر مرّتين. وقيل: ممّا هم فيه مِن الكفر، فالخيريّةُ إنّما هي باعتبار زعمِهم. وفيه ضربُ تهكّمٍ بهم. وإنّما لم يتعرَّض للمؤمَنِ به أصلًا للإشعار بظهور أنّه الذي يُطلَق عليه اسمُ الإيمان، لا يذهب الوهمُ إلى غيره. ولو فُصِّل المؤمَنُ به ههنا أو فيما قبلُ لربّما فُهم أنّ لأهل الكتاب أيضًا إيمانًا في الجملة، لكنّ إيمانَ المؤمنين خيرٌ منه، وهيهاتَ ذلك.

﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ جملة مستأنَفة سِيقت جوابًا عمّا نشأ مِن الشرطيّة الدالّةِ على انتفاء الخيريّةِ لانتفاء الإيمانِ عنهم، كأنّه قيل: هل منهم مَن آمن، أو كلُّهم على الكفر؟ فقيل: منهم المؤمنون المعهودون الفائزون بخير الدارَين، كعبد الله بن سلام وأصحابه. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمرِّدون في الكفر، الخارجون عن الحدود.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ استثناء مفرّغ مِن المصدر العامّ، أي: لن يضرّوكم أبدًا ضررًا ما إلّا ضررَ أذًى لا يبالَى به، مِن طعن وتهديد لا أثرَ له.

---

[1] س: مِن.
[2] ط: عن.
[3] س: عليها.

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ أي: ينهزموا مِن غير أن ينالوا منكم شيئًا مِن قتل أو أسرٍ. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ عطفٌ على الشرطيّة. و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة، أي: لا يُنصرون مِن جهة أحدٍ، ولا يُمنعون منكم قتلًا وأخذًا. وفيه تثبيت لمَن آمَن منهم، فإنّهم كانوا يؤذونهم بالتلهّي بهم وتوبيخِهم وتضليلِهم وتهديدِهم، وبشارةٌ لهم بأنّهم لا يقدِرون على أن يتجاوزوا الأذى بالقول إلى ضرر يُعبأ به، مع أنّه تعالى[١] وعدَهم الغلَبة عليهم والانتقامَ منهم، وأنّ عاقبة أمرهم الخِذلانُ والذلّ.

وإنّما لم يُعطَف نفيُ منصوريّتهم على الجزاء؛ لأنّ المقصود هو الوعدُ بنفي النصرِ مطلقًا، ولو عُطف عليه لكان مقيّدًا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وكم بين الوعدين! كأنّه قيل: ثمّ شأنُهم الذي أُخبركم عنه وأبشّركم به أنّهم مخذولون مُنتفٍ عنهم النصرُ والقوّةُ،[٢] لا ينهَضون بعد ذلك بجَناحٍ، ولا يقومون على ساق، ولا يستقيم لهم أمرٌ، وكان كذلك[٣] حيث لقيَ بنو[٤] قريظةَ والنضيرِ وبنو[٥] قينُقاع ويهودُ خيبرَ ما لقُوا.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: هدرُ النفسِ والمال والأهل، أو ذلُّ التمسّكِ بالباطل. ﴿أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي: وُجدوا. ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ استثناء مِن أعمّ الأحوال، أي: ضربت عليهم الذِلّة ضربَ القُبّة / على مَنْ هي عليه في [١٠٥ظ]
جميع الأحوال إلّا حالَ كونهم معتصِمين بذِمّة الله أو كتابِه الذي آتاهم[٦] وذِمّةِ المسلمين، أو بذِمّة الإسلام واتّباع سبيل المؤمنين.

---

١ ط س - تعالى.
٢ ي + والقدرة.
٣ ي: ذلك.
٤ س: بنوا.
٥ ي: بنوا.
٦ س ط: أتاهم.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا به مستوجبين له، والتنكيرُ للتّفخيم والتهويل، و﴿مِن﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع صفة لـ"غَضَبٍ"، مؤكِّدةً لِما أفاده التنكير مِن الفخامة والهول، أي: كائنٍ مِن الله عزّ وجلّ.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فهي محيطة بهم مِن جميع جوانبهم. واليهودُ كذلك في غالب الحال، مساكينُ تحت أيدي المسلمين أو النصارى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر مِن ضَرْب الذِّلّة والمسكنة عليهم، والبَوْءِ بالغضب العظيم. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الذي ذُكر كائنٌ بسبب كفرهم المستمرِّ بآيات الله الناطقة بنبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وتحريفِهم لها وبسائر الآيات القرآنيّة.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: في اعتقادهم أيضًا. وإسناد القتل إليهم مع أنّه فعلُ أسلافِهم لرضاهم به، كما أنّ التحريف مع كونه مِن أفعال أحبارِهم يُنسَبُ إلى كلّ مَن يسير بسِيرتهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الكفر والقتل، ﴿بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ أي: كائنٌ بسبب عصيانهم واعتدائِهم حدودَ الله تعالى على الاستمرار، فإنّ الإصرار على الصغائر يُفضي إلى مباشرة الكبائِر، والاستمرارَ عليها يؤدِّي إلى الكفر. وقيل: معناه: أنّ ضرب الذلّةِ والمسكَنةِ في الدنيا واستيجابَ الغضب في الآخرة كما هو معلَّل بكفرهم وقتلِهم فهو مسبَّب عن عصيانهم واعتدائهم مِن حيث إنّهم مخاطَبون بالفروع مِن حيث المؤاخذة.

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ جملة مستأنَفة سيقت تمهيدًا لتعداد محاسِن مؤمني أهلِ الكتاب، وتذكيرًا لقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.[١] والضمير في ﴿لَيْسُوا۟﴾ لأهل الكتاب جميعًا، لا للفاسقين منهم خاصّة، وهو اسمُ "ليس"، وخبرُه ﴿سَوَآءً﴾،

---

[١] آل عمران، ١١٠/٣.

وإنّما أُفرد لأنّه في الأصل مصدَرٌ. والمراد بنفي المساواة: نفيُ المشاركة في أصل الاتّصاف بالقبائح المذكورة، لا نفيُ المساواة في مراتبِ الاتّصاف بها مع تحقّق المشاركة في أصل الاتّصاف بها، أي: ليس جميع أهل الكتابِ متشاركين في الاتّصاف بما ذُكر مِن القبائح، والابتلاءِ بما يترتّب عليها مِن العقوبات.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ استئناف مبيّن لكيفيّة عدم تساويهم، ومزيلٌ لِما فيه مِن الإبهام، كما أنّ ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الآية،[١] مبيّنٌ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾... إلخ.[٢] ووضعُ ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ موضعَ الضمير العائد إليهم لتحقيق ما به الاشتراكُ بين الفريقين، والإيذانِ بأنّ تلك الأمّة ممّن أوتي نصيبًا وافرًا مِن الكتاب، لا مِن أراذلهم. والقائمة: المستقيمةُ العادلةُ، مِن "أقمتُ العودَ فقام"، بمعنى: استقام.

وهم الذين أسلموا منهم، كعبدِ الله بنِ سلام، وثعلبةَ بنِ سعيد، وأُسَيْدِ بنِ عبيد، وأضرابِهم. وقيل: هم أربعون رجلًا مِن أهلِ نجرانَ، واثنان وثلاثون مِن الحبشة، وثلاثةٌ مِن الروم، كانوا على دين عيسى عليه السلام،[٣] وصدّقوا محمّدًا عليهما السلام، وكان مِن الأنصار فيهم عدّةٌ قبل قدوم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[٤] منهم أسعدُ بنُ زُرارة، والبراءُ بن مَعرورٍ، ومحمّد بنُ مسلمةَ،[٥] وأبو قيس صِرمةُ بنُ أنسٍ، كانوا موحِّدين يغتسلون مِن الجنابة، ويقومون بما يعرِفون مِن شرائع الحنيفيّةِ حتّى بعث الله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فصدّقوه ونصَروه.[٦]

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ في محلّ الرفع على أنّه صفة أخرى لـ﴿أُمَّةٌ﴾، وقيل: في محلّ النصب على أنّه حال منها؛ لتخصُّصها بالنعت، والعاملُ فيه الاستقرار الذي يتضمّنه الجارُّ، أو مِن ضميرها في ﴿قَآئِمَةٌ﴾، أو مِن المستكِنّ في الجارّ؛ لوقوعه خبرًا لـ﴿أُمَّةٌ﴾. والمراد بـ﴿ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:[٧] القرآنُ. وقوله تعالى:[٨]

---

١ آل عمران، ١١٠/٣.
٢ آل عمران، ١١٠/٣.
٣ س – عليه السلام.
٤ ط: عليه السلام.
٥ ي: سلمة.
٦ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ٤٧٧/٥.
٧ ي – الله.
٨ ي + في.

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ ظرف لـ﴿يَتۡلُونَ﴾، أي: في ساعاته، جمع: أَنًى؛ بزِنة عَصًا، أو إِنًى؛ بزِنة مِعًى، أو أَنْيٍ؛ بزِنة ظَبْيٍ، أو إِنْيٍ؛ بزِنة نِحْيٍ،[1] أو إِنْوٍ؛ بزِنة جِزْوٍ.

﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ أي: يصلّون؛ إذ لا تلاوة في السجود، قال صلّى الله عليه وسلّم: «ألا إنّي[2] نُهيت أن أقرأ راكعًا وساجدًا».[3] وتخصيص السجود بالذكر مِن بين سائر أركان الصلاة؛ لكونه أدلَّ على كمال الخضوع. والتصريح بتلاوتهم آياتِ الله في الصلاة مع أنّها مشتملة عليها قطعًا لزيادة تحقيق المخالفة، وتوضيحِ عدمِ المساواة بينهم وبين الذين وُصفوا آنفًا بالكفر بها، وهو السِّرّ في تقديم هذا النعت على نعت الإيمان.

والمراد بصَلاتهم: التهجّدُ؛ إذ هو أدخلُ في مدحهم، وفيه يَتسنّى لهم التلاوةُ، فإنّها في المكتوبة وظيفةُ الإمام. واعتبار حالِهم عند الصلاة على الانفراد يأباه مقامُ المدحِ، وهو الأنسب بالعدول عن إيرادها[4] باسم الجنسِ المتبادَر منه الصلوات المكتوبة،[5] وبالتعبير عن وقتها بالآناء المبهمة. وقيل: صلاةُ العِشاءِ؛ لأنّ أهل الكتاب لا يصلّونها؛ لِما رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخّرها ليلةً ثمّ خرجَ، فإذا الناسُ ينتظرون الصلاةَ، فقال: «أما إنّه ليس مِن أهل الأديان أحدٌ يذكرُ الله هذه الساعةَ غيرُكم»، وقرأ هذه الآية.[6]

وإيراد الجملة اسميّةً[7] للدلالة على الاستمرار، وتكريرُ الإسناد لتقوية الحكم وتأكيدِه،[8] وصيغةُ المضارع للدلالة على التجدّد. والجملة حال مِن فاعل ﴿يَتۡلُونَ﴾. وقيل: هي مستأنَفة، والمعنى: أنّهم يقومون تارةً ويسجدون أخرى،

---

[1] س: نخيٍ.

[2] ي: أنّي.

[3] صحيح مسلم، ٣٤٨/١ (٤٧٩)؛ سنن أبي داود، ١٥٦/٢ (٨٧٦).

[4] ي: إيراده.

[5] أي: لو أورد مدحهم باسم الصلاة لتبادر إلى الذهن أنّ المراد الصلاة المكتوبة، لكنّه عدَل عن ذلك إلى ذكر السجود، فكان الأنسب حمله على التهجّد.

[6] الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٢/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/١. وهو في صحيح ابن حبّان، ٣٩٧/٤ (١٥٣٠)؛ ومسند أبي يعلى، ٢٠٦/٩ (٥٣٠٦).

[7] ي: الاسميّة.

[8] وفي هامش ط ي: فإنّ الفعل مُسند إلى فاعله، ثمّ الجملة مُسنَدة إلى الضمير. «منه».

يبتغون الفضل والرحمة بأنواع ما يكون في الصلاة مِن الخضوع لله عزّ وجلّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان، ٦٤/٢٥]. وقيل: المرادُ بالسجود: هو الخضوعُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد، ١٥/١٣].

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١١٤﴾

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ صفة أخرى لـ﴿أُمَّةٌ﴾، مبيّنةٌ لمُباينتهم اليهودَ مِن جهة أخرى، أي: يؤمنون بهما على الوجه الذي نطقَ به الشرعُ. والإطلاق للإيذان بالغنى عن التقييد؛ لِظهور أنّه الذي / يُطلق عليه الإيمانُ بهما لا يذهب [١٠٦و] الوهمُ إلى غيره، وللتّعريض بأنّ إيمان اليهودِ بهما -مع قولهم: "عزيرٌ ابنُ الله"، وكفرِهم ببعض الكتب والرسل، ووصفِهم اليومَ الآخِرَ بخلاف صفتِه- ليس مِن الإيمان بهما في شيء أصلاً، ولو قُيّد بما ذُكر لربّما تُوُهِّم أنّ المنتفيَ عنهم هو القيد المذكور مع جواز إطلاقِ الإيمانِ على إيمانهم بالأصل، وهيهات.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ صفتان أُخْرَيان لـ﴿أُمَّةٌ﴾، أُجرِيَتا عليهم تحقيقًا لمخالفتهم اليهودَ في الفضائل المتعلِّقة بتكميل الغير إثْرَ بيانِ مُباينتهم لهم في الخصائص المتعلِّقة[١] بتكميل النفس، وتعريضًا بمُداهَنتهم[٢] في الاحتساب؛ بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناسِ وصدِّهم عن سبيل الله، فإنّه أمرٌ بالمنكر ونهيٌ عن المعروف.

﴿وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ صفة أخرى لـ﴿أُمَّةٌ﴾، جامعةٌ لفنون المحاسن المتعلِّقة بالنفس وبالغير. و"المسارعةُ في الخير": فرطُ الرغبة فيه؛ لأنّ مَن رغِب في الأمر سارع في تولّيه والقيام به، وآثر الفَورَ على التراخي، أي: يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيراتِ اللازمةِ والمتعدّية. وفيه تعريض

---

[١] ي - بتكميل الغير إثر بيان مُباينتِهم لهم في الخصائص المتعلّقة.

[٢] ي: لمداهنتهم.

بتباطؤ اليهودِ فيها؛ بل بمبادرتهم إلى الشرور. وإيثارُ كلمةِ ﴿فِي﴾ على ما وقع في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾... إلخ [آل عمران، ١٣٣/٣]؛ للإيذان بأنّهم مستقِرّون في أصل الخير، متقلّبون في فنونه[١] المترتِّبةِ في طبقات الفضل، لا أنّهم خارجون عنها منتهون إليها.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى "الأمّة" باعتبار اتّصافهم بما فُصّل مِن النعوت الجليلة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعلوّ درجتهم وسُموّ طبقتهم في الفضل. وإيثاره على الضمير للإشعار بعلّة الحُكم والمدح، أي: أولئك المنعوتون بتلك الصفاتِ الفاضلة بسبب اتّصافِهم بها ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مِن جملة مَن صلَحَت أحوالُهم عند الله عزّ وجلّ، واستحقّوا رضاه وثناءَه.

﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ١١٥﴾

﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ كائنًا ما كان ممّا ذُكِر أو لم يُذكَر ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لن يَعدَموا ثوابَه البتّةَ، عبّر عنه بذلك كما عبّر عن تَوْفية الثوابِ بالشكر إظهارًا لكمال تنزّهه سبحانه وتعالى عن ترك إثابتهم بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه تعالى مِن القبائح. وتعديتُه إلى مفعولين بتضمين معنى الحرمانِ. وإيثار صيغة البناءِ للمفعول للجري على سَنن الكبرياء. وقُرئ الفِعلان على صيغة الخطاب.[٢]

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله، فإنّ علمه تعالى بأحوالهم يستدعي تَوْفيةَ أجورِهم لا مَحالة. والمراد بـ"المتّقين" إمّا الأمّةُ المعهودةُ، وُضع موضِعَ الضمير العائدِ إليهم مدحًا لهم، وتعيينًا لعُنوان تعلّق العلمِ بهم، وإشعارًا بمناط إثابتِهم، وهو التقوى المنطوي على الخصائص السالفة.[٣] وإمّا جنسُ المتّقين عمومًا، وهم مندرجون تحت حُكمه اندراجًا أوّليًّا.

---

١ ط س: فنونه.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب وشعبة، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٤١/٢.

٣ ي: السابقة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: بما يجب أن يؤمَن به. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[1] عنهما: «هم بنو[2] قُريظةَ والنضير، فإنّ معاندتهم كانت لأجل المال».[3] وقيل: هم مشركو قريشٍ، فإنّ أبا جهلٍ كان كثيرَ الافتخار بماله.[4] وقيل: أبو سفيان وأصحابُه، فإنّه أنفق مالًا كثيرًا على الكفّار يومَ بدرٍ وأُحُد.[5] وقيل: هم الكفّار كافّةً،[6] فإنّهم فاخروا بالأموال والأولاد حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ، ٣٤/٣٥]، فردَّ الله عزّ وجلّ عليهم وقال: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ أي: لن يدفَع عنهم ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن عذابه تعالى ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا يسيرًا منه، أو شيئًا مِن الإغناء. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: مصاحبوها على الدوام وملازموها. ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أبدًا.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١١٧﴾

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيان لكيفيّة عدمِ إغناء أموالِهم التي كانوا يعوّلون عليها في جلب المنافع ودفعِ المضارّ، ويعلِّقون بها أطماعَهم الفارغةَ. و﴿مَا﴾ موصولة اسميّة، حُذف عائدها، أي: حالُ ما ينفقه الكفرةُ قربةً، أو مفاخرةً وسُمعةً، أو المنافقون رياءً وخوفًا. وقصّته العجيبةُ التي تجري مجرى المَثَل في الغرابة ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: بردٌ شديدٌ، فإنّه في الأصل مصدر وإن شاع إطلاقُه على الريح الباردة، كالصَّرْصَر. وقيل: كلمة "في" تجريديّة،[7]

---

١ ط س - تعالى.

٢ س: بنوا.

٣ اللباب لابن عادل، ٥/٤٨٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٤ (آل عمران، ٣/١٠).

٤ اللباب لابن عادل، ٥/٤٨٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣١٤.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٣٣؛ اللباب لابن عادل، ٥/٤٨٢.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٣٣؛ اللباب لابن عادل، ٥/٤٨٢.

٧ التجريد: هو أن يُنتزع مِن أمر ذي صفة أمرٌ آخر مماثل له في تلك الصفة مبالغةً في كمالها فيه، ويكون بـ"مِن" التجريديّة، نحو: لي مِن فلان صديق حميم. وبالباء التجريديّة نحو: لئن سألت فلانًا لتسألنّ به البحرَ. ويكون بـ"في" التجريديّة، نحو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت، ٤١/٢٨] ويكون بدون توسط حرف. انظر: الكلّيّات لأبي البقاء، ص ٢٧٣.

كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب، ٢١/٣٣].

﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي[١] فباءوا بغضب مِن الله تعالى. وإنّما وُصفوا بذلك؛ لأنّ الإهلاك عن سَخَط أشدُّ وأفظع. ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبةً لهم، ولم تدَعْ منه أثَرًا ولا عِثْيَرًا.[٢] والمراد: تشبيهُ ما أنفقوا في ضَياعه وذهابِه بالكلّيّة مِن غير أن يعودَ إليهم نفعٌ ما بحرْثِ كفّارٍ ضربتْه صِرٌّ فاستأصلتْه، ولم يبقَ لهم فيه منفعةٌ ما بوجه مِن الوجوه. وهو مِن التشبيه المركّب الذي مرَّ تفصيله في تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة، ١٧/٢]؛ ولذلك لم يبالِ بإيلاء كلمةِ التشبيهِ "الريحَ" دون "الحرثِ".[٣] ويجوز أن يراد: مَثَلُ إهلاكِ ما ينفقون كمَثَل إهلاك ريحٍ،[٤] أو مَثَلُ ما ينفقون كمَثَل مهلِكِ ريحٍ،[٥] وهو الحرْث. وقُرِئ: "تُنْفِقُونَ".[٦]

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما بيَّن مِن ضَياع ما أنفقوا مِن الأموال.[٧] ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لِما أنّهم أضاعوها بإنفاقها لا على ما ينبغي. وتقديم المفعول لرعاية الفواصلِ، لا للتّخصيص؛ إذ الكلامُ في الفعل باعتبار تعلّقِه بالفاعل لا بالمفعول، أي: ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسَهم. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرار. وقد جُوِّز أن يكون المعنى: وما ظلم[٨] الله تعالى أصحاب الحرْثِ بإهلاكه، ولكنّهم ظلَموا أنفسهم بارتكاب ما استحقّوا به العقوبةَ.[٩] ويأباه أنّه قد مرّ

---

١ ي: والمغاصي.

٢ العِثْيَر -بتسكين الثاء-: الغبار. **الصحاح** للجوهري، «عثر».

٣ أي: لم يهتمّ بجعل "الريح" بعد كاف التشبيه، والأصل أن يجعل "الحرث" بعدها. قال ابن المنير في **الانتصاف**: «والأقرب: أن يقال: أصل الكلام -والله أعلم-: مثَل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثَل حَرث قوم ظلموا أنفسهم فأصابته ريح فيها صِرّ فأهلكته، ولكن خولف هذا النظم في المثَل المذكور لفائدة جليلة؛ وهو تقديم ما هو أهمّ. لأنّ الريح التي هي مثل العذاب ذِكرُها في سياق الوعيد والتهديد أهمّ مِن ذِكرِ الحَرث، فقدّمت عناية بذكرها، واعتمادًا على أنّ الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برّدّ الكلام إلى أصله على أيسر وجه». انظر: **الانتصاف** لابن المنير، ٤٠٥/١.

٤ ي: الريح.

٥ ي: الريح.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي هرمز. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١١٩.

٧ ط س - مِن الأموال.

٨ ي: ظلمهم.

٩ ذكره البيضاوي في **أنوار التنزيل**، ٣٤/٢.

التعرّض له تصريحًا وإشعارًا. وقُرئ: "لَكِنَّ" بالتشديد[1] على أنّ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ اسمُها، و﴿يَظْلِمُونَ﴾ خبرُها، والعائد محذوف للفاصلة، أي: ولكنّ أنفسَهم يظلِمونها. وأمّا تقدير ضمير الشأن فلا سبيلَ إليه؛ لاختصاصه / بالشعر ضرورةً، كما في قوله: [١٠٦ظ]

ولكنّ مَن يُبصِر جفونَك[2] يعشَقِ[3]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ بطانة الرجل ووَليجتُه: مَنْ يُعرّفه أسرارَه ثقةً به، شُبِّه ببطانة الثوب كما شُبِّه بالشِّعار، قال عليه السلام: «الأنصارُ شِعار، والناسُ دِثار».[4] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان رجال مِن المؤمنين يواصلون اليهودَ؛ لِما بينهم مِن القرابة والصداقة والحلف، فأنزل الله تعالى هذه الآيةَ».[5] وقال مجاهد: «نزلتْ في قوم مِن المؤمنين كانوا يواصِلون المنافقين، فنُهوا عن ذلك»،[6] ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران، ١١٩/٣]. وهي صفة المنافق.[7] وأيًّا ما كان فالحكم عامٌّ للكفرة كافّةً.

﴿مِن دُونِكُمْ﴾ أي: مِن دون المسلمين. وهو متعلّق بـ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، أو بمحذوف وقعَ صفةً لـ﴿بِطَانَةً﴾، أي: كائنةً مِن دونكم مجاوزةً لكم. ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ جملة مستأنَفة مبيّنة لحالهم، داعيةٌ إلى الاجتناب عنهم. أو صفة لـ﴿بِطَانَةً﴾، يقال: ألَا في الأمر إذا قصَّرَ فيه، ثمّ استُعمل مُعدًّى إلى مفعولين في قولهم:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٩.

[2] ي: جوفونك.

[3] للمتنبي في ديوانه، ص ١٠٧، وتمامه:
وَما كنتُ ممَّن يَدخُلُ العِشقُ قلبَه
ولكنّ مَن يبصر جفونك يعشَقِ

[4] صحيح البخاري، ١٥٧/٥ (٤٣٣٠)؛ صحيح مسلم، ٧٣٨/٢ (١٠٦١).

[5] ي + الكريمة. | اللباب لابن عادل، ٤٩١/٥؛ جامع البيان للطبري، ٧٠٩/٥.

[6] اللباب لابن عادل، ٤٩١/٥؛ جامع البيان للطبري، ٧٠٩/٥.

[7] ي: المنافقين.

لا آلوكَ نُصحًا، ولا آلوك جُهدًا، على تضمين معنى المنْع والنقص. و"الخَبال": الفساد، أي: لا يُقصِّرون لكم في الفساد.

﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: تمنَّوا عَنَتَكم، أي: مشقَّتَكم وشدّةَ ضررِكم. وهو أيضًا استئناف مؤكِّد للنهي، موجب لزيادة الاجتناب عن المنهيّ عنه. ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ استئناف آخرُ مفيدٌ لمزيد الاجتناب عن المنهيّ عنه، أي: قد ظهرت البغضاءُ في كلامهم؛ لِما أنّهم لا يتمالكون -مع مبالغتهم في ضبط أنفسهم وتحاملِهم عليها- أن ينفلِتَ مِن ألسنتهم ما يُعلم به بغضُهم للمسلمين. وقُرئ: "قَدْ بَدَا البَغْضَاءُ".[١] والأفواهُ: جمعُ "فم"، وأصلُه: فوهٌ، فلامه هاءٌ، يدلّ على ذلك جمعُه على "أفواه"، وتصغيرُه على "فُوَيه"، والنسبة إليه "فوهيٌّ".

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ممّا بدا؛ لأنّ بُدُوّه ليس عن[٢] رَويّة واختيار.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ الدالّةَ على وجوب الإخلاص في الدين، وموالاةِ المؤمنين، ومعاداةِ الكافرين.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن[٣] كنتم مِن أهل العقل، أو إن كنتم تعقِلون ما بُيِّن لكم مِن الآيات. والجواب محذوف؛ لدلالة المذكور عليه.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبرٍ، صُدّرت بحرف التنبيه إظهارًا لكمال العناية بمضمونها، أي: أنتم أولاءِ[٤] المخطِئون في موالاتهم. وقوله تعالى: ﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بيان لخطئهم في ذلك. وهو خبر ثانٍ لـ"أنتم". أو خبر لـ﴿أُوْلَآءِ﴾، والجملة خبر لـ"أنتم"، كقولك: أنت زيدٌ تحبُّه. أو صلة له. أو حال

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. معاني القرآن للفرّاء، ١/٢٣١؛ جامع البيان للطبري، ٥/٧١٤.

[٢] ي - عن.

[٣] س - إن.

[٤] ط س: هؤلاء.

والعامل معنى الإشارة. ويجوز أن ينتصِب ﴿أُوْلَآءِ﴾ بفعلٍ يفسِّره ما بعده، ويكون الجملة خبرًا.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: بجنس الكُتب جميعًا، وهو حال مِن ضمير المفعول في ﴿لَا يُحِبُّونَكُمْ﴾. والمعنى: لا يحبّونكم والحالُ أنّكم تؤمنون بكتابهم، فما بالُكم تحبّونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم؟ وفيه توبيخ بأنّهم في باطلهم[١] أصلبُ منكم في حقّكم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ نفاقًا، ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: مِن أجله تأسّفًا وتحسّرًا حيث لم يجدوا إلى التشفّي سبيلًا.

﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاءٌ عليهم بدوام الغيظ وزيادتِه بتضاعف قوّة الإسلامِ وأهلِه إلى أن يهلِكوا به، أو باشتداده إلى أن يهلكهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيعلم ما في صدوركم مِن العداوة والبغضاء والحنَقِ، وهو يحتملُ أن يكون مِن المَقول، أي: وقل لهم: إنّ الله تعالى عليم بما هو أخفى ممّا تُخفونه مِن عضّ الأنامل غيظًا، وأن يكون خارجًا عنه، بمعنى: لا تتعجّب مِن إطْلاعي إيّاك على أسرارهم، فإنّي عليم بذات الصدور. وقيل: هو أمرٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطيب النفسِ وقوّة الرجاءِ والاستبشار بوعد الله تعالى أن يَهلِكوا غيظًا بإعزاز الإسلامِ وإذلالِهم به مِن غير أن يكون ثمّة قول، كأنّه قيل: حدِّث نفسَك بذلك.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ بيان لتناهي عداوتِهم إلى حدِّ حسَدوا ما ينالهم مِن خير ومنفعة، وشمِتُوا بما أصابهم مِن ضرّ وشدّة. وذِكرُ المسّ مع الحسنة والإصابة مع السيّئة إمّا للإيذان بأنّ مدار مساءتِهم

---

١ ط: باطنهم.

أدنى مراتب إصابة الحسنة، ومناطَ فرحِهم تمامُ إصابة السيّئة، وإمّا لأنّ المسّ مستعار لمعنى الإصابة.

﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ أي: على عداوتهم أو على مشاقّ التكاليف،[١] ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ما حرّم الله تعالى عليكم ونهاكم عنه؛ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ مكرُهم وحيلتُهم التي دبّروها لأجلكم. وقُرئ: "لَا يَضِرْكُمْ" بكسر الضاد وجزم الراء[٢] على جواب الشرط، مِن ضارَه يضيرُه، بمعنى: ضَرّه يضُرّه. وضمّة الراء في القراءة المشهورة للإتْباع، كضمّة "مُدُّ".

﴿شَيْـًٔا﴾ نصب على المصدريّة، أي: لا يضُرُّكم شيئًا مِن الضرَر؛ بفضل الله وحفظه الموعودِ للصّابرين والمتّقين، ولأنّ المُجِدّ في الأمر المتدرِّبَ بالاتّقاء والصبر يكون جريئًا على الخصم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في عداوتكم مِن الكيد، ﴿مُحِيطٌ﴾ عِلمًا، فيعاقبهم على ذلك. وقُرئ بالتاء الفوقانيّة،[٣] أي: بما تعملون مِن الصبر والتقوى، فيجازيكم بما أنتم أهلُه.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ كلام مستأنَف، سيق للاستشهاد بما فيه مِن استتباع عدم الصبر والتقوى للضّرَر، على أنّ وجودهما مستتبِعٌ لِما وُعد مِن النجاة مِن مضرّة كيد الأعداء. و﴿إِذْ﴾ نصب على المفعوليّة بمضمَرٍ خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خاصّة مع عموم الخطاب فيما قبله وما بعده له وللمؤمنين؛ لاختصاص مضمون الكلامِ به عليه السلام، أي: واذكر لهم وقت غُدُوّك ليتذكّروا ما وقع فيه مِن الأحوال الناشئة عن عدم الصبر، فيعلموا أنّهم إن لزِموا الصبرَ / والتقوى [١٠٧و]
لا يضرُّهم كيد الكفرة.

---

١ ي: التكليف.
٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٢.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والأعمش وسهل. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١١٩.

وتوجيه الأمر بالذِّكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مِن الحوادث مع أنّها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها واستحضار الحادثةِ بتفاصيلها كما سلَف بيانه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾... إلخ [البقرة، ٣٠/٢]. والمراد به: خروجُه عليه السلام إلى أُحُد، وكان ذلك مِن منزل عائشةَ رضي الله عنها،[١] وهو المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾، أي: مِن عند أهلك.

﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تُنزِلهم، أو تهيّيء وتسوّي لهم ﴿مَقَـٰعِدَ﴾، ويؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "تُبَوِّئُ لِلمُؤْمِنِينَ".[٢] والجملة حال مِن فاعل ﴿غَدَوْتَ﴾؛ لكن لا على أنّها حال مقدّرة، أي: ناويًا وقاصدًا للتبوِئة كما قيل؛ بل على أنّ المقصود تذكير الزمان الممتدِّ المتّسعِ لابتداء الخروجِ والتبوِئة وما يترتّب عليها؛ إذ هو المُذكِّر للقصّة. وإنّما عُبّر عنه بالغدوّ الذي هو الخروجُ غُدوةً مع كون خروجِه عليه السلام بعد صلاة الجمعة كما ستعرفه؛ إذ حينئذ وقعت التبوِئةُ التي هي العُمدة في الباب؛ إذِ المقصود بتذكير الوقت تذكير مخالفتهم لأمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وتزايُلِهم عن أحيازهم المعيَّنةِ لهم عند التبوِئة وعدمِ صبرهم.

وبهذا يتبيّن خللُ رأي مَن احتجّ به على جواز أداء صلاةِ[٣] الجمعة قبل الزوال.[٤] واللّام في قوله تعالى: ﴿لِلْقِتَالِ﴾ إمّا متعلّقة بـ﴿تُبَوِّئُ﴾، أي: لأجل القتال، وإمّا بمحذوف وقع صفةً لـ﴿مَقَـٰعِدَ﴾، أي: كائنةً. ومقاعد القتال: أماكنه ومواقِفُه، فإنّ استعمال المقعد والمقامِ بمعنى المكانِ اتساعًا شائعٌ ذائعٌ، كما في قوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر، ٥٥/٥٤]، وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل، ٣٩/٢٧].

رُوي أنّ المشركين نزلوا بأُحُد يومَ الأربعاءِ، فاستشار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابَه، ودعا عبدَ الله بنَ أُبيِّ بنِ سَلول، ولم يكن دعاه قبل ذلك،

---

١ قاله مجاهد والكلبي والواقدي. الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٧/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٠٨/٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٩/٣.

٣ ي - صلاة.

٤ وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ورُوي عن بعض السلَف. انظر: اللباب لابن عادل، ١٥٠٥/٥ والمغني لابن قدامة، ٢٦٤/٢.

فاستشاره، فقال عبدُ الله وأكثرُ الأنصار: «يا رسولَ الله أقِم بالمدينة ولا تخرُجْ إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ قطّ إلّا أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلّا أصبْنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدَعْهم، فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مَحبِس، وإن دخلوا قاتلهم الرجالُ في وجوههم، ورماهم النساءُ والصِّبيانُ بالحِجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين». وقال بعضهم: «يا رسول الله اخرُجْ بنا إلى هؤلاء الأكلُبِ، لا يرَوْن أنّا قد جبُنّا عنهم». وقال عليه السلام: «إني قد رأيت في منامي بقرًا مُذَبَّحةً حولي، فأوّلتُها خيرًا، ورأيت في ذُباب سيفي ثُلَمًا، فأوّلتُه هزيمةً، ورأيتُ كأنّي أدخلتُ يدي في دِرعٍ حصينةٍ، فأوّلتُها المدينة، فإن رأيتم أن تُقيموا بالمدينة فتدعوهم»، فقال رجال مِن المسلمين قد فاتتهم بدرٌ وأكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ: «اخرُجْ بنا إلى أعدائنا». وقال النعمانُ بنُ مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه: «يا رسول الله لا تحرِمْني الجنّةَ، فوالذي بعثَك بالحقّ لأدخُلَنَّ الجنّة». ثمّ قال: «بقوليْ: أشْهد أَن لا إله إلّا الله، وأنّي لا أفِرُّ مِن الزحف». فلم يزالوا به عليه السلام حتّى دخل فلبِس لَأْمتَه، فلمّا رأَوْه كذلك ندِموا، وقالوا: «بئسما صنعنا؛ نشير على رسول الله والوحيُ يأتيه». وقالوا: «اصنعْ يا رسولَ الله ما رأيت»، فقال: «ما ينبغي لنبيّ أن يلبَسَ لَأْمتَه فيضعَها حتّى يقاتل»، فخرج يومَ الجمعة بعد صلاةِ الجمعةِ، وأصبح بالشِّعب مِن أُحُد يوم السبْتِ للنصفِ مِن شوّالٍ لسنةِ ثلاثٍ مِن الهجرة، فمشى على[1] رجليه فجعل يصُفُّ أصحابَه للقتال، فكأنّما يقوّم بهم القِدْحَ؛ إن رأى صدرًا خارجًا قال: «تأخَّرْ»، وكان نزولُه في عُدوة الوادي، وجعَل ظهرَه وعسكرَه إلى أُحُد، وأمَّر عبدَ الله بنَ جُبيرٍ على الرُّماة، وقال لهم: «انضَحُوا عنّا بالنبل، لا يأتونا مِن ورائنا، ولا تبرَحوا مكانكم، فلن نزالَ غالبين ما ثبتُّم مكانكم».[2]

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائركم، والجملة اعتراض؛ للإيذان بأنّه قد صدر عنهم هناك مِن الأقوال والأفعال ما لا ينبغي صدوره عنهم.

---

١ ط - على.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٩/١. وانظر: الدرّ المنثور للسيوطي، ٣٠٤/٢.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٢٢﴾

﴿إِذْ هَمَّت﴾ بدل مِن ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾،[١] مبيّن لِما هو المقصود بالتذكير، أو ظرف لـ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾،[٢] على معنى أنّه تعالى جامع بين سماع الأقوالِ والعلمِ بالضمائر في ذلك الوقت؛ إذ لا وجهَ لتقييد كونِه تعالى سميعًا عليمًا بذلك الوقت. قال الفرّاءُ: «معنى قولِك: "ضربتُ وأكرمتُ زيدًا" أنّ "زيدًا" منصوب بهما، وأنّهما تسلّطا عليه معًا».[٣]

﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ متعلّق بـ﴿هَمَّت﴾، والباء محذوفة، أي: بأن تفشَلا، أي: تجبُنا وتضعُفا، وهما حيّانِ مِن الأنصار بنو[٤] سلمةَ[٥] مِن الخزرج وبنو[٦] حارثةَ[٧] مِن الأوس، وهما الجناحان مِن عسكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا ألفَ رجل، وقيل: تسعَمائةٍ وخمسين، وَعَدَهم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الفتحَ إن صبَروا، فلمّا قاربوا عسكرَ الكفَرة -وكانوا ثلاثةَ آلافٍ- انخذل عبدُ الله بنُ أبيّ بثلُث الناسِ، فقال: «يا قومُ، علامَ نَقتُل أنفسَنا وأولادَنا»، فتبِعَهم عمرو بن حزم الأنصاري،[٨] فقال: «أَنشُدكم الله تعالى

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ اللباب لابن عادل، ٥/٥١١؛ الدرّ المصون للسّمين الحلبي، ٣/٣٨٢.

٤ س ي: بنوا.

٥ بنو سَلِمة -بالكسر-: بطن مِن الخَزرج مِن القحطانيّة، وهم بنو سَلِمة بن سعد بن عليّ بن راشد بن سادرة بن تزيد بن جشم بن الخَزرج. قال الجوهري: وليس في العرب "سلِمة" بكسر اللام سِواهم، قال: والنسبة إليهم سلَمي بفتح اللام، منهم أبو قتادة الأنصاري، واسمه البراء بن مَعرور، وجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما وجماعة كثيرة غيرهما. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٢٩٣. وانظر: **الصِّحاح** للجوهري، «سلم».

٦ س ي: وبنوا.

٧ بنو حارثة: بطن مِن الأَوس مِن الأَزْد مِن القحطانيّة، وهم بنو حارثة بن الحارث بن الخَزرج بن عمرو بن النبيت، منهم رافع بن خديج والبراء بن عازب رضي الله عنهما. **نهاية الأرب** للقلقشندي، ١/٢٢٤.

٨ في **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣/٣٢٠: «وفي رواية: أبو جابر السلمي». والذي تفيده كتب التراجم أنّ عمرو بن حزم الأنصاري رضي الله عنه لم يشهد أُحدًا، وأنّ أوّل مشاهده كانت الخَندق. قال الحافظ ابن حجر في **الإصابة**، ٧/٣٥٩: «عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان الأنصاري. يُكنى أبا الضحّاك، شهد الخندق وما بعدها، واستعمله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على نَجران». وانظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٣/١١٧٢.

في نبيّكم وأنفسكم»، فقال عبدُ الله: «لو نعلم قتالًا لاتّبعناكم»، فهمّ الحيّانِ باتّباع عبدِ الله، فعصمَهم الله تعالى، فمضَوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[١] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أضمَروا أن يرجِعوا، فعزم الله لهم على الرشد فثبَتوا».[٢] والظاهر أنّها ما كانت إلّا هَمّةً وحديثَ نفس قلّما تخلو النفسُ عنه عند الشدائد.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: عاصمهما عن اتّباع تلك الخَطْرة.[٣] والجملة اعتراض. ويجوز أن تكون حالًا مِن فاعل ﴿هَمَّت﴾، أو مِن ضميره في ﴿تَفْشَلَا﴾، مفيدةً لاستبعاد فشلِهما أو همِّهما به مع كونهما في ولاية الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "وَاللهُ وَلِيُّهُمْ"،[٤] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات، ٩/٤٩].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحدَه دون ما عداه مطلقًا[٥] استقلالًا أو اشتراكًا ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في جميع أمورهم، فإنّه حسبُهم. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ للتبرّك به والتعليل؛ فإنّ الألوهيّة مِن موجِبات التوكّل عليه تعالى. واللّام في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ للجنس، فيدخلُ فيه "الطائفتان" دخولًا / أوّليًّا، وفيه إشعار بأنّ وصف الإيمان [١٠٧ظ] مِن دواعي التوكّل وموجِباتِه.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢٣﴾

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ جملة مستأنَفة، سيقت لإيجاب الصبر والتقوى بتذكير ما ترتّب عليهما مِن النصر إثرَ تذكير ما ترتّب على عدمهما مِن الضرر. وقيل: لإيجاب التوكّل على الله تعالى بتذكير ما يوجبه. و"بَدر": اسم ماءٍ بين مكّةَ والمدينة، كان لرجل اسمُه بدرُ بنُ كِلْدةَ فسُمّي باسمِه. وقيل: سمّي به لصفائه كالبدر واستدارته. وقيل: هو اسم الموضِع أو الوادي. وكانت وقعة بدرٍ في السابعَ عشرَ مِن شهر رمضانَ، سنةَ اثنتين مِن الهجرة.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٩/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٨/٣.
٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٠٩/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٢٨/٣.
٣ س: الخطره.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٣٦١.
٥ س – مطلقًا.

﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٌ﴾ حال مِن مفعول ﴿نَصَرَكُمُ﴾. و﴿أَذِلَّةٌ﴾ جمعُ "ذليل"، وإنّما جُمع جَمْعَ قِلّة للإيذان باتّصافهم حينئذ بوصفَي القِلّة والذِّلّة؛ إذ كانوا ثلاثمائةٍ وبضعةَ عشرَ، وكان ضَعفُ حالِهم في الغاية خرجوا على النواضِح يعتقب النفَرُ منهم على البعير الواحد، ولم يكن في العسكر إلّا فرَسٌ واحدٌ.[1] وقيل: فرَسانِ لمقداد ومرْثَد، وتسعون بعيرًا، وستُّ أدرعٍ، وثمانيةُ سيوفٍ، وكان العدوّ زُهاءَ ألفٍ، ومعهم مائةُ فرَسٍ وشِكّة وشَوْكة.[2]

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ اقتصر على الأمر بالتقوى -مع كونه مشفوعًا[3] بالصبر فيما سبَق وما لحِق- للإشعار بأصالته، وكونِ الصبر مِن مباديه اللازمة له؛ ولذلك قُدّم عليه في الذكر. وفي ترتيب الأمر بالتقوى على الإخبار بالنصر إيذانٌ بأنّ نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم، أي: إذا كان الأمر كذلك فاتّقوا الله كما اتّقيتم يومئذ. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي: راجين أن تشكُروا ما يُنعِم به عليكم بتقواكم مِن النصرة كما شكرتم فيما قبلُ، أو لعلّكم يُنعم الله عليكم بالنصر كما فعل ذلك مِن قبل، فوُضِع الشكرُ موضِعَ سببه الذي هو الإنعام.

﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤﴾

﴿إِذۡ تَقُولُ﴾ تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ لتشريفه والإيذان بأنّ وقوعَ النصر كان ببشارته عليه السلام. و﴿إِذۡ﴾ ظرف لـ﴿نَصَرَكُمُ﴾، قدِّم عليه الأمرُ بالتقوى؛ لإظهار كمال العنايةِ به، والمراد به الوقت الممتدّ الذي وقع فيه ما ذُكر بعده وما طُويَ ذكرُه تعويلًا على شهادة الحالِ ممّا يتعلّق به وجودُ النصرِ. وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضيةِ؛ لاستحضار صورتها، أي: نصركم وقت قولك ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حين أظهروا العجزَ عن المقابلة.

---

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٤١١/١؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٣٠/٣.

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ٤١١/١. والشِّكّة والشَّوكة: السلاح. انظر: **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «شكك» «شوك».

٣ ط: مشعوفًا.

قال الشعبي: «بلغ المؤمنين أنّ كُرْزَ بنَ جابرٍ الحنفي[١] يريد أن يُمِدّ المشركين، فشقّ ذلك على المؤمنين، فنزَل حينئذ»،[٢] ثمّ حكي ههنا: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾. الكفاية: سدّ الخَلّة، والقيامُ بالأمر. والإمداد في الأصل: إعطاءُ الشيء حالًا بعد حال. قال المفضَّل:[٣] «ما كان منه بطريق التقويةِ والإعانةِ يقال فيه: أمَدّه يُمِدّه إمدادًا، وما كان بطريق الزيادة يقال فيه:[٤] مَدَّه يمُدّه مدًّا، ومنه: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان، ٢٧/٣١]».[٥] وقيل: المَدّ في الشرّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة، ١٥/٢]، وقولِه: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم، ٧٩/١٩]، والإمدادُ في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء، ٦/١٧].[٦] والتعرُّض لعنوان الربوبيّة ههنا وفيما سيأتي مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين؛ لإظهار العنايةِ بهم، والإشعارِ بعلّة الإمداد. والمعنى إنكارُ عدم كفاية الإمداد بذلك المقدار ونفيُه. وكلمة "لَنْ" للإشعار بأنّهم كانوا حينئذ كالآيسين مِن النصر؛ لضعفهم وقلّتِهم وقوّةِ العدوّ وكثرتهم.

﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بيان، أو صفة لـ﴿ءَالَٰفٍ﴾، أو لِما أُضيف إليه، أي: كائنين مِن الملائكة. ﴿مُنزَلِينَ﴾ صفة لـ﴿ثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾، وقيل: حال مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾. وقُرِئ:

---

[١] هو كُرز بن جابر بن حسل القرشي الفِهري. كان مِن رؤساء المشركين قبل أن يُسلم، وأغار على سَرح المدينة مرّة فخرج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في طلبه حتى بلغ سفوان وفاتَه كُرْز، وهذه هي غزوة بدر الأولى. ثمّ أسلَم وحسُن إسلامه، واستشهد يوم الفتح في طريق مكّة. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٤٣٤/٤؛ والإصابة لابن حجر، ٢٥٧/٩.

[٢] جامع البيان للطبري، ٢١/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٢/٣.

[٣] هو المفضّل بن محمّد بن يعلى الضبّي الكوفي (ت. ١٦٨هـ/٧٨٤م)، اللغوي المُقرئ، سمع سِماك بن حرب، وأبا إسحاق السبيعي، وعاصم بن أبي النَّجود، وسليمان الأعمش، وروى عنه الفرّاء، ومحمّد بن عمر القصبي، وأبو كامل الجحدري. كان علامةً راويةً للأدب والأخبار وأيّام العرب، موثّقًا في روايته. قدم بغداد في أيّام هارون الرشيد، ولزِم المهدي، وصنّف له كتابه المفضَّليّات. ومِن كتبه الأمثال، ومعاني الشعر، والألفاظ، والعَروض. انظر: إنباه الرواة للقفطي، ٢٩٨/٣؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ٣٠٧/٢؛ والأعلام للزركلي، ٢٨٠/٧.

[٤] ي + فيه.

[٥] معجم الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري، ص ٧٠.

[٦] معجم الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري، ص ٧١.

"مُنَزِّلِينَ" بالتشديد؛[١] للتكثير أو للتدريج.[٢] قيل: أمدّهم الله تعالى أوّلًا بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثمّ خمسة آلافٍ. وقُرئ مبنيًّا للفاعل مِن الصيغتين،[٣] أي: مُنزِلين النصرَ.

﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لِما بعد "لَنْ"، وتحقيق[٤] له، أي: بلى يكفيكم ذلك. ثمّ وعدَ لهم الزيادةَ بشرط الصبر والتقوى حثًّا لهم عليهما وتقويةً لقلوبهم، فقال: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ﴾ على لقاء العدوّ ومناهضتِهم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ معصيةَ الله ومخالفةَ نبيّه عليه السلام، ﴿وَيَأۡتُوكُم﴾ أي: المشركون ﴿مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: مِن ساعتهم هذه، وهو في الأصل: مصدرُ: فارَت القِدرُ، أي: اشتدّ غَلَيانُها، ثمّ استُعير للسرعة، ثمّ أُطلق على كلّ حالةٍ لا ريثَ فيها أصلًا. ووصفُه بهذا لتأكيد السرعة بزيادة تعيينِه وتقريبِه.

ونظمُ إتيانهم بسرعة في سلك شَرطَي الإمداد المستتبِعَين له وجودًا وعدمًا -أعني: الصبرَ والتقوى- مع تحقّق الإمداد لا محالةَ سواءً أسرعوا أو أبطَئوا؛ لتحقيق سرعة الإمداد، لا لتحقيق أصلِه، أو لبيان تحقّقه على أيّ حال فُرِض على أبلَغ وجهٍ وآكَدِه بتعليقه بأبعدِ التقادير؛ ليُعلم تحقُّقُه على سائرها بالطريق[٥] الأَولى، فإنّ هجوم الأعداء وإتيانَهم بسرعةٍ مِن[٦] مظانّ عدمِ لُحوق المدَدِ عادةً، فعُلِّق به تحقّقُ الإمداد إيذانًا بأنّه حيث تحقّق مع ما ينافيه عادةً فلَأَنْ يتحقّق بدونه أولى وأحرى، كما إذا أردتَ وصفَ دِرع بغاية الحَصانة تقول: إن لبستَها وبارزتَ بها الأعداءَ فضربوك بأيدٍ شِدادٍ وسيوفٍ حِدادٍ لم تتأثّرْ منها قطعًا.

---

١ قرأ بها ابن عامر الشامي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٢.

٢ ط: التدريج.

٣ قراءتان شاذّتان، الأولى بكسر الزاي والتشديد مرويّة عن أبي نَهيك، والثانية بالكسر والتخفيف مرويّة عن الحسَن. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

٤ ي: وتحقيقًا.

٥ ي: بطريق.

٦ ي - مِن.

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ مِن التسويم الذي هو إظهارُ سيما الشيءِ، أي: مُعْلِمين أنفسَهم أو خيلَهم، فقد رُوي: أنّهم كانوا بعَمائمَ بيضٍ إلّا جبريلَ عليه السلام، فإنّه كان بعمامة صفراءَ على مثال الزبير ابنِ العوّام.[١] ورُوي: أنّهم كانوا على خيل بُلْقٍ.[٢] قال عروةُ بنُ الزبير: «كانت الملائكة على خيل بُلْق، عليهم عمائمُ بيضٌ، قد أرسلوها بين أكتافهم».[٣] وقال هشام بن عروة:[٤]
[١٠٨و] «عمائمُ / صُفر».[٥] وقال قتادة والضحّاك: «كانوا قد أُعْلِموا[٦] بالعِهْن في نواصي الخيلِ وأذنابِها».[٧] رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لأصحابه: «تسوَّموا فإنّ الملائكة قد تسوَّمت».[٨] وقُرئ: "مُسَوَّمِينَ" على البناء للمفعول،[٩] ومعناه: مُعْلَمِين مِن جهته سبحانه[١٠] وتعالى، وقيل: مرسَلين، مِن التسويم بمعنى الإسامة.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ كلام مبتدأ غيرُ داخلٍ في حيّز القول، مَسوقٌ مِن جنابه تعالى لبيان أنّ الأسباب الظاهرةَ بمَعزِل مِن التأثير، وأنّ حقيقة النصر مختصٌّ به عزّ وجلّ؛ ليثق به المؤمنون، ولا يقنَطوا منه عند فُقدان أسبابه وأماراتِه. معطوف

---

[١] اللباب لابن عادل، ٥/٥٢٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٣٥، وقال: «قاله ابن إسحاق والزجّاج».

[٢] انظر: المعجم الكبير للطبراني، ١/٣٠٨؛ (٩١٢). والبَلَقُ: سوادٌ وبياضٌ، وكذلك البُلْقة؛ بالضمّ، وفرسٌ أبلَق وفرسٌ بَلْقاء. الصحاح للجوهري، «بلق».

[٣] اللباب لابن عادل، ٥/٥٢٣. وأخرجه عبد الرزّاق في التفسير، ١/٤١١.

[٤] هو هشام بن عُروة بن الزبير بن العوّام القرشي الأسدي، أبو المنذر (ت. ١٤٦هـ/٧٦٣م). الإمام الثقة، شيخ الإسلام، تابعي مِن أئمّة الحديث. ومِن علماء المدينة، وُلد وعاش فيها. قال وُهيب: قدِم علينا هشام بن عروة، فكان مثل الحسَن وابن سيرين. وقال ابن سعد: كان ثقة، ثَبْتًا، كثير الحديث، حجّة. وقال أبو حاتم الرازي: ثقة، إمام في الحديث. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٦/٣٥؛ الأعلام للزركلي، ٨/٨٧.

[٥] اللباب لابن عادل، ٥/٥٢٣. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٦/٣٦.

[٦] ي: علموا.

[٧] اللباب لابن عادل، ٥/٥٢٣. وانظر: الدرّ المنثور للسيوطي، ٣/٧٥٨. والعِهن: الصوف. الصحاح للجوهري، «عهن».

[٨] جامع البيان للطبري، ٦/٣٤؛ مصنَّف ابن أبي شيبة، ٧/٣٥٤ (٣٦٦٦٨).

[٩] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٢.

[١٠] ي – سبحانه.

على فعل مقدّر ينسحبُ عليه الكلامُ ويستدعيه النظامُ، فإنّ الإخبار بوقوع النصر على الإطلاق وتذكيرَ[١] وقته وحكايةَ الوعد بوقوعه على وجه مخصوصٍ -هو[٢] الإمداد بالملائكة مرّةً بعد أخرى- وتعيينَ وقتِه فيما مضى يقضي بوقوعه حينئذ قضاءً قطعيًا، لكن لم يصرِّحْ به تعويلًا على تعاضُد الدلائل، وتآخُذ الأماراتِ والمخايل؛ إيذانًا بكمال الغِنى عنه، بل احترازًا عن شائبة التكرير، أو عن إيهام احتمالِ الخُلفِ في الوعد المحتوم، كأنّه قيل عَقيبَ قولِه تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾:[٣] فأمدَّكم بهم،[٤] وما جعله الله... إلخ.

والجَعل متعدٍّ إلى[٥] واحدٍ، هو الضمير العائد إلى مصدر ذلك الفعل المقدَّر. وأمّا عَوْده إلى المصدر المذكور -أعني: قولَه تعالى: ﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾[٦]- أو إلى المصدر المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾[٧] -كما قيل- فغيرُ حقيقٍ بجزالة التنزيل؛ لأنّ الهليّة[٨] البسيطة متقدِّمةٌ على المركَّبة؛ فبيان العلّةِ الغائيّةِ لوجود الإمداد كما هو المراد بالنظم الكريم حقُّه أن يكون بعد بيان وجودِه في نفسه، ولا ريب في أنّ المصدرَين المذكورين غيرُ معتبَرَين مِن حيث الوجودُ والوقوعُ كمصدر الفعل المقدّر حتّى يتصدّى لبيان أحكام وجودهما؛ بل الأوّل معتبَر مِن حيث الكفايةُ، والثاني مِن حيث الوعدُ، على أنّ الأوّل هو "الإمداد بثلاثة آلافٍ"، والواقع هو "الإمداد بخَمسة آلاف".

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ العِلل. وتلوين الخطاب لتشريف المؤمنين، وللإيذان بأنّهم المحتاجون إلى البِشارة وتسكينِ القلوب

١ س: وتذكر.

٢ ي: وهو.

٣ في الآية السابقة.

٤ وفي هامش ط س: عطفًا على ﴿نَصَرَكُمُ﴾ [آل عمران، ١٢٣/٣] بطريق التفسير. «منه».

٥ ي + مفعول.

٦ آل عمران، ١٢٤/٣.

٧ في الآية السابقة.

٨ في مطبوع: "الهيئة"، وهو تصحيف، والهليّة مصطلح منطقيّ مشتقّ مِن "هل" الاستفهاميّة، فـ"هل" قسمان: الأولى: بسيطة؛ وهي التي يطلب بها وجود الشيء، كقولنا: هل الحركة موجودة؟ والثانية: مركّبة؛ وهي التي يطلب بها وجود شيء لشيء، كقولنا: هل الحركة دائمة؟ انظر: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، ٤٤٠/١. ويعني بـ"الهليّة البسيطة" هنا: وجود الإمداد، وبـ"الهليّة المركّبة": العلّة الغائيّة لوجود الإمداد.

بتوفيق الأسباب الظاهرةِ، وأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غنيّ عنه بما له مِن التأييد الروحانيّ، أي: وما جعل إمدادَكم بإنزال الملائكةِ عِيانًا لشيء مِن الأشياء إلّا للبشرى لكم بأنّكم تُنْصَرون.

﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي: بالإمداد، وتسكُنَ إليه كما كانت السكينة لبني إسرائيلَ كذلك، فكلاهما عِلةٌ غائيّةٌ للجَعل، وقد نُصب الأوّل لاجتماع شرائطِه مِن اتّحاد الفاعل والزمان، وكونِه مصدرًا مَسوقًا للتّعليل، وبقيَ الثاني على حاله لفُقدانها. وقيل: للإشارة أيضًا إلى أصالته في العلِّيّة وأهميّتِه في نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل، ٨/١٦]. وفي قصر الإمداد عليهما إشعار بأنّ الملائكة عليهم السلام لم يباشِروا يومئذ القتالَ، وإنّما كان إمدادهم بتقوية قلوب المباشرين بتكثير السواد ونحوِه، كما هو رأي بعض السلفِ رحمهم الله.[1] وقيل: الجَعل متعدٍّ إلى اثنين، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ استثناء مِن أعمّ المفاعيل، أي: وما جعله الله تعالى شيئًا مِن الأشياء إلّا بِشارةً لكم، فاللام في قوله تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ متعلِّقة بمحذوف، تقديرُه: ولتطمئنّ قلوبُكم به فُعِل ذلك.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ أي: حقيقة النصر على الإطلاق، فيندرِجُ في حكمه النصرُ المعهودُ اندراجًا أوّليًا. ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: إلّا كائنٌ مِن عنده تعالى مِن غير أن يكون فيه شِرْكةٌ مِن جهة الأسباب والعُدَد. وإنّما هي مظاهر له بطريق جَرَيانِ سنّتِه تعالى. أو وما النصرُ المعهودُ إلّا مِن عنده تعالى لا مِن[2] عند الملائكة، فإنّهم بمَعزِل مِن التأثير، وإنّما قُصارى أمرِهم ما ذُكر مِن البِشارة وتقوية القلوب.

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: الذي لا يغالَبُ في حكمه وقضيّته. وإجراء هذا الوصف عليه تعالى للإشعار بعلّة اختصاص النصرِ به تعالى، كما أنّ وصفه تعالى بقوله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: الذي يفعل كلَّ ما يفعل حسبما يقتضيه الحِكمة والمصلحة؛

---

[1] ي - رحمهم الله.

[2] وفي هامش ط س ي: لم يوجد هذا العطف في كلام العرب العرباء، وإن كثُر في عبارات العلماء. «منه».

للإيذان بعِلّة جعْل النصر بإنزال الملائكة عليهم السلام، فإنّ ذلك مِن مقتَضيات الحِكَم البالغة.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾

﴿لِيَقْطَعَ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ﴾،[١] وما بينهما تحقيق لحقيقته، وبيان لكيفيّة وقوعه. والمقصور على التعليل بما ذُكر مِن البُشرى والاطمئنان إنّما هو الإمداد بالملائكة على الوجه المذكور، فلا يقدَح ذلك في تعليل أصلِ النصرِ بالقطع وما عُطف عليه، أو بما تعلّق به الخبرُ في قوله عزّ وعلا: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾،[٢] على تقدير كونه عبارةً عن النصر المعهود. وقد أُشير إلى أنّ المعلَّل بالبشارة والاطمئنانِ إنّما هو الإمداد الصوريُّ، لا ما في ضِمنه مِن النصر المعنويّ الذي هو مِلاكُ الأمر.

وأمّا تعلّقه بنفس النصرِ -كما قيل- فمع ما فيه مِن الفصل بين المصدر ومعمولِه بأجنبيّ هو الخبر مُخِلٌّ بسَداد المعنى. كيف لا، ومعناه: قصر النصر المخصوصِ المعلَّلِ بعِلل معيّنةٍ على الحصول مِن جهته تعالى؟ وليس المراد إلّا قصرَ حقيقة النصر أو النصرِ المعهودِ على ذلك. والمعنى:[٣] لقد نصركم الله يومئذ، أو[٤] وما النصرُ الظاهرُ عند إمداد الملائكة إلّا ثابتٌ مِن عند الله؛ ﴿لِيَقْطَعَ﴾ أي: يُهلِكَ ويَنْقُصَ ﴿طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: طائفة منهم بقتل وأسر. وقد وقع ذلك حيث قُتل مِن رؤسائهم وصناديدِهم سبعون، وأُسِر سبعون.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: يخزيَهم ويُغيظَهم بالهزيمة، فإنّ الكَبْت: شدّةُ غيظٍ أو وهنٍ يقع في القلب، مِن "كَبَتَه"، بمعنى: كَبَدَه إذا ضرب كَبِدَه بالغيظ والحُرقة. وقيل: الكَبْتُ: الإصابةُ بمكروه. وقيل: هو الصرعُ للوجه واليدين، فالتاء حينئذ غيرُ مُبدَلةٍ، و﴿أَوْ﴾ للتّنويع. ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ أي: فينهزموا منقطعي الآمالِ، غيرَ فائزين مِن / مبتغاهم بشيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ [الأحزاب، ٢٥/٣٣]. [١٠٨ظ]

---

١ آل عمران، ١٢٣/٣.

٢ في الآية السابقة.

٣ وفي هامش ط س ي: على الوجه الأوّل. «منه».

٤ وفي هامش ط س ي: على الوجه الثاني. «منه».

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٢٨﴾

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ اعتراض وُسِّط بين المعطوف عليه المتعلّقِ بالعاجل، والمعطوفِ المتعلّق بالآجل؛ لتحقيق أن لا تأثيرَ للمنصور إثرَ بيان أن لا تأثيرَ للناصرين، وتخصيصُ النفيِ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم على طريق تلوين الخطاب للدلالة على الانتفاء مِن غيره بالطريق الأَولى، وإنّما خُصّ الاعتراض بموقعه لأنّ ما قبله مِن القطع والكَبْتِ مِن مظانّ أن يكون فيه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولسائر مباشري القتالِ مدخَلٌ في الجملة.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾،[١] والمعنى: أنّ مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عزّ وجلّ،[٢] نصرَكم عليهم ليُهلِكَهم أو يكبتَهم، أو يتوبَ عليهم إن أسلموا، أو يعذِّبَهم إن أصرّوا، وليس لك مِن أمرهم شيءٌ، إنّما أنت عبدٌ مأمورٌ بإنذارهم وجهادهم. والمراد بتعذيبهم: التعذيب الشديد الأخرويّ المخصوص بأشدّ الكفَرة كُفرًا، وإلّا فمطلق التعذيب الأخرويّ متحقِّقٌ في الفريقين الأوّلين أيضًا. ونظمُ التوبة والتعذيبِ المذكورِ في سلك العلّة الغائيّةِ للنصر المترتّبةِ عليه في الوجود مِن حيث إنّ قَبول توبتِهم فرْعُ تحقُّقها الناشئ مِن علمهم بحقّيّة الإسلام بسبب غلَبة أهله المترتّبةِ على النصر، وأنّ تعذيبهم بالعذاب المذكورِ مترتّبٌ على إصرارهم على الكفر بعد تبيُّن الحقّ على الوجه المذكور.

هذا وقيل: إنّ عُتبة بنَ أبي وقّاصٍ[٣] شجّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ أُحُد وكسَرَ رَباعِيَتَه، فجعل عليه السلام[٤] يمسَح الدمَ عن وجهه، وسالمٌ مولى أبي حُذيفةَ[٥] يغسِلُ عن وجهه الدمَ، وهو يقول: كيف يُفلحُ قوم خضَبوا

---

١ في الآية السابقة.

٢ ي: تعالى.

٣ هو عُتبة بن أبي وقّاص بن أُهيب بن زُهرة القرشي الزهري، أخو سَعد. اختُلف في إسلامه، قال الحافظ ابن حجر: ليس في شيءٍ مِن الآثار ما يدلّ على إسلامه، بل فيها ما يصرّح بموته على الكفر، فلا معنى لإيراده في الصحابة. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٥٦٥/٣؛ والإصابة لابن حجر، ٣٨٤/٨.

٤ ي – السلام.

٥ هو سالم بن مَعقل، أبو عبد الله (ت. ١٢هـ/٦٣٣م) مولى أبي حذيفة بن عُتبة. كان مِن فُضلاء الصحابة والموالي وكبارهم. فارسيّ الأصل، أعتقته ثُبيتة زوج أبي حذيفة صغيرًا، وتبنّاه أبو حذيفة وزوّجه »

وجهَ نبيّهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربّهم؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية.[١] كأنّه نوعُ معاتبةٍ على إنكاره عليه السلام لفلاحهم.

وقيل: أراد أن يدعوَ عليهم، فنهاه الله تعالى؛ لعلمه بأنّ منهم مَن يؤمن،[٢] فقوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ حينئذ معطوف على ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ أو على ﴿شَيْءٌ﴾ بإضمار "أنْ"، أي: ليس لك مِن أمرهم أو مِن التوبة عليهم أو مِن تعذيبهم شيءٌ، أو ليس لك مِن أمرهم شيءٌ أو التوبةِ عليهم أو تعذيبِهم.

ونُقل عن الفرّاء وابنِ الأنباري:[٣] أنّ ﴿أَوْ﴾ بمعنى "إلّا أن"،[٤] والمعنى: ليس لك مِن أمرهم شيءٌ إلّا أن يتوب الله عليهم فتفرَحَ به، أو يعذّبَهم فتتشفّى منهم. وأيًّا ما كان فهو كلام مستأنَف سيق لبيان بعض الأمور المتعلِّقة بغزوة أُحُدٍ إثرَ بيان بعضِ ما يتعلّق بغزوة بدرٍ؛ لِما بينهما مِن التناسُب الظاهرِ؛ لأنّ كلًّا منهما مبنيٌّ على اختصاص الأمر كلِّه بالله تعالى، ومنبِئٌ عن سلبه عمّن سواه. وأمّا تعلّق كلّ القِصّةِ بغزوة أُحُد -على أنّ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾[٥] بدلٌ ثانٍ مِن ﴿إِذْ غَدَوْتَ﴾،[٦]

< ابنة أخ له. وهو مِن السابقين إلى الإسلام. كان يؤمّ المهاجرين الأوّلين قبل الهجرة في مسجد قُباء وفيهم أبو بكر وعمر. وفي الحديث: «خذوا القرآن مِن أربعة» فذكَره منهم. ويُروى أنّ عمر قال في الشورى: لو كان سالم حيًّا ما جعلتها شورى، أي: لاكتفى برأيه. شهد بدرًا، ثمّ كان معه لواء المهاجرين يوم اليمامة، فقُطعت يمينه، فأخذه بيساره فقُطعت، فاعتنقه إلى أن قُتل. وقد سبقه مولاه أبو حُذيفة، فأوصى أن يُدفن بجانبه. انظر: **أسد الغابة** لابن الأثير، ١٥٥/٢؛ **والإصابة** لابن حجر، ١٨٨/٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٧٣/٣.

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٤١٣/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٧/٢. وأصل الحديث في **صحيح مسلم**، ١٤١٧/٣ (١٧٩١)؛ **وصحيح البخاري**، ٩٩/٥ تعليقًا. وليس فيهما أنّ عُتبة بن أبي وقّاصٍ مَن شجّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

٢ **جامع البيان** للطبري، ٤٥/٦؛ **اللباب** لابن عادل، ٥٢٠/٥.

٣ هو محمّد بن القاسم بن محمّد بن بشّار الأنباري، أبو بكر (ت. ٣٢٨هـ/٩٤٠م). مِن أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومِن أكثر الناس حفظًا للشعر والأخبار. قيل: كان يحفظ ثلثمائة ألف بيت شاهد في القرآن. قال أبو عليّ التنوخي: كان ابن الأنباري يُملي مِن حفظه، ما أملى مِن دفتر قطّ. وُلد في الأنبار وتُوفّي ببغداد. مِن كتبه **الزاهر في اللغة، وشرح القصائد السبع الطوال، وإيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجلّ**، وأجلّ كُتبه **غريب الحديث**. انظر: **طبقات النحويّين واللغويّين** للزبيدي، ص ١٥٣؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٨٩/١١؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٣٤/٦.

٤ انظر: **معاني القرآن** للفرّاء، ٢٣٤/١؛ **واللباب** لابن عادل، ٥٣٠/٥.

٥ آل عمران، ١٢٤/٣.

٦ آل عمران، ١٢١/٣.

وأنّ ما حُكي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد وقع يومَ أُحُدٍ، وأنّ الإمداد الموعود كان مشروطًا بالصبر والتقوى، فلمّا لم يفعلوا لم يتحقّقِ الموعودُ كما قيل- فلا يساعده النظمُ الكريمُ:

أمّا أوّلًا: فلأنّ المشروط بالصبر والتقوى إنّما هو الإمداد بخمسة آلافٍ، لا بثلاثة آلافٍ، مع أنّه لم يقع الإمدادُ يومئذ ولا بمَلكٍ واحدٍ. وأمّا ثانيًا: فلأنّه كان ينبغي حينئذ أن ينعى عليهم جنايتَهم وحِرمانَهم بسببها تلكَ النعمةَ الجليلة، ودعوى ظهوره مع عدم دلالة السباق والسياقِ عليه -بل مع دلالتهما على خلافه- ممّا لا يكاد يُسمع. وأمّا ثالثًا: فلأنّه لا سبيل إلى جعل الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾... إلخ[1] إلى الإمداد الموعود؛ لأنّه لم يتحقّق، فكيف يبيّنُ علّتَه الغائيّةَ؟ ولا إلى الوعد به على معنى أنّه تعالى إنّما جعل ذلك الوعد لبِشارتكم واطمئنان قلوبكم، فلم تفعلوا ما شرَطَ عليكم مِن الصبر والتقوى، فلم يقع إنجازُ الموعود؛ لِما أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[2] صريحٌ في أنّه قد وقع الإمدادُ الموعودُ، لكنّ أثره إنّما هو مجرّد البِشارة والاطمئنان، وقد حصلا، وأمّا النصر الحقيقيّ فليس ذلك إلّا مِن عنده تعالى.

وجعلُه استئنافًا مقرّرًا لعدم وقوع الإمداد -على معنى أنّ النصر الموعود مخصوصٌ به تعالى، فلا ينصُر مَن خالف أمرَه بترك الصبر والتقوى- اعتسافٌ بيّنٌ يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله، على أنّ قوله تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفًا﴾ الآية[3] متعلّق حينئذ بما تعلّق به قولُه تعالى: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[4] مِن الثبوت والاستقرار ضرورةَ أنّ تعلُّقه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٍ﴾... الآية[5] مع كون ما بينهما مِن التفصيل متعلِّقًا بوقعة أُحُدٍ مِن قبيل الفَصل بين الشجر ولِحائِه، فلا بدّ مِن اعتبار وجود النصرِ قطعًا؛ لأنّ تفصيل الأحكام المترتّبةِ على وجود شيءٍ بصدد بيان انتفائِه ممّا لم يُعهد في كلام الناس فضلًا عن الكلام المَجيد.

---

١ آل عمران، ٣/١٢٦.

٢ آل عمران، ٣/١٢٦.

٣ الآية السابقة.

٤ آل عمران، ٣/١٢٦.

٥ آل عمران، ٣/١٢٣.

فالحقّ الذي لا مَحيدَ عنه أنّ قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَقُولُ﴾[١] ظرف لـ﴿نَصَرَكُمُ﴾،[٢] وأنّ ما حُكي في أثنائه إلى قوله تعالى: ﴿خَآئِبِينَ﴾[٣] متعلِّق بيومِ بدرٍ قطعًا، وما بعده محتمل للوجهين المذكورين. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ تعليل على كلّ حال لقوله تعالى: ﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾، مبيّن لكون ذلك مِن جهتهم وجزاء لظلمهم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كلام مستأنَف سيق لبيان اختصاص ملكوتِ كلّ الكائناتِ به عزّ وجلّ إثرَ بيان اختصاص طرَفٍ مِن ذلك به سبحانه تقريرًا لِما سبق وتكملةً له. وتقديم الجارّ للقصر، وكلمةُ ﴿مَا﴾ شاملة للعقلاء أيضًا تغليبًا، أي: له ما فيهما مِن الموجودات خَلقًا ومُلكًا، لا مدخَلَ فيه لأحد أصلًا، فله الأمر كلُّه. ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفرَ له مشيئةً مبنيّةً على الحِكَم والمصالح. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذِّبَه بعمله[٤] مشيئةً كذلك. وإيثار كلمة ﴿مَن﴾ في الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيبِ بالعقلاء، وتقديمُ المغفرة على التعذيب للإيذان بسَبق[٥] رحمته تعالى غضبَه، وبأنّها مِن مقتَضيات الذات دونه، فإنّه مِن مقتضيات سيّئات العُصاة، وهذا صريح في نفي وجوب التعذيبِ، والتقييدُ بالتوبة وعدمِها كالمنافي له.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ مع زيادة، وفي تخصيص التذييلِ به / دون قرينة مِن الاعتناء بشأن المغفرة والرحمةِ [١٠٩و]
ما لا يخفي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ كلام مبتدأ مشتمِل على ما هو مِلاك الأمر

---

١ آل عمران، ٣/١٢٤.
٢ آل عمران، ٣/١٢٣.
٣ في الآية السابقة.
٤ ي: بعلمه.
٥ ي: لسبق.

في كلّ باب، لاسيّما في باب الجهاد مِن التقوى والطاعة وما بعدهما مِن الأمور المذكورة على نهج الترغيب والترهيب، جيء به في تضاعيفِ القصّةِ مسارعةً إلى إرشاد المخاطَبين إلى ما فيه، وإيذانًا بكمال وجوب المحافظةِ عليه فيما هم فيه مِن الجهاد، فإنّ الأمور المذكورة فيه -مع كونها مناطًا للفوز في الدارين على الإطلاق- عُمدةٌ في أمر الجهاد، عليها يدورُ فلكُ النُّصرة والغلَبة، كيف لا ولو حافظوا على الصبر والتقوى وطاعةِ الرسول عليه السلام لَمَا لقُوا ما لقُوا، ولعلّ إيراد النهي عن[1] الرِّبا في أثنائها لِما أنّ الترغيب في الإنفاق في السرّاء والضرّاء الذي عُمدتُه الإنفاقُ في سبيل الجهاد متضمِّنٌ للترغيب في تحصيل المال، فكان[2] مظِنّةَ مبادرةِ الناسِ إلى طرق الاكتساب ومِن جملتها الربا، فنُهوا عن ذلك.

والمراد بأكله: أخذُه، وإنّما عُبّر عنه بالأكل لِما أنّه مُعظم ما يقصَد بالأخذ، ولشيوعه في المأكولات مع ما فيه مِن زيادة تشنيعٍ،[3] وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ ليس لتقييد النهي به؛ بل لمراعاة ما كانوا عليه مِن العادة توبيخًا لهم بذلك؛ إذ كان الرجل يُرْبي إلى أجلٍ، فإذا حلَّ قال للمَدين: زِدْني في المال حتّى أزيدك في الأجل، فيفعلُ، وهكذا عند محلّ كلِّ أجلٍ، فيستغرق بالشيء الطفيف مالَه بالكلّية. ومحلّه النصبُ على الحاليّة مِن ﴿ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾، وقُرئ: "مُضَعَّفَةً".[4] ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نُهيتم عنه مِن الأمور التي مِن جملتها الربا، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ راجين للفلاح.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝١٣١﴾

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالتحرّز عن متابعتهم، وتعاطي ما يتعاطَوْنه. كان أبو حنيفة رحمه الله يقول: «هي أخوفُ آيةٍ في القرآن»؛[5] حيث أوعدَ الله المؤمنين بالنار المُعَدَّة للكافرين إن لم يتّقوه في اجتناب محارمِه.

---

١ ي: مِن.
٢ ي: فكأنّه.
٣ ي: التشنيع.
٤ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.
٥ الكشّاف للزمخشري، ١/٤١٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٤١.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في كلّ ما أمركم به ونهاكم عنه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ الذي يبلّغكم أوامره ونواهيه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ راجين لرحمته. عقّب الوعيدَ بالوعد ترهيبًا عن المخالفة وترغيبًا في الطاعة، وإيرادُ "لَعَلّ" في الموضعين للإشعار بعِزّة منال الفلاحِ والرحمة. قال محمّد بنُ إسحاقَ: «هذه الآية معاتِبة للذين عصَوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين أمرهم بما أمرهم يومَ أحُد».[١]

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾

﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾ عطفٌ على ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾،[٢] وقُرئ بغير واو على وجه الاستئناف،[٣] أي: بادروا وأقبلوا، وقُرئ: "وَسَابِقُوا"[٤] ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ أي: إلى ما يؤدّي إليهما. وقيل: إلى الإسلام. وقيل: إلى التوبة. وقيل: إلى الإخلاص. وقيل: إلى الجهاد. وقيل: إلى أداء جميع الواجبات وتركِ جميع المنهيّات، فيدخُل فيها ما مرّ مِن الأمور المأمورِ بها والمنهيّ عنها دخولًا أوّليًّا. وتقديم المغفرة على الجنّة لِما أنّ التخلية متقدِّمة على التحلية، و﴿مِن﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً لـ﴿مَغْفِرَةٍ﴾، أي: كائنةٍ مِن ربّكم. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين لإظهار مزيدِ اللّطفِ بهم.

وقوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: كعرضهما؛ صفة لـ﴿جَنَّةٍ﴾،[٥] وتخصيصُ العَرْض بالذكر للمبالغة في وصفها بالسَّعة والبسطةِ على طريقة التمثيل، فإنّ العَرْض في العادة أدنى مِن الطول. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كسبع سماواتٍ وسبعِ أرضينَ لو وُصل بعضُها ببعض».[٦]

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في حيّز الجرّ على أنّه صفة أخرى لـ﴿جَنَّةٍ﴾، أو في محلّ النصب

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٢/٦.
٢ في الآية السابقة.
٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأبيّ رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.
٥ ي: الجنّة.
٦ الكشّاف للزمخشري، ٤١٥/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨/٢.

على الحاليّة منها؛ لتخصّصها بالصفة، أي: هُيِّئَتْ لهم. وفيه دليل على أنّ الجنّة مخلوقة الآن، وأنّها خارجة عن هذا العالَم.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ في محلّ الجرّ على أنّه نعت لـ"المتَّقين"[1] مادحٌ لهم، أو بدل منه، أو بيان، أو في حيّز النصب أو الرفعِ على المدح. ومفعول ﴿يُنفِقُونَ﴾ محذوف؛ ليتناول كلَّ ما يصلُح للإنفاق، أو متروك بالكلّيّة، كما في قولك: يُعطي ويمنَع.

﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ في حالتي الرخاء والشدّة، واليُسر والعُسر، أو في الأحوال كلّها؛ إذ الإنسان لا يخلو عن مَسَرّة أو مضَرّة، أي: لا يُخِلّون في حالٍ ما بإنفاق ما قدَروا عليه مِن قليل أو كثير.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ عطفٌ على الموصول، والعدول إلى صيغة الفاعل للدلالة على الاستمرار، وأمّا الإنفاق فحيث كان أمرًا متجدّدًا عبّر عنه بما يفيد الحدوثَ والتجدّد. والكَظم: الحبسُ، يقال: كَظَم غيظَه، أي: حبَسَه. قال المُبرِّد: «تأويله: أنّه كتَمه على امتلائه منه، يقال: كظمتُ السِّقاءَ إذا ملأتَه وشددتَ عليه. أي: المُمْسِكين عليه الكافّين عن إمضائه مع القُدرة عليه، وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن كظَم غيظًا وهو قادر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا».[2]

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾: أي: التاركين[3] عقوبةَ مَن استحقّ مؤاخذته. رُوي: «أنّه ينادي منادٍ يومَ القيامة: أين الذين كانت أجورُهم على الله تعالى؟ فلا يقوم إلّا مَن عفا».[4] وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ هؤلاءِ في أمّتي قليلٌ

---

[1] في الآية السابقة.

[2] سنن أبي داود، ١٥٨/٧ (٤٧٧٨)؛ جامع البيان للطبري، ٥٩/٦. وفي السنن عن معاذ بن أنس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «مَن كَظم غَيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله عزّ وجلّ على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يُخيّره مِن أيّ الحُور شاء». سنن أبي داود، ١٥٨/٧ (٤٧٧٨)؛ سنن الترمذي، ٦٥٦/٤ (٢٤٩٣).

[3] ي: تاركين.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٤١٥/١. وهو في شعب الإيمان للبيهقي، ١٣٣/٧ (٤٧٧٧)، عن أبي هريرة مرفوعًا وموقوفًا.

إلّا مَن عصَم الله، وقد كانوا كثيرًا في الأمم التي مَضت».[١]

وفي هذين الوصفين إشعار بكمال حُسنِ موقعِ عفوِه عليه السلام عن الرماة، وتركِ مؤاخذتهم بما فعلوا مِن مخالفة أمره عليه السلام،[٢] وندبٌ له عليه السلام إلى ترك ما عزَم عليه مِن مُجازاة المشركين بما فعلوا بحمزةَ رضي الله عنه حيث قال حين رآه قد مُثِّل به: «لأمثّلنّ بسبعين مكانك».[٣]

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ اللام إمّا للجنس، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًّا، وإمّا للعهد، عُبّر عنهم بـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إيذانًا بأنّ النعوت المعدودة مِن باب الإحسان الذي هو: الإتيان بالأعمال على الوجه اللّائق الذي هو حُسنها الوصفيُّ المستلزِمُ لحُسنها الذاتيّ، وقد فسّره صلّى الله تعالى[٤] عليه وسلّم بقوله: «أن تعبدَ الله كأنّك / تَراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يَراك».[٥] والجملة[٦] تذييل مقرِّر لمضمون ما قبلها. [١٠٩ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مرفوع على الابتداء. وقيل: مجرور معطوف على ما قبله مِن صفات المتّقين، وقوله تعالى:[٧] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٨] اعتراض بينهما مشير إلى ما بينهما مِن التفاوت؛ فإنّ درجة الأوّلين مِن التقوى أعلى مِن درجة هؤلاء، وحظُّهم أوفى مِن حظّهم. أو على نفس المتّقين، فيكونُ التفاوت أكثرَ وأظهرَ.

﴿إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ أي: فعلةً بالغةً في القُبح كالزنا. ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أتَوا ذنبًا أيّ ذنبٍ كان. وقيل: "الفاحشة": الكبيرة، و"ظلمُ النفسِ": الصغيرة. أو "الفاحشة": ما يتعدّى إلى الغير، و"ظلمُ النفس": ما ليس كذلك.

---

١ تفسير ابن أبي حاتم، ٧٦٣/٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٧/٣.
٢ ط: عليه الصلاة والسلام.
٣ المستدرك للحاكم، ٢١٨/٣ (٤٨٩٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٩١/٣ (النحل، ١٢٦/١٦).
٤ س ي – تعالى.
٥ صحيح البخاري، ١٩/١ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ٣٦/١ (٨).
٦ ي: الجملة.
٧ ط – تعالى.
٨ في الآية السابقة.

قيل: قال المؤمنون: «يا رسولَ الله؛ كانت بنو إسرائيلَ أكرمَ على الله تعالى منّا؛ كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفّارةُ ذنبِه مكتوبةً في عَتَبة داره: افعلْ كذا»، فأنزل الله تعالى[١] هذه الآيةَ.[٢]

وقيل: إنّ نبهانَ التمّار[٣] أتته امرأةٌ حسناءُ تطلُب منه تمرًا، فقال لها: «هذا التمر ليس بجيّد، وفي البيت أجودُ منه»، فذهب بها إلى بيته فضمّها إلى نفسه وقبّلها، فقالت له: «اتّق الله»، فتركها وندِم على ذلك، وأتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وذكر له ذلك، فنزلت.[٤]

وقيل: جرى مثلُ هذا بين أنصاري وامرأةِ ثقفي كان بينهما مؤاخاةٌ، فندِم الأنصاري، وحَثا على رأسه الترابَ، وهامَ على وجهه، وجعل يَسيح في الجبال تائبًا مستغفِرًا، ثمّ أتى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت.[٥]

وأيًّا ما كان فإطلاق اللفظ ينتظم ما فعله الرماة انتظامًا أوّليًّا.

﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ تذكّروا حقَّه العظيمَ، وجلالَه الموجِب للخشية والحياء، أو وعيدَه، أو حُكمَه وعقابَه. ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالتوبة والندم. والفاء للدلالة على أنّ ذكره تعالى مستتبع للاستغفار لا محالة.

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ استفهام إنكاريّ. والمراد بـ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾: جنسُها، كما في قولك: فلان يلبَس الثياب ويركب الخيل، لا كلُّها حتّى يُخِلّ بما هو المقصود مِن استحالة صدور مغفرةِ فردٍ منها عن[٦] غيره تعالى. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ بدل مِن الضمير المستكنّ في ﴿يَغْفِرُ﴾، أي: لا يغفرُ جنس الذنوب أحد إلّا الله، خلا أنّ دلالة الاستفهام عن الانتفاء أقوى وأبلغُ؛ لإيذانه بأنّ كلّ أحدٍ ممّن له حظٌّ مِن الخطاب يعرِف ذلك الانتفاء، فيسارع إلى الجواب به.[٧] والمراد به: وصفُه

---

١ ي – تعالى.

٢ جامع البيان للطبري، ٦٢/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٨/٣.

٣ ذكره المترجمون ولم يزيدوا في ترجمته عن ذكر هذه القصّة وبيان ضعفها. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٥٣٣/٤؛ والإصابة لابن حجر، ٤٦/١١.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٨/٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٩٣/١.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٨/٣؛ اللباب لابن عادل، ٥٤٣/٥.

٦ ي: مِن.

٧ ي – به.

سبحانه بغاية سَعة الرحمة وعمومِ المغفرة. والجملة معترضة بين المعطوفين، أو بين الحال وصاحبِها؛ لتقرير الاستغفار والحثّ عليه، والإشعارِ بالوعد بالقَبول.

﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾ عطفٌ على ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾، وتأخيره عنه مع تقدّم عدم الإصرار على الاستغفار رتبةً؛ لإظهار الاعتناء بشأن الاستغفار واستحقاقِه للمسارعة إليه عَقيبَ ذكره تعالى. أو حال مِن فاعله، أي: ولم يُقيموا، أو غيرَ مقيمين ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ أي: ما فعلوه مِن الذنوب فاحشةً كانت أو ظلمًا، أو على فعلهم.

رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه: «ما أصرّ مَن استغفر، وإن عاد في اليوم سَبعين[١] مرّةً».[٢] وأنّه: «لا كبيرةَ مع الاستغفار، ولا صغيرةَ مع الإصرار».[٣]

﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُصِرُّواْ﴾، أي: لم يُصرّوا على ما فعلوا وهم عالمون بقُبحه وبالنهيِ عنه والوعيدِ عليه. والتقييد بذلك لِما أنّه قد يُعذَر مَن لا يعلم ذلك إذا لم يكن عن تقصيرٍ في تحصيل العِلم به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين آخِرًا باعتبار اتّصافهم بما مرَّ مِن الصفات الحميدة، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببعد منزلتهم، وعلوِّ طبقتِهم في الفضل. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُم﴾ بدلُ اشتمالٍ منه، وقوله تعالى: ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ خبر له. أو ﴿جَزَآؤُهُم﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ خبره، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وهذه الجملة خبر لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ﴾... إلخ[٤] على الوجه الأوّل،[٥] وهو الأظهر الأنسبُ بنظم المغفرة المنبئة عن سابقة الذنبِ في سلك الجزاء؛

---

١ ي - سبعين.

٢ سنن أبي داود، ٢/٦٢٥ (١٥١٤)؛ سنن الترمذي، ٥/٥٥٨ (٣٥٥٩).

٣ الكشّاف للزمخشري، ١/٤١٦. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٦/٦٥١، عن ابن عبّاس موقوفًا؛ والقضاعي في مسند الشهاب، ٢/٤٤ (٨٥٣)، عن ابن عبّاس مرفوعًا.

٤ في الآية السابقة.

٥ وفي هامش ط س ي: وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ﴾... إلخ مرفوعَ المحلّ على الابتداء. «منه».

إذ على الوجهين الأخيرين[١] يكون قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾... إلخ جملةً مستأنَفةً مبيّنةً لِما قبلها، كاشفةً عن حال كلا الفريقين المحسنَين والتائبَين،[٢] ولم يُذكَر مِن أوصاف الأوّلين ما فيه شائبةُ الذنبِ حتّى يُذكَرَ في مطلَع الجزاء الشاملِ لهما المغفرةُ. وتخصيص الإشارة[٣] بالآخِرين -مع اشتراكهما في حكم إعدادِ الجنّةِ لهما- تعسُّفٌ ظاهر.

﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ متعلّق بمحذوف وقع صفةً لـ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مؤكّدةً لِما أفادها التنوين مِن الفخامة الذاتيّةِ بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٌ مِن جهته تعالى. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلّة الحُكمِ والتشريفِ.

﴿وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ عطفٌ على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، والتنكير المُشعِر بكونها أدنى مِن الجنّة السابقة ممّا يؤيّد رُجحانَ الوجه الأوّل.[٤] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدّرة مِن الضمير في ﴿جَزَآؤُهُم﴾؛ لأنّه مفعول به في المعنى؛ لأنّه في قوّة "يجزيهم الله جنّات خالدين فيها"، ولا مَساغَ لأن يكون حالًا مِن ﴿جَنَّٰتٌ﴾ في اللّفظ وهي لأصحابها في المعنى؛ إذ لو كان كذلك لبرَز الضمير.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ المخصوص بالمدح محذوف، أي: ونِعم أجرُ العاملين ذلك، أي: ما ذُكر مِن المغفرة والجنّات. والتعبير عنهما بالأجر المشعر بأنّهما تُستحقّان بمقابلة العمل، وإن كان بطريق التفضّل؛ لمزيد الترغيب في الطاعات والزجرِ عن المعاصي. والجملة تذييل مختصٌّ بالتائبين حسبَ اختصاص التذييل السابقِ بالأوّلين، وناهيك مضمونُهما دليلًا على ما بين الفريقين مِن التفاوت النيّر، والتبايُنِ البيّن. شتّانَ بين المحسنين الفائزين بمحبّة الله عزّ وجلّ، وبين العاملين الحائزين لأُجرتهم وعمالتِهم.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ رجوع إلى تفصيل بقيّة القصّةِ بعد تمهيد مبادي الرشدِ والصلاح، وترتيبِ مقدّماتِ الفوز / والفلاح. و"الخلوّ": المُضِيُّ، و"السُّنن": [١١٠و]

[١] وفي هامش ط س ي: وهما كونه مجرورًا معطوفًا على صفات المتّقين، أو على نفسه. «منه».

[٢] وفي هامش ي: تعليل لأظهريّة الوجه الأوّل. «منه».

[٣] وفي هامش س ي: في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. «منه».

[٤] وفي هامش ط ي: هو كون ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مرفوعًا على الابتداء. «منه».

الوقائعُ، وقيل: الأممُ. والظرف إمّا متعلِّق بـ﴿خَلَتْ﴾، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿سُنَنٌ﴾، أي: قد مضت مِن قبل زمانكم أو كائنةً مِن قبلكم وقائعُ سنّها الله تعالى في الأمم المكذِّبة، كما في قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾... إلخ [الأحزاب، ٣٣/٦١-٦٢].

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ للدلالة على سببيّة خلوّها للسير والنظر، أو للأمر بهما. وقيل:[٢] المعنى على الشَّرط: أي: إن شككتم فسيروا... إلخ. و﴿كَيۡفَ﴾ خبر مقدَّم لـ﴿كَانَ﴾، معلِّق لِفعل النظر، والجملة في محلّ النصب بعد نزع الخافضِ؛ لأنّ الأصل استعماله بالجارّ.

﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما سلَف مِن قوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ إلى آخره.[٣]

﴿بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ أي: تبيين لهم، على أنّ اللام متعلِّقة بالمصدر. أو كائن لهم، على أنّها متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً له. وتعريف "الناس" للعهد، وهم "المكذِّبون"، أي: هذا إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه مِن التكذيب، فإنّ الأمر بالسير والنظر وإن كان خاصًّا بالمؤمنين، لكنّ العمل بموجبه غيرُ مختصٍّ بواحدٍ دون واحدٍ، ففيه حملٌ للمكذّبين أيضًا على أن ينظُروا في عواقب مَن قبلَهم مِن أهل التكذيب، ويعتبروا بما يعاينون مِن آثار دَمارهم، وإن لم يكن الكلام مَسوقًا لهم.

﴿وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ﴾: أي: وزيادة بصيرةٍ وموعظةٍ لكم. وإنّما قيل: ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ للإيذان بعلّة الحُكم؛ فإنّ مدار كونِه هدًى وموعظةً لهم إنّما هو تقواهم. ويجوز أن يُراد بـ"المتّقين": الصائرون إلى التقوى، و"الهدى" و"الموعظة" على ظاهرهما، أي: هذا بيان لمآل أمر الناسِ وسوءِ مَغبّتِه، وهدايةٌ لمَن اتّقى منهم، وزجرٌ لهم عمّا هم عليه مِن التكذيب. وأن يُراد به ما يعُمّهم وغيرَهم مِن المتّقين بالفعل، ويُرادَ بالهدى والموعظةِ أيضًا: ما يعُمّ ابتداءَهما والزيادةَ فيهما.

---

[١] ي: تعالى.
[٢] وفي هامش س ي: أبو البقاء. «منه». | الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣/٤٠٠.
[٣] في الآية السابقة.

وإنّما قُدّم كونه "بيانًا للمكذّبين" -مع أنّه غيرُ مَسوق له- على كونه "هدًى وموعظةً للمتّقين" -مع أنّه المقصودُ بالسياق- لأنّ أوّل ما يترتّب على مشاهدة آثار هلاك أسلافِهم ظهورُ حالِ أخلافهم. وأمّا زيادة الهدى أو أصلُه فأمرٌ مترتّبٌ عليه. وتخصيص البيان بالناس مع شموله للمتّقين أيضًا لِما أنّ المراد به مجرّد البيان العاري عن الهدى والعِظةِ. والاقتصار عليهما في جانب المتّقين مع ترتّبهما على البيان لِما أنّهما المَقصِدُ الأصليّ. ويجوز أن يكون تعريفُ[1] "الناس" للجنس، أي: هذا بيان للناس كافّةً، وهدًى وموعظةٌ للمتّقين منهم خاصّة.

وقيل: كلمةُ ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما لُخِّص مِن أمر المتّقين والتائبين والمُصِرّين، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ الآية[2] اعتراض للبعث على الإيمان وما يُستحَقّ به ما ذُكر مِن أجر العاملين. وأنت خبير بأنّ الاعتراض لا بدّ أن يكون مقرّرًا لمَضمون ما وقع في خلاله، ومعاينةُ آثار هلاك المكذّبين ممّا لا تعلّقَ له بحال أحد الأصناف الثلاثة للمؤمنين، وإن كان باعثًا على الإيمان، زاجرًا عن التكذيب. وقيل: إشارة إلى القرآن،[3] ولا يخفي بُعده.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾: تشجيع للمؤمنين، وتقوية لقلوبهم، وتسلية عمّا أصابهم يوم أُحُدٍ مِن القتل والقَرحِ. وكان قد قُتل يومئذ خمسةٌ مِن المهاجرين: حمزةُ بنُ عبدِ المطّلب رضي الله عنه، ومصعبُ بنُ عُميرٍ صاحبُ رايةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وعبدُ الله بنُ جحشٍ[4] ابنُ عمّةِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،

---

[1] ي: التعريف.

[2] الآية السابقة.

[3] ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٣٩/٢.

[4] هو عبد الله بن جحش بن رياب بن يعمر الأسدي (ت. ٣هـ/٦٢٥م). صحابيّ قديم الإسلام. هاجر إلى بلاد الحبشة، ثمّ إلى المدينة. وشهد بدرًا، وكان مِن أمراء السرايا. وهو صِهر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخو زينب أمّ المؤمنين. استشهد يوم أحد، فدُفن هو وحمزة رضي الله عنهما في قَبر واحد. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٨٧٧/٣؛ والإصابة لابن حجر، ٥٧/٦؛ والأعلام للزركلي، ٧٦/٤.

وعثمانُ بنُ شمّاس[١] وسعدٌ مولى عُتبةَ[٢] رضي الله عنهم، ومِن الأنصار سبعون رجلًا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.[٣] أي: لا تضعُفوا عن الجهاد بما نالكم مِن الجراح ولا تحزَنوا على مَنْ قتل منكم.

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾: جملة حاليّة مِن فاعل الفعلين، أي: والحالُ أنّكم الأعلَوْن الغالبون دون عدوّكم، فإنّ مصير أمرهم إلى الدَّمار حسبما شاهدتم مِن أحوال أسلافهم، فهو تصريح بالوعد بالنَّصر والغلبة بعد الإشعار به فيما سبق. أو وأنتم المعهودون بغاية علوّ الشَّأن، لِما أنّكم على الحقّ، وقتالُكم لله عزّ وجلّ، وقَتْلاكم في الجنّة، وهم على الباطل، وقِتالُهم للشيطان، وقَتْلاهم في النار. وقيل: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ حالًا منهم، حيث أصبتم منهم يومَ بدرٍ أكثرَ ممّا أصابوا منكم اليوم.

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ متعلِّق بالنهي، أو بـ﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، وجوابه محذوف؛ لدلالة ما تعلَّق به عليه، أي: إن كنتم مؤمنين فلا تهِنوا ولا تحزَنوا، فإنّ الإيمان يوجب قوّة القلب، والثقةَ بصنع الله تعالى، وعدمَ المبالاة بأعدائه. أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلَوْن، فإنّ الإيمان يقتضي العلوّ لا محالةَ. أو إن كنتم مصدّقين بوعد الله تعالى فأنتم الأعلَوْن. وأيًّا ما كان فالمقصود تحقيقُ المعلَّق بناء على تحقّق المعلَّق به، كما في قول الأجير: إن كنتُ عمِلتُ لك فأعطني أجري، ولذلك قيل: معناه: إذ كنتم مؤمنين. وقيل: معناه: إن بقِيتم على الإيمان.

---

١ هو عثمان بن شمّاس بن الشريد المخزومي. ذكره ابن إسحاق فيمَن هاجر إلى المدينة مع مصعب بن عمير. وقال الزبير بن بكّار: استشهد بأُحد. قال الحافظ ابن حجر بعد ترجمته لعثمان بن شمّاس: «وقد تقدّم في حرف الشين شمّاس بن عثمان، فأنا أخشى أن يكون هذا انقلب، ثمّ وجدتُ أبا نُعيم جنَح إلى ذلك ونسب الوهم فيه إلى ابن مَنْدَه». انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٥٧٢/٣؛ والإصابة لابن حجر، ٩٤/٧.

٢ هو سعد مولى عُتبة بن غزوان. قيل: إنّه شهد بدرًا مع مولاه. ورُوِي عن ابن عبّاس أنّه ممّن نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام، ٥٢/٦]. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٤٤٦/٢؛ والإصابة لابن حجر، ٣١٧/٤.

٣ ط - أجمعين؛ س: رضي الله عنهم. | الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٢/٣. وفي تفسير ابن أبي حاتم، ٧٧٤/٤، عن أبي الضُّحى: «قُتل منهم يومئذ سبعون، منهم أربعة مِن المهاجرين... وسائرهم مِن الأنصار». ولم يذكر عثمانَ بن شمّاس، وسعدًا مولى عُتبة، وذكر الشمّاس بن عثمان المخزومي.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ "القُرحُ" بالفتح والضمّ لغتان، كالضَّعف والضُّعف، وقد قُرئ بهما.[1] وقيل: هو بالفتح: الجِراحُ، وبالضمّ: ألَمُها. وقُرئ بفتحتين.[2] وقيل: القَرْح والقَرَح كالطَّرْد والطَّرَد.[3] والمعنى: إن نالوا منكم يومَ أُحُدٍ فقد نِلتم منهم قبلَه يومَ بدرٍ، ثمّ لم يُضْعِف ذلك قلوبهم، ولم يُثبِّطْهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أحقّ بأن لا تضعُفوا، فإنّكم ترجون مِن الله ما لا يرجون. وقيل: كلا المَسَّينِ كان يوم أُحُد فإنّ المسلمين نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قَتلوا منهم نيّفًا وعشرين رجلًا، منهم صاحبُ لوائهم، وجرحوا عددًا كثيرًا، وعقَروا عامّة خيلِهم بالنَّبْل.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ﴾ إشارة إلى الأيّام الجارية فيما بين الأمم الماضيةِ والآتيةِ كافّةً، لا إلى الأيّام المعهودة خاصّةً مِن يوم بدرٍ ويومِ أُحُدٍ؛ بل / هي داخلة فيها [١١٠ظ] دخولًا أوّليًا، والمراد بها: أوقاتُ الظَّفَر والغَلَبة. ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: نُصَرِّفها بينهم، نُديلُ لهؤلاء تارةً، ولهؤلاء أخرى، كقول مَن قال:

فيَومًا علينا ويَومًا لنا ويَومًا نُساءُ ويومًا نُسَرّ[4]

و"المُداولة" كالمُعاورة، يقال: داولتُه بينهم فتداولوه، أي: عاورْتُه فتعاوروه. واسم الإشارة مبتدأ، و﴿ٱلْأَيَّامُ﴾ إمّا صفة له، أو بدل منه، أو عطف بيانٍ له، فـ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ خبرُه، أو خبر، فـ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ حال مِن ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾، والعاملُ معنى اسم الإشارة. أو خبر بعد خبرٍ. وصيغة المضارع الدالّةُ على التجدّد والاستمرار للإيذان بأنّ تلك المداولة سنّةٌ مسلوكةٌ فيما بين الأمم قاطبةً سابقتِها ولاحقتِها.

---

[1] قرأ بالضمّ حمزة والكسائي وخلف وشعبة، وقرأ بالفتح باقي القرّاء العشر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

[3] الكشّاف للزمخشري، ١/٤١٨؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٣٥٤. والطَّرْد والطَّرَد: الإبعاد. الصحاح للجوهري، «بعد».

[4] وفي هامش ي: أي: يومًا يكون الأمر علينا ويومًا لنا. «منه». | للنمر بن تولب. انظر: نهاية الأرب للنويري، ٣/٦٧.

وفيه ضرب مِن التسلية.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إمّا مِن باب التمثيل، أي: ليعامِلكم معاملةَ مَن يريد أن يَعلم المخلِصين الثابتين على الإيمان مِن غيرهم، أو العلمُ فيه مجاز عن التمييز بطريق إطلاق اسم السبَبِ على المسبَّب، أي: ليُميِّز الثابتين على الإيمان مِن غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران، ١٧٩/٣]. أو هو على حقيقته معتبَرٌ مِن حيث تعلّقُه بالمعلوم مِن حيث إنّه موجودٌ بالفعل؛ إذ هو الذي يدور عليه فلك الجزاء، لا مِن حيث إنّه موجود بالقوّة.

وإطلاق الإيمان مع أنّ المراد هو الرسوخ والإخلاصُ فيه للإيذان بأنّ اسم الإيمان لا ينطلق على غيره. والالتفات إلى الغَيبة بإسناده إلى اسم الذات المستجمِعِ للصفات لتربية المهابة والإشعارِ بأنّ صدور كلّ واحدٍ ممّا ذكر بصدد التعليل مِن أفعاله تعالى باعتبار منشأ معيّنٍ مِن صفاته تعالى مغايرٌ لمنشأ الآخَر. والجملة علّة لِما هو فرد مِن أفراد مُطلَق المداولة التي نطقَ بها قوله تعالى: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ مِن المداولة المعهودةِ الجاريةِ بين فريقَي المؤمنين والكافرين. واللام متعلِّقة بما دلّ عليه المطلَق مِن الفعل المقيَّدِ بالوقوع بين الفريقين المذكورين، أو بنفس الفعل المطلَقِ باعتبار وقوعه بينهما.

والجملة معطوفة على علّة أخرى لها معتبرةٍ إمّا على الخصوص والتعيين، محذوفةٍ لدلالة المذكورةِ عليها لكونها مِن مباديها، كأنّه قيل: نداولها بينكم وبين عدوِّكم ليظهرَ أمرُكم وليَعلَمَ... إلخ، فإنّ ظهور أعمالهم وخروجَها مِن القوّة إلى الفعل مِن مبادي تمييزهم عن غيرهم ومواجبِ تعلّق العلم الأزليّ بها مِن تلك الحيثيّة، وكذا الحال في باب التمثيل، فتأمّلْ. وإمّا[١] على العموم والإبهامِ؛ للتنبيه على أنّ العلل غيرُ منحصِرة فيما عدّد مِن الأمور، وأنّ العبد يسوءه ما يجري عليه مِن النوائب، ولا يشعُر[٢] بأنّ لله تعالى في ذلك مِن الألطاف الخفيّة

---

[١] السياق: إمّا على الخصوص والتعيين... وإمّا على العموم والإبهام...

[٢] ي: يشعره.

ما لا يخطرُ بالبال. كأنّه قيل: نداولُها بينكم ليكونَ مِن المصالح كيت وكيت، وليَعلَمَ... إلخ. وفيه مِن تأكيد التسلية ومزيدِ التبصِرة ما لا يخفى.

وتخصيص البيان بعلّة هذا الفردِ مِن مطلق المداولةِ دون سائر أفرادِها الجاريةِ فيما بين بقيّة الأممِ -تعيينًا أو إبهامًا- لعدَم تعلُّق الغرض العلميّ إجمالًا ببيانها. ولك أن تجعل المحذوفَ المبْهَمَ عبارةً عن علل سائر أفرادها؛ للإشارة إجمالًا[١] إلى أنّ كلّ فردٍ مِن أفرادها له علّة داعية إليه، كأنّه قيل: نداولها بين الناس كافّةً؛ ليكونَ كيت وكيت مِن الحِكم الداعية إلى تلك الأفراد، وليَعلمَ... إلخ، فاللام الأولى متعلِّقة بالفعل المطلق باعتبار تقيّدِه بتلك الأفراد، والثانيةُ باعتبار تقيّدِه بالفرد المعهود. وقيل: هي متعلِّقة بمحذوفٍ مؤخَّرٍ تقديرُه: وليعلَمَ الله الذين آمنوا فَعَل ذلك.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ جمعُ "شهيدٍ"، أي: ويُكرِمَ ناسًا منكم بالشهادة، وهم شهداء أُحُدٍ. فـ"مِن" ابتدائيّة أو تبعيضيّة، متعلِّقةٌ بـ﴿يَتَّخِذَ﴾، أو بمحذوف وقعَ حالًا مِن ﴿شُهَدَآءَ﴾. أو جمعُ "شاهدٍ"، أي: ويتّخذ منكم شهودًا معدَّلين بما ظهر[٢] منهم مِن الثبات على الحقّ والصبرِ على الشدائد وغيرِ ذلك مِن شواهد الصدق؛ ليشهدوا على الأمم يومَ القيامة. فـ"مِن" بيانيّة؛ لأنّ تلك الشهادة وظيفةُ الكلّ دون المستشهَدين فقط. وأيًّا ما كان ففي لفظ الاتّخاذ المُنْبئ عن الاصطفاء والتقريبِ مِن تشريفهم وتفخيمِ شأنِهم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله. ونفيُ المحبّة كنايةٌ عن البغض. وفي إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبّته تعالى لمقابليهم. والمراد بهم إمّا غير الثابتين على الإيمان، فالتقرير مِن حيث إنّ بُغضه تعالى لهم[٣] مِن دواعي إخراج المخلِصينَ المصطَفَينَ للشّهادة مِن بينهم، وإمّا الكفَرةُ الذين أُديل لهم. فالتقرير مِن حيث إنّ ذلك ليس بطريق النُّصرة لهم، فإنّها مختصّة بأوليائه تعالى؛ بل لِما ذُكر مِن الفوائد العائدة إلى المؤمنين.

---

١ ط س: إجمالا.
٢ ي: أظهر.
٣ ي - لهم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: ليُصَفِّيَهم ويُطهِّرَهم عن الذنوب. عطفٌ على ﴿يَتَّخِذَ﴾، وتكريرُ اللامِ لتذكير التعليل؛ لوقوع الفصل بينهما بالاعتراض. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقع الإضمارِ لإبراز مزيد الاعتناء بشأن التمحيصِ. وهذه الأمور الثلاثة عِللٌ للمداولة المعهودة باعتبار كونها على المؤمنين، قُدِّمت في الذكر لأنّها المحتاجة إلى البيان.

ولعلّ تأخيرَ العلّةِ الأخيرةِ عن الاعتراض لئلّا يُتوَهَّمَ اندراجُ المذنبين في الظالمين. أو ليقترِنَ بقوله عزّ وعلا: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فإنّ التمحيصَ فيه محوُ الآثار وإزالةُ الأوضار، كما أنّ المَحْق عبارةٌ عن النقص والإذهاب. قال المفضّلُ: «هو أن يذهبَ الشيءُ بالكلّية حتّى لا يُرى منه شيءٌ».[١] ومنه قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي﴾ [البقرة، ٢/٢٧٦]، أي: يستأصله، وهذه علّة للمداولة باعتبار كونها على الكافرين. والمراد بهم: الذين حاربوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ أحُدٍ، وأصرّوا على الكفر، وقد محَقَهم الله عزّ وجلّ جميعًا.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ كلام مستأنَف سيق لبيان / ما هي الغاية القصوى مِن المُداولة [١١١و]
والنتيجةُ لِما ذُكر مِن تمييز المخلِصين وتمحيصِهم واتّخاذِ الشهداء وإظهارِ عزّة منالها. والخطاب للذين انهزموا يوم أُحُدٍ. و﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ، وما فيها مِن كلمة "بل" للإضراب عن التسلية ببيان العلل فيما لقُوا مِن الشدّة إلى تحقيق أنّها مِن مبادي الفوز بالمطلب الأسنى. والهمزة للإنكار والاستبعاد، أي: بل أحسِبتم ﴿أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ وتفوزوا بنعيمها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ حال مِن ضمير تدخُلوا، مؤكِّدةٌ للإنكار، فإنّ رجاء الأجر بغير عملٍ ممّن يعلم أنّه منوط به مستبعَدٌ عند العقول. وعدم العلم كنايةٌ عن عدم المعلوم؛ لِما بينهما مِن اللّزوم المبنيّ

---

[١] التفسير البسيط للواحدي، ٢٩/٦.

على لزوم تحقّقِ الأوّل لتحقّق الثاني ضرورةَ استحالة تحقّقِ شيءٍ بدون علمه تعالى به. وإيثارُها على التصريح للمُبالغة في تحقيق المعنى المرادِ، فإنّها إثبات لعدم جهادهم بالبرهان، وللإيذان بأنّ مدار ترتّب الجزاءِ على الأعمال إنّما هو علمُ الله تعالى بها، كأنّه قيل: والحال أنّه لم يوجَد الذين جاهدوا منكم.

وإنّما وجِّه النفيُ إلى الموصوفين مع أنّ المنفيّ هو الوصف فقط، وكان يكفي أن يقال: ولمّا يعلمِ الله جهادَكم كنايةً عن معنى: "ولمّا تجاهدوا"؛ للمبالغة في بيان انتفاء الوصف وعدمِ تحقّقه أصلًا. وفي كلمة ﴿لَمَّا﴾ إيذان بأنّ الجهاد متوقَّع منهم فيما يُستقبل إلّا أنّه غيرُ معتبَرٍ في تأكيد الإنكار، وقُرئ: "يَعْلَمَ" بفتح الميم[1] على أنّ أصله "يَعلَمَن"، فحُذفت النون، أو على طريقة إتْباع الميمِ لِما قبلها في الحركة؛ لإبقاء تفخيم اسمِ الله تعالى. و﴿مِنكُمْ﴾ حال مِن ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ منصوب بإضمار "أن"، على أنّ الواو للجمع، كما في قولك: لا تأكُلِ السمكَ وتشرَبَ اللَّبن، أي: لا يكن منك أكلُ السمك وشربُ اللَّبن. والمعنى: أم حسبتم أن تدخُلوا الجنّة والحالُ أنّه لم يتحقّق منكم الجهاد والصبرُ، أي: الجمعُ بينهما. وإيثار اسم الفاعل على الموصول للدّلالة على أنّ المعتَبَر هو الاستمرار على الصبر، وللمحافظة على الفواصل. وقيل: مجزوم معطوف على المجزوم قبله قد حُرِّك لالتقاء الساكنين بالفتح للخِفّة والإتْباع كما مرّ، ويؤيّده القراءةُ بالكسر[2] على ما هو الأصل في تحريك الساكن. وقُرئ: "يَعْلَمُ" بالرفع[3] على أنّ الواو للحال، وصاحبها الموصولُ، والمبتدأ محذوف، أي: وهو يعلمُ الصابرين، كأنّه قيل: ولمّا تُجاهدوا وأنتم صابرون؟

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: تتمنّون الحربَ، فإنّها مِن مبادي الموت.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة وعمرو بن عبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري وعبد الوارث. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.

أو الموتَ بالشهادة. والخطاب للذين لم يشهدوا بدرًا وكانوا يتمنَّون أن يشهدوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مَشهدًا؛ لينالوا ما ناله شهداء بدرٍ مِن الكرامة، فألحُّوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في الخروج، ثمّ ظهر منهم خلافُ ذلك. ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ متعلِّق بـ﴿تَمَنَّوۡنَ﴾، مبيّن لسبب إقدامهم على التمنّي، أي: مِن قبل أن تشاهدوه وتعرِفوا هولَه وشدَّته، وقُرِئ: "تُلَاقُوهُ".[1]

﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾ أي: ما تتمنَّونه مِن أسباب الموت. أو الموتَ بمشاهدة أسبابه. وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ حال مِن ضمير المخاطَبين. وفي إيثار الرؤية على الملاقاة وتقييدِها بالنظر مزيدُ مبالغةٍ في مشاهدتهم له. والفاء فصيحةٌ، كأنّه قيل: إن كنتم صادقين[2] في تمنّيكم ذلك، فقد رأيتُموه معاينين له حين قُتِل بين أيديكم مَنْ قُتِل مِن إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تُقتَلوا، فلِمَ فعلتم[3] ما فعلتم؟ وهو توبيخ لهم على تمنِّيهم الحربَ وتسبُّبهم لها، ثمّ جُبنِهم وانهزامِهم، لا على تمنّي الشهادة بناءً على تضمُّنها لغلَبة الكفّار؛ لِما أنّ مطلبَ مَن يتمنّاها نيلُ كرامة الشهداء مِن غير أن يخطُر بباله شيءٌ غيرُ ذلك، فلا يستحِقُّ العتابَ مِن تلك الجهة.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ﴾ مبتدأ وخبر. ولا عمل لـ﴿مَا﴾ بالاتّفاق لانتقاض نفيه بـ﴿إِلَّا﴾. وقوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ صفة لـ﴿رَسُولٞ﴾ منبِئة عن كونه في شَرف الخُلوّ، فإنّ خلوَّ مشاركيه[4] في منصِب الرسالة مِن شواهد خلوِّه عليه السلام[5] لا محالةَ، كأنّه قيل: قد خلَت مِن قبله أمثالُه، فسيَخلو[6] كما خلَوا.

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٠.
[2] وفي هامش ط س: أي: جادّين فيه، فكان ذلك صادرًا عن صَميم قلوبكم «منه».
[3] وفي هامش ط س: فلمَ انهزمتم؟ تفسير واحدي. «منه». | التفسير الوسيط للواحدي، ١/٤٩٩.
[4] ط: مشاركته.
[5] ط - عليه السلام.
[6] ط: فسيخلوا.

والقصرُ قلبيّ، فإنّهم لمّا انقلبوا على أعقابهم فكأنّهم اعتقدوا أنّه عليه السلام رسول لا كسائر الرسلِ في أنّه يَخلو كما خلَوا، ويجب التمسّكُ بدِينه بعده كما يجب التمسّك بدينهم بعدَهم. فرُدَّ عليهم بأنّه: ليس إلّا رسولًا كسائر الرسلِ، فسيَخلو[١] كما خلَوا، ويجب التمسّك بدينه كما يجب التمسّك بدينهم.

وقيل: هو قصرُ إفرادٍ، فإنّهم لمّا استعظموا عدمَ بقائِه عليه السلام لهم نُزّلوا منزلةَ المستبعِدين لهلاكه، كأنّهم يعتقدون فيه عليه السلام وصفَين: الرسالة، والبعدَ عن الهلاك، فرُدَّ عليهم بأنّه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البُعد عن الهلاك، فلا بدّ حينئذ مِن جعل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾... إلخ كلامًا مبتدأً مَسوقًا لتقرير عدمِ براءتِه عليه السلام مِن الهلاك، وبيانِ كونِه أُسوةً لمَن قبله مِن الرسل[٢] عليهم السلام. وأيًّا ما كان فالكلامُ مُخرَج على خلاف مقتضى الظّاهرِ.

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ إنكار لارتدادهم وانقلابِهم عن الدِّين بخُلوّه بموتٍ أو قتلٍ بعد علمِهم بخلوِّ الرسلِ قبله وبقاءِ دينِهم متمسَّكًا به. وقيل: الفاء للسببيّة، والهمزةُ لإنكار أن يجعلوا خُلوَّ الرسلِ قبله سببًا لانقلابهم بعد وفاتِه مع كونه سببًا في الحقيقة لثباتهم على الدِّين.

وإيرادُ "الموتِ" بكلمة "إن" مع العلم به البتّةَ لتنزيل المخاطَبين منزلةَ المتردّدين فيه لِما ذُكر مِن استعظامهم إيّاه، وهكذا الحالُ في سائر الموارِدِ، فإنّ كلمةَ "إنْ" في كلام الله تعالى لا تجري على ظاهرها قطُّ ضرورة علمِه تعالى بالوقوع أو اللاوقوعِ؛ بل تُحمل على اعتبار حالِ السامعِ أو أمرٍ آخرَ يناسب المقامَ. وتقديم تقديرِ الموتِ مع أنّ تقديرَ القتلِ هو الذي ثار[٣] منه الفتنةُ وعظُم فيه المحنةُ لِما أنّ الموتَ في شَرف الوقوعِ، فزَجرُ الناس عن الانقلاب عنده وحَملُهم على التثبّت هناك أهمّ، ولأنّ الوصف الجامعَ بينه وبين الرسلِ عليهم السلام هو الخلوُّ بالموت، دون القتل.

---

١ ط: سيخلو.
٢ س - مِن الرسل.
٣ ي: سار.

رُوي أنّه لمّا التقى الفئتانِ حمل أبو دجانةَ[١] في نفَرٍ مِن المسلمين على المشركين، فقاتل قِتالًا شديدًا، / وقاتل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قتالًا عظيمًا حتّى التوى سيفُه، وكذا سعد بن أبي وقّاص، فقتلوا جماعةً مِن المشركين وهزموهم، فلمّا نظر الرُّماة إليهم ورأَوا أنّهم قد انهزموا أقبلوا على النَّهْب، ولم يلتفتوا إلى نهي أميرِهم عبدِ الله بنِ جُبيرٍ، فلم يبقَ منهم عنده إلّا ثمانيةُ نفرٍ، فلمّا رآهم خالد بن وليدٍ قد اشتغلوا بالغنيمة حمَل عليهم في مائتين وخمسين فارسًا مِن المشركين مِن قِبَل الشِّعب، وقَتلوا مَن بقي مِن الرُّماة، ودخلوا خلفَ أقفية[٢] المسلمين ففرّقوهم وهزموهم، وحملوا على أصحاب رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم وقاتلوهم حتّى أصيب هناك نحوُ ثلاثين رجلًا، كلٌّ منهم يجثُو بين يديه ويقول: وجهي لوجهك وِقاء، نفسي لنفسك فِداء، وعليك سلامُ الله غيرَ مُودَّع. [١١١ظ]

ورمى عبدُ الله بن قَميئة الحارثي رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم بحجر فكسر رَباعيَتَه وشجّ وجهَه الكريم، فذبَّ عنه مصعبُ بن عمير رضي الله عنه،[٣] وكان صاحبَ الرايةِ حتّى قتله ابنُ قَميئة وهو يزعُم أنّه قتَل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «قتَلتُ محمّدًا»، وصرَخ صارخ -قيل: إنّه إبليس-: «ألَا إنّ محمّدًا قد قُتل»، فانكفأ الناسُ، وجعلَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم يدعو: «إليّ عبادَ الله».

قال كعب بن مالك: كنت أوّل مَن عرف رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم مِن المسلمين، فنادَيت بأعلى صوتي: «يا معشرَ المسلمين هذا رسولُ الله عليه السلام»، فانحاز إليه ثلاثون مِن أصحابه، وحمَوه حتّى كشفوا عنه المشركين، وتفرّق الباقون. وقال بعضُهم: «ليت ابنَ أُبيّ يأخذ لنا أمانًا مِن أبي سفيانَ»،

---

[١] هو سِماك بن خَرَشة الأنصاري، أبو دُجانة (ت. ١١هـ/٦٣٢م). متّفق على شهوده بدرًا. استشهد باليمامة، وقيل: إنّه ممّن شارك في قتل مسيلمة. وثبت ذكره في صحيح مسلم عن أنس أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخذ سيفًا يوم أُحد، فقال: مَن يأخذ هذا السيف بحقّه؟ فأخذه أبو دُجانة ففلَق به هامَ المشركين. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ١٢/٢٠٤؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣/١٣٨.

[٢] أقْفِية: جمع "قَفا" على غير قياس، والقفا: مُؤخّر العنُق. انظر: **الصحاح** للجوهري، «قفا». والمراد هنا: دخلوا مِن خلفهم.

[٣] ط: رحمه الله.

وقال ناس مِن المنافقين: «لو كان نبيًّا لَمَا قُتل، ارجِعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم». فقال أنسُ بنُ النضر -وهو عمُّ أنس بنِ مالك-: «يا قوم إن كان قُتل محمّد، فإنّ ربّ محمّد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعدَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقاتِلوا على ما قاتَل عليه، وموتوا كِرامًا[1] على ما مات عليه»، ثمّ قال: «اللّهمّ إنّي أعتذر إليك ممّا يقول هؤلاءِ، وأبرَأُ إليك ممّا جاء به هؤلاء»، ثمّ شدّ بسيفه وقاتل حتّى قُتل.[2]

وتجويزُهم لقتله عليه السلام مع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة، ٦٧/٥] لِما أنّ كلَّ آيةٍ ليس يسمعها كلُّ أحد، ولا كلُّ مَن يسمعها يستحضِرها في كلِّ مقام، لا سيّما في مثل ذلك المقام الهائل. وقد غفَل عمر رضي الله عنه عن هذه الآية الكريمة عند وفاته صلّى الله عليه وسلّم، وقام في الناس فقال: «إنّ رجالًا مِن المنافقين يزعمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم توفّي، وإنّ رسولَ الله ما مات، ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بنُ عِمرانَ فغاب عن قومه أربعين ليلةً ثمّ رجع، واللهِ ليرجِعَنَّ رسولُ الله، ولأُقطِّعنَّ أيديَ رجالٍ وأرجلَهم يزعُمون أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مات». ولم يزل يكرِّرُ ذلك إلى أن قام أبو بكر رضي الله عنه[3] فحمِد الله عزّ وجلّ[4] وأثنى عليه، ثمّ قال: «أيّها الناسُ؛ مَن كان يعبُد محمّدًا فإنّ محمّدًا قد مات، ومَن كان يعبُد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت»، ثمّ تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية، قال الراوي: «واللهِ لكأنّ الناسَ لم يعلموا أنّ هذه الآيةَ نزلت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى تلاها أبو بكر». وقال عمرُ رضي الله عنه: «واللهِ ما هو إلّا أن سمعتُ أبا بكر رضي الله عنه يتلو فعَقِرتُ[5] حتّى ما يحمِلُني رجلاي، وعرفتُ أنّ رسولَ الله مات صلّى الله عليه وسلّم».[6]

---

١ ي: إكرامًا.

٢ انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ١٧٧/٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢٣/١.

٣ ط: عنهما.

٤ ي: تعالى.

٥ وفي هامش ط س ي: العَقَر: أن يفجأه الرّوع فيَدهش، ولا يستطيع أن يتقدّم أو[1] يتأخّر.[2] «منه». | [1] هامش ي - أو. [2] هامش ي: ويتأخّر. | النهاية لابن الأثير، «عقر».

٦ انظر: تفسير ابن المنذر، ٤٠٩/١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٧٨/٣. وأصل القصّة في صحيح البخاري، ١٣/٦ (٤٤٥٤).

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ بإدباره عمّا كان يُقبل عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم مِن أمر الجهادِ وغيرِه. وقيل: بارتداده عن الإسلامِ، وما ارتدّ يومئذ أحدٌ مِن المسلمين إلّا ما كان مِن المنافقين. ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ﴾ بما فعل مِن الانقلاب ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الضَّرر، وإنّما يضُرُّ نفسَه بتعريضها للسخط والعذاب.

﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: الثابتين على دين الإسلامِ الذي هو أجَلُّ نعمةٍ وأعزُّ معروفٍ. سُمّوا بذلك لأنّ الثبات عليه شكرٌ له وعِرفانٌ لحقّه.[1] وفيه إيماء إلى كُفران المنقلبين. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ[2] المراد بهم: الطائعون لله تعالى مِن المهاجرين والأنصارِ.[3] وعن عليّ رضي الله عنه: أبو بكرٍ وأصحابُه.[4] وعنه رضي الله عنه أنّه[5] قال: «أبو بكر مِن الشاكرين، ومِن أحبّاء الله تعالى».[6] وإظهارُ الاسمِ الجليل في موقع الإضمار لإبراز مزيدِ الاعتناءِ بشأن جزائِهم.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾ كلام مستأنَف سيق للتنبيه على خطئهم فيما فعلوا حذَرًا مِن قتلهم، وبناءً على الإرجاف بقتله صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّ موت كلّ نفسٍ مَنوطٌ بمشيئة الله عزّ وجلّ، لا يكاد يقع بدون تعلّقها به، وإن خوَّضت مواردَ الحتوف،[7] واقتحَمتَ مضائقَ كلِّ هائلٍ مَخُوف. وقد أشيرَ بذلك إلى أنّها لم تكن متعلِّقةً بموتهم في الوقت الذي حذِروه فيه؛ ولذلك لم يُقتلوا حينئذ، لا لإحجامهم عن مباشرة القتالِ. وكلمة ﴿كَانَ﴾ ناقصةٌ، اسمها ﴿أَن تَمُوتَ﴾، وخبرها الظرفُ على أنّه متعلِّق بمحذوف.

---

١ وفي هامش ط س ي: في القاموس: الشكر: عِرفان الإحسان ونشره. «منه». | القاموس المحيط للفيروزابادي، «شكر».

٢ ي: كان.

٣ التفسير الوسيط للواحدي، ١/٥٠٠؛ التفسير البسيط للواحدي، ٦/٤١.

٤ جامع البيان للطبري، ٦/٩٧؛ اللباب لابن عادل، ٥/٥٧٤؛ الدرّ المنثور للسيوطي، ٢/٣٣٨.

٥ ي - أنه.

٦ تفسير الرازي، ٩/٣٧٧. وهو في جامع البيان للطبري، ٦/٩٧، بلفظ: «كان أبو بكر أمينَ الشاكرين، وأمين أحبّاء الله».

٧ ي: الحقوف.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأسباب، أي: وما كان[١] الموتُ حاصلًا لنفس مِن النفوس بسببٍ مِن الأسباب إلّا بمشيئته تعالى، على أنّ "الإذنَ" مَجاز منها لكونها مِن لوازمه. أو إلّا بإذنه لمَلَك[٢] الموتِ في قبض روحِها. وسَوْق الكلام مَساقَ التمثيل -بتصوير الموت بالنسبة إلى النّفوس بصورة الأفعالِ الاختياريّةِ التي لا يتسنّى للفاعل إيقاعُها والإقدامُ عليها بدون إذنه تعالى، أو بتنزيل إقدامِها على مَبادِيه -أعني: القتالَ- منزلةَ الإقدام على نفسه- للمبالغة في تحقيق المرام؛ فإنّ موتها حيث استحال وقوعُه عند إقدامِها عليه أو على مباديه وسعْيِها في إيقاعه، فلَأَنْ يستحيلَ عند عدمِ ذلك أولى وأظهر. وفيه مِن التحريض على القتال ما لا يخفى.

﴿كِتَٰبٗا﴾ مصدَر مؤكِّد لمَضمون ما قبله، أي: كتَبه الله كتابًا ﴿مُّؤَجَّلٗا﴾ مؤقّتًا بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ولو ساعةً. وقُرئ: "مُوَجَّلًا"[٣] بالواو بدلَ الهمزةِ على قياس التخفيف.

وبعد تحقيقِ أنّ مدار الموت والحياةِ محضُ مشيئةِ الله عزّ وجلّ مِن غير أن يكون فيه مدخلٌ لأحدٍ أصلًا / أشير إلى أنّ توفية ثمراتِ الأعمالِ دائرةٌ [١١٢و]
على إرادتهم؛ ليصْرِفوها عن[٤] الأغراض الدنيئةِ إلى المطالب السنيّة، فقيل: ﴿وَمَن يُرِدۡ﴾ أي: بعمله ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ﴾ بنون العظمةِ على طريق الالتفات ﴿مِنۡهَا﴾ أي: مِن ثوابها ما نشاء أن نؤتيَه إيّاه، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء، ١٨/١٧]، وهو تعريض بمَن شغلتهم الغنائمُ يومئذ، وقد مرّ تفصيله.

﴿وَمَن يُرِدۡ﴾ أي: بعمله ﴿ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ أي: مِن ثوابها ما نشاء مِن الأضعاف حسبما جرى به الوعدُ الكريمُ. ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ نعمةَ الإسلامِ، الثابتين عليه، الصارفين لِما آتاهم الله تعالى مِن القُوى والقُدَر إلى ما خُلِقت

---

١ ط: كانت.

٢ ي: يملك.

٣ قرأ بها أبو جعفر وورش عن نافع. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٥.

٤ ي: مِن.

هي لأجله مِن طاعة الله عزّ وجلّ، لا يَلْويهم عن ذلك صارفٌ أصلًا. والمراد بهم إمّا المجاهدون المعهودون مِن الشهداءِ وغيرهم، وإمّا جنسُ الشاكرين، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا. والجملة اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله، ووعدٌ بالمزيد عليه. وفي تصديرها بالسين وإبهامِ الجزاءِ مِن التأكيد والدلالة على فَخامة شأنِ الجزاءِ وكونِه بحيث يقصُر عنه البيانُ ما لا يخفى. وقُرئ الأفعالُ الثلاثةُ بالياء.[1]

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن﴾ كلامٌ مبتدأ ناعٍ عليهم تقصيرَهم وسوءَ صنيعِهم في صدودهم عن سَنَن الربّانيّين المجاهدين في سبيل الله تعالى[2] مع الرسل الخالية عليهم السلام.

و﴿كَأَيِّن﴾ لفظة مركّبة مِن كاف التشبيهِ و"أيّ"، حدث فيها بعد التركيب معنى التكثيرِ، كما حدث في "كذا وكذا". والنون تنوين أُثبتت في الخطّ على غير قياسٍ. وفيها خمسُ لغاتٍ: هي إحداهنّ. والثانية: "كَائِنْ" مثلُ: كاعِن.[3] والثالثة: "كَأْيِنْ" مثل: كَعْيِن.[4] والرابعة: "كَيْئِنْ"[5] بياء ساكنة بعدَها همزة مكسورة، وهي قلبُ ما قبلها. والخامسة: "كَإِنْ" مثل: كَعِن.[6] وقد قُرئ بكلّ منها. ومحلُّها الرفعُ بالابتداء، وقوله تعالى: ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ تمييز لها؛ لأنّها مثلُ "كم" الخبريّة، وقد جاء تمييزُها منصوبًا، كما في قوله:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢١.

[2] س ي - تعالى.

[3] قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر، إلّا أنّ أبا جعفر يقرأ بتسهيل الهمزة مع المدّ والقصر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن والأشهَب والأعمش. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١٧١/١؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢١.

[5] ط: كَيأِن. | قراءة شاذّة، نسبها أبو حيّان إلى بعض القرّاء في الشواذّ. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٨/٣؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥١٩/١.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن أيضًا، حكاها عنه أبو عمرٍو الداني. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥١٩/١.

اطـــرُد الـيـــأسَ بـالـرَّجـا فـكـأيِّـن آمِـــلًا[١] حُـــمَّ[٢] يـسـرُه بـعـد عُـسـرِ[٣]

وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ خبر لها على أنّ الفعل مسندٌ إلى الظاهر، والرابطُ هو الضمير المجرور في ﴿مَعَهُۥ﴾. وقُرِئ: "قُتِلَ"[٤] و"قُتِّلَ"[٥] على صيغة المبنيّ للمفعول مخفّفةً ومشدّدةً. و"الرِّبِّيُّ": منسوب إلى الرَّبّ، كالرَّبانيّ، وكسرُ الراء مِن تغييرات النَّسبِ. وقُرِئ بضمّها،[٦] وبفتحها أيضًا على الأصل.[٧] وقيل: هو منسوب إلى الرِّبّة؛ وهي الجماعة. أي: كثيرٌ مِن الأنبياء قاتلَ معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينِه علماءُ أتقياءُ أو عابدون أو جماعاتٌ كثيرة. فالظرف متعلِّق بـ﴿قَٰتَلَ﴾، أو بمحذوف وقع حالًا مِن فاعله، كما في القراءتين الأخيرتين؛ إذ لا احتمالَ فيهما لتعلّقه بالفعل، أي: قُتِلوا أو قُتِّلوا كائنين معه في القتال لا في القَتل. قال سعيد بن جُبير رضي الله عنه:[٨] «ما سمعنا بنبيّ قُتِل في القتال».[٩] وقال الحسنُ البصري وجماعةٌ مِن العظماء: «لم يقتَلْ نبيّ في حربٍ قطُّ».[١٠]

وقيل: الفعل مسنَد إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والظرف متعلِّق بمحذوف وقع حالًا منه، والرابط هو الضمير المجرور الراجع إليه. وهذا واضح على القراءة المشهورة بلا خلاف، أي: كم مِن نبيٍّ قاتلَ كائنًا معه في القتال رِبِّيون كثير. وأمّا على القراءتين الأخيرتين فغيرُ ظاهر، لا سيّما على قراءة التشديد،

---

١ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مغني اللبيب وشرحي البغدادي والسيوطي: "آلِمًا"، وقالا: "آلِمًا": بالمدّ، اسم فاعل مِن "ألِم يألَم". انظر: مغني اللبيب لابن هشام، ص ٢٤٧؛ وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ١٦٧/٤؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٥١٣/٢.

٢ وفي هامش ط ي: أي: قُدِّر. «منه».

٣ قال العيني: لم يُسمّ قائله. و"اليأس" القنوط. و"حُمَّ": قُدِّر، بالبناء للمفعول. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ١٦٧/٤؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٥١٣/٢.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرٍو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن مسعود وابن عبّاس وعكرمة والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢.

٨ ي - رضي الله عنه؛ ي + آخر.

٩ الكشّاف للزمخشري، ٤٢٤/١؛ اللباب لابن عادل، ٥٨٨/٥.

١٠ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥٢٠/١؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٧/٤ (الصافات، ١٧١/٣٧).

وقد جوّزه بعضُهم، وأيّده بأنّ مدار التوبيخِ انخذالُهم للإرجاف بقتله صلّى الله عليه وسلّم، أي: كم مِن نبيّ قُتِل كائنًا معه في القتل أو في القتال رِبِّيّون... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ عطفٌ على ﴿قَٰتَلَ﴾ على أنّ المراد به عدمُ الوهن المتوقَّع مِن القتال، كما في قولك: وعظتُه فلم يتَّعِظْ، وصِحْتُ به فلم ينزجِر، فإنّ الإتيان بالشيء بعد ورود ما يوجب الإقلاعَ عنه[1] وإن كان استمرارًا[2] عليه بحسب الظاهر؛ لكنّه بحسب الحقيقة صنعٌ جديد مصحِّح لدخول الفاء المرتِّبة له على ما قبله،[3] أي: فما فتَروا وما انكسرت هِمَّتُهم ﴿لِمَآ أَصَابَهُمۡ﴾ في أثناء القتالِ، وهو علّة للمنفيّ دون النفي. نعم يُشعِرُ بعِلّته قوله تعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فإنّ كون ذلك في سبيله عزّ وجلّ ممّا يقوّي قلوبَهم ويُزيلُ وهَنَهم.

و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة، فإن جُعِل الضميران لجميع الرِّبِّيّين فهي عبارة عمّا عدا القتل مِن الجراح وسائرِ المكارِه المعتريةِ للكلّ، وإن جعلا للبعض الباقين بعد ما قُتل الآخَرون كما هو الأنسب بمقام توبيخِ المنخذِلين بعد ما استُشهد الشهداءُ فهي عبارة عمّا ذُكر مع ما اعتراهم مِن قتل إخوانهم مِن الخوف والحُزْن وغير ذلك. هذا على القراءة المشهورة، وأمّا على القراءتين الأخيرتين: فإن أُسنِدَ الفعلُ[4] إلى الرِّبِّيّين فالضميران للباقين منهم حتمًا، وإن أُسند إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم -كما هو الأنسبُ بالتوبيخ على الانخذال بسبب الإرجاف بقتله صلّى الله عليه وسلّم- فهما للباقين أيضًا إن اعتُبر كونُ الرِّبِّيّين مع النبيّ في القتل، وللجميع إن اعتُبر كونُهم معه في القتال.

﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن العدوّ. وقيل: عن الجهاد. وقيل: في الدِّين. ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ أي: وما خضَعوا[5] للعدوّ. وأصلُه: استكَنَ مِنَ السكون؛ لأنّ الخاضع يسكُن لصاحبه ليفعلَ به ما يريدُه، والألِفُ مِن إشباع الفتحة. أو استكْوَن مِن الكَون؛ لأنّه يطلب أن يكون لمَن يخضَع له. وهذا تعريض بما أصابهم مِن الوهن والانكسارِ

---

[1] ي: منه.

[2] ي: استمرار.

[3] وفي هامش ط س ي: ألا يُرى أنّه أقوى مِن الأوّل. «منه».

[4] وفي هامش ط ي: أي: "قُتِل". «منه».

[5] ي: وما ضعفوا.

عند استيلاء الكفرةِ عليهم والإرجافِ بقتل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وبضَعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين، واستكانتِهم لهم حين أرادوا أن يعتضِدوا بابن أُبيّ المنافِق في طلب الأمان مِن أبي سفيان.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: على مقاساة الشدائدِ ومعاناةِ المكارِه في سبيل الله فينصُرهم ويُعظّم قدرَهم. والمراد بـ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إمّا المعهودون، والإظهارُ في موضع الإضمار للثناء / عليهم بحسن الصبرِ والإشعارِ بعلّة الحُكم، وإمّا [١١٢ظ]
الجنسُ وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا. والجملة تذييل لِما قبلها.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ كلام مبيّن لمحاسنهم القوليّة، معطوف على ما قبله مِن الجُمل المبيِّنة لمحاسنهم الفعليّة. و﴿قَوْلَهُمْ﴾ بالنصب خبر لـ﴿كَانَ﴾، واسمُها ﴿أَن﴾ وما بعدها في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾. والاستثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأشياء، أي: ما كان قولًا لهم عند لقاء العدوّ واقتحامِ مضايق الحرابِ وإصابةِ ما أصابهم مِن فنون الشدائد والأهوال شيءٌ مِن الأشياء إلّا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: صغائرَنا ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ أي: تجاوزَنا الحدَّ في ركوب الكبائرِ.

أضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربّانيّين بُرَآءَ مِن التفريط في جَنب الله تعالى هَضمًا لها، واستقصارًا لهِمَمهم، وإسنادًا لِما أصابهم إلى أعمالهم. وقدّموا الدعاء بمغفرتها على ما هو الأهمُّ بحسب الحال مِن الدعاء بقولهم: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: في مواطن الحربِ بالتقوية والتأييدِ مِن عندك، أو ثبّتْنا على دينك الحقّ، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ تقريبًا له إلى حيّز القَبول؛ فإنّ الدعاء المَقرونَ بالخضوع، الصادرَ عن زكاءٍ وطهارةٍ أقربُ إلى الاستجابة. والمعنى: لم يزالوا مواظِبين على هذا الدعاءِ مِن غير أن يصدُرَ عنهم قول يوهم شائبةَ الجزَعِ والخَوَرِ[١] والتزلزُلِ في مواقف الحربِ ومراصدِ الدِّين.

---

١ ي: والخوار.

وفيه مِن التعريض بالمُنهزمين ما لا يخفى.

وقرأ ابن كثير[١] وعاصم في رواية عنهما برفع "قَوْلُهُمْ"[٢] على أنّه الاسمُ، والخبرُ ﴿أَن﴾ وما في حيّزها، أي: ما كان قولهم حينئذ شيئًا مِن الأشياء إلّا هذا القولَ المُنبئ عن أحاسنِ المحاسنِ. وهذا كما ترى أقعدُ بحسب المعنى، وأوفق بمقتضى المقام؛ لِما أنّ الإخبار بكون قولِهم المطلَقِ خصوصيّةَ قولِهم المحكيِّ عنهم مفصّلًا -كما تفيده قراءتهما- أكثرُ إفادةً للسامع مِن الإخبار بكون خصوصيّةِ قولِهم المذكورِ قولَهم؛ لِما أنّ مَصبّ الفائدةِ وموقِعَ البيانِ في الجمل الخبريّة هو الخبر، فالأحقُّ بالخبريّة ما هو أكثرُ إفادةً، وأظهرُ دلالةً على الحدَث،[٣] وأوفرُ اشتمالًا على نِسَب خاصّةٍ بعيدةٍ مِن الوقوع في الخارج وفي ذهن السامعِ. ولا يخفى أنّ ذلك ههنا في ﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها أتمُّ وأكملُ.

وأمّا ما يفيده الإضافةُ مِن النسبة المطلقة الإجماليّة فحيث كانت سهلةَ الحصولِ خارجًا وذِهنًا كان حقُّها أن تلاحَظَ ملاحظةً إجماليّةً وتُجعَلَ عنوانًا للموضوع، لا مقصودًا بالذات في باب البيانِ. وإنّما اختار الجمهور ما اختاروه لقاعدة صناعيّةٍ[٤] هي أنّه إذا اجتمع معرفتان فالأعرفُ منهما أحقُّ بالاسميّة، ولا ريب في أعرفيّة ﴿أَن قَالُواْ﴾ لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدَث، ولأنّه يشبه المضمَرَ مِن حيث إنّه[٥] لا يوصَف ولا يوصَف به، و﴿قَوْلَهُمْ﴾ مضافٌ إلى مضمَر، فهو بمنزلة العَلَم، فتأمّل.[٦]

---

[١] هو عبد الله بن كثير المكّي الداري، أبو معبد (ت. ١٢٠هـ/٧٣٨م). والدار بطن مِن لَخم، وهو مولى عمرو بن علقمة الكِناني، كان عطّارًا بمكّة، وهو مِن أبناء فارس. أحد القرّاء السبعة. كان ورعًا زاهدًا. قال ابن مجاهد: ولم يزل عبد الله هو الإمام المجتمع عليه في القراءة بمكّة حتى مات. انظر: **غاية النهاية** لابن الجزري، ٤٤٣/١؛ و**معرفة القرّاء** للذهبي، ص ٤٩؛ و**الأعلام** للزركلي، ١١٥/٤.

[٢] رواية شاذّة عنهما، وعزاها الكرماني إلى الحسَن وابن أبي إسحاق. انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٢٢؛ و**المحرّر الوجيز** لابن عطيّة، ٥٢٢/١.

[٣] ي: الحدوث.

[٤] هذا توجيه قراءة الجمهور مِن حيث اللغة، والأصل في الاختيار عندهم ثبوت القراءة مِن حيث الرواية.

[٥] ط + لا يضمر.

[٦] ط - فتأمّل.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٤٨﴾

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بسبب دعائهم ذلك ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: النصرَ والغنيمةَ والعِزَّ والذِّكرَ الجميلَ، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: وثوابَ الآخرة الحسَنَ، وهو الجنّة والنَّعيم المخلَّد. وتخصيص وصفِ "الحُسن" به للإيذان بفضله ومزيّته، وأنّه المعتدُّ به عنده تعالى.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله؛ فإنّ محبّة الله تعالى للعبد عبارةٌ عن رضاه عنه، وإرادةِ الخيرِ به. فهي مبدأ لكلّ سعادة. واللام إمّا للعهد، وإنّما وُضع المُظهَر موضِعَ ضميرِ المعهودين للإشعار بأنّ ما حُكيَ عنهم مِن الأفعال والأقوال مِن باب الإحسان. وإمّا للجنس، وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا، وهذا أنسبُ بمقام ترغيب المؤمنين في تحصيل ما حُكي عنهم مِن المناقب الجليلة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ١٤٩﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ شروع في زجرهم عن متابعة الكفّار ببيان استتباعها لخسران الدنيا والآخرة إثرَ ترغيبهم في الاقتداء بأنصار الأنبياء عليهم السلام ببيان إفضائه إلى فوزهم بسعادة الدارين. وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيه لإظهار الاعتناء بما في حيّزه. ووصفُهم بالإيمان لتذكير حالهم وتثبيتهم عليها بإظهار مباينتها لحال أعدائهم، كما أنّ وصف المنافقين بالكفر في قوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لذلك؛ قصدًا إلى مزيد التنفير عنهم والتحذيرِ مِن طاعتهم. قال عليّ رضي الله عنه: «نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة: ارجِعوا إلى إخوانكم وادخُلوا في دينهم».[١]

فوقوعُ قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ جوابًا للشرط -مع كونه في قوّة أن يقال: إن تُطيعوهم في قولهم: ارجِعوا إلى إخوانكم، وادخُلوا في دينهم

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٢٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٢.

يُدخِلوكم في دينهم- باعتبار كونه تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ أي: للدنيا والآخرة غيرَ فائزين بشيء منهما واقعين[١] في العذاب الخالد، على أنّ الارتداد على العقِب عَلَمٌ في انتكاس الأمرِ، ومَثَل في الحَور بعد الكَور.[٢]

وقيل:[٣] المراد بهم اليهودُ والنّصارى حيث كانوا يستَغْوونَهم ويُوقِعون لهم الشُّبَه في الدِّين، ويقولون: لو كان نبيًا حقًّا لَمَا غُلب، ولَمَا أصابه وأصحابَه ما أصابهم، وإنّما هو رجل حالُه كحال غيرِه مِن الناس يومًا عليه ويومًا له. وقيل: أبو سفيان وأصحابه، والمراد بطاعتهم استئمانُهم والاستكانةُ لهم. وقيل: الموصولُ على عمومه، والمعنى: نهيُ المؤمنين عن طاعتهم في أمرٍ مِن الأمور حتّى لا يستجرّوهم إلى الارتداد عن الدين، فلا حاجةَ على هذه التقادير إلى ما مرّ مِن البيان.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ إضراب عمّا يُفهم مِن مضمون الشرطيّة، كأنّه قيل: فليسوا أنصارَكم حتّى تطيعوهم؛ بل الله ناصرُكم لا غيرُه، فأطيعوه واستغنوا به عن مُوالاتهم.[٤] وقُرئ بالنصب،[٥] كأنّه قيل: فلا تطيعوهم؛ بل أطيعوا الله. و﴿مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ نصب على أنّه صفة له. ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ فخُصّوه بالطاعة / والاستعانة. [١١٣و]

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾

﴿سَنُلۡقِي﴾ بنون العظَمة على طريقة الالتفات جريًا على سَنَن الكبرياءِ لتربية المَهابة. وقُرئ بالياء.[٦] والسينُ لتأكيد الإلقاء. ﴿فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾

---

١ ط: واقفين.

٢ وفي هامش ي أ: أي: في الشرّ بعد الخير، والنّقصان بعد الزّيادة. «منه».

٣ وفي هامش ط: ابن عبّاس رضي الله عنهما «منه». | لم أجده عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وهو عن الحسَن في الكشّاف للزمخشري، ١/٤٢٥؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٥٧٥.

٤ ي: مولاتهم.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن النخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أيّوب السّختياني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٢.

بسكون العين، وقُرئ بضمّها على الأصل.[١] وهو ما قُذف في قلوبهم مِن الخوف يوم أحُد حتّى تركوا القتال ورجعوا مِن غير سبب، ولهم القوّةُ والغلبة. وقيل: ذهبوا إلى مكّةَ، فلمّا كانوا ببعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئًا، قتلنا منهم ثمّ تركناهم ونحن قاهرون، ارجِعوا فاستأصِلوهم، فعند ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرُّعب، فأمسكوا. فلا بدّ مِن كون نزول الآيةِ في تضاعيف الحرابِ[٢] أو عَقيب انقضائِه.[٣] وقيل: هو ما أُلقيَ في قلوبهم مِن الرُّعب يومَ الأحزاب.

﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿نُلۡقِي﴾ دون ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾، و﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: بسبب إشراكهم به تعالى، فإنّه مِن موجبات خِذْلانهم ونصرِ المؤمنين عليهم، وكلاهما مِن دواعي الرُّعب. ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ﴾ أي: بإشراكه ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ أي: حجّةً، سمِّيت به لوضوحها وإنارتها، أو لقوّتها، أو لحِدّتها ونفوذِها. وذكرُ عدمِ تنزيلِها مع استحالة تحقّقِها في نفسها مِن قبيل قوله:

ولا ترَى الضبَّ بها ينجحِرْ[٤]

أي: لا ضبَّ ولا انجحارَ. وفيه إيذان بأنّ المتَّبع في الباب هو البرهان السماويّ، دون الآراءِ والأهواءِ الباطلة.

﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ﴾ بيان لأحوالهم في الآخرة إثرَ بيان أحوالِهم في الدنيا، وهي الرُّعب، أي: ما يأوُون إليه في الآخرة. ﴿ٱلنَّارُ﴾ لا ملجأَ لهم غيرَها.

﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مثواهم، وإنّما وُضع مَوضعَه المُظهَر المذكور[٥] للتغليظ والتعليل والإشعارِ بأنّهم في إشراكهم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعِه. والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: بئس مثوى الظالمين النارُ،

---

[١] قرأ بها ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

[٢] وفي هامش ط: على الأوّل. «منه».

[٣] وفي هامش ط: على الثاني. «منه».

[٤] وفي هامش ي: أوّله:
لا يفزع الأرنبَ أهوالُها
يصف مفازة خاليةً عن الحيوانات، أي: ليس لها أرنب ليُفزعه أهوالها، ولا ضبّ يدخل الجُحر «منه». | لابن أحمر في أساس البلاغة للزمخشري، ص ٢٥٤.

[٥] ي: للمذكور.

وفي جعلها مثواهم بعد جعلِها مأواهم نوعُ رمزٍ إلى خلودهم فيها، فإنّ المثوى مكانُ الإقامة المُنبئة عن المُكث. وأمّا المَأوى فهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ نصب على أنّه مفعول ثانٍ لـ"صَدَق" صريحًا. وقيل بنزع الجارّ، أي: في وعده. نزلت حين قال ناس مِن المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة: مِن أين أصابنا هذا وقد وعَدنا الله تعالى بالنصر؟ وهو ما وعدهم على لسان نبيّه صلّى الله عليه وسلّم مِن النصر حيث قال للرماة: «لا تبرَحوا مكانكم، فلن نزال غالبين ما ثبتُّم مكانكم».[١] وفي رواية أخرى: «لا تبرَحوا عن هذا المكان، فإنّا لا نزال غالبين ما دمتم في هذا المكان»،[٢] وقد كان كذلك،[٣] فإنّ المشركين لمّا أقبلوا جعل الرماةُ يرشُقونهم والباقون يضرِبونهم[٤] بالسيوف حتّى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتُلونهم قتلًا ذريعًا، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتُلونهم قتلًا كثيرًا فاشيًا، مِن "حَسَّه" إذا أبطل حِسَّه. وهو ظرف لـ﴿صَدَقَكُمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره وتوفيقِه لتحقيق أنّ قتلهم بما وعدهم الله تعالى مِن النصر. وقيل: هو ما وعدهم بقوله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ الآية،[٥] وقد مرّ تحقيقُ أنّ ذلك كان يومَ بدر، كيف لا والموعودُ بما ذكر إمدادُه عزّ وجلّ بإنزال الملائكة عليهم السلام، وتقييدُ صدقِ وعدِه تعالى بوقت قتلِهم بإذنه تعالى صريح[٦] في أنّ الموعود هو النصر المعنويّ والتيسير، لا الإمدادُ بالملائكة؟

---

١ جامع البيان للطبري، ١٢٩/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٨٣/٣.
٢ اللباب لابن عادل، ٥٩٨/٥، وهو بمعنى ما قبله.
٣ ي: ذلك.
٤ ي: ويضربونهم.
٥ آل عمران، ١٢٥/٣.
٦ ي: صريحًا.

وقيل: هو ما وعده[١] تعالى بقوله: ﴿سَنُلْقِي﴾... إلخ.[٢] وأنت خبير بأنّ إلقاء الرُّعب كان عند تركهم القتالَ ورجوعِهم مِن غير سبب، أو بعد ذلك في الطريق، على اختلاف الروايتين.[٣]

وأيًّا ما كان فلا سبيل إلى كونه مُغيًّى بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: جَبُنتم وضعُف رأيُكم، أو مِلتم إلى الغنيمة؛ فإنّ الحِرص مِن ضعف القلب. ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ فقال بعضُ الرُّماةِ حين انهزم المشركون وولّوا هاربين والمسلمون على أعقابهم قتلًا وضربًا: فما موقفُنا ههنا بعد هذا؟ وقال أميرهم عبد الله بن جبيرٍ رضي الله عنه: لا نخالف أمرَ الرسول صلّى الله عليه وسلّم فثبَت مكانه في نفر دون العشرةِ مِن أصحابه، ونفَرَ الباقون للنّهب،[٤] وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: مِن الظَّفَر والغنيمةِ وانهزامِ العدوِّ، فلمّا رأى المشركون ذلك حَملوا عليهم مِن قِبَل الشِّعْب وقتلوا أميرَ الرُّماةِ ومَن معه مِن أصحابه، حسبما فُصِّل في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾.[٥]

وجوابُ ﴿إِذَا﴾ محذوف، وهو "مَنَعكم نصرَه"، وقيل: هو "امتَحَنكم". ويردُّه جعلُ الابتلاء غايةً للصَّرْف المترتِّب على منع النصر. وقيل: هو: "انقسمتم إلى قسمين" كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الذين تركوا المركزَ وأقبلوا على النَّهب. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا مكانَهم حتّى نالوا شرف الشهادة. هذا على تقدير كونِ ﴿إِذَا﴾ شرطيّةً و﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيّةً داخلةً على الجملة الشرطيّة.

وقيل: ﴿إِذَا﴾ اسم كما في قولهم: إذا يقوم زيد إذا يقوم عمرو، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرفُ جرٍّ بمعنى "إلى" متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿صَدَقَكُمُ﴾ باعتبار تضمُّنِه لمعنى النصرِ، كأنّه قيل: لقد نصركم الله إلى وقت فشلِكم وتنازُعِكم... إلخ. وعلى هذا فقوله تعالى:

---

[١] ط + الله.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] انظر تفسير الآية السابقة.
[٤] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣/٢. وهو بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/١.
[٥] آل عمران، ١٤٤/٣.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ عطف على ذلك. وعلى الأوّل عطف على الجواب المحذوف كما أشير إليه، والجملتان الظرفيّتان اعتراض بين المتعاطفَين، أي: كفّكم عنهم حتّى حالت الحالُ ودالت الدّولةُ. وفيه مِن اللطف بالمسلمين ما لا يخفى.

﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡ﴾ أي: يعاملَكم معاملةَ مَن يَمتحنكم بالمصائب ليَظهرَ ثباتُكم على الإيمان عندها. ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡ﴾ تفضّلًا، ولِما علم مِن ندمكم على المخالفة.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله، ومُؤْذِنٌ بأنّ ذلك العفو بطريق التفضّل والإحسان، لا بطريق الوجوب عليه، أي: شأنُه أن يتفضّلَ عليهم بالعفو، أو هو متفضِّل عليهم في جميع الأحوال، أُديلَ لهم أو أُديلَ عليهم، إذ الابتلاء أيضًا رحمة. والتنكير للتفخيم. والمراد بـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إمّا المخاطبون، والإظهارُ في موقع الإضمارِ للتشريفِ والإشعارِ بعلّة الحُكم، / وإمّا الجنس وهم داخِلون في الحُكم دخولًا أوّليًا. [١١٣ظ]

﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾

﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ﴾ متعلِّق بـ﴿صَرَفَكُمۡ﴾،[١] أو بقوله تعالى: ﴿لِيَبۡتَلِيَكُمۡ﴾،[٢] أو بمقدَّر كـ"اذكروا". والإصعاد: الذهابُ والإبعادُ في الأرض. وقُرئ: "تَصْعَدُونَ"[٣] مِن الثلاثيّ، أي: في الجبل. وقُرئ: "تَصَعَّدُونَ"[٤] مِن التفعّل بطرح إحدى التاءين. وقُرئ: "يَصْعَدُونَ"[٥] بالالتفات إلى الغيبة. ﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ أي: لا تلتفتون إلى ما وراءكم، ولا يقف واحدٌ منكم لواحد. وقُرئ: "تَلُونَ"[٦] بواوٍ واحدةٍ بقلب الواو المضمومةِ همزةً وحذفِها تخفيفًا. وقُرئ: "يَلْوُونَ"[٧] كـ"يَصْعَدُونَ".

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن نوح القاري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن وابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن وابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ﴾ كان صلّى الله عليه وسلّم يدعوهم: «إليَّ عبادَ الله، إليَّ عبادَ الله، أنا رسولُ الله، مَن يكِرُّ فله الجنّةُ».[١] وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة للإيذان بأنّ دعوته عليه السلام كانت بطريق الرسالة مِن جهته سبحانه إشباعًا في توبيخ المُنهزمين. ﴿فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ في ساقتكم[٢] وجماعتِكم الأخرى.

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿صَرَفَكُمۡ﴾، أي: فجازاكم الله تعالى بما صنعتم ﴿غَمَّۢا﴾ موصولًا ﴿بِغَمّٖ﴾ مِن الاغتمام بالقَتل والجَرْحِ وظَفَرِ المشركين والإرجافِ بقَتل الرسولِ صلّى الله عليه وسلّم وفَوْتِ الغنيمة، فالتنكيرُ للتكثير. أو غمًّا بمقابلة غَمّ أذَقْتموه رسولَ الله عليه السلام[٣] بعِصيانكم له. ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ أي: لتتمرّنوا على الصبر في الشدائد، فلا تحزَنوا على نفعٍ فاتَ أو ضُرٍّ آتٍ. وقيل: "لا" زائدة، والمعنى: لتتأسّفوا على ما فاتكم مِن الظَّفَر والغنيمة، وعلى ما أصابكم مِن الجراح والهزيمةِ عقوبةً لكم.

وقيل: الضميرُ في "أثابَكم" للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أي: واساكم في الاغتمام، فاغتمّ بما نزل عليكم كما اغتمَمتم بما نزل عليه، ولم يُثرِّبْكم[٤] على عِصيانكم تسليةً لكم وتنفيسًا[٥] عنكم؛ لئلّا تحزنوا على ما فاتكم مِن النصر، وما أصابكم مِن الجِراح وغيرِ ذلك. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: عالمٌ بأعمالكم وبما قصدتم بها.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾

[١] الكشّاف للزمخشري، ١/٤٢٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٤٣. وأوّله في جامع البيان للطبري، ٦/١٤٦.
[٢] ساقة الجيش: مؤخَّره. الصحاح للجوهري، «سوق».
[٣] ي: صلّى الله عليه وسلّم.
[٤] التثريب: التّعيير والاستقصاء في اللّوم. الصحاح للجوهري، «ثرب».
[٥] ي: وتنصيصًا.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾.[١] والخطاب للمؤمنين حقًّا. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ﴾ أي: الغمّ المذكور. والتصريح بتأخُّر الإنزال عنه مع دلالة ﴿ثُمَّ﴾ عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيان، وتذكيرِ عِظَم النعمة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ﴾ الآيةَ [النحل، ١١٩/١٦].

﴿أَمَنَةً﴾ أي: أمْنًا، نصب[٢] على المفعوليّة. وقوله تعالى: ﴿نُّعَاسًا﴾ بدل منها، أو عطفُ بيانٍ، وقيل: مفعول له،[٣] أو هو المفعول، و﴿أَمَنَةً﴾ حال منه متقدّمة عليه، أو مفعول له، أو حال مِن المخاطَبين على تقدير مضاف، أي: ذوي أَمَنةٍ، أو على أنّه جمعُ "آمِن"، كـ"بارّ وبرَرَة". وقُرئ بسكون الميم،[٤] كأنّها مَرّة مِن الأمْن. وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لِما مرّ غيرَ مرّةٍ مِن الاعتناء بشأن المقدَّمِ، والتشويقِ إلى المؤخَّر. وتخصيص الخوفِ مِن بين فنون الغمّ بالإزالة لأنّه المهمُّ عندهم حينئذ؛ لِما أنّ المشركين لمّا انصرفوا كانوا يتوعّدون المسلمين بالرجوع، فلم يأمَنوا كرَّتَهم، وكانوا تحت الحَجَفِ[٥] متأهِّبين للقتال، فأنزل الله تعالى عليهم الأمَنة، فأخذهم النعاسُ.[٦]

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «آمنهم يومئذ بنعاس يغشاهم بعد خوف، وإنّما ينعُس مَن أمِن، والخائفُ لا ينام».[٧]

وقال الزّبير رضي الله عنه: «كنتُ مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حين اشتدَّ الخوف، فأنزل الله علينا النومَ، واللهِ إنّي لأسمع قولَ مُعتِّبِ بن قُشَير[٨] والنُّعاسُ

---

١ في الآية السابقة.

٢ ي - نصب.

٣ ط - وقيل: مفعول له.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصن ويحيى وإبراهيم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٢٣.

٥ الحَجَف -محرّكةً-: التُّروس مِن جلود بلا خشب ولا عقب، واحدتهما: حَجَفة. **القاموس المحيط** للفيروزابادي، «حجف».

٦ **التفسير البسيط** للواحدي، ٨٧/٦؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٠٦/١.

٧ **جامع البيان** للطبري، ١٦١/٦؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٨٧/٣.

٨ هو مُعتِّب بن قُشَير بن مليل بن زيد الأنصاري الأوسي. ذُكر فيمَن شهد العقبة. قال الحافظ ابن حجر: قيل: إنّه كان منافقًا، وأنّه الذي قال يوم أحد: "لو كان لنا مِن الأمر شيء ما قتلنا ههنا". وقيل: إنّه تاب. وقد ذكَره ابن إسحاق فيمَن شهد بدرًا. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٤٢٩/٣؛ **والإصابة** لابن حجر، ٢٦٤/١٠.

يغشاني، ما أسمعه إلّا كالحُلُم، يقول: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾».[١]

وقال أبو طلحةَ رضي الله عنه:[٢] «رفعتُ رأسي يومَ أحُدٍ، فجعلتُ لا أرى أحدًا مِن القوم إلّا وهو يَميدُ[٣] تحت حَجَفَتِه مِن النُّعاس». قال: «وكنتُ ممّن أُلقِيَ عليه النُّعاس يومئذٍ، فكان السيف يسقط مِن يدي فآخذه، ثمّ يسقط السَّوط مِن يدي فآخذه».[٤]

وفيه دلالة على أنّ مِن المؤمنين[٥] مَن[٦] لم يُلْقَ عليه النّعاسُ، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾، قال ابن عبّاس رضي الله عنه:[٧] «هم المهاجرون وعامّةُ الأنصار».[٨] ولا يقدَح ذلك في عموم الإنزال للكلّ. والجملة في محلّ النصب على أنّها[٩] صفة لـ﴿نُّعَاسًا﴾. وقُرِئ بالتاء[١٠] على أنّها[١١] صفة لـ﴿أَمَنَةٗ﴾. وفيه أنّ الصفة حقُّها أن تتقدّم على البدل وعطفِ البيان، وأن لا يُفصَل بينها وبين الموصوف بالمفعول له، وأنّ المعهود أن يحدَّث عن البدل دون المُبدَل منه.

﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: أوقعَتهم في الهموم والأحزان، أو ما بهم إلّا همُّ أنفسِهم وقصدُ خلاصِها، مِن قولهم: أهمّني الشيء، أي: كان مِن هِمّتي وقصدي. والقَصر مستفاد بمعونة المقام. ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ مبتدأ، وما بعدها إمّا خبرها، وإنّما جاز ذلك مع كونها نكرةً لاعتمادها على واو الحال، كما في قوله:

سَرينا ونجمٌ قد أضاء فمُذ بَدا   محيّاكِ أخفى ضوءَه كلَّ شارقِ[١٢]

---

[١] اللباب لابن عادل، ٦١٢/٥. ونحوه في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٨/١، لكن قال: "عن ابن الزبير". وأخرجه الطبري في جامع البيان، ١٦٨/٦، عن عبد الله بن الزبير عن الزبير رضي الله عنهما.

[٢] ط: رحمه الله.

[٣] مادَ الشيء يَميدُ ميدًا: تحرّك. ومادت الأغصان: تمايلت. الصحاح للجوهري، «ميد».

[٤] جامع البيان للطبري، ١٦١/٦؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٦/١.

[٥] وفي هامش ط س ي: إذ لا معنى للإخبار بكونهم مِن المؤمنين دون المنافقين. «منه».

[٦] ي - مَن.

[٧] ط س - رضي الله عنه.

[٨] التفسير البسيط للواحدي، ٩١/٦.

[٩] ط: أنّه.

[١٠] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.

[١١] ي: أنّه.

[١٢] بغير نسبة في مغني اللبيب لابن هشام، ص ٦١٣. | "سَرينا": مِن السّرى، وهو سير الليل. و"المحيّا": الوجه، لأنه يُحيّى عند رؤيته. و"الشارق": النجم، وكل مضيء، والمراد ذو الشروق. انظر: شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي، ٣٣/٧.

أو لوقوعها في موضع التفصيل، كما في قوله:

إذا ما بكى مِن خَلفها انصرَفَتْ له   بشِقٍّ وشقٌّ عندنا لم يُحَوَّلِ[١]

وإمّا صفتُها والخبرُ محذوف، أي: ومعكم طائفة، أو وهناك طائفة. وقيل: تقديره: ومنكم طائفة، وفيه أنّه يقتضي دخولَ المنافقين في الخطاب بإنزال الأمَنة. وأيًا ما كان فالجملةُ إمّا حاليّة مبيّنة لفظاعة الهولِ مؤكِّدةٌ لعِظَم النعمة في الخلاص عنه، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت، ٦٧/٢٩]، وإمّا مستأنَفة مَسوقة لبيان حالِ المنافقين.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ﴾ حال مِن ضمير ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾، أو مِن ﴿طَآئِفَةٌ﴾ لتخصّصها بالصفة، أو صفةٌ أخرى لها، أو خبر بعد خبرٍ، أو استئنافٌ مبيّنٌ لِما قبله. وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ في حُكم المصدرِ، أي: يظنّون به تعالى غيرَ الظنِّ الحقِّ الذي يجب أن يُظنّ به سبحانه. وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل منه، وهو الظنّ المختصّ بالمِلّة الجاهليّة. والإضافة كما في حاتِم الجُودِ، ورجل صِدْقٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لِما أنّ مسألَتَهم كانت صادرةً عن الظنّ، أي: يقولون لرسولِ الله صلّى الله تعالى[٢] عليه وسلّم على صورة الاسترشاد: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: مِن أمر الله تعالى ووعدِه مِن النصر والظفَر ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: مِن نصيب قطّ؟ أو هل لنا مِن التدبير مِن شيء؟

وقوله تعالى: ﴿قُلْ / إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: الغلبةَ بالآخرة لله تعالى ولأوليائه، [١١٤و] فإنّ حزب الله هم الغالبون. أو إنّ التدبير كلَّه لله تعالى، فإنّه تعالى قد دبّر الأمرَ كما جرى في سابق قضائِه، فلا مردَّ له. وقُرئ: "كُلُّهُ" بالرفع على الابتداء.[٣]

وقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ أي: يُضمرون فيها، أو يقولون فيما بينهم بطريق الخُفية ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ استئناف أو حال مِن ضمير ﴿يَقُولُونَ﴾.

---

١ لامرئ القيس في شرح شواهد المغني للسيوطي، ٤٠٢/١. وهو في ديوانه، ص ١٢، بلفظ: "انحرفت" بدل "انصرفت".

٢ س ي – تعالى.

٣ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ﴾... إلخ اعتراض بين الحال وصاحبِها، أي: يقولون ما يقولون مُظْهِرين أنّهم مسترشِدون طالبون للنصر، مُبْطنين الإنكارَ والتكذيبَ.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف وقَع جوابًا عن سؤال نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: أيّ شيء يُخفون؟ فقيل: يحدِّثون أنفسَهم، أو يقول بعضُهم لبعض فيما بينهم خُفيةً: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كما وعد محمّد عليه السلام[1] مِن أنّ الغلبةَ لله تعالى ولأوليائه، وأنّ الأمر كلّه لله، أو لو كان لنا مِن التدبير والرأيِ[2] شيء ﴿مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، أي: ما غُلبنا، أو ما قُتل مَنْ قُتل منّا في هذه المعركة، على أنّ النفي راجع إلى نفس القتل، لا إلى وقوعه فيها فقط، أو لَمَا بَرِحنا مِن منازلنا كما رآه ابنُ أُبيّ، ويؤيّده تعيينُ مكان القتل، وكذا قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ أي: لو لم تخرجوا إلى أُحُد وقعدتم بالمدينة -كما تقولون- ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾ أي: في اللوح المحفوظِ بسبب مِن الأسباب الداعيةِ إلى البروز ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ إلى مصارعهم التي قدَّر الله تعالى قتلَهم فيها، وقُتلوا هنالك[3] البتّةَ، ولم ينفَعِ العزيمةُ على الإقامة بالمدينة قطعًا، فإنّ قضاء الله تعالى لا يُرَدّ، وحُكمه لا يُعقَّب.

وفيه مبالغة في ردِّ مقالتهم الباطلة حيث لم يُقتَصر على تحقيق نفسِ القتل، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء، ٧٨/٤]؛ بل عُيّن مكانُه أيضًا، ولا ريب في تعيُّن زمانه أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف، ٣٤/٧].

رُوي أنّ ملَك الموتِ حضر مجلس سليمان عليهما السلام، فنظر إلى رجل مِن أهل المجلس نَظرةً هائلة، فلمّا قام قال الرجل: «مَن هذا؟» فقال سليمان عليه السلام: «ملَكُ الموت»، قال: «أرسِلْني مع الريح إلى عالَم آخَر، فإنّي رأيتُ منه مرأًى هائلًا»، فأمرها عليه السلام فألقتْه في قُطْر سحيق مِن أقطار العالَم، فما لبث أن عاد ملَك الموت إلى سليمان عليهما السلام، فقال: «كنتُ أُمِرتُ

[1] ي: صلّى الله عليه وسلّم.
[2] ي: الأمن والتدبير.
[3] ي: هناك.

بقبض روح ذلك الرجل في هذه الساعة في أرض كذا، فلمّا وجدتُه في مجلسك قلتُ: متى يصِلُ هذا إليها؟ وقد أرسلتَه بالريح إلى ذلك المكانِ فوجدتُه هناك، فقُضي أمر الله عزّ وجلّ في زمانه ومكانه مِن غير إخلالٍ بشيءٍ مِن ذلك».[١]

وقُرئ: "كَتَبَ" على البناء للفاعل، ونَصبِ "القَتْلَ".[٢] وقُرئ: "كُتِبَ عَلَيهِمُ الْقِتَالُ".[٣] وقُرئ: "لَبُرِّزَ" بالتشديد على البناء للمفعول.[٤]

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ أي: لِيعاملَكم معاملةَ مَن يبتلي ما في صدوركم مِن الإخلاص والنفاق، ويُظهر ما فيها مِن السَّرائر. وهو علّة لفعل مقدَّرٍ قبلها معطوفةٌ على عِلَل لها أخرى مطويّةٍ للإيذان بكثرتها، كأنّه قيل: فعَل ما فعَل لمصالحَ جمّةٍ، وليبتليَ... إلخ. وجعلُها عِللًا لِـ"بَرَزَ"[٥] يأباه الذوق السليم، فإنّ مقتضى المقامِ بيانُ حكمة ما[٦] وقع يومئذ مِن الشدّة والهولِ، لا بيانُ حِكمةِ البُروزِ المفروض. أو لفعلٍ مقدَّرٍ بعدها، أي: وللابتلاء المذكورِ فعَل ما فعَل، لا لعدم العنايةِ بأمر المؤمنين ونحو ذلك. وتقدير الفعل مقدَّمًا خالٍ عن هذه المزيّة.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ مِن مَخفيّات الأمورِ، ويكشِفَها أو يُخلِّصَها مِن الوساوس.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: السرائر والضمائرِ الخفيّةِ التي لا تكاد تفارقُ الصدور؛ بل تلازِمها وتصاحبها. والجملة إمّا اعتراض للتنبيه على أنّ الله تعالى غنيّ عن الابتلاء، وإنّما يُبرِز صورةَ الابتلاء لتمرين المؤمنين، وإظهارِ حالِ المنافقين، أو حال مِن متعلَّق الفعلين، أي: فعَل ما فعَل للابتلاء والتمحيص، والحال أنّه تعالى غنيٌّ عنهما محيط[٧] بخفيّات الأمور. وفيه وعدٌ ووعيد.

---

١ انظر: الزهد للإمام أحمد، ص ٣٧ (٢٢٢)؛ ومصنَّف ابن أبي شيبة، ٧٠/٧ (٢٤٢٦٨)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٩/٧ (السجدة، ١١/٣٢)، وهو موقوف على شَهر بن حَوشَب.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم وأبي حيوة ويزيد بن قطيب. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٣؛ والكامل للهذلي، ص ٥٢١.

٥ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٤/٢.

٦ ي - ما.

٧ ي: لعلمه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٥٥﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وهم الذين انهزموا يومَ أُحُد حسبما مرّت حكايتهم ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: إنّما كان سببُ انهزامِهم أنّ الشيطان طلب منهم الزلَل ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ﴾ مِن الذنوب والمعاصي التي هي: مخالَفة أمرِ النبيّ صلّى الله تعالى[1] عليه وسلّم، وتركُ المَركز، والحِرصُ على الغنيمة أو الحياة، فحُرِموا التأييدَ وقوّةَ القلب. وقيل: استزلالُ الشيطانِ: تولّيهم؛ وذلك بذنوب تقدّمت لهم، فإنّ المعاصيَ يجرّ بعضها إلى بعض كالطاعة. وقيل: استزلّهم بذنوب سبَقتْ منهم، وكرِهوا القتلَ قبل إخلاصِ التوبةِ والخروجِ مِن المَظلمة.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتوبتهم واعتذارِهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجِل بعقوبة المذنب ليتوب. والجملة تعليل لِما قبلها على سبيل التحقيق. وفي إظهار الجلالة تربية للمَهابة، وتأكيد للتعليل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٥٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المنافقون القائلون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.[2] وإنّما ذُكر في صدر الصِّلة كفرُهم تصريحًا بمبايَنة حالِهم لحال المؤمنين، وتنفيرًا عن مماثلتهم آثِرَ ذي أثيرٍ.[3] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ تعيين لوجه الشَّبهِ والمماثلةِ التي نُهوا عنها، أي: قالوا لأجلهم وفي حقّهم، ومعنى أُخوّتِهم: اتّفاقهم نسَبًا أو مذهبًا.

﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافَروا فيها وأبعَدوا للتجارة أو غيرِها. وإيثار "إذا" المفيدةِ لمعنى[4] الاستقبالِ على "إذ" المفيدةِ لمعنى المُضيّ لحكاية الحال الماضية؛

---

[1] س ي – تعالى.
[2] آل عمران، ١٥٤/٣.
[3] آثِرَ ذي أَثيرٍ، أي: أوّلَ كلّ شيء. الصحاح للجوهري، «أثر».
[4] ي: بمعنى.

إذِ المراد بها: الزمان المستمرّ المنتظِم للحال الذي عليه يدور أمرُ استحضارِ الصورة. قال الزجّاج: «﴿إِذَا﴾ ههنا تنوبُ عمّا مضى مِن الزمان وما يُستقبل».[١] يعني: إنّها لِمجرّد الوقت، أو يُقصد بها / الاستمرار. وظرفيّتُها لقولهم إنّما هي [١١٤ظ] باعتبار ما وقع فيها؛ بل التحقيق أنّها ظرف له، لا لقولهم، كأنّه قيل: قالوا لأجل ما أصاب إخوانَهم حين ضربوا... إلخ.

﴿أَوْ كَانُواْ﴾ أي: إخوانُهم ﴿غُزًّى﴾ جمعُ "غازٍ"، كعُفًّى جمعُ "عافٍ"،[٢] قال:

ومُـغْـبَـرّةِ الآفـاقِ خاشعةِ الـصُّـوَى   لـهـا قُـلُـبٌ عُـفًّـى الـحِـيـاضِ أُجـونُ[٣]

وقُرِئَ بتخفيف الزاء[٤] على حذف التاء، مِن غُزاة. وإفراد كونِهم غُزاةً بالذِّكر -مع اندراجه تحت الضرب في الأرض- لأنّه المقصود بيانُه في المقام. وذِكر الضربِ في الأرض توطئة له. وتقديمه لكثرة وقوعِه، على أنّه قد يوجد بدون الضربِ في الأرض؛ إذ المراد به السفر البعيد. وإنّما لم يُقَل: أو غَزَوا؛ للإيذان باستمرار اتّصافِهم بعنوان كونِهم غزاةً أو بانقضاء ذلك، أي: كانوا غُزًّا فيما مضى.

وقوله تعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا﴾ أي: مقيمين ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ مفعول لـ﴿قَالُواْ﴾، ودليل على أنّ هناك مضمَرًا قد حُذف ثقةً به، أي: إذا ضربوا في الأرض فماتوا، أو كانوا غُزًّا فقُتلوا. وليس المقصود بالنهي عدمَ مماثلتِهم في النُّطق بهذا القول؛

---

١ معاني القرآن للزجّاج، ١/٤٨٥.

٢ عفا المنزل يَعفو: درَس، والعافي: الدارس. انظر: الصحاح للجوهري، «عفا»؛ معجم ديوان الأدب للفارابي، ٤/٣٨.

٣ وفي هامش س ي: وقبله:

لعَمرُك ما هندٌ وإن سَخِطت بها
نَـوًى غَـربـةٌ عـمّـا أُريـدُ شَـطـونُ
بناقضةٍ عهدي وإن حالَ دونها
حُـزُون بـدا مَـن دُونـهـنّ حُـزُونُ
ومُغبرّة... إلخ[(١)]

| [(١)] هامش أ + مِن خطّه أيضًا. | الأبيات لامرئ القيس في ديوانه، ص ٢٨٣. بلفظ:

لعَمرُك ما هندٌ وإن شَخَطت بها
نَـوًى غَـربـةٌ عـمّـا أُريـدُ شَـطـونُ
بناسيةٍ عهدي ولو حالَ دونها
حُـزُون تُـرى ما دُونَـهـنّ حُـزُونُ
ومُغْبَرّةِ الآفـاقِ خاشعةِ الصُّوَى
لها قُلُبٌ عُفُّ الحياضِ أُجونُ

وفي البيت يصِف مفازةً بأنّها لم تُسلك قبله. و"الصُّوى" جمع صُوّة، وهي الحجارة تُنصب علَمًا للمَفازة. و"القُلُب" جمع قَليب، وهي البئر القديمة. و"أُجونٌ" جمع أَجِنة، بمعنى: مُتغيّرة. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣/٧٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري وأبي حيوة والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

بل في الاعتقاد بمَضمونه، والحُكمِ بموجَبه، كما أنّه المنكَرُ على قائليه، ألا يُرى إلى قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾؟ فإنّه الذي جُعل حسرةً فيها قطعًا، وإليه أشير بذلك، كما نقل عن الزجّاج أنّه «إشارة إلى ظنِّهم أنّهم لو لم يحضروا القتالَ لم يُقتلوا».[٢] وتعلّقُه بـ﴿قَالُواْ﴾ ليس باعتبار نطقِهم بذلك القول؛ بل باعتبار ما فيه مِن الحُكم والاعتقاد.

واللام لام العاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص، ٨/٢٨]، أي: قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرةً في قلوبهم. والمراد بالتعليل المذكور بيانُ عدمِ ترتُّبِ فائدةٍ ما على ذلك أصلًا. وقيل: هو تعليل للنهي، بمعنى: لا تكونوا مِثلَهم في النطق بذلك القول واعتقادِه؛ ليجعلَه الله تعالى حسرةً في قلوبهم خاصّة، ويصونَ منها قلوبَكم، فذلك كما مرّ إشارة إلى ما دلّ عليه قولهم مِن الاعتقاد، ويجوز أن يكون إشارةً إلى ما دلّ عليه النهي، أي: لا يكونوا[٣] مثلهم؛ ليجعل الله انتفاءَ كونِكم مثلَهم حسرةً في قلوبهم، فإنّ مُضادّتَكم لهم في القول والاعتقادِ ممّا يغُمُّهم ويُغيظُهم.

﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ردٌّ لقولهم الباطل إثرَ بيان غائلتِه، أي: هو المؤثِّر في الحياة والممات وحدَه مِن غير أن يكون للإقامة أو السفر مدخلٌ في ذلك، فإنّه تعالى قد يُحيي المسافرَ والغازيَ مع اقتحامهما لموارد الحُتوف،[٤] ويُميت المقيمَ والقاعدَ مع حِيازتهما لأسباب السلامة.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تهديد للمؤمنين على أن يماثلوهم. وقُرئ بالياء[٥] على أنّه وعيد للذين كفروا. و﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ عامّ متناوِل لقولهم المذكور، ولِمَنشئه الذي[٦] هو اعتقادهم، ولِما ترتَّب على ذلك مِن الأعمال، ولذلك تعرّض لعنوان البصَر، لا لعنوان السمعِ. وإظهار الاسمِ الجليلِ في موقع الإضمارِ لتربية المهابة وإلقاءِ الرَّوْعة، والمبالغةِ في التهديد، والتشديدِ في الوعيد.

---

١ س: تعالى.
٢ انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٤٨٢/١.
٣ ي: يكون.
٤ ي: الحقوف.
٥ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٤٢/٢.
٦ ي: الذين.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ١٥٧﴾

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ شروع في تحقيق أنّ ما يحذرون ترتُّبَه على الغزو والسفر مِن القتل والموت في سبيل الله تعالى ليس ممّا ينبغي أن يُحذر؛ بل ممّا يجب أن يتنافسَ فيه المتنافسون إثرَ إبطال ترتُّبه عليهما. واللام هي الموطِّئة للقسَم، وما في قوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ لامُ الابتداء. والتنوين في الموضعين للتقليل. و﴿مِن﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً للمبتدأ. وقد حُذفت صفةُ ﴿رَحْمَةٌ﴾ لِدلالة المذكور عليها. والجملة جواب للقسَم، سادٌّ مَسدَّ جوابِ الشرط.

والمعنى: إنّ السفر والغزو ليس ممّا يجلُب الموتَ ويقدّم الأجلَ أصلًا، ولئن وقع ذلك بأمر الله تعالى لَنفحةٌ[١] يسيرةٌ مِن مغفرة ورحمة كائنتين مِن الله تعالى بمقابلة ذلك ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ -أي: الكفَرةُ- مِن منافع الدنيا وطيّباتها مدّة أعمارِهم. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «خيرٌ مِن طِلاع الأرضِ ذَهَبةً حمراءَ».[٢]

وقُرئ بالتاء،[٣] أي: ممّا تجمعونه أنتم لو لم تموتوا. والاقتصار على بيان خيريّتهما مِن ذلك بلا تعرّضٍ للإخبار بحصولهما لهم للإيذان بعدم الحاجةِ إليه بناءً على استحالة التخييبِ منه تعالى بعد الإطماع. وقد قيل: لا بدّ مِن حذفٍ آخَر، أي: لَمغفرةٌ[٤] لكم مِن الله... إلخ، وحينئذ أيضًا يكون إخراجُ المقدَّرِ مُخرَجَ الصفةِ دون الخبر لِنحو ما ذُكر مِن ادّعاء الظهورِ والغنى عن الإخبار به.[٥]

وتغيير الترتيب الواقعِ في قولهم: ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ المبنيّ على كثرة الوقوع وقِلّتِه للمبالغة في الترغيب في الجهاد ببيان زيادةِ مزيّةِ القتلِ في سبيل الله وإنافتِه في استجلاب المغفرة والرحمة. وفيه دلالة واضحة على ما مرّ مِن أنّ المقصود بالنهي إنّما هو عدمُ مماثلتِهم في الاعتقاد بمَضمون القولِ المذكور والعملِ بموجَبه، لا في النطق به وإضلالِ الناس به.

---

١ ط: لنفحة.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٣١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٤٠٥. | قال الأصمعي: طِلاع الأرض: ملؤها. الصحاح للجوهري، «طلع».

٣ قرأ بها جمهور القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٣.

٤ ي: لمغفرةِ.

٥ س - به؛ ي: الإخبارية.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ١٥٨﴾

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ أي: على أيِّ وجهٍ اتّفق هلاكُكم حسب تعلُّقِ الإرادةِ الإلهيّة. وقُرئ: "مِتُّم" بكسر الميم،[١] مِن "مات يَمات". ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى المعبود بالحقّ، العظيمِ الشأنِ، الواسعِ الرحمةِ، الجزيلِ الإحسانِ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره، فيوفّي أجوركم، ويُجزِل لكم عطاءكم. والكلام في لامَي الجملة كما مرّ في أختها.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله تعالى[٢] عليه وسلّم. والفاء لترتيب مضمونِ الكلام على ما يُنبئ عنه السباق مِن استحقاقهم اللائمة والتعنيفِ بموجَب الجِبِلّة البشريّة، أو مِن سَعة ساحةِ مغفرتِه تعالى ورحمتِه. والباء متعلِّقة بـ﴿لِنتَ﴾، قُدِّمت عليه للقصر. و﴿مَا﴾ مزيدة للتوكيد، أو نكِرة، و﴿رَحْمَةٍ﴾ بدل منها مُبيّن لإبهامها. والتنوين للتفخيم. و﴿مِن﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً لـ﴿رَحْمَةٍ﴾، أي: فبرحمةٍ عظيمةٍ لهم كائنةٍ مِن الله تعالى -وهي ربطُه على جأشه، وتخصيصُه بمكارم الأخلاقِ- كنتَ ليّنَ الجانبِ لهم، وعامَلْتَهم بالرِّفق والتلطّفِ بهم، حيث اغتمَمْتَ لهم بعد ما كان منهم ما كان مِن مخالفة أمرِك وإسلامِك للعدوّ.

[١١٥و] ﴿وَلَوْ﴾ لم تكن كذلك؛ بل ﴿كُنتَ فَظًّا﴾ جافيًا / في المعاشرة قولًا وفعلًا. وقال الراغِب: «الفَظُّ: هو الكَرِيهُ الخلُقِ». وقال الواحدي: «هو الغليظُ الجانبِ، السيّئُ الخلُقِ».[٣] ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ قاسِيَه، وقال الكلبي: «﴿فَظًّا﴾ في القول، ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ في الفعل».[٤] ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لَتفرّقوا مِن عندك ولم يسكُنوا إليك، وتردَّوا في مهاوي الردى.

---

[١] قرأ بها نافع وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٣.

[٢] س ي - تعالى.

[٣] المفردات للراغب الأصفهاني، ص ٦٤٠.

[٤] الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٩٠؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١/٥١٢.

والفاء في قوله عزّ وجلّ:[١] ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ لترتيب العفوِ، أو الأمرِ به على ما قبله، أي: إذا كان الأمر كما ذُكر فاعفُ عنهم فيما يتعلّق بحقوقك كما عفا الله عنهم. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ اللهَ فيما يتعلّق بحقوقه تعالى إتمامًا للشفقة عليهم، وإكمالًا للبِرّ بهم. ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: في أمر الحربِ؛ إذ هو المعهودُ، أو فيه وفي أمثاله ممّا يجري فيه المشاورةُ عادةً استظهارًا بآرائهم، وتطييبًا لقلوبهم، وتمهيدًا لسُنّة المشاورةِ للأمّة. وقُرئ: "وَشاوِرْهُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ".[٢]

﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ﴾ أي: عَقيبَ المشاورةِ على شيء، واطمأنّتْ به نفسُك ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في إمضاء أمرِك على ما هو أرشد لك وأصلَح، فإنّ عِلمه مختصّ به سبحانه وتعالى. وقُرئ: "فَإِذَا عَزَمْتُ" على صيغة التكلّم،[٣] أي: عَزمتُ لك على شيء وأرشدتُك إليه فتوكّلْ عليّ، ولا تشاوِرْ بعد ذلك أحدًا. والالتفات لتربية المَهابة وتعليلِ التوكُّلِ، أو الأمرِ به، فإنّ عنوان الألوهيّة الجامعةِ لجميع صفات الكمال مستدعٍ للتوكُّل عليه تعالى والأمرِ به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه تعالى، فينصرهم ويُرشِدهم إلى ما فيه خير لهم وصلاح. والجملة تعليل للتوكُّل عليه تعالى.

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾

وقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ جملة مستأنَفة، سيقت بطريق تلوينِ الخطابِ تشريفًا للمؤمنين لإيجاب توكّلِهم عليه تعالى، وحثِّهم على اللَّجَأ إليه، وتحذيرِهم عمّا يُفضي إلى خِذلانه، أي: إن ينصُركم كما نصَركم يومَ بدرٍ فلا أحدَ يغلِبُكم، على طريق نفي الجنس المنتظِم لنفي جميع أفرادِ الغالبِ ذاتًا وصفةً. ولو قيل: فلا يغلبكم أحدٌ لَدلَّ على نفي الصفة فقط.

---

[١] ي: تعالى.

[٢] ي: الأمور. | قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الشعثاء جابر بن يزيد وأبي نَهيك الفراهيدي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

ثمّ المفهوم مِن ظاهر النظم الكريم وإن كان نفيَ مغلوبيّتِهم مِن غير تعرُّضٍ لِنفي المساواة أيضًا، وهو الذي يقتضيه المقام؛ لكنّ المفهوم منه فهمًا قطعيًّا هو نفي المساواة، وإثبات الغالبيّةِ للمخاطَبين. فإذا قلتَ: لا أكرمَ مِن فلان، أو لا أفضلَ منه، فالمفهومُ منه حتمًا أنّه أكرمُ مِن كلّ كريم، وأفضلُ مِن كلّ فاضل، وهذا أمر مطَّرد في جميع اللغات، ولا اختصاصَ له بالنفي الصريح؛ بل هو مطَّرد فيما ورد على طريق الاستفهام الإنكاريّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام، ٦/٩٣] في مواقعَ كثيرةٍ مِن التنزيل. وممّا هو نص قاطع فيما ذكرنا ما وقع في سورة هودٍ حيث قيل بعده في حقِّهم: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود، ١١/٢٢]، فإنّ كونهم أخسرَ مِن كلّ خاسرٍ يستدعي قطعًا كونَهم أظلمَ مِن كلّ ظالم.

﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ كما فعَله يومَ أُحُد. وقُرِئ: "يُخْذِلْكُمْ"[١] مِن "أخذَله" إذا جعله مَخذولًا. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ استفهام إنكاريّ مفيد لانتفاء الناصرِ ذاتًا وصفةً بطريق المبالغة. ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد خِذلانه تعالى، أو مِن بعد الله تعالى، على معنى: إذا جاوزتموه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تقديم الجارِّ والمجرور على الفعل لإفادة قَصرِه عليه تعالى. والفاء لترتيبه أو ترتيبِ الأمرِ به على ما مرّ مِن غلَبة المخاطَبين على تقدير نُصرتِه تعالى لهم، ومغلوبيّتِهم على تقدير خِذلانِه تعالى إيّاهم، فإنّ العِلم بذلك ممّا يقتضي قصرَ التوكّلِ عليه تعالى لا محالة. والمراد بالمؤمنين إمّا الجنسُ، والمخاطَبون داخلون فيه دخولًا أوّليًّا، وإمّا هم خاصّةً بطريق الالتفاتِ. وأيًّا ما كان ففيه تشريف لهم بعنوان الإيمانِ اشتراكًا أو استقلالًا، وتعليلٌ لتحتّم التوكّل عليه تعالى، فإنّ وصف الإيمان ممّا يوجبه قطعًا.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ﴾ أي: وما صحّ لنبيٍّ مِن الأنبياء عليهم السلام ولا استقامَ له

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن جعفر بن محمد وابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٤.

﴿أَن يَغُلَّ﴾ أي: يخونَ في المغنَم؛ فإنّ النبوّة تنافيه منافاةً بيّنة، يقال: غَلَّ شيئًا مِن المَغنَم يَغُلّ غُلولًا، وأَغلّ إغلالًا، إذا أخذه خُفْيةً.

والمراد إمّا تنزيه ساحةِ رسولِ الله صلّى الله تعالى[١] عليه وسلّم عمّا ظنّ به الرماةُ يومَ أحُد حين تركوا المركزَ وأفاضوا في الغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن أخذ شيئًا فهو له»، ولا يقسِمَ الغنائمَ كما لم يقسمْها يومَ بدرٍ، فقال لهم النبيّ صلّى الله تعالى[٢] عليه وسلّم: «ألَم أعهَدْ إليكم أن لا تتركوا المركزَ حتّى يأتيَكم أمري؟» فقالوا: تركنا بقيّةَ إخوانِنا وقوفًا، فقال عليه السلام: «بل ظننتم أنّا نغُلّ، ولا نقسِمُ بينكم».[٣]

وإمّا المبالغة في النهي لرسول الله صلّى الله تعالى[٤] عليه وسلّم على ما رُوي أنّه بعَث طلائِعَ فغنِم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٥] بعدهم غنائِمَ فقسمها بين الحاضر، ولم يترك للطلائع شيئًا، فنزلت.[٦] والمعنى: ما كان لنبيّ أن يُعطيَ قومًا مِن العسكر ويمنَعَ آخَرين؛ بل عليه أن يقسِمَ بين الكلّ بالسويّة. وعُبّر عن حِرمان بعضِ الغزاةِ بالغُلول تغليظًا.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المراد تنزيهُه عليه السلام[٧] عمّا تفوّه به بعضُ المنافقين -إذ رُوي أنّ قَطيفةً حمراءَ فُقدت يومَ بدر، فقال بعضُ المنافقين: لعلّ رسولَ الله صلّى الله تعالى[٨] عليه وسلّم أخذها-[٩] فبعيدٌ جدًّا. وقُرئ على البناء للمفعول،[١٠] والمعنى: ما كان له أن يوجَد غالًّا، أو يُنسَب إلى الغُلول.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يأتِ بالذي غلّه بعينه يحمِلُه على عنقه، كما ورد في الحديث الشريف ورُوي أنّه عليه السلام قال: «ألا لا أعرِفَنّ أحدَكم

---

١ س ي – تعالى.
٢ س ي – تعالى.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٦/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٤/١.
٤ س ي – تعالى.
٥ ي: عليه السلام.
٦ جامع البيان للطبري، ١٩٦/٦؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٤٩٤/٦ (٣٣٢٣١).
٧ ط: صلّى الله عليه وسلّم.
٨ س ي – تعالى.
٩ انظر: جامع البيان للطبري، ١٩٤/٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٣٤/١.
١٠ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٣/٢.

يأتي ببعير له رُغاءٌ، وببقرةٍ لها خُوارٌ، وبشاة لها ثُغاءٌ، فينادي: يا محمّد يا محمّد، فأقول: لا أملِك لك مِن الله شيئًا، فقد بلّغتُك».[١] أو يأتِ بما احتمل مِن إثمه ووبالِه.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ أي: تعطى وافيًا جزاءَ ما كسبت، خيرًا أو شرًّا، كثيرًا أو يسيرًا. وضَع المكسوب موضعَ جزائِه تحقيقًا للعدْل ببيان ما بينهما مِن تمام التناسُب كمًّا وكيفًا كأنّهما شيء واحد. وفي إسناد التوفية إلى كلّ كاسبٍ / وتعليقِها بكلّ مكسوبٍ -مع أنّ المقصود بيانُ حالِ الغالّ عند إتيانِه بما غلّه يوم القيامة- مِن الدلالة على فَخامة شأنِ اليومِ وهولِ مطلَعِه والمبالغةِ في بيان فظاعةِ حالِ الغالّ ما لا يخفى، فإنّه حين وُفّي كلُّ كاسبٍ جزاءَ ما كسبه ولم يُنقَص منه شيء -وإن كان جُرْمه في غاية القِلّة والحَقارة- فلأن لا يُنقَص مِن جزاء الغالّ شيء -وجُرمُه مِن أعظم الجرائم- أظهرُ وأجلَى. [١١٥ظ]

﴿وَهُمۡ﴾ أي: كلُّ الناس المدلولِ عليهم بـ﴿كُلُّ نَفۡسٖ﴾. ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب، أو بنقص ثواب.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢﴾

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: سعى في تحصيله، وانتحى نحوَه حيثما كان، بفعل الطاعات وترك المنكرات، كالنبيّ ومَن يسير بسيرته، ﴿كَمَنۢ بَآءَ﴾ أي: رجع ﴿بِسَخَطٖ﴾ عظيم لا يقادَرُ قدرُه، كائنٍ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تعالى بسبب مَعاصيه، كالغالّ ومَن يَدين بدينه. والمراد تأكيد نفي الغُلولِ مِن النبيّ عليه السلام،[٢]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٤/١. وهو في الصَّحيحين مِن رواية أبي هريرة رضي الله عنه، بلفظ: قام فينا النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، فذكَر الغُلول فعظَّمه وعظَّم أمره، قال: «لا أُلفِينّ أحدكم يوم القيامة على رقَبته شاة لها ثُغاء، على رقبته فرس له حَمْحَمة، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتُك، وعلى رقبته بعير له رُغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتُك، وعلى رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتُك، أو على رقبته رِقاعٌ تَخفِق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتُك». صحيح البخاري، ٧٤/٤ (٣٠٧٣)؛ صحيح مسلم، ١٤٦١/٣ (١٨٣١).

٢ ط: عليه الصلاة والسلام.

وتقريرُه بتحقيق المبايَنة الكلّيّة بينه وبين الغالّ حيث وُصف كلٌ منهما بنقيض ما وُصف به الآخَر، فقوبل رضوانُه تعالى بسَخَطه، والاتّباع بالبَوء.

والجمع بين الهمزة والفاء لتوجيه الإنكار إلى ترتّب توهُّمِ المماثلةِ بينهما، والحُكمِ بها على ما ذُكر مِن حال الغالّ، كأنّه قيل: أَبَعدَ ظهورِ حالِهِ يكونُ مَن ترقّى إلى أعلى عِلِّيّين كمَنْ ترَدَّى إلى أسفلِ سافلين؟[١] وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمارِ لإدخال الرَّوعةِ وتربيةِ المَهابة.

﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ إمّا كلام مستأنَف مَسوق لبيان مآلِ أمْرِ مَن باء بسَخَطه تعالى،[٢] وإمّا معطوف على قوله تعالى: ﴿بَآءَ بِسَخَطٍ﴾ عطفَ الصِّلة الاسميّة على الفعليّة. وأيًا ما كان فلا محلّ له مِن الإعراب.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ اعتراض تذييليّ، والمخصوص بالذمّ محذوف،[٣] أي: وبئس المصيرُ جهنّمُ. والفرق بينه وبين المرجِع أنّ الأوّل يُعتبر فيه الرجوعُ على خلاف الحالةِ الأولى، بخلاف الثاني.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

﴿هُمْ﴾ راجع إلى الموصولَين باعتبار المعنى. ﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: طبقات متفاوتة في علمه وحُكمه، شُبّهوا في تفاوت الأحوالِ وتبايُنِها بالدرجات مبالغةً وإيذانًا بأنّ بينهم تفاوتًا ذاتيًا كالدرجات، أو ذَوو درجاتٍ. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مِن الأعمال ودرجاتِها فيجازيهم بحسبها.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ﴾ جواب قسَمٍ محذوف، أي: واللهِ لقد مَنّ الله، أي: أنعَم ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن قومه عليه السلام، ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي:

---

١ ي: السافلين.

٢ ي - تعالى.

٣ ي: محذف.

مِن نسَبهم، أو مِن جنسِهم، عربيًّا مثلَهم؛ ليفقهوا كلامَه بسهولة؛ ويكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مفتخرين به، وفي ذلك شرَف لهم عظيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤].

وقُرئ: "مِنْ أَنفَسِهِمْ"،[١] أي: أشرَفِهم، فإنّه عليه السلام كان مِن أشرف قبائلِ العرب وبطونِها. وقُرئ: "لَمِنْ مَنِّ اللهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ"... إلخ،[٢] على أنّه خبر لمبتدأ محذوفٍ، أي: منُّه إذ بعث... إلخ، أو على أنّ ﴿إِذْ﴾ في محلّ الرفعِ على الابتداء، بمعنى: لَمِن منِّ الله على المؤمنين وقتُ بعثِه. وتخصيصهم بالامتنان مع عموم نعمةِ البعثةِ للأسود والأحمر لِما مرّ مِن مزيد انتفاعِهم بها.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع صفةً لـ﴿رَسُولًا﴾، أي: كائنًا مِن أنفسهم. وقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ صفة أخرى، أي: يتلو عليهم القرآنَ بعد ما كانوا أهلَ جاهليّة لم يطرُق أسماعَهم شيءٌ مِن الوحي. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿يَتْلُو﴾، أي: يطهِّرهم مِن دنَس الطبائع[٣] وسوءِ العقائد وأوضارِ الأوزار.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: القرآنَ والسنّةَ، وهو صفة أخرى لـ﴿رَسُولًا﴾ مترتّبة في الوجود على التلاوة، وإنّما وُسِّط بينهما التزكية التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسَب القوّة العمليّة وتهذيبِها المتفرّع على تكميلها بحسَب القوّةِ النظريّة الحاصلِ بالتعليم المترتّب على التلاوة؛ للإيذان بأنّ كلّ واحدٍ مِن الأمور المترتّبة نعمةٌ جليلة على حِيالها مستوجِبة للشكر، فلو رُوعيَ ترتيب الوجود[٤] كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة، ٢/١٢٩] لَتبادَر إلى الفهم عَدُّ الجميع نعمةً واحدة، وهو السرّ في التعبير عن القرآن بالآيات تارةً، وبالكتاب والحكمة أخرى؛

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن كِرداب عن رُوَيس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٥.

٢ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون، ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٤٣٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٤٣٦.

٣ ي: الطباع.

٤ ي: الوجودي.

رمزًا إلى أنّه باعتبار كلّ عنوان نعمةٌ على حِدة، ولا يقدح في ذلك شمولُ الحكمة لِما في مطاوي الأحاديث الكريمة مِن الشرائع، كما سلف في سورة البقرة.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ بعثتِه عليه السلام وتزكيتِه وتعليمِه[١] ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بيّن لا ريب في كونه ضلالًا. و﴿إن﴾ هي المخفّفة مِن "إنّ" المثقّلة، وضميرُ الشأن محذوف، واللامُ فارقة بينها وبين النافية. والظرف الأوّل لغو متعلّق بـ"كان"، والثاني خبرُها، وهي مع خبرها خبر لـ﴿إن﴾ المخفّفة التي حُذف اسمها، أعني: ضميرَ الشأن. وقيل: هي نافية، واللامُ بمعنى "إلّا"، أي: وما كانوا مِن قبلُ إلّا في ضلال مبين. وأيًّا ما كان فالجملة إمّا حال مِن الضمير المنصوبِ في ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾، أو مستأنَفة. وعلى التقديرين فهي مبيّنة لكمال[٢] النعمة وتمامها.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ كلام مبتدأ[٣] مَسوق لإبطال بعضِ ما صدر عنهم مِن الظنون الفاسدة والأقاويل الباطلة الناشئة منها إثرَ إبطال بعضٍ آخرَ منها. والهمزة للتقريع والتقرير. والواو عاطفة لمدخولها على محذوفٍ قبلها. و﴿لَمَّا﴾ ظرف لـ﴿قُلْتُمْ﴾[٤] مضاف إلى ما بعده. و﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ في محلّ الرفعِ على أنّه صفة لـ﴿مُّصِيبَةٌ﴾. والمراد بها ما أصابهم يومَ أُحُد مِن قتل سبعين منهم، وبـ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ ما أصاب المشركين يومَ بدرٍ مِن قتل سبعين منهم وأسْرِ سبعين.

و﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مقولُ ﴿قُلْتُمْ﴾. وتوسيط الظرف وما يتعلّق به بينه وبين الهمزة -مع أنّه المقصود إنكارُه، والمعطوفُ بالواو حقيقةً- لتأكيد النكير وتشديد التقريع؛ فإنّ فعل القبيحِ في غير وقتِه أقبح، والإنكارَ على فاعله أدخل.

---

١ ي: وتعليم.
٢ ي: لكل.
٣ ي - مبتدأ.
٤ وفي هامش ط س ي: على رأي الفارسي. «منه».

[١١٦و] والمعنى: أحِين أصابكم مِن المشركين نصفُ ما قد / أصابهم منكم قبل ذلك جزِعتم وقلتم: مِن أين أصابنا هذا؟ وقد تقدّم الوعد بالنصر على توجيه الإنكار والتقريع إلى صدور ذلك القولِ عنهم في ذلك الوقتِ خاصّة بناءً على عدم كونِه مَظِنةً له داعيًا إليه؛ بل على كونه داعيًا إلى عدمه، فإنّ كونَ مصيبةِ عدوِّهم ضِعفَ مصيبتِهم ممّا يُهوِّن الخطْبَ ويورث السُّلْوة. أو أفَعلتم ما فعلتم ولمّا أصابتكم غائلتُه قلتم: أنّى هذا؟ على توجيه الإنكار إلى استبعادهم الحادثةَ مع مباشرتهم لسببها.

وتذكير اسمِ الإشارة في ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مع كونه إشارةً إلى المصيبة ليس لكونها عبارةً عن القتل ونحوِه؛ بل لِما أنّ إشارتَهم ليست إلّا إلى ما شاهدوه في المعركة مِن حيث هو هو مِن غير أن يَخطِر ببالهم تسميتُه باسمٍ ما فضلًا عن تسميته باسم المصيبة، وإنّما هي عند الحكاية.

وقوله عزّ وجلّ:[١] ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أمرٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يُجيب عن سؤالهم الفاسد إثْرَ تحقيق فسادِه بالإنكار والتقريع، ويُبكِّتَهم ببيان أنّ ما نالهم إنّما نالهم مِن جهتهم بتركهم المركزَ، وحِرصِهم على الغنيمة.

وقيل: باختيارهم الخروج مِن المدينة،[٢] ويأباه أنّ الوعد بالنصر كان بعد ذلك، كما ذُكر عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ الآية،[٣] وأنّ عمَلَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بموجبه قد رَفَع الخطرَ عنه، وخفّف جنايتَهم فيه، على أنّ اختيار الخروجِ والإصرارَ عليه كان ممّن أكرمهم الله تعالى بالشهادة يومئذ، وأين هم مِن التفوّه بمِثل هذه الكلمة؟ وقيل: بأخذهم الفِداءَ يوم بدر قبل أن يُؤذَن لهم، والأوّل هو الأظهر الأقوى، وربّما يعضُده توسيطُ خطابِ الرسول صلّى الله عليه وسلّم بين الخِطابين المتوجّهَين إلى المؤمنين، وتفويضُ التبكيت إليه عليه السلام، فإنّ توبيخ الفاعل على الفعل إذا كان ممّن نهاه عنه كان أشدَّ تأثيرًا.

---

١ ي: تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٣٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١/٤٧.

٣ آل عمران، ٣/١٥٢.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومِن جملته النصر عند الطاعة، والخِذلانُ عند المخالفة، وحيث خرجتم عن الطاعة أصابكم منه تعالى ما أصابكم. والجملة تذييل مقرِّر لمضمون ما قبلها داخل تحت الأمر.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ رجوع إلى خطاب المؤمنين إثرَ خطابه عليه السلام لسرّ يقتضيه، وإرشاد لهم إلى حقيقة الحقِّ فيما سألوا عنه، وبيان لبعض ما فيه مِن الحِكَم والمصالحِ، ودفعٌ لِما عسى يُتوهّم مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[1] مِن استقلالهم في وقوع الحادثة. والعدول عن الإضمار إلى ما ذكر؛ للتهويل وزيادةِ التقرير ببيان وقتِه بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: جمعُكم وجمعُ المشركين ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فهو كائن بقضائه وتخليتِه الكفارَ، سُمّيَ ذلك إذنًا لكونها مِن لوازمه.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عطفَ السبب على المسبَّب.[2] والمراد بالعِلم: التمييز والإظهار فيما بين الناس.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ عطفٌ على ما قبله مِن مثله، وإعادة الفعل لتشريف المؤمنين وتنزيههم عن الانتظام في قَرْن المنافقين، وللإيذان باختلاف حالِ العلم بحسب التعلُّق بالفريقين، فإنّه متعلِّق بالمؤمنين على نهج تعلُّقِه السابق، وبالمنافقين على وجه جديد، وهو السرُّ في إيراد الأوّلين بصيغة اسمِ الفاعلِ المنبئة عن الاستمرار، والآخِرين بموصولٍ صِلتُه فعلٌ دالٌّ على الحدوث. والمعنى: وما أصابكم يومئذ فهو كائن ليميّز الثابتين على الإيمان والذين أظهروا النفاق.

---

[1] في الآية السابقة.

[2] ي: السبب.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿نَافَقُواْ﴾، داخل معه في حيّز الصِّلة، أو كلام مبتدأ. قال ابن عبّاس رضي الله تعالى[1] عنهما: «هم عبد الله بن أُبيّ وأصحابُه، حيث انصرفوا يوم أُحُد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال لهم عبد الله بن عمرو بن حرام:[2] أذكِّرُكم الله، أن تخذُلوا نبيَّكم وقومَكم، ودعاهم إلى القتال»،[3] وذلك قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ قال السُّدّي: «ادفعوا عنّا العدوَّ بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا».[4] وقيل: أو ادفعوا عن أهلكم وبلدِكم وحريمِكم إن لم تقاتلوا في سبيل الله تعالى. وترك العطفِ بين ﴿تَعَالَوْاْ﴾ و﴿قَٰتِلُواْ﴾ لِما أنّ المقصود بهما واحد، وهو الثاني. وذِكر الأوّل توطئة له وترغيب فيه لِما فيه مِن الدلالة على التظاهر والتعاون.

﴿قَالُواْ﴾ استئناف وقع جوابًا عن سؤال ينسحب عليه الكلام، كأنّه قيل: فماذا صنعوا حين خُيِّروا بين الخَصْلَتين المذكورتين؟ فقيل: قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ أي: لو نُحسِن قتالًا ونقدِر عليه. وإنّما قالوه دغَلًا[5] واستهزاءً، وإنّما عُبّر عن نفي القدرة على القتال بنفي العِلم به لِما أنّ القدرة على الأفعال الاختياريّةِ مستلزِمةٌ للعِلم بها، أو لو نعلم ما يصِحّ أن يسمّى قتالًا لاتّبعناكم؛ ولكن ما أنتم بصدَده ليس بقتال أصلًا، وإنّما هو إلقاء النفس إلى التهلُكة. وفي جعلهم التالي مجرّدَ الاتّباعِ دون القتال الذي هو المقصود بالدعوة دليلٌ على كمال تثبُّطِهم عن القتال حيث لا ترضى نفوسُهم بجعله تاليًا لمقدَّم مستحيلِ الوقوعِ.

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ الضمير مبتدأ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبرُه، واللام في ﴿لِلْكُفْرِ﴾ و﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ متعلِّقة به، وكذا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿مِنْهُمْ﴾. وعدمُ جوازِ تعلُّقِ حرفين متّحدين لفظًا ومعنًى بعاملٍ واحدٍ بلا عطفٍ أو بدليّةٍ إنّما هو فيما عدا

---

[1] س ي - تعالى.

[2] هو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي (ت. ٣هـ/٦٢٥م). والد جابر بن عبد الله الصحابيّ المشهور. مَعدود في أهل العقبة وبدر، وكان مِن النقباء، واستشهد بأحد. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٣٠٤/٦؛ **والأعلام** للزركلي، ١١١/٤.

[3] **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥١٨/١. وأخرجه الطبري في **جامع البيان**، ٢٢٢/٦، عن ابن شهاب الزهري وآخرين.

[4] **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥١٨/١؛ **اللباب** لابن عادل، ٤١/٦.

[5] الدَّغَل: الفساد. **الصحاح** للجوهري، «دغل».

أفعلُ التفضيلِ مِن العوامل لاتّحاد حيثيّةِ عملِها، وأمّا أفعلُ التفضيلِ فحيث دلّ على أصل الفعلِ وزيادتِه جرى مَجرى عاملين، كأنّه قيل: قُربُهم للكفر زائدٌ على قربهم للإيمان.

وقيل: تعلُّق الجارَّين به لشَبَهِهما بالظرفين، أي: هم للكفر يوم إذ قالوا / ما قالوا أقربُ منهم للإيمان، فإنّهم كانوا قبل ذلك يتظاهرون بالإيمان، وما ظهرت منهم أَمارة مُؤذِنة بكفرهم، فلمّا انخذلوا عن عسكر المسلمين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا مِن الكفر، وقيل: هم لأهل الكفرِ أقرب نُصرةً منهم لأهل الإيمان؛ لأنّ تقليل سوادِ المسلمين بالانخذال تقويةٌ للمشركين. [١١٦ظ]

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ جملة مستأنَفة مقرِّرة لمضمون ما قبلها. وذِكر الأفواه والقلوب تصوير لِنفاقهم، وتوضيح لمخالفة ظاهرِهم لباطنهم. و﴿مَا﴾ عبارة عن القول، والمراد به إمّا نفس الكلامِ الظاهرِ في اللسان تارةً وفي القلب أخرى، فالمثبَتُ والمنفيُّ متّحِدان ذاتًا وإن اختلفا مَظهرًا، وإمّا القول الملفوظُ فقط، فالمنفيُّ حينئذ منشؤُه الذي لا ينفكّ عنه القول أصلًا، وإنّما عبّر عنه به إبانةً لِما بينهما مِن شدّة الاتّصال، أي: يتفوّهون بقولٍ لا وجود له[١] أو لِمَنشَئه[٢] في قلوبهم أصلًا مِن الأباطيل التي مِن جملتها ما حُكي عنهم آنفًا، فإنّهم أظهروا فيه أمرين ليس في قلوبهم شيءٌ منهما، أحدُهما: عدمُ العِلم بالقتال، والآخَر: الاتّباع على تقدير العِلم به، وقد كذَبوا فيهما كذِبًا بيّنًا حيث كانوا عالِمين به غيرَ ناوين للاتّباع؛ بل كانوا[٣] مُصِرّين مع ذلك على الانخذال عازمين على الارتداد.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ زيادة تحقيقٍ لكفرهم ونفاقهم ببيان اشتغالِ قلوبِهم بما يخالف أقوالَهم مِن فنون الشرّ والفسادِ إثرَ بيان خُلوّها عمّا يوافقها، وصيغةُ التفضيلِ لِما أنّ بعضَ ما يكتُمونه مِن أحكام النفاقِ

---

١ وفي هامش س: على الوجه الأوّل. «منه».
٢ وفي هامش س: على الوجه الثاني. «منه».
٣ ط س ي - غيرَ ناوين للاتّباع؛ بل كانوا ["صح" في هامش ط ي].

وذمِّ المؤمنين وتخطئةِ آرائِهم والشماتةِ بهم وغيرِ ذلك يعلمه المؤمنون على وجه الإجمال، وأنّ تفاصيل ذلك وكيفيّاتِه مختصّةٌ بالعِلم الإلٰهيّ.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ مرفوع على أنّه بدل مِن واو ﴿يَكْتُمُونَ﴾،[1] أو خبر لمبتدأ محذوف، وقيل: مبتدأ خبرُه ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ﴾ بحذف العائد، تقديره: قُل لَهُم... إلخ. أو منصوب على الذمّ، أو على أنّه نعت لـ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾،[2] أو بدل منه. وقيل: مجرور على أنّه بدل مِن ضمير "أَفواهِهِم" أو[3] "قُلوبِهِم"،[4] كما في قوله:

على جُوده[5] لَضنَّ بالماء حاتِمِ[6]

والمراد بهم عبد الله بن أُبيّ وأصحابُه.[7]

﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ أي: لأجلهم، وهم مَن قُتل يومَ أُحُد مِن جنسهم أو مِن أقاربهم، فيندَرج فيهم بعضُ الشهداء.

﴿وَقَعَدُواْ﴾ حال مِن ضمير ﴿قَالُواْ﴾ بتقدير "قد"، أي: قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخذال: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أي: فيما أمرناهم به ووافقونا في ذلك ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ كما لم نُقتل. وفيه إيذان بأنّهم أمروهم[8] بالانخذال حين انخذلوا، وأغْوَوهم كما غَوَوا.

وحملُ القعودِ على ما استصوبه ابن أُبيّ عند المشاورة مِن الإقامة بالمدينة ابتداءً، وجعلُ الإطاعةِ عبارةً عن قَبول رأيه والعمل به؛ يرُدّه كونُ الجملةِ حاليّةً،

---

[1] في الآية السابقة.
[2] في الآية السابقة.
[3] ي - أو.
[4] ي: و"قلوبهم". | في الآية السابقة.
[5] ي: جود. | وفي هامش ي: أي: مع جوده، وهو حال مِن "حاتِمًا"، أو مِن الضمير المستتر في "القوم"، "حاتِم" بالجرّ؛ لأنّ قافية القصيدة على الجرّ، وهو بدل مِن الهاء في "جُوده". «منه».
[6] وفي هامش ط س ي: صدره:
على حالةٍ لو أنّ في القوم حاتمًا
«منه». | للفرزدق في ديوانه، ص ٦٠٣، بلفظ:
على ساعةٍ لو كان في القوم حاتِمُ
على جُوده ضنَّت به نفسُ حاتِمِ
[7] التفسير الوسيط للواحدي، ٥١٨/١. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٢٢٢/٦، عن قتادة.
[8] ي: أمرهم.

فإنّها لتعيين ما فيه العصيان والمخالفة مع أنّ ابن أبيّ ليس مِن القاعدين فيها بذلك المعنى، على أنّ تخصيص عدمِ الطاعة بإخوانهم ينادي باختصاص الأمرِ أيضًا بهم، فيستحيل أن يُحمَل على ما خوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عند المشاورة.

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم وإظهارًا لكذبهم ﴿فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ جواب لشرط قد حُذف تعويلًا على ما بعده مِن قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، كما أنّه شرط حُذف جوابُه لدلالة الجوابِ المذكورِ عليه، أي: إن كنتم صادقين فيما يُنبئ عنه قولُكم مِن أنّكم قادرون على دفع القتلِ عمّن كُتب عليه، فادفعوا عن أنفسكم الموتَ الذي كُتب عليكم مُعلّقًا بسبب خاصّ موقّتًا بوقت معيّنٍ بدفع سببِه، فإنّ أسباب الموتِ في إمكان المدافعةِ بالحيَل وامتناعِها سواء، وأنفسُكم أعزُّ عليكم مِن إخوانكم، وأمرُها أهمُّ لديكم مِن أمرهم.

والمعنى: إنّ عدم قتلكم كان بسبب أنّه لم يكن مكتوبًا عليكم، لا بسبب أنّكم دفعتموه بالقُعود مع كتابته عليكم، فإنّ ذلك ممّا لا سبيلَ إليه؛ بل قد يكون القتالُ سببًا للنجاة والقعود مؤدّيًا إلى الموت. رُوي أنّه مات يومَ قالوا ما قالوا سبعون منافقًا.[١]

وقيل: أريد ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مضمون الشرطيّة، والمعنى: أنّهم لو أطاعوكم وقعدوا لَقُتلوا قاعدين كما قُتلوا مقاتِلين، فقوله تعالى: ﴿فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ حينئذ استهزاء بهم، أي: إن كنتم رجالًا دفّاعين لأسباب الموت فادرءوا جميعَ أسبابِه حتّى لا تموتوا كما درأتم في زعمكم هذا السببَ الخاصّ.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩﴾

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان أنّ القتل الذي يَحذَرونه ويُحذِّرون الناس منه ليس مما يُحذَر؛ بل هو مِن أجلّ المطالبِ التي يتنافسُ فيها المتنافسون إثرَ بيان أنّ الحذَر لا يُغني ولا يُجدي.[٢]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١/٤٣٨؛ تفسير القرطبي، ٤/٢٦٧.

[٢] ي + شيئًا.

وقُرئ: "وَلَا تَحْسِبَنَّ" بكسر السين.[١] والمراد بهم شهداء أُحُد، وكانوا سبعين رجلًا: أربعة[٢] مِن المهاجرين حمزة بن عبد المطّلب ومُصعب بن عميرٍ وعثمان بن شهابٍ[٣] وعبد الله بن جحشٍ وباقيهم مِن الأنصار رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.[٤] والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحدٍ ممّن له حظّ مِن الخطاب.

وقُرئ بالياء[٥] على الإسناد إلى ضميره عليه السلام أو ضميرِ مَن يَحسب. وقيل: إلى ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾، والمفعول الأوّل محذوف؛ لأنّه في الأصل مبتدأ جائزُ الحذفِ عند القرينة، والتقدير: ولا يحسَبنَّهم الذين قُتلوا أمواتًا، أي: لا يحسَبنّ الذين قُتلوا أنفسَهم أمواتًا، على أنّ المراد مِن[٦] توجيه النهي إليهم تنبيهُ السامعين على أنّهم أحِقّاء بأن يُسلُّوا بذلك ويُبشَّروا بالحياة الأبديّة والكرامة السنيّة والنعيم المقيم، لكن لا في جميع أوقاتِهم؛ بل عند ابتداءِ القتل؛ إذ بعد تبيُّن حالِهم لهم لا يبقى لاعتبار تسليتِهم وتبشيرِهم فائدة، ولا لتنبيه السامعين وتذكيرهم وجه.

وقُرئ: "قُتِّلُوا" بالتشديد[٧] لكثرة المقتولين.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٣٦/٢.

٢ ط س – أربعة.

٣ كذا في الأصول الخطّيّة، ووقع اسمه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠٠/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٤٧/٦؛ والدرّ المنثور للسيوطي، ٣٧١/٢: عثمان بن شمّاس. وفي تفسير ابن أبي حاتم، ٨١٢/٣: شمّاس بن عثمان. وهو الصواب. وذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة، ٩٤/٧: عثمان بن شمّاس في حرف العين، ثمّ قال: «وقد تقدّم في حرف الشين: شمّاس بن عثمان، فأنا أخشى أن يكون هذا انقلب، ثمّ وجدت أبا نُعيم جنَح إلى ذلك ونسب الوهم فيه إلى ابن مَنْدَه». وشمّاس بن عثمان بن الشريد المخزومي (ت. ٣هـ/٦٢٥م) مِن المهاجرين الأوّلين. ومِن أبطال الصحابة. شهِد بدرًا، واستشهد يوم أُحد. وشبّهه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالجُنّة، أي: التُّرس؛ لأنّه كان لا يرمي ببصره يمينًا أو شمالًا إلّا رأى شمّاسًا أمامه يذبّ بسيفه عنه، فلمّا غشي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تَرّس بنفسه دونه حتى قُتل. ورثاه حسّان رضي الله عنهما. انظر: الإصابة لابن حجر، ١٣٧/٥؛ والأعلام للزركلي، ١٧٥/٣. ولم أجد في الصحابة عثمان بن شهاب.

٤ س: رضي الله عنهم.

٥ قرأ بها هشام عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

٦ ي – مِن.

٧ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٤٣/٢.

﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ أي: بل هم أحياء. وقُرِئ منصوبًا،[١] أي: بلِ احسَبْهم أحياءً، على / أنّ الحُسبان بمعنى اليقين، كما في قوله:[٢] [١١٧و]

حسِبتُ التُّقى والمجدَ خيرَ تجارةٍ   رَباحًا إذا ما المرءُ أصبَح ثاقلا[٣]

أو على أنّه واردٌ على طريق المُشاكلة.

﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ في محلّ الرفع على أنّه خبر ثانٍ للمبتدأ المقدّر، أو صفة لـ﴿أَحۡيَآءٌ﴾، أو في محلّ النصبِ على أنّه حال مِن الضمير في ﴿أَحۡيَآءٌ﴾. وقيل: هو ظرف لـ﴿أَحۡيَآءٌ﴾، أو للفعل بعده. والمراد بالعِنديّة: التقرّب والزُّلفى. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّةِ المنبئةِ عن التربية والتبليغِ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم مزيدُ تكرمةٍ لهم.

﴿يُرۡزَقُونَ﴾ أي: مِن الجنّة. وفيه تأكيد لكونهم أحياءً، وتحقيق لمعنى حياتِهم.

قال الإمام الواحدي: «الأصحّ في حياة الشهداء ما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أنّ أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ وأنّهم يُرزقون ويأكلون ويتنعّمون».[٤]

ورُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لمّا أصيب إخوانُكم بأحُد جعل الله أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ تدور في أنهار الجنّة -ورُوي: ترِدُ أنهارَ الجنّة... إلخ-، وتأكُل مِن ثِمارها، وتسرَح[٥] مِن الجنّة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديلَ مِن ذهب معلّقةٍ في ظلّ العرشِ».[٦]

وفيه دلالة على أنّ روح الإنسان جسم لطيف لا يفنى بخراب البدَن، ولا يتوقّف عليه إدراكُه وتأمّله والتِذاذُه. ومَن قال بتجرّد النفوسِ البشريّة يقول: المراد أنّ نفوسَ الشهداء تتمثّل طيرًا خُضْرًا، أو تتعلّق[٧] بها فتلتذّ بما ذُكر.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٥.

[٢] س + تعالى.

[٣] ي: ثافلًا. | بغير نسبة في شرح التسهيل لابن مالك، ٨١/٢. وهو للَبِيد في لسان العرب لابن منظور، «ثقل»، بلفظ:

رأيتُ التُّقى والحمد خيرَ تجارة...

[٤] التفسير الوسيط للواحدي، ٥٢١/١. وانظر الأحاديثَ التالية.

[٥] وفي هامش س ي: ثعلبي. «منه». | الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠١/٣.

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٤٤٠/١؛ مسند الإمام أحمد، ٢١٨/٤ (٢٣٨٨)؛ سنن أبي داود، ١٥/٣ (٢٥٢٠).

[٧] ي: وتتعلّق.

وقيل: المراد أنّها تتعلّق بالأفلاك والكواكبِ فتلتذّ بذلك وتكتسب زيادةَ كمال.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهو شرف الشهادة، والفوز بالحياة الأبديّة، والزلفى مِن الله عزّ وجلّ، والتمتّع بالنعيم المخلَّد عاجلًا. ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ يُسَرّون بالبِشارة ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ أي: بإخوانهم الذين لم يُقتلوا بعدُ في سبيل الله فيلحقوا بهم ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ متعلِّق بـ﴿يَلْحَقُوا۟﴾، والمعنى: أنّهم بقُوا بعدهم، وهم قد تقدّموهم. أو بمحذوف وقع حالًا مِن فاعل ﴿يَلْحَقُوا۟﴾، أي: لم[1] يَلحقوا بهم حالَ كونِهم متخلِّفين عنهم باقين في الدنيا.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل مِن "الذينَ" بدلَ اشتمالٍ مبيّنٍ لكون استبشارِهم بحال إخوانِهم لا بذواتهم. و"أنْ" هي المخفّفة مِن "أنّ"، واسمُها ضمير الشأن المحذوف، وخبرُها الجملة المنفيّة، أي: يستبشرون بما تبيّن لهم مِن حسن حالِ إخوانِهم الذين تركوهم، وهو أنّهم عند قتلِهم يفوزون بحياة أبديّةٍ لا يكدِّرُها خوفُ وقوعِ محذور، ولا حزنُ فواتِ مطلوبٍ، أو لا خوفَ عليهم في الدنيا مِن القتل، فإنّه عينُ الحياة التي يجب أن يُرغَب فيها فضلًا عن أن تُخافَ وتُحذَر، أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك، لا أنّه يعتريهم ذلك لكنّهم لا يخافون ولا يحزنون. والمراد بيان دوامِ انتفاءِ الخوفِ والحزن، لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما[2] كما يوهمه كونُ الخبرِ في الجملة الثانية مضارعًا، فإنّ النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيدُ الدوامَ والاستمرارَ بحسب المقام.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ﴾ كُرِّر لبيان أنّ الاستبشار المذكورَ ليس بمجرّد عدم الخوف والحزن؛ بل به وبما يقارِنُه مِن نعمةٍ عظيمةٍ لا يقادَرُ قَدرُها، وهي ثواب أعمالِهم.

---

[1] ي: ولم.

[2] ي: دوامها.

وقد جُوِّز أن يكون الأوّل متعلّقًا بحال إخوانِهم، وهذا بحال أنفسِهم بيانًا لبعض ما أُجمل في قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.[١] ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بمحذوف وقع صفةً لـ"نعمةٍ" مؤكِّدةً لِما أفادها التنكيرُ مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٍ منه تعالى. ﴿وَفَضْلٍ﴾ أي: زيادة عظيمة كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس، ١٠/٢٦].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بفتح ﴿أَنَّ﴾ عطفٌ على ﴿فَضْلٍ﴾ منتظِم معه في سلك المستبشَرِ به. والمراد بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إمّا الشهداءُ، والتعبيرُ عنهم بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ للإيذان بسموّ رُتبة الإيمان وكونِه مناطًا لِما نالوه مِن السعادة، وإمّا كافّةُ أهل الإيمان مِن الشهداء وغيرهم، ذُكرت تَوفية أجورِهم على إيمانهم وعُدَّت مِن جملة ما يَستبشِر به الشهداء بحكم الأخُوّة في الدِّين. وقُرِئَ بكسرها[٢] على أنّه[٣] استئناف معترِض دالّ على أنّ ذلك أجرٌ لهم على إيمانهم، مُشعِر بأنّ مَن لا إيمانَ له أعمالُه مُحبَطة لا أجرَ لها. وفيه مِن الحثّ على الجهاد والترغيبِ في الشهادة والبعثِ على ازدياد الطاعة وبشرى المؤمنين بالفلاح ما لا يخفى.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ صفة مادِحة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا مخصِّصة، أو نصب على المدح أو رُفع على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بجملته. و﴿مِن﴾ للبيان. والمقصودُ مِن الجمع بين الوصفين المدحُ والتعليل، لا التقييد؛ لأنّ المستجيبين كلَّهم مُحسنون ومتّقون.

رُوي أنّ أبا سفيان وأصحابَه لمّا انصرفوا مِن أحُد فبلغوا الرَّوحاءَ[٤] ندِموا وهمّوا بالرجوع فبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فأراد أن يُرهِبهم

---

١ في الآية السابقة.
٢ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.
٣ ي: أنّها.
٤ وفي هامش ي: ممدود؛ اسم موضع بين مكّة والمدينة. «منه».

ويُريَهم مِن نفسه وأصحابِه قوةً، فندَب أصحابَه للخروج في طلب أبي سفيان، وقال: «لا يخرُجنَّ معنا إلّا مَن حضر يومَنا بالأمس»،[١] فخرج صلّى الله عليه وسلّم مع جماعة حتّى بلغوا حمراءَ الأسدِ[٢] وهي مِن المدينة على ثمانية أميال، وكان بأصحابه القَرْح، فتحاملوا[٣] على أنفسهم حتّى لا يفوتَهم الأجر، وألقى الله الرعبَ في قلوب المشركين فذهبوا، فنزلت.[٤]

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: الرَّكب الذين استقبلوهم مِن عبد قيس، أو نُعيم بن / مسعود الأشجعي. وإطلاق الناس عليه لِما أنّه مِن جنسهم، وكلامُه كلامُهم، يقال: فلان يركب الخيل ويلبَس الثياب، وما له سوى فرسٍ فردٍ وغير ثوبٍ واحد. أو لأنّه انضمّ إليه ناسٌ مِن المدينة وأذاعوا كلامَه. [١١٧ظ]

﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ رُوي أنّ أبا سفيان نادى عند انصرافِه مِن أحُد: يا محمّد موعدُنا موسمُ بدر لقابل إن شئت، فقال عليه السلام: «إن شاء[٥] الله تعالى»، فلمّا كان القابلُ خرج أبو سفيان في أهل مكّة حتّى نزل مرَّ الظَّهران،[٦] فألقى الله تعالى في قلبه الرعبَ، وبدا له أن يرجِع فمرّ به ركبٌ مِن بني عبدِ قيسٍ يريدون المدينةَ للمِيرة[٧] فشرَط لهم حِملَ بعيرٍ مِن زبيب إن ثبّطوا[٨] المسلمين.[٩]

وقيل: لقيَ نُعيمَ بن مسعود[١٠] وقد قدِم معتمِرًا فسأله ذلك، فالتزم له عشرًا

---

١ وفي هامش ي: أي: وقفتنا بالأمس، وأيام العرب: وقائعهم. «منه».

٢ وفي هامش ي: اسم موضع. «منه».

٣ وفي هامش ي: أي: حملوا المشقّة. «منه».

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ١/٤٤٠؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٤٩؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣/٢٠٨.

٥ ي: انشاء.

٦ وفي هامش ي: اسم موضع. «منه».

٧ وفي هامش ي: للطعام. «منه».

٨ وفي هامش ي: أي: منعوا. «منه».

٩ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٤٩؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣/٤٣٦.

١٠ هو نُعيم بن مسعود الغطفاني الأشجعي، أبو سلمة (ت. نحو ٣٠هـ/٦٥٠م). أسلم زمن الخندق، وهو الذي خذّل بين الأحزاب. وكان يسكن المدينة. روى عنه ولداه سلَمة وزينب. وله حديث عند أحمد وغيره. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٤/١٥٠٨؛ **والإصابة** لابن حجر، ١١/١٠٨؛ **والأعلام** للزركلي، ٨/٤١.

مِن الإبل وضمِنها منه سهيلُ بن عمرو،[١] فخرج نُعيمٌ ووجد المسلمين يتجهّزون للخروج، فقال لهم: «أتَوكم في دياركم فلم يُفلت منكم أحدٌ إلّا شَريد، أفترَون أن تَخرُجوا وقد جمعوا لكم؟»[٢] ففِرّوا، فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده لأخرُجَنَّ ولو لم يخرُج معي أحَد»، فخرج في سبعين راكبًا كلُّهم يقولون: حسبنا الله ونِعم الوكيل.[٣]

قيل: هي الكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار.[٤]

﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ الضمير المستكِنّ للمَقول، أو لمصدرِ ﴿قَالَ﴾، أو لفاعله إن أُريد به نُعيم وحدَه، والمعنى: أنّهم لم يلتفتوا إلى ذلك؛ بل ثبُت به يقينُهم بالله تعالى، وازداد اطمئنانُهم، وأظهروا حميّةَ الإسلامِ، وأخلصوا النيّةَ عنده. وهو دليل على أنّ الإيمان يتفاوت زيادةً ونقصانًا؛ فإنّ ازدياد اليقينِ بالإلْفِ وكثرةِ التأمّلِ وتناصُرِ الحجج ممّا لا ريب فيه. ويعضُده قول ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: قلنا: يا رسولَ الله؛ الإيمانُ يزيدُ وينقص؟ قال: «نعم يزيد حتّى يُدخِلَ صاحبَه الجنّة، وينقُص حتّى يُدخِلَ صاحبَه النار».[٥]

﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: مُحسِبُنا الله وكافينا، مِن "أحسَبه" إذا كفاه. والدليل على أنّه بمعنى المُحسِب: أنّه لا يستفيد بالإضافة تعريفًا في قولك: هذا رجلٌ حَسبُك. ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، أي: نِعم الموكولُ إليه. والمخصوص بالمدح محذوف، أي: الله عزّ وجلّ.

---

١ هو سُهيل بن عمرو، أبو يزيد (ت. ١٨هـ/٦٣٩م). كان خطيبَ قريش، وفصيحهم، ومِن أشرافهم. تأخّر إسلامه إلى يوم الفتح، ثمّ حسُن إسلامه. وكان سمحًا، جوادًا، مفوّهًا. وكان أميرًا على كُردوس يوم اليرموك. قال المدائني وغيره: استشهد يوم اليرموك. وقال الشافعي والواقدي: مات في طاعون عَمَواس. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ١/١٨٥؛ **والإصابة** لابن حجر، ٤/٥١٩؛ **والأعلام** للزركلي، ٣/١٤٤.

٢ وفي هامش ي: عند الموسم. «منه».

٣ **الكشّاف** للزمخشري، ١/٤٤١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٤٩.

٤ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمّد صلّى الله عليه وسلّم حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾». **صحيح البخاري**، ٦/٣٩ (٤٥٦٣).

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣/٢١١؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١/٤٤٢.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾

﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ عطفٌ على مقدَّر ينسحب عليه الكلام، أي: فخرجوا إليهم ووافَوا الموعِد. رُوي أنّه عليه السلام وافى بجيشه بدرًا وأقام بها ثمانيَ ليالٍ، وكانت معهم تجاراتٌ، فباعوها وأصابوا خيرًا كثيرًا.[١] والباء في قوله تعالى: ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾ متعلّقة بمحذوف وقع حالًا مِن الضمير في ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾، والتنوين للتفخيم، أي: فرَجَعوا مِن مقصِدهم ملتبسين بنعمة عظيمةٍ لا يُقادَر قدرُها.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بمحذوف وقعَ صفةً لـ"نِعمة" مؤكِّدةً لفخامتها الذاتيّة التي يفيدها التنكيرُ بالفخامة الإضافيّة، أي: كائنةٍ مِن الله تعالى؛ وهي العافية والثبات على الإيمان والزيادة فيه وحذَرُ العدوّ منهم.

﴿وَفَضۡلٖ﴾ أي: ربحٍ في التجارة. وتنكيره أيضًا للتفخيم. ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ حال أخرى مِن الضمير في ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾، أو مِن المستكِنّ في الحال، كأنّه قيل: منعَّمين حالَ كونِهم سالمين عن السوء، والحالُ إذا كان مضارعًا منفيًّا بـ"لم" وفيه ضميرُ ذي الحالِ جاز فيه دخولُ الواو، كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾ [الأنعام، ٩٣/٦]، وعدمُه، كما في هذه الآية الكريمة وفي قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ [الأحزاب، ٢٥/٣٣].

﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ في كلّ ما أتَوا مِن قول وفعل ﴿رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الذي هو مَناط الفوزِ بخير الدارين. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ حيث تفضَّل عليهم بالتثبيت، وزيادةِ الإيمان، والتوفيقِ للمبادرة إلى الجهاد، والتصلّبِ في الدين، وإظهارِ الجرأةِ على العدوّ، وحفِظَهم عن كلّ ما يَسوءهم مع إصابة النفع الجليل. وفيه تحسير[٢] لمَن تخلّف عنهم، وإظهار لِخطَأ رأيهم حيث حرَموا أنفسَهم ما فاز به هؤلاء. ورُوي أنّهم قالوا: «هل يكون هذا غزوًا؟» فأعطاهم الله عزّ وجلّ ثوابَ الغزوِ ورضي عنهم.[٣]

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٤٤١/١. وبمعناه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٠/٣.

[٢] ط: تخسير.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٢١٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٢/١.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى المثبِّط، أو إلى مَن حمَله على التثبيط. والخطاب للمؤمنين. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ إمّا خبرُه، وقوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ جملة مستأنَفة مبيِّنة لشَيطَنته، أو حال[1] كما في قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾... إلخ [النمل، ٥٢/٢٧]. وإمّا صفتُه، والجملة خبرُه. ويجوز أن يكون الإشارةُ إلى قوله[2] على تقدير مضافٍ، أي: إنّما ذلكم قول الشيطان، أي: إبليس. والمستكِنّ في ﴿يُخَوِّفُ﴾ إمّا للمقدّر، وإمّا لـ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بحذف الراجعِ إلى المقدَّر، أي: يخوِّف به.

والمراد بـ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ إمّا أبو سفيان وأصحابُه، فالمفعولُ الأوّل محذوف، أي: يخوِّفكم أولياءَه، كما هو قراءة ابن عبّاس وابنِ مسعودٍ رضي الله تعالى[3] عنهم،[4] ويؤيّده قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أي: أولياءَه ﴿وَخَافُونِ﴾ في مخالفة أمري. وإمّا[5] القاعدون، فالمفعولُ الثاني محذوف، أي: يخوِّفهم الخروجَ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والضميرُ البارز في ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ لـ﴿ٱلنَّاسَ﴾[6] الثاني، أي: فلا تخافوهم فتقعُدوا عن القتال وتجبُنوا، وخافوني فجاهدوا مع رسولي، وسارعوا إلى ما يأمركم به. والخطاب لفريقَي الخارجين والقاعدين. والفاء لترتيب النهي أو الانتهاءِ على ما قبلَها، فإنّ كونَ[7] المُخوِّف شيطانًا ممّا يوجب عدمَ الخوفِ والنهيَ عنه.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنّ الإيمان يقتضي إيثارَ خوفِ الله عزّ وجلّ على خوف غيرِه، ويستدعي الأمْنَ مِن شرّ الشيطان وأوليائه.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾

---

[1] ي + كما.

[2] ي + تعالى.

[3] س ي − تعالى.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عنهم. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١٧٧/١؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٤٤٠/٣.

[5] السياق: والمراد بـ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ إمّا أبو سفيان... وإمّا القاعدون...

[6] آل عمران، ١٧٣/٣.

[7] ي: كان.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لتشريفه بتخصيصه بالتسلية، والإيذانِ بأصالته في تدبير أمورِ الدينِ، والاهتمامِ بشئونه.

﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: يقعون فيه سريعًا لغاية حرصِهم عليه وشدّةِ رغبتِهم فيه. وإيثار كلمةِ ﴿فِى﴾ على ما وقع في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ / مَغْفِرَةٍ﴾ [١١٨و]
الآية [آل عمران، ١٣٣/٣] للإشعار باستقرارهم في الكفر، ودوام[١] ملابستهم له في مبدأ المسارعة ومنتهاها، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون، ٦١/٢٣]، فإنّ ذلك مؤذِن بملابستهم للخيرات وتقلّبِهم في فنونها في طرفَي المسارعةِ وتضاعيفِها. وأمّا إيثار كلمة ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾... إلخ [آل عمران، ١٣٣/٣] فلأنّ المغفرة والجنّة منتهى المسارعةِ وغايتُها.

والمراد بالموصول المنافقون مِن المتخلّفين وطائفةٌ مِن اليهود حسبما عُيّن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة، ٤١/٥]. وقيل: قوم ارتدّوا عن الإسلام، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشارة بما في حيّز الصلةِ إلى مَظِنّة وجودِ المنهيّ عنه واعترائِه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أي: لا يَحْزُنوك بمسارعتهم في الكفر، ومبادرتِهم إلى تمشية أحكامِه، ومُظاهرتِهم لأهله. وتوجيه النهي إلى جهتهم -مع أنّ المقصود نهيُه عليه السلام عن التأثّر منهم للمبالغة في ذلك-[٢] لِما أنّ النهي عن التأثير نهيٌ عن التأثّر بأصله، ونفيٌ له بالمرّة. وقد يوجَّه النهيُ إلى اللازم والمرادُ هو النهي عن الملزوم، كما في قولك: لا أَرَيَنَّك ههنا.

وقُرئ: "لَا يُحْزِنْكَ"،[٣] مِن "أحزَنَ المنقولِ" مِن "حَزِنَ" بكسر الزاء. والمعنى واحد. وقيل: معنى "حَزَنه" جعل فيه حُزْنًا، كما في دَهَنه، أي: جعل فيه دُهْنًا،

---

١ ط - ودوام.

٢ وفي هامش ط س ي: أي: في نهيه عليه السلام عن التأثّر. «منه».

٣ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

ومعنى "أحزَنَه" جعله حزينًا. وقيل: معنى "حَزَنه" أحدث له الحُزْن، ومعنى "أحزَنَه" عرَّضه للحُزْن.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ تعليل للنهي وتكميل للتسلية بتحقيق نفيِ ضررِهم أبدًا، أي: لن يضرّوا بذلك أولياءَ الله البتّةَ. وتعليق نفي الضررِ به تعالى لتشريفهم والإيذانِ بأنّ مُضارّتَهم بمنزلة مضارّته سبحانه. وفيه مزيدُ مبالغةٍ في التسلية.

وقوله تعالى: ﴿شَيْـًٔا﴾ في حيّز النصبِ على المصدريّة، أي: شيئًا مِن الضرر. والتنكير لتأكيد ما فيه مِن القلّة والحقارةِ. وقيل: على نزع الجارّ، أي: بشيء ما أصلًا. وقيل: المعنى لن يُنقِصوا بذلك مِن ملكه تعالى وسلطانه شيئًا، كما روى أبو ذرّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لو أنّ أوّلكم وآخِركم وجِنّكم وإنسكم كانوا على أتقى قلبِ رجُلٍ منكم ما زاد ذلك في مُلك الله شيئًا، ولو أنّ أوّلكم وآخركم وجنّكم وإنسكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجُلٍ منكم ما نَقص مِن مُلك الله جناحُ بعوضة».[1] والأوّل هو الأنسب بمقام التسلية والتعليل.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ استئناف مبيّن لسرّ ابتلائهم بما هم فيه مِن الانهماك في الكفر. وفي ذِكر الإرادة مِن الإيذان بكمال خلوص الداعي إلى حِرمانهم وتعذيبهم حيث تعلّقت بهما إرادةُ أرحَمِ الراحمين ما لا يخفى. وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الإرادة واستمرارِها، أي: يريد الله بذلك أن لا يجعل لهم في الآخرة حظًّا ما مِن الثواب، ولذلك تركهم في طغيانهم يعمهون إلى أن يهلِكوا على الكفر.

﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك الحِرمانِ الكلّيّ ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقادَرُ قدرُه، قيل: لمّا دلّت المسارعة في الشيء على عِظَم شأنِه وجلالةِ قدرِه عند المسارِع وُصف عذابُه بالعِظَم رعايةً للمناسبة، وتنبيهًا على حقارة ما سارعوا فيه وخَسَاستِه في نفسه. والجملة إمّا مبتدَأة مبيّنة لحظّهم مِن العقاب إثرَ بيان أن لا شيءَ لهم مِن الثواب، وإمّا حال مِن الضمير في لهم، أي: يريد الله حِرمانهم مِن الثواب مُعدًّا لهم عذابٌ عظيم.

---

[1] صحيح مسلم، ١٩٩٤/٤ (٢٥٧٧)؛ المستدرك للحاكم، ٢٦٩/٤ (٧٦٠٦).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: أخذوه بدلًا منه رغبةً فيما أخذوه وإعراضًا عمّا تركوه. وقد مرّ تحقيق القول في هذه الاستعارة في تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة، ١٦/٢] مستوفًى.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ تفسيره كما مرّ، غيرَ أنّ فيه تعريضًا ظاهرًا باقتصار الضررِ عليهم، كأنّه قيل: وإنّما يضُرّون أنفسَهم. فإن جُعل الموصول عبارةً عن المسارعين المعهودين -بأن يُراد باشتراء الكفر بالإيمان إيثارُه عليه، إمّا بأخذه[١] بدلًا مِن الإيمان الحاصلِ بالفعل كما هو حال المرتدّين، أو بالقوّة القريبة منه الحاصلةِ بمشاهدة دلائلِه في التوراة كما هو شأنُ اليهود ومنافقيهم- فالتكريرُ لتقرير الحُكم وتأكيدِه ببيان علّته بتغيير عنوانِ الموضوع، فإنّ ما ذكر في حيّز الصلة مِن الاشتراء المذكور صريحٌ في لُحوق ضرره بأنفسهم وعدم تعدّيه إلى غيرهم أصلًا، كيف لا، وهو عَلَم في الخسران الكلّيّ والحِرمان الأبديّ، دالٌّ على كمال سخافة عقولهم وركاكةِ آرائهم؟ فكيف يتأتّى منهم ما يتوقّف على قوّة الحزم ورزانة الرأي ورصانة التدبير مِن مُضارّة حزبِ الله تعالى، وهي أعزّ مِن الأبلَق[٢] الفرد، وأمنعُ مِن عُقاب الجوّ.[٣]

وإن أُجري الموصول على عمومه -بأن يراد بالاشتراء المذكورِ القدرُ المشترَكُ الشامل للمعنيَين المذكورَين، ولأخذ الكفرِ بدلًا ممّا نُزّل منزلةَ نفس الإيمان مِن الاستعداد القريبِ له الحاصلِ بمشاهدة الوحي الناطق، وملاحظةِ الدلائلِ المنصوبةِ في الآفاق والأنفس كما هو دأبُ جميع الكفرة- فالجملة مقرِّرة لمضمون ما قبلها تقريرَ القواعدِ الكلّيّة لِما اندرج تحتها مِن جزئيّات الأحكامِ.

---

١ ي: أخذه.

٢ وفي هامش ي أ: هو حصن حصين لسموأل(١) بن عاديا بناه أبوه. وقيل: بناه سليمان عليه السلام «منه». | (١) هامش ي: لسندل. | وفي مجمع الأمثال للميداني، ٤٣/٢: «أعزُّ مِن الأبلَق العَقوق» يُضرب في عِزّة الشيء، والعرب كانت تسمّي الوفاء: "الأبلَق العَقوق" لعِزّة وجوده.

٣ "أمنعُ مِن عُقاب الجوّ" مثَل قاله عمرو بن عديّ لقصير بن سعد في قصّته مع الزباء. انظر: مجمع الأمثال للميداني، ٣٢٣/٢. والعُقاب -بضمّ العين-: طائر يضرب به المَثل في العِزّة والمَنَعة.

هذا وقد جوِّز كونُ الموصولِ الأوّل عامًّا للكفّار، والثاني خاصًّا بالمعهودين.[١] وأنت خبير بأنّه مع خلوّه عن النُّكَت المذكورة ممّا لا يليق بفخامة شأن التنزيل؛ لِما أنّ صدور المسارعةِ في الكفر بالمعنى المذكور وكونَها مظِنّةً لإيراث الحُزْن لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم -كما يُفهم مِن النهي عنه- إنّما يُتصوّر ممّن عُلم اتّصافه بها، وأمّا مَن لا يُعرف حالُه مِن الكفرة الكائنين في الأماكن البعيدة فإسنادُ المسارعة المذكورة إليهم واعتبارُ كونِها مِن مبادي حُزْنِه عليه السلام[٢] ممّا لا وجه له.

/ وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جملة مبتدَأة مبيّنة لكمال فظاعة عذابِهم بذِكر غاية إيلامِه بعد ذكر نهايةِ عِظَمِه. قيل: لمّا جرَت العادة باغتباط[٣] المشتري بما اشتراه، وسرورِه بتحصيله عند كون الصفقة رابحةً، وبتألّمه عند كونها خاسرةً؛ وُصف عذابهم بالإيلام مراعاةً لذلك. [١١٨ظ]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ﴾ الآية.[٤] والفعل مسند إلى الموصول. و"أنّ" بما في حيّزها سادّة مسدَّ مفعولَيه عند سيبويهِ لتمام المقصود بها؛ وهو تعلّق الفعل القلبيّ بالنسبة بين المبتدأ والخبر، ومسدَّ أحدِهما والآخرُ محذوف عند الأخفش. و"ما" مصدريّة، أو موصولة حُذف عائدُها، ووصلُها في الكتابة لاتّباع الإمام. أي: لا يحسبنّ الكافرون أنّ إملاءنا لهم أو أنّ ما نُمليه لهم خير لأنفسهم، أو لا يحسبنّ الكافرون خيريّةَ إملائِنا لهم أو خيريّةَ ما نُمليه لهم ثابتةً أو واقعةً ومآله نهيُهم عن السرور بظاهر إملائه تعالى لهم بناءً على حُسبان خيريّته لهم وتحسيرِهم ببيان أنّه شرّ بحتٌ وضررٌ محضٌ، كما أنّ مآل المعطوف عليه

---

[١] أشار إليه الزمخشري في الكشّاف، ١/٤٤٤.
[٢] ي: صلّى الله عليه وسلّم.
[٣] ي: باغتياط.
[٤] آل عمران، ٣/١٧٦.

نهيُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم عن الحُزن بظاهر حال الكفرةِ بناءً على توهّم الضرر مِن قِبَلهم وتسليتِه عليه السلام ببيان عجزِهم عن ذلك بالكلّيّة.

والمراد بالموصول إمّا جنسُ الكفرة، فيندرج تحت حكمه الكلّيّ أحكامُ المعهودين اندراجًا أوّليًا، وإمّا المعهودون خاصّة، فإيثار الإظهار على الإضمار لرعاية المقارنة الدائمة بين الصلة وبين الإملاء الذي هو عبارة عن إمهالهم وتخليتِهم وشأنَهم دهرًا طويلًا، فإنّ المقارِن له دائمًا إنّما هو الكفر المستمرّ، لا المسارعة المذكورة، ولا الاشتراء المذكور، فإنّهما مِن الأحوال المتجدّدة المتقضّيةِ[١] في تضاعيف الكفر المستمرّ.

وقُرئ: "لا تَحْسَبَنَّ" بالتاء،[٢] والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو الأنسب بمقام التسلية، أو لكلّ مَن يَتأتّى منه الحُسبان قصدًا إلى إشاعة فظاعة حالِهم، والموصول مفعول، و﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ إمّا بدل منه، وحيث كان التعويل على البدل -وهو سادٌّ مسدَّ المفعولين كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ [الفرقان، ٤٤/٢٥]- اقتُصر على مفعولٍ واحدٍ، كما في قولك: جعلتُ المتاعَ بعضَه فوق بعضٍ، وإمّا مفعول ثانٍ بتقدير مضافٍ، إمّا فيه، أي: لا تحسبنّ الذين كفروا أصحابَ أنّ الإملاء خير لأنفسهم، أو في المفعول الأوّل، أي: لا تحسبنّ حالَ الذين كفروا أنّ الإملاء خير لأنفسهم. ومعنى التفضيل باعتبار زعمِهم.

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ استئناف مبيّن لحكمة الإملاء. و"ما" كافّة. واللام لامُ الإرادة، وعند المعتزلة لامُ العاقبة. وقُرئ بفتح الهمزة ههنا على إيقاع الفعلِ عليه، وكسرِها فيما سبق[٣] على أنّه اعتراض بين الفعل ومعمولِه

---

١ ي: المنقضّية.

٢ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

٣ قراءة شاذّة فيهما، عزاها الزمخشري إلى يحيى بن وثاب، وذكر الكرماني كسر الأولى عن يحيى بن وثاب وأبي حنيفة، وذكرها الهذلي عن أبي حنيفة، ولم يذكرا فتح الثانية. قال أبو حيّان: «والذين نقلوا قراءة يحيى لم يذكروا أنّ أحدًا قرأ الثانية بالفتح إلّا هو [يعني: الزمخشري]، إنّما ذكروا أنّه قرأ الأولى بالكسر. ولكنّ الزمخشري مِن ولوعه بنصرة مذهبه يروم ردَّ كلِّ شيء إليه». انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٤٤٥/١؛ **وشواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٢٦؛ **والكامل** للهذلي، ص ٣٧٩؛ **والبحر المحيط** لأبي حيّان، ٤٤٦/٣.

مفيدٌ لمزيد الاعتناءِ بإبطال الحسبان وردِّه، على معنى: لا يحسبنّ الكافرون أنّ إملاءنا لهم لازدياد الإثم حسبما هو شأنُهم؛ بل إنّما هو لتَلافي ما فَرَط منهم بالتوبة والدخولِ في الإيمان.

﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لمّا تضمّن الإملاء التمتيعَ بطيّبات الدنيا وزينتِها، وذلك ممّا يستدعي التعزّزَ والتجبّر؛ وُصف عذابُهم بالإهانة؛ ليكون جزاؤهم جزاءً وفاقًا. فالجملة[١] إمّا مبتدَأة مبيّنة لحالهم في الآخرة إثرَ بيان حالهم في الدنيا، وإمّا حال مِن الواو، أي: ليزدادوا إثمًا مُعَدًّا لهم عذابٌ مهين، وهذا متعيّن على القراءة الأخيرة.

﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ كلام مستأنف مَسوق لوعدِ المؤمنين ووعيدِ المنافقين بالعقوبة الدنيويّة التي هي الفضيحة والخِزْي إثرَ بيانِ عقوبتِهم الأخرويّة. والمراد بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلِصون.

وأمّا الخطاب فقد قيل: إنّه لجمهور المصدِّقين مِن أهل الإخلاص وأهلِ النفاق، ففيه التِفات في ضمن التلوين.[٢] والمراد بـ"ما هم عليه": اختلاط بعضِهم بعضًا واستواؤهم في إجراء أحكام الإسلام عليهم؛ إذ هو القدْر المشترَك بين الفريقين.

وقيل:[٣] إنّه للكفّار والمنافقين، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما[٤] والضحّاك ومُقاتل والكلبي رضي الله عنهم وأكثرِ المفسّرين،[٥] ففيه تلوين فقط،

---

١ ي: والجملة.

٢ وفي هامش ط س ي: حيث وجّه الخطابَ إليهم، وقد كان قبلُ موجّهًا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأُدرج فيه المؤمنون إثرَ جريان ذكرهم بطريق الغيبة. «منه».

٣ وفي هامش ي: ثعلبي. «منه».

٤ س - رضي الله عنهما.

٥ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٦٣/٦؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢١٨/٣.

ولعلّ "المنافقين" عطفٌ تفسيريٌّ للكفّار، وإلّا فلا شَرِكةَ بين المؤمنين والمجاهرين في أمر مِن الأمور. والمراد بـ"ما هم عليه" ما مرّ مِن القدْر المشترَك، فإنّه كما يجوز نسبته إلى الفريقين معًا يجوز نسبته إلى كلّ منهما، لا الكفرُ والنفاقُ كما قيل،[1] فإنّ المؤمنين ما كانوا مشاركين لهم في ذلك حتّى لا يُتركوا عليه.

وقيل: إنّه للمؤمنين خاصّة، وهو قول أكثرِ أهلِ المعاني، ففيه تلوين والتفات[2] كما مرّ. والتعرّض لإيمانهم قبل الخطاب للإشعار بعلّة الحُكم. والمراد بـ"ما هم عليه" ما مرّ غيرَ مرّة.

والأوّل هو الأقرب، وإليه جنَح المحقِّقون مِن أهل التفسير لكونه صريحًا في كون المرادِ بـ"ما هم عليه" ما ذُكر مِن القدْر المشترَك بين الفريقين[3] مِن حيث هو مشترَك بينهما، بخلاف القولين الأخيرين، فإنّهما بمَعزِل مِن ذلك، كيف لا والمفهومُ ممّا عليه المنافقون هو الكفر والنفاق، وممّا عليه المؤمنون هو الإيمان والإخلاص، لا القدْر المشترَك بينهما. ولئن فُهم ذلك فإنّما يفهم مِن حيث الانتسابُ إلى أحدهما، لا مِن حيث الانتسابُ إليهما معًا. وعليه يدور أمر الاختلاط المُحوِج إلى الإفراز.

واللام في ﴿لِيَذَرَ﴾ إمّا متعلّقة بالخبر المقدَّر لِـ﴿كَانَ﴾ كما هوُ رأي البَصْريّة، وانتصابُ الفعل بعدها بـ"أن" المقدّرة، أي: ما كان الله مريدًا أو متصدّيًا لأن يذَرَ المؤمنين... إلخ. ففي توجيه النفيِ إلى إرادة الفعل / تأكيد ومبالغة ليست في [١١٩و]
توجيهه إلى نفسه. وإمّا مزيدة للتأكيد ناصبة للفعل بنفسها كما هو رأي الكوفيّة، ولا يقدح في ذلك زيادتُها، كما لا يقدح زيادة حروفِ الجرّ في عملها.

---

[1] انظر: تفسير القرطبي، ٤/٢٨٨.

[2] ي: والالتفات.

[3] وفي هامش ي أ: كإجراء أحكام الإسلام عليهم مثلًا، فإنّه مشترَك بين الفريقين؛ لكنّ الخطاب إذا كان لأحدهما يلاحظ انتسابه إلى ذلك الفريق لا إليهما معًا حتى يحتاج إلى التميز؛ أمّا على تقدير كون الخطاب للمؤمنين فظاهر، وأمّا على التقدير الأخير فلأنّ عدم ترك المؤمنين على ما عليه المنافقون وإن كان مُشعرًا بالاشتراك في الجملة؛ لكنّ إشعاره بالاشتراك فيما ذكر ليس أجلى مِن إيهامه للاشتراك فيما هو المتبادَر ممّا هم عليه مِن الكفر والنفاق، فتدبّر. «منه».

وقوله عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ غاية لِما يفيده النفي المذكور، كأنّه قيل: ما يتركهم الله على ذلك الاختلاط؛ بل يقدِّر الأمورَ ويرتّب الأسبابَ حتّى يعزِلَ المنافقَ مِن المؤمن. وفي التعبير عنهما بما ورد به النظم الكريم تسجيلٌ على كلّ منهما بما يليق به، وإشعارٌ بعلّة الحُكم.

وإفراد الخبيث والطيّب -مع تعدّد ما أريد بكلّ منهما وتكثّره، لا سيّما بعد ذكرِ ما أريد بأحدهما -أعني: المؤمنين بصيغة الجمع- للإيذان بأنّ مدار إفرازِ أحدِ الفريقين مِن الآخر هو اتّصافهما بوصفهما، لا خصوصيّةُ ذاتِهما[1] وتعدّدُ آحادِهما، كما في مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ [النساء، ٣/٤]. ونظيره قوله تعالى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج، ٢/٢٢]، حيث قصد الدلالةَ على الاتّصاف بالوصف مِن غير تعرّضٍ لكون الموصوفِ مِن العقلاء أو غيرِهم.

وتعليق المَيْزِ بالخبيث المعبَّرِ به عن المنافق -مع أنّ المتبادِر ممّا سبق مِن عدم تركِ المؤمنين على الاختلاط تعليقُه بهم وإفرازُهم عن المنافقين- لِما أنّ المَيْزَ الواقع بين الفريقين إنّما هو بالتصرّف في المنافقين، وتغييرِهم مِن حال إلى حال مغايرةٍ للأُولى مع بقاء المؤمنين على ما كانوا عليه مِن أصل الإيمان وإن ظهر مزيد إخلاصِهم، لا بالتصرّف فيهم وتغييرِهم مِن حال إلى حال أخرى مع بقاء المنافقين على ما هم عليه مِن الاستتار. ولأنّ فيه مزيدَ تأكيد للوعيد، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة، ٢٢٠/٢]. وإنّما لم يُنسَبْ عدمُ التركِ إليهم لِما أنّه مُشعِر بالاعتناء بشأن مَن نُسب إليه، فإنّ المتبادِر منه عدمُ الترك على حالة غيرِ ملائمة، كما يشهد به الذوق السليم.

وقُرئ: "حَتَّى يُمَيِّزَ"[2] مِن التمييز.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ تمهيد لبيان المَيزِ الموعودِ على طريق تجريد الخطابِ للمخلِصين تشريفًا لهم.

---

[1] ط: داتهما.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٤٤/٢.

وقوله عزّ وجلّ:[١] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ إشارة إلى كيفيّة وقوعِه على سبيل الإجمال. وإظهار الاسمِ الجليلِ في الموضعين لتربية المهابة. فالمعنى: ما كان الله لِيتركَ المخلِصين على الاختلاط بالمنافقين؛ بل يرتّب المبادي حتّى يُخرِج المنافقين مِن بينهم، وما يفعل ذلك باطّلاعكم على ما في قلوبهم مِن الكفر والنفاقِ، ولكنّه تعالى يوحي إلى رسوله عليه السلام فيخبرُه بذلك وبما ظهر منهم مِن الأقوال والأفعال حسبما حُكي عنهم بعضُه فيما سلَف، فيفضَحهم على رءوس الأشهاد، ويُخلّصكم مِن خِسّة الشركاء، وسوءِ جِوارهم.

والتعرّض للاجتباء للإيذان بأنّ الوقوف على أمثال تلك الأسرار الغيبيّةِ لا يتأتّى إلّا ممّن رشّحه الله تعالى لمَنصِبٍ جليلٍ تقاصرت عنه هِممُ الأمم، واصطفاه على الجماهير لإرشادهم. وتعميم الاجتباء لسائر الرسل عليهم السلام للدلالة على أنّ شأنه عليه السلام في هذا الباب أمرٌ مَتينٌ، له أصل أصيل، جارٍ على سنّة الله تعالى المَسلوكةِ فيما بين الرسل الخالية عليهم السلام.[٢]

وتعميم الأمر في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ مع أنّ سَوق النظمِ الكريم للإيمان بالنبيّ عليه السلام لإيجاب الإيمانِ به بالطريق البرهانيّ والإشعارِ بأنّ ذلك مستلزِم للإيمان بالكلّ، لأنّه مصدِّق لِما بين يديه مِن الرسل، وهم شهداء بصِحّة نبوّتِه عليه السلام.[٣] والمأمور به الإيمانُ بكلّ ما جاء به عليه السلام فيدخُل فيه تصديقُه عليه السلام فيما أخبَر به[٤] مِن أحوال المنافقين دخولًا أوّليًا، هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم.

وقد جُوّز أن يكون المعنى: لا يترككم مختلطين حتّى يَميز الخبيثَ مِن الطيّب بأن يكلّفَكم التكاليفَ الصعبة التي لا يصبِر عليها إلّا الخُلَّص الذين امتحن الله تعالى قلوبهم، كبَذل الأرواح في الجهاد، وإنفاقِ الأموال في سبيل الله تعالى، فيُجعل ذلك عِيارًا على عقائدكم وشاهدًا بضمائركم حتّى يعلمَ بعضُكم بما في قلب بعض بطريق الاستدلال لا مِن جهة الوقوف على ذات الصدور،

---

١ ي: تعالى.
٢ ط: عليهم الصلاة والسلام.
٣ ي: صلّى الله عليه وسلّم.
٤ ي - به.

فإنّ ذلك ممّا استأثر الله تعالى به.

وأنت خبير بأنّ الاستدراك باجتباء الرسل المُنبئ عن مزيد مزيّتهم وفضلِ معرفتِهم على الخلق إثرَ بيان قصورِ رُتبتِهم عن الوقوف على خفايا السرائر؛ صريحٌ في أنّ المراد إظهارُ تلك السرائر بطريق الوحي، لا بطريق التكليف بما يؤدّي إلى خروج أسرارهم عن رتبة الخفاء. وأقرب مِن ذلك حملُ الآية الكريمة على أن تكون مسوقةً لبيان الحكمة في إملائه تعالى للكفرة إثرَ بيان شرّيّتِه لهم.

فالمعنى: ما كان الله ليَذر المُخلِصين على الاختلاط أبدًا كما تركهم كذلك إلى الآن لسرٍّ يقتضيه؛ بل يفرُز عنهم المنافقين، ولذلك فعلَه يومئذ حيث خلّى الكفرةَ وشأنَهم، فأبرز لهم صورةَ الغَلَبة، فأظهر مَن في قلوبهم مرضٌ ما فيها مِن الخبائث وافتُضحوا على رءوس الأشهادِ.

وقيل: قال الكافرون: إن كان محمّد صادقًا فليُخبرْنا؛ مَن يؤمن منّا ومَن يكفر، فنزلت.[1]

﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ﴾ أي: بما ذكر حقَّ الإيمان، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي: عدمَ مراعاة حقوقه، أو النفاقَ، ﴿فَلَكُمْ﴾ بمقابلة ذلك الإيمان والتقوى ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُبلغ كُنهُه.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ بيان لحال البخل ووَخامة عاقبته، وتخطئةٌ لأهله في توهّم خيريّته حسَبَ بيانِ حال الإملاء. وإيراد ما بخِلوا[2] به بعنوان إيتاءِ الله تعالى إيّاه مِن فضله للمبالغة في بيان سوء صنيعهم، فإنّ ذلك مِن موجِبات بَذلِه في سبيله، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد، ٥٧/٧].

---

[1] جامع البيان للطبري، ٦/٢٦٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٤٥.

[2] ي: يخلوا.

والفعل مسنَد إلى الموصول. والمفعول الأوّل محذوف لدلالة الصلة [١١٩ظ] عليه. وضمير الفصل راجع إليه، أي: لا يحسَبنّ الباخِلون / بما آتاهم الله مِن فضله مِن غير أن يكون لهم مَدخل فيه أو استحقاق له هو خيرًا لهم مِن إنفاقه. وقيل: الفعل مسنَد إلى ضمير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو إلى ضمير مَن يحسَب، والمفعولُ الأوّل هو الموصولُ بتقدير مضافٍ، والثاني ما ذُكر، كما هو كذلك على قراءة الخِطاب،[١] أي: ولا يحسَبَنَّ بخلَ الذين يبخلون بما آتاهم الله مِن فضله هو خيرًا لهم.

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ التنصيص على شَرِّيته لهم -مع انفهامها مِن نفي خيريّته- للمبالغة في ذلك. والتنوين للتفخيم. وقوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بيان لكيفيّة شَرِّيته، أي: سيلزَمون وبالَ ما بخِلوا به إلزامَ الطَّوق، على أنّه حُذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه للإيذان بكمال[٢] المناسبة بينهما. ورُوي عن النبيّ عليه السلام[٣] أنّه قال: «ما مِن رجل لا يؤدّي زكاة ماله إلّا جعل الله له شُجاعًا في عنقه يوم القيامة».[٤]

وقيل: يجعل ما بَخل به مِن الزكاة حيّةً في عنقه تَنهشُه مِن قَرنه إلى قدمه وتنقُر رأسَه، وتقول: أنا مالُك. ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده لا لأحد[٥] غيرِه استقلالًا أو اشتراكًا.

﴿مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يتوارثه أهلُهما مِن مال وغيره مِن الرسالات[٦] التي يتوارثها أهلُ السماواتِ،[٧] فما لهم يبخلون عليه بمُلكه، ولا يُنفقونه في سبيله؟ أو أنّه يرث منهم ما يُمسِكونه، ولا ينفقونه في سبيله تعالى عند هلاكهم وتبقى عليهم الحَسرةُ والندامة.

---

١ أي: "لا تَحْسَبَنَّ"، وقرأ بها حمزة الزيّات. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.
٢ ي: بكلّ.
٣ ي: صلّى الله عليه وسلّم.
٤ سنن الترمذي، ٥/٢٣٢ (٣٠١٢)؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٥١.
٥ ط: إلى أحد.
٦ ي: الرسالة.
٧ وفي هامش ط ي: كالمُلك والولاية والأحوال التي ينتقل مِن واحد إلى غيره، ولا يعدّ في الشرع مالًا، ولعلّ في أهل السماء مثل ذلك أيضًا. «منه».

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِن المنع والبخلِ ﴿خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم على ذلك. وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة. والالتفات للمبالغة في الوعيد، والإشعارِ باشتداد غضبِ الرحمن الناشئ مِن ذكر قبائحهم. وقُرئ بالياء على الظاهر.[1]

﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ١٨١﴾

﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قالته اليهود لمّا سمعوا قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة، ٢/٢٤٥]. ورُوي أنّه عليه السلام كتب مع أبي بكر رضي الله عنه إلى يهودِ بني قَينُقاعَ يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يُقرضوا[2] الله قَرضًا حسنًا، فقال فِنحاص: «إنّ الله فقير حين سألنا القَرض»، فلطمه أبو بكر رضي الله عنه في وجهه، وقال: «لولا الذي بيننا وبينكم مِن العهد لضربت عُنقَك»، فشكاه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وجحَد ما قاله، فنزلت.[3] والجمع حينئذ مع كون القائلِ واحدًا لِرضى الباقين بذلك.

والمعنى: أنّه لم يخْفَ عليه تعالى وأعدّ له مِن العقاب كِفاءه. والتعبير عنه بالسماع للإيذان بأنّه مِن الشَّناعة والسَّماجة بحيث لا يرضى قائلُه بأن يسمَعَه سامع. والتوكيد القَسَميّ للتشديد في التهديد، والمبالغةِ في الوعيد.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ أي: سنكتب ما قالوه مِن العظيمة الشَّنعاءِ في صحائف[4] الحفَظة، أو سنحفظه ونُثبته في علمنا لا ننساه ولا نهمله كما يثبت المكتوب. والسين للتأكيد، أي: لن يفوتنا أبدًا تدوينُه وإثباتُه؛ لكونه في غاية العِظم والهَول، كيف لا وهو كفرٌ بالله تعالى، واستهزاءٌ بالقرآن العظيم والرسولِ الكريمِ؟ ولذلك عُطف عليه قوله تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ إيذانًا بأنّهما في العِظم أخَوان،

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٥.

[2] ط: يقرض.

[3] الكشّاف للزمخشري، ١/٤٤٧. وأخرج القصّة بأطول مِن ذلك الطبري في جامع البيان، ٦/٢٧٨.

[4] ي: صحيفة.

وتنبيهًا على أنّه ليس بأوّل جريمةٍ ارتكبوها؛ بل لهم فيه سوابق، وأنّ مَن اجترَأ على قتل الأنبياءِ لم يُستبعَد منه أمثالُ هذه العظائم.

والمراد بـ﴿قَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾: رضاهم بفعل أسلافِهم. وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿قَتْلَهُمُ﴾، أي: كائنًا بغير حقّ في اعتقادهم أيضًا كما هو في نفس الأمر. وقُرئ: "سَيَكْتُبُ" على البناء للفاعل،[١] و"سَيُكْتَبُ" على البناء للمفعول "وَقَتْلُهُمْ" بالرفع.[٢]

﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: وننتقم منهم بعد الكَتْبة؛ بأن نقول لهم: ذوقوا العذاب المُحرِق كما أذقتم المسلمين الغُصَص. وفيه مِن المبالغات[٣] ما لا يخفى. وقُرئ: "وَيَقُولُ" بالياء،[٤] و"يُقَالُ" على البناء للمفعول.[٥]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى العذاب المذكور. وما فيه مِن معنى البُعدِ للدلالة على عِظَم شأنه، وبُعد منزلته في الهول والفظاعة. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب ما اقترفتموه مِن قَتل الأنبياءِ والتفوُّهِ بمثل تلك العظيمةِ وغيرِها مِن المعاصي. والتعبير عن الأنفُس بالأيدي لِما أنّ عامّة أفاعيلِها تُزاوَل بهنّ.

ومحلُّ ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الرفعُ على أنّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ. والجملة اعتراض تذييليّ مقرِّر لِمضمون ما قبلها، أي: والأمرُ أنّه تعالى ليس بمعذِّبٍ لعبيده بغير ذنب مِن قِبَلهم. والتعبير عن ذلك بنفي الظلم -مع أنّ تعذيبهم بغير ذنبٍ[٦] ليس بظلم، على ما تقرّر مِن قاعدة أهلِ السنّة، فضلًا عن كونه ظلمًا بالغًا- لبيان كمالِ نزاهتِه تعالى عن ذلك بتصويره

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٦.

٢ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٥.

٣ ط س: المبالغة.

٤ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٦.

٦ ي - بغير ذنب.

بصورة ما يستحيل صدورُه عنه سبحانه مِن الظلم، كما يعبّر عن ترك الإثابة على الأعمال بإضاعتها مع أنّ الأعمال غيرُ موجبةٍ للثواب حتّى يلزَمَ مِن تخلُّفه عنها ضَياعُها.

وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذُكر مِن التعذيب بغير ذنبٍ في صورة المبالغةِ في الظلم، وقيل: هي لرعاية جمعيّةِ العبيد، مِن قولهم: فلان ظالمٌ لعبده، وظلّام لعبيده، على أنّها للمبالغة كمًّا لا كيفًا.

هذا وقد قيل: محلُّ ﴿أَنَّ﴾ الجرُّ بالعطف على "مَا قَدَّمَتْ"، وسببيّتُه[١] للعذاب مِن حيث إنّ نفيَ الظلم مستلزِم للعدل المقتضي لإثابة المُحسِن ومعاقبةِ المُسيء.[٢] وفساده ظاهر، فإنّ ترك التعذيب مِن مستحِقّه ليس بظلم شرعًا ولا عقلًا حتّى ينتهضَ نفيُ الظلم سببًا للتعذيب حسبما ذكره القائل في سورة الأنفال.[٣]

وقيل: سببيّة ذنوبهم لعذابهم مقيَّدة بانضمام انتفاء ظلمِه تعالى إليها؛ إذ لولاه لأمكن أن يعذِّبَهم بغير ذنوبهم. وأنت خبير بأنّ إمكان تعذيبِه تعالى لعبيده بغير ذنبٍ بل وقوعَه[٤] لا ينافي كونَ تعذيبِ هؤلاءِ / الكفرةِ بسبب ذنوبهم حتّى [١٢٠و]
يُحتاجَ إلى اعتبار عدمِه معه، وإنّما يُحتاج إلى ذلك إن لو كان المدَّعَى أنّ جميع تعذيباتِه تعالى بسبب ذنوب المعذَّبين.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ نصب أو رُفع على الذمّ. وهم: كعب بن الأشرف، ومالك بن صيفي، وحُيَيّ بن أخطب، وفِنحاص بن عازوراء،[٥] ووَهْب بن يهودا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَا﴾ أي: أمَرنا في التوراة وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾

---

١ ط: وسببته.

٢ قاله الزمخشري في الكشّاف، ١/٤٤٧؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٥٢.

٣ يعني: البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٦٣ (الأنفال، ٨/٥١).

٤ ط: وقوعَه.

٥ ي: عازوا.

كما كان عليه أمرُ أنبياءِ بني إسرائيل حيث كان يُقرِّب بالقُربان، فيقوم النبيّ فيدعو، فتَنزل نار مِن السماء فتأكُله، أي: تُحيله إلى طبعها بالإحراق. وهذا مِن مُفترَياتهم وأباطيلهم، فإنّ أكْل النارِ القُربانَ لم يوجب الإيمان إلّا لكونه معجزة، فهو وسائرُ المعجزات سواء.[١]

ولمّا كان مُحصَّلُ كلامِهم الباطلِ: أنّ عدم إيمانهم برسول الله[٢] صلّى الله عليه وسلّم لعدم إتيانه بما قالوا، ولو تحقّق الإتيان به لَتحقّق الإيمان؛ رُدّ عليهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: تبكيتًا لهم وإظهارًا لكذبهم ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ﴾ كثيرةُ العددِ كبيرةُ المقدار ﴿مِن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحة ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ بعينه مِن القُربان الذي تأكله النار.[٣] ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فيما يدلّ عليه كلامكم مِن أنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه، فإنّ زكريّا ويحيى وغيرَهما مِن الأنبياء عليهم السلام[٤] قد جاءوكم بما قلتم في معجزات أُخَر، فما لكم لم تؤمنوا لهم حتّى اجترَأتم على قتلهم؟

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ شروع في تسلية رسولِ الله صلّى الله تعالى[٥] عليه وسلّم إثرَ ما أوحي إليه ما يُحزنه عليه السلام مِن مقالات الكفَرة مِن المشركين واليهود. وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ تعليل لجواب الشرط، أي: فتَسَلَّ فقد كُذِّب... إلخ. و﴿مِن﴾ متعلّقة بـ﴿كُذِّبَ﴾، أو بمحذوف هو صفة لـ﴿رُسُلٌ﴾، أي: كائنةٌ مِن قبلك.

﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحات. صفة لـ﴿رُسُلٌ﴾. ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ هو جمعُ "زَبورٍ"؛ وهو الكتاب المَقصور على الحِكَم، مِن "زَبَرْتُه" إذا حسّنته. وقيل: "الزُّبُر": المواعظُ والزواجرُ، مِن "زبَرتُه" إذا زجَرتَه. ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ قيل:

---

١ ي – سواء ["صح" في الهامش: شرع في ذلك].
٢ ط + تعالى.
٣ ط – النار.
٤ ط: عليهم الصلاة والسلام.
٥ س ي – تعالى.

أي: التوراةِ والإنجيلِ والزبورِ. والكتابُ في عرف القرآن ما يتضمّن الشرائعَ والأحكام، ولذلك جاء "الكتاب" و"الحكمة" متعاطِفَين في عامّة المواقع. وقُرئ: "وَبِالزُّبُرِ"[١] بإعادة الجارّ؛ دلالةً على أنّها مغايِرة بالذات للبيّنات.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وعد ووعيد للمصدِّق والمكذِّب. وقُرئ: "ذَائِقَةٌ الْمَوْتَ" بالتنوين[٢] وعدمِه،[٣] كما في قوله:

ولا ذاكــــــــرِ الله إلّا قليـــــــــلا[٤]

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ أي: تُعطَوْن أجزية أعمالِكم على التمام والكمال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يوم قيامِكم مِن القبور. وفي لفظ "التوفية" إشارة إلى أنّ بعض أجورِهم يصِل إليهم قبله، كما يُنبئ عنه قوله عليه السلام: «القبر روضة مِن رِياض الجنّة، أو حُفرة مِن حُفَر النيران».[٥]

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي: بُعِّد عنها يومئذ ونُجِّي. و"الزَّحزَحة" في الأصل: تكرير الزَّحّ؛ وهو الجذب بعجَلة. ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ بالنجاة ونَيل المرادِ. و"الفوز": الظفَر بالبُغية، وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن أحبّ أن يُزَحزحَ عن النار ويُدْخَلَ الجنّة فلتُدرِكْه مَنيّتُه وهو يؤمن بالله واليومِ الآخِر ويؤتِ[٦] إلى الناس ما يحبّ أن يُؤتى إليه».[٧]

---

١ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيوة وأبي البرهم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٦.

٣ قراءة شاذّة، نقلها الزمخشري عن الأعمش. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٤٤٨.

٤ تمامه:

فـألـفـيـتـه غـيـرَ مُـسـتـعـتِـبٍ
ولا ذاكــــرِ اللهَ إلّا قليـــــلا

وهو لأبي الأسود الدؤلي في الكتاب لسيبويه، ١/١٦٩. و"غيرَ مستعتِب" أي: غير راجع بالعتاب عن قبيح ما يفعل. والشاهد: أنه حذَف التنوين مِن "ذاكرِ" لالتقاء الساكنين، لا للإضافة. شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ١/٦٦.

٥ اللباب لابن عادل، ٣/٧٩. وهو في سنن الترمذي، ٤/٦٣٩-٦٤٠ (٢٤٦٠)، بلفظ: "حُفر النار".

٦ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مسند الإمام أحمد: "ويأتي"، وفي سنن النسائي: "وليأتِ".

٧ مسند الإمام أحمد، ١١/٤٠٠ (٦٧٩٣)؛ صحيح ابن حبّان، ١٣/٢٩٥ (٥٩٦١)؛ سنن النسائي، ٧/١٥٢ (٤١٩١).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي: لَذّاتها وزخارفُها ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ شبِّهت بالمتاع الذي يُدلَّس به على المُستام ويُغَرّ حتّى يشتريَه، وهذا لمَن آثرها على الآخرة، فأمّا مَن طلب بها الآخرةَ فهي له متاعُ بلاغٍ. و﴿ٱلْغُرُورِ﴾ إمّا مصدر، أو جمع "غارّ".

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ شروع في تسلية رسول الله صلّى الله تعالى[١] عليه وسلّم ومَن معه مِن المؤمنين عمّا سيلقَونه مِن جهة الكفَرة مِن المَكاره إثرَ تَسليتهم عمّا قد وقع منهم؛ لِيوطِّنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه، ويستعدّوا للقائه، ويقابلوه بحسن الصبر والثباتِ. فإنّ هجوم الأوجالِ ممّا يزلزل أقدامَ الرجال، والاستعدادَ للكروب ممّا يهوِّن الخطوب. وأصلُ الابتلاء: الاختبار، أي: تُطلَب الخِبرة بحال المُختبَر بتعريضه لأمر يشُقّ عليه غالبًا ملابَستُه أو مفارقتُه، وذلك إنّما يُتصوّر حقيقةً ممّن لا وقوفَ له على عواقب الأمور. وأمّا مِن جهة العليم الخبير فلا يكون إلّا مجازًا مِن تمكينه للعبدِ مِن اختيار أحد الأمرين أو الأمور قبل أن يرتِّب عليه شيئًا هو مِن مباديه العاديّة كما مرّ.[٢]

والجملة جواب قسَم محذوف، أي: واللهِ لتُبلوُنَّ، أعني: لتُعامَلُنّ معاملةَ المُختبَر؛ ليَظهر[٣] ما عندكم مِن الثبات على الحقّ والأعمال الحسنة. وفائدة التوكيد إمّا تحقيقُ[٤] معنى الابتلاءِ تهوينًا للخَطْب، وإمّا تحقيق وقوع المبتلى به مبالغةً في الحثّ على ما أريد منهم مِن التهيُّؤ والاستعداد.

﴿فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بما يقع فيها مِن ضروب الآفاتِ المؤدّيةِ إلى هلاكها.[٥] وأمّا إنفاقها في سُبُل الخيرِ مطلقًا فلا يليق نظمُه في سلك الابتلاء لِما أنّه مِن باب الإضعاف، لا مِن قبيل الإتلاف. ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالقتل والأسر والجِراحِ وما يرِدُ عليها

---

١ س ي - تعالى.
٢ وفي هامش ط ي: أي: في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة، ٢/١٢٤]. «منه».
٣ ي: ليظر.
٤ ي: تحقّق.
٥ وفي هامش ط س ي: قال سبحانه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة، ٢/٢٧٦]، وقال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم، ٣٠/٣٩]. «منه».

مِن أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك. وتقديم الأموال لكثرة وقوع الهلَكة فيها.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: مِن قَبل إيتائِكم القرآن، وهم اليهود والنصارى، عبّر عنهم بذلك للإشعار بمَدار الشِّقاقِ، والإيذانِ بأنّ بعض ما يسمعونه منهم مستنِدٌ على زعمهم إلى الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾... إلخ [آل عمران، ١٨٣/٣]. والتصريحُ بالقَبْليّة لتأكيد الإشعارِ وتقويةِ المدارِ، فإنّ قِدَم نزولِ كتابِهم ممّا يؤيّد تمسُّكَهم به. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ مِن الطَّعن / في الدين الحنيف، والقَدْح في أحكام الشرعِ الشريف، [١٢٠ظ] وصدِّ مَن أراد أن يؤمِنَ، وتَخطئةِ مَن آمَن، وما كان مِن كعب بنِ الأشرف وأضرابِه مِن هجاء المؤمنين وتحريضِ المشركين على مُضادّة رسولِ الله صلّى الله تعالى[١] عليه وسلّم ونحوِ ذلك ممّا لا خير فيه.

﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ أي: على تلك الشدائد والبلوى عند وُرودها، وتقابلوها بحسن التحمُّل، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي: تتَبَتَّلوا إلى الله تعالى بالكلّيّة مُعرِضين عمّا سواه بالمرّة، بحيث تساوى عندكم وصولُ المحبوب ولقاءُ المكروه. ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر والتقوى. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ درجتهما وبُعدِ منزلتهما. وتوحيد حرفِ الخطابِ إمّا باعتبار كلّ واحدٍ مِن المخاطَبين، وإمّا لأنّ المراد بالخطاب مجرّدُ التنبيه مِن غير ملاحظة خصوصيّة أحوالِ المخاطَبين.

﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ مِن معزوماتها التي يتنافس فيها المتنافسون، أي: ممّا يجب أن يَعزِمَ عليه كلُّ أحد لِما فيه مِن كمال المزيّة والشرف، أو ممّا عزَم الله تعالى عليه وأمر به وبالَغ فيه، يعني: إنّ ذلك عَزمةٌ مِن عَزَمات الله[٢] لا بدّ أن تصبِروا وتتّقوا. والجملة تعليل لجواب الشرطِ واقعٌ موقِعَه، كأنّه قيل: وإن تصبروا وتتّقوا فهو خير لكم، أو فافعلوا، أو فقد أحسنتم، أو فقد أصبتم، فإنّ ذلك... إلخ. ويجوزُ أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى صبر المخاطَبين وتقواهم،

---

[١] س ي - تعالى.

[٢] عَزمة مِن عَزَمات الله، أي: حقّ مِن حقوقه وواجب مِن واجباته. النهاية لابن الأثير، «عزم».

فالجملة حينئذ جوابُ الشرط.

وفي إبراز الأمرِ بالصبر والتقوى في صورة الشرطيّة مِن إظهار كمالِ اللُّطفِ بالعباد ما لا يخفى.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ كلام مستأنَف سيق لبيان بعضِ أذِيّاتِهم، وهو كِتمانهم ما في كتابهم مِن شواهد نبوّته صلّى الله تعالى[١] عليه وسلّم وغيرِها.[٢] و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَر أُمِر به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خاصّة بطريق تجريد الخطاب إثرَ الخطاب الشامل له عليه السلام وللمؤمنين؛ لكون مضمونِه مِن الوظائف الخاصّة به عليه السلام.

وتوجيه الأمرِ بالذِّكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مِن الحوادث مع أنّها المقصودة بالذات للمبالغة[٣] في إيجاب ذكرِها على ما مرّ بيانُه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ﴾... إلخ [البقرة، ٣٠/٢]، أي: اذكر وقت أخذِه تعالى ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى. ذُكروا بعنوان إيتاءِ الكتاب مبالغةً في تقبيح حالِهم.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ حكاية لِما خوطبوا به، والضمير لـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ وهو جواب لقسَم يُنبئ عنه أخذ الميثاقِ، كأنّه قيل لهم: بالله لتُبيِّنُنّه ﴿لِلنَّاسِ﴾ وتُظهِرُنّ جميعَ ما فيه مِن الأحكام والأخبار التي مِن جملتها أمرُ نبوّته صلّى الله عليه وسلّم، وهو المقصود بالحكاية. وقُرئ بالياء؛[٤] لأنّهم غُيَّب.

﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ عطفٌ على الجواب، وإنّما لم يؤكَّد بالنون لكونه منفيًّا، كما في قولك: واللهِ لا يقوم زيد. وقيل: اكتُفي بالتأكيد في الأوّل لأنّه تأكيد له.

---

[١] س ي: تعالى.
[٢] ي: وغير.
[٣] ي - للمبالغة.
[٤] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٤٦/٢.

وقيل: هو حال مِن ضمير المخاطَبين إمّا على إضمار مبتدأ بعد الواوِ، أي: وأنتم لا تكتمونه، وإمّا على رأي مَن جوّز دخول الواو على المضارع المنفيّ عند وقوعه حالًا،[1] أي: لتبيّنُنّه غيرَ كاتمين. والنهي عن الكتمان بعد الأمر بالبيان إمّا للمبالغة في إيجاب المأمورِ به، وإمّا لأنّ المراد بالبيان المأمورِ به ذكرُ الآياتِ الناطقةِ بنبوّته عليه السلام، وبالكِتمان المنهيّ عنه إلقاءُ التأويلاتِ الزائغةِ والشبهاتِ الباطلة. وقُرئ بالياء[2] كما قبله.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾ النَّبذ: الرَّمي والإبعاد، أي: طرَحوا ما أُخذ منهم مِن الميثاق الموثّقِ بفنون التأكيد، وألقَوه ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ ولم يراعوه، ولم يلتفتوا إليه أصلًا، فإنّ نبذ الشيءِ[3] وراء الظهر مَثَلٌ في الاستهانة به والإعراض عنه بالكلّيّة، كما أنّ جعله نُصْبَ العينِ عَلَمٌ في كمال العناية به. وفيه مِن الدلالة على تحتّم بيانِ الحقّ على علماء الدين، وإظهارِ ما مُنِحُوه[4] مِن العِلم للناس أجمعين، وحُرمةِ كتمانه لغرض مِن الأغراض الفاسدة أو طمع في عرَض مِن الأعراض الفانية الكاسدةِ ما لا يخفى.

وعن النبيّ عليه السلام:[5] «مَن كتَم عِلمًا مِن أهله أُلجِم بلِجامٍ مِن نار».[6]

وعن طاوس أنّه قال لوَهْب بن منبّه: «إنّي أرى الله سوف يعذّبك بهذه الكتُب».[7]

وقال: «واللهِ لو كنتَ نبيًّا فكتمتَ العِلم كما تكتُمه لَرأيتُ أنّ الله سيعذّبك».[8]

وعن محمّد بن كعب: «لا يحِلّ لأحد مِن العلماء أن يسكُت على علمه، ولا يحِلّ لجاهل أن يسكُت على جهله حتّى يَسأل».[9]

---

[1] انظر: شرح التصريح للأزهري، ٦١٢/١. وقال الشهاب الخفاجي: هو مذهب الزمخشري. انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٢٥٥/٣.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٤٦/٢.

[3] وفي هامش ي: أي: لفظه «منه».

[4] ي: مُنحوا.

[5] ي: صلّى الله عليه وسلّم.

[6] المستدرك للحاكم، ١٨٢/١ (٣٤٦)؛ صحيح ابن حبّان، ٢٩٧/١ (٩٥).

[7] الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/١.

[8] الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/١.

[9] الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/١. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٨/٣.

وعن عليّ رضي الله عنه: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلّموا حتّى أخذ على أهل العلم أن يُعلِّموا».[١]

﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب الذي أُمروا ببيانه ونُهوا عن كِتمانه، فإنّ ذِكر نبذِ الميثاقِ يدلّ على ذلك دلالةً واضحةً. وإيقاع الفعل[٢] على الكلّ -مع أنّ المراد به كتمُ بعضِه كدلائل نبوّته عليه السلام ونحوِها- لِما أنّ ذلك كتمٌ للكلّ، إذ به يتمّ الكتاب. كما أنّ رفض بعضِ أركانِ الصلاة رفضٌ لكلّها، أو بمنزلة كَتمِ الكلّ مِن حيث إنّهما سِيّانِ في الشناعة واستجرار العقاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة، ٥/٦٧].

والاشتراء مستعار لاستبدال متاعِ الدنيا بما كتَموا، أي: تركوا ما أُمروا به وأخذوا بدله ﴿ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ أي: شيئًا تافهًا حقيرًا مِن حُطام الدنيا وأعراضِها.

وفي تصوير هذه المعاملة بعقد المعاوضةِ، لاسيّما بالاشتراء المُؤْذِن بالرغبة في المأخوذ والإعراضِ عن المعطى، والتعبيرِ عن المشترَى -الذي هو العُمدة في العقد، والمقصودُ بالمعاملة- بالثمن الذي شأنُه أن يكون وسيلةً إليه، وجعلِ الكتابِ الذي حقُّه أن يَتنافسَ فيه المتنافسون مصحوبًا بالباء الداخلةِ على الآلات والوسائل؛ مِن نهاية الجزالةِ والدلالةِ على كمال فظاعةِ حالِهم وغايةِ قبحِها بإيثارهم الدنيءَ الحقير على الشريف الخطير، وتعكيسِهم بجعلهم المقصِدَ / الأصليَّ وسيلةً والوسيلةَ مقصِدًا ما لا يخفى جلالةُ شأنه ورِفعةُ مكانه. [١٢١و]

﴿فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ ﴿مَا﴾ نكرة منصوبة مفسِّرة لفاعل "بئس"، و﴿يَشۡتَرُونَ﴾ صفته، والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: بئس شيئًا يشترونه ذلك الثمن.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ﴾ الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ أحدٍ ممّن

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٢٢٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٥١.

[٢] وفي هامش ي: اشتراء. «منه».

يصلُح له. ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ أي: بما فعلوا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم، ٦١/١٩]، ويدلّ عليه قراءة أُبيّ: "يَفْرَحُونَ بِمَا فَعَلُوا".[١] وقُرئ: "بِمَا آتَوْا"،[٢] بمعنى: أعطَوا، و"بِمَا أُوتُوا"،[٣] أي: بما أوتوه مِن عِلم التوراة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هم اليهود حرّفوا التوراةَ وفرِحوا بذلك، وأحبّوا أن يوصفوا بالديانة والفضل».[٤]

ورُوي أن رسولَ الله عليه السلام[٥] سأل اليهود عن شيء ممّا في التوراة فكتموا الحقَّ وأخبروه بخلافه وأرَوْه أنّهم صدّقوه واستحمدوا إليه وفرِحوا بما فعلوا.[٦]

وقيل: فرِحوا بكِتمان النصوصِ الناطقةِ بنبوّته عليه السلام، وأحبّوا أن يُحمَدوا بأنّهم متّبعون ملّةَ إبراهيمَ عليه السلام.

فالموصول عبارة عن المذكورين أو عن مشاهيرهم،[٧] موضوعٌ موضِعَ ضميرهم. والجملة مَسوقة لبيان ما يستَتبعُه أعمالُهم المحكيّةُ مِن العقاب الأخرويّ إثرَ بيان قَباحتها. وقد أُدمج فيها بيانُ بعضٍ آخَر مِن شنائعهم، وهو إصرارهم على ما هم عليه مِن القبائح، وفرَحُهم بذلك، ومحبّتُهم لِأن يوصَفوا بما ليس فيهم مِن الأوصاف الجميلة. وقد نُظم ذلك في سلك الصلةِ التي حقُّها أن تكون معلومةَ الثبوتِ للموصول عند المخاطَب إيذانًا بشهرة اتّصافهم بذلك.

وقيل: هم قوم تخلّفوا عن الغزو ثمّ اعتذروا بأنّهم رأوا المصلحةَ في ذلك واستحمدوا به.

وقيل: هم المنافقون كافّة، وهو الأنسب بظاهر قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾؛ لشهرةِ أنّهم كانوا يفرحون بما فعلوا مِن إظهار الإيمان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النخعي وابن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٧.

٤ اللباب لابن عادل، ١٠٨/٦. وهو بنحوه في جامع البيان للطبري ٣٠٣/٦.

٥ ي: صلّى الله عليه وسلّم.

٦ جامع البيان للطبري، ٣٠٥/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٠/٣.

٧ وفي هامش ط س ي: إشارة إلى أنّ أهل الكتاب الذين أخذ منهم الميثاق شامل للنصارى أيضًا وإن كان أشهرهم اليهود. «منه».

وقلوبُهم مطمئنّةٌ بالكفر، ويستحمِدون إلى المسلمين بالإيمان وهم عن فعله بألفِ منزلٍ، وكانوا يُظهرون محبّةَ المؤمنين وهم في الغاية القاصيةِ مِن العداوة. فالموصول عبارة عن طائفة معهودةٍ مِن المذكورين وغيرِهم، فإنّ أكثر المنافقين كانوا مِن اليهود.

ولعلّ الأَولى إجراءُ الموصول على عمومه شاملًا لكلّ مَن يأتي بشيء مِن الحسنات فيفرحُ به فرَحَ إعجاب، ويوَدُّ أن يمدحَه الناس بما هو عارٍ منه مِن الفضائل منتظمًا للمعهودين انتظامًا أوّليًا.

وأيًّا ما كان فهو مفعول أوّلُ لـ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيد له، والفاء زائدة، والمفعول الثاني قوله تعالى: ﴿بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: ملتبسين بنجاة منه، على أنّ "المفازة" مصدر ميميّ، ولا يضُرّ تأنيثُها بالتاء؛ لما أنّها مبنيّة عليها، وليست للدلالة على الوحدة كما في قوله:

فلولا رجاء[1] النصرِ منك ورهبة عقابَك قد كانوا لنا بالمَواردِ[2]

ولا سبيل إلى جعلها اسمَ مكانٍ على أنّ الجارَّ متعلِّق بمحذوف وقع صفةً لها،[3] أي: بمفازة كائنةٍ مِن العذاب؛ لأنّها ليست مِن العذاب. وتقدير فعلٍ خاصّ يصحّ به المعنى، أي: بمفازة مُنْجيةٍ مِن العذاب -مع كونه خلافَ الأصلِ- تعسّفٌ مستغنًى عنه.[4]

وقُرئ بضمّ الباء في الفعلين[5] على أنّ الخطاب شامل للمؤمنين أيضًا. وقُرئ بياء الغَيبة وفتحِ الباءِ فيهما[6] على أنّ الفعل له عليه السلام، أو لكلّ أحد

---

١ ط س: رجال.

٢ بغير نسبة في الكتاب لسيبويه، ١/١٨٩. | و"المَوارد": الطرق، الواحدة مَوردة. المعنى: لولا أنّهم يرجون أن تنصرهم علينا إن حاربناهم، ولولا أنّا نرهب عقابك إن قتلناهم، لقد صاروا لنا أذلّاء نطأهم كما يوطأ الطريق. شرح أبيات سيبويه للسيرافي، ١/٢٦٠.

٣ انظر: اللباب لابن عادل، ٦/١٠٩.

٤ قال ابن عادل: «وفيه الإشكالُ المعروف، وهو أنّه لا يُقدَّر المحذوف في مثله إلّا كَونًا مطلقًا». اللباب لابن عادل، ٦/١٠٩.

٥ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكَر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٤٥١.

٦ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

ممّن يتأتّى منه الحُسبان، ومفعولاه كما ذكر. وقُرئ بضمّ الباء في الثاني فقط[١] على أنّ الفعل للموصول، والمفعولَ الأوّل محذوفٌ لكونه عينَ الفاعلِ، والثاني ﴿بِمَفَازَةٍ﴾، أي: لا يحسبَنّ الذين يفرحون أنفسَهم فائزين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ تأكيد للأوّل، والفاءُ زائدة كما مرّ، ويجوز أن يُحمَل الفعل الأوّل على حذف المفعولين معًا[٢] اختصارًا لدلالة مفعولي الثاني عليهما، على عكس ما في قوله:

بأيِّ كتابٍ أو بأيّةِ سنّةٍ   ترى حبَّهم عارًا عليَّ وتحسَبُ[٣]

حيث حُذف فيه مفعولا الثاني لدلالة مفعولي الأوّل عليهما. أو على أنّ الفعل الأوّل للرسول صلّى الله عليه وسلّم أو لكلّ حاسب، ومفعولَه الأوّل الموصولُ، والثاني[٤] محذوفٌ لدلالة مفعول الفعلِ الثاني عليه، والفعلُ الثاني مسندٌ إلى ضمير الموصول، والفاءُ للعطف لظهور تفرّع عدم حُسبانهم على عدم حُسبانه عليه السلام، ومفعولاه الضميرُ المنصوبُ وقوله تعالى: ﴿بِمَفَازَةٍ﴾.

وتصدير الوعيدِ بنهيهم عن الحُسبان المذكورِ للتنبيه على بُطلان آرائِهم الركيكة، وقطعِ أطماعهم الفارغة، حيث كانوا يزعُمون أنّهم ينجون بما صنعوا مِن عذاب الآخرةِ كما نجَوا به مِن المؤاخذة الدنيويّة، وعليه كان مبنى فرحِهم، وأمّا نهيُه صلّى الله عليه وسلّم فللتعريض بحُسبانهم المذكور، لا لاحتمال وقوعِ الحُسبانِ مِن جهته صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بعد ما أُشير إلى عدم نجاتهم مِن مطلق العذاب حُقِّق أنّ لهم فردًا منه لا غايةَ له في المدّة والشدّة، كما يلوِّح به الجملة الاسميّة والتنكيرُ التفخيميّ والوصف.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٨٩﴾

﴿وَلِلَّهِ﴾ أي: خاصّةً ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: السلطانُ القاهر فيهما

---

١ مع ياء الغيبة في الفعلين، قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

٢ ط - معًا.

٣ للكُميت في خزانة الأدب للبغدادي، ٤/٣١٣.

٤ ي - والثاني.

بحيث يتصرّف فيهما وفيما فيهما كيفما يشاء ويريد، إيجادًا وإعدامًا، إحياءً وإماتةً، تعذيبًا وإثابةً، مِن غير أن يكون لغيره شائبة دخلٍ في شيء مِن ذلك بوجه مِن الوجوه. فالجملة مقرِّرة لِما قبلها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير لاختصاص مُلك العالَم الجُسمانيّ -المعبَّر عنه بقُطريه- به سبحانه وتعالى، فإنّ كونه تعالى قادرًا على الكلّ بحيث لا يشِذّ مِن ملكوته شيءٌ مِن الأشياء يستدعي كونَ ما سواه كائنًا ما كان مقدورًا له، ومِن ضرورته اختصاصُ القدرة به تعالى واستحالةُ / أن يشاركه شيءٌ مِن الأشياء [١٢١ظ] في القُدرة على شيء مِن الأشياء فضلًا عن المشاركة في مُلك السماوات والأرض.

وفيه تقرير لِما مرّ مِن ثبوت العذابِ الأليمِ لهم وعدمِ نجاتهم منه إثرَ تقرير. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتربية المهابة والإشعارِ بمَناط الحكم؛ فإنّ شمول القدرة لجميع الأشياء مِن أحكام الألوهيّة مع ما فيه مِن الإشعار باستقلال كلّ مِن الجملتين بالتقرير.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جملة مستأنَفة سيقت لتقرير ما سبَق مِن اختصاصه تعالى بالسلطان القاهر والقُدرة التامّةِ، صُدِّرت بكلمة التأكيد اعتناءً بتحقيق مضمونها، أي: في إنشائها على ما هي عليه في ذواتها وصفاتِها مِن الأمور التي يَحار في فهم أجلاها العقولُ.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ على ما هي عليه ذاتًا وصفةً.

﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: في تعاقُبهما في وجه الأرض، وكونِ كلّ منهما خِلْفةً للآخر بحسَب طلوع الشمس وغروبِها التابعَين لحركات السماوات وسكونِ الأرض، أو في تفاوتهما بازدياد كلّ منهما بانتقاص الآخرِ، وانتقاصِه بازدياده، باختلاف حال الشمسِ بالنسبة إلينا قُربًا وبُعدًا بحسب الأزمنة، أو في اختلافهما وتفاوتِهما بحسب الأمكنة، إمّا في الطول والقِصَر؛ فإنّ البلاد القريبة مِن القُطب الشماليّ أيّامُها الصيفيّة أطولُ ولياليها الصيفيّة أقصرُ مِن أيّام البلاد

البعيدةِ منه ولياليها. وإمّا في أنفسها؛ فإنّ كُريّةَ الأرض تقتضي أن يكون بعضُ الأوقات في بعض الأماكن ليلًا، وفي مقابله نهارًا، وفي بعضها صباحًا، وفي بعضها ظهرًا أو عصرًا أو غيرَ ذلك.

و﴿ٱلَّيۡلِ﴾ قيل: إنّه اسمُ جنسٍ يُفرَّق بين واحدِه وجمعِه بالتاء، كتَمْر وتَمْرة، و"الليالي" جمعُ "جمعٍ". والصحيح أنّه مفرد، ولا يُحفظ له جمعٌ، و"الليالي" جمعُ "ليلة"، وهو جمعٌ غريبٌ، كأنّهم توهّموا أنّها لَيلاةٌ، كما في كَيْكة[١] وكَياكي، كأنّها جمعُ "كَيكاة".[٢]

و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ اسم لِما[٣] بين طلوع الفجر وغروبِ الشمس، قاله الراغب.[٤] وقال ابن فارس:[٥] «هو ضياءُ ما بينهما».[٦]

وتقديم الليل على النهار إمّا لأنّه الأصل، فإنّ غُرر الشهورِ تظهر في الليالي، وإمّا لتقدّمه في الخلقيّة حسبما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس، ٣٦/٣٧]، أي: نُزيلُه عنه فيخلُفه.

﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ اسم ﴿إِنَّ﴾ دخلته اللام لتأخُّره عن خبرها. والتنكير للتفخيم كمًّا وكيفًا، أي: لآياتٍ كثيرةٌ عظيمةٌ لا يُقادَر قدرُها، دالّة على تعاجيب شئونِه التي مِن جملتها ما مرّ مِن اختصاص المُلك العظيم والقدرة التامّة به سبحانه. وعدمُ التعرّضِ لِما ذُكر في سورة البقرة مِن الفُلك والمطرِ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ[٧]

---

١ وفي هامش ط س ي: بيضة «منه». انظر: لسان العرب لابن منظور، «كيك».

٢ ي: كيكات.

٣ ي + لما.

٤ المفردات للراغب الأصفهاني، «نهر».

٥ هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت. ٣٩٥هـ/١٠٠٤م). العلّامة، اللغويّ، المحدِّث، قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عبّاد وغيرهما مِن أعيان البيان. أصله مِن قزوين، وأقام مدّة في همذان، ثمّ انتقل إلى الرّيّ فتوفّي فيها، وإليها نِسبته. وله شعر حسن. مِن تصانيفه: مقاييس اللغة، والمجمل، والصاحبيّ، وجامع التأويل في تفسير القرآن، والإتباع والمزاوجة، والحماسة المحدثة، والفصيح، وذمّ الخطأ في الشِّعر، واللامات، وأوجز السيَر لخير البشر. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبيّ، ١٧/١٠٣؛ والأعلام للزركلي، ١/١٩٣.

٦ مجمل اللغة لابن فارس، «نهر».

٧ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة، ٢/١٦٤].

لِما أنّ المقصود ههنا بيانُ استبدادِه تعالى بما ذُكر مِن المُلك والقدرة، فاكتُفي بمعظم الشواهدِ الدالّةِ على ذلك. وأمّا هناك فقد قُصِد في ضمن بيانِ اختصاصِه تعالى بالألوهيّة بيانُ اتّصافه تعالى بالرحمة الواسعة، فنُظمت دلائلُ الفضل والرحمة في سِلك دلائل التوحيد، فإنّ ما فُصّل هناك مِن[1] آيات رحمتِه تعالى، كما أنّه مِن آيات ألوهيّتِه ووحدتِه.

﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: لذوي العقول المَجلُوّة الخالصة عن شوائب الحسّ والوهمِ، المتجرّدِين عن العلائق النفسانيّة، المتخلّصِين عن العوائق الظُّلمانيّة، المتأمّلِين في أحوال الحقائقِ وأحكامِ النعوتِ، المراقبِين[2] في أطوار المُلك وأسرارِ الملكوتِ، المتفكّرِين في بدائع صنائع الملِكِ الخلّاق، المتدبّرِين في روائع حِكَمِه المودَعةِ في الأنفس والآفاق، الناظرين إلى العالَم بعين الاعتبار والشهود، المتفحّصِين عن حقيقة سرّ الحقّ في كلّ موجود، مثابرين على مراقبته وذِكراه، غيرَ ملتفِتين إلى شيء ممّا سواه إلّا مِن حيث إنّه مرآة لمشاهدة جماله، وآلة لملاحظة صفات كماله، فإنّ كلّ ما ظهر في مظاهر الإبداعِ وحضر محاضِرَ التكوينِ والاختراع سبيلٌ سوِيّ إلى عالَم التوحيد، ودليلٌ قويّ على الصانع المجيد، ناطقٌ بآيات قدرته.

فهل مِن سامع واعٍ،[3] ومخبِرٍ بأنباء علمِه وحكمتِه؟ فهل له مِن داعٍ يكلّم الناسَ على قدر عقولهم ويرُدّ جوابَهم بحسب مقولهم، يحاور تارة بأوضح عبارةٍ، ويلوّح أخرى بألطفِ إشارةٍ، مراعيًا في الحوار إيهامَهم وتصريحَهم، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء، ١٧/٤٤]؟ فتأمّل في هذه[4] الشئون والأسرار، إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار.

عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «هل لك يا عائشةُ أن تأذَني لي[5] الليلةَ في عبادة ربّي؟» فقلت: «يا رسول الله؛ إني لأُحِبُّ

[1] وفي هامش ي: خبر "إنّ" «منه».
[2] ي: المتراقبين.
[3] ي: داع.
[4] س: هذا.
[5] ي – لي.

قُربَك وأحِبُّ هواك، قد أذِنت لك». فقام إلى قِربة مِن ماء في البيت، فتوضّأ ولم يُكثر مِن صبّ الماء، ثمّ قام يصلّي، فقرأ مِن القرآن، وجعل يبكي حتّى بلغ الدموعُ حِقْوَيه، ثمّ جلس فحمِد الله تعالى[1] وأثنى عليه وجعل يبكي، ثمّ رفع يديه فجعل يبكي حتّى رأيت دموعَه قد بلّت الأرض، فأتاه بلال يؤذِنه بصلاة الغداةِ فرآه يبكي، فقال له: «يا رسول الله؛ أتبكي وقد غفَر الله لك ما تقدّم مِن ذنبك وما تأخّر؟» فقال: «يا بلال؛ أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟». ثمّ قال: «وما لي لا أبكي وقد أنزل الله تعالى عليّ في هذه الليلةِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾... إلخ؟ ثمّ قال: «ويل لمَن قرأها ولم يتفكّر فيها».[2] ورُوي: «ويلٌ لمَن لاكها بين فكّيه ولم يتأمّلْها».[3]

وعن عليّ رضي الله عنه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قام مِن الليل يتسوّك،[4] ثمّ ينظر إلى السماء، ثمّ يقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾... إلخ.[5]

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ الموصول إمّا موصول بـ"أُولي الألباب"[6] مجرور على أنّه نعت كاشف له بما في حيّز الصِلة، وإمّا مفصول عنه مرفوع أو منصوب

---

١ ي - تعالى.

٢ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٣٠/٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥٢/١؛ **صحيح ابن حبّان**، ٣٨٧/٢.

٣ **الكشّاف للزمخشري**، ٤٥٢/١؛ **اللباب لابن عادل**، ١١٠/٦. وذكر الزيلعي رواةَ الحديث ثمّ قال: «ولم يذكروا كلّهم الرواية الثانية: "ويل لمَن لاكَها بين فكّيه ولم يتأمّلها" لكن روى ابن مَردويه في تفسيره عن عائشة قالت: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم، ٢٢/٣٠] قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ويحٌ لمَن لاكَها بين لَحيَيه ثمّ لم يتفكّر فيها"». **تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي**، ٢٦١/١.

٤ ي: يُسوّك.

٥ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٢٣٠/٣؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥٣/١؛ وأخرج مسلم وغيره أنّ ابن عبّاس بات عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذات ليلة فقام نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم مِن آخر الليل، فخرج فنظر في السماء، ثمّ تلا هذه الآية في آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [آل عمران، ١٩٠/٣] حتى بلغ ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران، ١٩١/٣]، ثمّ رجع إلى البيت فتسوّك وتوضّأ، ثمّ قام فصلّى، ثمّ اضطجع، ثمّ قام فخرج فنظر إلى السماء فتلا هذه الآية، ثمّ رجع فتسوّك فتوضأ، ثمّ قام فصلّى. **صحيح مسلم**، ٢٢١/١ (٢٥٦).

٦ في الآية السابقة.

على المدح، أو مرفوع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف. وقيل: هو مرفوع على الابتداء، والخبرُ هو القول المقدَّر قبل قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾. وفيه مِن تفكيك النظم الجليل ما لا يخفى.

[١٢٢و] وأيًّا ما كان فقد أُشير بما في حيّز صِلته أنّ المراد بهم / الذين لا يغفُلون عنه تعالى في عامّة أوقاتِهم لاطمئنان قلوبِهم بذكره، واستغراقِ سرائرِهم في مراقبته، لمّا أيقنوا بأنّ كلّ ما سواه فائض منه وعائد إليه، فلا يشاهدون حالًا مِن الأحوال في أنفسهم -وإليه أُشير بقوله عزّ وجلّ:[١] ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾- ولا في الآفاق -وإليه أُشير بما بعده- إلّا وهُم يعاينون في ذلك شأنًا مِن شئونه تعالى. فالمراد به ذِكرُه تعالى مطلقًا سواءٌ كان ذلك مِن حيث الذاتُ أو مِن حيث الصفاتُ والأفعال، وسواءٌ قارنه الذِّكرُ اللسانيّ أو لا.

وأمّا ما يُحكى عن ابن عمرَ وعروة بن الزبير وجماعةٍ رضي الله عنهم مِن أنّهم خرجوا يوم العيد إلى المصلّى، فجعلوا يذكرون الله تعالى، فقال بعضهم: أمَا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾، فقاموا يذكرون الله تعالى[٢] على أقدامهم،[٣] فليس مرادهم به[٤] تفسيرَ الآية وتحقيقَ مِصداقها على التعيين، وإنّما أرادوا به التبرّكَ بنوع موافقةٍ لها في ضمن الإتيان بفرد مِن أفرادِ مدلولها.

وأمّا حَمل الذِّكر على الصلاة في هذه الأحوالِ حسب الاستطاعة كما قال عليه السلام لعِمرانَ بنِ الحُصين: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جَنب تومئ إيماءً»[٥] فممّا لا يساعده سِياقُ النظم الجليل ولا سياقُه.

و"القيام" و"القعود" جمعُ قائمٍ وقاعد، كـ"نيام" و"رُقود" جمعُ نائمٍ وراقد، وانتصابُهما على الحاليّة مِن ضمير ﴿يَذْكُرُونَ﴾، أي: يذكرونه قائمين وقاعدين. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ متعلِّق بمحذوف معطوفٍ على الحالَين، أي:

---

١ ي: تعالى.
٢ ط ي - تعالى.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٦٩/٣.
٤ س - به.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/١. وهو في صحيح البخاري، ٤٨/٢ (١١١٧)، دون قوله: "تومئ إيماءً".

وكائنين على جنوبهم، أي: مضطجعين. والمراد تعميمُ الذِّكرِ للأوقات كما مرّ، وتخصيصُ الأحوال المذكورةِ بالذِّكر ليس لتخصيص الذِّكر بها؛ بل لأنّها الأحوالُ المعهودةُ التي لا يخلو[١] عنها الإنسان غالبًا.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على ﴿يَذْكُرُونَ﴾، منتظِمٌ معه في حيّز الصِّلة، فلا محلَّ له مِن الإعراب. وقيل: محلّه النصب على أنّه معطوف على الأحوال السابقة، وليس بظاهر.

وهو بيان لتفكّرهم في أفعاله سبحانه إثرَ بيان تفكّرِهم في ذاته تعالى على الإطلاق، وإشارة إلى نتيجته[٢] التي يؤدّي[٣] إليها مِن معرفة أحوالِ المَعادِ حسبما نطقَت به ألسنة الرسل وآيات الكتب، فكما أنّها آياتٌ تشريعيّة هادية للخلق إلى معرفته تعالى ووجوبِ طاعتِه كذلك المخلوقات آياتٌ تكوينيّةٌ مرشدةٌ لهم إلى ذلك. فالأُولى منبِّهاتٌ لهم على الثانية، ودواعٍ إلى الاستشهاد بها، كهذه الآية الكريمة ونحوها ممّا ورد في مواقعَ غيرِ محصورةٍ مِن التنزيل. والثانية مؤيِّداتٌ للأولى وشواهدُ[٤] دالّةٌ على صحّة مضمونها وحقّيّةِ مَكنونها.

فإنّ مَن تأمّل في تضاعيف خلقِ العالَم على هذا النمط البديع قضى باتّصاف خالقِه تعالى بجميع ما نطقَت به الرسلُ والكتب مِن الوجوب الذاتيّ، والوَحدة الذاتيّة، والمُلك القاهر، والقُدرة التامّة، والعِلم الشامل، والحكمة البالغة، وغيرِ ذلك مِن صفات الكمال. وحَكَم بأنّ مَن قدَر على إنشائه بلا مثال يحتذيه أو قانونٍ ينتحيه فهو على إعادته بالبعث أقدَر، وحَكَم بأنّ ذلك ليس إلّا لحكمة باهرةٍ هي جزاءُ المكلَّفين بحسب استحقاقِهم المَنوطِ بأعمالهم، أي: علومِهم واعتقاداتِهم التابعة لأنظارهم فيما نُصب لهم مِن الحُجج والدلائلِ والأَماراتِ والمَخائلِ وسائرِ أعمالِهم المتفرّعةِ على ذلك، فإنّ العمل غيرُ مختصّ بعمل الجوارح؛ بل متناولٌ للعمل القلبيّ؛ بل هو أشرف أفراده؛ لِما أنّ لكلٍّ مِن القلب والقالَب عملًا خاصًّا به.

---

[١] ي: لا يخ [اختصار مِن "لا يخلو"].
[٢] ي: النتيجة.
[٣] س: تؤدّي.
[٤] ط ي: شواهد.

ومِن قضيّة كونِ الأوّل أشرفَ مِن الثاني كونُ عملِه أيضًا أشرفَ مِن عملِه، كيف لا، ولا عملَ بدون معرفته تعالى التي هي أوّل الواجباتِ على العباد والغايةُ القُصوى مِن الخلق على ما نطَق به قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات، ٥١/٥٦]، أي: ليعرفونِ، كما أَعرَب عنه قوله عليه السلام:[١] «كنتُ كنزًا مَخفيًا فأحببتُ أن أُعرَف فخلقتُ الخلقَ لأُعرَف»؟[٢]

وإنّما طريقها النظريّ التفكّر فيما ذُكر مِن شئونه تعالى. وقد رُوي عنه[٣] عليه السلام أنّه قال: «لا تُفضِّلوني على يونسَ بنِ متّى، فإنّه كان يُرفع له كلَّ يومٍ مثلُ عملِ أهلِ الأرض».[٤] قالوا: وإنّما كان ذلك التفكّرَ في أمر الله تعالى، ولذلك قال عليه السلام: «لا عبادةَ مِثل التفكّر»،[٥] وقد عرفت أنّه مستتبع لتحقيق ما جاءت به الشريعة الحَقّة، وإلّا لَمَا فسّر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ١١/٧]، بقوله عليه السلام: «أيُّكم أحسنُ عقلًا وأورَع عن مَحارم الله تعالى».[٦]

فإنّ التورّع عن مَحارمه سبحانه[٧] موقوفٌ على معرفة الحلالِ والحرامِ المَنوطةِ بالكتاب والسنّة. فحينئذ يتصادقُ الآياتُ التكوينيّة ويتوافق الأدلّةُ العقليّة والسمعيّة، وهو السرّ في نظم ما حُكي عن المتفكّرين مِن الأمور المستدعِية للإيمان بالشريعة في سلك نتيجةِ تفكُّرِهم كما ستقف عليه.

---

١ ي: صلّى الله عليه وسلّم.

٢ لا يُعرف له سند. انظر: **كشف الخفاء** للعجلوني، ١٣٢/٢ (٢٠١٦).

٣ ي: أنّه.

٤ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥٤/١. وقال الزيلعي: «غريب جدًّا». **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٢٦٤/١. وفي الصحيحين عن ابن عبّاس، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير مِن يونس بن متّى عليه السلام». **صحيح البخاري**، ١٥٣/٤ (٣٣٩٥)؛ **صحيح مسلم**، ١٨٤٦/٤ (٢٣٧٧).

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٥٤/١؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٥٤/٢. وأخرجه البيهقي في **شعب الإيمان**، ٣٥٨/٦ (٤٣٢٦) في حديث طويل.

٦ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٥٩/٥ (هود، ١١/٧)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٨٠/٢ (هود، ١١/٧). وأخرجه الحارث في مسنده. انظر: **بُغية الباحث** لابن أبي أسامة، ٨٠٤/٢ (٨٢٠).

٧ ي: تعالى.

وإظهار خلقِ السماواتِ والأرضِ -مع كفاية الإضمار- لإبراز كمال العنايةِ ببيان حالِهم، والإيذانِ بكون تفكّرِهم على وجه التحقيق والتفصيل. وعدمُ التعرّض لإدراج اختلافِ المَلَوَين[1] في سلك التفكّر -مع ذكره فيما سلَف-[2] إمّا للإيذان بظهور اندراجِه فيه لِما أنّ ذلك مِن الأحوال التابعةِ لأحوال السماواتِ والأرضِ كما أُشير إليه، وإمّا للإشعار بمسارعتهم إلى الحُكم بالنتيجة بمجرّد تفكّرِهم في بعض الآياتِ مِن غير حاجةٍ إلى بعض آخرَ منها في إثبات المطلوب.

و"الخَلقُ" مصدر على حاله، أي: يتفكّرون في إنشائهما وإبداعِهما بما فيهما مِن عجائب المصنوعات. وقيل: بمعنى المخلوق، على أنّ الإضافة بمعنى "في" -أي: يتفكّرون فيما خُلق فيهما- أعمُّ مِن أن يكون بطريق الجزئيّة منهما، أو بطريق الحلول فيهما، أو على أنّها بيانيّة.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ / كلمةُ ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [١٢٢ظ] متضمّنةٌ لضربٍ مِن التعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء، ١٧/٩]. والتذكير لِما أنّهما باعتبار تعلّقِ الخَلق بهما في معنى المخلوق. أو إلى "الخَلق" على تقدير كونه بمعنى المخلوق.

و﴿بَٰطِلًا﴾ إمّا صفة لمصدر مؤكِّدٍ محذوف، أو حال مِن المفعول به، أي: ما خلقتَ هذا المخلوقَ البديعَ العظيمَ الشأنِ عبثًا عاريًا عن الحكمة، خاليًا عن المصلحة، كما يُنبئ عنه أوضاعُ الغافلين عن ذلك، المعرِضين عن التفكّر فيه؛ بل منتظِمًا لحِكَم جليلةٍ ومصالحَ عظيمة، مِن جملتها أن يكون مدارًا لمعايش العباد، ومنارًا يُرشدهم إلى معرفة أحوالِ المبدأ والمَعادِ حسبما أفْصحت عنه الرسلُ والكتبُ الإلهيّة كما تَحقّقتَه مفصّلًا.

والجملة بتمامها في حيّز النصب بقولٍ مقدّرٍ، هو على تقدير كون الموصولِ نعتًا لـ"أولي الألباب" استئناف مبيّن لنتيجة التفكّر ومدلولِ الآيات، ناشئٌ ممّا سبق،

---

[1] المَلَوان: الليل والنهار. الصحاح للجوهري، «ملا».

[2] في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الآيةَ [البقرة، ٢/١٦٤].

فإنّ النفس عند سماع تخصيص الآياتِ المنصوبةِ في خلق العالَم بأولي الألباب ثمّ وصْفِهم بذكر الله تعالى والتفكّرِ في محالِّ تلك الآياتِ تبقى مترقِّبةً لِما يظهر منهم مِن آثارها وأحكامها، كأنّه قيل: فماذا يكون عند تفكّرِهم في ذلك؟ وماذا يترتّب عليه مِن النتيجة؟ فقيل: يقولون: كيتَ وكيتَ، ممّا يُنبئ عن وقوفهم على سرّ الخَلق المؤدِّي إلى معرفة صدق الرسلِ وحقّيّةِ الكتب الناطقةِ[1] بتفاصيل الأحكام الشرعيّة على التفصيل الذي وقفت عليه.

هذا وأمّا جعلُه حالًا مِن المستكِنّ في الفعل -كما أطبَق عليه الجمهور-[2] فممّا لا يساعده جزالةُ النظم الكريم لِما أنّ ما في حيّز الصِّلةِ وما هو قيدٌ له حقُّه أن يكون مِن مبادي الحُكمِ الذي أُجريَ على الموصول ودواعي ثبوتِه له، كذِكرهم لله[3] عزّ وجلّ[4] في عامّة أوقاتهم وتفكّرِهم في خلق السماوات والأرض، فإنّهما ممّا يؤدّي إلى اجتلاء تلك الآياتِ والاستدلالِ بها على المطلوب.

ولا ريب في أنّ قولهم ذلك ليس مِن مبادي الاستدلال المذكورِ؛ بل مِن نتائجها المترتّبة عليه، فاعتبارُه قيدًا لِما في حيّز الصِّلةِ ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل. نعم هو حال مِن ذلك على تقدير كون الموصول مرفوعًا أو منصوبًا على المدح، أو مرفوعًا على أنّه خبر لمبتدأ محذوف؛ إذ لا اشتباهَ في أنّ قولهم ذلك مِن مبادي مدحِهم ومحاسنِ مناقبهم. وفي إبراز هذا القولِ في معرض الحالِ دون الخبرِ إشعارٌ بمقارنته لتفكّرهم مِن غير تلعثم وتردّدٍ في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ -أي: تنزيهًا لك ممّا لا يليق بك مِن الأمور التي مِن جملتها خلقُ ما لا حِكمةَ فيه- اعتراض مؤكِّد لمضمون ما قبله، ومُمِدٌّ[5] لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، فإنّ معرفة سرِّ خلقِ العالَم وما فيه مِن الحكمة البالغة والغايةِ الحميدة، والقيامَ بما يقتضيه مِن الأعمال الصالحة، وتنزيهَ الصانع تعالى عن العبث، مِن دواعي الاستعاذة ممّا يَحيق بالمُخلِّين[6] بذلك مِن وجهين:

---

[1] ي: الكتاب الناطق.
[2] انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١/٤٥٤؛ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٢/٥٤.
[3] ي: الله.
[4] ي: تعالى.
[5] كذا في الأصول الخطّيّة، ولعلّ الصواب: "مُمهّد".
[6] ي: بالمختلّين.

أحدهما: الوقوف على تحقّق العذابِ، فالفاءُ لترتيب الدعاء على ما ذُكر، **والثاني**: الاستعداد لقَبول الدعاءِ، فالفاءُ لترتيب المدعوِّ -أعني: الوقايةَ- على ذلك، كأنّه قيل: وإذ قد عرَفنا سرَّك وأطعنا أمرَك ونزّهناك عمّا لا ينبغي فقِنا عذاب النار الذي هو جزاء الذين لا يعرفون ذلك.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ١٩٢﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن[1] تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ مبالغة في استدعاء الوقايةِ وبيان لسببه. وتصدير الجملةِ بالنداء للمبالغة في التضرّع والجُؤار. وتأكيدُها لإظهار كمال اليقينِ بمضمونها والإيذانِ بشدّة الخوف. وإظهار النار في موضع الإضمار لتهويل أمرِها. وذكرُ الإدخال في مورد العذاب لتعيين كيفيّته وتبيين غاية فظاعتِه.

قال الواحدي: «للإخزاء معانٍ متقاربة؛ يقال: أخزاه الله، أي: أبعده،[2] وقيل: أهانه، وقيل: أهلكه،[3] وقيل: فضَحه.[4] قال ابن الأنباري: الخزيُ لغةً: الهلاكُ بتلَفٍ، أو بانقطاع حجّةٍ، أو بوقوع في بلاء».[5]

والمعنى: فقد أخزيتَه خِزيًا لا غايةَ وراءَه، كقولهم: «مَن أدرك مَرْعى الصمّانِ فقد أدرك»،[6] أي: المرعى الذي لا مرعى بعدَه. وفيه مِن الإشعار بفَظاعة العذاب الروحانيّ ما لا يخفى.

وقوله تعالى: **﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾** تذييل لإظهار نهاية فظاعة حالِهم ببيان خلود عذابهم بفُقدان مَن ينصرهم ويقوم بتخليصهم، وغرضُهم تأكيدُ الاستدعاءِ. ووضعُ الظالمين موضعَ ضميرِ المُدخَلين لذمِّهم والإشعارِ بتعليل دخولِهم النارَ بظلمهم

---

١ وفي هامش ط ي: ﴿مَن﴾ شرطيّة، قدّمت(١) على عاملها(٢) المجزوم بها لِما أنَّ لها صدر الكلام، والجملة في محلِّ الرفع خبرًا لـ"إنَّ" «منه». | (١) هامش ط - قدّمت. (٢) هامش ط: فعلها.

٢ في التفسير البسيط: قاله الزجّاج.

٣ في التفسير البسيط: قاله المفضّل.

٤ في التفسير البسيط: قاله شَمِر.

٥ التفسير البسيط للواحدي، ٢٥٥/٦.

٦ الصمّان والصمّانة: أرض صلبة ذات حجارة إلى جنب رَمل. وقيل: الصمّان موضع إلى جنب رملٍ عالِج. وإذا أخصَبَت الصمّان رتَعَت العرب جميعها. انظر: لسان العرب لابن منظور، «صمن». وقال الميداني: «ومن كلام حُنَيف قوله: مَن قاظَ الشرف وتربَّع الحَزْن وتشتَّى الصمّان فقد أصاب المرعى، فالشرف: في بلاد بني عامر، والحَزْن: مِن زَبالة مصعدًا في بلاد نجد، والصمّان: في بلاد بني تميم». مجمع الأمثال للميداني، ٨٦/١.

ووضعِهم الأشياء في غير مواضعها. وجمعُ "الأنصارِ" بالنظر إلى جمع[١] "الظالمين"، أي: ما لِظالم مِن الظالمين نصيرٌ مِن الأنصار. والمراد به: مَن ينصُر بالمدافعة والقهر، فليس في الآية دلالةٌ على نفي الشفاعة،[٢] على أنّ المراد بالظالمين هم الكفارُ.

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ حكاية لدعاء آخرَ لهم مبنيٌّ على تأمّلهم في الدليل السمعيِّ بعد حكاية دعائِهم السابقِ المبنيّ على التفكّر في الأدلة العقليّة. وتصدير مقدّمةِ الدعاءِ بالنداء لإظهار كمال الضراعةِ والابتهال. والتأكيد للإيذان بصدور المقال عنهم بوفور الرغبة وكمالِ النشاط.

والمراد بالنداء الدعاءُ، وتعديتُهما بـ"إلى" لتضمُّنهما[٣] معنى الإنهاء، وباللام لاشتمالهما[٤] على معنى الاختصاص. والمراد بالمنادي الرسولُ صلّى الله عليه وسلّم، وتنوينُه للتفخيم، وإيثارُه على الداعي للدلالة على كمال اعتنائه بشأن الدعوة وتبليغِها إلى الداني والقاصي لِما فيه مِن الإيذان برفع الصوت.

و﴿يُنَادِي﴾ صفة لـ﴿مُنَادِيٗا﴾ عند الجمهور، كما في قولك: سمعتُ رجلًا يقول: كيتَ وكيتَ، ولو كان معرفةً لكان حالًا منه، كما إذا قلت: سمعت زيدًا
[١٢٣و] يقول... إلخ، ومفعولٌ ثانٍ / لـ﴿سَمِعۡنَا﴾ عند الفارسي وأتباعِه.[٥]

وهذا أسلوب بديع يُصار إليه للمبالغة في تحقيق السماع، والإيذان بوقوعه بلا واسطةٍ عند صدور المسموعِ عن المتكلّم، وللتوسّل به إلى تفصيله واستحضارِ صورتِه. وقد اختصّ النظم الكريم بمزيّة زائدةٍ على ذلك حيث عبّر عن المسموع منه بالمنادى، ثمّ وَصَف بالنداء للإيمان على طريقة قولك: سمعت متكلّمًا يتكلّم بالحِكمة؛ لِما أنّ التفسير بعد الإبهام والتقييدَ بعد الإطلاق أوقعُ عند النفس وأجدرُ بالقَبول.

---

١ ي: جميع.
٢ كما استدلّ على ذلك الزمخشري بناء على مذهبه. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١/٤٥٥.
٣ ي: لتضمّنها.
٤ ي: لاشتمالها.
٥ انظر: **الدرّ المصون** للسّمين الحلبي، ٣/٥٣٤.

وقيل: "المنادي": **القرآن العظيم.**

﴿أَنْ ءَامِنُواْ﴾ أي: آمِنوا، على أنّ ﴿أَنْ﴾ تفسيريّة، أو بأنْ آمِنوا، على أنّها مصدريّة. ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ بمالِككم ومتولّي أمورِكم ومبلِّغِكم إلى الكمال. وفي إطلاق الإيمان ثمّ تقييدِه تفخيمٌ لشأنه. ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ أي: فامتثلنا بأمره وأجبنا نداءَه.

﴿رَبَّنَا﴾ تكرير للتضرُّع، وإظهار لكمال الخضوع، وعرضٌ للاعتراف بربوبيّته مع الإيمان به. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ لترتيب المغفرة أو الدعاءِ بها على الإيمان به تعالى والإقرارِ بربوبيّته، فإنّ ذلك مِن دواعي المغفرة والدعاءِ بها. ﴿ذُنُوبَنَا﴾ أي: كبائرَنا، فإنّ الإيمان يجُبُّ ما قبله.

﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي: صغائرَنا فإنّها مكفَّرة عن مُجتنِب الكبائر. ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: مخصوصين بصُحبتهم، مغتنمين بجوارهم، معدودين مِن زُمرتهم. وفيه إشعار بأنّهم كانوا يحبّون لقاءَ الله، «ومَن أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءَه».[1] و﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾ جمع بارّ أو بَرّ، كأصحاب وأرباب.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ حكاية لدعاءٍ آخرَ لهم مسبوقٍ[2] بما قبله، معطوفٍ عليه لتأخّر التحلية عن التخلية. وتكرير النداء لِما مرّ مكرّرًا. والمراد بالموعود الثوابُ. و﴿عَلَىٰ﴾ إمّا متعلِّقة بالوعد، كما في قولك: وعَد الله الجنّةَ على الطاعة، أي: وعدتَنا على تصديق رسلِك، أو بمحذوف وقع صفةً لمصدر مؤكِّدٍ محذوف، أي: وعدتنا وعدًا كائنًا على ألسنة رسلِك. وقيل: التقديرُ: منزَّلًا على رسلك، أو محمولًا على رسلك،[3] ولا يخفى أنّ تقدير الأفعالِ الخاصّةِ في مثل هذه المواقع تعسُّف.

وجمع الرسلِ مع أنّ المنادي هو الرسول صلّى الله عليه وسلّم وحدَه؛ لِما أنّ دعوته عليه السلام -لا سيّما في باب التوحيد، وما أجمع عليه الكلُّ مِن الشرائع-

---

[1] صحيح البخاري، ١٠٦/٨ (٦٥٠٧)؛ صحيح مسلم، ٢٠٦٥/٤ (٢٦٨٣).

[2] ي: مسوق.

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٤٥٥/١.

منطويةٌ[١] على دعوة الكلّ، فتصديقُه تصديقٌ لهم عليهم السلام، كيف لا وقد أخذ منهم الميثاقَ بالإيمان به عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ﴾ الآية [آل عمران، ٨١/٣]؟ وكذا الموعود على لسانه مِن الثواب موعودٌ على ألسنة الكلِّ. وإيثار الجمع لإظهار كمال الثقةِ بإنجاز الموعود بناءً على كثرة الشهود.

﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قصَدوا بذلك تذكيرَ وعدِه تعالى بقوله تعالى:[٢] ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [التحريم، ٨/٦٦] مُظْهِرين أنّهم ممّن آمَن معه؛ رجاءً للانتظام في سلكهم يومئذ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ تعليل لتحقيق ما نَظَموا في سلك الدعاء.

وهذه الدعواتُ وما في تضاعيفها مِن كمال الضراعة والابتهالِ ليست لخوفهم مِن إخلاف الميعاد؛ بل لِخوفهم مِن أن لا يكونوا مِن جملة الموعودين بتغيّر الحال وسوءِ الخاتمةِ والمآلِ. فمرجِعُها إلى الدعاء بالتثبيت، أو للمبالغة في التعبُّد والخشوع.

و﴿ٱلْمِيعَادَ﴾ الوَعد، وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه البعثُ بعد الموت.[٣] وفي الآثار عن جعفر الصادق:[٤] «مَن حزَبه أمرٌ فقال: "ربّنا ربّنا..." خمسَ مرّاتٍ[٥] أنجاه الله تعالى[٦] ممّا يخاف وأعطاه ما أراد»، وقرأ هذه الآية.[٧]

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

---

١ ي: المنطوية.
٢ ط س – تعالى.
٣ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٥/٢.
٤ ط س ي – جعفر الصادق ["صح" في هامش ي]. | وهو في متن أ.
٥ ي: مرّاة.
٦ ط س – تعالى.
٧ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٤/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٧/١.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ الاستجابة بمعنى الإجابة، وقال تاجُ القرّاء:[١] «الإجابة عامّةٌ، والاستجابة خاصّةٌ بإعطاء المسئول»،[٢] ويتعدّى باللام وبنفسها، كما في قوله:

فلم يَستجبْهُ عند ذاك مُجيبُ[٣]

وهو عطفٌ على الاستئناف المقدَّرِ فيما سلَف، مترتِّبٌ على ما في حيّزه مِن الأدعية، كما أنّ قوله عزّ وجلّ:[٤] ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾... إلخ [يونس، ٥٢/١٠] عطفٌ على "قيل" المقدَّرِ قبل ﴿ءَآلۡـَٔنَ﴾ [يونس، ٥١/١٠]، أي: قيل لهم: آلآنَ آمنتم به؟ ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ الآية. وكما أنّ قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [الأعراف، ١٠٠/٧] معطوف على ما دلّ عليه معنى ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ [السجدة، ٢٦/٣٢]، كأنّه قيل: يغفُلون عن الهداية ونطبَع... إلخ. ولا ضيرَ في اختلافهما صيغةً؛ لِما أنّ صيغةَ المستقبلِ هناك للدلالة على الاستمرار المناسبِ لمقام الدعاءِ، وصيغةَ الماضي ههنا للإيذان بتحقّق الاستجابةِ وتقرّرِها، كما لا ضير في الاختلاف بين قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ [الأنفال، ٩/٨] وبين ما عُطف عليه مِن قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال، ٩/٨] كما سيأتي.

ويجوز أن يكون معطوفًا على مضمَرٍ ينساق إليه الذهن، أي: دَعَوا بهذه الأدعية فاستجاب... إلخ. وأمّا على تقدير كون المقدّرِ حالًا فهو عطفٌ على ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥] باعتبار مقارنته لِما وقع حالًا مِن فاعله، أعني قولَه: ﴿رَبَّنَا﴾... ﴿رَبَّنَا﴾... إلخ، فإنّ الاستجابة مترتّبة على دَعَواتهم لا على مجرّد تفكّرِهم، وحيث كانت هي مِن أوصافهم الجميلة المترتّبة على أعمالهم بالآخرة استحقّت الانتظامَ في سلك محاسِنهم المعدودة في أثناء مدحهم.

---

١ هو بُرهان الدين محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، أبو القاسم (ت. نحو ٥٠٥هـ/١١١٠م)، المعروف بتاج القرّاء، إمام كبير، محقِّق، ثقة، كبير المحل، قرأ عليه أبو عبد الله نصر بن علي بن أبي مريم. له خط المصاحف، والهداية في شرح غاية ابن مهران، ولباب التفاسير، والبرهان في معاني متشابه القرآن. انظر: غاية النهاية لابن الجزري، ٢٩١/٢؛ والأعلام للزركلي، ١٦٨/٧.

٢ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٧٦/٣.

٣ لكعبِ بن سعد الغنوي يَرثي أخاه أبا المِغوار. لسان العرب لابن منظور، «جوب».

٤ وفي هامش ط س ي: في سورة يونس عليه السلام «منه».

٥ آل عمران، ١٩١/٣.

وأمّا على تقدير كون الموصول نعتًا لـ"أولي الألبابِ" فلا مَساغَ لهذا العطف أصلًا؛ لِما عرفتَ مِن أنّ حقَّ ما في حيّز الصِّلة أن يكون مِن مبادي جَرَيانِ الحُكمِ على الموصول، وقد عرفت أنّ دَعَواتِهم السابقةَ ليست كذلك، فأين الاستجابة المتأخّرة عنها؟ وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة المنبِئةِ عن التبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم مِن تشريفهم وإظهارِ اللطفِ بهم ما لا يخفى.

﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ أي: بأنّي، وهكذا قرأ أُبيٌّ رضي الله عنه.[١] والباء للسببيّة، كأنّه قيل: فاستجاب لهم ربُّهم بسبب أنّه لا يُضيع عمل عامل منهم، أي: سُنّتُه السنيّة مستمِرّةٌ على ذلك. والالتفات إلى التكلّم والخطابِ لإظهار كمال الاعتناءِ بشأن الاستجابة وتشريفِ الداعين بشرف الخطاب. [١٢٣ظ] والمراد تأكيدُها ببيان سببها، / والإشعارُ بأنّ مَدارها أعمالهم التي قدّموها على الدعاء، لا مجرّدُ الدعاء.

وتعميم الوعد لسائر العاملين -وإن لم يبلُغوا درجةَ أولي الألباب- لتأكيد استجابة الدعواتِ المذكورةِ. والتعبير عن ترْك الإثابة بالإضاعة -مع أنّه ليس بإضاعةٍ حقيقةً، إذ الأعمالُ غيرُ موجِبةٍ للثواب حتّى يلزَمَ مِن تخلّفه عنها ضَياعُها- لبيان كمال نزاهتِه تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدورُه عنه مِن القبائح، وإبرازِ الإثابة في معرض الأمورِ الواجبة عليه.

وقُرئ بكسر الهمزة[٢] على إرادة القول، أي: قائلًا: إني... إلخ، فلا التفاتَ حينئذ. وقُرئ: "لَا أُضَيِّعُ" بالتشديد.[٣]

و"مِن" متعلّقة بمحذوف وقع صفةً لـ﴿عَٰمِلٖ﴾، أي: عاملٍ كائنٍ منكم. وقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ بيان لـ﴿عَٰمِلٖ﴾ وتأكيد لعمومه. وقوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ جملة معترِضة مبيّنة[٤] لسبب انتظام النساءِ في سِلك الرجال في الوعد،

---

١ ي: رحمه الله. | قراءة شاذّة. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣/٤٧٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٧.

٣ قراءة شاذّة، ذكَرها المفسّرون ولم أجد مَن قرأ بها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٤٥٦.

٤ ي - مبيّنة.

فإنّ كون كلّ منهما مِن الآخَر لتشعُّبهما مِن أصل واحد، أو لفَرط الاتّصال بينهما، أو لاتّفاقهما في الدِّين والعمل ممّا يستدعي الشركةَ والاتّحادَ في ذلك.

رُوي أنّ أمّ سلمةَ رضي الله عنها قالت لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّي أسمعُ الله تعالى يذكرُ الرجالَ في الهِجرة ولا يذكرُ النساءَ»، فنزلت.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ ضربُ تفصيلٍ لِما أُجمل في العمل، وتعدادٌ لبعض أحاسنِ أفرادِه على وجه المدح والتعظيم، أي: فالذين هاجَروا الشرك أو[1] الأوطان[2] والعشائرَ للدين. وقوله تعالى: ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ على الأوّل عبارة عن نفس الهجرة، وعلى الثاني عن[3] كيفيّتها وكونِها بالقَسر والاضطرار. ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ أي: بسبب إيمانهم بالله ومِن أجله، وهو متناول لكلّ أذيّةٍ نالتهم مِن قِبَل المشركين.

﴿وَقَٰتَلُواْ﴾ أي: الكفّارَ في سبيل الله تعالى. ﴿وَقُتِلُواْ﴾ استُشهدوا في القتال. وقُرئ بالعكس[4] لِما أنّ الواو لا تستدعي الترتيب، أو لأنّ المراد قتلُ بعضِهم وقتالُ آخَرين، إذ ليس المعنى على اتّصاف كلِّ فردٍ مِن أفراد الموصول المذكور بكلّ واحدٍ ممّا ذكر في حيّز الصلةِ؛ بل على اتّصاف الكلّ بالكلّ في الجملة، سواء كان ذلك باتّصاف كلّ فرد مِن أفراد[5] الموصول بواحد مِن الأوصاف المذكورة أو باثنين منها أو بأكثرَ، إمّا بطريق التوزيع، أو بطريق حذف بعضِ الموصولاتِ مِن البَين، كما هو رأيُ الكوفيّين. كيف لا، ولو أُدير الحُكمُ على اتّصاف كلِّ فردٍ بالكلّ لكان قد أُضيع عملُ مَن اتّصف بالبعض؟ وقُرئ: "قُتِّلوا" بالتشديد.[6]

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ جواب قسَمٍ محذوف، أي: واللهِ لأكفِّرنّ. والجملة القَسميّة خبر للمبتدأ الذي هو الموصول. وهذا تصريح بوعد ما سأله الداعون بخصوصه بعد ما وَعَد ذلك عمومًا.

---

١ ط – أو.
٢ ط: والأوطان.
٣ س + عن.
٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.
٥ ط س ي – أفراد [" صح " في هامش س].
٦ قرأ بها ابن كثير وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٣.

وقوله تعالى: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إشارة إلى ما عبَّر عنه الداعون فيما قبلُ بقولهم: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ وتفسيرٌ له. ﴿ثَوَابًا﴾ مصدر مؤكِّد لِما قبله، فإنّ تكفير السيئات وإدخالَ الجنَّةِ في معنى الإثابة. وقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوف هو صفة له مبيِّنة لشَرَفه، أي: لَأُثيبنَّهم إثابةً كائنةً -أو تثويبًا كائنًا- مِن عنده تعالى، بالغًا إلى المرتبة القاصية مِن الشرَف.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ اعتراض تذييليّ مقرِّر لمضمون ما قبله. والاسم الجليل مبتدأ، خبرُه ﴿عِندَهُۥ﴾. و﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ مرتفِع بالظرف على الفاعليّة لاعتماده على المبتدأ. أو هو مبتدأ ثانٍ، والظرف خبره، والجملة خبر للمبتدأ الأوّل. والعِنديّة عبارة عن الاختصاص به تعالى، مثلُ كونِه بقدرته تعالى وفضله بحيث لا يقدِرُ عليه غيره بحال شيءٍ يكون بحضرة أحدٍ لا يدَ عليه لغيره. فالاختصاص مستفاد مِن التمثيل، سواءٌ جُعل ﴿عِندَهُۥ﴾ خبرًا مقدَّمًا لـ﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أو لا.

وفي تصدير الوعد الكريم بعدم إضاعة العملِ ثمّ تعقيبِه بمِثل هذا الإحسان الذي لا يُقادَر قدرُه مِن لُطف المسلَكِ المُنبئ عن عِظَم شأن المُحسِن ما لا يخفى.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦﴾

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ بيان لقُبح ما أوتي الكفرةُ مِن حظوظ الدنيا، وكشفٌ عن حقارة شأنِها وسوء مَغَبَّتِها إثرَ بيان حُسن ما أوتي المؤمنون مِن الثواب. والخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أنّ المراد تثبيته على ما هو عليه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم، ٨/٦٨]، أو على أنّ المراد نهي المؤمنين، كما يُوجَّهُ الخطاب إلى مَدارِهِ[1] القومِ ورؤسائِهم، والمرادُ أفناؤهم.[2] أو لكلّ أحد ممّن يصلُح للخطاب مِن المؤمنين.

---

[1] مِدْرَهُ القوم: زعيمهم وخطيبهم والمتكلِّم عنهم والدافع عنهم، والجمع مَدارِه. تاج العروس للزبيدي، «دره».

[2] يقال: هو مِن أفناءِ الناس، إذا لم يعلم ممّن هو. الصحاح للجوهري، «فني». والمراد هنا عامّتُهم.

والنهيُ للمخاطب، وإنّما جُعل للتقلّب مبالغةً، أي: لا تنظُر إلى ما عليه الكفرةُ مِن السَّعة ووفور الحظِّ، ولا تغترَّ بظاهر ما ترى منهم مِن التبسّط في المَكاسب والمَتاجر والمَزارع. رُوي أنّ بعض المؤمنين كانوا يرَوْن المشركين في رَخاء ولِين عيشٍ، فيقولون: إنّ أعداءَ الله تعالى فيما يرى مِن الخير وقد هلَكْنا مِن الجوع والجهد، فنزلت.[١] وقُرئ: "لَا يَغُرَّنْكَ" بالنون الخفيفة.[٢]

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو متاع قليل لا قدرَ له في جنب ما ذُكر مِن ثواب الله تعالى. قال عليه السلام: «ما الدنيا في الآخرة إلّا مثلُ ما يجعل أحدُكم أصبعَه في اليمّ، فلينظُر بمَ يرجِع».[٣] فإذن لا يُجدي وجودُه لواجديه، ولا يضُرُّ فقدانُه لفاقديه.

﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: مصيرُهم الذي يأوون إليه لا يبرَحونه ﴿جَهَنَّمُ﴾ التي لا يوصف عذابُها. وقوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ ذمٌّ لها وإيذان بأنّ مصيرهم إليها مما جنَته أنفسُهم وكسبتْه أيديهم. والمخصوص بالذمّ محذوف، أي: بئس ما مَهّدوا لأنفسهم جهنّمُ.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بيان لكمال حسنِ حالِ المؤمنين غِبَّ بيانٍ،[٤] وتكريرٌ له إثرَ تقرير، مع زيادة خلودِهم في الجنّات ليتمّ بذلك سرورُهم ويزدادَ تبجُّحُهم، ويتكاملَ به سوءُ حال الكفرة.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٢٣٦؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٥٧؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٥٦.

٢ قرأ بها رُويس عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٦.

٣ صحيح مسلم، ٤/٢١٩٣ (٢٨٥٨)؛ سنن الترمذي، ٤/٥٦١ (٢٣٢٣).

٤ أي: بَعدَ بيان، مِن "جئتُه غِبَّ الأمر"، أي: بَعْدَه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «غبب».

[١٢٤و] وإيراد التقوى في حيّز الصِّلة للإشعار بكون الخِصال المذكورة مِن / باب التقوى، والمراد به: الاتّقاء مِن الشرك والمعاصي. فالموصول مبتدأ، والظرفُ خبرُه، و﴿جَنَّـٰتٌ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة؛ لاعتماده على المبتدأ. أو الظرف خبر لـ﴿جَنَّـٰتٌ﴾، والجملة خبر للموصول. و﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في الجنّات حال مقدَّرة مِن الضمير، أو مِن ﴿جَنَّـٰتٌ﴾ لتخصّصها بالوصف، والعاملُ ما في الظرف مِن معنى الاستقرار.

﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وقُرئ بسكون الزاء.[١] وهو ما يُعدّ للنازل مِن طعام وشراب وغيرِهما، قال أبو الشِّعر[٢] الضبّي:[٣]

وكنّا إذا الجبّارُ بالجيش ضافَنا جعلنا القَنا والمرهَفاتِ له نُـزْلا[٤]

وانتصابه على الحاليّة مِن ﴿جَنَّـٰتٌ﴾ لتخصّصها بالوصف، والعاملُ فيه ما في الظرف مِن الاستقرار. وقيل: هو مصدر مؤكِّد، كأنّه قيل: رِزقًا أو عطاءً مِن عند الله تعالى.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر. وقوله تعالى: ﴿لِّلْأَبْرَارِ﴾ متعلِّق بمحذوف هو صفة لـ﴿خَيْرٌ﴾، أي: ما عنده تعالى مِن الأمور المذكورة الدائمة خيرٌ كائنٌ للأبرار، أي: ممّا يتقلّب[٥] فيه الفجّارُ مِن المتاع القليل الزائل. والتعبير عنهم بـ"الأبرار" للإشعار بأنّ الصفاتِ المعدودَة مِن أعمال البرّ كما أنّها مِن قبيل التقوى، والجملة تذييل لِما قبلها.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن وإبراهيم والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٧.

[٢] في مطبوع للكشّاف: "أبو الشعراء"، وقال الشهاب: «"أبو الشِّعر": لقَب شاعر لكثرة شِعره. "الضبّي"، أي: المنسوب لبني ضبّة، قبيلة معروفة». حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٩٣/٣. وفي تاج العروس: «أبو الشِّعر: موسى بن سُحَيم الضبّي». تاج العروس للزبيدي، «شعر».

[٣] هو موسى بن سُحيم الضبّي، أبو الشِّعر، ضبطه الحافظ ابن حجر بفتح المعجمة، وقال: ذكره المستغفري. كان يهاجي الطرماح. انظر: معجم الشعراء للمرزباني، ص ٣٧٧؛ تبصير المنتبه لابن حجر، ٦٨٢/٢.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٤٥٨/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٦/٢. "الجبّار": الملِك المتسلِّط. "ضافَنا": أي: نزَل بنا ضيفًا. والباء في "بالجَيش" للتعدية أو للمصاحبة. يقول: إذا جعل الجيش ضيفًا لنا، أو إذا صار مع الجيش ضيفًا لنا. والمرهَفات: السيوف الباترات، جعل المرهَفات نُزلًا على التهكُّم. فتوح الغيب للطيبي، ٣٩٥/٤.

[٥] ي: يتلقَّب.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ جملة مستأنَفة سيقت لبيان أنّ أهل الكتاب ليس كلُّهم كمَن حُكِيت هَناتُهم[١] مِن نَبذ الميثاق وتحريفِ الكتاب وغير ذلك؛ بل منهم مَن له مناقب جليلة. قيل: هم عبد الله بن سلام وأصحابُه.[٢] وقيل: هم أربعون مِن أهل نجران، واثنان وثلاثون مِن الحبَشة، وثمانية مِن الروم، كانوا نصارى فأسلموا.[٣]

وقيل: المراد به أَصْحَمة[٤] النجاشي، فإنّه لمّا مات نَعاه جبريل عليه السلام[٥] إلى النبيّ عليه[٦] السلام،[٧] فقال عليه السلام: «اخرُجوا فصلُّوا على أخٍ لكم ماتَ بغير أرضكم»، فخرج إلى البقيع، فنظر إلى أرض الحبشة فأبصر سريرَ النجاشيِّ، وصلّى عليه واستغفر له، فقال المنافقون: «انظُروا إلى هذا يصلّي على عِلْج نصرانيّ لم يرَه قطُّ وليس على دينه»، فنزلت.[٨]

وإنّما دخلت لامُ الابتداء على اسم "إنّ" لفَصل الظرف بينهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء، ٧٢/٤].

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مِن القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ مِن الكتابَين. وتأخير إيمانهم بهما عن إيمانهم بالقرآن في الذِّكر مع أنّ الأمر بالعكس في الوجود لِما أنّه عِيارٌ ومُهيمِن عليهما، فإنّ إيمانهم بهما إنّما يُعتبر بتبعيّة إيمانهم به؛ إذ لا عبرةَ بأحكامهما[٩] المنسوخة، وما لم يُنسَخ منها إنّما يُعتبر مِن حيث ثبوتُه بالقرآن، ولتعلّق ما بعده بهما. والمراد بإيمانهم بهما إيمانُهم بهما مِن غير تحريفٍ ولا كَتْم،

---

١ في فلانٍ هَنَاتٌ، أي: خَصلاتُ شرّ، ولا يقال ذلك في الخير. الصحاح للجوهري، «هنو».
٢ جامع البيان للطبري، ٣٢٩/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٣.
٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٩/١.
٤ ي: أصْحَمت.
٥ س + عليه السلام.
٦ ط: عليهما.
٧ ي: صلّى الله عليه وسلّم.
٨ جامع البيان للطبري، ٣٢٧/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٣٨/٣؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٥١/٥ (٤٦٤٥).
٩ ي: بأحكامها.

كما هو دَيدَنُ المحرِّفين وأتباعِهم مِن العامّة.

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُؤْمِنُ﴾، والجمع باعتبار المعنى. ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تصريح بمخالفتهم للمحرِّفين. والجملة حال كما قبله، ونظمُها في سِلك محاسِنهم ليس مِن حيث عدمُ الاشتراء فقط؛ بل لتضمُّن ذلك لإظهار ما في الكتابَين مِن شواهد نبوّته صلّى الله عليه وسلّم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم مِن حيث اتّصافُهم بما عُدّ مِن صفاتهم الحميدة. وما فيه مِن معنى البعد للدلالة على علوّ رتبتهم وبُعد منزلتهم في الشرف والفضيلة. وهو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾. وقوله: ﴿أَجْرُهُمْ﴾ أي: المختصّ بهم الموعودُ لهم بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص، ٢٨/٥٤]، وقولِه تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد، ٥٧/٢٨]، مرتفِع بالظرف على الفاعليّة أو على الابتداء، والظرفُ خبره، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ نصب على الحاليّة مِن ﴿أَجْرُهُمْ﴾، والمراد به التشريف كالصِّفة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لنفوذ علمِه بجميع الأشياء، فهو عالم بما يستحقّه كلُّ عاملٍ مِن الأجر مِن غير حاجة إلى تأمّل.[1] والمراد بيان سرعة وصولِ الأجر الموعود إليهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إثرَ ما بيّن في تضاعيف السورةِ الكريمة فنونَ الحِكَم والأحكام، خُتمت بما يوجب المحافظةَ عليها فقيل: ﴿ٱصْبِرُوا۟﴾ أي: على مشاقِّ الطاعات وغيرِ ذلك مِن المكاره والشدائد. ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ أي: غالِبوا أعداءَ الله تعالى بالصبر في مواطن الحروب، وأعدى عدوِّكم بالصبر على مخالفة الهوى. وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلَق الصبر لكونها أشدَّ منه وأشقَّ.

﴿وَرَابِطُوا۟﴾ أي: أقيموا في الثغور رابطين خيلَكم فيها مترصِّدين للغزو مستعدّين له، قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال، ٨/٦٠].

---

[1] ي: التأمّل.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن رابَط يومًا وليلةً في سبيل الله كان كعَدْل صيامِ شهرٍ رمضانَ وقيامه لا يُفطِر ولا يَنفتل[١] عن صلاته إلّا لحاجة».[٢]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أمرِه على الإطلاق، فيندرجُ فيه ما ذكر في تضاعيف السورةِ الكريمة اندراجًا أوّليًا. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ كي تنتظِموا في زُمرة المفلحين الفائزين بكلّ مطلوبٍ، الناجين عن كلّ الكروب.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ آلِ عِمرانَ أُعطي بكلّ آيةٍ منها أمانًا على جسر جهنّم».[٣]

وعنه صلّى الله تعالى[٤] عليه وسلّم:[٥] «مَن قرأ السورةَ التي يُذكر فيها آلُ عمرانَ يوم الجمعة صلّى الله عليه والملائكة[٦] حتّى تجب الشَّمس».[٧]

الحمد لله ربّ العالمين.[٨]

---

١ ي: ينفلت.

٢ **الكشّاف للزمخشري**، ٤٦٠/١. ونحوه في **سنن النسائي**، ٣٩/٦ (٣١٦٧)؛ و**المستدرك للحاكم**، ٩٠/٢ (٢٤٢٢).

٣ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٥/٣؛ **الكشّاف للزمخشري**، ٤٦٠/١؛ **التفسير الوسيط للواحدي**، ٤١١/١. وهو جزء مِن حديث أُبيّ الطويل في فضائل السور، وأخرجه ابن الجوزي في **الموضوعات**، ٢٣٩/١، وقال: «وهذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شكّ».

٤ س ي - تعالى.

٥ ي: عليه السلام.

٦ ي: وملائكته.

٧ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٥/٣؛ **الكشّاف للزمخشري**، ٤٦٠/١. وأخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، ٤٨/١١ (١١٠٠٢)؛ و**المعجم الأوسط**، ١٩١/٦ (٦١٥٧). قال الهيثمي: «وهو ضعيف». **مجمع الزوائد للهيثمي**، ١٦٨/٢. قال أبو عبيدة وإبراهيم الحربي: «وجبَت الشمس إذا سقطت لتغيب». **تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي**، ٢٦٩/١.

٨ ي - الحمد لله ربّ العالمين. | وفي هامش أ: في أواخر المحرّم الحرام، سنة ٩٦٢.

[١ظ]

/ سورة النساء

مدنيّة، وهي مائة وخمس وسبعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب يعُمّ حُكمه المكلَّفين عند النزول ومَن سينتظم في سِلكهم مِن الموجودين حينئذ والحادثين بعد ذلك إلى يوم القيامة عند انتظامهم فيه؛ لكنْ لا بطريق الحقيقة، فإنّ خطاب المشافَهة لا يتناول القاصرين عن درجة التكليف إلّا عند الحنابلة؛ بل إمّا بطريق تغليب الفريق الأوّل على الأخيرَين، وإمّا بطريق تعميم حُكمه لهما بدليل خارجيّ، فإنّ الإجماع منعقِد على أنّ آخِر الأمّة مكلَّف بما كُلّف به أوّلُها[١] كما يُنبئ عنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «الحلال ما جرى على لساني إلى يوم القيامة، والحرام ما جرى على لساني إلى يوم القيامة»،[٢] وقد فُصّل في مَوضِعه.[٣] وأمّا الأُمَم الدارجة قبل النزول، فلا حظَّ لهم في الخطاب لاختصاص الأوامر والنواهي بمن يُتصوّر منه الامتثال. وأمّا إدراجهم في خطاب ما عداهما ممّا له دَخْل في تأكيد التكليف وتقويةِ الإيجاب، فستَعرف حاله.

١ وفي هامش م: على تضمين التكليف معنى الأمر. «منه».

٢ لم نقف عليه إلّا في تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، ص ٢٧١؛ وفصول البدائع للفَناري، ٤٤١/٢-٤٤٢. وفي سنن الدارمي، ٤٠٢/١ (٤٤٧)، عن عُبيد الله بن عمر، أنّ عمر بنَ عبد العزيز رحمه الله خطَبَ فقال: «يا أيها الناس، إنّ الله لم يبعث بعد نبيّكم نبيًّا، ولم ينزل بعد هذا الكتاب الذي أنزل عليه كتابًا، فما أحلّ الله على لسان نبيّه، فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرّم على لسان نبيّه، فهو حرام إلى يوم القيامة»... إلى آخر الأثر.

٣ انظر: تفسير البقرة، ٢٢/٢.

ولفظ ﴿النَّاسُ﴾ ينتظم الذُّكورَ والإناثَ حقيقةً. وأمّا صيغة جمع المذكَّر في قوله عزّ وجلّ: ﴿اتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ فواردةٌ على طريقة التغليب لعدم تناولها حقيقةً للإناث عند غير الحنابلة. وأمّا إدخالهنّ في الأمر بالتقوى بما ذُكر مِن الدليل الخارجيّ، وإن كان فيه مراعاة جانب الصيغة، لكنّه يستدعي تخصيصَ / لفظ [٢و] ﴿النَّاسُ﴾ ببعض أفراده. والمأمور به إمّا مُطلَق التقوى التي هي التجنّب عن كلّ ما يُؤثِم مِن فعل وترك، وإمّا التقوى فيما يتعلّق بحقوق أبناء الجنس، أي: اتّقوه تعالى في مخالفة أوامره ونواهِيه على الإطلاق أو في مخالفة تكاليفه الواردة ههنا.

وأيًّا ما كان، فالتعرّض لعُنوان الربوبيّة المُنبِئة عن المالكيّة والتربية مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين لتأييد الأمر وتأكيدِ إيجاب الامتثال به على طريقة الترغيب والترهيب. وكذا وصفُ "الربّ" بقوله تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ -فإنّ خَلْقه تعالى إيّاهم على هذا النَّمَط البديع لإنبائه عن قدرة شاملة لجميع المقدورات التي مِن جملتها عقابهم على معاصيهم، وعن نعمة كاملة لا يقادَر قدرها- مِن أقوى الدواعي إلى الاتّقاء مِن موجِبات نِقْمته وأتمّ الزواجر عن كُفران نعمته. وكذا جعلُه تعالى إيّاهم صِنْوانًا مفرّعةً مِن أَرُومة[١] واحدة -هي نفْس آدمَ عليه السلام- مِن موجِبات الاحتراز عن الإخلال بمراعاةِ ما بينهم مِن حقوق الأُخُوّة.

وتعميم الخطاب في ﴿رَبَّكُمُ﴾ و﴿خَلَقَكُم﴾ للأُمَم السالفة أيضًا -مع اختصاصه فيما قبلُ بالمأمورِين- بناءً / على أنّ تذكير شمول ربوبيّته تعالى [٢ظ] وخَلْقِه للكلّ مِن مؤكِّدات الأمر بالتقوى وموجِبات الامتثال به تفكيكٌ[٢] للنظم الكريم مع الاستغناء عنه؛ لأنّ خَلْقه تعالى للمأمورين مِن نَفْس آدمَ عليه السلام حيث كان بوساطةِ ما بينهم وبينه عليه السلام مِن الآباء والأُمّهات، كان التعرّضُ لخلقهم متضمِّنًا للتعرّض لخلق الوسائط جميعًا. وكذا التعرّض لربوبيّته تعالى لهم متضمِّن للتعرّض[٣] لربوبيّته تعالى لأصولهم قاطبةً، لاسيّما وقد نطَق بذلك

---

١ أَرُومة كلّ شجرة: أصلها. تهذيب اللغة للأزهري، ٢١٥/١٥ «باب الراء والميم».

٢ السياق: وتعميم الخطاب... تفكيكٌ...

٣ س - للتعرّض.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾؛ فإنّه مع ما عُطف عليه صريح في ذلك. وهو معطوف إمّا على مقدَّرٍ يُنبئ عنه سَوق الكلام؛ لأنّ تفريع الفروع مِن أصل واحد يستدعي إنشاءَ ذلك الأصل لا محالةَ، كأنّه قيل: خلَقَكم مِن نفس واحدة خلَقَها أوّلًا وخلَق منها زوجَها... إلى آخِره، وهو استئناف مَسوق لتقرير وحدة المَبدأ وبيانِ كيفيّة خلقهم منه وتفصيلِ ما أُجملَ أوّلًا، أو صفةٌ لـ﴿نَفۡسٍ﴾، مفيدةٌ لذلك، وإمّا[1] على ﴿خَلَقَكُم﴾، داخلٌ معه في حيّز الصلة، مقرِّرٌ ومبيِّنٌ لِما ذُكر.

وإعادة الفعل -مع جواز عطف مفعوله على مفعول الفعل الأوّل كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾... إلخ [البقرة، ٢١/٢]- لإظهار ما بين الخَلقين مِن التفاوت؛ فإنّ الأوّل / بطريق التفريع [٣و] مِن الأصل، والثاني بطريق الإنشاء مِن المادّة، فإنّه تعالى خلق حوّاءَ مِن ضِلْع آدمَ عليه السلام؛ رُوي أنّه عزّ وجلّ لمّا خلقه عليه السلام وأسكنه الجنّةَ ألقى عليه النوم، فبينما هو بين النائم واليَقْظان خلَقَ حوّاءَ مِن ضِلْع مِن أضلاعه اليُسرى، فلمّا انتبه وجَدَها عنده.[2]

وتأخير ذِكر خَلْقها عن ذِكر خلقهم لِما أنّ تذكير خلقهم أدخَلُ في تحقيق ما هو المقصود مِن حملهم على الامتثال بالأمر بالتقوى مِن تذكير خلقها. وتقديم الجارّ والمجرور للاعتناء ببيان مبدئيّته عليه السلام لها، مع ما فيه مِن التشويق إلى المؤخَّر كما مرّ مِرارًا. وإيرادها بعنوان الزَّوْجيّة تمهيد لِما بعده مِن التناسل.

﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا﴾ أي: نَشَر مِن تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بطريق التوالد والتناسل. ﴿رِجَالٗا كَثِيرٗا﴾ نعتٌ لـ﴿رِجَالٗا﴾، مؤكِّدٌ لِما أفاده التنكير مِن الكثرة، والإفرادُ باعتبار معنى الجمع أو العدد. وقيل: هو نعتٌ لمصدر مؤكِّد للفعل، أي: بَثًّا كثيرًا. ﴿وَنِسَآءٗ﴾ أي: كثيرةً، وتركُ التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور. وإيثارهما على "ذُكورًا وإناثًا" لتأكيد الكثرة والمبالغة فيها

---

١ السياق: وهو معطوف إمّا على مقدَّر... وإمّا على ﴿خَلَقَكُم﴾...

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٣٤١/٦-٣٤٢؛ وتفسير السمرقندي، ٣٠٣/١.

بترشيح كلّ فرد مِن الأفراد المبثوثة لمبدئيّة غيره. وقُرِئ: "وَخَالِقٌ... وَبَاثٌّ"[١] على حذف المبتدأ، أي: وهو خالق وباثّ.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ تكرير للأمر وتذكير لبعض آخَرَ مِن موجِبات الامتثال به؛ فإنّ سؤال بعضهم بعضًا بالله تعالى بأنْ يقولوا: "أسألك بالله، وأنشُدك اللهَ" على سبيل الاستعطاف يقتضي الاتّقاء مِن مخالفة أوامره ونواهِيه. وتعليق الاتّقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة في الحمل على الامتثال بتربية المهابة وإدخالِ الرَّوعة، ولوقوع التساؤل به، لا بغيره مِن أسمائه تعالى وصفاته.

[٣ظ] و﴿تَسَآءَلُونَ﴾ / أصله: "تَتَساءلون"، فطُرِحت إحدى التاءَيْن تخفيفًا. وقُرِئ بإدغام تاء التفاعل في السِّين[٢] لتقارُبهما في الهَمْس. وقُرِئ: "تَسْأَلُونَ"[٣] مِن الثُّلاثيّ، أي: تسألون به غيرَكم؛ وقد فُسّر به القراءة الأُولى والثانية، وحُمِل صيغة التفاعل على اعتبار الجمع كما في قولك: "رأيتُ الهلال وتَراءيناه"،[٤] وبه فُسّر ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ، ١/٧٨] على وجه. وقُرِئ: "تَسَلُونَ"[٥] بنقل حَرَكة الهمزة إلى السِّين.

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بالنصب عطفًا على محلّ الجارّ والمجرور، كقولك: "مررتُ بزَيد وعَمرًا"، وينصُره قراءة "تَسَاءَلُونَ بِهِ وَبِالْأَرْحَامِ"؛[٦] فإنّهم كانوا يقرُنونها في السؤال

---

[١] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بلا نسبة في **الكشّاف**، ٤٦٢/١؛ وابن عادل في **اللباب**، ١٤١/٦.

[٢] أي: "تَتَساءَلُونَ"، فأُدغم التاء في السِّين، فصار "تَسَّاءَلُونَ"، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٢٤٧/٢؛ **الحجّة** لأبي عليّ الفارسي، ١١٨/٣-١١٩.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عمرو. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٢٨. ولم يذكرها ابن مجاهد في **السبعة** وابنُ الجزري في **النشر**، لعلّه أبو عمرو الداني. وذكَرَها أبو حيّان في **البحر المحيط**، ٤٩٧/٣، ونسبها إلى عبد الله ابن مسعود.

[٤] قال شَمِر: «قوله: تراءينا الهلال، أي: تكلّفنا النظر إليه، هل نراه أم لا؟ وقد تراءينا الهلال، أي: نظرناه». وقال الفرّاء: «العرب تقول: راءيتُ، ورأيتُ». **تهذيب اللغة** للأزهري، ٢٣٤/١٥ «باب اللفيف مِن حرف الراء».

[٥] قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة أبو حيّان في **البحر المحيط**، ٤٩٧/٣؛ وابن عادل في **اللباب**، ١٤١/٦.

[٦] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في **الكشّاف**، ٤٦٢/١؛ وأبو حيّان في **البحر المحيط**، ٤٩٨/٣، ونسباها إلى عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

والمناشدة بالله عزّ وجلّ ويقولون: "أسألك بالله وبالرَّحِم"، أو عطفًا على الاسم الجليل، أي: اتّقوا الله والأرحامَ، وصِلُوها ولا تقطَعوها، فإنّ قطيعتها ممّا يجب أن يُتّقى، وهو قول مجاهد وقتادةَ والسدّي والضحّاك والفرّاء والزجّاج.[١] وقد جَوّز الواحدي نصْبه على الإغراء،[٢] أي: والزَموا الأرحامَ وصِلُوها.

وقُرئ بالجرّ[٣] عطفًا على الضمير المجرور، وبالرفع[٤] على أنّه مبتدأٌ محذوفُ الخبر، تقديره: والأرحام كذلك، أي: ممّا يُتّقى أو يُتساءل به. ولقد نبّه سبحانه وتعالى حيث قَرَنها باسمه الجليل على أنّ صلتها بمكانٍ منه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء، ٢٣/١٧]، وعنه صلّى الله عليه وسلّم: «الرَّحِم معلَّقة بالعرش، تقول: مَن وَصَلَنِي وَصَلَه الله، ومَن قَطَعَنِي قَطَعَه الله».[٥]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ أي: مراقِبًا. وهي صيغة مبالغة، مِن "رقَبَ يرقُبُ رَقْبًا ورُقُوبًا ورُقْبَانًا"، إذا أحَدَّ / النظرَ لأمرٍ يريد تحقيقه، أي: حافظًا مطّلِعًا على [٩٤و]
جميع ما يصدُر عنكم مِن الأفعال والأقوال، وعلى ما في ضمائركم مِن النيّات، مريدًا لمُجازاتكم بذلك. وهو تعليل للأمر ووجوب الامتثال به. وإظهار الاسم الجليل لتأكيده. وتقديم الجارّ والمجرور لرعاية الفواصل.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢﴾

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ شروع في تفصيل موارد الاتّقاء ومَظانّه بتكليف ما يقابلها أمرًا ونهيًا عَقيبَ الأمر بنفسه مرّةً بعد أخرى. وتقديم ما يتعلّق باليتامى لإظهار كمال العناية بأمرهم ولملابستهم بالأرحام؛ إذ الخطاب للأولياء والأوصياء، وقلّما يُفوَّض الوصاية إلى الأجانب.

---

١ التفسير البسيط للواحدي، ٢٨٦/٦-٢٨٧.
٢ التفسير البسيط للواحدي، ٢٨٧/٦.
٣ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٢٤٧/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن يَزيد. المحتسَب لابن جنّي، ١٧٩/١.
٥ صحيح مسلم، ١٩٨١/٤ (٢٥٥٥). وفي صحيح البخاري، ٦/٨ (٥٩٨٨): «إنّ الرَّحِم شُجْنة مِن الرحمن، فقال الله: مَن وصلكِ وصلتُه، ومَن قطعكِ قطعتُه».

واليتيم: مَن مات أبوه، مِن "اليُتْم"، وهو الانفراد، ومنه الدُّرّة اليتيمة. وجمعُه على "يتامَى"؛ إمّا لأنّه لمّا جرى مَجرى الأسماء جُمع على "يتائمَ"، ثمّ قُلِب فقيل: "يتامَى"، أو لأنّه لمّا كان مِن وادي الآفات جُمع على "يَتْمَى"، ثمّ جُمع "يَتْمَى" على "يتامَى". والاشتقاق يقتضي صحّةَ إطلاقه على الكِبار أيضًا، واختصاصُه بالصِّغار مبنيّ على العُرف. وأمّا قوله صلّى الله عليه وسلّم: «لا يُتْمَ بعد الحُلُم»،[1] فتعليم للشريعة، لا تعيينٌ لمعنى اللفظ، أي: لا يُجرَى على اليتيم بعده حكمُ الأيتام.

والمراد بإيتاء أموالهم قطعُ المخاطَبين أطماعهم الفارغةَ عنها، وكَفُّ أَكُفِّهم الخاطفة عن اختزالها، وتركُها على حالها غيرَ متعرَّض لها بسُوءٍ حتّى تأتيَهم وتَصِلَ إليهم سالمةً، كما يُنبئ عنه ما بعده مِن النهي عن التبدّل والأكل؛ لا الإعطاءُ بالفعل، فإنّه مشروط بالبلوغ وإيناس الرُّشد على ما ينطِق به قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا﴾ الآية [النساء، ٦/٤]. وإنّما عُبّر عمّا ذُكر بـ"الإيتاء" مجازًا للإيذان بأنّه ينبغي أن يكون مرادهم بذلك إيصالَها إليهم، لا مجرَّدَ تركِ التعرّض لها.

فالمراد بهم إمّا الصِّغار على ما هو المتبادر، والأمرُ خاصّ بمَن يتولّى أمرَهم مِن الأولياء والأوصياء، وشمولُ / حُكمه لأولياء مَن كان بالغًا عند نزول [٤ظ] الآية بطريق الدلالة دون العبارة؛ وإمّا مَن جرى عليه اليُتْم في الجملة مجازًا أعمَّ مِن أن يكون كذلك عند النزول أو بالغًا، فالأمر شامل لأولياء الفريقَين صيغةً، مُوجِبٌ عليهم ما ذُكر مِن حفظ أموالهم والتحفّظِ عن إضاعتها مطلَقًا. وأمّا وجوب الدفع إلى الكِبار، فمستفادٌ ممّا سيأتي مِن الأمر به.

وقيل: المراد بهم الصِّغار، وبـ"الإيتاء" الإعطاء في الزمان المستقبل. وقيل: أُطلقَ اسمهم على الكِبار بطريق الاتّساع لقُرب عهدهم باليُتْم، حثًّا للأولياء على المسارَعة إلى دفع أموالهم إليهم أوّلَ ما بلغوا قبل أن يَزِلّ عنهم اسمُهم المعهود،

---

[1] مصنَّف عبد الرزّاق، ٤١٦/٦ (١١٤٥٠). وهو بلفظ: «لا يُتْمَ بعد احتلامٍ» في سنن أبي داود، ٤٩٦/٤ (٢٨٧٣)؛ وشرح مشكل الآثار للطحاوي، ١٣١/٢ (٦٥٨)؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٩٠/٦ (١١٢٩٦).

ف"الإيتاء" بمعنى الإعطاء بالفعل. ويأباهما ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾... إلى آخره [النساء، ٦/٤]؛ فإنّ ما فيه مِن الأمر بالدفع واردٌ على وجه التكليف الابتدائيّ، لا[1] على وجه تعيين وقته أو بيانِ شرطه فقط كما هو مقتضَى القولين.

وأمّا تعميم الاسم للصِّغار والكِبار مجازًا بطريق التغليب مع تعميم الإيتاء للإيتاء حالًا وللإيتاء مآلًا، وتعميمُ الخطاب لأولياء كِلا الفريقَين -على أنّ مَن بلغ منهم، فوَلِيُّه مأمور بالدفع إليه بالفعل، وأنّ مَن لم يبلُغ بعدُ، فوَلِيُّه مأمور بالدفع إليه عند بلوغه رشيدًا- فمع ما سبق تكلّفٌ لا يخفى؛ فالأنسبُ ما تقدَّم مِن حمل إيتاء أموالهم إليهم على ما يؤدِّي إليه مِن ترك التعرّض لها بسُوء كما يلوِّح به التعبير عن الإعطاء بالفعل بالدفع، سواءٌ أريدَ بـ﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ﴾ الصِّغار أو ما يعُمّ الصغارَ والكبارَ حسبما ذُكر آنفًا.

وأمّا ما رُوي مِن أنّ رَجلًا مِن غَطَفانَ كان معه مال كثير لابنِ أخٍ له، فلمّا بلغ طلب منه ماله، فمنعه، فنزلت، فلمّا سمِعها قال: «أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا الرسولَ، نَعوذ بالله مِن الحُوب الكبير»،[2] فغيرُ قادح في ذلك لِما أنّ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ نهيٌ عن أخذ مال اليتيم على الوجه المخصوص بعد النهي الضِمنيّ عن أخذه على الإطلاق. / وتبدّلُ الشيء [٥٥و]
بالشيء واستبدالُه به: أخذُ الأوّل بدلَ الثاني بعد أن كان حاصلًا له أو في شَرَف الحصول، يُستعملان أبدًا بإفضائهما إلى الحاصل بأنفُسهما وإلى الزائل بالباء، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾... إلخ[3] [البقرة، ١٠٨/٢]، وقوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة، ٦١/٢].

وأمّا التبديل، فيُستعمل تارةً كذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَـٰهُم[4] بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾... إلخ [سبأ، ١٦/٣٤]، وأخرى بالعكس كما في قولك: "بدّلتُ الحَلْقة

---

١ س: إلّا.

٢ تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٥٦/١؛ أسباب النزول للواحدي، ص ١٤٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٩/٢.

٣ س - إلخ.

٤ م س: فبدّلناهم.

بالخاتَم"، إذا أذنبْتَها وجعلتَها خاتَمًا، نصَّ عليه الأزهري،[١] وتارةً أخرى بإفضائه إلى مفعولَيه بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان، ٢٥/٧٠].

والمراد بـ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ إن كان هو الحرامَ والحلالَ،[٢] فالمنهيّ عنه استبدال مال اليتيم بمال أنفُسهم مطلَقًا، كما قاله الفرّاء والزجّاج.[٣] وقيل: معناه لا تَذَروا أموالكم الحلالَ وتأكلوا الحرامَ مِن أموالهم، فالمنهيّ غنه أكل ماله مكانَ مالهم المحقَّق أو المقدَّر. وقيل: هو اختزال ماله مكانَ حِفظه. وأيًّا ما كان، فإنّما عُبّر عنهما بهما تنفيرًا عمّا أخذوه وترغيبًا فيما أعطَوْه وتصويرًا لمعاملتهم بصورةٍ ما لا يصدُر عن العاقل.

وإن كان هو[٤] الرديءَ والجيّدَ، فمَورِد النهي ما كانوا عليه مِن أخذ الجيّد مِن مال اليتيم وإعطاءِ الرديء مِن مال أنفُسهم، وبه قال سعيد بن المسيَّب والنخَعي والزهري والسدّي.[٥] وتخصيص هذه المعاملة بالنهي لخروجها مَخرجَ العادة، لا لإباحة ما عَداها. وأمّا التعبير عنها بـ"تبدّل الخبيث بالطيّب" -مع أنّها تبديله به أو تبدّلُ الطيّب بالخبيث- فللإيذان بأنّ الأولياء حقُّهم أن يكونوا في المعاوَضات عاملِين لليتيم لا لأنفُسهم، مُراعِين لجانبه، قاصدين لجلب المجلوب إليه -مشترًى كان أو ثَمَنًا- لا لسلب المسلوب عنه.

[٥ظ] ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ / نهيٌ عن منكَرٍ آخَرَ كانوا يتعاطَوْنه، أي: لا تأكلوها مضمومةً إلى أموالكم، ولا تُسَوّوا بينهما، وهذا حلال وذاك حرام. وقد خُصّ مِن ذلك مقدار أجر المِثْل عند كون الوليّ فقيرًا. ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الأكل المفهوم مِن النهي ﴿كَانَ حُوبًا﴾ أي: ذَنْبًا عظيمًا. وقُرئ بفتح الحاء،[٦] وهو مصدرُ "حَابَ حَوْبًا". وقُرئ: "حَابًا"،[٧] وهو أيضًا مصدر، كـ"قَالَ قَوْلًا وقَالًا".

---

١ تهذيب اللغة للأزهري، ١٤/٩٣ «أبواب الدال واللام».

٢ س: الحلال والحرام.

٣ معاني القرآن للفرّاء، ١/٢٥٣؛ معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢/٧؛ التفسير البسيط للواحدي، ٦/٢٩٤.

٤ أي: المراد بـ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾.

٥ جامع البيان للطبري، ٦/٣٥٢-٣٥٣؛ تفسير القرطبي، ٥/٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي إبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٨.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٨.

﴿كَبِيرًا﴾ مبالغة في بيان عِظَم ذنب الأكل المذكور، كأنّه قيل: مِن كِبار الذُّنوب العظيمة، لا مِن أفنائها.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ الإقساط: العَدْل. وقُرئ بفتح التاء،[1] فقيل: هو مِن "قَسَطَ"، أي: جَارَ، و﴿لَا﴾ مزيدة كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ [الحديد: ٢٩/٥٧]؛ وقيل: هو بمعنى "أقسَطَ"، فإنّ الزجّاج حكى أنّ "قسَطَ" يُستعمل استعمالَ "أقسَطَ".[2] والمراد بالخوف العِلمُ كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة، ١٨٢/٢]، عُبّر عنه بذلك إيذانًا بكون المعلوم مَخوفًا محذورًا، لا معناه الحقيقيّ؛ لأنّ الذي عُلّق به الجواب هو العلم بوقوع الجَور المَخوف، لا الخوفُ منه، وإلّا لم يكن الأمر شاملًا لمَن يُصِرّ على الجَور ولا يخافه.

وهذا شروع في النهي عن منكَرٍ آخَرَ كانوا يباشرونه، متعلِّقٌ بأنفُس اليتامى أصالةً وبأموالهم تَبَعًا، عَقيبَ النهي عمّا يتعلّق بأموالهم خاصّةً. وتأخيره عنه لقِلّة وقوع المنهيّ عنه بالنسبة إلى الأوّل ونزولِه منه منزلةَ المركَّب مِن المفرَد، وذلك أنّهم كانوا يتزوّجون مَن يحِلّ لهم مِن اليتامى اللاتي يلُونهنّ؛ لكنْ لا لرغبةٍ فيهنّ، بل في مالهنّ، ويُسيئون في الصُّحبة والمعاشرة، ويتربّصون بهنّ أن يَمُتْنَ فيَرِثوهنّ، وهذا قول الحسن.

وقيل: هي اليتيمة تكون في حَجْر وليّها، فيرغَب في مالها وجمالها، ويريد أن ينكِحها بأدنى مِن سُنّة نسائها، فنُهُوا أن ينكِحوهنّ إلّا أن يُقسِطوا لهنّ في إكمال الصَّداق، وأُمروا أن ينكِحوا ما سِواهنّ مِن النساء، وهذا قول الزهري

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. المحتسَب لابن جنّي، ١٨٠/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٨.

[2] معاني القرآن للزجّاج، ٣٨٨/١.

روايةً عن عُروةَ[١] عن عائشةَ رضي الله عنها.[٢]

وأمّا اعتبار اجتماع عدد كثير منهنّ كما أطبق عليه أكثرُ أهل التفسير، حيث قالوا: كان الرَّجل يجد[٣] اليتيمةَ لها مالٌ وجمالٌ أو يكون وليَّها فيتزوّجها ضِنًّا[٤] بها عن غيره، فربّما اجتمعت عنده عَشرٌ منهنّ... إلخ،[٥] فلا يساعده الأمر بنكاح غيرِهنّ.[٦] أي: وإن خِفتم أن لا تَعدِلوا في حقّ اليتامى إذا تزوّجتم بهنّ بإساءة العِشرة / أو بنقص الصَّداق، ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُمْ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة أو [٦و] موصوفة، ما بعدها صلتُها أو صفتُها، أُوثِرت على "مَنْ" ذَهابًا إلى الوصف، وإيذانًا بأنّه المقصود بالذات والغالبُ في الاعتبار، لا بناءً على أنّ الإناث مِن العقلاء يَجرِين مَجرى غير العقلاء لإخلاله بمقام الترغيب فيهنّ. وقرأ ابن أبي عَبْلةَ:[٧] "مَنْ طَابَ".[٨]

و﴿مِنْ﴾ في قوله عزّ وجلّ: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيانيّة، وقيل: تبعيضيّة. والمراد بهنّ غيرُ اليتامى بشهادة قرينة المقام، أي: فانكِحوا مَن استطابَتْها نفوسكم مِن الأجنبيّات. وفي إيثار الأمر بنكاحهنّ على النهي عن نكاح اليتامى -مع أنّه

---

١ هو عُروة بن الزبير بن العوّام بن خُوَيلِد الأسدي القُرَشي، أبو عبد الله (ت. ٩٤هـ/٧١٣م). صحابيّ. أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان عالمًا بالدين صالحًا كريمًا. وعائشة عمّتُه. انتقل مِن المدينة إلى البصرة، ثمّ إلى مصر، فتزوّج وأقام بها سبع سِنين، وعاد إلى المدينة، فتُوفّي فيها. وبئر عُروة بالمدينة منسوبة إليه. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ١٧٨/٥-١٨١؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٢٦/٤.

٢ انظر: **صحيح البخاري**، ٢/٧ (٥٠٦٤)؛ و**صحيح مسلم**، ٢٣١٣/٤ (٣٠١٨).

٣ س: تجد.

٤ ضَنّ بالشيء يضِنّ ويضَنّ ضَنًّا وضِنًّا وضَنانةً، أي: بُخلًا، ورجل ضَنين، أي: بخيل. انظر: **تهذيب اللغة** للأزهري، ٣٢١/١١ «باب الضاد والنون»؛ و**أساس البلاغة** للزمخشري، «ضنن».

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٧/١.

٦ وفي هامش م: فإنّ المحذور حينئذ يندفع بتقليل عددهنّ. «منه». | هذه العبارة أُدرجت في المتن في نسخة ط.

٧ هو إبراهيم بن أبي عَبْلة العُقيلي الشامي المقدسي، أبو إسحاق. الإمام القدوة، شيخ فلسطين. مِن بقايا التابعين. وُلد بعد الستّين. روى عن واثلة بن الأسقع وأنس بن مالك وأبي أمامة الباهلي وبلال بن أبي الدرداء وخالد بن معدان، وخلقٍ سِواهم. حدّث عنه: ابن إسحاق وابن شوذب وعمرو بن الحارث ومالك والليث وابن المبارك ومحمّد بن زياد المقدسي، وآخرون كثيرون. قال ضمرة: «تُوفّي إبراهيم بن أبي عَبْلة سنةَ اثنتين وخمسين ومائة». انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٣٢٣/٦-٣٣٥.

٨ هي قراءة شاذّة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٢٩.

المقصود بالذات- مزيدُ لطفٍ في استنزالهم عن ذلك؛ فإنّ النفس مجبولة على الحِرص على ما مُنعت منه، كما أنّ وصف النساء بالطِّيب على الوجه الذي أشيرَ إليه فيه مبالغةٌ في الاستمالة إليهنّ والترغيب فيهنّ.

وكلّ ذلك للاعتناء بصَرفهم عن نكاح اليتامى. وهو السرّ في توجيه النهي الضِّمنيّ إلى النكاح المترقَّب، مع أنّ سبب النزول هو النكاح المحقَّق لِما فيه مِن المسارعة إلى دفع الشرّ قبل وقوعه -فرُبّ واقعٍ لا يُرفَع- والمبالغةِ في بيان حال النكاح المحقَّق؛ فإنّ محظوريّة المترقَّب حيث كانت[١] للجَور المترقَّب فيه، فمحظوريّة المحقَّق مع تحقّق الجَوْر فيه أَولى.

وقيل: المراد بالطِّيب الحِلُّ، أي: ما حلّ لكم شرعًا؛ لأنّ ما استطابوه شاملٌ للمحرَّمات، ولا مخصِّصَ له بمَن عَداهنّ، وفيه فِرار مِن محذور ووقوع فيما هو أفظعُ منه؛ لأنّ ما حلّ لهم مجمَل، وقد تقرّر أنّ النصّ إذا تردَّد بين الإجمال والتخصيص يُحمَل على الثاني؛ لأنّ العامّ المخصوص حُجّة في غير محلّ التخصيص، والمجمَلَ ليس بحُجّة قبل ورود البيان أصلًا؛ ولَئِن جُعل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾... إلى آخره[٢] دالًّا على التفصيل بناءً على ادّعاء تقدّمه في التنزيل، فليُجعَلْ دالًّا على التخصيص.

﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ معدولة عن أعداد مكرَّرة، غيرُ منصرِفة لِما فيها مِن العَدْلَيْن: عدلها عن صِيَغها وعدلها عن تكرّرها. وقيل: للعدل والصفة؛ فإنّها بُنيت صفاتٍ وإن لم يكن أصولها كذلك. وقُرئ: "وَثُلْثَ وَرُبْعَ"[٣] على القَصر مِن "ثلاث ورُباع". ومحلُّهنّ النصبُ على أنّها حال مِن فاعل ﴿طَابَ﴾، مؤكِّدةٌ لِما أفاده / وصفُ الطِّيب مِن الترغيب فيهنّ والاستمالةِ إليهنّ بتوسيع دائرة الإذْن، [٦٦ظ]

---

١ س: كان.

٢ ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء، ٢٣/٤].

٣ قراءة شاذّة، رواها الأعمش عن يحيى بن وثّاب والمغيرةُ عن إبراهيم. المحتسَب لابن جنّي، ١٨١/١.

أي:[١] فانكِحوا الطيّباتِ لكم معدوداتٍ هذا العددَ، ثِنْتَيْن ثنتين وثلاثًا ثلاثًا وأربعًا أربعًا حسبما تريدون، على معنى أنّ لكلّ واحد منهم أن يختار أيَّ عدد شاء مِن الأعداد المذكورة؛ لا أنّ بعضها لبعض منهم وبعضَها لبعض آخَرَ، كما في قولك: "اقتسِموا هذه البَدْرة[٢] دِرهمَيْن دِرهمَيْن وثلاثةً ثلاثةً وأربعةً أربعةً"؛ ولو أُفردت لَفُهم منه تجويز الجمع بين تلك الأعداد دون التوزيع، ولو ذُكرت بكلمة "أو" لَفَاتَ تجويزُ الاختلاف في العدد.

هذا، وقد قيل[٣] في تفسير الآية الكريمة: لمّا نزلت الآية في اليتامى وما في أكل أموالهم مِن الحُوب الكبير، أخَذَ الأولياء يتحرّجون مِن ولايتهم خوفًا مِن لُحوق الحُوب[٤] بترك الإقساط، مع أنّهم كانوا لا يتحرّجون مِن ترك العدل في حقوق النساء، حيث كان تحت الرَّجل منهم عشرٌ منهنّ، فقيل لهم: إن خِفْتم تركَ العدل في حقوق اليتامى فتحرَّجْتم منها، فخافوا أيضًا تركَ العدل بين النساء فقَلِّلوا عددَ المنكوحات؛ لأنّ مَن تحرَّج مِن ذَنْب أو تاب[٥] عنه وهو مرتكِب مثلَه، فهو غير متحرِّج ولا تائبٍ عنه.

وقيل: كانوا لا يتحرّجون مِن الزِّنا، وهم يتحرّجون مِن ولاية اليتامى، فقيل: إن خِفتم الجَوْر في حقّ اليتامى، فخافوا الزّنا فانكِحوا ما حلّ لكم مِن النساء، ولا تَحُوموا حولَ المحرَّمات. ولا يخفى أنّه لا يساعدهما جزالة النظم الكريم لابتنائهما على تقدّم نزول الآية الأُولى وشيوعِها بين الناس مع ظهور
[٧و] / توقُّف حكمها على ما بعدها مِن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء، ٤/٥-٦].

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ أي: فيما بينهنّ -ولو في أقلّ الأعداد المذكورة- كما خِفتموه في حقّ اليتامى، أو كما لم تعدِلوا في حقّهنّ، أو كما لم تعدِلوا[٦]

---

[١] س - أي.

[٢] البَدْرة: كِيس فيه عشرةُ آلافِ درهمٍ أو ألفٌ. والجمع: البدور. تهذيب اللغة للأزهري، ٨٢/١٤ «أبواب الدال والراء».

[٣] هو الزمخشري في الكشّاف، ٤٦٧/١.

[٤] س + الكبير.

[٥] س: وتاب.

[٦] س - في حقّهنّ أو كما لم تعدِلوا.

فيما فوق هذه الأعداد،[١] ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ أي: فالزَموا أو فاختاروا واحدةً، وذَرُوا الجمعَ بالكلّيّة. وقُرئ بالرفع،[٢] أي: فالمقنِع واحدة، أو فحَسْبُكم واحدة.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: مِن السّراريّ[٣] بالغةً ما بلغت مِن مراتب العدد. وهو عطفٌ على ﴿وَٰحِدَةً﴾ على أنّ اللزوم والاختيار فيه بطريق التّسرّي، لا بطريق النكاح كما فيما عُطف عليه لاستلزامه ورودَ مِلك النكاح على مِلك اليَمين بموجَب اتّحاد المخاطَبين في الموضعَين، بخلاف ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء، ٢٥/٤]؛ فإنّ المأمور بالنكاح هناك غيرُ المخاطَبين بمِلك اليَمين، وإنّما سُوِّي في السهولة واليُسْر بين الحُرّة الواحدة وبين السّراريّ مِن غير حصر في عدد لقِلّة تَبِعَتهنّ وخِفّة مُؤْنَتهنّ وعدمِ وجوب القَسْم فيهنّ. وقُرئ: "أَوْ مَنْ مَلَكَتْ أَيمَانُكُمْ".[٤] و﴿مَا﴾ في القراءة المشهورة للإيذان بقصور رُتبتهنّ عن رتبة العقلاء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة والتّسرّي. ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا﴾ العَول: المَيْل، مِن قولهم: "عَالَ المِيزانُ عَوْلًا" إذا مَالَ، و"عَالَ في الحُكم"، أي: جَارَ. والمراد ههنا المَيْل المحظور المقابِل للعَدْل، أي: ما ذُكر مِن اختيار الواحدة والتسرّي أقربُ بالنسبة إلى ما عداهما مِن أن لا تَميلوا ميلًا محظورًا، لانتفائه رأسًا بانتفاء محلّه في الأوّل وانتفاءِ خطَره في الثاني، بخلاف اختيار العدد في المهائر؛ فإنّ المَيْل المحظور متوقَّعٌ فيه لتحقّق المحلّ والخطَر. ومِن ههنا تبيَّن أنّ مدار الأمر هو عدم العَول، لا تحقّقُ العدل كما قيل.[٥]

وقد فُسّر بـ"أن لا يكثُر عِيالُكم" على أنّه مِن "عَالَ الرَّجلُ عِيالَه يَعولُهم"، أي: مَانَهم، فعُبّر عن كثرة العِيال بكثرة المُؤْنة على طريقة الكناية. ويُؤيّده قراءة

---

١ وفي هامش م: على الوجه الذي نُقل في تفسير الآية الكريمة. «منه».

٢ قرأ بها أبو جعفر مِن القُرّاء العشرة. النشر لابن الجزري، ٢٤٧/٢.

٣ السُّرِّيّة: الأمَة التي بوّأتَها بيتًا، والجمع: السّراريّ. الصحاح للجوهري، «سرر».

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبْلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٩.

٥ وفي هامش م: قاله الإمام الواحدي. «منه». | انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٣١٠/٦.

"أَنْ لَا تُعِيلُوا"،[١] مِن "أعالَ الرَّجلُ" إذا كثُر عِيالُه. ووجهُ كون التَّسرّي مَظِنَّةَ قِلّة العِيال مع جواز الاستكثار مِن السَّراريّ أنّه يجوز العَزل عنهنّ بغير رِضاهنّ، ولا كذلك المهائرُ. والجملة مستأنفة جارية ممّا قبلها مَجرى التعليل.

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ۝٤﴾

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي: اللاتي أُمِر بنكاحهنّ ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ جمعُ "صَدُقة"، كـ"سَمُرة"، وهي المَهْر. وقُرئ / بسكون الدال على التخفيف،[٢] وبضمّ الصاد وسكونِ الدال،[٣] [٧٧ظ] جمع "صُدْقة" كـ"غُرْفة"، وبضمّهما على التوحيد،[٤] وهو تثقيل "صُدْقة"، كـ"ظُلُمة" في "ظُلْمة".

﴿نِحۡلَةٗ﴾ قال ابن عبّاس وقتادة وابن جُريج وابن زيد: «فريضةً مِن الله تعالى»؛[٥] لأنّهما ممّا فَرَضه تعالى في النِحلة، أي: المِلّة والشِرعة والدِّيانة؛ فانتصابُها على الحاليّة مِن ﴿صَدُقَٰتِ﴾، أي: أعطُوهنّ مهورَهنّ حالَ كونها فريضةً منه تعالى. وقال الزجّاج: «تديّنًا»؛[٦] فانتصابُها على أنّها مفعول له، أي: أَعطُوهنّ دِيانةً وشِرعةً. وقال الكلبي: «﴿نِحۡلَةٗ﴾ أي: هِبةً وعطيّةً مِن الله تعالى وتفضّلًا منه عليهنّ»؛[٧] فانتصابُه على الحاليّة منها أيضًا. وقيل: عطيّةً مِن جهة الأزواج، مِن "نَحَله كذا" إذا أعطاه إيّاه[٨] ووهَبَه له عن طِيبةٍ مِن[٩] نفسه، نِحْلةً ونُحْلًا.

والتعبير عن إيتاء المهور بـ"النِحلة" -مع كونها واجبةً على الأزواج- لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرِضا وطِيب الخاطر. وانتصابها على المصدريّة؛

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن مصرِّف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٩.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبْلة والحسن بن عمران. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٩.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٩.

[٥] التفسير البسيط للواحدي، ٣١٦/٦. وقول ابن جُريج وابن زيد في جامع البيان للطبري، ٣٨٠/٦-٣٨١.

[٦] ذكره الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ١٢/٢، ولم يفصح بالقبول أو الردّ.

[٧] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٤٩/٣؛ التفسير البسيط للواحدي، ٣١٦/٦.

[٨] س - إيّاه.

[٩] س - مِن.

لأنّ الإيتاء والنِّحلة بمعنى الإعطاء، كأنّه قيل: وانحَلوا النساءَ صَدُقاتِهِنّ نِحلةً، أي: أَعطُوهنّ مهورهنّ عن طِيبة أنفسكم، أو على الحاليّة مِن ضمير ﴿ءَاتُوا﴾، أي: آتوهنّ صَدُقاتِهِنّ ناحلِين طيِّبِي النفوس بالإعطاء، أو مِن "الصَّدُقات"، أي: منحولةً معطاةً عن طِيبة الأنفس؛ فالخطاب للأزواج، وقيل: للأولياء؛ لأنّهم كانوا يأخذون مهور مَوليّاتِهم،[1] وكانوا يقولون: "هَنِيئًا لكَ النافجةُ"، لِمَن يُولَد له بنتٌ، يَعنُون: تأخذ مَهرَها فتَنفَج به مالَك، أي: تُعظّمه.

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ الضمير لـ"الصَّدُقات"، وتذكيرُه لإجرائه مُجرى ذلك؛ فإنّه قد يشار به إلى المتعدِّد كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ [آل عمران، ٣/١٥] بعد ذِكر الشَّهَوات المعدودة. / وقد رُوي عن رُؤبةَ أنّه حين قيل له في قوله: [٨و]

فيها خُطوطٌ مِن سَوَادٍ وبَلَقْ ... كأنّه في الجِلْد توليعُ البَهَقْ[2]

«إن أردتَ الخُطوط ينبغي أن تقول: "كأنّها"، وإن أردتَ السَّوَاد والبَلَق ينبغي أن تقول: "كأنّهما"»، قال: «لكنّي أردتُ: "كأنّ ذاك"». أو[3] لِما وقع موقعَه ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾،[4] كأنّه قيل: وآتوا النساء صَداقَهنّ، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون، ٦٣/١٠]؛ حيث عُطف ﴿أَكُن﴾ على ما دلّ عليه المذكور ووقع موقِعَه، كأنه قيل: فأَصَّدَّقْ وأكنْ. و"اللام" متعلِّقة بالفعل؛ وكذا ﴿عَن﴾، لكنْ بتضمينه معنى التجافي والتجاوز. و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً لـ﴿شَيْءٍ﴾، أي: كائنٍ مِن الصَّداق. وفيه بعثٌ لهنّ إلى تقليل الموهوب.

﴿نَفْسًا﴾ تمييز. والتوحيد لِما أنّ المقصود بيان الجنس، أي: إن وَهَبْنَ لكم شيئًا مِن الصَّداق متجافيًا عنه نفوسُهنّ طيّباتٍ غيرَ مُخَبّثات[5] بما يضطرّهنّ إلى البَذل مِن شكاسة أخلاقكم وسُوءِ معاشرتكم؛ لكن عُدل عن لفظ الهِبة

---

١ م س: بناتهم [صُحّح في هامش م].

٢ ديوانه، ص ١٠٤. | البَلَق: سَواد وبَياض. والبَهَق: بَياض يَعتري الجِلدَ يُخالِف لونه، ليس مِن البَرَص. الصحاح للجوهري، «بلق»، «بهق».

٣ السياق: الضمير لـ"الصَّدُقات"... أو لِما وقع موقعه ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾.

٤ م ط س: أو للصَّداق الواقع موقعَه ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ [صُحّح في هامش م].

٥ كذا حرّكها المصنّف.

والسّماحة إلى ما عليه النظم الكريم إيذانًا بأنّ العُمدة في الأمر إنّما هو طِيب النفس وتجافِيها عن الموهوب بالمرّة.

﴿فَكُلُوهُ﴾ أي: فخُذوا ذلك الشيء الذي طابت به نفوسهنّ، وتصرّفوا فيه تملّكًا. وتخصيص الأكل بالذِّكر لأنّه معظَم وجوه التصرّفات الماليّة. ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ صفتان مِن "هَنُؤَ الطعامُ ومَرُؤَ" إذا كان سائغًا لا تنغيصَ فيه. وقيل: الهَنيء: الذي يلَذّه الآكِلُ، والمَريء: ما يُحمَد عاقبتُه. وقيل: ما ينساغ في مجراه الذي هو المَريء، وهو ما بين الحُلْقوم إلى فَمِ المَعِدة، سُمّي بذلك لمُروء الطعام فيه، أي: انسياغه.

ونصبُهما على أنّهما صفتان للمصدر، أي: أكلًا هنيئًا مريئًا، أو على أنّهما حال مِن الضمير المنصوب، أي: كُلوه وهو هَنيء مَريء، وقد يوقَف على ﴿كُلُوهُ﴾، ويُبتدأ ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ على الدُّعاء، وعلى أنّهما صفتان أُقيمتَا مُقامَ المصدرَين، كأنّه قيل: هَنْأً مَزأً، وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التّبِعة. رُوي أنّ ناسًا / كانوا يتأثّمون أن يَقبل أحدُهم مِن زوجته شيئًا ممّا ساقه إليها، فنزلت.[1] [٨ظ]

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥﴾

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ رجوع إلى بيان بقيّة الأحكام المتعلِّقة بأموال اليتامى وتفصيلِ ما أُجملَ فيما سبق مِن شرط إيتائها ووقته وكيفيّتِه، إثرَ بيان بعض الأحكام المتعلِّقة بأنفُسهنّ -أعني: نكاحهنّ- وبيانِ بعض الحقوق المتعلِّقة بغيرهنّ مِن الأجنبيّات مِن حيث النفسُ ومِن حيث المالُ استطرادًا.

والخطاب للأولياء، نُهوا أن يُؤتُوا المبذِّرين مِن اليتامى أموالَهم مَخافةَ أن يُضيّعوها. وإنّما أُضيفت إليهم -وهي لليتامى- لا نَظَرًا إلى كونها تحت ولايتهم كما قيل، فإنّه غيرُ مصحِّح لاتّصافها بالوصف الآتي؛ بل تنزيلًا لاختصاصها

---

١ جامع البيان للطبري، ٦/٣٨٤؛ التفسير البسيط للواحدي، ٦/٣٢٠.

بأصحابها منزلةَ اختصاصها بالأولياء، فكأنّ أموالهم عَيْن أموالهم لِما بينهم وبينهم مِن الاتّحاد الجنسيّ والنَّسَبيّ مبالغةً في حملهم على المحافظة عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء، ٢٩/٤]، أي: لا يَقتُلْ بعضكم بعضًا؛ حيث عُبّر عن بني نوعهم بأنفُسهم مبالغةً في زَجْرهم عن قتلهم، فكأنّ قتلهم قتلُ أنفسهم. وقد أُيّد ذلك؛ حيث عُبّر عن جعلها مَناطًا لمَعاش أصحابها بجعلها مَناطًا لمَعاش الأولياء، فقيل: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ أي: جعلها الله شيئًا تقومون به وتنتعشون -على حذف المفعول الأوّل- فلو ضيَّعتُموه لَضِعْتم. ثمّ زِيد في المبالغة حتّى جُعل ما به القيام قيامًا، فكأنّها[1] في أنفسها قيامكم وانتعاشكم.

وقيل: إنّما أضيفت إلى الأولياء؛ لأنّها مِن جنسِ ما يقيم الناسُ مَعايِشَهم، حيث لم يُقصَد بها[2] الخصوصيّة الشخصيّة؛ بل الجنسيّة التي هي معنى ما يقام به المعاش وتَميل[3] إليه القلوب ويُدّخَر لأوقات الاحتياج، وهي بهذا الاعتبار لا تختصّ[4] باليتامى. وأنت خبير بأنّ ذلك بمَعزِل مِن حمل الأولياء على المحافظة المذكورة؛ كيف لا، والوحدة الجنسيّة الماليّة ليست مختصّةً بما بين أموال اليتامى وأموال الأولياء؛ بل هي متحقّقة بين أموالهم وأموال الأجانب؛ فإذنْ لا وجهَ لاعتبارها أصلًا.

وقُرئ: "اللَّاتِي"[5] و"اللَّوَاتِي".[6] وقُرئ: "قِيَمًا"[7] بمعنى "قِيامًا"، كما جاء "عِوَذًا" بمعنى "عِياذًا". وقُرئ: "قِوَامًا"،[8] بكسر القاف، / وهو ما يقام به الشيء، [٩و]
أو مصدرُ "قَاوَمَ". وقُرئ بفتحها.[9]

---

١ وفي هامش م: أي: الأموال. «منه».
٢ ط س: به.
٣ ط س: ويَميل.
٤ س: يختصّ.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإبراهيم النخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٢٩.
٦ لم نقف عليها في كتب القراءات والتفسير. قيل: هي قراءة شاذّة. الموسوعة القرآنية للأبياري، ١٦٥/٥.
٧ قرأ بها نافع وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٤٧/٢.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله ابن عمر. المحتسَب لابن جنّي، ١٧٩/١.
٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمر وأبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٠.

﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ أي: واجعلوها مكانًا لرزقهم وكِسْوتهم بأنْ تتّجِروا وتتربّحوا حتّى تكون نفقاتهم مِن الأرباح، لا مِن صُلْب المال. وقيل: الخطاب لكلّ أحد كائنًا مَن كان، والمراد نهيُه عن أن يفوّض أمر ماله إلى مَن لا رُشْدَ له مِن نسائه وأولاده ووُكلائه وغير ذلك. ولا يخفى أنّ ذلك مُخلّ بجزالة النظم الكريم. ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ أي: كلامًا ليِّنًا تَطيب به نفوسهم. وعن سعيد بن جبير ومجاهد وابن جريج: «عِدُوهم عِدَةً جميلةً بأنْ تقولوا: إذا صلَحْتم ورشَدْتم سلّمْنا إليكم أموالكم».[1] وكلّ ما سكنَت إليه النفسُ لحُسنه شَرعًا أو عقلًا مِن قولٍ أو عملٍ، فهو معروف، وما أنكرَته لقُبحه شَرعًا أو عقلًا، فهو منكَر.

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾

﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، وبيانِ شرطه بعد الأمر بإيتائها على الإطلاق والنهيِ عنه عند كون أصحابها سُفهاءَ، أي: واختبِروا مَن ليس منهم بيِّنَ السَّفَهِ قبل البلوغ بتتبُّع أحوالهم في صلاح الدين والاهتداءِ إلى ضَبْط المال وحُسنِ التصرّف فيه، وجرِّبوهم بما يَليق بحالهم؛ فإن كانوا مِن أهل التجارة فبأنْ تُعطُوهم مِن المال ما يتصرّفون فيه بَيْعًا وابتياعًا، وإن كانوا ممّن له ضِياع وأهل وخَدَم فبأنْ تُعطُوهم منه ما يَصرِفونه إلى نَفَقة عَبيدهم وخَدَمهم وأُجَرائهم وسائرِ مَصارفهم حتّى يتبيّن لكم كيفيّة أحوالهم. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ بأنْ يحتلموا؛ لأنّهم يصلُحون عنده للنكاح.

﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم﴾ أي: شاهدتم وتبيّنتم. وقُرئ: "أَحَسْتُمْ"،[2] بمعنى "أحسَسْتم"، كما في قول مَن قال:

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٤٠١/٦-٤٠٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣٢٧/٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٢/١.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها الفرّاء في معاني القرآن، ٢٥٧/١، ونسبها إلى عبد الله بن مسعود.

خَـلَا أنّ الـعِـتـاق مِـن الـمَـطـايَـا أَحَـسْـنَ بـه وهُـنَّ إلـيـه شُـوسُ[١]

﴿مِنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ أي: اهتداءً إلى وجوه التصرّفات مِن غير عَجْز وتبذير. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول للاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، أو للاعتداد بمبدئيّته له. والتنوين للدلالة على كفاية رُشد في الجملة. وقُرئ بفتح الراء والشين،[٢] وبضمّهما.[٣]

/ ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ مِن غير تأخير عن حدّ البلوغ. وفي إيثار الدفع على الإيتاء الوارد في أوّل الأمر إيذانٌ بتفاوُتهما بحسَب المعنى كما أشيرَ إليه فيما سلف. ونظمُ الآية الكريمة أنّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي يقع بعدها الجُمَل كالتي في قوله: [٩ظ]

فـمـا زالـت الـقَـتْـلى تـمُـجّ دِمـاءَهـا بـدِجْـلـةَ حـتّـى مـاءُ دِجـلـةَ أشـكَـلُ[٤]

وما بعدها جملة شرطيّة جُعلت غايةً للابتلاء، وفعلُ الشرط ﴿بَلَغُواْ﴾، وجوابُه الشرطيّة الثانية، كأنّه قيل: وابتَلُوا اليتامى إلى وقت[٥] بلوغهم واستحقاقِهم دفعَ أموالهم إليهم بشرط إيناس الرُّشد منهم. وظاهر الآية الكريمة أنّ مَن بلغ غيرَ رشيد إمّا بالتبذير أو بالعَجْز لا يُدفَع إليه ماله أبدًا، وبه أخذ

---

١ البيت لأبي زُبيد الطائي في **الصحاح** للجوهري، «حسس»؛ و**النهاية** لابن الأثير، ٣٨٨/١، وبلا نسبة في **جامع البيان** للطبري، ١٥٤/١٦ (طه، ٩٧/٢٠)؛ و**الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٥٩/٦ (طه، ٩٧/٢٠)؛ و**كتاب الأفعال** لابن القطاع، ٢٤٦/١. | العِتاق مِن الخَيل ومِن الإبِل: النجائب منهما. المَطايَا: جمع مطيّة، وهي الناقة يُركَب مَطاها أو البعير يُمتَطَى ظَهره. والشُّوس: جمع أَشْوس، يُقال: رجل أَشْوس، وذلك إذا عُرف في نظره الغضبُ أو الحِقدُ، ويكون ذلك مِن الكِبْر. **تاج العروس** للزبيدي، «عتق، مطا، شوس».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والسلمي. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٣٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن البصري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٣٠.

٤ البيت لجَرير مِن قصيدة يهجو بها الأخطل، وهو في **ديوانه** بشرح محمّد بن حبيب، ١٤٣/١، وفي مطبوعه: "وما زالت القَتْلى تمُور دِماؤُها". وهو بألفاظ المصنّف في **خِزانة الأدب** للبغدادي، ٤٨١/٩-٤٨٣؛ و**شرح شواهد المغني** للسيوطي، ٣٧٧/١. | الأشكَلُ في ألوان الإبل والغَنَم ونحوِه: أنْ يكون مع السَّواد غُبْرةٌ وحُمْرةٌ، كأنّه قد أشكل عليك لونُه. والأشكَلُ في سائر الأشياء: بياضٌ وحُمْرةٌ قد اختلَطَا. **تهذيب اللغة** للأزهري، ١٥/١٠ «أبواب الكاف والشين».

٥ س: حين.

أبو يوسفَ[١] ومحمّدٌ،[٢] وقال أبو حنيفةَ رحمهم الله: «يُنتظر إلى خمس وعشرين سنة»؛[٣] لأنّ البلوغ بالسِّنّ ثماني عشرةَ سنةً، فإذا زادت عليها سبعُ سِنينَ -وهي مُدّة معتبَرة في تغيّر أحوال الإنسان لِما قال عليه السلام: «مُرُوهُمْ بالصلاة لِسَبْعٍ»-[٤] دُفع إليه ماله، أُونسَ منه رُشدًا أو لم يُؤنَس.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ أي: مسرِفين ومبادِرين كِبَرَهم، أو لإسرافكم ومبادرتكم كِبَرَهم تفرِّطون في إنفاقها وتقولون: نُنفِق كما نشتهي قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها مِن أيدِينا. والجملة تأكيد للأمر بالدفع وتقرير له،[٥] وتمهيدٌ لِما بعدها مِن قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾... إلخ، أي: مَن كان مِن الأولياء والأوصياء غنيًّا، فليَتنزَّهْ مِن أكلها وليَقتنِعْ بما آتاه الله تعالى مِن الغِنى والرزق إشفاقًا على اليتيم وإبقاءً على ماله.

---

١ هو يعقوب بن إبراهيم بن حَبيب بن خنيس بن سعد الكوفي، أبو يوسف (ت. ١٨٢هـ/٧٩٨م). القاضي، صاحبُ أبي حنيفة. كان فقيهًا عالمًا حافظًا. سمع أبا إسحاق الشيباني وسليمان التيمي ويحيى بن سعيد الأنصاري والأعمش وهشام بن عُروة وعطاء بن السائب ومحمّد بن إسحاق بن يسار. وجالس محمّد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، ثمّ جالس أبا حنيفة. وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة، وخالفه في مواضع كثيرة. وكان هو المقدّم مِن أصحاب الإمام وأوّل مَن وضع الكتب على مذهب أبي حنيفة وأملى المسائل ونشرها وبثّ علم أبي حنيفة في أقطار الأرض. ولِيَ قضاء بغداد، فلم يزل بها حتّى مات. وله: **الأمالي**، و**النوادر**، و**كتاب الخراج**، و**كتاب الآثار**. انظر: **أخبار أبي حنيفة وأصحابه** للصَّيمري، ص ٩٧-٩٨؛ **وفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٣٧٨/٦-٣٩٠؛ **والفوائد البهيّة** للكنوي، ص ٣٧٢-٣٧٣.

٢ هو محمّد بن الحسن بن فَرْقَد، أبو عبد الله الشيباني (ت. ١٨٩هـ/٨٠٥م). صاحب أبي حنيفة. أصله مِن قريةٍ على باب دمشق في وسط الغُوطة اسمها حَرَستا. وقدم أبوه مِن الشام إلى العراق، وأقام بواسط، فولد له بها محمّد. ونشأ بالكوفة. وطلب الحديث، ولقي جماعةً مِن أعلام الأئمّة، وحضر مجلس أبي حنيفة سنتين، ثمّ تفقّهَ على أبي يوسف، ونشر علمِ أبي حنيفة. له كتب كثيرة، منها: **المبسوط**، و**الجامع الكبير**، و**الجامع الصغير**، و**الزيادات**، و**السِّير الكبير**، و**المَخارج في الحِيَل**، و**الحُجّة على أهل المدينة**، و**الآثار**، و**الموطّأ** رواية عن مالك. ولمحمّد زاهد الكوثري: **بلوغ الأماني في سيرة محمّد بن الحسن الشيباني**. انظر: **أخبار أبي حنيفة وأصحابه** للصَّيمري، ص ١٢٥-١٣٣؛ **ووفيات الأعيان** لابن خلّكان، ١٨٤/٤-١٨٥؛ **والجواهر المُضيّة** لعبد القادر القرشي، ٤٢/٢-٤٤؛

٣ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٣/١.

٤ **مسند أحمد**، ٣٦٩/١١ (٦٧٥٦)؛ **سنن أبي داود**، ٣٦٦/١-٣٦٧ (٤٩٤)، كلاهما باختلاف يسير.

٥ ط س: لها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿وَمَن كَانَ﴾ مِن الأولياء والأوصياء ﴿فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بقَدْر حاجته الضروريّة وأُجرةِ / سَعْيه وخِدمته. وفي لفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف ما [١٠و] يدلّ على أنّ للوصيّ حقًّا لقيامه عليها.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ رَجلًا قال له عليه السلام:[١] «إنّ في حَجري يتيمًا، أفآكُلُ مِن ماله؟»، قال: «بالمعروف غيرَ مُتأثِّل مالًا، ولا واقٍ مالَك بماله»،[٢] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ وليّ اليتيم قال له: «أفأشرَب مِن لَبَن إبله؟»، قال: «إن كنت تَبغي ضالّتَها[٣] وتَلُوط حَوْضها[٤] وتَهنَأ جَرْباها[٥] وتَسقيها يومَ وِرْدها،[٦] فاشرَبْ غيرَ مُضرّ بنَسْل، ولا ناهكٍ في الحَلب»،[٧] وعن محمّد بن كعب: «يتقرّم كما يتقرّم البهيمة،[٨] ويُنزِل نفسه منزلةَ الأجير فيما لا بُدَّ منه»،[٩] وعن الشعبي: «يأكُل مِن ماله بقَدْر ما يُعين فيه»، وعنه: «كالمَيْتة يتناول عند الضرورة ويَقضي»،[١٠] وعن مجاهد: «يستسلف، فإذا أيسَرَ أدّى»،[١١] وعن سعيد بن جبير: «إن شاء شرِب فَضْل اللَّبَن، وركِب الظَّهْر، ولبِس ما يستُره مِن الثِّياب، وأخذ القُوتَ ولا يجاوزه؛ فإن أَيسَرَ قضاه، وإن أعسَرَ فهو في حِلّ»[١٢]

[١] أي: قال للنبيّ عليه السلام.

[٢] السنن الكبرى للبيهقي، ٤٦٥/٦ (١٢٦٧٠)؛ ونحوه في مصنّف ابن أبي شيبة، ٣٩١/٤ (٢١٣٧٧).

[٣] الضالّة مِن الإبِل: التي بمَضْيَعَة، لا يُعرَف لها مالكٌ. تهذيب اللغة للأزهري، ٣٢١/١١ «باب الداد واللام».

[٤] كلّ شيء لصق بشيء فقد لاط به يلُوط لَوْطًا. قوله: "تلُوط حَوْضَها"، أراد بـ"اللَّوْط" تطيينَ الحَوْض وإصلاحَه، وهو مِن اللُّصوق. تهذيب اللغة للأزهري، ١٨/١٤ «باب الطاء واللام».

[٥] أي: تُعالِج جَرَبَ إبِله بالقَطِران. والجَرَب: بَثْر يَعلُو أبدانَ الناس والإبِل. لسان العرب لابن منظور، «جرب»، «هنأ».

[٦] وِرْد الإبل: إذا رُدّت على الماء. الصحاح للجوهري، «ورد».

[٧] الكشّاف للزمخشري، ٤٧٤/١. وباختلاف يسير في موطّأ مالك رواية أبي مُصعَب الزهري، ١١٣/٢ (١٩٦٦)، وجامع البيان للطبري، ٤٢٠/٦-٤٢١.

[٨] قرَم يَقرِم قَرْمًا: إذا أكل أكلًا ضعيفًا. ويُقال: هو يتقرّم تقرُّمَ البَهْمَة. تهذيب اللغة للأزهري، ١٢٠/٩ «أبواب القاف والراء».

[٩] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٩/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٥/١.

[١٠] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٩/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٥/١.

[١١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٨/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٥/١.

[١٢] تفسير مجاهد، ص ٢٦٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٥/١.

وعن عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه: «إنّي أنزلتُ نفسي مِن مال الله عزّ وجلّ منزلةَ والِي اليتيم؛ إن استغنيتُ استعففتُ، وإن افتقرتُ أكلتُ بالمعروف، وإذا أيسرتُ قضيتُ».[١] و"استعفَّ" أبلغُ مِن "عَفَّ"، كأنّه يطلب زيادة العِفّة.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ بعد ما راعيتم الشرائط المذكورة. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح للاهتمام به. ﴿فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾ بأنّهم تَسَلَّموها وقبَضوها وبَرِئت عنها ذِمَمُكم، لِما أنّ ذلك أبعدُ مِن التُّهمة وأنفَى للخصومة وأدخلُ في الأمانة وبراءة الساحة، وإن لم يكن ذلك واجبًا عند [١٠ظ] أصحابنا، فإنّ الوصيّ مصدِّق في الدفع مع اليمين، / خلافًا لمالك والشافعي رحمهما الله تعالى.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: محاسِبًا، فلا تخالِفوا ما أُمِرتم به ولا تجاوِزوا ما حدَّ لكم.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ شروع في بيان أحكام المواريث بعد بيان أحكام أموال اليتامى المنتقلةِ إليهم بالإرث. والمراد بـ"الأقرَبين" المتوارِثون منهم. و"مِن" في ﴿مِمَّا﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿نَصِيبٌ﴾، أي: لهم نصيب كائن ممّا ترك. وقد جُوّز تعلّقها بـ﴿نَصِيبٌ﴾.

﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ إيرادُ حكمهنّ على الاستقلال دون الدَّرْج في تضاعيف أحكامهم -بأنْ يُقال: "للرِّجال والنساء"... إلخ مثلًا-[٢] للاعتناء بأمرهنّ والإيذانِ بأصالتهنّ في استحقاق الإرث والإشارةِ مِن أوّل الأمر إلى تفاوتِ ما بين نصيبَي الفريقَين والمبالغةِ في إبطال حكم الجاهليّة؛

---

[١] السنن الكبرى للبيهقي، ٦/٧ (١١٠٠١). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ١/٤٧٥-٤٧٦. وله شاهد في موطّأ مالك برواية محمّد بن الحسن الشيباني، ص ٢٦٠ (٧٤٠).

[٢] م س - مثلا [”صح“ في هامش م].

فإنّهم ما كانوا يورِّثون النساء والأطفالَ، ويقولون: إنّما يَرِث مَنْ يحارِب ويذُبّ عن الحَوْزة.[١]

رُوي أنّ أوس بن ثابت الأنصاري[٢] خلّف زوجتَه أمّ كُحّةَ[٣] وثلاثَ بناتٍ، فزَوَى أبناءُ عمّه سُويدٌ وعَرفطةُ -أو قتادةُ وعَرفجةُ- ميراثَه عنهنّ على سُنّة الجاهليّة، فجاءت أمّ كُحّةَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فشكَتْ إليه، فقال: «ارجِعِي حتّى أنظُرَ ما يُحدِث الله تعالى»، فنزلت، فأرسل إليهما: «إنّ الله قد جعل لهنّ نصيبًا ولم يبيّن، فلا تُفرِّقَا مِن مال أوس شيئًا حتّى يُبيّنَ»، فنزل ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾... إلخ، فأعطى أمّ كُحّةَ الثُّمُنَ والبناتِ الثُّلُثَيْن والباقي لابنَي العمّ.[٤] وهو دليل على جواز تأخير البيان عن الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ بدل / مِن ﴿ما﴾ الأخيرةِ بإعادة الجارّ، [١١و]
وإليها يعود الضمير المجرور. وهذا البدل مراد في الجملة الأولى أيضًا، محذوفٌ للتعويل على المذكور. وفائدته دفعُ توهّم اختصاص بعض الأموال ببعض الوَرَثة كالخَيْل وآلات الحرب للرِّجال، وتحقيقُ أنّ لكلٍّ مِن الفريقين حقًّا مِن كلّ ما جلّ ودقّ.

﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ نصب على أنّه مصدر مؤكِّد كقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء، ١١/٤]، كأنّه قيل: قِسْمةً مفروضةً، أو على الحاليّة، إذ المعنى: ثبَتَ لهم نصيب كائن ممّا ترك الوالدان والأقربون حالَ كونه مفروضًا، أو على الاختصاص،

---

١ فُلان يذُبّ عن حَريمه ذَبًّا، أي: يدفع عنهم. وحَوْزة المَرأة: فَرْجها. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٩٦/١٤ «باب الذال والباء»؛ ١١٧/٥ «باب الحاء والزاء».

٢ هو أوس بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي الأنصاري. صحابيّ. أخو حسّان بن ثابت الشاعرِ. شهد العقبة الثانية وبدرًا. قيل: إنّه قُتل في وقعة أُحد، وقيل: تُوفّي في خلافة عثمان بالمدينة. انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ٣١٤/١؛ والأعلام للزركلي، ٣١/٢.

٣ أشار الحافظ ابن حَجَر في ترجمتها إلى أنّها "أمّ كُجّة" بضمّ الكاف وتشديدِ الجيم، بما نصّه: «وأمّا المَرأة فلم يُختلَف في أنّها أمّ كُجّةَ بضمّ الكاف وتشديدِ الجيم، إلّا ما حَكى أبو موسى عن المُستغفِري أنّه قال فيها: أمّ كُحْلَةَ، بسُكون المُهمَلة بعدها لامٌ». الإصابة لابن حجر، ٤٩١/١٤. أثبتناه كما وقع في نسخة المؤلّف.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/١ (النساء، ٧/٥)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٦١/٢ (النساء، ٧/٥)، كلاهما باختلاف يسير. ونحوها في جامع البيان للطبري، ٤٥٧/٦-٤٥٨.

أي: أَعني نصيبًا مقطوعًا[١] مفروضًا واجبًا لهم. وفيه دليل على أنّ الوارث لو[٢] أَعرض عن نصيبه لم يسقُط حقُّه.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ أي: قِسمةَ التركة. وإنّما قُدّمت مع كونها مفعولًا؛ لأنّها المبحوث عنها، ولأنّ في الفاعل تعدّدًا، فلو رُوعي الترتيبُ يَفُوت تجاوُب أطراف الكلام. ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي:[٣] ممّن لا يَرِثُ ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ﴾ مِن الأجانب ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: أَعطُوهم شيئًا مِن المال المقسوم المدلول عليه بـ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾. وقيل: الضمير لـ﴿مَا﴾،[٤] وهو أمرُ نَدْبٍ كُلّف به البالغون مِن الوَرَثة تطييبًا لقلوب الطوائف المذكورة وتصدّقًا عليهم، وقيل:[٥] أمرُ وجوبٍ، ثمّ اختُلف في نَسْخه. ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وهو أن يدْعوا لهم، ويستقلّوا ما أَعطَوْهم، ويعتذروا مِن ذلك، ولا يَمُنّوا عليهم.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أمرٌ للأوصياء بأنْ يخشَوا الله تعالى ويتّقُوه في أمر اليتامى، فيفعلوا بهم ما يُحبّون أن يُفعَل بذَراريّهم / الضِّعاف بعد وفاتهم، أو لمَن حضَر المريضَ مِن العُوّاد عند الإيصاء بأنْ يخشَوْا ربّهم أو يخشَوْا أولادَ المريض، ويُشفِقوا عليهم شفقتهم على أولادهم، فلا يتركوا أن يُضَرّ بهم بصرف المال عنهم، أو للوَرَثة بالشفقة على مَن حضر القِسمة مِن ضعفاء الأقارب واليتامى والمساكين، متصوِّرين أنّهم لو كانوا أولادَهم بقُوا خَلفهم ضِعافًا مثلَهم، هل يجوِّزون حِرمانهم، أو للمؤمنين [١١ظ]

---

[١] س – مقطوعًا.
[٢] م: إذا [«صح» في الهامش].
[٣] ط س – أي.
[٤] في الآية السابقة.
[٥] وفي هامش م: بتضمين معنى الأمر.

أن[١] ينظروا للوَرَثة، فلا يُسرِفوا في الوصيّة.

و﴿لَوْ﴾ بما في حَيّزها صلة لـ﴿الَّذِينَ﴾ على معنى: وَلْيَخْشَ الذين حالُهم وصفتهم أنّهم لو شارفوا أن يخلِفوا وَرَثةً ضِعافًا خافوا عليهم الضِّياعَ. وفي ترتيب الأمر عليه إشارة إلى المقصود منه والعلّةِ فيه، وبعثٌ على الترحّم وأن يُحِبّ لأولاد غيره ما يُحِبّ لأولاد نفسه، وتهديدٌ للمُخالِف بحال أولاده.

وقُرئ: "ضُعَفَاءَ"،[٢] و"ضُعَافَى"،[٣] و"ضَعَافَى".[٤]

﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في ذلك. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها. ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أمَرَهم بالتقوى -التي هي غاية الخشية- بعد ما أمَرَهم بها مراعاةً للمَبدَأ والمنتهَى، إذ لا نفعَ للأوّل بدون الثاني، ثمّ أمَرَهم بأنْ يقولوا لليتامى مثلَ ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحُسنِ الأدب، أو للمريض ما يصُدّه عن الإسراف في الوصيّة وتضييعِ الوَرَثة ويذكِّره التوبة وكلمةَ الشهادة، أو لحاضري القِسمة عُذْرًا ووَعْدًا حَسَنًا، أو يقولوا في الوصيّة ما لا يؤدّي إلى تجاوز الثُّلث.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

وقوله تعالى:[٥] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ استئناف جِيءَ به لتقرير مضمونِ ما فُصّل مِن الأوامر والنواهي. ﴿ظُلْمًا﴾ أي: على وجه الظلم، أو ظالمين.[٦] ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ﴾ أي: مِلْءَ بُطونهم ﴿نَارًا﴾ أي: ما يجُرّ إلى النار

---

١ س: أي.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مُحيصِن والزهري وابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٠.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ١/٤٧٨؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٣/٥٣٠.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ١/٤٧٨؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٣/٥٣٠.

٥ ط س - وقوله تعالى.

٦ م: ﴿أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ أي: على وجه الظلم، أو ظالمين. استئناف جِيءَ به لتقرير مضمون ما فُصّل مِن الأوامر والنواهي. | والمثبت مِن نسختَي ط س، وهو الأنسب، ولعلّ التغيير بإشارة المصنّف.

ويؤدِّي إليها. وعن أبي بُرْدةَ[١] رضي الله عنه[٢] أنّه قال صلّى الله عليه وسلّم: «يَبعَث الله تعالى[٣] قومًا مِن قُبورهم يتأجّج أفواهُهم نارًا»، فقيل: «مَن هم؟»»، فقال عليه السلام: «ألم تَرَ أنّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾».[٤]

[١٢و] ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ / أي: سيدخلون نارًا هائلةً مبهَمةَ الوصف. وقُرئ بضمّ الياء مخفَّفًا[٥] ومشدَّدًا[٦] مِن "الإصلاء"[٧] و"التصلية"، يقال: صَلَى النارَ: قاسَى حَرَّها؛ وصَلَيتُه: شَوَيتُه؛ وأَصْلَيتُه وصَلّيتُه: ألقيتُه فيها.

و"السعير" فَعِيلٌ بمعنى مفعول، مِن "سَعَرتُ النارَ" إذا ألهبْتَها. رُوي أنّ آكِلَ مالِ اليتيم يُبعَث يومَ القيامة، والدُّخانُ يخرج مِن قَبره ومِن فِيهِ وأَنفه وأذُنَيه وعَينَيه، فيعرِف الناس أنّه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا.[٨] ورُوي أنّه لمّا نزلت هذه الآية ثَقُلَ ذلك على الناس، فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالكلّية، فصَعُبَ الأمرُ على اليتامى، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ الآية.[٩]

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ

---

١ كذا في الأصول الخطّية. ولم نقف على الرواية مِن أبي بُرْدةَ، لعلّه أبو بَرْزة الأسلمي، وهو نضلة بن عبيد (ت. ٦٠هـ/٦٧٩-٨٠م [؟]). صحابيّ، شهِد فتحَ مكّةَ، ثمّ تحوّل إلى البصرة، ثمّ غزا خرسان ومات بها. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٩٨/٤-٣٠٠؛ **والاستيعاب** للنَّمَري، ١٤٩٥/٤.

٢ س - رضي الله عنه.

٣ س - تعالى.

٤ **مسند أبي يعلى**، ٤٣٤/١٣ (٧٤٤٠)؛ **صحيح ابن حِبّان**، ٣٧٧/١٢ (٥٥٦٦). وفي مطبوعَيهما: "أبي بَرْزة" بدلَ "أبي بُرْدة".

٥ قرأ بها ابن عامر وعاصم مِن رواية أبي بكر. **النشر** لابن الجزري، ٢٤٧/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة وأبي البَرَهْسَم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٣١.

٧ وفي هامش م: إذ جعلُ المخفّف مِن "صَلَيْتُه" بمعنى "شَوَيْتُه" بعيدٌ. «منه».

٨ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٩/١؛ ونحوها في **جامع البيان** للطبري، ٤٥٤/٦.

٩ **مسند أحمد**، ١٤٠/٥ (٣٠٠٠)؛ **سنن أبي داود**، ٤٩٣/٤ (٢٨٧١). | ﴿... وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة، ٢٢٠/٢].

﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ شروع في تفصيل أحكام المواريث المجمَلة في قوله عزّ وجلّ: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾... إلخ [النساء، ٧/٤]. وأقسام الوَرَثة ثلاثةٌ: قسمٌ لا يسقُط بحال، وهم الآباء والأولاد والأزواج، فهؤلاء قسمان، والثالث الكَلالة. أي: يأمركم ويَعهَد إليكم ﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ أولادِ كلّ واحد منكم، أي: في شأن ميراثهم. بُدِئ بهم؛ لأنّهم أقرب الوَرَثة إلى الميّت وأكثرُهم بقاءً بعد المُورِث.

﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ جملة مستأنفة جِيءَ بها لتبيين الوصيّة وتفسيرها. وقيل: محلّها النصب بـ﴿يُوصِيكُمۡ﴾ على أنّ المعنى: يفرِض عليكم ويَشرَع لكم هذا الحكم؛ وهذا قريب ممّا رآه الفرّاء؛ فإنّه يُجرِي ما كان بمعنى القول مِن الأفعال مُجراه في حكاية الجملة بعده، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ الآية [المائدة، ٩/٥].

وقوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ﴾ لا بدّ له مِن ضمير عائد إلى "الأولاد" محذوفٍ ثِقَةً بظهوره، كما في قولهم: "السَّمْن مَنَوانِ[١] بِدِرْهَمٍ"،[٢] أي: للذَّكر منهم. وقيل: الألف واللام قائمٌ مَقامَه، والأصل: لِذَكرهم. و﴿مِثۡلُ﴾ صفة لموصوف محذوف، أي: للذَّكر منهم حظٌّ مثلُ حظّ الأُنثيَين.

والبداية ببيان حُكم الذَّكر لإظهار مزيّته على الأُنثى، كما أنّها المَناط في تضعيف حظّه. وإيثار اسمَي الذَّكر والأُنثى على ما ذُكر أوّلًا مِن الرِّجال والنساء / للتنصيص على استواء الكِبار والصِّغار مِن الفريقين في الاستحقاق، مِن غير دَخْل للبلوغ والكِبَر في ذلك أصلًا، كما هو زعمُ أهل الجاهليّة، حيث كانوا لا يورِّثون الأطفالَ كالنساء. [١٢ظ]

﴿فَإِن كُنَّ﴾ أي: الأولاد. والتأنيث باعتبار الخبر، وهو قوله تعالى: ﴿نِسَآءٗ﴾ أي: خُلَّصًا ليس معهنّ ذَكَر. ﴿فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ خبرٌ ثانٍ، أو صفة لـ﴿نِسَآءٗ﴾،

---

[١] المَنَا: الذي يُوزَن به، والتثنية: مَنَوانِ، والجمع: أمْناء. الصحاح للجوهري، «منا».

[٢] أي: مَنَوانِ منه بِدِرْهَم.

أي: نساءً زائداتٍ على اثنتَيْن. ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: المتوفَّى المدلولُ عليه بقرينة المقام.

﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي: المولودة ﴿وَاحِدَةً﴾ أي: امرأةً واحدةً ليس معها أخ ولا أخت. وعدم التعرّض للموصوف لظهوره ممّا سبق. ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ ممّا ترك. وقُرئ: "وَاحِدَةٌ"[1] على "كان" التامّة.

واختُلِف في البِنْتَيْن، فقال ابن عبّاس: «حُكمهما حُكم الواحدة؛ لأنّه تعالى جعل الثُّلُثَيْن لِما فوقهما».[2] وقال الجمهور: حُكمهما حُكم ما فوقهما؛ لأنّه تعالى لمّا بيّن أنّ حظّ الذَّكر مِثلُ حظّ الأُنثيَيْن إذا كان معه أُنثى -وهو الثُّلثان- اقتضى ذلك أنّ فرضهما الثُّلثان، ثمّ لمّا أَوهَمَ ذلك أن يُزاد النصيب بزيادة العدد، رُدَّ بقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾. ويؤيِّد ذلك أنّ البنت الواحدة لمّا استحقّت الثُّلث مع أخيها الأقوى منها في الاستحقاق، فلَأنْ تستحقّه مع مثلها أَولى وأَحرى؛ وأنّ البِنْتَيْن أَمَسُّ رَحِمًا مِن الأختَيْن، وقد فرض الله تعالى لهما الثُّلثَيْن، حيث قال تعالى: ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء، ١٧٦/٤].

﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: لأبَوَي الميّت. غُيّر النظم الكريم لعدم اختصاص حكمه بما قبله مِن الصُّوَر. ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ بدل منه بتكرير العامل، وُسّط بين المبتدأ الذي هو قوله تعالى: ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ وبين خبره الذي هو ﴿لِأَبَوَيْهِ﴾، ونُقل الخبريّة إليه تنصيصًا على استحقاق كلّ منهما السُّدُسَ، وتأكيدًا له بالتفصيل بعد الإجمال. وقُرئ: "السُّدْسُ"[3] بسكون الدال تخفيفًا، وكذلك "الثُّلْث" و"الرُّبْع" و"الثُّمْن". ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿ٱلسُّدُسُ﴾، والعامل
[١٣و] الاستقرار / المعتبَر في الخبر، أي: كائنًا ممّا ترك المتوفَّى. ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أو ولدُ ابنٍ، ذَكَرًا كان أو أُنثى، واحدًا أو متعدِّدًا؛ غيرَ أنّ الأب في صورة الأُنوثة بعد ما أخذ فرضه المذكور يأخذ ما بقيَ مِن ذَوِي الفروض بالعُصوبة.

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٤٧/٢-٢٤٨.

٢ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٢/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣١.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾ ولا ولدُ ابنٍ، ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فحسبُ، ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ ممّا ترك، والباقي للأب. وإنّما لم يُذكَر[١] لعدم الحاجة إليه؛ لأنّه لمّا فُرض انحصار الوارث في أبوَيه وعُيّن نصيب الأمّ، عُلِم أنّ الباقي للأب. وتخصيص جانب الأمّ بالذِّكر وإحالةُ جانب الأب على دلالة الحال -مع حصول البيان بالعكس أيضًا- لِما أنّ حظّها أخصرُ واستحقاقَه أتمُّ وأوفرُ، أو لأنّ استحقاقه بطريق العُصوبة دون الفرض.[٢] هذا إذا لم يكن معهما أحد الزوجين؛ أمّا إذا كان معهما ذلك، فلِلأمّ ثُلث ما بقيَ بعد فرض أحدهما، لا ثُلث الكلّ كما قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما؛ فإنّه يُفضي إلى تفضيل الأمّ على الأب مع كونه أقوى منها في الإرث بدليل إضعافه عليها عند انفرادهما عن أحد الزوجين وكونِه صاحبَ فرض وعصبة، وذلك خلاف وضع الشرع.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ أي: عددٌ ممّن له أخوّة مِن غير اعتبار التثليث، سواء كانت مِن جهة الأبوَيْن أو مِن جهة أحدهما، وسواء كانوا ذُكورًا أو إناثًا أو مختلِطين، وسواء كان لهم ميراث أو كانوا محجوبين بالأب. ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾. وأمّا السُّدس الذي حجبوها عنه، فهو للأب عند وجوده، ولهم عند عدمه، وعليه الجمهور. وعند ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه لهم على كلّ حال؛ خَلَا أنّ هذا الحَجْب عنده لا يتحقّق بما دون الثلاث وبالأخَوات الخُلَّص. وقُرئ: "فَلِإِمِّهِ"[٣] بكسر الهمزة إتباعًا لِما قبلها.[٤]

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، والجملة متعلّقة بما تقدَّم جميعًا، لا بما يَليها وحدَه، أي: هذه الأنصِباء للوَرَثة مِن بعد إخراجِ وصيّةٍ ﴿يُوصِى بِهَآ﴾ أي: الميّتُ. وقُرئ مبنيًّا للمفعول مخفَّفًا،[٥] ومَبنيًّا للفاعل مشدَّدًا.[٦] وفائدة الوصف

---

١ وفي هامش م: بأنْ يُقال: فلأبوَيْه الثُّلُثان. «منه».

٢ م س - أو لأنّ استحقاقه بطريق العُصوبة دون الفرض ["صح" في هامش م س].

٣ قرأ بها حمزة والكِسائي. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

٤ وفي هامش م: بكسر الهمزة إتباعًا للجرّة، كشّاف. «منه». | الكشّاف للزمخشري، ٤٨٣/١.

٥ أي: "يُوصَى"، وهي قراءة ابن كثير وابن عامر وعاصم مِن رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

٦ أي: "يُوَصِّي"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣١.

[١٣ظ] الترغيبُ في الوصيّة والندبُ إليها. ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ / عطفٌ على ﴿وَصِيَّةٍ﴾، إلّا أنّه غير مقيَّد بما قُيّدت به مِن الوصف؛ بل هو مطلَق يتناول ما ثبت بالبيّنة أو الإقرار في الصحّة. وإيثار ﴿أَوْ﴾ المفيدةِ للإباحة على الواو للدلالة على تساويهما في الوجوب وتقدّمِهما على القِسمة مجموعَين أو مفردَين. وتقديم "الوصيّة" على "الدَّيْن" ذِكْرًا مع تأخّرها عنه حُكمًا لإظهار كمال العناية بتنفيذها لكونها مَظِنّةً للتفريط في أدائها ولاطّرادها بخلاف الدَّين.

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ الخطاب للوَرَثة. فـ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ مبتدأ، و﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ عطف عليه، و﴿لَا تَدْرُونَ﴾ خبره، و﴿أَيُّهُمْ﴾ مبتدأ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، و﴿نَفْعًا﴾ نصب على التميز منه، وهو منقول مِن الفاعليّة، كأنّه قيل: أيّهم قَرُب لكم نفعُه، والجملة في حَيّز النصب بـ﴿لَا تَدْرُونَ﴾، والجملة الكبيرة اعتراضيّة مؤكِّدة لوجوب تنفيذ الوصيّة، أي: أصولكم وفروعكم الذين يُتوفَّون[١] لا تَدرُون أيّهم أنفعُ لكم؛ أمَنْ يُوصِي ببعض ماله فيعرِّضَكم لثواب الآخرة بتنفيذ وصيّته، أم مَن لا يُوصِي بشيء فيوفِّرَ عليكم عرَضَ الدنيا؟

وليس المراد بنفي الدِّراية عنهم بيانَ اشتباه الأمر عليهم وكونَ أنفعيّة كلٍّ مِن الأوّل والثاني في حيّز الاحتمال عندهم مِن غير رُجحانِ أحدهما على الآخَر كما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «مَثَلُ أمّتِي مَثَلُ المَطَر، لا يُدرَى أوّلُه خيرٌ أمْ آخِرُه»؛[٢] فإنّ ذلك بمَعزِل مِن إفادة التأكيد المذكور والترغيبِ في تنفيذ الوصيّة؛ بل تحقيقُ أنفعيّة الأوّل في ضِمن التعريض بأنّ لهم اعتقادًا بأنفعيّة الثاني مبنيًّا على عدم الدراية. وقد أشيرَ إلى ذلك حيث عُبّر عن الأنفعيّة بأقربيّة النفع تذكيرًا لمَناط زعمهم وتعيينًا لمَنشأ خَطَئهم ومبالغةً في الترغيب المذكور بتصوير الثواب الآجِل بصورة العاجل، لِما أنّ الطِّباع مجبولة على حُبّ الخير الحاضر. كأنّه قيل: لا تَدْرون أيّهم أنفعُ لكم فتحكُمون نَظَرًا إلى ظاهر الحال وقُرْبِ المنال بأنفعيّة الثاني، مع أنّ الأمر بخلافه؛ فإنّ ثواب الآخرة

---

١ م س – الذين يَتَوَفَّون ["صح" في هامش م س].

٢ مسند أحمد، ١٧٤/٣١ (١٨٨٨١)؛ سنن الترمذي، ١٥٢/٥ (٢٨٦٩).

-لتحقّق وصوله إلى صاحبه ودوام تمتّعه به مع غاية قِصَر مدّةِ ما بينهما مِن الحياة الدنيا- أقربُ وأحضرُ، وعَرَضُ الدنيا -لسُرعة نفاده وفنائه- أبعدُ وأقصى.

وقيل: الخطاب للمُورِثين، والمعنى: لا تعلمون مَن أنفعُ لكم ممَن يَرِثُكم مِن أصولكم وفروعكم عاجلًا وآجِلًا، فتحَرَّوْا في شأنهم ما أوصاكم الله تعالى به، ولا تَعمِدوا إلى تفضيل بعض وحِرمان بعض. رُوي أنّ أحد المتوالدَيْن إذا كان أرفعَ دَرَجةً مِن الآخَر في الجنّة سأل أن يُرفَع إليه صاحبُه، فيُرفَع إليه بشفاعته.[١] قيل: فالجملة الاعتراضيّة حينئذ مؤكِّدة لأمر القِسمة. وأنت خبير بأنّه مُشعِر بأنّ مدار الإرث ما ذُكر مِن أقربيّة النفع مع أنّه العلاقة النَّسَبيّة.

[١٤و] ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ / نُصبت نَصْبَ مصدرٍ مؤكِّدٍ لفعل محذوف، أي: فرض الله ذلك فرضًا، أو لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾، فإنّه في معنى: يأمركم ويفرِض عليكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ أي: بالمصالح والرُّتَب ﴿حَكِيمًا﴾ في كلّ ما قضى وقدّر، فيدخل فيه الأحكام المذكورة دخولًا أوّليًّا.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ١٢﴾

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ مِن المال. شروع في بيان أحكام القسم الثاني مِن الوَرَثة. ووجهُ تقديم حُكم ميراث الرِّجال ممّا لا حاجةَ إلى ذِكره. ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: ولد وارث مِن بطنها، أو مِن صُلب بَنِيها، أو بَنِي بَنِيها، وإن سفَلَ، ذَكرًا كان أو أُنثى، واحدًا كان أو متعدِّدًا؛ لأنّ لفظ الولد ينتظم

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٩/٣؛ التفسير البسيط للواحدي، ٣٦٥/٦.

الجميعَ منكم أو مِن غيركم. والباقي لوَرَثتهنّ مِن ذوي الفروض والعَصَبات أو غيرهم، ولِبَيت المال إن لم يكن لهنّ وارث آخَرُ أصلًا.

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ على نحو ما فُصّل. و"الفاء" لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها؛ فإنّ ذِكر تقدير عدم الولد وبيانَ حُكمه مستتبعٌ لتقدير وجوده وبيان حُكمه. ﴿فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ مِن المال، والباقي لباقي الوَرَثة. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾ متعلِّق بكِلْتَا الصورتين، لا بما يَليه وحدَه. ﴿يُوصِينَ بِهَا﴾ في محلّ الجرّ على أنّه صفة لـ﴿وَصِيَّةٍ﴾، وفائدتُها ما مرّ مِن ترغيب الميّت في الوصيّة وحثّ الوَرَثة على تنفيذها. ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ عطفٌ على ﴿وَصِيَّةٍ﴾، سواء كان ثبوته بالبيّنة أو بالإقرار. وإيثار ﴿أَوْ﴾ على الواو لِما مرّ مِن الدلالة على تساويهما في الوجوب والتقدّمِ على القِسمة؛ وكذا تقديمُ الوصيّة على الدَّين ذِكرًا لِما ذُكر مِن إبراز كمال العناية بتنفيذها.

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ على التفصيل المذكور آنفًا، والباقي لبقيّة وَرَثَتكم مِن أصحاب الفروض والعَصَبات، أو ذوي الأرحام، أو لِبَيت المال إن لم يكن لكم وارث آخَرُ أصلًا.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ على النحو الذي فُصّل، ﴿فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ مِن المال، والباقي للباقِينَ. ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ الكلام فيه كما فُصّل في نظيرَيْه: فُرض للرَّجل / بحقّ الزواج ضِعفُ ما فُرض للمرأة كما في النَّسَب [١٤ظ]
لمزيّته عليها وشرفه الظاهر؛ ولذلك اختُصّ بتشريف الخطاب، وهكذا قياس كلّ رجل وامرأة اشتركا في الجهة والقُرب، ولا يُستثنى منه[١] إلّا أولاد الأمّ والمعتَق والمعتَقة، ويستوي الواحدة والعدد منهنّ في الرُّبع والثُّمن.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ﴾ شروع في بيان أحكام القِسم الثالث مِن الوَرَثة المحتمِل للسقوط. ووجهُ تأخيره عن الأوّلَين بيّنٌ. والمراد بـ"الرَّجل" الميّت. وقوله تعالى: ﴿يُورَثُ﴾ على البناء للمفعول مِن "وَرِثَ"، لا مِن "أَوْرَثَ"، خبرُ ﴿كَانَ﴾،

---

[١] ط س: عنه.

أي: يُورَث منه ﴿كَلَٰلَةً﴾ الكَلالة في الأصل مصدرٌ بمعنى "الكَلال"، وهو ذَهاب القوّة مِن الإعياء،[١] استُعيرت للقَرابة مِن غير جهة الوالد والولد لضَعفها بالإضافة إلى قَرابتهما؛ وتُطلَق على مَن لم يخلِّف ولدًا ولا والدًا، وعلى مَن ليس بوالد ولا ولد مِن المخلَّفين بمعنى "ذِي كَلالة"، كما تُطلَق القَرابة على ذَوِي القَرابة. وقد جُوّز كونها صفةً، كالهَجاجة والفَقاقة للأحمَق. فنصبُها إمّا على أنّها مفعول له، أي: يُورَث منه لأجل القَرابة المذكورة، أو على أنّها حال مِن ضمير ﴿يُورَثُ﴾، أي: حالَ كونِه ذا كَلالة، أو على أنّها خبر لـ﴿كَانَ﴾، و﴿يُورَثُ﴾ صفة لـ﴿رَجُلٌ﴾، أي: إن كان رجل مَوروث ذا كَلالة ليس له والد ولا ولد.

وقُرئ: "يُورِثُ" على البناء للفاعل مخفَّفًا ومشدَّدًا،[٢] فانتصاب ﴿كَلَٰلَةً﴾ إمّا على أنّها حال مِن ضمير الفعل والمفعولُ محذوف، أي: يورِث وارثَه حالَ كونِه ذا كَلالة، وإمّا على أنّها مفعول به، أي: يورِث ذا كَلالة، وإمّا على أنّها مفعول له، أي: يورِث لأجل الكلالة.

﴿أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿رَجُلٌ﴾، مقيَّدٌ بما قُيّد به، أي: أو امرأة تورَث كذلك. ولعلّ فصلَ ذِكرها عن ذِكره[٣] للإيذان بشرفه وأصالته في الأحكام.

﴿وَلَهُۥٓ﴾ أي: للرَّجل. ففيه تأكيد للإيذان / المذكور، حيث لم يتعرّض لها بعد [١٥و] جرَيان ذِكرها أيضًا. وقيل: الضمير لكلٍّ منهما. ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي: مِن الأمّ فحسب، وقد قُرئ كذلك،[٤] فإنّ أحكام بني الأعيان والعَلّات[٥] هي التي ذُكرت في آخِر السورة الكريمة.[٦] والجملة في محلّ النصب على أنّها حال مِن ضمير ﴿يُورَثُ﴾، أو مِن ﴿رَجُلٌ﴾ على تقدير كون ﴿يُورَثُ﴾ صفةً له، ومَساقها لتصوير المسألة.

---

١ الإعياء: الكَلال. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٢٧٢/٢ «باب اللفيف مِن العين».

٢ أي: "يُورِثُ" مخفَّفًا و"يُوَرِّثُ" مشدَّدًا، وهما قراءتان شاذّتان، الأولى مرويّة عن الحسن، والثانية عن عيسى بن عمر الثقفي. المحتسَب لابن جنّي، ١٨٢/١.

٣ وفي هامش م: حيث لم يقل: وإن كان رجل أو امرأة يُورَث... إلخ. «منه».

٤ لعلّها قراءة سعد بن أبي وقّاص الشاذّة: "وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ مِنْ أُمِّهِ". شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣١.

٥ الأعيان: ولد الرجل مِن امرأة واحدة. وبَنُو العَلّات: بنو الرجل مِن أمّهاتٍ شَتّى. تهذيب اللغة للأزهري، ١٣١/٣ «باب العين والنون».

٦ انظر: النساء، ١٧٦/٤.

وذكرُ الكَلالة لتحقيق جرَيان الحكم المذكور، وإن كان مع مَن ذُكر وَرَثةٌ أخرى بطريق الكَلالة. وأمّا جرَيانه في صورة وجود الأمّ أو الجَدّة مع أنّ قَرابتهما ليست بطريق الكَلالة، فبالإجماع.

﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ مِن الأخ والأخت ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ مِن غير تفضيل للذّكر على الأنثى؛ لأنّ الإدْلَاء إلى الميّت[1] بمحض الأنوثة.

﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: أكثرَ مِن الأخ أو الأخت المنفرِدَين بواحد أو بأكثرَ. و"الفاء" لِما مرّ مِن أنّ ذِكر احتمال الانفراد مستتبعٌ لذِكر احتمال التعدّد. ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ يقتسمونه بالسَّوِيّة، والباقي لبقيّة الوَرَثة مِن أصحاب الفروض والعَصَبات.

هذا، وأمّا تجويز[2] أن يكون ﴿يُورَثُ﴾ في القراءة المشهورة مبنيًا للمفعول مِن "أَوْرَثَ" على أنّ المراد به الوارث، والمعنى: وإن كان رجل يُجعَل وارثًا لأجل الكَلالة[3] أو ذَا كَلالة[4] -أي: غيرَ والد أو ولد- ولذلك الوارث أخٌ أو أختٌ، فلكلّ واحد مِن ذلك الوارث وأخيه أو أختِه السُّدُسُ، فإن كانوا أكثرَ مِن ذلك -أي: مِن الاثنين، بأنْ كانوا ثلاثةً أو أكثرَ- فهم شركاءُ في الثُّلث الموزَّع للاثنين لا يُزاد عليه شيء، فبمَعزِل مِن السَّداد:

أمّا أوّلًا: فلأنّ المعتبَر على ذلك التقدير إنّما هو الأُخوّة بين الوارث وبين شَريكه في الإرث مِن أخيه أو أخته، لا ما بينه وبين مُورِثه مِن الأُخوّة التي عليها يترتّب حُكم الإرث وبها يَتِمّ تصوير المسألة؛ وإنّما المعتبَر بينهما الوِراثة بطريق الكَلالة، / وهي عامّة لجميع صُوَر القَرابات التي لا تكون بالوِلاد، فلا يكون نصيبُه ولا نصيبُ شَريكه ما ذُكر بعينه.[5] [١٥ظ]

---

[1] الإدْلَاء إلى الميّت: التوصّل إليه. أنيس الفقهاء لقاسم القونَوي، ص ١١٣.

[2] وفي هامش م: العلّامة الزمخشري والبيضاوي ومَن يقتدي بهما. «منه». | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٨٦/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٤/٢.

[3] وفي هامش م: على تقدير كون "يُجعَل" خبرًا لـ﴿كَانَ﴾. «منه».

[4] وفي هامش م: هو على تقدير كونه صفةً لـ﴿رَجُلٌ﴾ خبر لـ﴿كَانَ﴾، وعلى التقدير الأوّل حال مِن ضمير "يُجعَل". «منه».

[5] م ط س - فلا يكون نصيبُه ولا نصيبُ شَريكه ما ذُكر بعَينه ["صح" في هامش م س].

ومَن ادَّعى اختصاصَها بالأُخوّة لأمٍّ متمسِّكًا بالإجماع على أنّ المراد بالكَلالة ههنا أولادُ الأمّ، فقد اعترف ببطلان رأيه مِن حيث لا يحتسِب؛ كيف لا، ومبناه إنّما هو الإجماع على أنّ المراد بالأخوّة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٌ﴾ هو الأُخوّة لأمٍّ خاصّةً، حسبما شهِدت به القراءة المحكيّة والآيةُ الآتية في آخِر السورة الكريمة، ولولا أنّ الرجل عبارةٌ عن الميّت والأُخوّةَ معتبَرةٌ بينه وبين وَرَثته، لَمَا أمكَن كون الكلّ أولادَ الأمّ. ثمّ إنّ الكَلالة -كما نُبِّهتَ عليه- باقية على إطلاقها، ليس فيها شائبةُ اختصاصٍ بأولاد الأمّ، فضلًا عن الإجماع على ذلك، وإلّا لَاقتصَرَ البيان على حكمِ صورةِ انحصارِ الوَرَثة فيهم. وإنّما الإجماع فيما ذُكر مِن أنّ المراد بالأخ والأخت مَن كان لأمٍّ خاصّةً؛ وأنت خبير بأنّ ذلك في قوّة الإجماع على أنّ ﴿يُورَثُ﴾ مِن "وَرِثَ"، لا مِن "أَوْرَثَ"، فتدبَّرْ.

وأمّا ثانيًا: فلأنّه يقتضي أن يكون المعتبَر في استحقاق الوَرَثة للفرض المذكور أُخوّةَ بعضهم لبعض مِن جهة الأمّ فقط لِما ذُكر مِن الإجماع، مع ثُبوت الاستحقاق على تقدير الأُخوّة مِن الجهتين.

وأمّا ثالثًا: فلأنّ حكمَ صورةِ انفرادِ الوارث عن الأخ والأخت يبقى حينئذ غيرَ مبيَّن، وليس مِن ضرورةِ كونِ حظِّ كلٍّ منهما السُّدسَ عند الاجتماع كونُه كذلك عند الانفراد، ألا يُرى أنّ حظّ كلٍّ مِن الأختين الثُلثُ عند الاجتماع والنِّصفُ عند الانفراد؟

وأمّا رابعًا: فلأنّ تخصيص أحد الوَرَثة بالتوريث وجعْلَ غيرِه تَبَعًا له فيه مع اتّحاد الكلّ في الإدْلَاء إلى المُورِث ممّا لا عهدَ به.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في نظائره؛ خَلَا أنّ الدَّين ههنا موصوف بوصف الوصيّة جزيًا على قاعدة تقييد المعطوف بما قُيّد به المعطوف عليه، لاتّفاق الجمهور على اعتبار عدم المُضارّة فيه أيضًا. وذلك إنّما يتحقّق فيما يكون ثبوته بالإقرار في المرَض، كأنّه قيل: أو دَيْنٍ يوصَى به.

﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ حال مِن فاعلِ فعلٍ مضمَرٍ يدُلّ عليه المذكور وما حُذف مِن المعطوف اعتمادًا عليه، كما أنّ ﴿رِجَالٌ﴾ في قوله عزّ وجلّ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ﴾ [النور، ٢٤/٣٦-٣٧] على قراءة المبنيّ للمفعول فاعلٌ لفعلٍ يُنبئ عنه المذكور، ومِن فاعل الفعل المذكور والمحذوفِ اكتفاءً به على قراءة البناء للفاعل، أي: يوصِي بما ذُكر مِن الوصيّة والدَّين حالَ كونِه غيرَ مُضارّ للوَرَثة، بأنْ يوصِيَ بما زاد على الثُّلث، أو يكونَ الوصيّة لقصد الإضرار بهم دون القُربة، وبأنْ يُقِرّ في المرَض بدَين كاذبًا. وتخصيص هذا القيد بهذا المقام لِما أنّ الوَرَثة مَظِنّةٌ لتفريط الميّت في حقّهم.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لفعل محذوف، وتنوينه للتفخيم. و﴿مِنَ﴾ متعلِّقة بمضمَرٍ وقع صفةً له، مؤكِّدة لفخامته الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: يوصِيكم بذلك وصيّةً كائنةً مِن الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء، ٤/١١]. ولعلّ السِّرَّ في تخصيص كلٍّ منهما بمَحلّه الإشعارُ بما بين الأحكام المتعلّقة بالأصول والفروع وبين الأحكام المتعلِّقة بغيرهم مِن التفاوت حسَب تفاوتِ الفريضة والوصيّة، وإن كانت[١] كِلتاهما واجبةَ المراعاة. أو[٢] منصوب بـ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ على أنّه مفعول به، فإنّه اسمُ فاعلٍ معتمِدٌ على ذي الحال، أو منفيٌّ معنًى فيعمل في المفعول الصريح، ويعضُده القراءة بالإضافة،[٣] أي: غيرَ مُضارّ لوصيّة[٤] الله وعهده، لا في شأن الأولاد فقط كما قيل؛ إذ لا تعلّقَ لهم بالمقام؛ بل في شأن الوَرَثة المذكورة ههنا، فإنّ الأحكام المفصَّلة كلَّها مندرِجةٌ تحت قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء، ٤/١١]، جاريةٌ مَجرى تفسيره وبيانه.

ومُضارّتها الإخلالُ بحقوقهم ونَقْضُها[٥] بما ذُكر مِن الوصيّة بما زاد على الثُّلث والوصيّة لقصد الإضرار دون القُربة والإقرار / بالدَّين كاذبًا. وإيقاعها [١٦و] على الوصيّة مع أنّها واقعة على الوَرَثة حقيقةً، كما في قوله:

---

١ س: كان.

٢ السياق: مصدر مؤكِّد... أو منصوب...

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المحتسَب لابن جنّي، ١/١٨٣.

٤ وفي هامش م: اللام لتقوية العمل. «منه».

٥ س: نقضها.

يـا سـارقَ الـلَّيـلـةِ أهـلَ الـدارِ[1]

للمبالغة في الزَّجْر عنها بإخراجها مُخرَجَ مُضارّة أمر الله تعالى ومُضادّته. وجعلُ الوصيّة عبارةً عن الوصيّة بالثُّلث فما دونه يقتضي أن يكون ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ حالًا مِن ضمير الفعل المتعلِّق بالوصيّة فقط، وذلك يؤدِّي إلى الفصل بين الحال وعاملِها بأَجنَبيّ -هو المعطوف على ﴿وَصِيَّةً﴾- مع أنّه لا تنحسِم به مادّةُ المضارّة لبقاء الإقرار بالدَّين عن إطلاقه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمُضارّ وغيرِه. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجِل بالعقوبة، فلا يُغترّ بالإمهال. وإيراد الاسم الجليل مع كفاية الإضمار لإدخال الروعة وتربية المهابة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام التي تقدّمت في شُئون اليتامى والمواريث وغير ذلك. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: شرائعه المحدودة التي لا يجوز مجاوَزتها.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في جميع الأوامر والنواهي التي مِن جملتها ما فُصّل ههنا. وإظهار الاسم الجليل لِما ذُكر آنفًا. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ نصب على الظرفيّة عند الجمهور، وعلى المفعوليّة عند الأخفش. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لـ﴿جَنَّٰتٍ﴾ منصوبة حسب انتصابها. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدَّرة مِن مفعول ﴿يُدْخِلْهُ﴾. وصيغة الجمع بالنظر إلى جمعيّة ﴿مَنْ﴾ بحسَب المعنى، كما أنّ إفراد الضمير بالنظر إلى إفراده لفظًا.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ مِن دخول الجنّات الموصوفة بما ذُكر على وجه الخلود. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بكمال عُلوّ درجته. ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فَوْزَ وراءَه. وُصف الفَوْز -وهو الظَّفَر بالخير- بالعِظَم إمّا باعتبار متعلَّقه أو باعتبار ذاته؛ فإنّ الفَوْز بالعظيم عظيمٌ. والجملة اعتراض.

---

[1] الكتاب لسيبويه، ١/١٧٧.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٤﴾

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ولو في بعض الأوامر والنواهي. قال مجاهد: «فيما اقتُصَّ مِن المواريث».[1] وقال عكرمة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[2] «مَن لم يرضَ بقَسْم الله ويتعدَّ ما قال الله».[3] وقال الكلبي: «يَعني: ومَن يكفُر بقِسمة المواريث ويتعدَّ حدودَه استحلالًا».[4] والإظهار في موقع الإضمار للمبالغة في الزجر بتهويل الأمر وتربية المهابة. ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ شرائعَه / المحدودةَ في جميع الأحكام، [١٦ظ] فيدخُل فيها ما نحن فيه دخولًا أوّليًا.

﴿يُدْخِلْهُ﴾ وقُرئ بنُون العَظَمة في المَوضِعَين.[5] ﴿نَارًا﴾ أي: عظيمةً هائلةً لا يقادَر قدرها. ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ حال كما سبق. ولعلّ إيثارَ الإفراد ههنا نظرًا إلى ظاهر اللفظ، واختيارَ الجمع هناك نظرًا إلى المعنى للإيذان بأنّ الخلود في دار الثواب بصفة الاجتماع أجلبُ للإنس، كما أنّ الخلود في دار العذاب بصفة الانفراد أشدُّ في استجلاب الوَحشة. ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: وله مع عذاب الحريق الجُسمانيّ عذابٌ آخَرُ مبهَمٌ لا يُعرَف كُنهه، وهو العذاب الرُّوحانيّ، كما يُؤذِن به وصفه. والجملة حاليّة.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ١٥﴾

﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ شروع في بيان بعضٍ آخَرَ مِن الأحكام المتعلِّقة بالنساء إثرَ بيان أحكام المواريث. واللّاتي: جمعُ "التي" بحسب المعنى دون اللفظ، وقيل: جمع على غير قياس. والفاحشة: الفَعْلة القبيحة، أريدَ بها الزنا لزيادة قُبحه. والإتيان: الفِعْل والمباشَرة، يقال: "أتَى الفاحشةَ"، أي: فعلها وباشرها، وكذا: "جاءها" و"رهِقها" و"غشِيَها". وقُرئ: "بِالفَاحِشَةِ"،[6] فالإتيان بمعناه المشهور.

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٦/٤٩٠-٤٩١؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٢/٢٤.

[2] م - رضي الله عنهما.

[3] التفسير البسيط للواحدي، ٦/٣٧٦.

[4] التفسير البسيط للواحدي، ٦/٣٧٦.

[5] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

[6] قراءة شاذّة، ذكرها الطبري في جامع البيان، ٦/٤٩٨، ونسبها إلى عبد الله بن معسود رضي الله عنه.

و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعل ﴿يَأْتِينَ﴾، أي: اللّاتي يَفعلْنَ الزنا كائناتٍ مِن نسائكم، أي: مِن أزواجكم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة، ٣/٥٨]، وقولِه تعالى: ﴿مِن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء، ٢٣/٤]، وبه قال السدّي.

﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ خبر للموصول، و"الفاء" للدلالة على سببيّةِ ما في حيّز الصلة للحُكم، أي: فاطلُبوا أن يشهَد عليهنّ بإتيانها[1] أربعةٌ مِن رجال المؤمنين وأحرارهم. ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ عليهنّ بذلك ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: فاحبِسوهنّ فيها واجعلوها سِجْنًا عليهنّ. ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ﴾ إلى أن يستوفِيَ أرواحَهنّ ﴿ٱلْمَوْتُ﴾. وفيه تهويل للموت وإبرازٌ له في صورةِ مَن يتولّى قبْضَ الأرواح وتَوَفّيَها، أو يتوفّاهنّ / ملائكةُ الموت. ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: [١٧و] يَشرَع لهنّ حكمًا خاصًّا بهنّ. ولعلّ التعبيرَ عنه بـ"السبيل" للإيذان بكونه طريقًا مسلوكًا، فليس فيه دلالة على كونه أخفَّ مِن الحَبْس كما قاله أبو مُسلِم.[2]

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ﴾ هُما: الزاني والزانية بطريق التغليب. قال السدّي: «أُريدَ بهما البِكْران منهما»،[3] كما يُنبئ عنه كون عقوبتهما أخفَّ مِن الحَبس المخلَّد، وبذلك يندفع التكرار؛ خَلَا أنّه يبقى حكم الزاني المحصَن مبهَمًا لاختصاص العقوبة الأُولى بالمحصَنات وعدمِ ظهور إلحاقه بأحد الحُكمين

---

[1] وفي هامش م: فاحشة. «منه».

[2] هو محمّد بن بحر، أبو مسلم الأصفهاني (ت. ٣٢٢هـ/٩٣٤م). مِن متكلّمي المعتزلة. كان عالمًا بالتفسير وبغيره مِن صنوف العلم. وله شعر. ولي أصفهان وبلاد فارس للمقتدر العبّاسي، واستمرّ إلى أن دخل ابن بُويه أصفهان سنة ٣٢١هـ، فعُزل. مِن كتبه: **جامع التأويل لمحكم التنزيل في التفسير**، أربعة عشر مجلدًا، جمع سعيد الأنصاري الهندي نصوصًا منه وردت في تفسير الرازي، وسمّاها: **ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل**. ومن كتبه: **الناسخ والمنسوخ**، وكتاب في النحو. انظر: **بغية الوعاة** للسيوطي، ٥٩/١؛ و**الأعلام** للزركلي، ٥٠/٦. | أورد قولَه الرازي في تفسيره، ٥٢٨/٩-٥٢٩.

[3] انظر: **جامع البيان** للطبري، ٤٩٩/٦؛ وتفسير الرازي، ٥٣١/٩.

دلالةً لخفاء الشركة في المَناط. ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أي: بالتوبيخ والتقريع، وقيل: بالضرب بالنِّعال أيضًا. والظاهر أنّ إجراء هذا الحُكم أيضًا إنّما يكون بعد الثبوت؛ لكنْ تُرِك ذِكره تعويلًا على ما ذُكر آنفًا.

﴿فَإِن تَابَا﴾ عمّا فعلَا مِن الفاحشة بسبب ما لَقِيَا مِن زواجر الأذيّة وقوارع التوبيخ، كما يُنبئ عنه "الفاء". ﴿وَأَصْلَحَا﴾ أي: أعمالَهما، ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا﴾ بقطع الأذيّة والتوبيخ، فإنّ التوبة والصلاح ممّا يَمنع استحقاقَ الذمّ والعقاب.

وقد جُوّز أن يكون الخطاب للشُّهود الواقِفِين على هَنَاتهما[١] ويُرادَ بـ"الإيذاء" ذَمُّهما وتعنيفُهما وتهديدُهما بالرَّفع إلى الوُلاة، وبـ"الإعراض" عنهما تركُ التعرّض لهما بالرفع إليهم.

قيل: كانت عقوبة الفريقين المذكورَين في أوائل الإسلام على ما مرّ مِن التفصيل، ثمّ نُسخ بالحدّ لِما رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «خُذُوا عنّي، خُذُوا عنّي! قد جعل الله[٢] لهنّ سبيلًا؛ الثَّيِّب يُرجَم والبِكر يُجلَد».[٣] وقيل: هذه الآية سابقة على الأولى نزولًا، وكانت عقوبة الزُّناة مطلَقًا الأذَى، ثمّ الحَبْسُ، ثمّ الجَلْدُ والرَّجْمُ. وقد جُوّز[٤] أن يكون الأمر بالحَبس غيرَ منسوخ بأنْ يُترَكَ ذِكر الحدّ لكونه معلومًا بالكتاب والسنّة، ويوصَى بإمساكهنّ في البيوت بعد إقامة الحدّ صيانةً لهنّ عن مِثل ما جرى عليهنّ بسبب الخروج مِن البيوت / والتعرّضِ للرجال. ولا يخفى أنّه ممّا لا يساعده النظم الكريم. [١٧ظ]

وقال أبو مسلم -وقد عَزَاه إلى مجاهد-: «إنّ الأُولى في السّحّاقات، وهذه في اللَّوّاطين، وما في سورة النُّور في الزُّناة والزَّواني»،[٥] متمسِّكًا بأنّ المذكور في الأولى صيغةُ الإناث خاصّةً، وفي الثانية صيغةُ الذُّكور، ولا ضرورةَ إلى المصير

---

[١] هَنُ المَرأةِ: فَرْجُها. القاموس المحيط للفيروزآبادي، «هنو».

[٢] ط س - الله.

[٣] الحديث بمعناه مع اختلاف بالزيادة في صحيح مسلم، ١٣١٦/٣ (١٦٩٠)؛ ومسند أحمد، ٣٣٨/٣٧ (٢٢٦٦٦).

[٤] وفي هامش م: كشّاف، قاضي. «منه». | انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٥/٢.

[٥] أورده الرازي في تفسيره، ٥٢٨/٩.

إلى التغليب على أنّه لا إمكانَ له في الأولى؛ ويأباه الأمر باستشهاد الأربعة، فإنّه غير معهود في الشرع فيما عَدَا الزِّنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ مبالِغًا في قبول التوبة ﴿رَّحِيمًا﴾ واسعَ الرحمة. وهو تعليل للأمر بالإعراض.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧﴾

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ استئناف مَسوق لبيانِ أنّ قبول التوبة مِن الله تعالى ليس على إطلاقه كما يُنبئ عنه وصفه تعالى بكونه توّابًا رحيمًا؛ بل هو مقيَّد بما سينطِق به النصّ الكريم. فقوله تعالى ﴿ٱلتَّوْبَةُ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ خبرُه. وقوله تعالى ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بما تعلَّق به الخبر مِن الاستقرار، فإنّ تقديم الجارّ والمجرور على عامله المعنويّ ممّا لا نزاعَ في جوازه، وكذا الظرفُ، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ضمير المبتدأ المستكِنّ فيما تعلَّق به الخبر على رأيِ مَن[1] جَوّز تقديم الحال على عاملها المعنويّ عند كونهما ظرفًا أو حرفَ جرٍّ، كما سبق في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران، ٩٧/٣].

وأيًا ما كان، فمعنى كون التوبة عليه سبحانه صدورُ القبول عنه تعالى. وكلمة ﴿عَلَى﴾ للدلالة على التحقّق البتّةَ بحُكم جَري العادة وسبق الوعد، حتّى كأنّه مِن الواجبات عليه سبحانه؛ وهذا مرادُ مَن قال: كلمة ﴿عَلَى﴾ بمعنى "مِنْ". وقيل: هي بمعنى "عند". وعن الحسن:[2] «يعني: التوبة التي يقبلها الله تعالى».[3] وقيل: أي: التوبة التي أوجب الله تعالى على نفسه بفضله قبولَها. وهذا يشير إلى أنّ قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ صفة لـ﴿ٱلتَّوْبَةُ﴾ بتقدير متعلَّقه مَعرفةً على رأيِ مَن

---

[1] وفي هامش م: هو الشيخ جمال الدين ابن مالك. «منه».

[2] أي: الحسن البصري.

[3] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٣/٣؛ التفسير البسيط للواحدي، ٣٨٨/٦.

جَوّز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: إنّما التوبة الكائنة على الله تعالى.
[١٨و] والمراد بـ﴿السُّوٓءَ﴾ / المَعصية، صغيرةً كانت أو كبيرةً. وقيل: الخبر ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾.

وقوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلِّق بما تعلَّق به الخبر، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن الضمير المستكِنّ في متعلَّق الخبر، وليس فيه ما في الوجه الأوّل مِن تقديم الحال على العامل المعنويّ، إلّا أنّ الذي يقتضيه المقام ويستدعيه النظام هو الأوّل، لِما أنّ ما قبله مِن وصفه تعالى بكونه توّابًا رحيمًا إنّما يقتضي بيانَ اختصاصِ قبولِ التوبة منه تعالى بالمذكورين، وذلك إنّما يكون بجعْل قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ﴾... إلخ خبرًا. ألا يُرى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾... إلخ [النساء، ١٨/٤]، فإنّه ناطقٌ بما قُلنا، كأنّه قيل: إنّما التوبة لهؤلاء، لا لهؤلاء.

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن فاعل ﴿يَعْمَلُونَ﴾، أي: يعملون السُّوء ملتبِسين بها، أي: جاهلين سُفهاءَ، أو بـ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على أنّ "الباء" سببيّة، أي: يعملونه بسبب الجهالة؛ لأنّ ارتكاب الذّنب ممّا يدعو إليه الجهل، وليس المراد به عدمَ العلم بكونه سُوءًا؛ بل عدم التفكّر في العاقبة كما يفعله الجاهل.

قال قتادة: «اجتمع أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فرأَوْا أنّ كلّ شيء عُصِي به ربُّه فهو جهالة، عَمْدًا كان أو خَطَأً».[١] وعن مجاهد: «مَن عصى الله تعالى فهو جاهل حتّى يَنزَع عن جهالته».[٢] وقال الزجّاج: «يعني بقوله ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ اختيارَهم اللّذّة الفانيةَ على اللّذّة الباقية».[٣]

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أي: مِن زمان قريب، وهو ما قبل حضور الموت كما يُنبِئ عنه ما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ﴾... إلخ [النساء، ١٨/٤]؛ فإنّه صريح في أنّ وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تُقبَل فيه التوبة، فبقِيَ ما وراءه في حيّز القبول.

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٠٧/٦؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٣/٣. وفي مطبوعهما: "أو غيره" بدلَ "أو خطأ".

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٨/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٥/٢. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٥٠٧/٦-٥٠٨.

٣ معاني القرآن للزجّاج، ٢٩/٢.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «قبل أن يَنزِل به سلطان الموت».[١] وعن الضحّاك: «كلّ توبة قبل الموت فهو قريب».[٢] وعن إبراهيمَ النخَعي: «ما لم يُؤخذ / بكَظَمِه»،[٣] وهو مَجرى النَّفَس. وروى أبو أيّوبَ[٤] عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ الله تعالى يَقبل توبة العبد ما لم يُغَرغِر».[٥] وعن عطاء: «ولو قَبل موته بفُوَاق ناقة».[٦] وعن الحسن:[٧] أنّ إبليسَ قال حين أُهبطَ إلى الأرض: «وعِزّتِك لا أفارِق ابنَ آدمَ ما دام رُوحه في جَسَده»، فقال تعالى: «وعِزّتي لا أُغلق عليه بابَ التوبة ما لم يُغرغِرْ».[٨] [١٨ظ]

و﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة، أي: يتوبون بعضَ زمان قريب، كأنّه سُمّي ما بين وجود المعصية وبين حضور الموت زمانًا قريبًا، ففي أيّ جُزء تاب مِن أجزاء هذا الزمان، فهو تائب.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورِين مِن حيث اتّصافُهم بما ذُكر. وما فيه مِن معنى البُعد باعتبار كونهم بانقضاء ذكرهم في حكم البعيد. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحد ممّن يصلُح للخطاب. وهو مبتدأ،

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/١. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٥١٢/٦.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/١؛ جامع البيان للطبري، ٥١٣/٦، وفي مطبوعه: "شيء" بدل "توبة".

٣ جامع البيان للطبري، ٥١٨/٦ (النساء ١٨/٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/١.

٤ هو خالد بن زيد بن كُليب بن ثعلبة، أبو أيّوب الأنصاري (ت. ٤٩هـ/٦٦٩م). صحابيّ. مِن بني النجّار. شهد العقبة وبدرًا وأُحدًا والخندق وسائر المشاهد. وكان شجاعًا صابرًا تقيًّا مُحبًّا للغزو والجهاد. عاش إلى أيّام بني أميّة. وكان يسكن المدينة، فرحل إلى الشام. ولمّا غزا يزيد القسطنطينيّة في خلافة أبيه معاوية، صحبه أبو أيّوب غازيًا، فحضر الوقائع ومرض، فأوصى أن يوغل به في أرض العدوّ، فلمّا تُوفّي دُفن في أصل حصن القسطنطينيّة. ولعبد الحفيظ ابن عثمان الطائفي: جلاء القلوب وكشف الكروب في مناقب سيّدنا أبي أيّوب. انظر: الاستيعاب للنّمري، ١٦٠٦/٤-١٦٠٧؛ والأعلام للزركلي، ٢٩٥/٢-٢٩٦.

٥ لم نقف عليه مِن رواية أبي أيّوب -لعلّه الأنصاري-، لكنّه ورد عن ابن عمرَ بنفس الألفاظ في مسند أحمد، ٣٠٠/١٠ (٦١٦٠).

٦ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٧/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/١. | فُواق الناقة: رُجوع اللّبَن في ضَرعها بعد حَلْبها. تقول العرب: ما أقام عندي فُواقَ ناقةٍ. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٥٤/٩ «باب القاف والفاء».

٧ أي: الحسن البصري.

٨ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/١. ونحوه في تفسير السمرقندي، ٣١٥/١.

خبرُه قوله تعالى: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. وما فيه مِن تكرير الإسناد لتقوية الحكم. وهذا وعدٌ بقبول توبتهم إثرَ بيانِ أنّ التوبة لهم. و"الفاء" للدلالة على سببيّتها للقبول.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مبالِغًا في العلم والحكمة، فيَبني أحكامه وأفعالَه على أساس الحكمة والمصلحة. والجملة اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبلها. وإظهار الاسم الجليل في مَوضع الإضمار للإشعار بعلّة الحُكم؛ فإنّ الألوهيّة مَنشأ لاتّصافه تعالى بصِفات الكمال.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تصريح بما فُهم مِن قَصْر القبول على توبة مَن تاب مِن قريب، وزيادةُ تعيين له ببيان أنّ توبة مَن عَداهم بمنزلة العدم. وجمعُ ﴿السَّيِّئَات﴾ باعتبار تكرّر وقوعها في الزمان المَديد، لا لأنّ المراد بها جميع أنواعها، وبما مرّ مِن السُّوء نوعٌ منها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ حرفُ ابتداء، والجملة الشرطيّة بعدها غاية لِما قبلها، / أي: ليس قبولُ التوبة للذين يعملون [١٩و]
السيّئاتِ إلى حضور موتهم وقولِهم حينئذ: ﴿إِنِّى تُبْتُ﴾. وذكرُ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ لمزيد تعيين الوقت. وإيثار ﴿قَالَ﴾ على "تاب" لإسقاط ذلك عن درجة الاعتبار والتحاشي عن تسميته توبةً.

﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ عطفٌ على الموصول الذي قبله، أي: ليس قبولُ التوبة لهؤلاء ولا لهؤلاء. وإنّما ذُكر هؤلاء مع أنّه لا توبةَ لهم رأسًا مبالغةً في بيان عدم قبول توبة المسوِّفين، وإيذانًا بأنّ وجودها كعدمها؛ بل في تكرير حرف النفي في المعطوف إشعار خفيٌّ بكون حال المسوِّفين في عدم استتباع الجَدوى أقوى مِن حال الذين يموتون على الكفر. والمراد بالموصولَين إمّا الكُفّار خاصّةً، وإمّا الفُسّاق وحدَهم، وتسميتُهم في الجملة الحاليّة كُفّارًا للتغليظ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران، ٣/٩٧]،

وإمّا مَن يعُمّ الفريقين جميعًا، فالتسمية حينئذ للتغليب. ويجوز أن يراد بالأوّل الفَسَقة، وبالثاني الكَفَرة، ففيه مبالغة أخرى.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الفريقين. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بتَرامي حالهم في الفظاعة وبُعدِ منزلتهم في السُّوء. وهو مبتدأ، خبرُه: ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ﴾ أي: هيّأنا لهم ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾. تكرير الإسناد لِما مرّ مِن تقوية الحكم. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بكون العذاب مُعَدًّا لهم. وتنكير العذاب ووصفُه للتفخيم الذاتيّ والوصفيّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ كان الرجل إذا مات قريبُه يُلقي ثَوبه على امرأته أو على خِبائها[1] ويقول: "أَرِثُ امرأتَه كما أَرِثُ مالَه"، فيَصير بذلك أحقَّ بها مِن كلّ أحد، ثمّ إن شاء تزوّجها بلا صَداق غيرَ الصَّداق الأوّل، وإن شاء زَوّجها غيرَه / وأخذ صَداقها ولم يُعطِها منه شيئًا، [١٩ظ]
وإن شاء عضَلها لتَفتديَ بما ورِثتْ مِن زوجها، وإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل إلقاء الثوب فهي أحقُّ بنفسها؛ فنُهُوا عن ذلك، وقيل لهم: لا يَحلّ لكم أن تأخذوهنّ بطريق الإرث على زعمكم كما تُحاز المواريث وهُنّ كارهات لذلك أو مُكرَهات عليه. وقيل: كانوا يُمسِكونهنّ حتّى يَمُتنَ ويَرِثوا منهنّ، فقيل لهم: لا يَحلّ لكم ذلك وهُنّ غيرُ راضيات بإمساككم.

وقُرئ: "لَا تَحِلُّ"[2] بالتاء الفَوقانيّة، على أنّ ﴿أَن تَرِثُواْ﴾ بمعنى الوِراثة. وقُرئ: "كُرْهًا"[3] بضمّ الكاف، وهو لغة، كـ"الضُّعْف" و"الضَّعْف".

---

[1] وفي هامش م: الخِباء كـ"كِساء"، مِن الأبنية، يكون مِن وَبَرٍ أو صُوفٍ أو شَعَرٍ، قاموس. «منه». | القاموس المحيط للفيروزآبادي، «خبأ».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مقسم ونعيم بن ميسرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٢.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف، واختلف في رواية هشام عن ابن عامر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

وكان الرجل إذا تزوّج امرأةً ولم تكن مِن حاجته، حَبَسَها مع سُوء العِشرة والقَهر وضيَّق عليها لتفتديَ منه بمالها وتختلِعَ، فقيل لهم: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ عطفًا على ﴿تَرِثُوا﴾، و﴿لَا﴾ لتأكيد النفي، والخطاب للأزواج. والعَضْل: الحَبْس والتضييق، ومنه "عضَلت المرأةُ بولدها" إذا اختنقتْ رَحِمُها، فخرج بعضه وبقي بعضه. أي: ولا أن تضيّقوا عليهنّ.

﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: مِن الصَّداق بأنْ يَدفعْنَ إليكم بعضه اضطرارًا، فتأخذوه منهنّ. وإنّما لم يُتعرّض لفعلهنّ إيذانًا بكونه بمنزلة العدم لصدوره عنهنّ اضطرارًا. وإنّما عُبّر عن ذلك بالذَّهاب به لا بالأخذ ولا بالإذهاب للمبالغة في تقبيحه ببيان تضمّنه لأمرينِ كلٌّ منهما محظورٌ: شنيعُ الأخذِ والإذهابُ؛[1] لأنّه عبارة عن الذَّهاب مستصحبًا به.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ على صيغة الفاعل مِن "بَيَّنَ" بمعنى "تَبَيَّنَ". وقُرئ على صيغة المفعول،[2] وعلى صيغة الفاعل[3] مِن "أَبَانَ" بمعنى "تَبَيَّنَ"، أي: بيّنةِ القُبح مِن النُّشوز وشكاسةِ الخُلُق وإيذاءِ الزوج وأهلِه بالبَذاء والسَّلاطة؛ ويعضُده قراءة أُبيّ: "إِلَّا أَنْ يُفْحِشْنَ عَلَيْكُمْ".[4] وقيل: الفاحشة: الزنا. / وهو [٢٠و] استثناء مِن أعمّ الأحوال أو أعمّ الأوقات أو أعمّ العِلَل، أي: ولا يَحلّ لكم عَضْلهنّ في حال مِن الأحوال أو في وقت مِن الأوقات أو لعِلّة مِن العِلَل إلّا في حال إتيانهنّ بفاحشة، أو إلّا في وقت إتيانهنّ بها، أو إلّا لإتيانهنّ بها؛ فإنّ السبب حينئذ يكون مِن جِهتهنّ وأنتم معذورون في طلب الخُلْع.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ خطاب للذين يُسيئون العِشرةَ معهنّ. والمعروف: ما لا يُنكره الشرع والمُروءَة. والمراد ههنا النَّصَفة في المَبيت والنَّفَقةِ والإجمالُ في المقال ونحو ذلك.

---

١ وفي هامش م: منهنّ.

٢ وفي هامش م: وهو ظ [الظاهر]. | أي: "مُبَيَّنَةٍ"، وهي قراءة ابن كثير وعاصم مِن رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/١٤٨-١٤٩.

٣ أي: "مُبِينَةٍ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. المحتسَب لابن جنّي، ١/١٨٣.

٤ يعني أُبيّ بن كعب، وهي قراءة شاذّة، أوردها الزمخشري في الكشّاف، ١/٤٩٠.

﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ وسَئِمتم صُحبتَهنّ بمقتضى الطبيعة، مِن غير أن يكون مِن قِبَلهنّ ما يُوجِب ذلك مِن الأمور المذكورة؛ فلا تُفارقوهنّ بمجرَّد كراهة النفس، واصبِروا على معاشَرتهنّ.

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ عِلّة للجزاء، أُقيمت مُقامه للإيذان بقوّة استلزامها إيّاه، كأنّه قيل: فإن كرِهتموهنّ فاصبِروا عليهنّ مع الكراهة؛ فلعلّ لكم فيما تَكرَهونه خيرًا كثيرًا ليس فيما تُحبّونه. و﴿عَسَىٰ﴾ تامّةٌ رافعةٌ لِما بعدها مستغنِيةٌ عن تقدير الخبر، أي: فقد قرُبتْ كراهتكم شيئًا وجعلُ[1] الله فيه خيرًا كثيرًا؛ فإنّ النفس ربّما تَكرَهُ ما هو أصلَحُ في الدِّين وأحمَدُ عاقبةً وأدنى إلى الخير، وتُحبّ ما هو بخلافه، فليكنْ نظرُكم إلى ما فيه خير وصلاح دون ما تهوى أنفسُكم.

وذِكر الفعل الأوّل مع الاستغناء عنه وانحصارُ العِلّيّة في الثاني للتوسّل إلى تعميم مفعوله ليُفيدَ أنّ ترتيب الخير الكثير مِن الله تعالى ليس مخصوصًا بمكروه دون مكروه؛ بل هو سُنّة إلهيّة جارية على الإطلاق حسب اقتضاء الحكمة، وأنّ ما نحن فيه مادّة مِن موادّها. وفيه مِن المبالغة في الحمل على ترك المفارقة وتعميمِ الإرشاد ما لا يخفى.

وقُرئ: "وَيَجْعَلُ"[2] مرفوعًا على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، والجملة حاليّة، تقديره: وهو -أي: ذلك الشيء- يَجعلُ الله فيه خيرًا كثيرًا. وقيل:[3] تقديرُه: "والله، يَجعلُ الله" بوضع المُظهَر مَوضِعَ المُضمَر.[4] وتنوين ﴿خَيۡرٗا﴾ لتفخيمه الذاتيّ، ووصفُه بالكثرة / لبيان فخامته الوصفيّة، والمرادُ به ههنا الولد الصالح، [٢٠ظ]
وقيل: الأُلفة والمَحبّة.

---

[1] كذا حرّكها المصنّف.

[2] قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة ابن عادل في اللباب، ٦/٢٦٢.

[3] وفي هامش م: سعد الدين. «منه». | يعني التفتازاني، انظر لقوله: حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٢٥٦ظ-٢٥٧و.

[4] ط س: على أنّه خبرٌ لمبتدأ محذوف، وقيل: تقديره: "والله يَجعل الله" بوضع المُظهَر مَوضِعَ المُضمَر، والجملة حاليّة، تقديره: وهو -أي: ذلك الشيء- يجعل الله فيه خيرًا كثيرًا.(1) |
(1) ط س - تقديره: وهو، -أي: ذلك الشيء- يجعل الله فيه خيرًا كثيرًا ["صح" في هامش ط س]. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ أي: تزوُّجَ امرأةٍ ترغَبون فيها ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ ترغَبون عنها بأنْ تطلِّقوها ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ﴾ أي: إحدى الزوجات. فإنّ المراد بـ"الزوج" هو الجنس. والجملة حاليّة بإضمار "قد"، لا معطوفة على الشرط، أي: وقد آتَيتم التي تريدون أن تطلِّقوها ﴿قِنطَارًا﴾ أي: مالًا كثيرًا، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ﴾ أي: مِن ذلك القِنطار ﴿شَيْـًٔا﴾ يسيرًا، فضلًا عن الكثير.

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ استئناف مَسوق لتقرير النهي والتنفير عن المَنهيّ عنه. والاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: أتأخذونه باهتِين وآثِمين، أو للبُهتان والإثم! فإنّ أحدهم كان إذا تزوّجَ امرأةً بَهَتَ التي تحته بفاحشةٍ حتّى يُلجِئَها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليَصرِفه إلى تزوّج الجديدة؛ فنُهُوا عن ذلك. والبُهتان: الكَذِب الذي يُبهِت المكذوبَ عليه ويُدهِشه، وقد يُستعمل في الفعل الباطل؛ ولذلك فُسّر ههنا بالظُّلم.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ إنكار لأخذه إثْرَ إنكارٍ وتنفيرٌ عنه غِبَّ تنفيرٍ. وقد بُولِغَ فيه؛ حيث وُجّه الإنكار إلى كيفيّة الأخذ إيذانًا بأنّه ممّا لا سبيلَ له إلى التحقّق والوقوع أصلًا؛ لأنّ ما يدخل تحت الوجود لا بدّ أن يكون على حال مِن الأحوال، فإذا لم يكن لشيء حال أصلًا، لم يكن له حظّ مِن الوجود قطعًا.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَأْخُذُونَهُۥ﴾، مفيدةٌ لتأكيد النكير وتقريرِ الاستبعاد، أي: على أيّ حال أو في أيّ حال تأخذونه، والحالُ / أنّه قد جرى بينكم وبينهنّ أحوال منافية له مِن الخَلْوة وتقرّرِ المهر [٢١و]
وثبوتِ حقّ خِدمتهنّ لكم وغير ذلك.

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ عطفٌ على ما قبله داخلٌ في حكمه، أي: أخذْنَ منكم عهدًا وثيقًا، وهو حقّ الصُّحبة والمعاشَرة، أو ما أوثَقَ الله تعالى عليهم

في شأنهنّ بقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة، ٢٢٩/٢]، أو ما أشار إليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أخذتُموهنّ بأمانة الله، واستحلَلْتم فُروجَهنّ بكلمة الله».[١]

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ شروع في بيان مَن يَحرُم نكاحُها مِن النساء ومَن لا يَحرُم. وإنّما خُصَّ هذا النكاح بالنهي ولم يُنظَم في سِلك نكاح المحرَّمات الآتية مبالغةً في الزجر عنه، حيثُ كانوا مُصرّين على تعاطيه. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما وجمهورُ المفسّرين: «كان أهل الجاهليّة يتزوّجون بأزواج آبائهم، فنُهُوا عن ذلك».[٢]

واسم الآباء ينتظم الأجدادَ مجازًا، فيثبُت حُرمة ما نكحوها نصًّا وإجماعًا. ويستقلّ في إثبات هذه الحُرمة نفسُ النكاح إذا كان صحيحًا، وأمّا إذا كان فاسدًا فلا بدّ في إثباتها مِن الوَطْء أو ما يَجري مَجراه مِن التقبيل والمَسّ بشهوة ونحوهما؛ بل هو المُثبِت لها في الحقيقة، حتّى لو وقع شيء مِن ذلك بحُكم مِلك اليَمين أو بالوجه المحرَّم يثبُت به الحُرمة عندنا، خلافًا للشافعي في المحرَّم. أي: لا تَنكِحوا التي نكحها آباؤكم. وإيثار ﴿مَا﴾ على "مَنْ" للذّهاب إلى الوصف. وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة على إرادة المفعول مِن المصدر.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بيان لِما نُكح على الوجهين. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء مِن ﴿مَا نَكَحَ﴾، مفيدٌ للمبالغة في التحريم بإخراج الكلام مُخرَجَ التعليق بالمُحال على طريقة قوله:

ولا عَيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيوفَهم بهنّ فُلُولٌ مِن قِراع الكَتائِبِ[٣]

---

١ صحيح مسلم، ٨٨٩/٢ (١٢١٨)؛ مسند أحمد، ٢٩٩/٢٤-٣٠١ (٢٠٦٩٥).

٢ تفسير الرازي، ١٦/١٠. وما في معناه في جامع البيان للطبري، ٥٢١/٦.

٣ البيت للنابغة الذُّبياني في ديوانه، ص ٦٠. والفُلول: جمعُ "فَلّ"، وفلول السيف: ثُلَمه. القِراع: المُجادَلة بالسُّيوف. تاج العروس للزبيدي، «فلل، قرع».

والمعنى: لا تَنكِحوا حلائلَ آبائكم إلّا مَن ماتت منهنّ. والمقصود سَدُّ طريق الإباحة بالكلّيّة. ونظيره قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف، ٤٠/٧].

وقيل: هو استثناء ممّا يستلزمه النهي ويستوجبه مباشرةُ المَنهيّ عنه، كأنّه قيل: لا تَنكِحوا ما نكح آباؤكم مِن النساء؛ فإنّه موجِب للعقاب، إلّا ما قد مضى؛ فإنّه مَعفوٌّ عنه.[١] وقيل:[٢] هو استثناء منقطِع، معناه: لكن ما قد سلف لا مُؤاخَذةَ عليه؛ لا أنّه مقرَّرٌ. ويأباهما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾؛ فإنّه تعليل للنهي وبيانٌ لكون المَنهيّ عنه في غاية القُبح مبغوضًا أشدَّ البُغض، [٢١ظ] / وأنّه لم يَزَل في حُكم الله تعالى وعلمِه موصوفًا بذلك، ما رَخّص فيه لأمّةٍ مِن الأُمَم، فلا يُلائِم أن يوسَّط بينهما ما يهوِّن أمره مِن ترك المؤاخذة على ما سلف منه.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ في كلمة ﴿سَآءَ﴾ قولانِ: أحدُهما: أنّها جارية مَجرى "بِئْسَ" في الذمّ والعمل، ففيها ضمير مبهَمٌ يفسِّره ما بعده، والمخصوص بالذمّ محذوف، تقديره: وساء سبيلًا سبيلُ ذلك النكاح، كقوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف، ٢٩/١٨]، أي: ذلك الماء. وثانيهما: أنّها كسائر الأفعال، وفيها ضميرٌ يعُود إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾، و﴿سَبِيلًا﴾ تمييز، والجملة إمّا مستأنَفة لا محلَّ لها مِن الإعراب، أو معطوفة على خبر ﴿كَانَ﴾، مَحكيّةٌ بقولٍ مضمَرٍ هو المعطوف في الحقيقة، تقديره: ومَقولًا في حقّه "ساء سبيلًا"؛ فإنّ ألسِنة الأُمَم كافّةً لم تَزَلْ ناطقةً بذلك في الأعصار والأمصار.

قيل: مراتب القُبح ثلاثٌ: القُبح العقليّ والقُبح الشرعيّ والقُبح العاديّ. وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكلّ ذلك؛ فقوله تعالى: ﴿فَٰحِشَةً﴾ مَرتبة قُبحه العقليّ، وقوله تعالى: ﴿وَمَقْتًا﴾ مَرتبة قُبحه الشرعيّ، وقوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ مَرتبة قُبحه العاديّ. وما اجتمع فيه هذه المراتب، فقد بلغ أقصى مراتب القُبح.

---

[١] م س - فإنّه مَعفوّ عنه ["صح" في هامش م س]. [٢] وفي هامش م: تفسير ثعلبي. | الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨١/٣.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾ ليس المراد تحريمَ ذواتهنّ؛ بل تحريمُ نكاحهنّ وما يُقصَد به مِن التمتّع بهنّ، وبيانُ امتناع وُرود مِلك النكاح عليهنّ وانتفاءِ محلّيّتهنّ له رأسًا. وأمّا حُرمة التمتّع بهنّ بمِلك اليمين في الموادّ التي يُتصوّر فيها قرارُ المِلك -كما في بعض المعطوفات على تقدير رِقّهنّ- فثابتةٌ بدلالة النصّ لاتّحاد المدار الذي هو عدم محلّيّة أبضاعهنّ للمِلك، لا بعبارته بشهادة سباق النظم الكريم وسياقِه.

وإنّما لم يوجِب المدارُ المذكورُ امتناعَ وُرود مِلك اليمين عليهنّ رأسًا، ولا حُرمةَ سببه الذي هو العقد أو ما يَجري مَجراه كما أوجَب حُرمةَ عقد النكاح وامتناعَ وُرود حُكمه عليهنّ؛ لأنّ مَورِد مِلك اليمين ليس هو البُضْعَ الذي هو مَورِد مِلك النكاح، حتّى يفُوتَ بفَوَات محلّيّته له كمِلك النكاح، فإنّه حيثُ كان مَورِده ذلك فات بفَوَات محلّيّته له قطعًا، وإنّما[1] مَورِده الرِّقبة الموجودة في كلّ رقيق، فيتحقّق بتحقّق محلّه حتمًا، ثمّ يزول بوقوع العِتق في الموادّ التي سبب حُرمتها[2] القَرابة النَّسَبيّة كالمذكورات، ويبقى في البواقي على حاله مستتبِعًا لجميع أحكامه المقصودة منه شرعًا. وأمّا حِلّ الوَطْء فليس مِن تلك الأحكام، فلا ضيرَ في تخلّفه عنه كما في المجوسيّة.

و"الأمّهات" تعُمّ الجَدّاتِ وإن عَلَوْنَ، و"البنات" تتناول بناتِهنّ وإن سَفَلْنَ، و"الأخَوات" ينتظمْنَ الأخواتِ مِن الجهات الثلاث، وكذا الباقياتُ. والعمّة: كلّ أنثى وَلَدَها مَنْ وَلَدَ / والِدَك. والخالَة: كلّ أنثى وَلَدَها مَنْ وَلَدَ والدتَك، قريبًا أو بعيدًا. و"بنات الأخ" و"بناتُ الأخت" تتناول القُربَى والبُعدَى. [٢٢و]

---

[1] س: وأمّا.

[2] ط س + محض.

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ نزّل الله تعالى الرَّضاعة منزلةَ النَسَب، حتّى سَمّى المُرضِعةَ أُمًّا للرضيع، والمراضَعةَ أختًا. وكذلك زوجُ المُرضِعة: أبوه وأبَوَاه جَدّاه، وأختُه عمّتُه، وكلُّ ولدٍ وُلد له مِن غير المرضِعة قبلَ الرَّضاع وبعده، فهُمْ إخوتُه وأخَواته لأبيه، وأمُّ المرضِعة جدّتُه، وأختُها خالتُه، وكلّ مَن وُلِدَ لها مِن هذا الزوج، فهُمْ إخوتُه وأخَواته لأبيه وأمِّه، ومَن وُلد لها مِن غيره، فهُمْ إخوتُه وأخَواته لأمّه.

ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «يَحرُم مِن الرَّضاع ما يَحرُم مِن النَسَب».[١] وهو حُكم كلّيّ جارٍ على عمومه. وأمّا أمُّ أخيه لأب وأختُ ابنِه لأمّ وأمُّ أمِّ ابنِه وأمُّ عمِّه لأب[٢] وأمُّ خالِه لأب، فليست حُرمتهنّ مِن جهة النَّسب حتّى تُخلَّ[٣] بعمومه ضرورة حِلّهنّ في صُوَر الرَّضاع؛ بل مِن جهة المصاهَرة؛ ألا يُرى أنّ الأُولى مَوطُوءةُ أبيه، والثانيةَ بنتُ مَوطُوءَته، والثالثةَ أمُّ مَوطُوءَته، والرابعةَ مَوطُوءةُ جَدّه الصحيحِ، والخامسةَ مَوطُوءةُ جَدّه الفاسدِ.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾ شروع في بيان المحرَّمات مِن جهة المصاهَرة إثرَ بيان المحرَّمات مِن جهة الرَّضاعة التي لها لُحمةٌ كلُحمة النَّسب. والمراد بـ"النساء" المنكوحات على الإطلاق، سواء كُنَّ مدخولًا بهنّ أو لا، وعليه جمهور العلماء.

وقد رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال في رجلٍ تزوَّجَ امرأةً ثمّ طلّقَها قبل أن يَدخُل بها: «إنّه لا بأسَ بأنْ يتزوّجَ ابنتَها، ولا يَحِلّ له أن يتزوّجَ أمَّها»،[٤] وعن عمرَ وعمرانَ بن الحُصَين:[٥] «أنّ الأمّ تَحرُم بنفس العَقد»،[٦]

---

١ صحيح البخاري، ١٧٠/٣ (٢٦٤٥)؛ مسند أحمد، ٢٤٠/٥-٢٤١ (٣١٤٤).

٢ م س - لأب ["صح" في هامش م س].

٣ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: يحلّ.

٤ ما في معناه في سنن الترمذي، ٤١٦/٣ (١١١٧)؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٢٥٩/٧-٢٦٠ (١٣٩١١). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٤٩٥/١.

٥ هو عمران بن حُصين بن عُبيد بن خلف الخُزاعي، أبو نُجَيد (ت. ٥٢هـ/٦٧٢م). مِن فضلاء الصحابة وفقهائهم. أسلَمَ عامَ خيبر. وكانت معه راية خُزاعة يومَ فتح مكّة. وبعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقّههم، وولّاه زِياد قضاءَها، وتُوفّي بها. روى عنه جماعة مِن تابعي أهل البصرة والكوفة. وهو ممّن اعتزل حرب صِفّين. انظر: الاستيعاب للنّمري، ١٢٠٨/٣؛ والأعلام للزركلي، ٧٠/٥.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/١.

وعن مسروق: «هي مرسَلة، فأرسِلوا ما أرسل الله»،[١] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٢] «أبهِموا ما أبهم الله»؛[٣] خلَا أنّه رُوي عنه وعن عليّ وزيد وابن عمرَ وابنِ الزُّبير رضي الله عنهم أنّهم[٤] قرءُوا: "وأُمَّهَاتُ نِسَائِكُم اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ"،[٥] وعن جابر روايتان،[٦] وعن سعيد بن المسيّب عن زيد:[٧] «أنّه إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها، كُرِه أن يَخلُف على أمّها، وإذا طلّقها قبل أن يدخُل بها، فإن شاء فَعَلَ»؛[٨] أقام الموت في ذلك مُقام الدخول، كما قام مَقامه في باب المَهر والعِدّة. ويَلحَق بهنّ المَوطُوءاتُ بوجه مِن الوجوه المعدودة فيما سبق والممسوساتُ ونظائرُهنّ. و"الأُمّهات" تعُمّ المرضِعاتِ، كما تعُمّ الجَدّاتِ حسبما ذُكر.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ الربائب: جمعُ "رَبِيبَة"، فَعِيلٌ بمعنى مفعول، والتاء للنقل إلى الاسميّة. والرَّبيب: ولدُ المرأة مِن آخَرَ، سُمّي به لأنّه يرُبّه غالبًا كما يرُبّ ولدَه، وإن لم يكن ذلك أمرًا مطّرِدًا، وهو المَعنيّ بكونهنّ في الحجور؛ فإنّ شأنهنّ الغالب المعتادَ أن يكنّ في حَضانة أمّهاتهنّ تحت حِماية أزواجهنّ، لا كونُهنّ كذلك بالفعل.

وفائدة وصفهنّ بذلك تقويةُ علّة الحُرمة وتكميلُها، كما أنّها النُّكتة في إيرادهنّ باسم الربائب دون بنات النساء؛ فإنّ كونهنّ بصدد احتضانهم لهنّ

---

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٩٠. ورُوي بمعناه في مصنّف ابن أبي شيبة، ٣/٤٨٤ (١٢٢٧١)؛ وفي السنن الكبرى للبيهقي، ٧/٢٩٥ (١٣٩٠٩).

٢ م - رضي الله عنهما.

٣ التفسير البسيط للواحدي، ٦/٤٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٩٥.

٤ س - أنّهم.

٥ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٩٥؛ اللباب لابن عادل، ٦/٢٩٣.

٦ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٩٥.

٧ هو زيد بن ثابت بن الضحّاك الخزرجي النجّاري، أبو خارجة، وقيل: أبو سعيد، وقيل: أبو عبد الرحمن (ت. ٤٥هـ/٦٦٥م). كاتبُ الوحي. كان مِن أعلم الصحابة والراسخين في العلم، وكان أعلمَهم بالفرائض. وكانت ترِدُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتبٌ بالسريانيّة، فأمر زيدًا، فتعلّمها، وكتب بعد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأبي بكر وعمر. واستخلفه عمر وعثمان على المدينة مرّات. روى عنه مِن الصحابة: ابن عمر وأبو سعيد وأبو هريرة وأنس وسهل بن سعد وسهل بن حنيف، ومِن التابعين: سعيد بن المسيّب والقاسم بن محمّد وسليمان بن يسار وأبان بن عثمان وخارجة وسليمان ابنا زيد بن ثابت، وغيرهم. انظر: الاستيعاب للنَّمري، ٢/٥٣٧-٥٤٠؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٢/٣٤٦-٣٤٧.

٨ الكشّاف للزمخشري، ١/٤٩٥. ورُوي ما في معناه في السنن الكبرى للبيهقي، ٧/٢٥٨ (١٣٩٠٧).

وفي شرف التقلّب في حجورهم وتحت حِمايتهم وتربيتِهم ممّا يُقوّي الملابسة والشَّبَه بينهنّ وبين أولادهم، ويستدعي إجراءَهنّ مُجرى بناتهم؛ لا تقييدُ الحُرمة بكونهنّ في حجورهم بالفعل كما رُوي عن عليّ رضي الله عنه، وبه أخذ داودُ.[1] ومذهب جمهور العلماء / ما ذُكر أوّلًا، بخلاف ما في قوله تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾؛ فإنّه لتقييدها به قطعًا. [٢٢ظ]

فإنّ كلمةَ ﴿مِّن﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿رَبَٰٓئِبُكُمُ﴾، أو مِن ضميرها المستكنّ في الظرف؛ لأنّه لمّا وقع صلةً تحمَّلَ ضميرًا، أي: وربائبكم اللاتي استقرَرْنَ في حجوركم كائناتٍ مِن نسائكم... إلخ؛ ولا مساغَ لجعله حالًا مِن ﴿أُمَّهَٰتُ﴾ أو ممّا أُضيفت هي إليه خاصّةً -وهو بيّنٌ لا سُترةَ به- ولا مع ما ذُكر أوّلًا ضرورةَ أنّ حاليّته مِن ﴿رَبَٰٓئِبُكُمُ﴾ أو مِن ضميرها تقتضي كون كلمة ﴿مِّن﴾ ابتدائيّةً، وحاليّته مِن ﴿أُمَّهَٰتُ﴾ أو ﴿نِسَآئِكُمۡ﴾ تستدعي كونَها بيانيّةً. وادّعاء كونها اتّصاليّةً منتظِمةً لمعنى الابتداء والبيان أو جعلُ الموصول صفةً للنساءَيْنِ مع اختلاف عاملَيهما ممّا يجب تنزيهُ ساحة التنزيل عن أمثاله، مع أنّه سعيٌ في إسكات ما نطَق به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم واتّفق عليه الجمهور حسبما ذُكر فيما قبلُ.

وأمّا ما نُقل مِن القراءة،[2] فضعيفةُ الرواية، وعلى تقدير الصحّة محمولةٌ على النَّسخ. ومعنى الدخول بهنّ إدخالُهنّ السِّتْرَ، و"الباء" للتعدية، وهي كناية عن الجِماع، كقولهم: بَنَى عليها وضرَب عليها الحِجابَ. وفي حُكمه اللَّمس ونظائرُه كما مرّ.

﴿فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ﴾ أي: فيما قبلُ ﴿دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾ أصلًا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: في نكاح الربائب. وهو تصريح بما أَشعَر به ما قبله. و"الفاء" الأولى لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ فإنّ بيان حُكم الدخول مستتبع لبيان حُكم عدمه.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾ أي: زوجاتُهم. سُمّيت الزوجة "حَليلةً" لحِلّها للزوج، أو لحلولها في محلّه، وقيل: لِحِلّ كلٍّ منهما إزارَ صاحبِه. وفي حكمهنّ مَزنيّاتُهم

[1] الكشّاف للزمخشري، ١/٤٩٦.

[2] أي: قراءة "وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُم اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ".

ومَن يَجرين مَجراهنّ مِن المَمسوسات ونظائرهنّ. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ لإخراج الأدعِياء دون أبناء الأولاد والأبناءِ مِن الرَّضاع؛ فإنّهم -وإن سَفَلوا- في حُكم الأبناء الصُّلبيّة.

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾ في حيّز الرفع عطفًا على ما قبله مِن المحرَّمات. والمراد به جمعُهما في النكاح، لا في مِلك اليمين. وأمّا جمعُهما في الوَطْء بمِلك اليمين، فمُلحَقٌ به بطريق الدلالة لاتّحادهما في المدار ولقوله عليه السلام: «مَن كان يؤمن بالله واليومِ الآخِر، فلا يَجمَعَنَّ ماءَه في رَحِم أختَيْن»،[1] بخلاف نفس مِلك اليمين؛ فإنّه ليس في معنى النكاح في الإفضاء إلى الوَطْء، ولا مستلزِمًا له؛ ولذلك يَصِحّ شَراءُ المجوسيّة دون نكاحها، حتّى لو وَطِئَهما لا يَحِلّ له وَطْءُ إحداهما حتّى يحرِّم[2] عليه وطءَ[3] الأخرى[4] بسبب مِن الأسباب، وكذا لو تزوّجَ أختَ أَمَته المَوطُوءة لا يَحِلّ له وَطْءُ إحداهما حتّى يحرِّم عليه الأخرى؛ لأنّ المنكوحة مَوطُوءة حكمًا، فكأنّه جَمَعَهما وَطْأً.

وإسناد الحُرمة إلى جمعهما -لا إلى الثانية منهما بأنْ يُقال: "وأخَواتُ نسائكم"- للاحتراز عن إفادة الحُرمة المؤبَّدة ما في المحرَّمات / السابقة، [٢٣و] ولكونه بمَعزِل مِن الدلالة على حُرمة الجمع بينهما على سبيل المَعيّة. ويشترك في هذا الحُكم الجمعُ بين المرأة وعمّتها ونظائرها، فإنّ مدار حُرمة الجمع بين الأختين إفضاؤه إلى قطعِ ما أمر الله بوصله، وذلك متحقِّق في الجمع بين هؤلاء؛ بل أَولى، فإنّ العمّة والخالةَ بمنزلة الأمّ، فقوله صلّى الله عليه وسلّم: «لا تُنكَح المرأةُ على عَمّتها، ولا على خالتها، ولا على ابنة أخِيها، ولا على ابنة أختها»[5] مِن قبيل بيان التفسير، لا بيانِ التغيير. وقيل: هو مشهور يجوز به الزيادة على الكتاب.

---

١ أخرجه الزيلعي في نصب الراية، ١٦٨/٣، وقال: «حديث غريب».
٢ كذا حرّكها المصنّف.
٣ كذا حرّكها المصنّف.
٤ س: الآخر.
٥ مسند أحمد، ٤٧٠/٢٢ (١٤٦٣٣). ورُوي ما في معناه في سنن الدارمي، ١٣٩٤/٣ (٢٢٢٤)؛ وسنن الترمذي، ٤٢٥/٣ (١١٢٦).

﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء منقطِع، أي: لكن ما قد مضى لا تؤاخَذون به. ولا سبيلَ إلى جعله متّصِلًا بقصد التأكيد والمبالغةِ كما مرّ فيما سلف؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تعليل لِما أفاده الاستثناء، فيتحتّم الانقطاعُ.

وقال عطاء والسدّي: «معناه: إلّا ما كان مِن يعقوبَ عليه السلام، فإنّه قد جمع بين لَيَا أمّ يَهُوذَا وبين رَاحِيلَ أمّ يوسفَ عليه السلام».[1] ولا يساعده التعليل لِما أنّ ما فعله يعقوبُ عليه السلام كان حلالًا في شريعته. وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان أهل الجاهليّة يحرِّمون ما حرّم الله تعالى إلّا امرأةَ الأب والجمعَ بين الأختَيْن».[2] ورَوى هشام بن عُبيد الله[3] عن محمّد بن الحسن رحمه الله أنّه قال: «كان أهل الجاهليّة يعرِفون هذه المحرَّماتِ إلّا اثنتَيْن: نكاح امرأة الأب والجمع بين الأختَيْن».[4] ألا يُرى أنّه قد عُقّب النهي عن كلٍّ منهما بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وهذا يُشير إلى كون الاستثناء فيهما على سَنَن واحد، ويأباه اختلافُ التعليلَين.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ بفتح "الصاد". وهُنَّ ذَوَات الأزواج أحصَنَهُنّ التزوّج أو الأزواج أو الأولياءُ، أي: أعَفَّهُنّ عن الوقوع في الحرام. وقُرِئَ على صيغة اسم الفاعل،[5]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٤/٣؛ التفسير البسيط للواحدي، ٤٢٦/٦.

[2] التفسير البسيط للواحدي، ٤٦٧/٦. وباختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٥٤٩/٦.

[3] هو هشام بن عُبيد الله الرازي (ت. ٢٢١هـ/٨٣٦م). فقيه حنفيّ. مِن أهل الريّ. أخذ عن أبي يوسف ومحمّد صاحبَي الإمام أبي حنيفة. مات محمّد بن الحسن في منزله بالريّ ودُفن في مقبرتهم. له: النوادر. انظر: الجواهر المُضيّة لعبد القادر القرشي، ٢٠٥/٢-٢٠٦؛ والأعلام للزركلي، ٨٧/٨.

[4] تفسير السمرقندي، ٣١٨/١؛ تفسير القرطبي، ١١٩/٥.

[5] أي: "وَالمُحْصِنَاتُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعلقمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٣.

فإنّهنّ أحصَنَّ فزوجَهنّ عن غير أزواجهنّ، أو أحصَنَّ أزواجَهنّ. وقيل: الصيغة للفاعل على القراءة الأولى أيضًا، وفتحُ الصاد محمولٌ على الشُّذوذ[١] كما في نظيرَيه: "مُلقَح" و"مُسهَب" مِن "أَلْقَحَ" و"أَسْهَبَ".

قيل: قد وَرَدَ "الإحصان" في القرآن بإزاءِ أربعةِ معانٍ، **الأوّل**: التزوّج، كما في هذه الآية الكريمة، **الثاني**: العِفّة، كما في قوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء، ٢٤/٤]، / **الثالث**: الحُرّيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النساء، ٢٥/٤]، **والرابع**: الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ [النساء، ٢٥/٤]، قيل في تفسيره: أي: أسلَمْنَ، وهي معطوفة على المحرَّمات السابقة. [٢٣ظ]

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا منها، أي: كائناتٍ مِن النساء. وفائدته تأكيد عمومها، لا دفعُ توهّم شمولها للرجال بناءً على كونها صفةً للأنفُس كما تُوهِّم.[٢]

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ استثناء مِن ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ استثناءَ النوع مِن الجنس، أي: ملكتموه. وإسناد المِلك إلى الأَيمان لِما أنّ سببه الغالبَ هو الصفة الواقعة بها. وقد اشتَهر ذلك في الأَرِقّاء، لاسيّما في إناثهم، وهُنَّ المرادة هھنا، رعايةً للمقابلة بينه وبين مِلك النكاح الواردِ على الحرائر. والتعبير عنهنّ بـ﴿مَا﴾ لإسقاطهنّ بما فيهنّ مِن قصور الرِّقّ عن رُتبة العقلاء.

وهي إمّا عامّة حسب عموم صلتها، فالاستثناء حينئذ ليس لإخراج جميع أفرادها مِن حُكم التحريم بطريق شمول النفي؛ بل بطريق نفي الشمول المستلزِم لإخراج بعضها، أي: حُرِّمت عليكم المحصَنات على الإطلاق إلّا المحصَنات اللاتي ملكتموهنّ، فإنّهنّ لَسْنَ مِن المحرَّمات على الإطلاق؛ بل فيهنّ مَن لا يحرُم نكاحُهنّ في الجملة، وهُنّ[٣] المَسبِيّات بغير أزواجهنّ،

---

[١] وفي هامش م: شَذَّ فتحُ عَينِ اسمِ الفاعل في ثلاثة ألفاظ: أحصن فهو مُحصَن، وألقح فهو مُلقَح، وأسهب فهو مُسهَب. لباب. | اللباب لابن عادل، ٢٩٧/٦.

[٢] م: توهّمه مكّي. «منه». | انظر: اللباب لابن عادل، ٢٩٩/٦.

[٣] ط س: ومِن.

أو مطلَقًا حسب اختلاف الرأيَيْن. وإمّا خاصّةً بالمذكورات،[١] فالمعنى: حُرِّمت عليكم المحصَنات إلّا اللاتي سُبِينَ، فإنّ نكاحهنّ مشروع في الجملة، أي: لغير مُلّاكهنّ.

وأمّا حِلّهنّ لهم بحكم مِلك اليمين، فمفهومٌ بدلالة النصّ لاتّحاد المَناط، لا بعبارته لِما عرفتَ مِن أنّ مَساق النظم الكريم لبيان حُرمة التمتّع بالمحرَّمات المعدودة بحُكم مِلك النكاح، وإنّما ثبوتُ حُرمة التمتّع بهنّ بحُكم مِلك اليمين بطريق دلالة النصّ، وذلك ممّا لا يَجري فيه الاستثناء قطعًا.[٢] وأمّا عدُّهنّ مِن ذَوَات الأزواج -مع تحقّق الفُرقة بينهنّ وبين أزواجهنّ قطعًا / بالتباين أو بالسَّبْي، على اختلاف الرأيَيْن- فمبنيٌّ على اعتقاد الناس، حيث كانوا حينئذ غافلين عن الفُرقة. [٢٤و]

ألا يُرى إلى ما رُوي عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه مِن أنّه قال: «أصَبْنا يومَ[٣] أَوْطَاس[٤] سَبَايَا لهنّ أزواجٌ، فكرِهْنا أن نقع عليهنّ، فسألنا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم -وفي رواية عنه: قُلنا: يا رسولَ الله- كيف نقع على نساءٍ قد عرَفنا أنسابَهنّ وأزواجَهنّ؟ فنزَلت ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾، فاستحلَلْناهنّ»،[٥] وفي رواية أخرى عنه: «ونادى مُنادِي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم: أَلَا لا تُوطَأ حاملٌ حتّى تضَعَ، ولا حائلٌ حتّى تَحيضَ»،[٦] فأباح وَطْأَهنّ بعد الاستبراء، وليس في ترتيب هذا الحُكم على نزول الآية الكريمة ما يدلّ على كونها مَسوقةً له؛ فإنّ ذلك إنّما يتوقّف على إفادتها له بوجه مِن وجوه الدلالات، لا على إفادتها بطريق العبارة أو نحوها.

هذا، وقد رُوي عن أبي سعيد رضي الله عنه أنّه قال: «إنّها نزلت في نساءٍ كُنَّ يهاجِرْنَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولهنّ أزواج، فيتزوّجُهنّ

---

١ وفي هامش م: أي: المَسبيّات غير أزواجهم.
٢ وفي هامش م: لأنّه تصرّف لفظيّ. «منه».
٣ س + بَذْر.
٤ أوطاس: وَادٍ بِدِيار هَوازِنَ. القاموس المحيط للفيروزآبادي، «وطس».
٥ مسند أحمد، ٢٢٣/١٨-٢٢٤ (١١٦٩١). ورُوي بمعناه في صحيح مسلم، ١٠٧٩/٢ (١٤٥٦).
٦ هو باختلاف يسير في مسند أحمد، ١٤٠/١٨ (١١٥٩٦)؛ وسنن أبي داود، ٢٤٨/٢ (٢١٥٧). والألفاظ مِن التفسير الوسيط للواحدي، ٣٤/٢.

بعضُ المسلمين، ثمّ يَقدَم أزواجُهنّ مهاجِرين، فنُهِي عن نكاحهنّ»،[١] فالمحصَنات حينئذ عِبارة عن مهاجِرات يُتحقّق أو يُتوقّع مِن أزواجهنّ الإسلام والمهاجرةُ؛ ولذلك لم يَزُلْ عنهنّ اسمُ الإحصان. والنهي لتحريم المحقَّق وتعرّفِ حال المتوقَّع، وإلّا فما عداهنّ بمَعزِل مِن الحُرمة واستحقاق إطلاق الاسم عليهنّ. كيف لا، وحين انقطعت العلاقة بين المَسبيّة وزوجها مع اتّحادهما في الدِّين، فلأَنْ ينقطع ما بين المهاجِرة وزوجها أحقُّ وأولى، كما يُفصح عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ الآية [الممتحنة، ٦٠/١٠].

﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد، أي: كتَبَ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تحريمَ هؤلاء كتابًا وفرَضه فرضًا. وقيل: منصوب على الإغراء بفعل مضمَر، أي: الزَموا كتابَ الله، و﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلِّق إمّا بالمصدر، وإمّا بمحذوف وقع حالًا منه. / وقيل: هو إغراءٌ آخَرُ مؤكِّدٌ لِما قبله، قد حُذف مفعوله لدلالة المذكور عليه، أو[٢] بنفس ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على رأي مَن جوّز تقديمَ المنصوب في باب الإغراء، كما في قوله: [٢٤ظ]

يا أيّها المائحُ[٣] دَلْوِي دُونَكا إنّي رأيتُ الناس يَحمَدونكا[٤]

وقُرئ: "كُتُبُ اللهِ"[٥] بالجمع والرفع، أي: هذه فرائض الله عليكم. وقُرئ: "كَتَبَ اللهُ"[٦] بلفظ الفعل.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ عطفٌ على ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾... إلخ. وتوسيط قوله تعالى: ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بينهما للمبالغة في الحمل على المحافظة على الحُرُمات المذكورة. وقُرئ على صيغة المبنيّ للفاعل،[٧] فيكون معطوفًا على الفعل المقدَّر،

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٢٨٥؛ اللباب لابن عادل، ٦/٢٩٨. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٦/٥٧٤.

[٢] السياق: منصوب على الإغراء بفعل مضمَر... أو بنفس ﴿عَلَيْكُمْ﴾...

[٣] وفي هامش م: وهو الذي يَدخل البِئر فيَملأ الدِّلاء. «منه». | انظر: المخصَّص لابن سِيده، ٢/٤٦٧.

[٤] أنشدتها جاريةٌ مِن بَني مازن. انظر لِقصّتها: خِزانة الأدب للبغدادي، ٦/٢٠٥.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وأبي حياة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن محمّد بن السميفَع. المحتسَب لابن جنّي، ١/١٨٥.

[٧] أي: "أَحَلَّ"، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٩.

وقيل: بل على ﴿حُرِّمَتْ﴾... إلخ؛ فإنّهما جملتان متقابِلتان مؤسِّستان للتحريم والتحليل المَنوطَين بأمر الله تعالى، ولا ضَيرَ في اختلاف المُسنَد إليه بحسَب الظاهر، لاسيّما بعد ما أُكّدت الأُولى بما يدلّ على أنّ المحرِّم هو الله تعالى.

﴿مَا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن المحرَّمات المعدودة، أي: أُحِلَّ لكم نكاح ما سِواهنّ انفرادًا وجمعًا. ولعلّ إيثارَ اسم الإشارة المتعرِّض لوصف المشار إليه وعنوانِه على الضمير المتعرِّض للذات فقط لتذكير ما في كلّ واحدة منهنّ مِن العنوان الذي عليه يدور حُكم الحُرمة، فيُفهَم مشاركةُ مَن في معناهنّ لهنّ فيها بطريق الدلالة؛ فإنّ حُرمة الجمع بين المرأة وعمّتها وبينها وبين خالتها ليست بطريق العبارة؛ بل بطريق الدلالة كما سلف.

وقيل: ليس المراد بالإحلال الإحلالُ مطلَقًا -أي: على جميع الأحوال- حتّى يرد أنّه يَلزَم منه حِلّ الجمع بين المرأة وعمّتها وبينها وبين خالتها؛ بل إنّما هو إحلالهنّ في الجملة، أي: على بعض الأحوال. ولا ريبَ في حِلّ نكاحهنّ بطريق الانفراد، ولا يقدَح في ذلك حُرمته بطريق الجمع؛ ألا يُرى أنّ حُرمة نكاح المُعتدّة والمطلَّقةِ ثَلاثًا والخامسةِ ونكاحِ الأَمَة على الحُرّة ونكاحِ الملاعنة لا تقدَح في حِلّ نكاحهنّ بعد العِدّة، / وبعد التحليل، وبعد تطليق الرابعة وانقضاءِ [٢٥و]
العِدّة، وبعد تطليق الحُرّة، وبعد إكذاب المُلاعِن نفسَه. وأنت خبير بأنّ الحِلّ يجب أن يتعلّق ههنا بما تعلَّق به الحُرمة فيما سلف؛ وقد تعلّق هناك بالجمع، فلا بدّ أن يتعلّق الحِلّ ههنا به أيضًا.

﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ متعلِّق بالفعلين المذكورَين على أنّه مفعول له؛ لكنْ لا باعتبار ذاتهما، بل باعتبار بيانهما وإظهارهما، أي: بُيّن لكم تحريم المحرَّمات المعدودة وإحلالُ ما سِواهنّ إرادةَ أن تَبتغوا ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾. والمفعول محذوف، أي: تَبتغوا النساءَ، أو متروك، أي: تفعلوا الابتغاءَ ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾ بصَرفها إلى مهورهنّ، أو بدلُ اشتمالٍ[١] مِن ﴿مَا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ بتقدير ضمير المفعول.

---

[١] السياق: ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ متعلِّق بالفعلين... أو بدلُ اشتمالٍ...

﴿مُحْصِنِينَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تَبْتَغُوا﴾. والإحصان: العِفّة وتحصينُ النفس عن الوقوع فيما يوجِب اللّوم والعقاب. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ حال ثانية منه، أو حال مِن الضمير في ﴿مُحْصِنِينَ﴾. والسِّفاح: الزنا والفُجور، مِن "السَّفْح" الذي هو صَبّ المَنِيّ؛ سُمّي به لأنّه الغرض منه. ومفعول الفعلين محذوف، أي: محصِنين فُروجَكم غيرَ مسافِحين الزّواني. وهي في الحقيقة حال مؤكِّدة؛ لأنّ المحصِن غيرُ مسافِح البتّةَ.

و﴿مَا﴾ في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ إمّا عبارة عن النساء، أو عمّا يتعلّق بهنّ مِن الأفعال؛ وعلى التقديرين فهي إمّا شرطيّة ما بعدها شرطُها، وإمّا موصولة ما بعدها صلتُها. وأيًّا ما كان، فهي مبتدأ، خبرُها على تقدير كونها شرطيّةً إمّا فعلُ الشرط أو جوابُه أو كلاهما على الخلاف / المعروف، [٢٥ظ] وعلى تقدير كونها موصولةً[١] قولُه تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾. و"الفاء" لتضمّنِ الموصول معنى الشرط. ثمّ على تقدير كونها عبارةً عن النساء، فالعائد إلى المبتدأ هو الضمير المنصوب في ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾، سواء كانت شرطيّةً أو موصولةً.

و﴿مِنْ﴾ بيانيّة أو تبعيضيّة، محلُّها النصبُ على الحاليّة مِن الضمير المجرور في ﴿بِهِ﴾. والمعنى: فأيُّ فرد استمتعتم به أو فالفردُ الذي استمتعتم به حالَ كونه مِن جنس النساء أو بعضَهنّ، فآتُوهنّ أجورهنّ. وقد رُوعِيَ تارةً جانب اللفظ فأُفردَ الضمير أوّلًا، وأخرى جانبُ المعنى فجُمع ثانيًا وثالثًا. وأمّا على تقدير كونها عبارةً عمّا يتعلّق بهنّ، فـ﴿مِنْ﴾ ابتدائيّة متعلِّقة بالاستمتاع، والعائدُ إلى المبتدأ محذوف. والمعنى: أيُّ فعل استمتعتم به مِن جهتهنّ مِن نكاح أو خَلْوة أو نحوهما أو فالفعلُ الذي استمتعتم به مِن قِبَلهنّ مِن الأفعال المذكورة، فآتُوهنّ أجورهنّ لأجله أو بمقابلته. والمراد بـ"الأجور" المهور؛ فإنّها أجور أبضاعهنّ.

﴿فَرِيضَةً﴾ حال مِن "الأجور"، بمعنى "مفروضةً"، أو نعتٌ لمصدر محذوف، أي: إيتاءً مفروضًا، أو مصدر مؤكِّد، أي: فُرِض ذلك فريضةً، أي: لهنّ عليكم.

---

[١] وفي هامش م: أي: خبرها على تقدير كونها موصولةً، قولُه تعالى...

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ﴾ أي: لا إثمَ عليكم فيما تَراضَيتم به مِن الحطّ عن المَهر أو الإبراءِ منه، على طريقة قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ﴾ إثرَ قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء، ٤/٤]، وقولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾.[1] وتعميمه للزيادة على المسمَّى لا يساعده رفعُ الجُناح مِن الرجال؛[2] لأنّها ليست مَظِنّةَ الجُناح، إلّا أن يُجعل الخطاب للأزواج تغليبًا، فإنّ أخذ الزيادة على المسمَّى مَظِنّةُ الجُناح على الزوجة. وقيل: فيما تَراضَيتم به مِن نَفَقة ونحوها. وقيل: مِن مُقام أو فِراق، ولا يساعده قوله
[٢٦و] تعالى: / ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾؛ إذ لا تعلّقَ لهما بالفريضة إلّا أن يكون الفِراق بطريق المخالعة.

وقيل: نزلت في المُتعة التي هي النكاح إلى وقت معلوم مِن يوم أو أكثَر. سُمّيت بذلك؛ لأنّ الغرض منها مجرَّد الاستمتاع بالمرأة واستمتاعها بما يُعطَى. وقد أُبيحت ثلاثةَ أيّامٍ حين فُتحت مكّةُ -شرّفها الله تعالى- ثمّ نُسخت لِما رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم أباحها، ثمّ أصبح يقول: «يا أيّها الناسُ، إنّي كنتُ أَمرتُكم بالاستمتاع مِن هذه النساء؛ أَلَا إنّ الله حَرَّمَ ذلك إلى يوم القيامة».[3] وقيل: أُبيحَ مرّتين وحُرّم مرّتين. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه رجع عن القول بجوازه عند موته، وقال: «اللّٰهمّ إنّي أتوب إليك مِن قولي بالمُتعة وقولي في الصَّرف».[4]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بمَصالح العباد ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شرَع لهم مِن الأحكام؛ ولذلك شرع لكم هذه الأحكام اللائقةَ بحالكم.

---

١ ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة، ٢/٢٣٧].

٢ أي: لا يُساعِد رفعُ الجُناح مِن الرجال تعميمَه للزيادة على المسمّى.

٣ هو باختلاف يسير في صحيح مسلم، ١٠٢٥/٢ (١٤٠٦)؛ ومسند أحمد، ٦٩/٢٤ (١٥٣٥١). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/١.

٤ الصَّرف: بَيع الثَّمَن بالثَّمَن جنسًا بجنس، كبيع الذهَب بالذهَب، أو بغير جنس، كبيع الذهَب بالفِضّة. كشّاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، ١٠٧٦/٢. انظر لتعليقات الزيلعي على هذه الرواية: تخريج أحاديث الكشّاف، ٣٠٢/١-٣٠٥ (٣١٤).

﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾

﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ﴾ ﴿مَنْ﴾ إمّا شرطيّة ما بعدها شرطُها، أو موصولة ما بعدها صلتُها. والظرف متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن فاعل ﴿يَسْتَطِعْ﴾، أي: حالَ كونِه منكم. وقوله تعالى: ﴿طَوۡلًا﴾ أي، غِنًى وسَعَةً، أو اعتلاءً ونَيلًا، وأصلُه الزيادة والفضل، مفعولٌ لـ﴿يَسْتَطِعْ﴾.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ إمّا مفعول صريح لـ﴿طَوْلًا﴾، فإنّ إعمال المصدر المنوَّن شائعٌ ذائعٌ كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ [البلد، ٩٠/١٤-١٥]، كأنّه قيل: ومَن لم يستطع منكم أن يَنال نكاحَهنّ؛ وإمّا بتقدير حرف الجرّ، أي: ومَن لم يستطع منكم غِنًى إلى نكاحهنّ أو لنكاحهنّ، فالجارّ في محلّ النصب صفةً لـ﴿طَوْلًا﴾، أي: طَوْلًا مُوصِلًا إليه، أو كائنًا له، أو على نكاحهنّ، على أنّ الطَّول بمعنى القُدرة، في **القاموس**: «الطَّول والطائل والطائلة: الفضل والقُدرة والغِنى والسَّعَة»،[١] / ومحلُّ ﴿أَنْ﴾ بعد حذف الجارّ نصب عند سيبويه والفرّاء، وجرٌّ عند الكسائي والأخفش. [٢٦ظ]

وإمّا[٢] بدل مِن ﴿طَوْلًا﴾؛ لأنّ الطَّول فضلٌ والنكاحَ قدرةٌ، وإمّا مفعول لـ﴿يَسْتَطِعْ﴾، و﴿طَوْلًا﴾ مصدر مؤكِّد له؛ لأنّه بمعناه، إذ الاستطاعةُ هو الطَّول، أو تمييز، أي: ومَن لم يستطع منكم نكاحَهنّ استطاعةً، أو مِن جهة الطَّول والغِنى، أي: لا مِن جهة الطبيعة والمِزاج؛ فإنّ عدم الاستطاعة مِن تلك الجهة لا تعلّقَ له بالمقام.

---

١ **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «طول».

٢ السياق: إمّا مفعول صريح لـ﴿طَوْلًا﴾... وإمّا بدلٌ مِن ﴿طَوْلًا﴾...

والمراد بـ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الحرائر بدليل مقابَلتهنّ بالمَملوكات؛ فإنّ حُرّيّتهنّ أحصَنَتْهنّ عن ذُلّ الرّقّ والابتذال وغيرهما مِن صفات القصور والنُّقصان.

وقوله عزّ وعَلَا: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ إمّا جواب للشرط أو خبر للموصول، و"الفاء" لتضمُّنه معنى الشرط، والجارّ متعلِّق بفعل مقدَّر حُذف مفعوله، و﴿مَا﴾ موصولة، أي: فليَنكِحْ امرأةً أو أَمَةً مِن النوع الذي ملَكتْه أيمانكم، وهو في الحقيقة متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً لذلك المفعول المحذوف. و﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة، أي: فليَنكِحْ امرأةً كائنةً مِن ذلك النوع. وقيل: ﴿مِنْ﴾ زائدة، والموصول مفعول للفعل المقدَّر، أي: فليَنكِحْ ما ملَكتْه أيمانكم.

وقوله تعالى: ﴿مِن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ في محلّ النصب على الحاليّة مِن الضمير المقدَّر في ﴿مَلَكَتْ﴾ الراجعِ إلى ﴿مَا﴾. وقيل: هو المفعول للفعل المقدَّر على زيادة ﴿مِنْ﴾، و﴿مِن مَّا مَلَكَتْ﴾ متعلِّق بنفس الفعل، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿فَتَيَٰتِكُمْ﴾، و﴿مِنْ﴾ للتبعيض، أي: فليَنكِحْ فَتَياتِكم كائناتٍ بعضَ ما ملَكتْ أيمانكم. و﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ صفة لـ﴿فَتَيَٰتِكُمْ﴾ على كلّ تقدير. وقيل: هو المفعول للفعل المقدَّر، و﴿مِن مَّا مَلَكَتْ﴾ على ما تقدَّمَ آنفًا، و﴿مِن فَتَيَٰتِكُمْ﴾ حال مِن العائد المحذوف.

وظاهر النظم الكريم يفيد عدمَ جواز نكاح الأَمَة للمستطيع كما ذهب إليه الشافعي رحمه الله، وعدمَ جواز نكاح الأَمَة الكِتابيّةِ أصلًا كما هو رأي أهل الحجاز. وقد جَوّزهما أبو حنيفةَ رحمه الله متمسِّكًا بالعمومات، فمَحمَلُ الشرط والوصفِ هو الأفضليّة، ولا نزاعَ فيها لأحد، وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى[1] عنهما أنّه قال: «وممّا وَسَّع الله على هذه الأُمّة نكاحُ الأَمَة واليهوديّةِ والنَّصرانيّةِ وإن كان مُوسِرًا».[2]

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمْ﴾ جملة معترضة جِيءَ بها لتأنيسهم بنكاح الإماء واستنزالِهم مِن رُتبة الاستنكاف منه، ببيان أنّ مَناط التفاضل ومدارَ التفاخر

---

١ س – تعالى.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/١. ومثله بدون لفظ "واليَهوديّة" عن مجاهد في مصنّف ابن أبي شيبة، ٤٦٦/٣ (١٦٠٦٤).

هو الإيمان / دون الأحساب والأنساب على ما نطَق به قوله عزّ قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات، ١٣/٤٩]، والمعنى: إنّه تعالى أعلمُ منكم بمَراتبكم في الإيمان الذي به ينتظم أحوال العباد، وعليه يدور فَلَكُ المصالح في المَعاش والمَعاد،[1] ولا تعلّقَ له بخصوص الحُرّيّة والرِّقّ؛ فرُبَّ أَمَةٍ يفُوق إيمانُها إيمانَ الحرائر. [٢٧و]

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ إن أُريدَ به الاتّصال مِن حيث الدِّينُ، فهو بيان لتناسبِهم مِن تلك الحيثيّة إثرَ بيان تفاوُتهم في ذلك، وإن أُريدَ به الاتّصال مِن حيث النَّسَبُ، فهو اعتراض آخَرُ مؤكِّدٌ للتأنيس مِن جهة أخرى. والخطاب في المَوضِعَين إمّا لِـ﴿مَنْ﴾[2] كما في الخطاب الذي يعقُبه -قد رُوعِيَ فيما سبق جانبُ اللفظ وههنا جانبُ المعنى، والالتفات للاهتمام بالترغيب والتأنيس- وإمّا لغيرهم مِن المسلمين كالخِطابات السابقة لحصول الترغيب بخطابهم أيضًا. وأيًّا ما كان، فإعادة الأمر بالنكاح على وجه الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ مع انفهامه مِن قوله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ حسبما ذُكر لزيادة الترغيب في نكاحهنّ.

وتقييده بقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ وتصديرُه بـ"الفاء" للإيذان بترتّبه على ما قبله، أي: وإذ قد وقفتم على جَلِيّة الأمر فانكِحُوهنّ بإذن مَواليهِنّ، ولا تترفّعوا عنهنّ. وفي اشتراط إذن المَوالي دون مباشرتهم للعَقد إشعارٌ بجواز مباشرتهنّ له.

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورَهنّ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ متعلِّق بـ﴿ءَاتُوهُنَّ﴾، أي: أَدُّوا إليهنّ مهورَهنّ بغير مَطْلٍ وضِرارٍ وإلجاءٍ إلى الاقتضاء واللَّزِّ، حسبما يقتضيه الشرع والعادة. ومِن ضرورته أن يكون الأداء إليهنّ / بإذن المَوالي، فيكونُ ذِكر إيتائهنّ لبيان جواز الأداء إليهنّ، لا لكون المهور لهنّ. وقيل: أصله: آتُوا مَوالِيَهنّ، فحُذف المضاف وأُوصلَ الفعل إلى المضاف إليه. [٢٧ظ]

---

[1] م س: عليه يدُور فَلَكُ المصالح في المَعاش والمَعاد، وبه ينتظم أحوالُ العباد. [صُحّح في هامشهما بالإشارة إلى التأخير والتقديم].

[2] في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾.

﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ حال مِن مفعول ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾، أي: حالَ كونِهنّ عَفائِف عن الزنا. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ حال مؤكِّدة، أي: غيرَ مجاهِراتٍ به. ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ عطفٌ على ﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾، و﴿لَا﴾ لتأكيد ما في ﴿غَيْرَ﴾ مِن معنى النفي. والخِدْن: الصاحبُ، قال أبو زيد: «الأخدان: الأصدقاء على الفاحشة. والواحد: خِدْن وخَدِين».[١] والجمع للمقابَلة بالانقسام على معنى ألّا يكونَ لواحدة منهنّ خِدْنٌ، لا على معنى ألّا يكونَ لها أخدانٌ، أي: غيرَ مجاهِراتٍ بالزنا ولا مُسِرّاتٍ له، وكان الزنا في الجاهليّة منقسِمًا إلى هذين القسمين.

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ أي: بالتزويج. وقُرِئَ على البناء للفاعل،[٢] أي: أحصَنَّ فروجَهنّ أو أزواجَهنّ. ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾ أي: فعلنَ فاحشةً، وهي الزنا، ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾ فثابتٌ عليهنّ شَرعًا ﴿نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: الحرائرِ الأبكارِ ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ مِن الحَدّ الذي هو جَلْد مائةٍ، فنِصفُه خمسون، كما هو كذلك قبل الإحصان، فالمراد بيان عدم تفاوُت حدّهنّ بالإحصان كتفاوُت حدّ الحرائر. فـ"الفاء" في ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ﴾ جوابُ ﴿إِذَآ﴾، والثانية جوابُ ﴿إِنْ﴾، فالشرط الثاني مع جوابه مترتِّبٌ على وجود الأوّل، كما في قولك: إذا أتيتَني، فإن لم أُكرِمْك، فعَبدي حُرٌّ.

[٢٨و] ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: نكاح الإماء ﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ / أي: لِمن خاف وقوعَه في الإثم الذي يؤدِّي إليه غَلَبة الشهوة. وأصل العَنَت انكسارُ العَظْم بعد الجَبْر، فاستُعير لكلّ مَشقّة وضَرَر يعتري الإنسانَ بعد صلاح حاله، ولا ضرَرَ أعظمُ مِن مواقعة المَآثم بارتكاب أفحشِ القبائح. وقيل: أريدَ به الحدّ؛ لأنّه إذا هَوِيَها يَخشى أن يواقِعها فيُحَدَّ. والأوّل هو اللائق بحال المؤمن دون الثاني لإيهامه أنّ المحذور عنده الحدّ لا ما يوجبه.

﴿وَأَن تَصْبِرُوا﴾ أي: عن نكاحهنّ متعفِّفين كافِّينَ أنفُسَكم عمّا تشتهيه مِن المعاصي. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِن نكاحهنّ -وإن سبقت كلمة الرُّخصة فيه- لِما فيه مِن تعريض الولد للرِّقّ؛ قال عمر رضي الله عنه: «أيُّما حُرٍّ تَزوّج بأَمَة،

---

١ اللباب لابن عادل، ٦/٣٢٥.

٢ أي: "أَحْصَنَّ"، وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف وعاصم مِن رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٩.

فقد أرَقَّ نِصفَه»»،[١] وقال سعيد بن جبير: «ما نكاحُ الأَمَة مِن الزنا إلّا قريبٌ»،[٢] ولأنّ حقّ المولى فيها أقوى، فلا تخلُص للزوج خُلوصَ الحرائر، ولأنّ المولى يقدر على استخدامها كيفما يريد في السَّفَر والحَضَر وعلى بَيعها للحاضر والبادي، وفيه مِن اختلال حال الزوج وأولادِه ما لا مزيدَ عليه، ولأنّها مُمتهَنةٌ مُبتذَلةٌ خرّاجةٌ وَلّاجةٌ، وذلك كلّه ذُلّ ومَهانة ساريةٌ إلى الناكح، والعزّةُ هي اللائقة بالمؤمنين، ولأنّ مَهرها لمولاها، فلا تقدر على التمتّع به ولا على هِبته للزوج، فلا ينتظم أمرُ المَنزِل، وقد قال عليه السلام: «الحرائر صلاحُ البيت، والإماء هلاكُ البيت».[٣]

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ مبالِغٌ في المغفرة، فيغفِر لمَن لم يصبر عن نكاحهنّ ما في ذلك مِن الأمور المنافية لحال المؤمنين. ﴿رَّحِيمٌ﴾ مبالِغٌ في الرحمة؛ ولذلك رَخّص لكم في نكاحهنّ.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ استئناف مَسوق لتقرير ما سبق مِن الأحكام وبيانِ كونها جاريةً على مناهج المهتدِين مِن الأنبياء والصالحين. قيل: أصل النظم الكريم: "يريد الله أن يبيّن لكم"، فزِيدَت "اللامُ" / لتأكيد معنى الاستقبال اللازم للإرادة. [٢٨ظ] ومفعول ﴿يُبَيِّنَ﴾ محذوف ثقةً بشهادة السباق والسياق، أي: يريد الله أن يبيّن لكم ما هو خفيٌّ عنكم مِن مصالحكم وأفاضلِ أعمالكم، أو ما تعبَّدَكم به مِن الحلال والحرام. وقيل: مفعول ﴿يُرِيدُ﴾ محذوف، تقديره: يريد الله تشريعَ ما شرع مِن التحريم والتحليل لأجل التبيين لكم، وهذا مذهب البصريّين، ويُعزى إلى سيبويه.

---

١ سنن الدارمي، ٢٠٠٩/٤ (٣١٧٧). وباختلاف يسير في مصنّف ابن أبي شيبة، ٤٦٦/٣ (١٦٠٦٥)؛ ومصنّف عبد الرزّاق الصنعاني، ٢٦٨/٧ (١٣١٠٣).

٢ تفسير القرطبي، ١٤٧/٥. وفي جامع البيان للطبري، ٦١٤/٦-٦١٥: «ما ازلحفَ ناكحُ الأمَة عن الزنا إلّا قليلًا».

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/١. وفي الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٠/٣: "فساد البيت" بدلَ "هلاك البيت".

وقيل: إنّ "اللام" بنفسها ناصبة للفعل مِن غير إضمارِ "أنْ"، وهي وما بعدها مفعول للفعل المتقدِّم؛ فإنّ اللام قد تُقام مُقامَ "أنْ" في فعل الإرادة والأمر فيقال: أردتُ لِأَذهبَ وأن أَذهبَ، وأمرتُك لتقومَ وأن تقومَ؛ قال[1] تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف، ٨/٦١]، وفي مَوضع: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾ [التوبة، ٣٢/٩]، وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ [الأنعام، ٧١/٦]، وفي مَوضع: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ [غافر، ٦٦/٤٠]، وفي آخَرَ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الشورى، ١٥/٤٢]، أي: أن أَعدِل. وهذا مذهب الكوفيّين. ومنَعَه البصريّون وقالوا: إنّ وظيفة اللام هي الجرّ والنصب فيما قالوا بإضمار "أنْ"، أي: أُمِرنا بما أُمِرنا لِنُسلِمَ، ويريدون ما يريدون لِيُطفئوا. وقيل: يُئوَّل الفعل الذي قبل اللام بمصدر مرفوع بالابتداء، ويُجعَل ما بعده خبرًا له، كما في: "تَسمَعُ بالمُعَيديّ خيرٌ مِن أن تَراه"، أي: أن تَسمع به، ويُعزى هذا الرأي إلى بعض البصريّين.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مِن الأنبياء والصالحين لتَقتَدوا بهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ إذا تُبتم إليه تعالى عمّا يقع منكم مِن التقصير والتفريط في
[٢٩و] مراعاة ما كُلّفتموه مِن الشرائع -فإنّ / المكلَّف قَلّما يخلو مِن تقصيرٍ يستدعي تَلافِيَه بالتوبة- ويَغفِرَ لكم ذنوبَكم، أو يرشدَكم إلى ما يَرْدَعكم عن المعاصي ويَحُثّكم على التوبة، أو إلى ما يكون كفّارةً لسيّئاتكم. وليس الخطاب لجميع المكلَّفين حتّى يتخلّفَ مرادُه تعالى عن إرادته فيمَن لم يتُبْ منهم؛ بل لطائفةٍ معيَّنةٍ حصلتْ لهم هذه التوبة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالِغٌ في العلم بالأشياء التي مِن جملتها ما شرَع لكم مِن الأحكام. ﴿حَكِيمٌ﴾ مُراعٍ في جميع أفعاله الحكمةَ والمصلحةَ.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ٢٧﴾

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ جملة مبتدَأة مَسوقة لبيان كمال منفعةِ ما أراده الله تعالى وكمالِ مَضَرّةِ ما يريد الفَجَرة؛ لا لبيان إرادته تعالى لتوبته عليهم حتّى

---

[1] ط س + الله.

يكونَ مِن باب التكرير للتقرير؛ ولذلك غُيِّر الأسلوب إلى الجملة الاسميّة دلالةً على دوام الإرادة، ولم يُفعل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ للإشارة إلى الحدوث، وللإيماء إلى كمال المبايَنة بين مضمونَي الجملتَين، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية [البقرة، ٢/٢٥٧].

والمراد بمُتّبِعِي الشَّهَوات الفَجَرةُ، فإنّ اتّباعها الائتمارُ لها. وأمّا المتعاطِي لِما سوّغه الشرع مِن المُشتهَيات دون غيره، فهو متّبِع له، لا لها. وقيل: هم اليهود والنصارى. وقيل: هم المجوس، حيث كانوا يُحِلّون الأخَواتِ مِن الأب وبناتِ الأخ وبناتِ الأخت، فلمّا حرّمهنّ الله تعالى قالوا: «فإنّكم تُحِلّون بنتَ الخالة وبنتَ العمّة مع أنّ العمّة والخالةَ عليكم حرامٌ، فانكِحُوا بناتِ الأخ والأخت»، فنزلت.[1]

﴿أَن تَمِيلُوا﴾ عن الحقّ بموافقتهم على اتّباع الشهَوات واستحلالِ المحرَّمات وتكونوا زُناةً مثلَهم. وقُرئ بالياء التحتانيّة،[2] والضميرُ لـ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾. ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: بالنسبة إلى مَيل مَن اقترف خطيئةً على ندرة بلا استحلالٍ.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ / أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ بما مرّ مِن الرُّخَص ما في عُهدتكم مِن مشاقّ التكاليف. والجملة مستأنَفة، لا محلَّ لها مِن الإعراب. ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ عاجزًا عن مخالفة هَواه، غيرَ قادر على مقابلة دواعيه وقُوَاه؛ حيث لا يصبر عن اتّباع الشهَوات، ولا يستخدم قُوَاه في مشاقّ الطاعات. [٢٩ظ]

وعن الحسن[3] رحمه الله: «أنّ المراد ضَعف الخِلقة»،[4] ولا يساعده المقام؛ فإنّ الجملة اعتراض تذييليّ مَسوقٌ لتقرير ما قبله مِن التخفيف بالرُّخصة

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ١/٥٠١؛ اللباب لابن عادل، ٦/٣٣٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة وابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٣.

[3] أي: الحسن البصري.

[4] نقل نحوه الثعلبي في الكشف والبيان، ٣/٢٩١: «قال الحسن: هو أن خلقه مِن ماء مَهين، بيانه قول الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم، ٣٠/٥٤]».

في نكاح الإماء، وليس لضَعف البُنية مَدخَلٌ في ذلك، وإنّما الذي يتعلّق به التخفيف في العبادات الشاقّة. وقيل: المراد به ضَعفه في أمر النساء خاصّةً، حيث لا يصبر عنهنّ، وعن سعيد بن المسيَّب: «ما أَيِسَ الشيطانُ مِن بني آدمَ قطُّ إلّا أتاهم مِن قِبل النساء؛ فقد أتى عليَّ ثمانون سَنةً، وذهبتْ إحدى عَينيَّ وأنا أعشُو بالأخرى، وإنّ أخوَفَ ما أخاف عليَّ فتنةُ النساء».[1]

وقرأ ابن عبّاس رضي الله عنهما: "وَخَلَقَ الإنْسَانَ"[2] على البناء للفاعل، والضميرُ لـ﴿اللَّهُ﴾ عزّ وجلّ. وعنه رضي الله عنه:

ثماني آياتٍ في سورة النساء هُنَّ خيرٌ لهذه الأمّة ممّا طلَعت عليه الشمس وغرَبتْ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء، ٢٦/٤]، ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء، ٢٧/٤]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء، ٢٨/٤]، ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء، ٣١/٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء، ٤٨/٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء، ٤٠/٤]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء، ١١٠/٤]، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء، ١٤٧/٤].[3]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

[٣٠و] / **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾** شروع في بيان بعض الحُرُمات المتعلِّقة بالأموال والأنفس إثرَ بيان الحرمات المتعلِّقة بالأبضاع. وتصدير الخطاب بالنداء والتنبيهِ لإظهار كمال العناية بمضمونه. والمراد بـ﴿ٱلْبَٰطِلِ﴾ ما يخالِف الشرعَ، كالغَصْب والسرِقة والخيانة والقِمار وعقود الرِّبا وغير ذلك ممّا لم يُبِحه الشرع، أي: لا يأكُلْ بعضكم أموالَ بعضٍ بغير طريق شرعيّ.

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩١/٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/١.

[2] وهي قراءة شاذّة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٣.

[3] شعب الإيمان للبيهقي، ٣٤٦/٩-٣٤٧ (٦٧٤٤). وهو باختلاف في الترتيب وتثبيت الآية الأخيرة في جامع البيان للطبري، ٦٦٠/٦-٦٦١.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ استثناء منقطِع، و﴿عَن﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿تِجَٰرَةً﴾، أي: إلّا أن تكون التجارة تجارةً صادرةً عن تراضٍ، كما في قوله:

إذا كان يومًا ذَا كواكِبَ أشْنَعَا[1]

أي: إذا كان اليومُ يومًا... إلخ، أو: إلّا أن تكون الأموال أموالَ تجارة. وقُرئ: "تِجَارَةٌ"[2] بالرفع على أنّ "كان" تامّةٌ، أي: ولكنْ اقصِدُوا كونَ تجارة عن تراضٍ، أي: وقوعَها، أو ولكنْ وجودُ تجارة عن تراضٍ غيرُ منهيّ عنه. وتخصيصها بالذِّكر مِن بين سائر أسباب المُلك لكونها معظَمَها وأغلبَها وقوعًا وأوفقَها لِذوي المُروآت. والمراد بـ"التراضي" مراضاةُ المتبايِعَين بما تعاقدَا عليه في حال المبايعة وقتَ الإيجاب والقبول عندنا، وعند الشافعي رحمه الله حالةَ الافتراق عن مجلس العَقد.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: مَن كان مِن جنسكم مِن المؤمنين؛ فإنّ كلّهم كنفس واحدة. وعن الحسن[3] رحمه الله: «لا تقتُلوا إخوانكم».[4] والتعبير عنهم بـ"الأنفُس" للمبالغة في الزجر عن قتلهم بتصويره بصورةِ ما لا يكاد يفعله عاقل، أو لا تُهلكوا أنفسَكم بتعريضها للعقاب باقتراف ما / يُفضي إليه، فإنّه [٣٠ظ]
القتل الحقيقيّ لها، كما يُشعر به إيراده عَقيبَ النهي عن أكل الحرام، فيكونُ مقرِّرًا للنهي السابق.

وقيل: لا تقتلوا أنفسَكم بالبَخْع كما يفعله بعض الجَهَلة، أو بارتكاب ما يُؤدّي إلى القتل مِن الجنايات، وقيل: بإلقائها في التَّهلُكة، وأُيّد بما رُوي عن عمرو بن العاص[5] أنّه تأوّله بالتيمّم لخوف البَرَد، فلم يُنكِر عليه النبيّ

---

[1] عجز بيتٍ، صدرُه:
بَني أسَدٍ هل تعلمون بلاءَنا
وهو لعمرو بن شَأس الأسدي في كتاب سيبويه، ٤٧/١؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٥٢١/٨.

[2] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٤٩/٢.

[3] أي: الحسن البصري.

[4] الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦١١/٣.

[5] هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشي السّهمي، أبو عبد الله، وقيل: أبو محمّد (ت. ٤٣هـ/٦٦٤م). صحابيّ. أسلم بأرض الحبشة ›

صلّى الله عليه وسلّم.[١] وقُرِئ: "لَا تُقَتِّلُوا"[٢] بالتشديد للتكثير. وقد جُمع في التَّوصية بين حفظ النفس وحفظ المال لِما أنّه شقيقها مِن حيث إنّه سبب لِقوامها وتحصيلِ كمالاتها واستيفاءِ فضائلها. وتقديم النهي عن التعرّض له لكثرة وقوعه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ تعليل للنهي بطريق الاستئناف، أي: مبالِغًا في الرحمة والرَّأفة؛ ولذلك نَهاكم عمّا نهى، فإنّ في ذلك رحمةً عظيمةً لكم بالزجر عن المعاصي وللذين هم في معرض التعرّض لهم بحفظ أموالهم وأنفسهم. وقيل: معناه: إنّه كان بكم -يا أمّةَ محمّد- رحيمًا؛ حيث أَمر بني إسرائيلَ بقتلهم أنفُسَهم ليكون توبةً لهم وتمحيصًا لخطاياهم، ولم يكلِّفكم تلك التكاليف الشاقّةَ.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى القتل خاصّةً أو بما قبله مِن أكل الأموال. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلتهما في الفساد. ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ أي: إفراطًا في التجاوز عن الحدّ وإتيانًا بما لا يستحقّه. وقيل: أُريدَ بـ"العُدوان" التعدّي على الغير، وبـ"الظلم" الظلمُ على النفس بتعريضها للعقاب. ومحلّهما النصبُ على الحاليّة أو على العِلّيّة، أي: مُتعدِّيًا وظالمًا، أو للعُدوان والظلم. وقُرِئ: "عِدْوَانًا"[٣] بكسر العين.

= عند النجاشي، واستعمله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على غزوة ذات السلاسل، وبعثه يوم فتح مكّة إلى سواع صنم هذيل، فهدمه، وبعثه أيضًا إلى عمان، فقُبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعمرو بعمان، فخرج منها، فقدم المدينة، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فتولّى ما تولّى مِن فتحها، وشهد اليرموك، وولّاه عمر فلسطين وما والاها، ثمّ كتب إليه أن يسير إلى مصر، ففتح مصر، وولّاه عثمان بن عفّان مصر سنين، ثمّ عزله، فقدم عمرو المدينة، فلمّا نشب الناس في أمر عثمان خرج إلى الشام، وولّاه معاوية مصر، فلم يزل بها واليًا، وابتنى بها دارًا، ونزلها إلى أن مات به. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٧/٤٩٣-٤٩٤؛ و**أسد الغابة** لابن الأثير، ٤/٢٣٢-٢٣٥.

١ انظر: **مسند أحمد**، ٢٩/٣٤٧ (١٧٨١٢)؛ و**سنن أبي داود**، ١/٢٤٩ (٣٣٤).

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٣٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عَبلة وأبي حياة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٣٣.

﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾ جواب للشرط، أي: نُدخله. وقُرئ بالتشديد[١] مِن "صَلَّى"، وبفتح / النُّون[٢] مِن "صَلَاه يَصلِيه"، ومنه "شاة مَصلِيّة"، و"يُصْلِيهِ"[٣] بالياء. والضمير [٣١و]
لله تعالى، أو لـ﴿ذَٰلِكَ﴾[٤] مِن حيث إنّه سبب للصُّلِيّ.[٥] ﴿نَارًا﴾ أي: نارًا مخصوصةً هائلةً شديدةَ العذاب. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: إصلاؤه النارَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لتحقّقِ الداعي وعدمِ الصارف. وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتربية المهابة وتأكيد استقلال الاعتراض التذييليّ.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: كبائرَ الذنوب التي نهاكم الشرع عنها ممّا ذُكر ههنا وما لم يُذكر. وقُرئ: "كَبِيرَ"[٦] على إرادة الجنس. ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ بنونِ العَظَمة على طَريقة الالتفات. وقُرئ بالياء[٧] بالإسناد إليه تعالى. والتكفير: إماطة المستحَقّ مِن العقاب بثوابٍ أزيَدَ أو بتوبة، أي: نغفِرْ لكم ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ صغائرَكم، ونَمْحُها عنكم. قال المفسّرون: «الصلاة إلى الصلاة والجُمُعة إلى الجُمُعة ورمضانُ إلى رمضانَ مكفِّراتٌ لِما بينهنّ مِن الصغائر إذا اجتُنِب الكبائرُ».[٨]

واختُلِف في "الكبائر"، والأقربُ أنّ الكبيرة كلّ ذَنب رَتّب الشارعُ عليه الحَدَّ أو صَرّح بالوعيد فيه، وقيل: ما عُلم حُرمته بقاطع. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم «أنّها سَبْعٌ: الإشراك بالله تعالى، وقتل النفس التي حَرّمها الله، وقَذف المحصَنة،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مقسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٤.

٤ وفي هامش م: في ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾. «منه».

٥ كذا حرّكها المصنّف.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير ومجاهد والأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٤.

٧ هي رواية أبي زيد سعيد بن أوس عن المفضّل عن عاصم. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٣٢؛ الحجّة لأبي عليّ الفارسي، ١٥٢/٣. وهي غير القراءة المشهورة لعاصم.

٨ أخرج نحوَه مسلم عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في صحيحه، ٢٠٩/١ (٢٣٣)؛ وأحمدُ في مسنده، ١٠٦/١٥ (٩١٩٧).

وأكل مال اليتيم، والرِّبا، والفِرار مِن الزَّحْف، وعقوق الوالدَين».[١] وعن عليّ رضي الله تعالى[٢] عنه: «التعرّب بعد الهجرة»[٣] مكانَ "عقوق الوالدَين". وزاد ابن عمرَ: «السِّحر واستحلال البيت الحرام».[٤] / وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما [٣١ظ] أنّ رَجلًا قال له: «الكبائر سَبْعٌ»، قال: «هي إلى سبعِمائةٍ أقربُ منها إلى سَبْعٍ -ورُوي عنه: إلى سبعين- إذ لا صغيرةَ مع الإصرار، ولا كبيرةَ مع الاستغفار».[٥]

وقيل: أُريدَ به أنواع الشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء، ٤/٤٨]، وقيل: صِغَر الذنوب وكِبَرها بالإضافة إلى ما فوقها وما تحتها، وبحسَب فاعلها، بل بحسَب الأوقات والأماكن أيضًا؛ فأكبر الكبائر الشركُ، وأصغر الصغائر حديثُ النفس، وما بينهما وسائطُ يصدُق عليه الأمران؛ فمَن عَنَّ له أمرانِ منهما ودَعَتْ نفسُه إليهما بحيث لا يتمالك فكَفَّها عن أكبرهما، كُفِّر عنه ما ارتكبه لِما استحقّ على اجتناب الأكبر مِن الثواب.

﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا﴾ بضمّ الميم، اسمُ مكانٍ، هو الجَنّة، ﴿كَرِيمٗا﴾ أي: حَسَنًا مَرضيًّا، أو[٦] مصدر مِيميٌّ، أي: إدخالًا مع كرامة. وقُرئ بفتح الميم،[٧] وهو أيضًا يحتمل المكانَ والمصدرَ. ونصبُه على الثاني بفعل مقدَّر مطاوِع للمذكور، أي: نُدخلكم فتدخُلون مُدخَلًا، أي:[٨] دخولًا كريمًا، كما في قوله:

وعَضّةُ دَهرٍ يا ابنَ مَرْوَانَ لم يَدَعْ ... مِن المال إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[٩]

أي: لم يدَعْ فلم يبقَ إلّا مسحَت... إلخ.

---

[١] هو باختلاف في الترتيب في المعجم الكبير للطبراني، ١٤/٦-٧ (١٤٥٨٧). ونحوه باختلاف في الترتيب والألفاظ في صحيح البخاري، ١٠/٤ (٢٧٦٦)؛ وصحيح مسلم، ٩٢/١ (٨٩)، وفيهما: "السحر" بدلَ "عقوق الوالدَين".

[٢] س - تعالى.

[٣] جامع البيان للطبري، ٦٤٣/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/١.

[٤] الأدب المفرد للبخاري، ص ٦-٧ (٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/١.

[٥] هو باختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٦٥١/٦-٦٥٢. والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/١.

[٦] السياق: اسمُ مكانٍ... أو مصدرٌ...

[٧] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٤٩/٢.

[٨] ط س: أو.

[٩] وفي هامش م: المسحَت: المذهَب. المجلَّف: ما بَقِيت منه بقيّة. «منه». | البيت للفرزدق في ديوانه، ص ٣٨٦، برواية:
وعَضُّ زمانٍ يا ابنَ مَرْوَانَ لم يَدَعْ
مِن المال إلّا مُسحَتًا أو مُجرَّفُ

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: عليكم. ولعلّ إيثارَ الإبهام عليه للتفادي عن المواجَهة بما يشُقّ عليهم. قال القفّال: «لمّا نَهاهُم الله تعالى عن أكل أموال الناس بالباطل وقتلِ الأنفس، عَقَّبه بالنهي عمّا يؤدِّي إليه مِن الطَّمَع في أموالهم وتَمنّيها».[1]

وقيل: نَهاهم أوّلًا عن التعرّض لأموالهم بالجوارح، ثمّ عن التعرّض لها بالقلب على سبيل الحَسَد لتطهير أعمالهم الظاهرة والباطنة، فالمعنى: لا تتمنَّوْا ما أعطاه الله تعالى بعضَكم مِن الأمور الدُّنيويّة كالجاه والمال وغير ذلك ممّا يَجري فيه / التنافسُ دُونكم؛ فإنّ ذلك قِسمة مِن الله تعالى صادرةٌ عن تدبير [٣٢و] لائق بأحوال العباد مترتِّبٍ على الإحاطة بجلائل شُئونهم ودقائقها؛ فعلى كلّ أحد مِن المفضَّل عليهم أن يرضى بما قُسِم له، ولا يتمنّى حَظَّ المفضَّل، ولا يحسُدَه عليه لِما أنّه معارضة لحُكم القَدَر المؤسَّس على الحِكَم البالغة؛ لا لأنّ عدمه خير له، ولا لأنّه لو كان خلافَه لَكان مَفسَدةً له كما قيل؛ إذ لا يساعده ما سيأتي مِن الأمر بالسؤال مِن فضله تعالى، فإنّه ناطق بأنّ المَنهيّ عنه تَمنِّي نصيب الغير، لا تَمنِّي ما زاد على نصيبه مطلَقًا.

هذا، وقد قيل: لمّا جعل الله تعالى في الميراث للذَّكر مثلَ حظّ الأنثيَين قالت النساء: «نحن أحوَجُ أن يكون لنا سَهْمانِ، وللرِّجال سَهْم واحد؛ لأنّا ضُعَفاءُ، وهم أقوياءُ وأقدَرُ على طلب المعاش منّا»، فنزلت.[2] وهذا هو الأنسب بتعليل النهي بقوله عزّ وجلّ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾؛ فإنّه صريح في جَرَيان التمنيّ بين فريقَي الرجال والنساءِ.

ولعلّ صيغةَ المذكَّر في النهي لِما عُبّر عنهنّ بـ"البعض". والمعنى: لكلٍّ مِن الفريقين في الميراث نصيبٌ معيَّنُ المقدار ممّا أصابه بحسَب استعداده.

---

١ هو باختلاف يسير في تفسير الرازي، ٦٤/١٠.

٢ تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٦٩/١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٩/٣.

وقد عُبّر عنه بـ"الاكتساب" على طريقة الاستعارة التَّبَعيّة المَبنيّة على تشبيه اقتضاء حاله لنصيبه باكتسابه إيّاه تأكيدًا لاستحقاق كلٍّ منهما لنصيبه، وتقويةً لاختصاصه به بحيث لا يتخطّاه إلى غيره؛ فإنّ ذلك ممّا يُوجب الانتهاءَ عن التمنّي المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ عطفٌ على النهي. وتوسيط التعليل بينهما لتقرير الانتهاء، مع ما فيه مِن الترغيب في الامتثال بالأمر. كأنّه قيل: لا تتمنَّوْا ما يختصّ بغيركم مِن نصيبه المكتسَب له، واسألوا الله تعالى مِن خزائن نِعَمه / التي لا نَفادَ لها. وحذفُ المفعول الثاني للتعميم، أي: واسألوه ما تريدون؛ فإنّه تعالى يُعطيكموه، أو لكونه معلومًا مِن السياق، أي: واسألوه مثلَه. وقيل: ﴿مِنْ﴾ زائدة، والتقدير: واسألوا فضله. [٣٢ظ]

وقد جاء في الحديث: «لا يَتَمنّيَنَّ أحدُكم مالَ أخيه؛ ولكنْ لِيَقُلْ: اللّٰهمّ ارزُقْني، اللّٰهمّ أَعطِنِي مثلَه».[1] وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «سَلُوا اللهَ مِن فضله؛ فإنّه يُحِبّ أن يُسأل، وأفضلُ العبادة انتظارُ الفَرَج».[2]

وحملُ "النصيب" على الأجر الأُخرَويّ وإبقاءُ "الاكتساب" على حقيقته -بجعل سبب النزول ما رُوي أنّ أمّ سَلَمةَ رضي الله تعالى عنها قالت: «ليتَ اللهَ كتب علينا الجهادَ كما كتبه على الرجال، فيكونَ لنا مِن الأجر مِثلُ ما لهم»،[3] على أنّ المعنى: لكلٍّ مِن الفريقين نصيبٌ خاصٌّ به مِن الأجر مترتِّبٌ على عمله؛ فلِلرجال أجرٌ بمقابلة ما يَليق بهم مِن الأعمال كالجهاد ونحوه، وللنساء أجرٌ بمقابلة ما يليق بهنّ مِن الأعمال كحفظ حقوق الأزواج ونحوه؛ فلا تَتَمَنَّ النساءُ خصوصيّةَ أجر الرجال، وليسألْنَ مِن خزائن رحمته تعالى

---

[1] هو في التفسير البسيط للواحدي، ٦/٤٧٧؛ ومعاني القرآن للفرّاء، ١/ ٢٦٥. وقد ورد بلفظ مقارب منسوبًا لابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٦/ ٦٦٤.

[2] سنن الترمذي، ٥/٥٦٥ (٣٥٧١)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٢/٣٧٣ (١٠٨٦).

[3] الكشّاف للزمخشري، ١/٥٠٤. وانظر: أسباب النزول للواحدي، ص ١٥٣-١٥٤.

ما يَليق بحالهنّ مِن الأجر- لا يساعده سياق النظم الكريم[1] المتعلِّق بالمواريث وفضائل الرجال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ولذلك جعل الناس على طَبَقاتٍ، ورفع بعضَهم على بعض دَرَجاتٍ حسْب مراتب استعداداتهم الفائضة عليهم بموجَب المشيئة المَبنيّة على الحِكَم الأبيّة.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ جملة مبتدَأةٌ مقرِّرةٌ لمضمونِ ما قبلها. و﴿لِكُلٍّ﴾ مفعول ثانٍ لـ﴿جَعَلْنَا﴾، قُدِّم عليه لتأكيد الشمول ودفع توهّم تعلّق الجعل بالبعض دون البعض، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، ٤٨/٥]، أي: ولكلّ تَرِكةٍ جعلنا وَرَثةً متفاوِتةً في الدرجة يَلُونَها ويُحرِزون منها أنصِباءَهم بحسب استحقاقهم المَنوط بما بينهم وبين المُورِث مِن العلاقة. و﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ بيان لـ﴿كُلٍّ﴾، قد فُصِل بينهما بما عَمِل فيه، كما فُصِل في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام، ١٤/٦] بين لفظ الجلالة وبين صفته بالعامل فيما أضيفَ إليه، أعني: ﴿غَيْرَ﴾. أو:[2] لكلّ قوم جعلناهم مواليَ -أي: وُرّاثًا- نصيبٌ معيَّنٌ مغايِرٌ لنصيب قوم آخَرين مِمّا ترك الوالدان والأقربون، / على أنّ ﴿جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ صفة لـ﴿كُلٍّ﴾، والضمير الراجعُ إليه محذوف، والكلام مبتدَأٌ [٣٣و] وخبرٌ على طريقة قولك: "لكلِّ مَن خلقه الله إنسانًا مِن رزق الله"، أي: حظٌّ منه.

وأمّا ما قيل[3] مِن أنّ المعنى: لكلّ أحد[4] جعلنا مواليَ ممّا تَرك، أي: وُرّاثًا منه -على أنّ "مِن" صلةُ ﴿مَوَٰلِيَ﴾؛ لأنّه في معنى "الوُرّاث"، وفي ﴿تَرَكَ﴾ ضميرٌ مستكِنٌّ عائدٌ إلى ﴿كُلٍّ﴾- وقولَه تعالى: ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ استئنافٌ مفسِّرٌ لـ"الموالي"،

---

[1] س - الكريم.

[2] السياق: أي: ولكلّ تَرِكة جعلنا وَرَثةً... أو: لكلّ قوم جعلناهم مواليَ...

[3] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٠٤/١.

[4] وفي هامش م: أي: مِن المَوتى.

كأنّه قيل: مَن هم؟ فقيل: الوالدان... إلخ، ففيه تفكيكٌ للنظم الكريم؛ لأنّ ببيان الموالي بما ذُكر يَفُوت الإبهام المصحِّحُ لاعتبار التفاوت بينهم، وبه يتحقّق الانتظام كما أشيرَ إليه في تقرير الوجهين الأوّلَين، مع ما فيه مِن خروج الأولاد مِن الموالي؛ إذ لا يتناولهم الأقربون، كما لا يتناول الوالدَين.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ هم مَوالي المُوالاة. كان الحِلف يورِّث السُّدُسَ مِن مال حَليفه، فنُسخ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ [الأنفال، ٧٥/٨؛ الأحزاب، ٦/٣٣]. وعند أبي حنيفةَ رحمه الله: إذا أسلَمَ رجلٌ على يد رجلٍ وتعاقدَا على أن يَرِثه ويَعقِلَ عنه صَحَّ،[1] وعليه عَقْلُه وله إرثُه إن لم يكن له وارث أصلًا.

وإسناد "العَقد" إلى "الأيمان"؛ لأنّ المعتاد هو المماسَحة بها عند العقد، والمعنى: عقَدت أيمانكم عهودَهم، فحُذف "العهود"، وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه، ثم حُذف. وقُرئ: "عَقَّدَتْ"[2] بالتشديد، و"عَاقَدَتْ"[3] بمعنى: عاقدَتْهم أيمانكم وماسحتموهم.

وهو مبتدأ متضمِّن لمعنى الشرط؛ ولذلك صُدِّر الخبر -أَعني قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾- بـ"الفاء"، أو منصوب بمضمَرٍ يُفسّره ما بعده، كقولك: "زيدًا فاضرِبْه"، أو مرفوع معطوف على ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ﴾... / إلخ جملة مبيِّنة للجملة قبلها ومؤكِّدة لها، والضميرُ لـ"الموالي". [٣٣ظ]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها الإيتاء والمنع ﴿شَهِيدًا﴾، ففيه وعدٌ ووعيدٌ.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٥٠٥/١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٢/٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كيسة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٤.

[3] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٤٩/٢.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان سبب استحقاق الرجال الزيادةَ في الميراث، تفصيلًا إثرَ بيان تفاوت استحقاقهم إجمالًا. وإيراد الجملة اسميّةً والخبرِ على صيغة المبالغة للإيذان بعَراقتهم في الاتّصاف بما أُسندَ إليهم ورسوخهم فيه، أي: شأنهم القيامُ عليهنّ بالأمر والنهي قيامَ الوُلاة على الرَّعِيّة.

وعُلّل ذلك بأمرين: مَوهبيّ وكسبيّ، فقيل: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، "الباء" سببيّة متعلِّقة بـ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ضميره، و﴿مَا﴾ مصدريّة، والضمير البارز لكِلا الفريقين تغليبًا، أي: قوّامون عليهنّ بسبب تفضيل الله تعالى إيّاهم عليهنّ، أو ملتبِسين بتفضيله تعالى... إلخ. ووضعُ "البعض" مَوضعَ الضميرين للإشعار بغاية ظهور الأمر وعدمِ الحاجة إلى التصريح بالمفضَّل والمفضَّل عليه أصلًا؛ ولِمِثل ذلك لم يصرّح بما به التفضيلُ مِن صفات كماله التي هي كمال العقل وحُسن التدبير ورَزانة الرأي ومزيد القوّة في الأعمال والطاعات؛ ولذلك خُصّوا بالنبوّة والإمامة والولاية وإقامة الشعائر والشهادةِ في جميع القضايا ووجوبِ الجهاد والجُمُعة ونحو ذلك.

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ "الباء" متعلِّقة بما تعلّقتْ به الأُولى. و﴿مَآ﴾ مصدريّة أو موصولة، حُذف عائدها مِن الصلة. و﴿مِنْ﴾ تبعيضيّة أو ابتدائيّة متعلِّقة بـ﴿أَنفَقُوا﴾ أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن العائد المحذوف، أي: وبسبب إنفاقهم مِن أموالهم، أو بسبب ما أنفقوه مِن أموالهم، أو كائنًا مِن أموالهم، وهو ما أنفقوه مِن المَهر والنَّفَقة.

رُوي أنّ سعد بن الربيع[1] -أحد نُقَباء الأنصار رضي الله عنهم- نشَزَتْ عليه امرأتُه حَبيبة بنتُ زيد بن أبي زهير، فلطَمَها، / فانطلق بها أبوها إلى رسول الله [٣٤و] صلّى الله عليه وسلّم وشكَا، فقال عليه السلام: «لتَقتَصَّ منه» فنزلت، فقال عليه السلام: «أردنا أمرًا وأراد الله أمرًا، والذي أراد الله خيرٌ».[2]

---

[1] هو سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير بن مالك بن امرئ القيس الخزرجي الأنصاري (ت. ٣/٦٢٥م). مِن كبار الصحابة. كان أحدَ النقباء يومَ العقبة، وشهد موقعة بدر، واستشهد يوم أُحد. وكان سعد يكتب في الجاهليّة وكانت الكتابة في العرب قليلة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥٢٢/٣-٥٢٤؛ والاستيعاب للنَّمري، ٥٨٩/٢-٥٩١.

[2] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٧٠/١؛ وأسباب النزول للواحديّ، ص ١٥٥-١٥٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٦/١.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ شروع في تفصيل أحوالهنّ وبيانِ كيفيّة القيام عليهنّ بحسب اختلاف أحوالهنّ، أي: فالصالحات منهنّ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مُطيعات لله تعالى قائماتٌ بحقوق الأزواج، ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: لمواجب الغيب، أي: لِما يجب عليهنّ حِفظه في حال غَيبة الأزواج مِن الفُروج والأموال؛ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «خيرُ النساء امرأةٌ إن نظرتَ إليها سَرَّتْك، وإن أمرتَها أطاعَتْك، وإذا غِبْتَ عنها حفِظتْك في مالها ونفسها»، وتَلَا الآيةَ.[1] وقيل: لأسرارهم، وإضافة "المال" إليها للإشعار بأنّ ماله في حقّ التصرّف في حُكم مالها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ الآية [النساء، ٥/٤].

﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: بحفظه تعالى إيّاهنّ بالأمر بحفظ الغيب والحَثّ عليه بالوعد والوعيد والتوفيق له، أو موصولةٌ، أي: بالذي حَفِظ الله لهنّ عليهم مِن المَهر والنَّفَقة والقيام بحفظهنّ والذَّبِّ عنهنّ. وقُرِئ: "بِمَا حَفِظَ اللهَ"[2] بالنصب على حذف المضاف، أي: بالأمر الذي حَفِظ حقَّ الله تعالى وطاعتَه، وهو التعفّف والشفقة على الرجال.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ خطاب للأزواج وإرشاد لهم إلى طريق القيام عليهنّ. والخوف: حالة تحصُل في القلب عند حدوث أمرٍ مكروهٍ أو عند الظنّ أو العلم بحدوثه، وقد يُراد به أحدهما، أي: تَظُنّون عِصيانَهنّ وترفُّعَهنّ عن مُطاوَعتكم. مِن "النَّشْز"، وهو المرتفِع مِن الأرض.

[٣٤ظ] / ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ فانصِحُوهنّ بالترغيب والترهيب، ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ﴾ بعد ذلك إن لم ينفع الوعظ والنصيحةُ ﴿فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: في المَراقد، فلا تُدخلوهنّ تحت اللُّحُف، ولا تُباشروهنّ، فيكون كنايةً عن الجِماع. وقيل: ﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾: المَباآتُ، أي: لا تُبايِتوهنّ. وقُرِئ: "فِي المَضْجَعِ"،[3] و"فِي المُضْطَجَعِ".[4] ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾

---

[1] جامع البيان للطبري، ٦٩٣/٦. ونحوه في مسند أحمد، ٢٢٣/٧ (٧٤١٥)؛ وسنن ابن ماجة، ٦٢/٣ (١٨٥٨)؛ وسنن أبي داود، ٩٧/٣ (١٦٦٤).

[2] قرأ بها أبو جعفر مِن القرّاء العشرة. النشر لابن الجزري، ٢٤٩/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم النخعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٤.

[4] قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ٥٠٧/١.

إن لم يَنجَع ما فعلتم مِن العِظة والهُجران، ضربًا غيرَ مبرِّح ولا شائنٍ.

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾ بذلك، كما هو الظاهر؛ لأنّه منتهى ما يُعَدّ زاجرًا، ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ بالتوبيخ والأذِيّة، أي: فأَزيلوا عنهنّ التعرّضَ، واجعَلوا ما كان منهنّ كأنْ لم يكن؛ فإنّ التائب مِن الذنب كمَن لا ذنبَ له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ فاحذَروه؛ فإنّه تعالى أقدَرُ عليكم منكم على مَن تحت أيديكم، أو إنّه تعالى -على عُلُوّ شأنه- يتجاوز عن سيّئاتكم ويتوبُ عليكم عند توبتكم، وأنتم أحقُّ بالعَفْو عن أزواجكم عند إطاعتهنّ لكم، أو إنّه يتعالى ويكبر أن يظلِم أحدًا أو يُنقصَ حقَّه. وعدمُ التعرّض لعدم إطاعتهنّ لهم للإيذان بأنّ ذلك ليس[1] ممّا ينبغي أن يتحقّق أو يُفرَضَ تحقّقه، وأنّ الذي يُتوقّع منهنّ ويَليق بشأنهنّ -لاسيّما بعدما كان ما كان مِن الزواجر- هو الإطاعة؛ ولذلك صُدّرت الشرطيّة بـ"الفاء" المُنبئةِ عن سببيّةِ ما قبلها لِما بعدها.

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾

﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى الحُكّام، واردٌ على بناء الأمر على التقدير المسكوت عنه، أعني: عدم الإطاعة المؤدِّي إلى المخاصَمة والمرافعة إليهم. والشِّقاق: المخالَفة؛ إمّا لأنّ كلًّا منهما يريد ما يشُقّ على الآخَر، وإمّا لأنّ كلًّا منهما في شِقٍّ، أي: جانبٍ غيرِ شِقّ الآخَر. و"الخوف" ههنا بمعنى العِلم، قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما.[2] والجَزم بوجود الشِّقاق لا يُنافي بعثَ الحَكمَين؛ لأنّه / لرجاء إزالته، لا لتَعرّف وجوده بالفعل. وقيل: [٣٥و]
بمعنى الظنّ. وضمير التثنية للزوجين -وإن لم يَجرِ لهما ذِكر- لجَرْي ما يدلّ عليهما. وإضافة "الشِّقاق" إلى الظرف إمّا على إجرائه مُجرى المفعول به، كما في قوله: "يا سارقَ الليلةِ"، أو مُجرى الفاعل، كما في قولك: "نهارُه صائمٌ".

---

[1] س - ليس.

[2] التفسير البسيط للواحدي، ٦/٤٩٤؛ اللباب لابن عادل، ٦/٣٦٧.

أي: إن علمتم أو ظننتم تأكُّدَ المخالفة بحيث لا يقدر الزوجُ على إزالتها، ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾ أي: إلى الزوجين لإصلاح ذاتِ البَيْن ﴿حَكَمٗا﴾ رَجلًا وَسَطًا صالحًا للحكومة والإصلاح ﴿مِّنۡ أَهۡلِهِۦ﴾ مِن أهل الزوج ﴿وَحَكَمٗا﴾ آخرَ على صفة الأوّل ﴿مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾؛ فإنّ الأقارب أعرَفُ ببواطن الأحوال وأطلَبُ للصلاح. وهذا على وجه الاستحباب؛ فلو نُصِبَا مِن الأجانب جَازَ.

واختُلف في أنّهما هل يَلِيانِ الجمع والتفريقَ إن رأَيَا ذلك، فقيل: لهما ذلك، وهو المَرويّ عن عليّ رضي الله عنه،[1] وبه قال الشَّعبي.[2] وعن الحسن:[3] «يَجمعان ولا يفرِّقان».[4] وقال مالك: «لهما أن يتخالعَا إن كان الصلاح فيه».[5]

﴿إِن يُرِيدَآ﴾ أي: الحَكمان ﴿إِصۡلَٰحٗا﴾ أي: إن قصدَا إصلاحَ ذاتِ البَيْن وكانت نِيّتهما صحيحةً وقلوبُهما ناصحةً لوجه الله تعالى، ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ﴾ يُوقِعْ بين الزوجين الموافقة والأُلفةَ، وألقى في نفوسهما المَوَدّة والرَّأفةَ. وعدم التعرّض لذكر عدم إرادتهما الإصلاحَ لِما ذُكر مِن الإيذان بأنّ ذلك ليس ممّا ينبغي أن يُفرَض صدوره عنهما، وأنّ الذي يليق بشأنهما ويُتوقّع صدوره عنهما هو إرادة الإصلاح. وفيه مزيدُ ترغيب للحَكمَين في الإصلاح وتحذيرٌ عن المساهلة كيلا يُنسَبَ اختلال الأمر إلى عدم إرادتهما؛ فإنّ الشرطيّة الناطقة بدَوَران وجود التوفيق على وجود الإرادة منبِئةٌ عن دَوَران عدمه على عدمها.

[٣٥ظ] وقيل: كِلا الضميرين / للحَكمَين، أي: إن قصدَا الإصلاحَ يُوفِّق الله بينهما فيتّفق كلمتهما ويحصل مقصودهما. وقيل: كلاهما للزوجين، أي: إن أرادَا إصلاحَ ما بينهما مِن الشِّقاق أوقَعَ الله تعالى بينهما الألفة والوِفاقَ. وفيه تنبيه على أنّ مَن أصلح نِيّته فيما يتوخّاه وَفّقه الله لمُبتغاه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾ بالظواهر والبواطن، فيَعلم كيف يرفع الشِّقاق ويُوقِع الوِفاق.

---

١ **جامع البيان** للطبري، ٧١٨/٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٨/١.

٢ **جامع البيان** للطبري، ٧٢٥/٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٨/١.

٣ أي: الحسن البصري.

٤ **جامع البيان** للطبري، ٧١٩/٦-٧٢١؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٠٨/١.

٥ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٧٣/٢.

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ كلام مبتدأ مَسوق لبيان الأحكام المتعلِّقة بحقوق الوالدَين والأقارب ونحوهم إثرَ بيان الأحكام المتعلِّقة بحقوق الأزواج. صُدِّر بما يتعلّق بحقوق الله عزّ وجلّ التي هي آكَدُ الحقوق وأعظَمُها تنبيهًا على جلالة شأن حقوق الوالدَين بنظمها في سِلكها كما في سائر المواقع. و﴿شَيْـًٔا﴾ نصب على أنّه مفعول، أي: لا تُشركوا به شيئًا مِن الأشياء صَنَمًا أو غيرَه، أو على أنّه مصدر، أي: لا تُشركوا به شيئًا مِن الإشراك جَلِيًّا أو خَفِيًّا.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: أَحسِنوا بهما إحسانًا، ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: بصاحب القَرابة مِن أخ أو عمّ أو خالٍ أو نحو ذلك، ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ مِن الأجانب، ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: الذي قرُبَ جِواره. وقيل: الذي له مع الجِوار قُرب واتّصالٌ بنسَب أو دِين. وقُرئ بالنصب[1] على الاختصاص تعظيمًا لحقّ الجار ذِي القُربى. ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي: البعيدِ، أو الذي لا قَرابةَ له. وعنه صلّى الله عليه وسلّم: «الجِيران ثلاثةٌ: فجارٌ له ثلاثةُ حقوقٍ: حقُّ الجِوار وحقُّ القَرابة وحق الإسلام، / وجارٌ له حقّان: حقُّ الجِوار وحقُّ الإسلام، وجارٌ له حقٌّ واحدٌ [٣٦و]
هو حقُّ الجِوار، وهو الجارُ مِن أهل الكتاب».[2] وقُرئ: "وَالجَارِ الجَنْبِ".[3]

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ أي: الرفيقِ في أمر حَسَن، كتعلّم وتصرّف وصِناعة وسفَرٍ؛ فإنّه صَحِبَك وحصل بجانبك، ومنهم مَن قعَدَ بجَنْبك في مسجد أو مجلس أو غير ذلك مِن أدنى صُحبةٍ التَأَمَتْ بينك وبينه. وقيل: هي المرأة. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافِر المنقطَع به، أو الضيف. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ مِن العَبيد والإماء.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٥.

٢ هو باختلاف يسير في شعب الإيمان للبيهقي، ١٠٥/١٢ (٩١١٣). والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٧٤/٢.

٣ هي رواية أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري عن المفضّل عن عاصم. السبعة لابن مجاهد، ص ٢٣٣؛ الحجّة لأبي عليّ الفارسي، ١٥٧/٣. وهي غير القراءة المشهورة لعاصم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي: متكبِّرًا يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يَلتفت إليهم، ﴿فَخُورًا﴾ يتفاخر عليهم. والجملة تعليل للأمر السابق.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بضمّ الباء وسكون الخاء، وقُرئ بفتح الأوّل،[1] وبفتحهما،[2] وبضمّهما.[3] والموصول بدل مِن قوله: ﴿مَن كَانَ﴾،[4] أو نصب على الذمّ، أو رفعٌ عليه، أي: هم الذين، أو مبتدأ خبرُه محذوفٌ، تقديرُه: الذين يبخَلون ويفعلون ويصنعون أحِقّاءُ بكلّ مَلامة. ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: مِن المال والغِنى، أو مِن نعوته صلّى الله عليه وسلّم التي بيّنها لهم في التوراة، وهو أنسَبُ بأمرهم للناس بالبُخل؛ فإنّ أحبارهم كانوا يكتُمونها ويأمرون أعقابهم بكَتْمها.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وُضع الظاهر مَوضِعَ المضمَر إشعارًا بأنّ مَن هذا شأنه فهو كافرٌ بنعمة الله تعالى، ومَن كان كافرًا بنعمته / تعالى فله [٣٦ظ] عذاب يُهينه، كما أهان النعمةَ بالبُخل والإخفاء. والآية نزلت في طائفة مِن اليهود كانوا يقولون للأنصار بطريق النصيحة: «لا تُنفقوا أموالَكم؛ فإنّا نخشى عليكم الفَقْرَ»،[5] وقيل: في الذين كتموا نعتَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[6] والجملة اعتراض تذييليّ مقرِّرٌ لِما قبلها.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: للفَخار ولِيقالَ: ما أسخاهم وما أجودَهم؛

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبيد بن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٤.
[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٩.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٤
[4] في الآية السابقة.
[5] جامع البيان للطبري، ٧/٢٤؛ أسباب النزول للواحدي، ص ١٥٧.
[6] جامع البيان للطبري، ٧/٢٢؛ أسباب النزول للواحدي، ص ١٥٦.

لا لابتغاء وجه الله تعالى. وهو عطفٌ على ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ أو على ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾.[١] وإنّما شاركوهم في الذمّ والوعيد؛ لأنّ البُخل والسَّرَف -الذي هو الإنفاق فيما لا ينبغي- مِن حيث إنّهما طرفَا تفريطٍ وإفراطٍ سواءٌ في القُبح واستتباعِ اللائمة والذمّ. ويجوز أن يكون العطف بناءً على إجراء التغاير الوصفيّ مُجرى التغاير الذاتيّ، كما في قوله:

إلى المَلِك القَرْمِ وابنِ الهُمَام ولَيثِ الكَتائبِ في المُزْدَحَمْ[٢]

أو مبتدأ خبرُه محذوف يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ﴾... إلخ، كأنّه قيل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ليتحرَّوْا بالإنفاق مَراضِيَه تعالى وثوابَه. وهم مشركوا مكّةَ المنفِقون أموالَهم في عداوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقيل: المنافقون. ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ أي: فقَرينهم الشيطانُ، وإنّما حُذف للإيذان بظهوره واستغنائه عن التصريح به. والمراد به إبليسُ وأعوانه؛ حيث حملوهم على تلك القبائح وزيّنوها لهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء، ٢٧/١٧]. / ويجوز أن يكون وعيدًا لهم بأنّ الشيطان يُقرَن بهم في النار. [٣٧و]

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: على مَن ذُكر مِن الطوائف ﴿لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: ابتغاءَ لوجه الله تعالى.[٣] وإنّما لم يصرِّح به تعويلًا على التفصيل السابق، واكتفاءً بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر؛[٤] فإنّه يقتضي أن يكون الإنفاق لابتغاء وجهه تعالى وطلب ثوابه البتّةَ، أي: وما الذي عليهم،

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] البيت بلا نسبة في جامع البيان للطبري، ١٨٩/٣ (البقرة، ١٧٧/٢)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤١/١ (البقرة، ٤/٢)؛ وحياة الحَيَوان الكبرى للدَّميري، ٣٣٩/٢؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٤٥١/١، وفي كلّها: "الكتيبة" بدلَ "الكتائب". | القَرْم: السيّد. والهُمام: الملِكُ العظيم الهمّةِ. الصحاح للجوهري، «قرم، همم».

[٣] ط س: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: على مَن ذُكر مِن الطوائف ابتغاءً لوجه الله.

[٤] س – الآخِر.

أو وأيُّ تَبِعةٍ ووَبالٍ عليهم في الإيمان بالله والإنفاق في سبيله. وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة والاعتقادِ في الشيء بخلاف ما هو عليه، وتحريضٌ على التفكّر لطلب الجواب، لعلّه يُؤدّي بهم إلى العلم بما فيه مِن الفوائد الجليلة والعوائد الجميلة،[١] وتنبيهٌ على أنّ المَدعوّ إلى أمر لا ضَرَرَ فيه ينبغي أن يُجيب إليه احتياطًا، فكيف إذا كان فيه منافعُ لا تُحصَى!

وتقديم الإيمان بهما لأهميّته في نفسه ولعدم الاعتداد بالإنفاق بدونه. وأمّا تقديم إنفاقهم رِئاءَ الناس على عدم إيمانهم بهما -مع كون المؤخَّر أقبحَ مِن المقدَّم- فلِرعاية المناسبةِ بين إنفاقهم ذلك وبين ما قبله مِن بُخلهم وأمرهم للناس به.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ﴾ وبأحوالهم المحقّقة ﴿عَلِيمًا﴾ فهو وعيد لهم بالعقاب، أو بأعمالهم المفروضة، فهو بيان لإثابته تعالى إيّاهم لو كانوا قد آمنوا وأنفقوا، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ المِثقال: مِفعال مِن "الثِّقْل"، كـ"المِقدار" مِن "القَدْر". وانتصابه على أنّه نعتٌ للمفعول قائمٌ مَقامَه، [٣٧ظ] سواء كان الظلم بمعنى النقص أو بمعنى / وضع الشيء في غير مَوضِعه، أي: لا ينقص مِن الأجر ولا يزيد في العقاب شيئًا مقدارَ ذَرّةٍ، أو على أنّه نعتٌ للمصدر المحذوف نائبٌ مَنابَه، أي: لا يظلم ظلمًا مقدارَ ذَرّةٍ، وهي النَّمْلة الصغيرة أو كلُّ جُزء مِن أجزاء الهَباء في الكُوّة، وهو الأنسبُ بمقام المبالغة؛ فإنّ قِلّته في الثِّقل أظهرُ مِن قِلّة النَّمْلة فيه. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه أدخل يَدَه في التُّراب، ثمّ نفَخَ فيه، فقال: «كلُّ واحدة مِن هؤلاء ذَرّةٌ».[٢]

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾ أي: وإن تكُ مِثقالَ ذرّةٍ حسَنةً. أُنّث لتأنيث الخبر أو لإضافته إلى الذرّة، وحُذف النون مِن غير قياس تشبيهًا بحروف العِلّة وتخفيفًا لكثرة الاستعمال. وقُرئ: "حَسَنَةٌ"[٣] بالرفع على أنّ "كان" تامّةٌ. ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ أي: يُضاعِفْ ثوابَها. جعل ذلك مضاعَفةً لنفس الحسَنة تنبيهًا على كمال الاتّصال بينهما، كأنّهما واحد.

---

١ س: الجليلة.

٢ **التفسير البسيط** للواحدي، ٥١٥/٦؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥١١/١.

٣ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٤٩/٢.

وقُرئ: "يُضَعِّفْهَا"،[١] وكلاهما بمعنى واحد. وقُرئ: "نُضَاعِفْهَا"[٢] بنُون العَظَمة على طريقة الالتفات. عن عثمانَ النَّهْدي أنّه قال لأبي هريرة رضي الله عنه: بلغني عنك أنّك تقول: سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إنّ الله تعالى يُعطي عبده المؤمنَ بالحَسَنة ألفَ ألفِ حَسَنةٍ»، قال أبو هريرة: لا؛ بل سمعتُه صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يُعطيه ألفَيْ ألفَيْ حَسَنةٍ»، ثمّ تَلَا هذه الآية.[٣] والمراد الكثرة، لا التحديد.

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ﴾ ويُعطِ صاحبَها مِن عنده على نهج التفضّل زائدًا على ما وعده في مقابلة العمل ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ عطاءً جزيلًا. وإنّما سمّاه ﴿أَجْرًا﴾ لكونه تابعًا للأجر مزيدًا عليه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝٤١﴾

﴿فَكَيْفَ﴾ مَحلّها إمّا الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، وإمّا النصب بفعل محذوف على التشبيه بالحال، كما هو رأي / سيبويه، أو على التشبيه [٣٨و] بالظرف، كما هو مذهب الأخفش، أي: فكيف حالُ هؤلاء الكَفَرة مِن اليهود والنصارى وغيرهم، أو كيف يصنعون ﴿إِذَا جِئْنَا﴾ يومَ القيامة ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم ﴿بِشَهِيدٍ﴾ يَشهَد عليهم بما كانوا عليه مِن فساد العقائد وقبائح الأعمال. وهو نبيّهم كما في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة، ١١٧/٥]. والعامل في الظرف مضمونُ المبتدأ والخبر مِن هَول الأمر وعِظم الشأن، أو الفعل المقدَّرُ. و﴿مِن﴾ متعلِّقة بـ﴿جِئْنَا﴾.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمّدُ ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى الشهداء المدلول عليهم بما ذُكر. ﴿شَهِيدًا﴾ تَشهَد على صِدقهم لعِلمك بعقائدهم لاستجماع شرعك لمجامع قواعدهم. وقيل: إلى المكذِّبين المستفهَم عن حالهم، تَشهَد عليهم بالكفر والعصيان،

---

١ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٥.

٣ س + الكريمة. | هو باختلاف يسير في مسند أحمد، ٤٤٣/١٦ (١٠٧٦٠)؛ وجامع البيان للطبري، ٣١/٧-٣٢. وفي الأوّل: "أبو عثمان" بدلَ "عُثمانَ النَّهْدي"، وفي الثاني: "أبو عُثمانَ النَّهْدي".

كما تَشهَد[١] سائرُ الأنبياء على أُمَمِهم. وقيل: إلى المؤمنين كما في قوله تعالى:[٢] ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة، ١٤٣/٢].

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾﴾

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ استئناف لبيان حالهم التي أشيرَ إلى شدّتها وفظاعتها بقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ﴾.[٣] فإن أريدَ بهم المكذِّبون لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالتعبير عنهم بالموصول -لاسيّما بعد الإشارة إليهم بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾-[٤] لذَمّهم بما في حيّز الصلة والإشعارِ بعلّة ما اعتراهم مِن الحال الفظيعة والأمر الهائل. وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتشريفه وزيادة تقبيح حال مكذِّبيه؛ فإنّ حقّ الرسول أن يُؤمَن به ويطاعَ، لا أن يُكفَر به ويُعصَى. وإن أريدَ بهم جنسُ الكَفَرة، فهم داخلون في زُمرتهم دخولًا أوّليًا. والمراد بـ﴿الرَّسُولَ﴾ حينئذ الجنس المنتظِم للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم انتظامًا أوّليًا. وأيًّا ما كان، ففيه مِن تهويل الأمر وتفظيع الحال ما لا يقادَر قدره.

وقوله تعالى: ﴿عَصَوُا﴾ عطفٌ على ﴿كَفَرُوا﴾ داخلٌ معه في الصلة. والمراد معاصيهم المغايِرةُ لكفرهم. ففيه دلالة على أنّ الكُفّار مخاطَبون بفروع الشرائع في حقّ المؤاخذة. وقيل: حال مِن ضمير ﴿كَفَرُوا﴾. وقيل: صلةُ موصولٍ آخَرَ،

[٣٨ظ] / أي: يَوَدّ في ذلك اليوم الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الرسول، أو الذين كفروا وقد عصَوا الرسولَ، أو الذين كفروا والذين عصَوا الرسولَ.

و﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إن جُعلت مصدريّةً، فالجملة مفعول لـ﴿يَوَدُّ﴾، أي: يَوَدّون أن يُدفَنوا فتُسوَّى بهم الأرض[٥] كالموتى. وقيل: يَوَدّون أنّهم لم يُبعَثوا أو لم يُخلَقوا، وكأنّهم والأرضَ سواءٌ. وقيل: تَصير البهائم تُرابًا،

---

[١] كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: يشهد.

[٢] م – تعالى.

[٣] في الآية السابقة.

[٤] في الآية السابقة.

[٥] وفي هامش م: أي: تُسوّى الأرض عليهم ملتبِسةً بهم. «منه».

فيَوَدّون حالها. وإن جُعلت جاريةً على بابها، فالمفعول محذوف لدلالة الجملة عليه، أي: يَوَدّون تسويةَ الأرض بهم. وجواب ﴿لَوْ﴾ أيضًا محذوف إيذانًا بغاية ظهوره، أي: لَسُرُّوا بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ عطفٌ على ﴿يَوَدُّ﴾، أي: ولا يقدِرون على كِتمانه؛ لأنّ جوارحهم تشهَد عليهم. وقيل: الواو للحال، أي: يَوَدّون أن يُدفَنوا في الأرض وهم لا يكتمون منه تعالى حديثًا ولا يكذِبونه بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، ٢٣/٦]؛ إذ رُوي أنّهم إذا قالوا ذلك خَتَمَ الله على أفواههم، فتشهَد عليهم جوارحهم، فيشتدّ الأمر عليهم، فيتمنَّوْنَ أن تُسوَّى بهم الأرض.[١]

وقُرئ: "تَسَّوَّى"[٢] على أنّ أصله: "تَتَسَوَّى"، فأُدغِمَ التاء في السين. وقُرئ: "تَسَوَّى"[٣] بحذف التاء الثانية، يقال: سوَّيتُه فتسوَّى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ لمّا نُهُوا فيما سلف عن الإشراك به تعالى، نُهُوا ههنا عمّا يؤدّي إليه مِن حيث لا يحتسبون. فإنّه رُوي أنّ عبد الرحمن بن عوف[٤] صنع طعامًا وشرابًا حين كان الخمر مُباحةً،

١ **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٦/١. ونحوها في **جامع البيان** للطبري، ٤٤/٧.

٢ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٢٤٩/٢.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٢٤٩/٢.

٤ هو عبد الرحمن بن عوف بن عبدِ عوف بن عبد الحارث الزهري القرشي، أبو محمّد (ت. ٣٢هـ/٦٥٢م). أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، وأحد الستّة أصحاب الشُّورى الذين جعل عمر الخلافةَ فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام. كان اسمه في الجاهليّة "عبد عمرو"، وقيل: "عبد الكعبة"، فسمّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "عبد الرحمن". شهد بدرًا وأُحدًا والمشاهدَ كلّها. وأعتق في يوم واحد ثلاثين عبدًا. وكان يحترف التجارة والبيع والشراء. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ١٢٤/٣-١٢٧؛ و**الاستيعاب** للنّمري، ٨٤٤/٢-٨٥٠.

فدعا نَفَرًا مِن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فأكلوا وشرِبوا حتّى ثَمِلوا، وجاء وقت صلاة المَغرب، فتقدَّم أحدهم ليُصلّيَ بهم، فقرأ: "أعبد ما تعبدون"، فنزلت.[١] وتصدير الكلام بحرفَي النداء والتنبيه للمبالغة في حملهم على العمل بموجَب النهي. وتوجيه النهي إلى قُربان الصلاة -مع أنّ المراد هو النهي عن إقامتها- للمبالغة في ذلك.

وقيل: المراد النهي عن قُربان المساجد كقوله عليه السلام: «جَنِّبوا مساجدَكم صِبيانكم ومجانينَكم».[٢] ويأباه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾. فالمعنى: لا تُقيموها في حالة السُّكر حتّى تعلموا قبل الشروع ما تقولونه؛ إذ بتلك التجربة يظهر أنّهم يعلمون ما سيقرءُونه في الصلاة.

وحملُ ﴿مَا تَقُولُونَ﴾ على ما في الصلاة يستدعي تقدّمَ الشروع فيها على غاية النهي. وحملُ العِلم على ما بالقوّة على معنى: "حتّى تكونوا بحيث تعلمون ما ستقرءُونه في الصلاة" تطويلٌ بلا طائل؛ لأنّ تلك الحيثيّة إنّما تظهر بما ذُكر مِن التجربة، على أنّ إيثار ﴿مَا تَقُولُونَ﴾ على "ما تقرءُون" حينئذ يكون عاريًا عن الداعي.

[٣٩و] وقيل: المراد بالسُّكْر سكرُ النُّعاس / وغَلَبةُ النوم. وأيًّا ما كان، فليس مَرجِع النهي هو المقيَّدَ مع بقاء القيد مرخَّصًا بحاله؛ بل إنّما هو القيد مع بقاء المقيَّد على حاله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾ [النساء، ١٠٣/٤]، كأنّه قيل: يا أيّها الذين آمنوا، لا تَسكَروا في أوقات الصلاة. وقد رُوي أنّهم كانوا بعد ما نزلت الآية لا يشرَبون الخمرَ في أوقات الصلاة، فإذا صَلُّوا العِشاءَ شربوها، فلا يُصبِحون إلّا وقد ذهب عنهم السُّكْر وعلِموا ما يقولون.[٣]

---

[١] **سنن أبي داود،** ٥/٥١٥ (٣٦٧١)؛ **سنن الترمذي،** ٥/٢٣٨ (٣٠٢٦).

[٢] **سنن ابن ماجة،** ١/٤٨١ (٧٥٠)؛ **السنن الكبرى للبيهقي،** ١٠/١٧٧ (٢٠٢٦٨)؛ **الكشّاف للزمخشري،** ١/٥١٣.

[٣] **الكشّاف للزمخشري،** ١/٥١٣. ونحوه في **جامع البيان للطبري،** ٣/٦٨٣-٦٨٤ (البقرة، ٢/٢١٩). وانظر لتخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي،** ١/٣٢٢ (٣٣١).

﴿وَلَا جُنُبًا﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، فإنّه في حيّز النصب، كأنّه قيل: لا تقرَبوا الصلاةَ سُكارى ولا جُنُبًا. والجُنُب: مَن أصابه الجَنابة، يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث والواحد والجمع لجرَيانه مَجرى المصدر.

﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال، محلُّه النصب على أنّه حال مِن ضمير ﴿لَا تَقْرَبُوا﴾ باعتبار تقيُّده بالحال الثانية دون الأولى، والعامل فيه فعلُ النهي، أي: لا تقربوا الصلاةَ جُنُبًا في حالٍ مِن الأحوال إلّا حالَ كونكم مسافِرين، على معنى أنّ في حالة السفَر ينتهي حكم النهي؛ لكنْ لا[1] بطريق شمول النفي لجميع صُوَرها، بل بطريق نفي الشمول في الجملة مِن غير دلالة على انتفاء خصوصيّة البعض المنتفي، ولا على بقاء خصوصيّة البعض الباقي، ولا على ثبوت نقيضه، لا كليًا ولا جزئيًا؛ فإنّ الاستثناء لا يدلّ على ذلك عبارةً. نعم، يشير إلى مخالفة حكمِ ما بعده لِما قبله إشارةً إجماليّةً يُكتفى بها في المقامات الخِطابيّة، لا في إثبات الأحكام الشرعيّة؛ فإنّ مَلاكَ الأمر في ذلك إنّما هو الدليل، وقد وَرَدَ عقيبَه على طريقة البيان.

وقيل: هو صفة لـ﴿جُنُبًا﴾ على أنّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى "غير"، أي: إلّا جُنُبًا غيرَ عابرِي سبيلٍ. ومَن حمل ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على مواضعها فَسَّر "العُبور" بالاجتياز بها، وجَوَّز للجُنُب عبورَ المسجد، وبه قال الشافعي رحمه الله. وعندنا لا يجوز ذلك إلّا أن يكون الماء أو الطريق فيه. وقيل: إنّ رجالًا مِن الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، وكان يُصيبهم الجَنابة ولا يجدون مَمَرًّا إلّا في المسجد، فرُخِّص لهم ذلك.[2]

﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ غاية للنهي عن قُربان الصلاة حالةَ الجَنابة. ولعلّ تقديمَ الاستثناء عليه للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ حُكم النهي في هذه الصورة ليس على الإطلاق كما في صورة السُّكْر، تشويقًا إلى البيان ورَوْمًا لزيادة تقرُّره في الأذهان. وفي الآية الكريمة إشارة إلى أنّ المصلّيَ حقُّه أن يتحرّز عمّا يُلهيه ويُشغِل قلبَه، وأن يُزكّيَ نفسَه عمّا يدنّسها، ولا يكتفيَ بأدنى مراتب التزكية عند إمكان أعَاليها.

---

[1] س – لا.

[2] الكشّاف للزمخشري، ٥١٤/١. وهو باختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٥٧/٧.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ شروع في تفصيل ما أُجملَ في الاستثناء وبيانِ ما هو في حُكم المستثنَى مِن الأعذار. والاقتصار فيما قبلُ على استثناء السَّفَر مع مشاركة الباقي له في حُكم الترخيص للإشعار بأنّه العُذر الغالب المُنبِئ عن الضرورة التي عليها يدور أمر الرُّخصة، كأنّه قيل: ولا جُنُبًا إلّا مُضطرِّين. وإليه مَرجِعُ ما قيل مِن أنّه جُعل ﴿عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ كنايةً عن مطلَق المعذورِين. والمراد بالمَرَض ما يَمنع مِن استعمال الماء مطلَقًا، سواء كان ذلك بتعذّر الوصول إليه أو بتعذّر استعماله.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ عطفٌ على ﴿مَرْضَىٰٓ﴾، أي: أو كنتم على سَفرٍ ما، طال أو قصُر. وإيراده صريحًا -مع سبق ذِكره بطريق الاستثناء- لبناء الحُكم الشرعيّ عليه وبيان كيفيّته؛ فإنّ الاستثناء -كما أشيرَ إليه- بمَعزِل مِن الدلالة على ثبوته، فضلًا عن الدلالة على كيفيّته. وتقديم المرَض عليه للإيذان بأصالته واستقلاله بأحكام لا توجَد في غيره، كالاشتداد باستعمال الماء ونحوه.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ هو المكان الغائر المطمئنّ. والمَجيء منه كنايةٌ عن الحَدَث؛ لأنّ المعتاد أنّ مَن يريده يذهب إليه ليُوارِيَ شخصَه عن أعيُنِ الناس. / وإسناد المَجيء منه إلى واحد مبهَم مِن المخاطَبين دونهم [٣٩ظ] للتفادي عن التصريح بنسبتهم إلى ما يُستحيا منه أو يُستهجن التصريح به. وكذلك إيثار الكناية فيما عُطف عليه مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ على التصريح بالجِماع.

ونظمُهما في سِلك سببَي سقوط الطهارة والمصيرِ إلى التيمّم مع كونهما سببَي وجوبها ليس باعتبار أنفسهما؛ بل باعتبار قيدهما المستفادِ مِن قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾؛ بل هو السبب في الحقيقة، وإنّما ذُكِرَا تمهيدًا له، وتنبيهًا على أنّه سبب للرُّخصة بعد انعقاد سبب الطهارة الصُّغرى والكُبرى، كأنّه قيل: أو لم تكونوا مرضَى أو مسافِرين؛ بل كنتم فاقدين للماء بسببٍ مِن الأسباب مع تحقّق ما يوجب استعمالَه.

وتخصيص ذِكره بهذه الصورة -مع أنّه معتبَر في صورة المرَض والسَّفَر أيضًا- لندرة وقوعه فيها واستغنائهما عن ذكره؛ إمّا لأنّ الجَنابة معتبَرة فيهما قطعًا،

فيعلم حكمها مِن حكم الحدث[١] الأصغر بدلالة النصّ؛ لأنّ تقدير النظم: لا تقربوا الصلاةَ في حال الجَنابة إلّا حالَ كونكم مسافِرين، فإن كنتم كذلك أو كنتم مرضى... إلخ، وإمّا لِما قيل[٢] مِن أنّ عموم إعواز الماء في حقّ المسافر غالبٌ، والعجزَ عن استعمال الماء القائم مَقامَ عدمه في حقّ المريض مُغنٍ عن ذكره لفظًا. وما قيل مِن أنّ هذا القيد راجعٌ إلى الكلّ وأنّ قيد وجوب التطهّر المَكنِيّ عنه بالمَجيء مِن الغائط والملامسة معتبَرٌ في الكلّ ممّا لا يساعده النظم الكريم.

﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فتعمّدوا شيئًا مِن وجه الأرض طاهرًا. قال الزجّاج: «الصعيد: وجهُ الأرض تُرابًا أو غيرَه، وإن كان صَخرًا لا تُرابَ عليه، لو ضرب المتيمِّمُ يَدَه عليه ومسَح، لكان ذلك طَهورَه»،[٣] وهو مذهب أبي حنيفةَ رحمه الله. وعند الشافعي لا بدّ مِن أن يَعلَق باليد شيءٌ مِن التُّراب. ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ﴾ أي: إلى المِرفقَين، لِما رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم تيمَّمَ ومسَح يدَيه إلى مِرفقَيه،[٤] ولأنّه بدل مِن الوُضوء، فيُقدَّر بقدره.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ تعليل للترخيص والتيسير وتقريرٌ لهما؛ فإنّ مَن عادته المستمرّةُ أن يعفُوَ عن الخطّائين ويغفِرَ للمذنِبين لا بدّ مِن أن يكون ميسِّرًا، لا معسِّرًا. وقيل: هو كناية عنهما؛ فإنّ الترفيه والمسامحة مِن روادف العَفْو وتوابع الغُفران.[٥]

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾

/ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتعجيب المؤمنين [٤٠و] مِن سُوء حالهم والتحذيرِ عن مُوالاتهم. والخطاب لكلّ مَن يتأتّى منه الرُّؤية

---

١ ط س: فيُعلَم مِن حكمها حكمُ الحَدَث. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ وفي هامش م: قاله صاحب الكشف. «منه». | يعني سراج الدين القَزويني، قاله في الكشف عن مشكلات الكشّاف، ٩٦ظ.

٣ معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢/٥٦.

٤ نحوه في سنن أبي داود، ١/٢٣٥-٢٣٦ (٣٣١). والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٧٦.

٥ في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

مِن المؤمنين. وتوجيهه إليه ههنا -مع توجيهه فيما بعدُ[١] إلى الكلّ مَعًا- للإيذان بكمال شُهرة شناعة حالهم، وأنّها بلغت مِن الظهور إلى حيث يتعجّب منها كلُّ مَن يراها. والرؤية بَصَريّة، أي: ألم تنظر إليهم؛ فإنّهم أحِقّاءُ بأنْ تشاهِدهم وتتعجّبَ مِن أحوالهم. وتجويز كونها قَلبيّةً على أنّ ﴿إِلَى﴾ لتضمّنِها معنى الانتهاء -كما فعلوه- يأباه مقام تشهير شنائعهم ونظمِها[٢] في سِلك الأمور المشاهَدة.

والمراد بهم أحبار اليهود. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّها نزلت في حَبْرَيْن مِن أحبار اليهود كانا يأتيان رأسَ المنافقين عبد الله بنَ أُبيّ ورَهطةَ يثبّطانِهم عن الإسلام.[٣] وعنه رضي الله عنه أيضًا أنّها نزلت في رِفاعةَ بنِ زيد ومالك بنِ دَخْشَمٍ[٤] كانا إذا تكلّم رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم لَوَيَا لسانَهما وعاباه.[٥]

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ هو **التوراة**، وحملُه على جنس الكتاب المنتظِمِ لها انتظامًا أوّليًّا تطويلٌ للمَسافة، وبـ"الذي أُوتُوه" ما بيّن لهم فيها مِن الأحكام والعلوم التي مِن جملتها ما علِموه مِن نعوت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحَقّيّة الإسلام. والتعبير عنه بـ"النصيب" المنبِئ عن كونه حقًّا مِن حقوقهم التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها للإيذان بكمال رَكاكة آرائهم، حيث ضيّعوه تضييعًا. وتنوينه تفخيميّ مؤيِّدٌ للتشنيع عليهم والتعجيب مِن حالهم. فالتعبير عنهم بالموصول للتنبيه بما في حيّز الصلة على كمال شناعتهم والإشعارِ بمكان ما طُوِيَ ذكره في المعاملة المَحكيّة عنهم مِن الهدى الذي هو أحد العِوَضين. وكلمة ﴿مِنْ﴾ متعلِّقة إمّا بـ﴿أُوتُوا﴾، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿نَصِيبًا﴾ مبيِّنةً لفخامته الإضافيّة إثرَ بيان فخامته الذاتيّة، أي: نصيبًا كائنًا مِن الكتاب.

[٤٠ظ] وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ / قيل: هو حال مقدَّرة مِن واوِ ﴿أُوتُوا﴾. ولا ريبَ في أنّ اعتبار تقدير اشترائهم المذكور في الإيتاء ممّا لا يليق بالمقام.

---

١ وفي هامش م: في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾... إلخ. «منه».

٢ كذا حرّكها المصنّف.

٣ تفسير الرازي، ١٠/٩١؛ تفسير النيسابوري، ٢/٤٢١.

٤ كذا ضبطها المصنّف.

٥ نحوه في جامع البيان للطبري، ٧/٩٩؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣/٣٢٣. والألفاظ مِن اللباب لابن عادل، ٦/٤٠٣.

وقيل: حال مِن الموصول، أي: ألم تنظر إليهم حالَ اشترائهم... إلخ.[١] والذي يقتضيه جزالة النظم الكريم أنّه استئناف مبيّن لمَناط التشنيع ومدار التعجيب المفهومَين مِن صدر الكلام على وجه الإجمال والإبهام، مَبنيٌّ على سؤالٍ نشأ منه، كأنّه قيل: ماذا يصنعون حتّى يُنظَرَ إليهم؟ فقيل: يأخذون الضلالةَ ويتركون ما أُوتوه مِن الهداية. وإنّما طُوِيَ ذكر المتروك لغاية ظهور الأمر، لاسيّما بعد الإشعار المذكور.

والتعبير عن ذلك بالاشتراء الذي هو عبارة عن استبدال السِّلعة بالثَّمَن -أي: أخذِها بدلًا منه أخذًا ناشئًا عن الرغبة فيها والإعراضِ عنه- للإيذان بكمال رغبتهم في الضلالة التي حقُّها أن يُعرَض عنها كلَّ الإعراض وإعراضِهم عن الهداية التي يتنافس فيها المتنافِسون. وفيه مِن التسجيل على نهاية سخافة عقولهم وغايةِ رَكاكة آرائهم ما لا يخفى؛ حيث صُوّرت حالهم بصورةٍ ما لا يكاد يتعاطاه أحد ممّن له أدنى تمييزٍ.

وليس المرادُ بالضلالة جنسَها الحاصلَ لهم مِن قبلُ حتّى يُخِلَّ بمعنى الاشتراء المنبِئ عن تأخّرها عنه؛ بل هو فردها الكامل، وهو عِنادهم وتَماديهم في الكفر بعد ما علِموا بشأن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وتيقّنوا بحَقّيّة دِينه، وأنّه هو النبيّ العربيّ المبشَّر به في التوراة، ولا ريبَ في أنّ هذه المَرتبة لم تكن حاصلةً لهم قبل ذلك، وقد مرّ في أوائل سورة البقرة.[٢]

﴿وَيُرِيدُونَ﴾ عطفٌ على ﴿يَشْتَرُونَ﴾ شريكٌ له في بيان محلّ التشنيع والتعجيب،[٣] وصيغة المضارع / فيهما للدلالة على الاستمرار التجدّديّ؛ فإنّ تجدّد [٤١و] حكم اشترائهم المذكور وتكرّرَ العمل بموجَبه في قوّة تجدّد نفسه وتكرّرِه، أي: لا يَكتفُون بضلال أنفسهم؛ بل يريدون بما فعلوا مِن كِتمان نعوته صلّى الله عليه وسلّم ﴿أَن تَضِلُّوا﴾ أنتم أيضًا أيّها المؤمنون ﴿السَّبِيلَ﴾ المستقيمَ المُوصِلَ إلى الحقّ.

---

١ وفي هامش م: وأنت خبيرٌ بأنّه خالٍ عن إفادة أنّ مادّة التشنيع والتعجيب هو الاشتراء المذكور وما عُطف عليه. «منه».

٢ انظر: البقرة ١٦/٢.

٣ وفي هامش م: وأمّا تجدّد إرادتهم، فغنيّ عن البيان. «منه».

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥﴾

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ أي: منكم ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ جميعًا، ومِن جملتهم هؤلاء، وقد أخبركم بعداوتهم لكم وما يريدون بكم لتكونوا على حَذَر منهم ومِن مخالطتهم، أو هو أعلمُ بحالهم ومآل أمرهم. والجملة معترِضة لتقرير إرادتهم المذكورة.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ في جميع أموركم ومصالحكم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ في كلّ المَواطن؛ فثِقُوا به واكتَفُوا بولايته ونُصرته، ولا تتولَّوْا غيرَه، أو لا تُبالوا بهم وبما يسُومونكم مِن السُّوء؛ فإنّه تعالى يَكفيكم مَكرَهم وشرَّهم. ففيه وعدٌ ووعيدٌ.

و"الباء" مزيدة في فاعل ﴿كَفَىٰ﴾ لتأكيد الاتّصال الإسناديّ بالاتّصال الإضافيّ. وتكرير الفعل في الجملتين مع إظهار الجلالة في مقام الإضمار -لاسيّما في الثاني- لتقوية استقلالهما المناسِب للاعتراض، وتأكيدِ كفايته عزّ وجلّ في كلٍّ مِن الولاية والنُّصرة، والإشعارِ بعِلّتهما؛ فإنّ الألوهيّة مِن موجِباتهما لا محالةَ.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ قيل: هو بيان لـ﴿أَعۡدَآئِكُمۡ﴾،[1] وما بينهما اعتراض. وفيه أنّه لا وجهَ لتخصيص علمه سبحانه بطائفة مِن أعدائهم، لاسيّما في مَعرِض الاعتراض الذي حقُّه العموم والإطلاق وانتظامُ ما هو المقصود في المقام انتظامًا أوّليًّا كما أشيرَ إليه.

وقيل: هو صلة لـ﴿نَصِيرٗا﴾،[2] أي: ينصركم مِن الذين هادوا، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود، ٦٣/١١]. وفيه ما فيه مِن تحجيرِ واسعِ نُصرته عزّ وجلّ، مع أنّه لا داعيَ إلى / وضع الموصول مَوضِعَ ضمير "الأعداء"؛ لأنّ ما في حيّز الصلة ليس بوصف مُلائِم للنصر. [٤١ظ]

---

١ في الآية السابقة.

٢ في الآية السابقة.

وقيل: هو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ وقع قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ صفةً له، أي: مِن الذين هادوا قومٌ أو فريق يحرِّفون... إلخ. وفيه أنّه يقتضي كونَ الفريق السابق بمَعزِل مِن التحريف الذي هو المِصداق لاشترائهم في الحقيقة.

فالذي يليق بشأن التنزيل الجليل أنّه بيان للموصول الأوّل المتناوِلِ بحسب المفهوم لأهل الكتابين، قد وُسّط بينهما ما وُسّط لمزيد الاعتناء ببيان محلّ التشنيع والتعجيب، والمسارَعةِ إلى تنفير المؤمنين منهم، وتحذيرِهم عن مخالطتهم، والاهتمامِ بحملهم على الثقة بالله عزّ وجلّ والاكتفاءِ بولايته ونُصرته، وأنّ قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ وما عُطف عليه بيانٌ لاشترائهم المذكور وتفصيلٌ لفنون ضلالتهم. وقد رُوعِيَت في النظم الكريم طريقةُ التفسير بعد الإبهام والتفصيلِ إثرَ الإجمال رَوْمًا لزيادة تقريرٍ يقتضيها[1] الحال.

و﴿ٱلْكَلِمَ﴾ اسمُ جنس، واحده: "الكلمة"، كـ"تَمْر" و"تَمْرة". وتذكير ضميره باعتبار إفراده لفظًا، وجمعيّةُ مواضعه باعتبار تعدّده معنًى. وقُرئ بكسر الكاف وسكون اللام،[2] جمع "كِلْمَة" تخفيف "كَلِمَة". وقُرئ: "يُحَرِّفُونَ الكَلَامَ".[3] والمراد به ههنا إمّا ما في التوراة خاصّةً، وإمّا ما هو أعمُّ منه وممّا سيُحكَى عنهم مِن الكلمات المعهودة الصادرة عنهم في أثناء المحاورة مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ولا مَساغ لإرادة تلك الكلمات خاصّةً[4] بأنْ يُجعل عطفُ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾... إلخ على ما قبله عطفًا تفسيريًّا لِما ستقف على سِرّه.

فإن أريدَ به الأوّل -كما هو رأي الجمهور- فتحريفه إزالتُه عن مواضعه التي وضعه الله تعالى فيها مِن التوراة، كتحريفهم في نعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: "أَسْمَرُ رَبْعَةٌ" عن مَوضِعه في التوراة بأنْ وضعوا / مكانَه: "آدَمُ طُوَالٌ"،[5] [٤٢و]

---

١ م س: يقتضيه ["صح" في هامش م].

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى والنخَعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ والسلمي والنخَعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٦.

٤ وفي هامش م: في التوراة خاصّةً. «منه».

٥ التفسير الوسيط للواحدي، ١٦٣/١؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٦/١. وفي سنن الترمذي، ٢٣٣/٤ (١٧٥٤)، عن أنس: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رَبْعَةً، ليس بالطويل ولا بالقصير، حَسَنَ الجسم، أَسْمَرَ اللّون...».

وكتحريفهم الرَّجْمَ بوضعهم بدلَه الحَدَّ، أو[١] صَرْفُه عن المعنى الذي أنزله الله تعالى فيه إلى ما لا صحّةَ له بالتأويلات الزائغة الملائِمة لشهَواتهم الباطلة. وإن أريدَ به الثاني، فلا بدّ مِن أن يُراد بـ﴿مَوَاضِعِهِ﴾ ما يليق به مطلَقًا، سواء كان ذلك بتعيينه تعالى صريحًا، كمواضعِ ما في **التوراة**، أو بتعيين العقل والدين، كمواضع غيره.

وأيًّا ما كان، فقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ ينبغي أن يُجرَى على إطلاقه مِن غير تقييد بزمان أو مكانٍ، ولا تخصيصٍ بمادّة دون مادّةٍ؛ بل وأن يُحمَل على ما هو أعمُّ مِن القول الحقيقيّ وممّا يُترجِم عنه عنادهم ومكابرتُهم ليندرجَ فيه ما نطقت به ألسنة حالهم عند تحريف **التوراة**؛ فإنّ مَن لا يتفَوَّهُ بتلك العظيمة لا يكاد يتجاسر على مثل هذه الجناية؛ وإلّا فحملُه على ما قالوه في مجلس النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن القبائح خاصّةً يستدعي اختصاصَ حُكم الشرطيّة الآتية وما بعدها بهنّ مِن غير تعرّضٍ لتحريفهم **التوراة** مع أنّه معظَم جناياتهم المعدودة. ومِن ههنا انكشف لك السرّ الموعود، فتأمَّلْ. أي: يقولون في كلّ أمر مخالِف لأهوائهم الفاسدة -سواء كان بمَحضَر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم[٢] أو لا- بلسان المقال أو الحالِ: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، عنادًا وتحقيقًا للمخالفة.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ عطفٌ على ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ داخلٌ تحت القول، أي: ويقولون ذلك في أثناء مخاطبته صلّى الله عليه وسلّم خاصّةً. وهو كلام ذُو وجهين محتمِلٌ للشرّ بأنْ يُحمَل على معنى: اسمَعْ حالَ كونك غيرَ مُسمَعٍ كلامًا أصلًا بصَمَمٍ[٣] أو موتٍ، أي: مدعوًّا عليك بـ"لا سمِعتَ" أو "غيرَ مُسمَعٍ" كلامًا ترضاه، فحينئذ يجوز أن يكون نصبه على المفعوليّة، وللخير بأنْ يُحمَل على "اسمَعْ منّا غيرَ مُسمَعٍ مكروهًا". كانوا يخاطبون به النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم استهزاءً به، مُظهِرين له عليه السلام إرادةَ المعنى الأخير / وهم مضمِرون في أنفسهم[٤] المعنى الأوّلَ مطمئِنّون به. [٤٢ظ]

[١] السياق: فتحريفه إزالته... أو صرفه...
[٢] س - صلّى الله عليه وسلّم.
[٣] الصَّمَم في الأُذُن: ذَهاب سمعها. **تهذيب اللغة** للأزهري، ٨٨/١٢ «باب الصاد والميم».
[٤] س - في أنفسهم.

﴿وَرَٰعِنَا﴾ عطفٌ على ﴿ٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾، أي:[١] ويقولون[٢] في أثناء خطابهم له صلّى الله عليه وسلّم هذا أيضًا، يُوردون كلًّا مِن العظائم الثلاث في مواقعها. وهو أيضًا كلمةٌ ذاتُ وجهين محتمِلةٌ للخير بحملها على معنى "ارقُبنا أو انتظِرْنا نُكلِّمْك"، وللشرّ بحملها على السَّبّ بالرُّعُونة، أي: الحُمْق، أو بإجرائها مُجرى ما يُشبِهها مِن كلمة عِبرانيّةٍ أو سُريانيّةٍ كانوا يتسابُّون بها -وهي "رَاعِينَا"- كانوا يخاطِبونه عليه السلام بذلك يَنْوُون الشتيمةَ والإهانةَ ويُظهرون التوقير والاحترام. ومَصيرهم إلى مَسلَك النِّفاق في القولين الأخيرين مع تصريحهم بالعصيان في الأوّل لِما قالوا مِن أنّ جميع الكَفَرة كانوا يواجِهونه بالكفر والعصيان، ولا يواجِهونه بالسَّبّ ودعاءِ السُّوء. وقيل: كانوا يقولون الأوّلَ فيما بينهم. وقيل: يجوز أن لا ينطِقوا بذلك؛ ولكنّهم لمّا لم يؤمنوا به جُعلوا كأنّهم نطَقوا به.

﴿لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ﴾ أي: فَتْلًا بها وصَرْفًا للكلام عن نهجه إلى نسبة السَّبّ؛ حيث وضعوا ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ مَوضِعَ "لا أُسمِعتَ مكروهًا"، وأَجرَوْا ﴿رَٰعِنَا﴾ المشابِهةَ لـ"رَاعِينَا" مُجرى "انظُرْنا"، أو فَتْلًا بها وضَمًّا ما يُظهرونه مِن الدعاء والتوقير إلى ما يُضمرونه مِن السَّبّ والتحقير. ﴿وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: قَدْحًا فيه بالاستهزاء والسُّخريّة. وانتصابهما على العِلّيّة لـ﴿يَقُولُونَ﴾ باعتبار تعلّقه بالقولين الأخيرين، أي: يقولون ذلك لصَرف الكلام عن وجهه إلى السَّبّ والطَّعْن في الدين، أو على الحاليّة، أي: لَاوِينَ وطاعنين في الدين.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ﴾ عندما سمعوا شيئًا مِن أوامر الله تعالى ونواهيه ﴿قَالُواْ﴾ بلسان المقال أو بلسان الحال مكانَ قولهم: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾. إنّما أعيدَ ﴿سَمِعۡنَا﴾ -مع أنّه متحقِّق في كلامهم، وإنّما الحاجة إلى وضع ﴿أَطَعۡنَا﴾ مكانَ ﴿عَصَيۡنَا﴾- لا للتنبيه على عدم اعتباره؛ بل على اعتبار عدمه. كيف لا، وسَماعهم سَماعُ الردّ، ومرادهم بحكايته إعلامُ أنّ عصيانهم للأمر بعد سماعه والوقوف عليه، فلا بدّ مِن إزالته وإقامة سماع القَبول مُقامَه.

---

[١] س - أي.

[٢] س: أو يقولون.

﴿وَٱسۡمَعۡ﴾ أي: لو قالوه عند مخاطبة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بدلَ قولِهم: ﴿ٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾. ﴿وَٱنظُرۡنَا﴾ / أي: ولو قالوا ذلك بدلَ قولهم: ﴿رَٰعِنَا﴾، ولم [٤٣و]
يَدُسّوا تحت كلامهم شرًّا وفسادًا. أي: لو ثبت أنّهم قالوا هذا مكانَ ما قالوا مِن الأقوال، ﴿لَكَانَ﴾ قولُهم ذلك ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ ممّا قالوا ﴿وَأَقۡوَمَ﴾ أي: أعدَلَ وأسَدَّ في نفسه. وصيغة التفضيل إمّا على بابها واعتبارِ أصل الفعل في المفضَّل عليه بناءً على اعتقادهم أو بطريق التهكّم، وإمّا بمعنى اسم الفاعل. وإنّما قُدّم في البيان حالُه بالنسبة إليهم على حاله في نفسه؛ لأنّ هِمَمَهم مقصورة على ما ينفعهم.

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ أي: ولكنْ لم يقولوا ذلك، واستمرّوا على كفرهم؛ فخذَلهم الله تعالى، وأبعدَهم عن الهدى بسبب كفرهم ذلك. ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ قيل: أي: إلّا إيمانًا قليلًا، لا يُعبَأ به، وهو الإيمان ببعض الكُتب والرُّسل، أو إلّا زمانًا قليلًا، وهو زمان الاحتضار، فإنّهم يؤمنون حين لا ينفعهم الإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ﴾ [النساء، ١٥٩/٤]. وكِلاهما ليس بإيمان قطعًا.

وقد جُوّز أن يراد بالقِلّة العدمُ بالكلّيّة على طريقة قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ[١] إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الدخان، ٥٦/٤٤]، أي: إن كان الإيمان المعدومُ إيمانًا، فهُمْ يُحدثون شيئًا مِن الإيمان. فهو في المعنى تعليقٌ بالمُحال. وأنت خبير بأنّ الكلّ يأباه ما يعقُبه مِن الأمر بالإيمان بالقرآن الناطق بهذا، لإفضائه حينئذ إلى التكليف بالمُحال الذي هو إيمانهم بعدم إيمانهم المستمرّ. أمّا على الوجه الأخير فظاهرٌ، وأمّا على الأوّلَين؛ فلِأنّ أمرهم بالإيمان المنجَز بجميع الكُتب والرُّسل تكليفٌ لهم بإيمانهم بعدم إيمانهم ببعض الكُتب والرُّسل، وبعدم إيمانهم إلى وقت الاحتضار.

فالوجه أن يُحمَل "القليل" على مَن يؤمن بعد ذلك؛ لكنْ لا يُجعل المستثنى منه ضميرَ الفاعل في ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لاقتضائه وقوعَ إيمان مَن لعنَه الله تعالى وخذَله،

---

[١] م – الموت.

مع ما فيه مِن نسبة القُرّاء إلى الاتّفاق على غير المختار؛ بل بجعله ضميرَ المفعول في ﴿لَعَنَهُمُ﴾، أي: ولكنْ لعنهم الله إلّا فريقًا قليلًا؛ فإنّه تعالى لم يلعَنهم، فلم ينسدَّ عليهم بابُ الإيمان. وقد آمَنَ بعد ذلك فريق مِن الأحبار كعبد الله بنِ سلَام وكعبٍ وأضرابهما كما سيأتي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إمّا إلى مَن حُكيت أحوالهم وأقوالهم خاصّةً بطريق الالتفات. ووصفُهم تارةً بإيتاء الكتاب -أي: **التوراة**- وأخرى بإيتاء نصيب منها لتوفية كلٍّ مِن المقامين حظَّه؛ فإنّ المقصود فيما سبق بيان أخذهم الضلالةَ وإزالةِ ما أُوتوه بمقابلتها بالتحريف، وليس ما أزالوه بذلك كلَّها حتّى يوصَفوا بإيتائه؛ بل هو بعضها، فوُصِفوا بإيتائه، وأمّا ههنا فالمقصود تأكيد إيجاب الامتثال بالأمر الذي يعقُبه، والتحذيرُ عن مخالفته مِن حيث إنّ الإيمان بالمصدَّق موجِبٌ للإيمان بما يصدِّقه، والكفرَ بالثاني مقتضٍ للكفر بالأوّل قطعًا، ولا ريبَ في أنّ المحذور عندهم إنّما هو لزوم الكفر **بالتوراة** نفسِها، لا ببعضها، وذلك[1] إنّما يتحقّق بجعل **القرآن** / مصدِّقًا [٤٣ظ] لكلّها -وإن كان مَناطُ التصديق بعضًا منها- ضرورةَ أنّ مصدِّق البعض مصدِّقٌ للكلّ المتضمِّن له حتمًا. وإمّا[2] إليهم وإلى غيرهم قاطبةً، وهو الأظهر.

وأيًّا ما كان، فتفصيلُ ما فُصّل لمّا كان مِن مَظانّ إقلاع كلٍّ مِن الفريقين عمّا كانوا عليه مِن الضلالة، عُقّب ذلك بالأمر بالمبادرة إلى سلوك مَحَجّة الهداية مشفوعًا بالوعيد الشديد على المخالفة، فقيل: ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ مِن **القرآن**. عُبّر عنه بالموصول تشريفًا له بما في حيّز الصلة وتحقيقًا لكونه مِن عنده عزّ وجلّ.

---

[1] وفي هامش م: أي: لزوم الكفر بنفس التوراة. «منه».

[2] السياق: تلوين للخطاب وتوجيهٌ له إمّا إلى مَن حُكيتْ أحوالُهم... وإمّا إليهم وإلى غيرهم قاطبةً...

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ مِن التوراة. عُبّر عنها بذلك[١] للإيذان بكمال وقوفهم على حقيقة الحال؛ فإنّ المَعيّة المستلزمة[٢] لدوام تلاوتها وتكرُّر المراجعة إليها مِن موجِبات العُثور على ما في تضاعيفها المؤدّي إلى العلم بكون القرآن مصدِّقًا لها.

ومعنى تصديقه إيّاها نزولُه حسبما نُعِت لهم فيها، أو كونُه موافِقًا لها في القِصص والمواعيد والدعوة إلى التوحيد والعدل بين الناس والنهيِ عن المَعاصي والفواحش. وأمّا ما يتراءَى مِن مخالفته لها في جُزئيّات الأحكام بسبب تفاوُت الأمم والأعصار، فليست بمخالفة في الحقيقة؛ بل هي عين الموافقة مِن حيث إنّ كلًّا منها حقٌّ بالإضافة إلى عصره متضمِّنٌ للحكمة التي عليها يدور فَلَكُ التشريع، حتّى لو تأخَّرَ نزول المتقدِّم لَنزل على وَفْقِ المتأخِّر، ولو تقدَّمَ نزول المتأخِّر لَوافق المتقدِّمَ قطعًا؛ ولذلك قال عليه السلام: «لو كان موسى حَيًّا لَما وَسِعَه إلّا اتّباعِي».[٣]

﴿مِن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ متعلِّق بالأمر مفيد للمسارعة إلى الامتثال به والجِدِّ في الانتهاء عن مخالفته بما فيه مِن الوعيد الشديد الواردِ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه؛ حيث لم يعلَّق / وقوع المتوعَّد به بالمخالفة، ولم يصرَّح بوقوعه عندها تنبيهًا على أنّ ذلك [٤٤و] أمر محقَّقٌ غنيٌّ عن الإخبار به، وأنّه على شَرَف الوقوع متوجِّهٌ نحو المخاطَبين.

وفي تنكير "الوجوه" المفيدِ للتكثير تهويلٌ للخَطْب، وفي إبهامها لطفٌ بالمخاطَبين وحسنُ استدعاءٍ لهم إلى الإيمان. وأصل الطَّمْس: مَحْو الآثار وإزالةُ الأعلام، أي: آمِنوا مِن قبل أن نَمحُوَ تخطيطَ صُوَرها ونُزِيلَ آثارَها. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «نَجعَلَها كخُفِّ البعير أو كحافر الدابّة».[٤] وقال قتادة والضحّاك: «نُعمِيَها»،[٥] كقوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر، ٣٧/٥٤]. وقيل:[٦] نجعَلَها مَنابِتَ الشَّعر كوجوه القِرَدة.

---

١ وفي هامش م: في مَوقِع الإضمار. «منه».

٢ ط س: المستدعية.

٣ مسند أحمد، ٣٤٩/٢٣ (١٥١٥٦)؛ سنن الدارمي، ٤٠٣/١ (٤٤٩)، كلاهما باختلاف يسير.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٤/٣. وهو بلا نسبة في الوجيز للواحدي، ص ٢٦٧.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٤/٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦٦٧/٣. ونحوه عن قتادة في جامع البيان للطبري، ١١٤/٧.

٦ وفي هامش م: فرّاء. | معاني القرآن للفرّاء، ٢٧٢/١.

﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ فنجعَلَها على هيئة أدبارها وأقفائها مطموسةً مِثلَها؛ فـ"الفاء" للتسبيب، أو ننكُسَها بعد الطَّمس ونرُدَّها[1] إلى موضع الأقفاء والأقفاءَ إلى موضعها، وقد اكتُفِيَ بذكر أشدّهما؛ فـ"الفاء" للتعقيب.

وقيل: المراد بـ"الوُجوه" الوُجَهاء، على أنّ الطَّمس بمعنى مطلَق التغيير، أي: مِن قبل أن نغيِّر أحوال وُجَهائهم فنسلُبَ إقبالَهم ووَجاهتَهم ونكسُوَهم صغارًا وإدبارًا، أو نرُدَّهم مِن حيث جاءوا منه، وهي أَذْرِعاتُ الشام، فالمراد بذلك إجلاء بني النَّضير. ولا يخفى أنّه لا يساعده مقام تشديد الوعيد وتعميمِ التهديد للجميع؛ فالوجه ما سبق مِن الوجوه.

وقد اختُلف في أنّ الوعيد هل كان بوقوعه في الدنيا أو في الآخرة؟ فقيل: كان بوقوعه في الدنيا. ويؤيّده ما رُوي أنّ عبد الله بنَ سلَام لمّا قدِم مِن الشام -وقد سمِع هذه الآيةَ- أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يأتيَ أهلَه، فأسلَمَ وقال: «يا رسولَ الله، ما كنتُ أرى أن أصِلَ إليك حتّى يتحوّلَ وجهي إلى قَفائي»،[2] وفي روايةٍ: جاء إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويَدُه على وجهه وأسلَمَ وقال ما قال.[3] وكذا ما رُوي أنّ عمرَ رضي الله عنه قرأ هذه الآيةَ على كعب الأحبار، فقال كعب: «يا ربِّ آمنتُ، يا ربِّ أسلمتُ»، مَخافةَ أن يُصيبه وعيدها.[4]

ثمّ اختَلَفوا، فقيل: إنّه منتظَر بعدُ، ولا بدّ مِن طَمس في اليهود / ومَسخٍ، [٤٤ظ]
وهو قول المبرّد.[5] وفيه أنّ انصراف العذاب الموعود عن أوائلهم -وهم الذين باشَروا أسبابَ نزوله وموجِباتِ حلوله؛ حيث شاهدوا شواهد النبوّة في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فكذّبوها، وفي التوراة فحرَّفوها، وأصرُّوا على الكفر والضلالة، وتعلَّقَ بهم خطاب المشافَهة بالوعيد- ثمّ نزولَه على مَن وُجِد بعد مِئاتٍ مِن السِّنِين مِن أعقابهم الضالّينَ بإضلالهم العالِمين بما مَهّدوا مِن قوانين الغواية بعيدٌ مِن حكمة الله العزيز الحكيم.

---

١ س: فنردّها.

٢ **تفسير السمرقندي**، ٣٣٣/١؛ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٣٢٤/٣.

٣ **معالم التنزيل للبغوي**، ٢٣١/٢؛ **السراج المنير للشربيني**، ٣٠٧/١.

٤ **التفسير الوسيط للواحدي**، ٦٣/٢. وهو مفصّلًا في **جامع البيان للطبري**، ١١٨/٧-١١٩.

٥ **الكشف والبيان للثعلبي**، ٣٢٤/٣.

وقيل: إنّ وقوعه كان مشروطًا بعدم الإيمان، وقد آمن مِن أحبارهم المذكورانِ وأضرابُهما؛ فلم يقع. وفيه أنّ إسلام بعضهم، إن لم يكن سببًا لتأكّد نزول العذاب على الباقين لتشديدهم النكيرَ والعنادَ بعد ازدياد الحقّ وضوحًا وقيامِ الحُجّة عليهم بشهادة أماثلهم العُدول، فلا أقلّ مِن أن لا يكونَ سببًا لرفعه عنهم.

وقيل: كان الوعيد بوقوع أحد الأمرين كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾؛[1] فإن لم يقع الأمر الأوّل، فلا نِزاعَ في وقوع الثاني. كيف لا، وهم ملعونون بكلّ لسان في كلّ زمان. وتفسير "اللعن" بالمَسخ ليس بمقرَّرٍ البتّةَ. وأنت خبير بأنّ المتبادر مِن اللعن المشبَّه بلعن أصحاب السَّبت هو المَسخ. وليس في عطفه على الطَّمس والردِّ على الأدبار شائبةُ دلالةٍ على عدم إرادة المَسخ ضرورةَ أنّه تغيير مغايِرٌ لِما عُطف عليه، على أنّ المتوعَّد به لا بدّ أن يكون أمرًا حادثًا مترتِّبًا على الوعيد محذورًا عندهم ليكون / مَزجَرةً عن مخالفة الأمر؛ ولم يُعهَد أنّه وقع عليهم لعنٌ بهذا الوصف. إنّما الواقع عليهم ما تَداوَلته الألسنة مِن اللعن المستمرّ الذي أَلِفوه. وهو بمَعزِل مِن صلاحيّةِ أن يكون حُكمًا لهذا الوعيد أو مَزجَرةً للعنيد. [٤٥و]

وقيل: إنّما كان الوعيد بوقوع ما ذُكر في الآخرة عند الحشر، وسيقع فيها -لا محالةَ- أحدُ الأمرين أو كِلاهما على سبيل التوزيع. وأمّا ما رُوي عن عبد الله بنِ سلَام وكعب رضي الله عنهما، فمَبنيٌّ على الاحتياط اللائق بشأنهما. والحقّ أنّ النظم الكريم ليس بنصّ في أحد الوجهين؛ بل المتبادر منه بحسب المقام هو الأوّل؛ لأنّه أدخَلُ في الزجر، وعليه مَبنى ما رُوي عن الحَبرَيْن، لكنْ لمّا لم يتّضح وقوعُه عُلِم أنّ المراد هو الثاني. والله تعالى أعلم.

وأيًا ما كان، فلعلّ السرَّ في تخصيصهم بهذه العقوبة مِن بين العقوبات مراعاةُ المشاكلة بينها وبين ما أوجبها مِن جنايتهم التي هي التحريف والتغيير. والله هو العليم الخبير.

---

[1] وفي هامش م: الضمير لأصحاب الوجوه. «منه».

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أمر به كائنًا ما كان، أو أمرُه بإيقاع شيءٍ ما مِن الأشياء ﴿مَفْعُولًا﴾ نافذًا كائنًا لا محالةَ؛ فيدخل فيه ما أُوعِدتم به دخولًا أوّليًا. فالجملة اعتراض تذييليّ مقرّرٌ لِما سبق. ووضعُ الاسم الجليل مَوضِعَ الضمير بطريق الالتفات لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقويةِ ما في الاعتراض مِن الاستقلال.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لتقرير ما قبله مِن الوعيد وتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بالإيمان ببيان استحالة المغفرة بدونه؛ فإنّهم كانوا يفعلون ما يفعلون مِن التحريف ويطمَعون في المغفرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: على التحريف ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف، ١٦٩/٧].

والمراد بـ"الشرك" مطلق الكفر / المنتظِم لكفر اليهود انتظامًا أوّليًا؛ فإنّ الشرع قد نصّ على إشراك أهل الكتاب قاطبةً، وقضى بخلود أصناف الكفَرة في النار. ونزوله في حقّ اليهود -كما قال مقاتل،[1] وهو الأنسبُ بسباق النظم الكريم وسياقه- لا يقتضي اختصاصَه بكفرهم؛ بل يكفي اندراجه فيه قطعًا؛ بل لا وجهَ له أصلًا لاقتضائه جوازَ مغفرةِ ما دون كفرهم في الشدّة مِن أنواع الكفر، أي: لا يغفِر الكفرَ لمَن اتّصف به بلا توبةٍ وإيمانٍ؛ لأنّ الحكمة التشريعيّة مقتضية لسدّ باب الكفر، وجوازُ مغفرته بلا إيمان ممّا يُؤدّي إلى فتحه؛ ولأنّ ظُلُماتِ الكفر والمعاصي إنّما يستُرها نورُ الإيمان؛ فمَن لم يكن له إيمان، لم يُغفَر له شيء مِن الكفر والمعاصي. [٤٥ظ]

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ﴾ عطفٌ على خبر ﴿إِنَّ﴾، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الشرك، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُربه في الذِّكر للإيذان ببُعد درجته وكونِه في أقصى مراتب القُبح، أي: ويغفر ما دونه في القُبح مِن المعاصي -صغيرةً كانت أو كبيرةً-

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان، ٣٧٧/١.

تفضّلًا مِن لَدُنْهُ وإحسانًا مِن غير توبة عنها؛ لكنْ لا لكلّ أحد، بل ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لمَن يشاء أن يغفر له ممّن اتّصف به[١] فقط، لا بما فوقه؛[٢] فإنّ مغفرتهما[٣] لمَن اتّصف بهما[٤] سواءٌ في استحالة الدخول تحت المشيئة المَبنيّة على الحكمة التشريعيّة؛ فإنّ اختصاص مغفرة المعاصي مِن غير توبة بأهل الإيمان مِن متمِّمات الترغيب فيه والزجر عن الكفر.

ومَن عَلّق المشيئةَ بكِلا الفعلين وجعَلَ الموصول الأوّلَ عبارةً عمّن لم يَتُبْ والثانيَ عمّن تاب، فقد ضلّ سبيلَ الصواب؛ كيف لا، وإنّ مساق النظم الكريم لإظهار كمال عِظم جريمة الكفر وامتيازِه عن سائر المعاصي ببيان استحالة مغفرته وجواز مغفرتها؛ فلو كان الجواز على تقدير التوبة لم يظهر بينهما فَرقٌ للإجماع على مغفرتها بالتوبة، ولم يحصل ما هو المقصود مِن الزجر البليغ عن الكفر والطُّغيان والحملِ على التوبة والإيمان.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لزيادة تقبيح الإشراك وتفظيعِ حال مَن يَتّصف به. ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: افترى واختلق مرتكِبًا إثمًا لا يقادَر قدره ويُستحقر دونه جميع الآثام؛ فلا يتعلّق به / المغفرة قطعًا. [٤٦و]

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ تعجيب مِن حالهم المنافية لِما هم عليه مِن الكفر والطغيان. والمراد بهم اليهود الذين يقولون: «نحن أبناء الله وأحِبّاؤه»،[٥] وقيل: ناسٌ مِن اليهود جاءوا بأطفالهم إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا: «هل على هؤلاء ذنبٌ؟»، قال عليه السلام: «لا»، قالوا: «ما نحن إلّا كهيئتهم،

١ وفي هامش م: أي: بما دون ذلك. «منه».

٢ وفي هامش م: أي: فوق ما دون ذلك، وهو الشرك. «منه».

٣ وفي هامش م: أي: مغفرةُ ما دون ذلك وما فوقها. «منه».

٤ وفي هامش م: أي: بما دونه وما فوقه مِن الشرك. «منه».

٥ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة، ١٨/٥].

ما عمِلنا بالنهار كُفّر عنّا بالليل، وما عمِلنا بالليل كُفّر عنّا بالنهار»،[١] أي: انظُرْ إليهم فتعجَّبْ مِن ادّعائهم أنّهم أزكِياءُ عند الله تعالى مع ما هم عليه مِن الكفر والإثم العظيم، أو مِن ادّعائهم التكفيرَ مع استحالة أن يُغفَر للكافر شيءٌ مِن كفره أو معاصيه. وفيه تحذير مِن إعجاب المَرء بنفسه وبعمله.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: هم لا يُزَكّونها في الحقيقة لكَذِبهم وبُطلان اعتقادهم؛ بل اللهُ يزكِّي مَن يشاء تَزكِيتَه ممّن يستأهلها مِن المُرتضَيْنَ مِن عِباده المؤمنين؛ إذ هو العليم الخبير بما ينطوي عليه البَشر مِن المحاسن والمَساوي، وقد وصفهم بما هم متّصِفون به مِن القبائح. وأصلُ التزكية: نفيُ ما يُستقبح بالفعل أو بالقول.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ عطفٌ على جملةٍ قد حُذفت[٢] تعويلًا على دلالة الحال عليها وإيذانًا بأنّها غنيّة عن الذِكر، أي: يعاقَبون بتلك الفَعْلة القبيحة ولا يُظلَمون في ذلك العقاب. ﴿فَتِيلًا﴾ أي: أدنى ظلمٍ وأصغرَه. وهو الخَيْط الذي في شِقّ النُّواة، يُضرَب به المَثل في القِلّة والحقارة. وقيل: التقدير: يُثاب المُزكَّوْنَ ولا يُنقَص مِن ثوابهم أصلًا؛ ولا يساعده مقام الوعيد.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ﴿كَيْفَ﴾ نصب إمّا على التشبيه بالظرف، أو بالحال على الخلاف المشهور بين سيبويه والأخفش، والعامل ﴿يَفْتَرُونَ﴾، وبه يتعلّق ﴿عَلَى﴾، أي: في أيّ حال أو على أيّ حال يفترون عليه تعالى الكَذِبَ. والمراد بيان شناعة تلك الحال وكمال فظاعتها. والجملة في محلّ النصب بعد نزع الخافض، و"النظر" متعلِّق بهما.

وهو تعجيب إثرَ تعجيبٍ، وتنبيهٌ على أنّ ما ارتكبوه متضمِّنٌ لأمرين عظيمين موجِبَين للتعجّب: ادّعاؤهم الاتّصافَ بما هم متّصفون بنقيضه وافتراؤهم

---

١ انظر: **أسباب النزول للواحدي**، ص ١٥٩-١٦٠؛ **والكشّاف للزمخشري**، ١/٥٢٠.

٢ س: حذف.

[٤٦ظ] على الله سبحانه؛ فإنّ ادّعاءهم الزكاءَ عنده تعالى / متضمِّنٌ لادّعائهم قبول الله وارتضاءَه إيّاهم؛ تعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا؛ ولكون هذا أشنَعَ مِن الأوّل جُرمًا وأعظَمَ قُبحًا -لِما فيه مِن نِسبته سبحانه إلى ما يستحيل عليه بالكلّيّة مِن قبول الكفر وارتضائِه لعباده ومغفرةِ كفر الكافر وسائر معاصيه- وُجّه النظر إلى كيفيّته تشديدًا للتشنيع وتأكيدًا للتعجيب. والتصريح بالكَذِب -مع أنّ الافتراء لا يكون إلّا كَذِبًا- للمبالغة في تقبيح حالهم.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ﴾ أي: بافترائهم هذا مِن حيث هو افتراء عليه تعالى، مع قطع النظر عن مقارنته لتزكية أنفسهم وسائر آثامهم العِظام. ﴿إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ ظاهرًا بيّنًا كونُه إثمًا. والمعنى: كفى ذلك وحدَه في كونهم أشدَّ إثمًا مِن كلّ كفّار أثيم، أو في استحقاقهم لأشدّ العقوبات لِما مرّ سِرّه. وجعلُ الضمير لزعمهم ممّا لا مساغَ له لإخلاله بتهويل أمر الافتراء، فتدبَّرْ.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تعجيب مِن حالٍ أخرى لهم. ووصفُهم بما ذُكر مِن إيتاء النصيب لِما مرّ مِن منافاته لِما صدر عنهم مِن القبائح. وقوله عزّ وجلّ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ استئناف مبيّن لمادّة التعجيب، مبنيٌّ على سؤالٍ ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: ماذا يفعلون حتّى يُنظَر إليهم؟ فقيل: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾... إلخ. والجِبْت: الأصنام وكلُّ ما عُبِد مِن دون الله. قيل: أصله: "الجِبْس"، وهو الذي لا خيرَ عنده، فأُبدلَ السينُ تاءً. وقيل: الجِبت: الساحر، بلغة الحَبَشة. والطاغوت: الشيطان. قيل: هو في الأصل كلُّ ما يُطغي الإنسانَ.

رُوي أنّ حُيَيَّ بنَ أخطبَ وكعب بنَ الأشرف اليهوديَّين خرجَا إلى مكّةَ في سبعين راكبًا مِن اليهود ليحالِفوا قريشًا على محاربة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وينقُضوا العهدَ الذي كان بينهم وبينه عليه السلام، فقالوا: «أنتم أهل كتاب، وأنتم أقربُ إلى محمّد منكم إلينا؛ فلا نأمَن مَكرَكم، فاسجُدوا لآلهتنا

حتّى نطمئنَّ إليكم»، ففعلوا؛[1] فهذا إيمانهم بالجِبت والطاغوت؛ لأنّهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليسَ فيما فعلوا. وقال أبو سفيانَ[2] لكعب: «إنّك امرُؤٌ تقرأ الكتاب وتعلم، ونحن أُمّيّون لا نعلم؛ فأيُّنا أهدى طريقًا، / نحن أم محمّدٌ؟»، [٤٧و] فقال: «ماذا يقول محمّد؟»، قال: «يأمر بعبادة الله وحدَه، ويَنهى عن الشرك»، قال: «وما دِينكم؟»، قالوا:[3] «نحن وُلاة البيت؛ نَسقي الحاجَّ، ونَقري الضيفَ، ونفُكّ العانيَ»، وذكروا أفعالهم، قال: «أنتم أهدَى سبيلًا»؛[4] وذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: لأجلهم وفي حقّهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يَعنُونهم ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ أي: أقوَمُ دِينًا وأرشَدُ طريقةً. وإيرادهم بعنوان الإيمان ليس مِن قِبل القائلين؛ بل مِن جهة الله تعالى، تشريفًا[5] لهم بالوصف الجميل وتَخطِئةً لمَن رَجّح عليهم المتّصفين بأقبح القبائح.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى القائلين. وما فيه مِن معنى البُعد -مع قُربهم في الذِّكر- للإشعار ببُعد منزلتهم في الضلال. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أبعدهم عن رحمته وطردهم. والجملة مستأنَفة لبيان حالهم وإظهار مصيرهم ومآلهم.

﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ﴾ أي: يبعِدْه عن رحمته، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ يدفع عنه العذابَ، دُنيويًّا كان أو أُخرويًّا، لا بشفاعة ولا بغيرها. وفيه تنصيص على حِرمانهم

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/١. ونحوها في جامع البيان للطبري، ١٤٦/٧-١٤٧.

٢ هو صخر بن حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مَناف، أبو سفيان (ت. ٣١هـ/٦٥١-٦٥٢م). مِن سادات قريش في الجاهليّة. وهو والد معاوية رأس الدولة الأمويّة. كان تاجرًا. وكان مِن رؤساء المشركين في حرب الإسلام عند ظهوره: قاد قريشًا وكنانةَ يومَ أُحد ويوم الخندق لقتال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وأسلم يوم فتح مكّة. وشهد حُنينًا والطائف، ففُقئت عينه يوم الطائف، ثمّ فُقئت الأخرى يوم اليرموك، فعمِيَ. كان مِن الشجعان الأبطال. ولمّا تُوفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان أبو سفيان عامِلَه على نجران، ثمّ أتى الشام. انظر: الاستيعاب للنّمري، ٧١٤/٢-٧١٥؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ١٤٤/٦-١٤٥.

٣ س: قال.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٢١/١. وهو باختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ١٤٤/٧.

٥ س: تعريفًا.

ممّا طلبوا مِن قريش. وفي كلمة ﴿لَن﴾ وتوجيهِ الخطاب إلى كلّ أحد يتسنّى له الخطاب وتوحيدِ "النصير" منكَّرًا والتعبيرِ عن عدمه بعدم الوِجدان المُنبِئ عن سبق الطلب مُسنَدًا إلى المخاطَب العامّ مِن الدلالة على حِرمانهم الأبَديّ بالكلّيّة ما لا يخفى.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ شروع في تفصيلِ بعضٍ آخَرَ مِن قبائحهم. و﴿أَمْ﴾ منقطِعة، وما فيها مِن "بل" للإضراب والانتقالِ مِن ذمّهم بتزكيتهم أنفسَهم وغيرها ممّا حُكي عنهم إلى ذمّهم بادّعائهم نصيبًا مِن المُلك وببُخلهم المفرِط وشُحّهم البالغ. والهمزة لإنكارِ أن يكون لهم ما يدّعونه وإبطالِ ما زعموا أنّ المُلك / سيَصير إليهم. [٤٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ بيان لعدم استحقاقهم له؛ بل لاستحقاقهم الحِرمانَ منه بسبب أنّهم مِن البُخل والدَّناءة بحيث لو أُوتوا شيئًا مِن ذلك لَما أَعطَوا الناسَ منه أقلَّ قليلٍ، ومِن حقّ مَن أُوتيَ المُلكَ أن يؤثِر الغيرَ بشيء منه؛ فـ"الفاء" للسببيّة الجزائيّة لشرط محذوف، أي: إن جُعل لهم نصيب منه، فإذنْ لا يُؤتون الناسَ مقدارَ نَقيرٍ، وهو ما في ظَهر النَّواة مِن النُّقْرة، يُضرَب به المَثل في القِلّة والحقارة. وهذا هو البيان الكاشف عن كُنْه حالهم؛ وإذا كان شأنهم كذلك وهم ملوك، فما ظنُّك بهم وهم أذِلّاءُ متفاقِرون.

ويجوز ألّا يكون الهمزة لإنكار الوقوع؛ بل لإنكار الواقع والتوبيخ عليه، أي: لِعَدّه منكَرًا غيرَ لائق بالوقوع، على أنّ "الفاء" للعطف والإنكارَ[١] متوجِّه إلى مجموع المعطوفَين على معنى: ألَهُم نصيب وافرٌ مِن المُلك -حيث كانوا أصحابَ أموال وبَساتينَ وقصورٍ مشيَّدةٍ كالمُلوك- فلا يُؤتون الناس مع ذلك نَقيرًا! كما تقول لغنيّ لا يُراعِي أباه: ألَكَ هذا القدرُ مِن المال، فلا تُنفِقُ على أبيك شيئًا! وفائدة ﴿إِذًا﴾ تأكيدُ الإنكار والتوبيخ؛ حيث يجعلون ثبوتَ النصيب[٢]

---

١ ويمكن رفعها جملةً مستأنَفةً.

٢ س + لهم.

سببًا للمنع مع كونه سببًا للإعطاء، وهي مُلغاة عن العمل، كأنّه قيل: فلا يُؤتون الناسَ إذنْ. وقُرئ: "فَإِذَنْ لَا يُؤْتُوا"[1] بالنصب على إعمالها.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ منقطِعةٌ أيضًا مفيدةٌ للانتقال عن توبيخهم بما سبق إلى توبيخهم بالحسد الذي هو شرّ الرذائل وأقبحُها، لاسيّما على ما هم بمَعزِل مِن استحقاقه. و"اللام" في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للعهد والإشارةِ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين. وحملُه على الجنس -إيذانًا بحِيازتهم للكمالات البَشريّة قاطبةً؛ فكأنّهم هم الناس لا غيرُ- لا يُلائمه ذِكر حديث آل إبراهيمَ؛ فإنّ ذلك لتذكيرِ ما بين الفريقين مِن العلاقة الموجِبة لاشتراكهما في استحقاق الفضل.

[٤٨و] / والهمزة لإنكار الواقع واستقباحه؛ فإنّهم كانوا يطمعون أن يكون النبيّ الموعودُ منهم، فلمّا خَصَّ الله تعالى بتلك الكرامة غيرَهم، حَسَدوهم. أي: بل أيحسُدونهم ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يَعني: النبوّة والكتاب وازدياد العِزّ والنصر يومًا فيومًا.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ﴾[2] تعليل للإنكار والاستقباح، وإلزام لهم بما هو مسلَّم عندهم، وحسمٌ لمادّة حسَدهم واستبعادهم المَبنيَّين على توهّم عدم استحقاق المحسود لِما أُوتيَ مِن الفضل ببيان استحقاقه له بطريق الوِراثة كابرًا عن كابرٍ.[3] وإجراء الكلام على سَنَن الكِبرياء بطريق الالتفات لإظهار كمال العناية بالأمر. والمعنى: إنّ حسدهم المذكورَ في غاية القُبح والبُطلان؛

---

[1] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في **الكشّاف**، ٥٢٢/١، ونسبها إلى ابن مسعود رضي الله عنه.

[2] وفي هامش م: وجعلُ "الفاء" فصيحةً -كالتي في قوله: فقد جِئنا خُراسَانا- بعيدٌ. «منه».

[3] يُقال: وَرِثوا المجدَ كابرًا عن كابرٍ، أي: عظيمًا وكبيرًا عن كبيرٍ في الشَّرَف والعزّ، وَرِثوا عن آبائهم الذين وَرِثوه مِن أجدادهم الذين وَرِثوه مِن آبائهم، كبيرًا عن كبيرٍ في العزّ والشَّرَف. انظر: **تهذيب اللغة** للأزهري، ١٢٢/١٠ «أبواب الكاف والراء»؛ و**أساس البلاغة** للزمخشري، «كبر».

فإنّا قد آتينا مِن قبل هذا ﴿ءَالَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الذين هم أسلاف محمّد عليه السلام وأبناءُ أعمامه ﴿ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوّةَ، ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُم﴾ مع ذلك ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ لا يقادَر قدره؛ فكيف يستبعدون نبوّتَه عليه السلام ويحسدونه على إيتائها!

وتكرير الإيتاء لِما يقتضيه مقام التفصيل مع الإشعار بما بين النبوّة والمُلك مِن المغايرة. فإن أريدَ به الإيتاء بالذات، فالمراد بـ﴿ءَالَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أنبياؤهم عليهم السلام خاصّةً، والضمير المنصوبُ في الفعل الثاني لبعضهم، إمّا بحذف المضاف أو بطريق الاستخدام، لِما أنّ المُلك لم يُؤتَ كلَّهم. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «المُلك في آل إبراهيمَ ملكُ يوسفَ وداودَ وسليمانَ عليهم السلام».[1]

وإن أريدَ به ما يعمّه وغيرَه مِن الإيتاء بالواسطة -وهو اللائق بالمقام والأوفقُ لِما قبله مِن نِسبة إيتاء الفضل إلى الناس- فالمراد بـ﴿ءَالَ إِبْرَاهِيمَ﴾ كلُّهم؛ فإنّ تشريف البعض بما ذُكر مِن إيتاء النبوّة والمُلك تشريفٌ للكلّ، لاغتنامهم[2] بآثاره[3] واقتباسِهم مِن أنواره. وفي تفصيلِ ما أُوتوه وتكرير الفعل ووصفِ المُلك بالعِظم وتنكيرِه التفخيميّ مِن تأكيد الإلزام وتشديدِ الإنكار ما لا يخفى.

[٤٨ظ] هذا هو المتبادر مِن النظم الكريم، وإليه جنح جمهور / أئمّة التفسير؛ لكنّ الظاهرَ حينئذ أن يكون قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ حكايةً لِما صدر عن أسلافهم عَقيبَ وقوع المحكيّ مِن غير أن يكون له دَخْلٌ في الإلزام الذي سِيقَ له الكلام، أي: فمِن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم مَن آمن بما أُوتيَ آلُ إبراهيمَ، ومنهم مَن أعرض عنه.

وأمّا جعلُ الضميرين لِما ذُكر مِن حديث "آل إبراهيمَ"، فيستدعي تراخيَ الآية الكريمة عمّا قبلها نزولًا؛ كيف لا، وحكاية إيمانهم بالحديث المذكور وإعراضِهم عنه بصيغة الماضي إنّما يُتصوّر بعد وقوع الإيمان والإعراضِ المتأخِّرين عن سَماع الحديث المتأخِّر عن نزوله. وكذا جعلُهما

[1] الكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/١؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦٧٨/٣.

[2] كذا في الأصول الخطّيّة. وفي مطبوعاته: لاعتنائهم.

[3] وفي هامش م: الباء لتضمين الاغتنام معنى الفَوز. «منه».

لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ إذ الظاهرُ بيانُ حالهم بعد هذا الإلزام. وحملُه على حكاية حالهم السابقة لا يساعده الفاء المرتِّبةُ لِما بعدها على ما قبلها.

ولا يبعُد كلَّ البُعدِ أن تكون الهمزة لتقرير حسدهم وتوبيخهم بذلك ويكونَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ﴾ الآية [النساء، ٥٤/٤] تعليلًا له بدلالته على إعراضهم عمّا أُوتيَ آل إبراهيمَ، وإن لم يذكَر كونه بطريق الحسد، كأنّه قيل: بل أيحسُدون الناسَ على ما آتاهم الله مِن فضله ولا يؤمنون به؟ وذلك دَيْدَنُهم[1] المستمرُّ؛ فإنّا قد آتينا آل إبراهيمَ ما آتينا، فمنهم -أي: مِن جنسهم- مَن آمن بما آتيناهم، ومنهم مَن أعرض عنه ولم يؤمن به. والله سبحانه[2] أعلم. وفيه تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ نارًا مسعَّرةً يعذَّبون بها. والجملة تذييل لِما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إن أريدَ بهم الذين كفروا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالمراد بـ"الآيات" إمّا القرآن، أو ما يعمّ كلَّه وبعضَه، أو ما يعمّ سائرَ معجِزاته أيضًا، وإن أريدَ بهم الجنس المتناوِل لهم تناولًا أوّليًّا، فالمراد بـ"الآيات" ما يعمّ المذكوراتِ وسائرَ الشواهد التي أُوتِيَها الأنبياء عليهم الصلاة السلام.

﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ قال سيبويه: «سوف: كلمة تُذكَر للتهديد والوعيد، ويَنُوب عنها السين».[3] / وقد تُذكَران في الوعد فتفيدان التأكيدَ. أي: نُدخلهم [٤٩و]
نارًا عظيمةً هائلةً. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: احترقت. و﴿كُلَّمَا﴾: ظرفُ زمان، والعامل فيه: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ مِن قَبيل: "بَدّله بخوفه أَمْنًا"، لا مِن قَبيل: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان، ٧٠/٢٥]، أي: أعطيناهم مكانَ كلّ جِلد محترِق عند احتراقه جِلدًا جديدًا مغايِرًا للمحترِق صورةً وإن كان عينَه مادّةً،

---

[1] الدَّيْدَن: الدَّأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

[2] س: تعالى.

[3] لم نقف عليه في كتاب سيبويه. نقله عنه فخر الدين الرازي في تفسيره، ١٠/١٠٥-١٠٦؛ وابن عادل في اللباب، ٦/٤٢٧.

بأنْ يُزال عنه الاحتراق ليعودَ إحساسه للعذاب. والجملة في محلّ النصب على أنّها حال مِن ضمير ﴿نُصْلِيهِمْ﴾. وقد جُوّز كونها صفةً لـ﴿نَارًا﴾ على حذف العائد، أي: كُلّما نَضِجت فيها جلودهم، فمعنى قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ ليدوم ذَوقه ولا ينقطعَ، كقولك للعزيز: أعزَّك الله. وقيل: يخلُق مكانَه جِلدًا آخَرَ. والعذاب للنفس العاصية، لا لِآلة إدراكها.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «يبدَّلون جلودًا بيضاءَ كأمثال القَراطِيس».[١] ورُوي أنّ هذه الآية قُرئت عند عمرَ رضي الله عنه، فقال للقارئ: «أَعِدْها»، فأعادها، وكان عنده معاذ بن جبل،[٢] فقال معاذ: «عندي تفسيرُها: يُبدّل في ساعةٍ مائةَ مرّةٍ»، فقال عمرُ رضي الله عنه: «هكذا سمِعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم».[٣] وقال الحسن:[٤] «تأكلهم النار كلَّ يوم سبعينَ ألفَ مرّةٍ، كُلّما أكلتهم قيل لهم: "عُودُوا"، فيعودون كما كانوا».[٥] ورَوى أبو هريرةَ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم «إنّ بين مَنكِبَي الكافر مَسِيرةَ ثلاثةِ أيّامٍ للراكب المسرعِ».[٦] وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ضِرْسُ الكافر -أو نَابُ الكافر- مِثْلُ أُحد، وغِلَظُ جِلده مَسِيرةُ ثلاثةِ أيّامٍ».[٧]

---

١ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٦٨/٢. وهو عن ابن عمر في **جامع البيان** للطبري، ١٦٣/٧، وفيه: "بِيضًا" مكان "بَيضاءَ".

٢ هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، أبو عبد الرحمن (ت. ١٧هـ/٦٣٨م). مِن كبار الصحابة. أحد الستّة الذين جمعوا القرآن على عهد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. أسلم وهو فتى. وآخَى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين جعفر بن أبي طالب. وشهد العقبة مع الأنصار السبعين، وشهد بدرًا وأُحدًا والخندق والمشاهد كلّها. وبعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد غزوة تبوك قاضيًا ومرشدًا لأهل اليمن، فبقي في اليمن إلى أن تُوفّي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. ثمّ كان مع أبي عبيدة بن الجراح في غزو الشام، ولمّا أُصيبَ أبو عبيدة استخلف معاذًا. ومِن كلام عمر: «لولا معاذ لَهلك عمر»، ينوّه بعلمه. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٥٨٣/٣-٥٩٠؛ **والاستيعاب** للنّمري، ١٤٠٢/٣-١٤٠٧.

٣ **المعجم الأوسط** للطبراني، ٧/٥ (٤٥١٧)؛ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٣٠/٣.

٤ أي: الحسن البصري.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٣٠/٣؛ **شعب الإيمان** للبيهقي، ٦٠٤/١ (٣٨٧).

٦ هو باختلاف يسير في **صحيح البخاري**، ١١٤/٨ (٦٥٥١)؛ **وصحيح مسلم**، ٢١٨٩/٤ (٢٧٥٢). والألفاظ مِن **اللباب** لابن عادل، ٤٢٨/٦.

٧ هو باختلاف يسير في **صحيح مسلم**، ٢١٨٩/٤ (٢٨٥١). ونحوه في **مسند أحمد** ٥٤٣/١٦ (١٠٩٣١). والألفاظ مِن **اللباب** لابن عادل، ٤٢٨/٦.

والتعبير عن إدراك العذاب بـ"الذَّوق" ليس لبيان قِلّته؛ بل لبيان أنّ إحساسهم بالعذاب في كلّ مرّة كإحساس الذائق بالمَذُوق مِن حيث إنّه لا يدخله نُقصان بدوام الملابسة، أو للإشعار بمَرارة العذاب مع إيلامه، أو للتنبيه على شدّة تأثيره مِن حيث إنّ القوّة الذائقة أشدُّ الحواسّ تأثّرًا وعلى سِرايته للباطن. ولعلّ السرَّ في تبديل / الجلود -مع قدرته تعالى على إبقاء إدراك العذاب وذوقِه بحاله مع [٤٩ظ] الاحتراق، أو مع إبقاء أبدانهم على حالها مَصُونةً عن الاحتراق- أنّ النفس ربّما تتوهّم زوالَ الإدراك بالاحتراق، ولا تَستبعد كلَّ الاستبعاد أن تكون مَصُونةً عن التألّم والعذاب صِيانةَ بَدَنها عن الاحتراق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يمتنع عليه ما يريده ولا يمانعه أحد. ﴿حَكِيمًا﴾ يعاقِب مَن يعاقبه على وَفق حكمته. والجملة تعليل لِما قبلها مِن الإصلاء والتبديل.[1] وإظهار الاسم الجليل بطريق الالتفات لتهويل الأمر وتربية المهابة وتعليل الحكم؛ فإنّ عنوان الألوهيّة مَناط لجميع صفات كماله تعالى.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عُقّب بيان سُوء حال الكَفَرة ببيان حُسن حال المؤمنين تكميلًا لمَساءة الأوّلين ومَسَرّة الآخِرين، أي: الذين آمنوا بآياتنا وعمِلوا بمقتضياتها. وهو مبتدأ، خبرُه قوله تعالى: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾. وقُرئ: "سَيُدْخِلُهُمْ"[2] بالياء ردًّا على الاسم الجليل. وفي السين تأكيد للوعد. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ حال مقدَّرة مِن الضمير المنصوب في ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾.

وقوله عزّ وعَلَا: ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ أي: ممّا في نساء الدنيا مِن الأحوال المستقذَرة البَدَنيّة والأدناس الطبيعيّة، في محلّ النصب على أنّه حال مِن ﴿جَنَّٰتٖ﴾، أو حال ثانية مِن الضمير المنصوب، أو على أنّه صفة لـ﴿جَنَّٰتٖ﴾ بعد صفة،

---

[1] وفي هامش م: وقد أشيرَ إلى حكمة التبديل. «منه».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحي وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٧.

أو في محلّ الرفع على أنّه خبر للموصول بعد خبر.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: فَيْنانًا[١] لا جُوَبَ[٢] فيه، دائمًا لا تنسَخه شمس. اللّٰهمّ ارزُقْنا ذلك بفضلك وكرمِك يا أرحمَ الراحمين. و"الظليل" صفة مُشتقّة مِن لفظ "الظلّ" للتأكيد، كما في: لَيلٌ أَلْيَلُ، ويَومٌ أَيْوَمُ. وقُرِئَ: "يُدْخِلُهُمْ"[٣] بالياء، / وهو عطفٌ على "سَيُدْخِلُهُمْ"؛ لا على أنّه غير الإدخال الأوّل بالذات؛ [٥٠و] بل بالعُنوان، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ١١/٥٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ في تصدير الكلام بكلمة التحقيق وإظهار الاسم الجليلِ وإيرادِ الأمر على صورة الإخبار مِن الفخامة وتأكيد وجوب الامتثال به والدلالةِ على الاعتناء بشأنه ما لا مزيدَ عليه.

وهو خطاب يعمّ حكمُه المكلَّفين قاطبةً، كما أنّ ﴿ٱلْأَمَٰنَٰتِ﴾ تعمّ جميعَ الحقوق المتعلِّقة بذمّهم مِن حقوق الله تعالى وحقوق العباد، سواء كانت فعليّةً أو قوليّةً أو اعتقاديّةً، وإن وَرَدَ في شأن عثمانَ بنِ طلحةَ بنِ عبد الدار سادنِ الكعبة[٤] المعظَّمة؛ وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين دخل مكّةَ يومَ الفتح أغلقَ عثمانُ بابَ الكعبة، وصعِد السطحَ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه، وقال: «لو علمتُ أنّه رسول الله لم أمنَعْه»، فلَوَى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يدَه وأخذه منه، وفتح، ودخل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وصلّى ركعتين،

---

[١] ظِلٌّ فَيْنانٌ: واسع مُمتدّ. تاج العروس للزبيدي، «فين».

[٢] الجَوْبة مِن الأرض الدّارة مِن المكان المُنجاب الوطيء القليلِ الشجر؛ سُمّي جَوْبةً لانجياب الشجر عنه، مثل الغائط المستدير، لا يكون إلّا في جَلَد الأرض، والجمع: جَوْبات وجُوَب. تهذيب اللغة للأزهري، ١١/١٥٠ «باب الجيم والباء».

[٣] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ١/٥٢٣، ونسبها إلى عبد الله بن مسعود.

[٤] السادِنُ: خادم الكعبة وبيت الأصنام، والجمع السَّدَنة. الصحاح للجوهري، «سدن».

فلمّا خرج سأله العبّاس أن يُعطيَه المفتاح ويجمعَ له السِّقاية والسِّدانة، فنزلت، فأمَر عليًا رضي الله عنه[١] أن يردّه إلى عثمانَ ويعتذرَ إليه، فقال عثمانُ لعليّ رضي الله عنه: «أكرِهتَ وآذَيْتَ ثمّ جِئتَ تَرفُق!»، فقال: «لقد أنزل الله في شأنك قرآنًا»، فقرأ عليه الآية، فقال عثمان: «أشهَد أن لا إله إلّا الله وأشهَد أنّ محمّدًا رسول الله»، فهبَط جبريلُ عليه السلام، وأخبر رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أنّ السِّدانة في أولاد عثمانَ أبدًا.[٢]

وقُرِئ: "الأَمَانَةَ"[٣] على التوحيد، والمراد الجنس، لا المعهود.

وقيل: هو أمرٌ للوُلاة بأداء الحقوق المتعلِّقة بذِمَمهم مِن المَناصب وغيرها إلى مستحِقِّيها، كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ أمرٌ لهم بإيصال الحقوق المتعلِّقة بذِمَم الغير إلى أصحابها. وحيث كان المأمور به ههنا مختصًّا بوقت المرافعة، قُيِّد به، بخلاف المأمور به أوّلًا؛ فإنّه لمّا لم يتعلّق بوقت دون وقتٍ أُطلقَ إطلاقًا.

فقوله تعالى: ﴿أَن تَحْكُمُوا﴾ عطفٌ / على ﴿أَن تُؤَدُّوا﴾، قد فُصل بين العاطف [٥٠ظ] والمعطوف بالظرف المعمول له عند الكوفيِّين، ولمقدَّرٍ يدلّ هو عليه عند البصريِّين؛ لأنّ ما بعد "أنْ" لا يَعمَل فيما قبلها عندهم، أي: وأن تَحكُموا إذا حَكَمتم... إلخ. وقوله تعالى: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ متعلِّق بـ﴿تَحْكُمُوا﴾، أو بمقدَّرٍ وقع حالًا مِن فاعله، أي: ملتبِسين بالعدل والإنصاف.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ ﴿مَا﴾ إمّا منصوبة موصوفة بـ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾، أو مرفوعة موصولة به، كأنّه قيل: نِعمَ شيئًا يَعِظُكم به، أو نِعمَ الشيءُ الذي يَعِظُكم به. والمخصوص بالمدح محذوف، أي: نِعِمّا يَعِظُكم به ذلك، وهو المأمور به مِن أداء الأمانات والعدل في الحكومات. وقُرِئ: "نَعِمّا"[٤] بفتح النون.

---

١ م – رضي الله عنه.

٢ انظر: أسباب النزول للواحدي، ص ١٦١-١٦٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٣/١.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة الزمخشري في الكشّاف، ٥٢٣/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٦٨٤/٣.

٤ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٣٥/٢.

والجملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها، متضمِّنةٌ لمَزيد لطفٍ بالمخاطَبين وحُسنِ استدعاءٍ لهم إلى الامتثال بالأمر. وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالكم؛ فهو وعد ووعيد. وإظهار الجلالة لِما ذُكر آنفًا؛ فإنّ فيه تأكيدًا لكلٍّ مِن الوعد والوعيد.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بعد ما أُمر الوُلاة بطريق العموم أو بطريق الخصوص بأداء الأمانات والعدل في الحكومات أُمر سائر الناس بطاعتهم؛ لكن لا مطلَقًا، بل في ضِمن طاعة الله عزّ وجلّ وطاعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم؛ حيث قيل: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وهُم أُمَراء الحقّ ووُلاة العدل، كالخلفاء الراشدين ومَن يقتدي بهم مِن المهتدين. وأمّا أُمَراء الجَور، فبمَعزِل مِن استحقاق العطف على الله تعالى والرسول عليه السلام في وجوب الطاعة لهم.

وقيل: هم علماء الشرع لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ [النساء، ٤/٨٣]؛ ويأباه قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ إذ ليس للمقلِّد أن ينازِع المجتهِدَ في حكمه؛ إلّا أن يُجعل الخطاب لأُولي الأمر بطريق الالتفات، وفيه بُعد.

[٥١و] وتصدير الشرطيّة بـ"الفاء" لترتّبها على ما / قبلها؛ فإنّ بيان حكم طاعة أُولي الأمر عند موافقتها لطاعة الله تعالى وطاعة الرسول صلّى الله عليه وسلّم يستدعي بيانَ حكمها عند المخالفة، أي: إن اختلفتم أنتم وأُولوا الأمر منكم في أمرٍ مِن أمور الدِّين، فراجِعوا فيه إلى كتاب الله ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾، أي: إلى سُنّته.

وقد استَدَلّ به منكِروا القياس، وهو في الحقيقة دليل على حُجّيّته؛ كيف لا، ورَدُّ المختلَف فيه إلى المنصوص عليه إنّما يكون بالتمثيل والبناءِ عليه،

وهو المَعنيّ بالقياس. ويؤيّده الأمر به بعد الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلّى الله عليه وسلّم؛ فإنّه يدلّ على أنّ الأحكام ثلاثة: ثابتٌ بالكتاب وثابتٌ بالسنّة وثابتٌ بالردّ إليهما بالقياس.

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ متعلِّق بالأمر الأخير الواردِ في محلّ النزاع؛ إذ هو المحتاج إلى التحذير مِن المخالفة. وجواب الشرط محذوف عند جمهور البصريّين ثقةً بدلالة المذكور عليه، أي: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فرَدُّوه... إلخ؛ فإنّ الإيمان بهما يوجِب ذلك؛ أمّا الإيمان بالله تعالى فظاهرٌ، وأمّا الإيمان باليوم الآخِر فلِمَا فيه مِن العقاب على المخالفة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الردّ المأمور به ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأصلحُ ﴿وَأَحْسَنُ﴾ في نفسه ﴿تَأْوِيلًا﴾ أي: عاقبةً ومَآلًا. وتقديم خيريّته لهم على أحسنيّته في نفسه لِما مرّ مِن تعلّق أنظارهم بما ينفعهم. والمراد بيان اتّصافه في نفسه بالخيريّة الكاملة والحُسن الكامل في حدّ ذاته، مِن غير اعتبار فضله على شيء يشاركه في أصل الخيريّة والحُسن، كما يُنبئ عنه التحذير السابق.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، تعجيبًا له مِن حال الذين يخالِفون ما مرّ مِن الأمر المحتوم، ولا يُطيعون الله / ولا رسولَه. ووصفُهم [٥١ظ] بـ"ادّعاء الإيمان بالقُرآن وبما أُنزلَ مِن قَبله" -أَعني: التوراة- لتأكيد التعجيب وتشديد التوبيخ والاستقباحِ ببيان كمال المباينة بين دعواهم وبين ما صدر عنهم. وقُرئ الفِعلان على البناء للفاعل.[١]

١ أي: "بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عَبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٧.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ استئناف سِيقَ لبيان محلّ التعجيب، مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِن صدر الكلام، كأنّه قيل: ماذا يفعلون؟ فقيل: ﴿يُرِيدُونَ﴾... إلخ.

رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ منافِقًا خاصَمَ يهوديًّا، فدعاه اليهوديّ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ودعاه المنافق إلى كعب بنِ الأشرف، ثمّ إنّهما احتكمَا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقضى لليهوديّ، فلم يرضَ به المنافق، فدعاه إلى عمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه، فقال اليهوديّ: «قضى لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فلم يرضَ بقضائه»، فقال عمرُ رضي الله عنه للمنافق: «أهكذا؟»، قال: «نعم»، فقال عمرُ: «مكانكما حتّى أخرُجَ إليكما»، فدخل، فاشتمل على سَيفه، ثمّ خرج، فضرب به عُنُقَ المنافق حتّى بَرَدَ، ثمّ قال: «هكذا أَقضي لمَن لم يرضَ بقضاء الله تعالى ورسولِه»، فنزلت، فهبَط جبريلُ عليه السلام، وقال: «إنّ عمرَ فرّق بين الحقّ والباطل»، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أنت الفاروق»؛[1] فالطاغوت كعب بن الأشرف، سُمّي به لإفراطه في الطغيان وعداوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو على التشبيه بالشيطان والتسميةِ باسمه، أو جعل اختيار التحاكم إلى غير النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على التحاكم إليه تحاكُمًا إلى الشيطان.

وقال الضحّاك: «المراد بـ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ كَهَنة اليهود وسَحَرتُهم».[2] وعن الشعبي: «أنّ المنافق دعا خصمه إلى كاهن في جُهَينةَ، فتَحاكمَا إليه».[3] وعن السدّي: «أنّ الحادثة وقعت في قَتيلٍ بين بني قُريظةَ والنَّضير، فتحاكَمَ المسلمون مِن الفريقين إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأبى المنافقون منهما إلّا التحاكُمَ إلى أبي بُرْدةَ الكاهن الأسلمي، فتحاكَموا إليه»؛[4] فيكون الاقتصار حينئذ في معرض التعجيب

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/١. وانظر أيضًا: أسباب النزول للواحدي، ص ١٦٤-١٦٧؛ ومعاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٦٩/٢.

٢ تفسير السمرقندي، ٣٣٩/١.

٣ انظر: جامع البيان للطبري، ١٩٠/٧؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٧/٣.

٤ انظر: جامع البيان للطبري، ١٩٢/٧-١٩٣؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٥٥٠/٦.

والاستقباح على ذكر إرادة التحاكم[1] دون نفسه مع وقوعه أيضًا للتنبيه[2] على أنّ إرادته ممّا يُقضَى منه العجب، ولا ينبغي أن يدخل تحت الوقوع؛ فما ظنُّك بنفسه! وهذا أنسَبُ بوصف المنافقين بـ"ادّعاء الإيمان بالتوراة"؛ فإنّه كما يقتضي كونَهم / مِن منافِقِي اليهود، يقتضي كونَ ما صدر عنهم مِن التحاكم ظاهِرَ [٥٢و] المنافاة لادّعاء الإيمان بالتوراة، وليس التحاكم إلى كعب بنِ الأشرف بهذه المثابة مِن الظهور. وأيضًا فالمتبادر مِن قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ كونُهم مأمورين بكفره في الكتابين، وما ذاك إلّا الشيطان وأولياؤه المشهورون بولايته كالكَهَنة ونظائرهم، لا مَن عَدَاهم ممّن لم يشتهِر بذلك.

وقُرئ: "أَنْ يَكْفُرُوا بِهَا"[3] على أنّ ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ جمع، كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم﴾ [البقرة، ٢/٢٥٧]. والجملة حال مِن ضمير ﴿يُرِيدُونَ﴾ مفيدةٌ لتأكيد التعجيب وتشديدِ الاستقباح كالوصف السابق.

وقوله عزّ وعَلَا: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾ عطفٌ على ﴿يُرِيدُونَ﴾ داخلٌ في حكم التعجيب؛ فإنّ اتّباعهم لِمَن يريد إضلالهم وإعراضَهم عمّن يريد هدايتهم أعجَبُ مِن كلّ عجيب. و﴿ضَلَٰلَۢا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد للفعل المذكور بحذف الزوائد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ [آل عمران، ٣/٣٧]، أي: إضلالًا بعيدًا، وإمّا مصدر مؤكِّد لفعله المدلول عليه بالمذكور، أي: فيَضِلّون ضلالًا. وأيًّا ما كان، فوصفُه بـ"البُعد" الذي هو نعت موصوفه للمبالغة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ تكملة لمادّة التعجيب ببيان إعراضهم صريحًا عن التحاكم إلى كتاب الله تعالى ورسوله

---

١ أي: فيكون الاقتصار على ذكر إرادة التحاكم.

٢ السياق: فيكون الاقتصار... للتنبيه...

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٧.

إثرَ بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت. وقُرئ: "تَعَالُوا"[١] بضمّ اللام على أنّه حذف لام الفعل تخفيفًا، كما في قولهم: "ما باليتُ به[٢] بالةً"، أصلُها "بَالية" كـ"عافية"، وكما قالوا في "آية": إنّ أصلها "آيِيَة"، فحُذفت اللام ووقعت واو الجمع بعد اللام في "تَعالَى"، فضُمّت فصار "تعالُوا". ومنه قول أهل مكّةَ للمرأة: "تَعالِي"، بكسر اللام. وعليه قول أبي فِراس الحمداني:[٣]

أيَـا جـارَتَـا مـا أنـصَـفَ الـدهـرُ بيننا   تـعـالَـيْ أُقـاسِـمْـكِ الـهـمـومَ تعالِي[٤]

﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ إظهار ﴿ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ في مقام الإضمار للتسجيل عليهم بالنِّفاق وذمِّهم به والإشعارِ / بعلّة الحكم. والرؤية بَصَريّة، وقوله تعالى: [٥٢ظ]
﴿يَصُدُّونَ عَنكَ﴾ حال مِن ﴿ٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾. وقيل: الرؤية قَلْبيّة، والجملة مفعول ثانٍ لها. والأوّل هو الأنسب لظهور حالهم.

وقوله تعالى: ﴿صُدُودًا﴾ مصدر مؤكِّد لفعله، أي: يُعرضون عنك إعراضًا وأيَّ إعراضٍ. وقيل: هو اسم للمصدر الذي هو الصَّدّ، والأظهر أنّه مصدر لِـ"صَدَّ" اللازمِ، والصَّدّ مصدر للمتعدِّي، يقال: "صَدَّ عنه صُدودًا"، أي: أعرض عنه، و"صَدَّه عنه صَدًّا"، أي: منعه منه.

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ شروع في بيان غائلة جناياتهم المَحكيّة ووخامة

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن فيما رواه عنه قتادة. المحتسَب لابن جنّي، ١/١٩١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٧.

[٢] ط س - به.

[٣] هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، أبو فِراس الحمداني (ت. ٣٥٧هـ/٩٦٨م). أمير، شاعر، فارس. وهو ابن عمّ سيف الدولة، وله وقائع كثيرة، قاتل بها بين يدي سيف الدولة. وجُرح في معركة مع الروم، فأسروه، فامتاز شهره في الأسر برُوميّاته، وبقي في القسطنطينيّة أعوامًا، ثمّ فداه سيف الدولة بأموال عظيمة. له: ديوان شعر. انظر: يتيمة الدهر للثعالبي، ١/٥٧-١١٣؛ والأعلام للزركلي، ٢/١٥٥.

[٤] وفي هامش م: يخاطِب به حمَامةً يغرِّر فوق الأغصان وهو مسجون، وقبله:
أيَضحَك مأسورٌ وتَبكي طَليقةٌ
ويـفـرَح مـحـزونٌ ويـنـدُب سالي
| البيتان في ديوانه، ٢/٣٢٥، والذي في الهامش بعده بسطرٍ، وفيه: "ويسكُتُ" مكان "يفرح".

عاقبتها، أي: كيف يكون حالهم ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ أي: وقتَ إصابة المصيبة إيّاهم بافتضاحهم بظهور نفاقهم. ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بسبب ما عملوا مِن الجنايات التي مِن جملتها التحاكم إلى الطاغوت والإعراضُ عن حكمك. ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ للاعتذار عمّا صنعوا مِن القبائح. وهو عطفٌ على ﴿أَصَٰبَتۡهُم﴾. والمراد تفظيع حالهم وتهويل ما دَهِمَهم مِن الخَطْب واعتَرَاهم مِن شدّة الأمر عند إصابة المصيبة وعند المَجيء للاعتذار.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ حال مِن فاعل ﴿جَآءُوكَ﴾. ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ أي: ما أردنا بتحاكُمِنا إلى غيرك إلّا الفصلَ بالوجه الحَسَن والتوفيقَ بين الخصمَين، ولم نُرِد مخالفةً لك، ولا تسخّطًا لحُكمك؛ فلا تؤاخِذْنا بما فعلنا. وهذا وعيد لهم على ما فعلوا، وأنّهم سيَندَمون عليه حين لا ينفعهم النَّدَم ولا يُغني عنهم الاعتذار. وقيل: جاء أولياء المنافق يطلبون بدمه -وقد أهدره الله تعالى- فقالوا: «ما أردنا -أي: ما أراد صاحبُنا المقتولُ- بالتحاكم إلى عمرَ رضي الله عنه إلّا أن يُحسِن إليه ويوفِّقَ بينه وبين خصمه».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المنافقين. وما فيه مِن معنى البُعد للتنبيه على بُعد منزلتهم في الكفر والنفاق. وهو مبتدأ، خبرُه ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: مِن فنون الشُّرور والفسادات المنافية لِما أظهروا لك مِن الأكاذيب. ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ جوابُ شرط محذوف، أي: إذا كان حالهم كذلك، فأَعرِضْ عن قبول مَعذِرتهم، وقيل: عن / عقابهم -لمصلحةٍ في استبقائهم- ولا تُظهِرْ لهم عِلمك [٥٣و] بما في بَواطنهم، ولا تَهتِكْ سِتْرَهم حتّى يبقَوْا على وَجَل وحَذَر. ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾ أي: ازجُرْهم عن النفاق والكيد.

﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ في حقّ أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المَطويّة على الشرور التي يعلمها الله تعالى، أو في أنفسهم خاليًا بهم ليس معهم غيرهم مُسارًّا بالنصيحة؛

لأنها في السرّ أنجعُ. ﴿قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ مؤثِّرًا واصلًا إلى كُنه المراد، مطابقًا لِما سِيقَ له مِن المقصود. فالظرف على التقديرين متعلِّق بالأمر، وقيل: متعلِّق بـ﴿بَلِيغٗا﴾ على رأي مَن يُجيز تقديمَ معمول الصفة على الموصوف، أي: قل لهم قولًا بليغًا في أنفسهم مؤثِّرًا في قلوبهم، يغتمّون به اغتمامًا، ويستشعرون منه الخوفَ استشعارًا، وهو التوعّد بالقتل والاستئصال، والإيذانُ بأنّ ما في قلوبهم مِن مَكنونات الشرّ والنفاق غيرُ خافٍ على الله تعالى، وأنّ ذلك مستوجِب لأشدّ العقوبات، وإنّما هذه المُكافّة[١] والتأخير لإظهارهم الإيمان والطاعةَ وإضمارِهم الكفرَ، ولَئِنْ أظهروا الشِّقاق وبَرَزوا بأشخاصهم مِن نَفَق النفاق، لَيمسَّنَّهم العذاب؛ إنّ الله شديد العقاب.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤﴾

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ كلام مبتدأ، جِيءَ به تمهيدًا لبيان خَطَئهم في الاشتغال بسَتر جنايتهم بالاعتذار بالأباطيل وعدمِ تَلافيها بالتوبة، أي: وما أرسلنا رسولًا مِن الرُّسل لشيء مِن الأشياء إلّا ليُطاعَ بسبب إذنه تعالى في طاعته وأمره المرسَلِ إليهم بأنْ يُطيعوه ويتّبعوه؛ لأنّه مُؤدٍّ عنه تعالى؛ فطاعته طاعة الله تعالى، ومعصيته معصيته تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٢] [النساء، ٨٠/٤]، أو بتيسير الله تعالى وتوفيقه في طاعته.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ وعرّضوها لعذاب على عذاب النفاق بترك طاعتك والتحاكم إلى غيرك، ﴿جَآءُوكَ﴾ مِن غير تأخير -كما يُفصح عنه تقديم الظرف- متوسِّلين بك في التنصّل عن جناياتهم القديمة والحادثة، ولم يزدادوا جنايةً على جناية بالقصد / إلى سترها بالاعتذار الباطل والأَيمان الفاجرة، [٥٣ظ]
﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة والإخلاص، وبالغوا في التضرّع إليك، حتّى انتصبتَ

---

١ المُكافّة: المحاجَزة؛ لأنّها كَفّ عن القتال. المغرب للمطرِّزي، ص ٤١١ «الكاف مع الفاء».

٢ س + تعالى.

شفيعًا لهم إلى الله تعالى واستغفرتَ لهم. وإنّما قيل: ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ على طريقة الالتفات تفخيمًا لشأن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتعظيمًا لاستغفاره، وتنبيهًا على أنّ شفاعته في حيّز القبول.

﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ لَعلموه مبالِغًا في قبول توبتهم والتفضّل عليهم بالرحمة. وإن فُسّر "الوجدان" بالمصادفة كان قوله تعالى: ﴿تَوَّابٗا﴾ حالًا، و﴿رَحِيمٗا﴾ بدلًا منه أو حالًا مِن الضمير فيه. وأيًا ما كان، ففيه فضلُ ترغيب للسامعين في المسارعة إلى التوبة والاستغفار، ومزيدُ تنديم لأولئك المنافقين على ما صنعوا، لِما أنّ ظهور تباشير قبول التوبة وحصولِ الرحمة لهم ومشاهدتَهم لآثارهما نعمةٌ زائدةٌ عليهما موجِبةٌ لكمال الرغبة في تحصيلها وتمامِ الحَسْرة على فَواتها.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فَوَربِّك. و﴿لَا﴾ مزيدة لتأكيد معنى القَسم، لا لتأكيد النفي في جوابه، أَعني: قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنّها تُزاد في الإثبات أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة، ٧٥/٥٦] ونظائره. ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أي: يتحاكموا إليك ويرافِعوا إليك. وإنّما جِيءَ بصيغة التحكيم -مع أنّه عليه السلام حاكمٌ بأمر الله سبحانه- إيذانًا بأنّ حقّهم أن يجعلوه عليه السلام حَكمًا فيما بينهم ويرضَوْا بحكمه، وإن قُطِع النظر عن كونه حاكمًا على الإطلاق. ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: فيما اختلف بينهم مِن الأمور واختلط. ومنه "الشَّجَر" لتداخُل أغصانه.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ﴾ عطفٌ على مقدّر ينساق إليه الكلام، أي: فتَقضيَ بينهم، ثمّ لا يجدوا ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾ ضِيقًا ﴿مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ أي: ممّا قضيتَ به، أو مِن قضائك، وقيل: شكًّا مِن أجله؛ إذ الشاكّ في ضِيقٍ مِن أمره. ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾ أي: ينقادوا لأمرك ويُذعِنوا له ﴿تَسۡلِيمٗا﴾ تأكيد للفعل بمنزلة تكريره، أي: تسليمًا تامًّا بظاهرهم وباطنهم. يقال: "سَلَّم لأمر الله" و"أسلم له" بمعنًى، وحقيقته:

[٥٤و] سَلَّم نفسَه له وأسلمها إذا / جعلها سالمةً له خالصةً. أي: ينقادوا لحكمك انقيادًا لا شُبهةَ فيه بظاهرهم وباطنهم.

قيل: نزلت في شأن المنافق واليهوديّ.[١] وقيل: في شأن الزُّبير[٢] ورجلٍ مِن الأنصار، حين اختصمَا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في شِراج[٣] مِن الحَرّة،[٤] كانا يَسقيان بها النخلَ، فقال عليه السلام: «اسقِ يا زبير، ثمّ أرسِل الماء إلى جارك»، فغضِب الأنصاريّ، وقال: «لِأنْ كان ابنَ عمّتك!»، فتغيّر وجهُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ قال: «اسقِ يا زبير، ثمّ احبِس الماء حتّى يَرجِعَ إلى الجَدْر، واستَوْفِ حقَّك، ثمّ أَرسِلْه إلى جارك»، كان قد أشار على الزبير برأيٍ فيه سعةٌ له ولخصمه، فلمّا أُحفظَ[٥] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم استوعب للزبير حقَّه في صريح الحُكم،[٦] ثمّ خرجَا، فمرَّا على المِقداد، فقال: «لِمن القضاء؟»، فقال الأنصاريّ: «قضى لابن عمّته، ولَوَى شِدْقَه»،[٧] ففَطِنَ يهوديّ كان مع المِقداد، فقال: «قَاتَلَ اللهُ هؤلاء يَشهدون أنّه رسول الله ثمّ يتّهمونه في قضاءٍ يَقضي بينهم؛ وَايْمُ اللهِ لقد أذنَبْنا ذَنْبًا مرّةً في حياة موسى، فدعانا إلى التوبة منه، وقال: "اقتلوا أنفسَكم"، ففعلنا، فبلغ قَتْلَانا سبعين ألفًا في طاعة ربّنا حتّى رضي عنّا»، فقال ثابت بنُ قيس بنِ شَمّاس:[٨] «أَمَا واللهِ،

---

[١] سبق ذكره في تفسير النساء، ٦٠/٤.

[٢] هو الزبير بن العوّام بن خُوَيلد القرشي الأسدي، أبو عبد الله (ت. ٣٦هـ/٦٥٦م). أحد العشرة المبشَّرين بالجنّة، وأحد السابقين إلى الإسلام. كان طويلًا جدًّا. وكان خفيفَ اللحية أسمرَ اللون كثيرَ الشَّعر. شهد بدرًا وأُحدًا والحُديبية والمشاهد كلّها. وشهد الجَمَلَ مقاتِلًا لعليّ، قتله ابن جرموز غيلةً يوم الجمل. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ١٠٠/٣-١١٣؛ و**الاستيعاب** للنّمري، ٥١٠/٢-٥١٦.

[٣] وفي هامش م: الشَّرْج مَسيل الماء في الحَرّة إلى السهل، ج [الجمع]: شِراج. **قاموس**. «منه». | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «شرج».

[٤] وفي هامش م: الحَرّة: اسم موضِع قربَ خيبر تحت واقم، بها كانت وقعة الحَرّة أيّامَ يزيدَ. **قاموس**. «منه». | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «حرر».

[٥] وفي هامش م: وأحفظَه: أغضبَه. **قاموس**. «منه». | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «حفظ».

[٦] إلى هنا ورَدَ باختلاف يسير في **صحيح البخاري**، ١٨٧/٣ (٢٧٠٨)؛ و**صحيح مسلم**، ١٨٢٩/٤ (٢٣٥٧).

[٧] الشِّدْق: جانب الفَم. **الصحاح** للجوهري، «شدق».

[٨] هو ثابت بن قيس بن شَمّاس الخزرجي الأنصاري، أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو محمّد (ت. ١٢هـ/٦٣٣م). خطيب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. شهد أُحدًا وما بعدها مِن المشاهد. «

إنّ الله لَيَعلم منّي الصدقَ؛ لو أمرني محمّد أن أقتل نفسي لَقتلتُها».[1] ورُوي أنّه قال ذلك ثابت وابن مسعود وعمّار بن ياسر، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده، إنّ مِن أمّتي رجالًا، الإيمانُ أثبتُ في قلوبهم مِن الجبال الرّواسي»، فنزل في شأن هؤلاء.[2]

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ أي: لو أوجَبْنا عليهم مِثلَ ما أوجبنا على بني إسرائيلَ مِن قتلهم أنفسَهم أو خروجِهم مِن ديارهم حين استِتابتهم مِن عبادة العِجل. و﴿أَنْ﴾ مصدريّة، أو مفسّرة؛ لأنّ ﴿كَتَبْنَا﴾ في معنى "أمَرْنا".

﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: المكتوب المدلولَ عليه بـ﴿كَتَبْنَا﴾ أو أحدِ مصدرَي الفعلين. ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: إلّا ناس قليل منهم، وهم المخلِصون مِن المؤمنين. ورُوي عن عمرَ رضي الله تعالى عنه أنّه قال: «واللهِ، لو أمَرَنا ربّنا لَفعلنا، والحمد لله الذي لم يفعل بنا ذلك».[3] وقيل: معنى ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾: تَعرَّضوا بها للقتل بالجهاد؛ وهو بعيد. وقُرئ: "إِلَّا قَلِيلًا"[4] بالنصب على الاستثناء، أو: إلّا فعلًا قليلًا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ / مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ مِن متابعة الرسول صلّى الله عليه وسلّم[5] [٥٤ظ] وطاعته والانقيادِ لِما يراه ويحكم به ظاهرًا وباطنًا. وسُمّيت أوامر الله تعالى

= وفي الحديث: «نِعم الرجل ثابت». قُتل يومَ اليمامة شهيدًا في خلافة أبي بكر. انظر: الاستيعاب للنّمري، ١/٢٠٠-٢٠٣؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ١/٤٥١.

١ الكشّاف للزمخشري، ١/٥٢٩-٥٣٠. وباختلاف يسير في الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٣٤٠.

٢ الكشّاف للزمخشري، ١/٥٣٠. وباختلاف يسير في تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٣٨٧؛ وتفسير السمرقندي، ١/٣٤١.

٣ الكشّاف للزمخشري، ١/٥٣٠؛ تفسير الرازي، ١٠/١٣٠.

٤ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٠.

٥ س: عليه السلام.

ونواهيه "مَواعِظَ" لاقترانها بالوعد والوعيد. ﴿لَكَانَ﴾ أي: فعلهم ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ عاجلًا وآجلًا، ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لهم على الإيمان، وأبعدَ مِن الاضطراب فيه، وأشدَّ تثبيتًا لثواب أعمالهم.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ جواب لسؤال مقدَّر، كأنّه قيل: وماذا يكون لهم بعد التثبيت؟ فقيل: وإذنْ لو ثبتوا لَآتيناهم. فإنّ ﴿إِذًا﴾ جواب وجزاء.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ يصلون بسلوكه إلى عالَم القُدس، ويفتح لهم أبواب الغيب. قال صلّى الله عليه وسلّم «مَن عمِل بما علِم، وَرَّثه الله عِلمَ ما لم يَعلم».[1]

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ كلام مستأنَف، فيه فضلُ ترغيب في الطاعة ومزيدُ تشويق إليها ببيان أنّ نتيجتها أقصى ما ينتهي إليه هِمَم الأُمم، وأرفَعُ[2] ما يمتدُّ إليه أعناق عزائمهم مِن مجاورة أعظم الخلائق مقدارًا وأرفعِهم منارًا، متضمِّنٌ لتفسير ما أُبهِمَ في جواب الشرطيّة السابقة وتفصيلِ ما أُجملَ فيه. والمراد بـ"الطاعة" هو الانقياد التامّ والامتثال الكامل بجميع الأوامر والنواهي.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المطيعِين. والجمع باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾، كما أنّ الإفراد في فعل الشرط باعتبار لفظها. وما فيه مِن معنى البُعد -مع القُرب في الذِّكر-

---

١ أخرجه أبو نعيم في الحلية، ١٠/١٤-١٥، وقال: «ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوَهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل».

٢ وفي هامش م: أعلى. | لعلّه تصحيح مِن المصنّف.

للإيذان بعُلوّ درجتهم وبُعدِ منزلتهم في الشرف. وهو مبتدأ، خبرُه ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، والجملة جواب للشرط. وتركُ ذكر المنعَم به للإشعار بقصور العبارة عن تفصيله وبيانه.

﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للمنعَم عليهم. والتعرّض لمَعيّة سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام -مع أنّ الكلام في بيان حُكم طاعة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم- لجرَيان ذكرهم في سبب النزول، مع ما فيه مِن الإشارة إلى أنّ طاعته عليه السلام متضمِّنة لطاعتهم لاشتمال شريعته على شرائعهم التي لا تتغيّر بتغيّر الأعصار.

رُوي أنّ نَفَرًا مِن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قالوا: «يا نبيَّ[1] الله، إن صِرنَا إلى الجنّة تَفضُلُنا بدَرَجات النبوّة، فلا نراك».[2] وقال الشعبي: جاء رجل / مِن الأنصار إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يبكي، فقال: «ما يُبكيك يا فلان؟»، فقال: «يا رسولَ الله، بالله الذي لا إله إلّا هو، لَأنت أحَبُّ إليَّ مِن نفسي وأهلي ومالي وولدي، وإنّي لَأذكرك وأنا في أهلي، فيأخذني مِثلُ الجنون حتّى أراك، وذكرتُ موتي وأنّك تُرفَع مع النبيّين وإنّي إن أُدخِلتُ الجنّةَ كنتُ في منزلةٍ أدنى مِن منزلتك»، فلم يَرُدَّ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم، فنزلت.[3] [٥٥و]

ورُوي أنّ ثَوبانَ مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان شديدَ الحُبّ له عليه السلام قليلَ الصبر عنه، فأتاه يومًا وقد تغيَّر وجهُه ونُحِل جسمه وعُرِف الحُزن في وجهه، فسأله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن حاله، فقال: «يا رسولَ الله، ما بي مِن وَجَع غيرَ أنّي إذا لم أرَكَ اشتقْتُ إليك واستوحشْتُ وَحشةً شديدةً حتّى ألقاك، فذكرتُ الآخرة، فخِفتُ أن لا أراك هناك؛ لأنّي عرفتُ أنّك تُرفَع مع النبيّين؛ وإن أُدخِلتُ الجنّةَ كنتُ في منزلٍ دون منزلك،

---

[1] م: الرسول ["صح" في الهامش].

[2] تفسير السمرقندي، ٣٤٢/١. وأخرج نحوه الطبري في جامع البيان، ٢١٤/٧؛ والواحدي في أسباب النزول، ص ١٧٩.

[3] التفسير الوسيط للواحدي، ٧٧/٢. وحُكي ذلك عن جماعة مِن الصحابة رضوان الله عليهم. انظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٣٣٣/١-٣٣٥- (٣٤١).

وإن لم أُدخَل فذاك حين لا أراك أبدًا»، فنزلت،[١] فقال صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبد حتّى أكونَ أحبَّ إليه مِن نفسه وأبوَيْه وأهله وولده والناسِ أجمعين»،[٢] وحُكي ذلك عن جماعة مِن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم،[٣] ورُوي أنّ أنَسًا قال: «يا رسولَ الله، الرجل يُحبّ قومًا ولمّا يَلحَقْ بهم»، قال صلّى الله عليه وسلّم: «المَرء مع مَن أَحَبَّ».[٤]

﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ أي: المتقدِّمين في تصديقهم، المبالِغين في الصدق والإخلاص في الأقوال والأفعال. وهم أفاضِلُ أصحاب الأنبياء عليهم السلام، وأَماثِلُ خواصّهم المقرَّبين كأبي بكر الصدّيق. ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين بذَلوا أرواحَهم في طاعة الله تعالى وإعلاء كلمته. ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الصارفين أعمارَهم في طاعته وأموالَهم في مرضاته. وليس المراد بالمَعيّة الاتّحادَ في الدرجة، ولا مطلَقَ الاشتراك في دخول الجنّة؛ بل كونهم فيها بحيث يتمكّن كلّ واحد منهم مِن رُؤية الآخَر وزيارتِه متى أراد، وإن بعُدَ ما بينهما مِن المسافة.

[٥٥ظ] ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ الرفيق: الصاحب، مأخوذٌ مِن "الرِّفْق"، وهو / لِين الجانب واللَّطافةُ في المعاشرة قولًا وفعلًا. فإن جُعل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى النبيّين ومَن بعدهم -على أنّ ما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ مِرارًا- فـ﴿رَفِيقًا﴾ إمّا تمييز أو حال، على معنَى أنّهم وُصِفوا بالحُسن مِن جهة كونهم رُفَقاءَ للمطيعين أو حالَ كونهم رُفَقاءَ لهم، وإفرادُه لِما أنّه كالصديق والخليط والرسول، يستوي فيه الواحد والمتعدِّد، أو لأنّه أريدَ حُسن كلّ واحد منهم رفيقًا. وإن جُعل إشارةً إلى المُطيعين، فهو تمييز على معنَى أنّهم وُصِفوا بحُسن الرفيق مِن النبيّين ومَن بعدهم، لا بنفس الحُسن؛ فلا يجوز دخول "مِن" عليه، كما يجوز في الوجه الأوّل.

---

١ أسباب النزول للواحدي، ص ١٦٩؛ الكشّاف للزمخشري، ١/ ٥٣١؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٣/٢.

٢ نحوه في صحيح البخاري، ١٢/١ (١٥)؛ وصحيح مسلم، ٦٧/١ (٤٤). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/١.

٣ س: رضي الله عنهم.

٤ أخرج نحوه أحمد في مسنده، ٧٤/٢٠ (١٢٦٢٥)؛ وأبو داود في سننه، ٤٤٦/٧ (٥١٢٧)، غيرَ أنّ أنَسًا رضي الله عنه هو الراوي، والسائل رجلٌ لم يصرَّح باسمه.

والجملة تذييل مقرِّر لِما قبله مؤكِّدٌ للترغيب والتشويق. قيل: فيه معنى التعجّب، كأنّه قيل: وما أحسَنَ أولئك رفيقًا! ولِاستقلاله بمعنى التعجّب قُرئ: "وَحَسْنَ"[١] بسكون السين.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ۝٧٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما للمُطيعين مِن عظيم الأجر ومزيد الهداية ومرافقةِ هؤلاء المنعَمِ عليهم، أو إلى فضلهم ومزيّتهم. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعُلوّ رُتبته وبُعدِ منزلته في الشرف. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ صفتُه، وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبرُه، أي: ذلك الفضل العظيم مِن الله تعالى، لا مِن غيره، أو ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ خبرُه، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بمحذوفٍ وقع حالًا منه، والعامل فيه معنى الإشارة، أي: ذلك الذي ذُكر فضلٌ كائنًا مِن الله تعالى، لا أنّ أعمالِ المكلَّفين تُوجبه.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بجزاءِ مَن أطاعه وبمقادير الفضل واستحقاق أهله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ۝٧١﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ "الحِذْر" و"الحَذَر" واحد، كـ"الإثْر" و"الأثَر"، و"الشِّبْه" و"الشَّبَه". أي: تَيقَّظوا واحترِزوا مِن العدوّ، ولا تمكِّنوه مِن أنفسكم. يقال: "أخذ حِذرَه" إذا تيقَّظَ واحترز مِن المَخُوف، كأنّه جعل الحذر آلتَه التي يَقِي بها نفسَه. وقيل: هو ما يُحذَر به مِن السلاح والحَزْم، أي: استعِدّوا للعدوّ.

﴿فَٱنفِرُوا۟﴾ بكسر الفاء، وقُرئ بضمّها،[٢] أي: اخرجوا إلى الجهاد عند خروجكم ﴿ثُبَاتٍ﴾ جمعُ "ثُبَة"، وهي الجماعة مِن الرجال فوق العَشرة، ووَزْنُها في الأصل: "فُعَلَة"، كـ"حُطَمَة"، / حُذفت لامُها، وعُوّض منها تاء التأنيث. وهل [٥٦و]
هي واو أو ياء؟ فيه قولان، قيل: إنّها مشتقّة مِن "ثَبَا يَثْبُو"، كـ"حَلَا يَحْلُو"، أي: اجتمع، وقيل: مِن "ثبَيْتُ على الرجل" إذا أثنيتَ عليه، كأنّك جمعتَ محاسنه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٧.

٢ أي: "فَانْفُرُوا"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٧.

ويُجمَع أيضًا على "ثُبِينَ" جَبْرًا لِما حُذف مِن عَجُزه. ومحلّها النصب على الحاليّة، أي: انفِروا جماعاتٍ متفرِّقةً سَريّةً بعد سَريّة. ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أي: مجتمِعين كَوْكبةً واحدةً، ولا تتخاذلوا فتُلقُوا بأنفسكم إلى التَّهلُكة.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: لَيتثاقَلَنَّ ولَيتخلَّفَنَّ عن الجهاد. مِن "بَطَّأ" بمعنى "أبطأ"، كـ"عَتَّم" بمعنى "أعتم". والخطاب لعسكر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كلِّهم المؤمنين منهم والمنافقين. والمبطِّئون منافِقُوهم الذين تَثَاقلوا وتخلَّفوا عن الجهاد. أو[1] لَيبطِّئَنَّ غيرَه ويثبِّطَنَّه. مِن "بَطّأ" منقولًا مِن "بَطُؤَ"، كـ"ثَقَّل" مِن "ثَقُلَ"، كما بطّأ ابن أُبيّ ناسًا يومَ أُحُد. والأوّل أنسَبُ لِما بعده. واللام الأولى للابتداء، دخلتْ على اسم ﴿إِنَّ﴾ للفصل بالخبر، والثانية جواب قَسم محذوف، والقَسم بجوابه صلةُ ﴿مَن﴾، والراجع إليه ما استكنّ في ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾، والتقدير: وإنّ منكم لَمَن -أُقسِم بالله- لَيبطِّئنَّ.

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ كقتل وهزيمة، ﴿قَالَ﴾ أي: المبطِّئ فَرِحًا بصُنعه وحامدًا لرأيه: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ﴾ أي: بالقعود؛ ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: حاضرًا في المَعرَكة فيُصيبَني ما أصابهم. و"الفاء" في الشرطيّة لترتيب مضمونها على ما قبلها؛ فإنّ ذكر التَّبطِئة مستتبع لذكر ما يترتّب عليها، كما أنّ نفس التَّبطِئة مستدعية لشيءٍ ينتظر المبطِّئ وقوعَه.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ﴾ كفتح وغنيمة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿أَصَٰبَكُمْ﴾، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿فَضْلٌ﴾، أي: فضل كائن مِن الله تعالى. ونسبة إصابة الفضل

---

[1] السياق: أي: لَيتثاقَلَنَّ... أو لَيبطِّئَنَّ غيرَه...

إلى جناب الله تعالى دون إصابة المصيبة مِن العادات الشريفة التنزيليّة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٨٠/٢٦]. وتقديم الشرطيّة الأولى لِما أنّ / مضمونها لمقصدهم أوفَقُ، وأثرَ نِفاقهم فيها أظهَرُ. [٥٦ظ]

﴿لَيَقُولَنَّ﴾ ندامةً على تثبّطه وقعوده، وتهالُكًا على حُطام الدنيا، وتحسّرًا على فَواته. وقُرئ: "لَيَقُولُنَّ"[١] بضمّ اللام إعادةً للضمير إلى معنى ﴿مَنْ﴾.[٢] وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراض وُسّط بين الفعل ومفعولِه الذي هو ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لِئلّا يُفهَم مِن مَطلَع كلامه أنّ تَمنّيَه لمَعيّة المؤمنين لنُصرتهم ومظاهرتهم، حسبما يقتضيه ما في البَيْن مِن المَوَدّة؛ بل هو للحرص على المال كما ينطِق به آخِره. وليس إثبات المَوَدّة في البَيْن بطريق التحقيق؛ بل بطريق التهكّم.

وقيل: الجملة التشبيهيّة حال مِن ضمير ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، أي: لَيقولَنَّ مشبَّهًا بمَن لا مَوَدّةَ بينكم وبينه. وقيل: هي داخلة في المَقُول، أي: لَيقولَنَّ المثبِّط لمَن يثبّطه مِن المنافقين وضَعَفةِ المؤمنين: كأنْ لم تكن بينكم وبين محمّد صلّى الله عليه وسلّم مَوَدّة؛ حيث لم يستصحبكم في الغَزْو حتّى تفوزوا بما فاز؛ يا لَيتني كنتُ معهم! وغرضُه إلقاء العَداوة بينهم وبينه صلّى الله عليه وسلّم وتأكيدُها.

و﴿كَأَنْ﴾ مخفّفة مِن الثقيلة، واسمه ضمير الشأن، وهو محذوف. وقُرئ: "لَمْ يَكُنْ"[٣] بالياء. والمنادَى في ﴿يَٰلَيْتَنِي﴾ محذوف، أي: يا قوم. وقيل: ﴿يَا﴾ أُطلقَ للتنبيه على الاتّساع. وقوله تعالى: ﴿فَأَفُوزَ﴾ نصب على جواب التمنّي. وقُرئ بالرفع[٤] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أي: فأنا أفوز في ذلك الوقت، أو على أنّه معطوف على ﴿كُنتُ﴾ داخلٌ معه تحت التمنّي.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المحتسَب لابن جنّي، ١٩٢/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٨.

[٢] في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء، ٧٢/٤].

[٣] قرأ بها السبعة إلّا ابن كثير وعاصمًا مِن رواية حفص ويعقوب مِن رواية رُويس. النشر لابن الجزري، ٢٥٠/٢.

[٤] أي: "فَأَفُوزُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ويزيد النحوي. المحتسَب لابن جنّي، ١٩٢/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٨.

﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قُدّم الظرف على الفاعل للاهتمام به. ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: يَبيعونها بها، وهم المؤمنون؛ فـ"الفاء" جوابُ شرط مقدَّر، أي: إن بَطّأ هؤلاء عن القتال فليقاتِل المخلِصون الباذلون أنفسَهم في طلب الآخرة، أو الذين يشترونها / ويختارونها على الآخرة، وهم المبطِّئون؛ [٥٧و] فـ"الفاء" للتعقيب، أي: ليتركوا ما كانوا عليه مِن التثبط والنفاق، وليعقِّبوه بالقتال في سبيل الله.

﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ بنون العَظَمة التفاتًا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقادَر قدره. وتعقيب القتال بأحد الأمرين للإشعار بأنّ المجاهِد حقُّه أن يُوطِّن نفسَه بإحدى الحُسنيَين، ولا يُخطِرَ بباله القِسم الثالث أصلًا. وتقديم القتل للإيذان بتقدّمه في استتباع الأجر. رَوى أبو هريرةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «تكفَّل الله تعالى لمَن جاهد في سبيله -لا يُخرجه إلّا جهاد في سبيله وتصديقُ كلمته- أن يُدخله الجنّة أو يُرجعَه إلى مسكَنه الذي خرج منه مع ما نالَ مِن أجر وغنيمة».[١]

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ خطاب للمأمورين بالقتال على طريقة الالتفات مبالغةً في التحريض عليه وتأكيدًا لوجوبه. وهو مبتدأ وخبر، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حال، عاملُها ما في الظرف مِنْ معنى الفعل، والاستفهام للإنكار والنفي، أي: أيّ شيءٍ لكم غير مقاتِلين! أي: لا عُذرَ لكم في ترك المقاتلة.

---

١ هو باختلاف يسير في صحيح البخاري، ٨٥/٤ (٣١٢٣)؛ وصحيح مسلم، ١٤٩٦/٣ (١٨٧٦). والألفاظ مِن اللباب لابن عادل، ٤٩٤/٦.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ عطفٌ على اسم ﴿ٱللَّهِ﴾، أي: في سبيل المستضعَفِين، وهو تخليصهم عن الأَسر وصَوْنُهم عن العَدوّ، أو على "السبيل"[١] بحذف المضاف، أي: في خلاص المستضعَفين. ويجوز نصبه على الاختصاص؛ فإنّ سبيل الله يعمّ أبوابَ الخير، وتخليصُ ضَعَفة المؤمنين مِن أيدي الكَفَرة أعظَمُها وأخَصُّها.

﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ بيان لـ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أو حال منهم. وهم المسلمون الذين بَقُوا بمكّةَ لصدّ المشركين، أو لضعفهم عن الهجرة مستذَلّين ممتحَنِين. وإنّما ذُكر ﴿ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ معهم تكميلًا للاستعطاف واستجلاب المرحمة، وتنبيهًا على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصِّبْيانَ لإرغام آبائهم وأُمّهاتهم، وإيذانًا بإجابة الدعاء الآتي واقتراب زمان الخلاص ببيان شِركتهم في التضرّع إلى الله تعالى؛ كلّ ذلك للمبالغة في الحثّ على / القتال. وقيل: المراد [٥٧ظ] بـ﴿ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ العَبيد والإماء؛ إذ يقال لهما: الوليد والوليدة. وقد غلّب الذُّكور على الإناث، فأُطلقَ ﴿ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ على "الولائد" أيضًا.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ محلّه الجرّ على أنّه صفة لـ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ أو لِما في حيّز البيان، أو النصب على الاختصاص. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بالشرك الذي هو ظلم عظيم، وبأذيّة المسلمين. وهي مكّة، و﴿ٱلظَّالِمِ﴾ صفتها، وتذكيرُه لتذكير ما أُسندَ إليه؛ فإنّ اسم الفاعل والمفعول إذا أُجريَ على غير مَن هو له كان كالفعل في التذكير والتأنيث بحسَب ما عمِل فيه.

﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ كِلا الجارَّين متعلِّق بـ﴿ٱجْعَلْ﴾ لاختلاف معنيَيهما. وتقديم المجرورَين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة في المؤخَّر بتقديم أحواله؛ فإنّ تأخير ما حقُّه التقديم عمّا هو مِن أحواله المرغَّبة فيه -كما يُورِث شوقَ السامع إلى وروده- يُنبئ عن كمال رغبة المتكلِّم فيه واعتنائه بحصوله لا محالةَ. وتقديم "اللام" على ﴿مِنْ﴾ للمسارعة إلى إبراز كون المسئُول نافعًا لهم مرغوبًا فيه لديهم. ويجوز أن يتعلّق كلمة ﴿مِنْ﴾ بمحذوفٍ وقع حالًا

---

[١] في قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء، ٤/٧٤].

مِن ﴿وَلِيًّا﴾، قُدّمت عليه لكونه نكِرةً. وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أي: وَلِّ علينا واليًا مِن المؤمنين يُوالِينا، ويقوم بمصالحنا، ويحفَظ علينا ديننا وشرعَنا، وينصرنا على أعدائنا».[1] ولقد استجاب الله عزّ وجلّ دعاءهم؛ حيث يَسّر لبعضهم الخروجَ إلى المدينة، وجعل لمَن بقي منهم خيرَ وليّ وأعزَّ ناصر؛ ففتح مكّةَ على يدَي نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، فتولّاهم أيَّ تَوَلٍّ، ونصرهم أيَّ نُصرةٍ، ثمّ استعمل عليهم عَتّاب بنَ أَسِيد،[2] فحماهم ونصرهم حتّى صاروا أعزَّ أهلها. وقيل: المراد: واجعلْ لنا مِن لَدنك ولايةً ونصرةً، أي: كُنْ أنت وليَّنا وناصِرَنا. وتكرير الفعل ومتعلِّقَيه للمبالغة في التضرّع والابتهال.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كلام مبتدأ سِيقَ لترغيب المؤمنين في القتال وتشجيعِهم ببيان كمال قوّتهم بإمداد الله تعالى ونصرته وغايةِ ضعف أعدائهم، أي: المؤمنون إنّما يقاتِلون في دين الله الحقّ المُوصِل لهم إلى الله عزّ وجلّ وفي إعلاء كلمته؛ فهو وليّهم وناصِرهم لا محالةَ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: فيما يوصِلهم إلى الشيطان؛ فلا ناصِرَ لهم سِواه.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لبيان استتباع ما قبلها لِما بعدها. وذِكرهم بهذا العُنوان للدلالة على أنّ ذلك نتيجة لقتالهم في سبيل الشيطان،

---

١ نحوه في التفسير الوسيط للواحدي، ٨١/٢؛ وتفسير الرازي، ١٤٢/١٠؛ واللباب لابن عادل، ٤٩٨/٦.

٢ هو عتّاب بن أَسِيد بن أبي العِيص بن أميّة، أبو عبد الرحمن (ت. ١٣هـ/٦٣٤م). صحابيّ. أسلَمَ يومَ فتح مكّة. واستعمله النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على مكّة بعد الفتح لمّا سار إلى حُنين. ولم يزل عتّاب في مكّة إلى أن تُوفّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وأقرّه أبو بكر عليها إلى أن مات، وتُوفي عتّاب -في قول الواقدي- يومَ مات أبو بكر، ومثله قال أولاد عتّاب. انظر: الاستيعاب للنّمري، ١٠٢٣/٣-١٠٢٤؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٥٤٩/٣.

والإشعارِ بأنّ المؤمنين أولياء الله لِما أنّ قتالهم في سبيله. / وكلّ ذلك لتأكيد [٥٨و] رغبة المؤمنين في القتال وتقوية عزائمهم عليه؛ فإنّ ولاية الله تعالى عَلَمٌ في العزّة والقوّة، كما أنّ ولاية الشيطان مَثلٌ في الذِّلّة والضَّعف، كأنّه قيل: إذا كان الأمر كذلك، فقاتِلوا -يا أولياءَ الله- أولياءَ الشيطان.

ثمّ صُرّح بالتعليل فقيل: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي: في حدّ ذاته؛ فكيف بالقياس إلى قدرة الله عزّ وجلّ..ولم يتعرّض لبيان قوّة جَنابه تعالى إيذانًا بظهورها. قالوا: فائدة إدخال ﴿كَانَ﴾ في أمثال هذه المواقع التأكيدُ ببيان أنّه منذ كان كان كذلك، فالمعنى: إنّ كيد الشيطان منذ كان كان موصوفًا بالضَّعف.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ تعجيب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن إحجامهم عن القتال مع أنّهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حِراصًا عليه بحيث كادوا يباشرونه، كما يُنبئ عنه الأمر بكَفّ الأيدي؛ فإنّ ذلك مشعِر بكونهم بصَدَدِ بسطها إلى العَدوّ بحيث يكادون يَسطُون بهم.

قال الكلبي رحمه الله: إنّ جماعةً مِن أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم -منهم عبد الرحمن بن عوف الزهري[١] والمِقداد بن الأسوَد الكِندي[٢] وقُدامة بن مَظعون الجُمَحي[٣] وسعد بن أبي وقّاص الزهري[٤] رضي الله تعالى عنهم-

[١] سبقت ترجمته.

[٢] سبقت ترجمته.

[٣] هو قدامة بن مظعون بن حَبيب الجُمَحي القرشي، أبو عمرو (ت. ٣٦هـ/٦٥٦م). مِن السابقين إلى الإسلام، هاجَرَ إلى الحبشة مع أخويه عثمان وعبد الله ابنَي مظعون. وشهد بدرًا وأُحدًا وسائرَ المشاهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. واستعمله عمر على البحرين، ثمّ عزله. انظر: الاستيعاب للنّمري، ١٢٧٧/٣-١٢٧٩؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٣٧٥/٤-٣٧٦.

[٤] هو سعد بن مالك، وهو سعد بن أبي وقّاص، واسم أبي وقّاص: مالك بن وُهيب، وقيل: >

كانوا يلقَوْن مِن مشركِي مكّةَ قبل الهجرة أذًى شديدًا، فيَشكُون ذلك إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويقولون: «ائذَنْ لنا في قتالهم»، ويقول لهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ فإنّي لم أُؤمَر بقتالهم».[١]

وبناء القول للمفعول -مع أنّ القائل هو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم- للإيذان بكون ذلك بأمر الله سبحانه، ولأنّ المقصود بالذات والمعتبَرَ في التعجيب إنّما هو كمال رغبتهم في القتال وكونُهم بحيث احتاجوا إلى النهي عنه. وإنّما ذُكر / في حيّز الصلة الأمرُ بكفّ الأيدي لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية؛ فلا يتعلّق ببيان خصوصيّة الأمر غرضٌ. [٥٨ظ]

وكانوا في مدّة إقامتهم بمكّةَ مستمرّين على تلك الحالة، فلمّا هاجروا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة وأُمِروا بالقتال في وَقعة بَدْر، كرِهه بعضُهم، وشَقّ ذلك عليه؛ لكنْ لا شكًّا في الدين ولا رغبةً عنه، بل نفورًا عن الإخطار بالأرواح، وخوفًا مِن الموت بموجَب الجِبِلّة البَشريّة؛ وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾... إلخ. وهو عطفٌ على ﴿قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ باعتبار مدلوله الكنائيّ؛ إذ حينئذ يتحقّق التباين بين مدلولَي المعطوفَين، وعليه يدور أمر التعجيب، كأنّه قيل: ألم ترَ إلى الذين كانوا حِراصًا على القتال، فلمّا كُتب عليهم كرِهَه بعضهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ جواب ﴿لَمَّا﴾ على أنّ ﴿فَرِيقٌ﴾ مبتدأ، و﴿مِّنْهُمْ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً له، و﴿يَخْشَوْنَ﴾ خبره، وتصديره

= أُهَيب (ت. ٥٥هـ/٦٧٥م). أحد العشرة المبشَّرين بالجنّة، وأحد الستّة أصحاب الشورى الذين أخبر عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تُوفّي وهو عنهم راضٍ. شهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وأُبلي يومَ أُحد بلاءً عظيمًا. وهو أوّل مَن أراق دمًا في سبيل الله، وأوّل مَن رمى بسهم في سبيل الله. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ١٣٧/٣-١٤٩؛ و**أسد الغابة** لابن الأثير، ٤٥٢/٢-٤٥٦.

١ **أسباب النزول** للواحدي، ص ١٧٠. ونحوه في **سنن النسائي**، ٢/٦-٣ (٣٠٨٦)؛ و**جامع البيان** للطبري، ٢٣١/٧.

بـ﴿إِذَا﴾ المفاجأةِ لبيان مسارعتهم إلى الخشية آثِرَ ذي أثيرٍ[1] مِن غير تَلَعْثُمٍ[2] وتردّدٍ، أي: فاجأ فريق منهم أن يخشَوا الكفّارَ أن يقتلوهم. ولعلّ توجيهَ التعجيب إلى الكلّ -مع صدور الخشية عن بعضهم- للإيذان بأنّه ما كان ينبغي أن يصدر عن أحدهم ما ينافي حالتَهم الأُولى.

وقوله تعالى: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول، مَحلّه النصب على أنّه حال مِن فاعل ﴿يَخْشَوْنَ﴾، أي: يخشَوْنهم مشبِهين لأهل خشية الله تعالى.[3] وقوله تعالى ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ عطف عليه بمعنى: أو أشدَّ خشيةً مِن أهل خشية الله، أو على أنّه مصدر مؤكِّد على جعل "الخَشية" ذاتَ خشيةٍ مبالغةً كما في: "جَدَّ جِدُّه"، أي: يخشَوْنهم خشيةً مثلَ خشية الله، أو خشيةً أشدَّ خشيةً مِن خشية الله. وأيًّا ما كان، فكلمة ﴿أَوْ﴾ إمّا للتنويع على معنى أنّ خشية بعضهم كخشية الله وخشيةَ بعضهم أشدّ منها، وإمّا للإبهام على السامع، وهو قريب ممّا في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ / إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات، ١٤٧/٣٧]، يعني أنّ [٥٩و]
مَن يُبصرهم يقول: إنّهم مائة ألفٍ أو يَزيدون.

﴿وَقَالُوا﴾ عطفٌ على جواب ﴿لَمَّا﴾، أي: فلمّا كُتب عليهم القتال فاجأ فريق منهم خشيةَ الناس وقالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ في هذا الوقت؛ لا على وجه الاعتراض على حُكمه تعالى والإنكار لإيجابه، بل على طريق تمنّي التخفيف. ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ استزادة في مدّة الكَفّ واستمهالٌ إلى وقت آخَرَ حَذَرًا عن الموت. وقد جُوّز أن يكون هذا ممّا نطقت به ألسِنة حالهم مِن غير أن يتفوّهوا به صريحًا.

﴿قُلْ﴾ أي: تزهيدًا لهم فيما يؤمّلونه بالقعود مِن المتاع الفاني، وترغيبًا فيما ينالونه بالقتال مِن النعيم الباقي: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يُتمتّع ويُنتفع به

---

١ افعلْ هذا آثِرَ ذي أثير، أي: أوّلَ كلّ شيء. الصحاح للجوهري، «أثر».

٢ تَلَعْثَمَ الرّجل في الأمر، إذا تمكّث فيه وتأنّى. الصحاح للجوهري، «لعثم».

٣ وفي هامش م: ومآله: يخشَوْنهم حالَ كونهم كأهل خشية الله، أو حالَ كونهم أشدَّ خشيةً مِن أهل خشيته تعالى.

في الدنيا ﴿قَلِيلٌ﴾ سريعُ التقضّي وَشِيكُ الانصرام، وإن أُخّرتم إلى ذلك الأجَل. ﴿وَٱلْآخِرَةُ﴾ أي: ثوابها الذي مِن جملته الثواب المَنوط بالقتال ﴿خَيْرٌ﴾ أي: لكم مِن ذلك المتاع القليل، لكثرته وعدمِ انقطاعه وصَفاءه عن الكُدُورات. وإنّما قيل: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ حثًّا لهم على اتّقاء العصيان والإخلال بمواجب التكليف.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ ينسحب عليه الكلام، أي: تُجزَون فيها ولا تُنقَصون أدنى شيء مِن أُجور أعمالكم التي مِن جملتها مَسْعاتكم في شأن القتال؛ فلا تَرغَبوا عنه. والفَتِيل: ما في شقّ النُّواة مِن الخَيط، يُضرَب به المَثل في القِلّة والحقارة. وقُرئ: "يُظْلَمُونَ"[1] بالياء إعادةً للضمير إلى ظاهر ﴿مَنْ﴾.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ كلام مبتدأ مَسوق مِن قِبله تعالى بطريق تلوين الخطاب وصَرفِه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المخاطَبين اعتناءً بإلزامهم إثرَ بيان حقارة الدنيا وعُلوّ شأن الآخرة بواسطته عليه الصلاة والسلام. فلا محلَّ له مِن الإعراب، أو في محلّ النصب داخلٌ تحت القول المأمور به، أي: أينما تكونوا في الحَضَر والسَّفَر يُدرِككم الموت الذي لأجله تكرَهون القتال زعمًا منكم أنّه مِن مَظانّه، وتُحبّون القعود عنه على زعم أنّه مَنْجاة منه. وفي لفظ "الإدراك" إشعار بأنّهم في الهَرَب مِن الموت، / وهو مُجِدّ في طلبهم. [٥٩ظ]

وقُرئ بالرفع[2] على حذف الفاء، كما في قوله:

---

[1] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف وابن عامر مِن رواية ابن ذَكوان. الحجّة لأبي عليّ الفارسي، ٣/١٧١-١٧٢.

[2] أي: "يُدْرِكُكُمْ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان. المحتسَب لابن جنّي، ١٩٣/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٨.

مَـن يفعل الحَسَناتِ اللهُ يشكُرُها[1]

أو على اعتبار وقوع "أينما كنتم" في موقع ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾، أو على أنّه[2] كلام مبتدأ، و﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾ متّصل بـ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾،[3] أي: لا تُنقَصون شيئًا ممّا كُتب مِن آجالكم أينما تكونوا في ملاحم الحروب ومعارك الخطوب.

﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ في حصون رفيعة أو قصور محصّنة. وقال السدّي وقتادةُ: «بُروج السماء».[4] يقال: شادَ البناءَ وأشاده وشيَّده: رفعه. وقُرئ: "مُشَيِّدَةٍ"[5] بكسر الياء وصفًا لها بفعل فاعلها مجازًا، كما في: "قصيدةٌ شاعرةٌ"، و"مَشِيدَةٍ"[6] مِن "شَادَ القصرَ" إذا رفعه أو طلاه بالشِّيد، وهو الجِصّ.

وجوابُ ﴿لَوۡ﴾ محذوف اعتمادًا على دلالة ما قبله عليه، أي: لو كنتم في بروج مشيّدة يُدرِكْكم الموت. والجملة معطوفة على أخرى مثلِها، أي: لو لم تكونوا في بروج مشيّدة، ولو كنتم... إلخ. وقد اطَّرَدَ حذفها لدلالة المذكورة عليها دلالةً واضحةً؛ فإنّ الشيء إذا تحقَّق عند وجود المانع، فلَأَنْ يتحقّقَ عند عدمه أولى.[7] وعلى هذه النُّكتة يدور ما في "لو" الوصليّة و"إنْ" الوصليّة مِن التأكيد والمبالغة. وقد مرّ تحقيقه في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة، ١٧٠/٢].

﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كلام مبتدأ جِيءَ به عَقيبَ ما حُكي عن المسلمين لِما بينهما مِن المناسبة في اشتمالهما على إسناد ما يكرَهونه إلى بعض الأمور وكراهتِهم له بسبب ذلك. والضمير لليهود والمنافقين. رُوي أنّه كان قد بُسط عليهم الرزق، فلمّا قدِم النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم المدينةَ،

---

[1] صدرُ بيت، عجزه:
والشرّ بالشرّ عند الله مِثلان
ويُروى: "سيّان"، وهو لكعب بن مالك في ديوانه، ص ٢٨٨؛ ولحسّان بن ثابت في كتاب سيبويه، ٦٤/٣-٦٥؛ ولعبد الرحمن بن حسّان بن ثابت في أمالي ابن الشجري، ٩/٢؛ ولسان العرب لابن منظور، «بجل»؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ١٧٨/١.

[2] أي: ﴿يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾.

[3] في الآية السابقة.

[4] التفسير البسيط للواحدي، ٦١١/٦.

[5] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٥٣٨/١، ونسبها إلى نعيم بن ميسرة.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٨.

[7] س - أولى.

فدعاهم إلى الإيمان فكفروا، أُمسِكَ عنهم بعضَ الإمساك، فقالوا: «ما زِلْنَا نَعرِف النقص في ثِمارنا ومزارِعِنا منذ قدِم هذا الرجل وأصحابه»؛[1] وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: وإن تُصبهم نعمة ورَخاء نسبوها إلى الله عزّ وجلّ، وإن تُصبهم بَلِيّة مِن جَدْب وغَلاء أضافوها إليك، كما حُكي عن أسلافهم بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف، ٧/١٣١].

فأُمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأنْ يردَّ زعمهم الباطلَ، ويُرشدَهم إلى الحقّ، ويُلقِمَهم الحَجَرَ[2] ببيان إسناد الكلّ إليه تعالى على الإجمال؛ إذ لا يجترئون على معارضة أمر الله عزّ وجلّ؛ حيث قيل: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: كلّ واحدة مِن النعمة والبَلِيّة مِن جهة الله تعالى / خَلْقًا وإيجادًا، مِن غير أن يكون لي مَدخَل في وقوع شيء منهما بوجه مِن الوجوه كما تزعُمون؛ بل وقوع الأُولى منه تعالى بالذات تفضّلًا، ووقوع الثانية بواسطة ذنوب مَن ابتُلي بها عقوبةً كما سيأتي بيانه. [٦٠و]

فهذا الجواب المجمَل في معنى ما قيل ردًّا على أسلافهم مِن قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف، ٧/١٣١]، أي: إنّما سبب خيرهم وشرّهم أو سببُ إصابة السيّئة التي هي ذنوبهم عند الله تعالى؛ لا عند غيره حتّى يُسنِدوها إليه ويَطَّيَّرُوا به.

وقوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ إلى آخره كلامٌ معترض بين المبيَّن وبيانِه، مَسوقٌ مِن جهته تعالى لتعييرهم بالجهل وتقبيح حالهم والتعجيبِ مِن كمال غَباوتهم. و"الفاء" لترتيبه على ما قبله.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ حال مِن ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، والعامل فيها ما في الظرف مِن معنى الاستقرار، أي: وحيث كان الأمر كذلك، فأيُّ شيء

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٣٤٦؛ اللباب لابن عادل، ٦/٥٠٧.

[2] أَلْقَمَه الحَجَرَ: يُضرَب للمُجيب بجواب مُسكِت. المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، ١/٣٣٩.

حصل لهم حالَ كونهم بمَعزِل مِن أن يفقهوا حديثًا! أو استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن الاستفهام، كأنّه قيل: ما بالُهم وماذا يصنعون حتّى يتعجّبَ منه أو يسألَ عن سببه؟ فقيل: لا يكادون يفقهون حديثًا مِن الأحاديث أصلًا، فيقولون ما يقولون؛ إذ لو فَقِهوا شيئًا مِن ذلك لَفهموا[١] هذا النصّ وما في معناه، وما هو أوضَحُ منه مِن النصوص القرآنيّة الناطقةِ بأنّ الكلّ فائض مِن عند الله تعالى، وأنّ النعمة منه تعالى بطريق التفضّل والإحسان، والبَلِيّةَ بطريق العقوبة على ذنوب العباد؛ لاسيّما النصّ الواردَ عليهم ﴿فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۞ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۞ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم، ٣٦/٥٣-٣٨]، ولم يُسنِدوا جناية أنفسهم إلى غيرهم.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾... إلخ بيانٌ للجواب المجمَل المأمورِ به. وإجراؤه على لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثمّ سَوقُ البيان مِن جهته عزّ وجلّ بطريق تلوين الخطاب وتوجيهِه إلى كلّ واحد مِن الناس والالتفاتِ لمزيد الاعتناء به، والاهتمامِ بردّ مقالتهم الباطلة، والإيذانِ بأنّ مضمونه مبنيّ على حكمة دقيقة حقيقة بأنْ يتولّى بيانَها علّامُ الغُيوب.

وتوجيه الخطاب إلى كلّ واحد منهم دون كلّهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى، ٣٠/٤٢] للمبالغة في التحقيق بقطع احتمال سببيّة معصية بعضهم لعقوبة الآخَرين، أي: ما أصابك مِن نعمة مِن النِّعَم ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فهي منه تعالى بالذات تفضّلًا وإحسانًا، مِن غير استيجاب لها مِن قِبلك. كيف لا، وإنّ كلّ ما يفعله المَرء مِن الطاعات -التي يُفرَض كونها ذريعةً إلى إصابة نعمةٍ ما- فهي بحيث لا تكاد تُكافِئ نعمةَ حياته المقارنةِ لأدائها، ولا نعمةَ إقداره تعالى إيّاه على أدائها، فضلًا عن استيجابها لنعمة أخرى؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ما أحد يدخل الجنّة

---

[١] وفي هامش م: فَقِهَ: فَهِمَ، وفَقُهَ: صار فقيهًا. «منه».

[٦٠ظ] إلّا برحمة الله»، قيل: «ولا أنت يا رسولَ الله؟»، / قال: «ولا أنا».[١]

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ أي: بَلِيّةٍ مِن البَلايا ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: فهي منها بسبب اقترافها المعاصيَ الموجِبةَ لها، وإن كانت مِن حيث الإيجادُ منتسِبةً إليه تعالى نازلةً مِن عنده عقوبةً، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى، ٣٠/٤٢]. وعن عائشةَ رضي الله عنها: «ما مِن مسلم يُصيبه وَصَبٌ ولا نَصَبٌ حتّى الشّوكة يُشاكُها، وحتّى انقطاعُ شِسْعِ[٢] نَعلِه، إلّا بذنب، وما يَعفُو اللهُ أكثرُ».[٣]

وقيل: الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما قبله وما بعده؛ لكنْ لا لبيان حاله صلّى الله عليه وسلّم، بل لبيان حال الكَفَرة بطريق التصوير. ولعلّ ذلك لإظهار كمال السخط والغضب عليهم والإشعارِ بأنّهم لفَرْط جهلهم وبَلادتهم بمَعزِل مِن استحقاق الخطاب، لاسيّما بمثل هذه الحكمة الأنيقة.

﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ بيان لجلالة مَنصِبه صلّى الله عليه وسلّم ومكانته عند الله عزّ وجلّ[٤] بعد بيان بُطلان زعمهم الفاسد في حقّه عليه السلام بناءً على جهلهم بشأنه الجليل. وتعريف ﴿النَّاسِ﴾ للاستغراق. والجارّ إمّا متعلّق بـ﴿رَسُولًا﴾، قُدّم عليه للاختصاص الناظرِ إلى قيد العموم، أي: مرسَلًا لكلّ الناس، لا لبعضهم فقط كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ، ٢٨/٣٤]، وإمّا بالفعل؛ فـ﴿رَسُولًا﴾ حال مؤكِّدة. وقد جُوّز أن يكون مصدرًا مؤكِّدًا كما في قوله:

لقد كذَبَ الواشونَ ما فُهتُ عندهم ... بسِرّ ولا أرسلتُهم برسولِ[٥]

---

[١] نحوه في صحيح البخاري، ٩٨/٨ (٦٤٦٧)؛ وصحيح مسلم، ٢١٧١/٤ (٢٨١٧). والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٨٦/٢.

[٢] الشِّسْع: واحدُ شُسوعِ النَّعل التي تُشَدّ إلى زِمامها. الصحاح للجوهري، «شسع».

[٣] لم نقف عليه عن عائشة رضي الله عنها بهذه الألفاظ، لعلّ المصنّف نقله مِن الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/١. ونحوه عن عائشة في صحيح البخاري، ١١٤/٧ (٥٦٤٠)؛ وصحيح مسلم، ١٩٩٢/٤ (٢٥٧٣).

[٤] س: تعالى.

[٥] البيت لكُثَيِّر في ديوانه، ص ١١٠، وروايته في المطبوع:
لقد كذَب الواشون ما بحتُ عندهم ... بليلى ولا أرسلتُهم برسيلِ
وهو بألفاظ المصنّف في تهذيب اللغة للأزهري، ٢٧٢/١٢ «أبواب السين والراء»؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٣ (الشعراء، ١٦/٢٦-١٧).

أي: بإرسال، بمعنى: رسالة.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: على رسالتك، بنصب المعجِزات التي مِن جملتها هذا النصّ الناطق والوحي الصادق. والالتفات لتربية المهابة وتقوية الشهادة. والجملة اعتراض تذييليّ.

﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ٨٠﴾

﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ بيان لأحكام رسالته صلّى الله عليه وسلّم إثرَ بيان تحقّقها وثبوتها. وإنّما كان كذلك؛ لأنّ الآمِرَ والناهيَ في الحقيقة هو الله عزّ وجلّ، / وإنّما هو عليه السلام مبلِّغ لأمره ونهيه؛ فمَرجِع الطاعة وعدمِها [٦١و]
هو لله سبحانه. رُوي أنّه عليه السلام قال: «مَن أحبَّني فقد أحبَّ الله، ومَن أطاعني فقد أطاع الله»، فقال المنافقون: «ألَا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل؟ لقد قارف الشركَ؛ وهو يَنهي أن يُعبَد غير الله، ما يريد إلّا أن نتّخذه ربًّا كما اتّخذت النصارى عيسى»، فنزلت.[١]

والتعبير عنه عليه السلام بـ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ دون الخطاب للإيذان بأنّ مناط كون طاعته عليه السلام طاعةً له تعالى ليس خصوصيّةَ ذاته عليه السلام؛ بل حيثيّةُ رسالته. وإظهار الجلالة لتربية المهابة وتأكيد وجوب الطاعة بذكر عُنوان الألوهيّة. وحملُ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ على الجنس المنتظِم له عليه السلام انتظامًا أوّليًا يأباه تخصيص الخطاب به عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾. وجواب الشرط محذوف، والمذكور تعليل له، أي: ومَن أعرض عن الطاعة، فأَعرِضْ عنه؛ إنّما أرسلناك رسولًا مبلِّغًا، لا حفيظًا مُهَيمنًا تَحفظ عليهم أعمالَهم وتُحاسبهم عليها وتُعاقبهم بحسَبها. و﴿حَفِيظًا﴾ حال مِن "الكاف"، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلِّق به، قُدّم عليه رعايةً للفاصلة. وجُمع الضمير باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾، كما أنّ الإفراد في ﴿تَوَلَّىٰ﴾ باعتبار لفظه.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ١/٥٣٩؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٨٦. وهو باختلاف يسير في التفسير البسيط للواحدي، ٦/٦١٩.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ شروع في بيان معاملتهم مع الرسول صلّى الله عليه وسلّم بعد بيان وجوب طاعته، أي: يقولون إذا أمرتَهم بشيء: ﴿طَاعَةٌ﴾ أي: أمرُنا وشأنُنا طاعة، أو مِنّا طاعة. والأصل النصب على المصدر، والرفعُ للدلالة على الثَّبات، كـ﴿سَلَٰمٌ﴾.[١]

﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: خرجوا مِن مجلسك ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: مِن القائلين المذكورين، وهم رُؤَساؤهم، ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ أي: رَوّزتْ طائفة منهم وسَوّت خلافَ ما / قالت لك مِن القبول وضمان الطاعة؛ لأنّهم مُصرّون [٦١ظ] على الردّ والعصيان، وإنّما يُظهرون ما يُظهرون على وجه النفاق، أو خلافَ ما قلتَ لها.[٢]

و"التبييت" إمّا مِن "البَيتوتة"؛ لأنّه قضاء الأمر وتدبيره بالليل، يقال: "هذا أمر بُيّت بليلٍ"، وإمّا مِن "بَيْت الشِّعر"؛ لأنّ الشاعر يدبّره ويسوِّيه. وتذكير الفعل؛ لأنّ تأنيث "الطائفة" غيرُ حقيقيّ. وقُرئ بإدغام التاء في الطاء[٣] لقُرب المَخرَج. وإسناده إلى ﴿طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ لبيانِ أنّهم المتصَدّون له بالذات والباقونَ أتباع لهم في ذلك؛ لا لأنّ الباقين ثابتون على الطاعة.

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يكتبه في جملة ما يوحَى إليك، فيُطلعك على أسرارهم؛ فلا يحسَبوا أنّ مكرهم يخفى عليكم فيجدون بذلك إلى الإضرار بكم سبيلًا، أو يُثبتُه في صحائفهم، فيُجازيهم عليه. وأيًّا ما كان، فالجملة اعتراضيّة.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تُبالِ بهم وبما صنعوا، أو تَجافَ عنهم ولا تتصَدَّ للانتقام منهم. و"الفاء" لسببيّة ما قبلها لِما بعدها. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في كلّ ما تأتي وما تذَرُ، لاسيّما في شأنهم. وإظهار الجلالة في مقام الإضمار للإشعار

---

١ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود، ٦٩/١١].

٢ م س - أو خلاف ما قلت لها ["صح" في هامش م س].

٣ أي: "بيَّطّائِفَةٌ"، وهي قراءة أبي عمرو وحمزة. النشر لابن الجزري، ٢٥٠/٢.

بعلّة الحكم. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فيَكفيك مَعَرّتَهم، وينتقم لك منهم. والإظهار ههنا أيضًا لِما مرّ، وللتنبيه على استقلال الجملة واستغنائها عمّا عداها مِن كلّ وجه.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إنكار واستقباح لعدم تدبّرهم القرآن وإعراضِهم عن التأمّل فيما فيه مِن موجِبات الإيمان. وتدبُّر الشيء: تأمُّله والنظر في أدباره وما يَئُول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثمّ استُعمل في كلّ تفكّر ونظر. و"الفاء" للعطف على مقدَّر، أي: أيُعرضون عن القرآن فلا يتأمّلون فيه ليعلموا كونه مِن عند الله تعالى بمشاهدة ما فيه مِن الشواهد التي مِن جملتها هذا الوحي الصادق والنصّ الناطق بنفاقهم المَحكيّ على ما هو عليه.

﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي: القرآن ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ كما يزعمون، ﴿لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1] / بأنْ يكون بعض أخباره غيرَ مطابِق للواقع؛ إذ لا عِلمَ بالأمور الغيبيّة [٦٢و] -ماضيةً كانت أو مستقبلةً- لغيره سبحانه؛ وحيث كان كلّها مطابِقةً للواقع تعيَّنَ كونه مِن عنده تعالى.

قال الزجّاج: «ولولا أنّه مِن عند الله تعالى لكان ما فيه مِن الإخبار بالغيب -ممّا يُسرّه المنافقون وما يُبيّتونه- مختلِفًا: بعضه حقّ، وبعضه باطل؛ لأنّ الغيب لا يعلمه إلّا الله».[2] وقال أبو بكر الأصَمّ: «إنّ هؤلاء المنافقين كانوا يَتواطَئُون في السرّ على أنواع كثيرة مِن الكَيد والمَكر، وكان الله تعالى يُطلع الرسول عليه السلام على ذلك ويُخبره بها مفصَّلةً، فقيل لهم: إنّ ذلك لو لم يحصل بإخبار الله تعالى لَما اطَّردَ الصدقُ فيه، ولَوقع فيه الاختلاف؛ فلمّا لم يقع ذلك قطُّ عُلم أنّه بإعلامه تعالى».[3] هذا هو الذي يستدعيه جزالة النظم الكريم.

وأمّا حمل "الاختلاف" على التناقض وتفاوتِ النظم في البلاغة -بأنْ كان بعضه دالًّا على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه على معنى فاسد غيرِ ملتئِم،

---

١ وفي هامش م: اختلافًا كثيرًا بين الخبر والواقع.

٢ معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٨٢/٢، باختلاف في الألفاظ.

٣ تفسير الرازي، ١٠/١٥١-١٥٢.

وبعضه بالغًا حدَّ الإعجاز، وبعضه قاصرًا عنه يمكِن معارضته، كما جنَح إليه الجمهور- فممّا لا يساعده السباق ولا السياق. ومَن رَامَ التقريبَ وقال: "لعلّ ذِكرَه هھنا للتنبيه على أنّ اختلاف ما سبق مِن الأحكام ليس لتناقضٍ في الحكم؛ بل لاختلاف في الحِكَم والمصالح المقتضية لذلك"،[1] فقد أبعد عن الحقّ بمراحلَ.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ يقال: أذاعَ السرَّ وأذاعَ به، أي: أشاعَه وأفشاه. وقيل: معنى ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾: فعلوا به الإذاعةَ، وهو أبلَغُ مِن "أذاعوه". وهو كلام مَسوق لدفع ما عسى يُتوهَّم في بعض الموادّ مِن شائبة الاختلاف بناءً على عدم فهم المراد، ببيان أنّ ذلك لعدم وقوفهم على معنى الكلام، لا لتخلّف مدلوله عنه. وذلك أنّ ناسًا مِن ضَعَفة المسلمين الذين لا خِبرةَ لهم بالأحوال كانوا إذا أخبرهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم / بما أُوحيَ إليه مِن وعد بالظفر [٦٢ظ]
أو تخويفٍ مِن الكَفَرة يُذيعونه مِن غير فهم لمعناه، ولا ضَبطٍ لفحواه على حسَب ما كانوا يفهمونه ويحملونه عليه مِن المحامل.

وعلى تقدير الفهم قد يكون ذلك مشروطًا بأمورٍ تَفوت بالإذاعة، فلا يظهر أثره المتوقَّع، فيكون ذلك مَنشَأً لتوهّم الاختلاف، فنُعي عليهم ذلك، وقيل: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ﴾ أي: ذلك الأمرَ الذي جاءهم ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: عرضوه على رأيه عليه السلام مستكشِفين لمعناه وما ينبغي له مِن التدبير والالتفات، لِما أنّ عُنوان الرسالة مِن موجِبات الردّ والمراجعةِ إلى رأيه صلّى الله عليه وسلّم. ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ﴾ وهم كِبار الصحابة البُصَراء في الأمور رضي الله عنهم.

﴿لَعَلِمَهُ﴾ أي: لَعَلم الرادّون معناه وتدبيرَه. وإنّما وُضع موضعَ ضمير ﴿هُمۡ﴾ الموصولُ فقيل: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ للإيذان بأنّه ينبغي أن يكون قصدهم

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٨٦.

بردّه إليهم استكشافُ معناه واستيضاحُ فحواه، أي: لَعَلمه أولئك الرادّون الذين يستنبطونه، أي: يتلقَّوْنَه ويستخرجون علمه وتدبيرَه منهم، أي: مِن جهة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأُولي الأمر مِن صحابته رضوان الله عليهم أجمعين، ولَمَا[1] فعلوا في حقّه ما فعلوه فلم يقع فيه ما وقع مِن الاشتباه وتوهّمِ الاختلاف.

وقيل: لَعَلمه الذين يستخرجون تدبيرَه بفِطَنِهم وتَجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكائدها؛ فكلمة ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْهُمْ﴾ بيانيّة.

وقيل: إنّهم كانوا إذا بلغهم خبر عن سَرَايا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن أمن وسلامة أو خوفٍ وخَلَلٍ، أذاعوا به، وكانت إذاعتهم مَفسَدةً؛ ولو ردّوا ذلك الخبر إلى الرسول عليه السلام[2] وإلى أُولي الأمر لَعَلم تدبيرَ ما أُخبروا به الذين يستنبطونه، أي: يستخرجون تدبيرَه بفِطَنِهم وتَجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكائدها.

وقيل: كانوا يقفون مِن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأُولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف، فيُذيعونه، فينتشر، فيبلُغ الأعداءَ، فيعود إذاعتُهم مَفسَدةً؛ ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أُولي الأمر وفوّضوه إليهم وكانوا كأنْ لم يسمعوا، لَعَلم الذين يستنبطون تدبيرَه؛ كيف يدبّرونه وما يأتون وما يذَرون فيه.

وقيل: كانوا يسمعون مِن أفواه المنافقين / شيئًا مِن الخبر عن السرايا [٦٣و]
مَظنونًا غيرَ معلومِ الصحّة، فيُذيعونه، فيعود ذلك وَبالًا على المؤمنين؛ ولو رَدّوه إلى الرسول عليه السلام وإلى أُولي الأمر وقالوا: "نسكُت حتّى نسمَعَه منهم، ونعلمَ هل هو ممّا يُذاع أو لا يُذاع"، لَعَلم صحّتَه وهل هو ممّا يُذاع أو لا يُذاع هؤلاء المُذيعون،[3] وهم الذين يستنبطونه مِن الرسول وأُولي الأمر، أي: يتلقَّوْنَه منهم ويستخرجون علمَه مِن جهتهم؛ فمساق النظم الكريم حينئذ لبيان جناية تلك الطائفة وسُوءِ تدبيرهم إثرَ بيان جناية المنافقين ومكرهم.

---

١ السياق: لَعَلمه أولئك الرادّون... ولَمَا فعلوا في حقّه...

٢ س: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

٣ هو فاعلُ "لَعَلِمَ".

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ للطائفة المذكورة على طريقة الالتفات، أي: لولا فضله تعالى عليكم ورحمتُه بإرشادكم إلى طريق الحقّ الذي هو المراجعة في مَظانّ الاشتباه إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم وأُولي الأمر، ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ وعمِلتم بآراء المنافقين فيما تأتون وما تذَرون، ولم تهتدُوا إلى سُنَن الصواب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم أُولوا الأمر الواقفون على أسرار الكتاب الراسخون في معرفة أحكامه؛ فالاستثناء منقطِع. وقيل: ولولا فضله تعالى[1] بإرسال الرسول وإنزال الكتاب لَاتّبعتم الشيطان وبقِيتم على الكفر والضلالة إلّا قليلًا منكم قد تفضَّلَ عليه بعقل راجح اهتدى به إلى طريق الحقّ والصواب وعَصَمَه عن متابعة الشيطان، كقُسّ بنِ ساعدةَ الإيادي وزيد بنِ عمرو بنِ نُفيلٍ ووَرَقةَ بنِ نَوْفلٍ وأضرابهم؛ فالخطاب للكلّ، والاستثناء متّصل.

وقيل:[2] المراد بـ"الفضل" و"الرحمة" النصرة والظَّفَر بالأعداء، أي: ولولا حصول النصر والظَّفَر على التواتر والتتابع، لَاتّبعتم الشيطان وتركتم الدين إلّا قليلًا منكم، وهم أُولوا البصائر النافذة والنِّيّات القويّةِ والعزائمِ الماضية مِن أفاضل المؤمنين الواقفين على حقّيّة الدين، البالغين إلى درجة حقّ اليقين، المستَغنِين عن مشاهدة آثار حقّيّته مِن الفتح والظَّفَر.

وقيل: إلّا اتّباعًا قليلًا.

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطريق الالتفات. وهو جوابُ شرط محذوف ينساق إليه النظم الكريم، أي: إذا كان الأمر كما حُكي مِن عدم طاعة المنافقين وكيدهم وتقصيرِ الآخَرين في مراعاة أحكام الإسلام، فقَاتِلْ أنت وحدَك غيرَ مكترِث بما فعلوا.

---

[1] س + عليكم ورحمته.

[2] وفي هامش م: أبو مسلم. | يعني: أبو مسلم الأصفهاني، أورده الرازي في تفسيره، ١٠/١٥٦.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي: إلّا فعلَ نفسك. استئناف مقرِّر لِما قبله؛ فإنّ اختصاص / تكليفه عليه السلام بفعل نفسه مِن موجِبات مباشرته للقتال وحدَه. وفيه دلالة على أنّ ما فعلوا مِن التثبّط لا يضرّه عليه السلام ولا يؤاخَذ به. وقيل: هو حال مِن فاعل ﴿قَٰتِلْ﴾، أي: فقَاتِلْ غيرَ مكلَّف إلّا نفسك. وقُرئ: "لَا تُكَلَّفْ"[1] بالجَزم على النهي، وقيل: على جواب الأمر. وقُرئ بنُون العَظَمة،[2] أي: لا نُكلّفك إلّا فعلَ نفسك؛ لا على معنى: لا نُكلِّف أحدًا إلّا نفسك. [٦٣ظ]

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على الأمر السابق داخلٌ في حكمه؛ فإنّ كون حال الطائفتين -كما حُكي- سبب للأمر بالقتال وحدَه وبتحريض خُلَّصِ المؤمنين. والتحريض على الشيء: الحَثّ عليه والترغيب فيه. قال الراغب: «كأنّه في الأصل: إزالة الحَرض»،[3] وهو ما لا خيرَ فيه ولا يُعتدّ به، أي: رَغِّبْهم في القتال ولا تُعنِّفْ بهم. وإنّما لم يذكَر المحرَّض عليه لغاية ظهوره.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عِدَة منه سبحانه وتعالى محقَّقةُ الإنجاز بكَفّ شدّة الكَفَرة ومكروههم؛ فإنّ ما صُدِّر بـ"لَعلّ" و"عسى" مقرَّرُ الوقوع مِن جهته عزّ وجلّ. وقد كان كذلك؛ حيث رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وَاعَدَ أبا سفيانَ بعد حرب أُحد مَوسِمَ بَدر الصُّغرى في ذي القَعْدة، فلمّا بلغ الميعادَ دعا الناس إلى الخروج، فكرِهه بعضهم، فنزلت، فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سبعين راكبًا، ووَافَوْا المَوعِدَ، وألقى الله تعالى في قلوب الكَفَرة الرُّعبَ، فرجعوا مِن مَرّ الظَّهْران.[4] ويُروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وَافَى بجيشه بَدرًا، وأقام بها ثمانيَ لَيال، وكانت معهم تِجارات، فباعوها وأصابوا خيرًا كثيرًا.[5] وقد مرّ في سورة آل عِمرانَ.[6]

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٥٤٢/١؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٧٣١/٣، ونسبها الثاني إلى عبد الله بن عمر.

٢ أي: "لَا نُكَلِّفُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٩.

٣ مفردات ألفاظ القرآن للراغب، ص ٢٢٨.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥١/٣-٣٥١؛ التفسير البسيط للواحدي، ٧/٧، كلاهما باختلاف يسير. وانظر لتعليقات الزيلعي عليه: تخريج أحاديث الكشّاف، ٢٤٦/١-٢٤٧ (٢٥٩).

٥ الكشّاف للزمخشري، ٤٤١/١.

٦ آل عمران، ١٧٤/٣.

﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا﴾ أي: مِن قريشٍ، ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾ أي: تعذيبًا وعقوبةً تنكِّل مَن يشاهدها عن مباشرة ما يُؤدّي إليها. والجملة اعتراض تذييليّ مقرِّر لِما قبلها. وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتعليل الحكم وتقويةِ استقلال الجملة. وتكرير الخبر لتأكيد التشديد.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ٨٥﴾

[٦٤و] وقوله تعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ / يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَا﴾ أي: مِن ثوابها، جملةٌ مستأنَفة سِيقَت لبيان أنّ له صلّى الله عليه وسلّم[١] فيما أُمر به مِن تحريض المؤمنين حظًّا موفورًا؛ فإنّ الشفاعة هي التوسّط بالقول في وصول شخص إلى منفعة مِن المنافع الدنيويّة أو الأخرويّة، أو خَلاصِه عن مَضَرّةٍ مَا كذلك. مِن "الشَّفْع"، كأنّ المشفوع له كان فَردًا، فجعله الشفيعُ شَفْعًا. و"الحسنة" منها ما كانت في أمر مشروع رُوعيَ بها حقّ مسلِم ابتغاءً لوجه الله تعالى، مِن غير أن يتضمّن غرضًا مِن الأغراض الدنيويّة. وأيُّ منفعة أجَلُّ ممّا قد حصل للمؤمنين بتحريضه عليه السلام على الجهاد مِن المنافع الدنيويّة والأخرويّة؟ وأيُّ مَضَرّة أعظَمُ ممّا تخلّصوا عنه بذلك مِن التثبّط عنه؟ ويندرج فيها الدعاء للمسلم؛ فإنّه شفاعة إلى الله سبحانه، وعليه مَساق آية التحيّة الآتية. رُوي أنّه عليه الصلاة والسلام قال: «مَن دعا لأخيه المسلمِ بظهر الغيب استُجِيب له»، وقال له المَلَك: «ولك مِثل ذلك»،[٢] وهذا بيان لمقدار النصيب الموعود.

﴿وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ﴾ وهي ما كانت بخلاف الحسنة، ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَا﴾ أي: نصيب مِن وِزرها مُساوٍ لها في المقدار، مِن غير أن ينقص منه شيء. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾ أي: مقتدِرًا، مِن "أَقَاتَ على الشيء" إذا اقتدر عليه، أو شهيدًا حفيظًا، واشتقاقه مِن "القُوت"؛[٣] فإنّه يُقوّي البَدن ويحفظه.

---

١ س: عليه السلام.

٢ هو باختلاف يسير في صحيح مسلم، ٢٠٩٤/٤ (٢٧٣٢). ونحوه في مسند أحمد، ٥٣٩/٤٥ (٢٧٥٥٨). وبهذه الألفاظ في التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٧.

٣ القُوت: ما يَقوم به بَدَن الإنسان مِن الطعام. الصحاح للجوهري، «قوت».

والجملة تذييل مقرِّر لِما قبلها على كِلا المعنيين.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ ترغيب في فرد شائع مِن أفراد الشفاعة الحسنة إثرَ ما رغَّب فيها على الإطلاق وحذَّر عمّا يقابلها مِن الشفاعة السيّئة، وإرشادٌ إلى تَوفية حقّ الشفيع وكيفيّة أدائه؛ فإنّ تحيّة الإسلام مِن المسلم شفاعة منه لأخيه إلى الله عزّ وجلّ.

و"التحيّة" مصدر "حَيَّى"، أصلها "تَحْيِيَة"، كـ"تَسمِيَة" مِن "سَمَّى"، وأصل الأصل: "تَحْيِيٌّ" بثلاث ياءات، فحُذفت الأخيرة، وعُوّض عنها تاء التأنيث، وأُدغمت الأولى في الثانية بعد نقل حركتها إلى الحاء. قال الراغب: «أصل التحيّة: الدعاء بالحياة وطُولِها، ثمّ استعُملت في كلّ دعاء، وكانت العرب إذا لقي بعضهم بعضًا يقول: حَيّاك الله»،[١] ثمّ استعملها الشرعُ في السلام، وهي تحيّة الإسلام. قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ [إبراهيم، ٢٣/١٤؛ يونس، ١٠/١٠]، وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ﴾ [الأحزاب، ٤٤/٣٣]، وقال: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النور، ٦١/٢٤].

قالوا: في "السلام" مزيّة على "التحيّة" لِما أنّه دعاء بالسلامة عن الآفات الدينيّة والدنيويّة، وهي مستلزِمة لطُول الحياة، وليسْ في الدعاء بطُول الحياة ذلك، ولأنّ "السلام" مِن أسمائه تعالى، فالبداية بذكره ممّا لا ريبَ / في [٦٤ظ]
فضله ومزيّته.

أي: إذا سُلّم عليكم مِن جهة المؤمنين، ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أي: بتحيّة أحسَنَ منها، بأنْ تقولوا: "وعليكم السلام ورحمة الله"، إن اقتصر المسلِّمُ على الأوّل، وبأن تزيدوا: "وبَرَكاتُه"، إن جمَعَهما المسلِّم، وهي النهاية لانتظامها لجميع فنون المطالب التي هي السلامة عن المضارّ ونَيْل المنافع ودوامها ونَماؤُها.

---

١ مفردات ألفاظ القرآن للراغب، ص ٢٧٠، بتصرّف.

﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي: أجيبوها بمثلها. رُوي أنّ رجلًا قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «السلام عليك»، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله»، وقال الآخَر: «السلام عليك ورحمة الله»، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته»، وقال الآخَر: «السلام عليك ورحمة الله وبركاته»، فقال: «وعليك»، فقال الرجل: «نقَصتَنِي؛ فأين ما قال الله تعالى!»، وتَلَا الآية، فقال عليه السلام: «إنّك لم تترك لي فضلًا؛ فرددتُ عليك مثله».[1]

وجواب التسليم واجب، وإنّما التخيير بين الزيادة وتركها. وعن النخَعي: «أنّ السلام سنّة، والردَّ فريضة».[2] وعن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: «الردّ واجب؛ وما مِن رجل يمرّ على قوم مسلمين فيسلِّم عليهم ولا يردّون عليه، إلّا نَزَعَ عنهم روحُ القُدس، ورَدَّتْ عليه الملائكة».[3]

ولا يُردّ في الخُطبة وتلاوة القرآن جَهرًا وروايةِ الحديث وعند دراسة العلم والآذان والإقامةِ. ولا يسلَّم على لاعب النَّرْد والشَّطرَنْج والمُغنِّي والقاعدِ لحاجته ومطيِّرِ الحَمَام والعاري في الحمَّام وغيره. قالوا: ويسلِّم الرجل على امرأته، لا على الأجنبيّة. والسنّة[4] أن يسلِّم الماشي على القاعد، والراكبُ على الماشي، وراكبُ الفَرَس على راكب الحِمار، والصغيرُ على الكبير، والقليلُ على الكثير، وإذا التقَيا ابتدرًا.

وعن أبي حنيفةَ رضي الله عنه: «لا يُجهَر بالردّ»،[5] يعني: الجهر الكثير. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «إذا سَلّم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: "وعليكم"»،[6] أي: وعليكم ما قُلتم؛ حيث كان يقول بعضهم: «السَّامُ عليكم».[7] ورُوي:

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/١. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢٧٧/٧؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٢٤٦/٦ (٦١١٤).

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/١.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/١؛ تفسير الرازي، ١٦٥/١٠.

٤ م: والأدب ["صح" في الهامش].

٥ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٤/١؛ تفسير الرازي، ١٦٦/١٠.

٦ صحيح البخاري، ٥٧/٨ (٦٢٥٨)؛ صحيح مسلم، ١٧٠٥/٤ (٢١٦٣).

٧ إشارة إلى حديث عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري، ١٢/٨ (٦٠٢٤)؛ وصحيح مسلم، ١٧٠٢/٤ (٢١٦٥).

«لا تَبدَأ اليهوديَّ بالسلام؛ وإن بدأك فقُل: "وعليك"».[١] وعن الحسن:[٢] «أنّه يجوز أن يقول للكافر: "وعليك السلام"، دون الزيادة».[٣] وقيل: التحيّة بالأحسن عند كون المسلِّم مسلِمًا، ورَدُّ مِثلها عند كونه كافرًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ فيحاسبكم على كلّ شيء مِن أعمالكم التي مِن جملتها ما أُمرتم به مِن التحيّة؛ فحافِظوا على مراعاتها حسبما أُمرتم به.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مبتدأ وخبر. وقوله تعالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾
جوابُ قَسَم محذوف، أي: واللهِ ليَحشُرنّكم مِن قبوركم / إلى حساب يوم [٦٥و]
القيامة. وقيل: ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى "في". والجملة القَسميّة إمّا مستأنَفة لا محلَّ لها مِن الإعراب، أو خبر ثانٍ للمبتدأ، أو هي الخبر، و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراض. وقوله تعالى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ أي: في يوم القيامة أو في الجمع، حال مِن "اليوم"، أو صفةٌ للمصدر، أي: جَمْعًا لا ريبَ فيه. ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ إنكار لأنْ يكون أحد أصدَقَ منه تعالى في وعده وسائر أخباره، وبيان لاستحالته. كيف لا، والكَذِب مُحال عليه سبحانه دون غيره.

﴿فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨﴾

﴿فَمَا لَكُمۡ﴾ مبتدأ وخبر. والاستفهام للإنكار والنفي. والخطاب لجميع المؤمنين؛ لكن ما فيه مِن معنى التوبيخ متوجِّه إلى بعضهم.

---

١ هذه الرواية جمعت حديثَين: الأوّل ما أخرجه مسلم في صحيحه، ١٧٠٧/٤ (٢١٦٧): «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطرّوه إلى أضيَقِه»، والثاني ما أخرجه البخاري في صحيحه، ١٥/٩ (٦٩٢٦): «إذا سلّم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم». والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/١.

٢ أي: الحسن البصري.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/١؛ اللباب لابن عادل، ٥٤٠/٦.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ متعلِّق إمّا بما تعلَّق به الخبر، أي: أيُّ شيء كائنٌ لكم فيهم، أي: في أمرهم وشأنهم، فحُذف المضاف، وأقيمَ المضاف إليه مُقامَه، وإمّا بما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فِئَتَيْنِ﴾ مِن معنى الافتراق، أي: فما لكم تفترقون في المنافقين، وإمّا بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿فِئَتَيْنِ﴾، أي: كائنتين في المنافقين؛ لأنّه في الأصل صفة، فلمّا قُدّمت انتصبتْ حَالًا كما هو شأن صفات النَّكِرات على الإطلاق، أو مِن الضمير في "تفترقون".

وانتصاب ﴿فِئَتَيْنِ﴾ عند البصريّين على الحاليّة مِن المخاطَبين، والعامل ما في ﴿لَكُمْ﴾ مِن معنى الفعل، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر، ٧٤/٤٩]، وعند الكوفيّين على خبريّة "كان" مضمَرةً، أي: فما لكم في المنافقين كنتم فِئتين. والمراد إنكار أن يكون للمخاطَبين شيء مصحِّح لاختلافهم في أمر المنافقين، وبيانُ وجوب بَتِّ القول بكفرهم وإجرائِهم مُجرى المجاهِرين بالكفر في جميع الأحكام. وذكرهم بعُنوان النفاق باعتبار وصفهم السابق.

رُوي أنّهم قوم مِن المنافقين استأذنوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم في الخروج إلى البَدْو مُعتلِّينَ باجتواء المدينة، فلمّا خرجوا لم يزالوا راحلين مرحلةً فمرحلةً، حتّى لحِقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون في أمرهم.[١] وقيل: هم قوم هاجروا مِن مكّةَ إلى المدينة، ثمّ بَدَا لهم فرجعوا، وكتبوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّا على دِينك، وما أخرَجَنا إلّا اجتواء المدينة والاشتياق إلى بلدنا».[٢] وقيل: هم ناس أظهروا الإسلام، وقعَدوا عن الهجرة.[٣] وقيل: هم قوم خرجوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ أُحد، ثمّ رجعوا؛[٤] ويأباه ما سيأتي مِن جعل هجرتهم غايةً للنهي عن تَولّيهم. وقيل: هم العُرَنِيّون[٥] الذين أغاروا

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/١. وورد باختلاف يسير في مسند أحمد، ٣١١/٢ (١٦٦٨).

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/١. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢٨٥/٧-٢٨٦.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/١. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢٨٤/٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/١. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٢٨١/٧.

٥ العُرَنِيّون: قبيلة منسوبة إلى عُرَينة ابن نذير بن قَسْر بن عبقر. وفي الحديث الشريف: «ارتفِعُوا عن بَطن عُرنة»، أي: لا تَنزلوا فيه، وهو وادٍ بالحجاز، قريبٌ مِن مِنًى. انظر: الأنساب للسمعاني، ٢٨٠/٩-٢٨١.

على السَّرْح، وقتلوا راعيَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم؛[١] ويردّه ما سيأتي مِن الآيات الناطقة بكيفيّة المعاملة معهم مِن السِّلم والحرب، وهؤلاء قد أُخذوا وفُعل بهم ما فُعل مِن المُثْلة والقتل، / ولم يُنقَل في أمرهم اختلاف المسلمين. [٦٥ظ]

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ حال مِن ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، مفيدة لتأكيد الإنكار السابق واستبعادِ وقوع المنكَر ببيان وجود النافي بعد بيان عدم الداعي، وقيل: مِن ضمير المخاطَبين، والرابط هو "الواو"، أي: أيُّ شيء يدعوكم إلى الاختلاف في كفرهم مع تحقّق ما يوجِب اتّفاقَكم على كفرهم؟ وهو أنّ الله تعالى قد ردّهم في الكفر كما كانوا.

﴿بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ بسبب ما كسبوه مِن الارتداد واللحوق بالمشركين والاحتيالِ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. والعائد إلى الموصول محذوف. وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: بكسبهم. وقيل: معنى ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾: نكّسهم بأنْ صَيّرهم للنار. وأصل الرَّكْس: ردُّ الشيء مقلوبًا. وقُرِئ: "رَكَّسَهُمْ"[٢] مشدَّدًا، و"رَكَسَهُمْ"[٣] أيضًا مخفَّفًا.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ تجريد للخطاب، وتخصيص له بالقائلين بإيمانهم مِن الفِئتين، وتوبيخ لهم على زعمهم ذلك، وإشعار بأنّه يُؤدّي إلى محاولة المُحال الذي هو هداية مَن أضلّه الله تعالى؛ وذلك لأنّ الحكم بإيمانهم وادّعاءَ اهتدائهم -وهم بمَعزِل مِن ذلك- سعيٌ في هدايتهم وإرادةٌ لها.

ووضعُ الموصول موضعَ ضمير ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ لتشديد الإنكار وتأكيد استحالة الهداية بما ذُكر في حيّز الصلة. وتوجيه الإنكار إلى الإرادة -لا إلى متعلَّقها بأنْ يقال: أتَهدُون... إلخ- للمبالغة في إنكاره ببيان أنّه ممّا لا يُمكن إرادته، فضلًا عن إمكان نفسه. وحملُ الهداية والإضلال على الحكم بهما يأباه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي: ومَن يَخلق فيه الضلال -كائنًا مَن كان-

---

١ انظر لتفصيلها: صحيح البخاري، ١/٥٦ (٢٣٣)؛ وصحيح مسلم، ٣/١٢٩٦-١٢٩٨ (١٦٧١). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ١/٥٤٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٣٩.

فلَنْ تجدَ له سبيلًا مِن السُّبل، فضلًا عن أن تَهديَه إليه. وفيه مِن الإفصاح عن كمال الاستحالة ما ليس في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الرعد، ٣٣/١٣؛ الزمر، ٢٣/٣٩، ٣٦؛ غافر، ٣٣/٤٠] ونظائره. وحملُ إضلاله تعالى على حُكمه وقضائه بالضلال مُخلّ بحُسن المقابلة بين الشرط والجزاء. وتوجيه الخطاب إلى كلّ واحد مِن المخاطَبين للإشعار بشمول عدم الوجدان للكلّ على طريق التفصيل.

والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ أو ﴿تَهۡدُوا﴾، والرابط هو "الواو"، أو اعتراض تذييليّ مقرّر للإنكار السابق، ومؤكِّد لاستحالة الهداية؛ فحينئذ يجوز أن يكون الخطاب لكلّ أحد ممّن يصلُح له مِن المخاطَبين أوّلًا ومِن غيرهم.

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان غُلوّهم وتَماديهم في الكفر وتَصَدّيهم لإضلال غيرهم إثرَ بيان كفرهم وضلالهم في أنفسهم. وكلمة ﴿لَوۡ﴾ مصدريّة غنيّة عن الجواب، وهي مع ما بعدها نصب على المفعوليّة، أي: وَدُّوا أن تكفروا. وقوله تعالى: ﴿كَمَا كَفَرُواْ﴾ نصب على أنّه نعت لمصدر محذوف، أي: كفرًا مِثلَ كفرهم، أو حال مِن ضمير ذلك المصدر،[1] كما هو رأي سيبويه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ عطفٌ على ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ داخلٌ في حُكمه، أي: وَدُّوا أن تكفروا فتكونوا مُستوِين[2] في الكفر والضلال. وقيل: كلمة ﴿لَوۡ﴾ على بابها، وجوابها محذوف كمفعول ﴿وَدُّوا﴾، والتقدير: وَدُّوا كفركم، لو تكفرون كما كفروا لَسُرُّوا بذلك.

[٦٦و] / ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ "الفاء" جوابُ شرط محذوف، وجمعُ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ لمراعاة جمعيّة المخاطبين؛ فإنّ المراد نهيُ أن يَتّخذ واحد مِن المخاطبين

---

[1] وفي هامش م: على أنّه يقدّر معرّفا. «منه».

[2] م: سواء [صُحّح بما أثبتناه]. وفي نسخة س أُثبتَ كلاهما: سواءً مستوينَ.

وليًا واحدًا منهم، أي: إذا كان حالهم ما ذُكر مِن وَدادة كفركم، فلا تُوَالوهم ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: حتّى يؤمنوا ويحقّقوا إيمانهم بهجرة كائنة لله تعالى ورسوله عليه السلام، لا لغرضٍ مِن أغراض الدنيا.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: عن الإيمان المُظاهَر بالهجرة الصحيحة المستقيمة، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ إذا قدَرتم عليهم، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ مِن الحِلّ والحَرَم؛ فإنّ حكمهم حكمُ سائر المشركين أسْرًا وقتلًا، ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: جانِبوهم مجانبةً كلّيّةً، ولا تقبلوا منهم ولايةً ولا نصرةً أبدًا.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ استثناء مِن قوله تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾،[١] أي: إلّا الذين يتّصلون وينتهون إلى قومٍ عاهدوكم ولم يحاربوكم، وهم الأَسلَمِيّون؛ كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقتَ خروجه إلى مكّةَ قد وَادَعَ هلال بنَ عُوَيمِر الأسلَميَّ على أن لا يُعينه ولا يُعينَ عليه، وعلى أنّ مَن وصل إلى هلال ولجأ إليه فله مِن الجِوار مِثل الذي لهلال. وقيل: هم بنو بكر بن زيد مَنَاةَ. وقيل: هم خُزاعة.[٢]

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ عطفٌ على الصلة، أي: أو الذين جاءوكم كافِّينَ مِن قتالكم وقتال قومهم. استُثني مِن المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان: أحدهما مَن ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين، والآخَر مَن أتى المؤمنين وكَفَّ عن قتال الفريقين. أو[٣] على صفة ﴿قَوْمٍ﴾، كأنّه قيل: إلّا الذين يصلون إلى قوم معاهدين، أو إلى قوم كافِّينَ عن القتال لكم والقتال عليكم. والأوّل هو الأظهر لِما سيأتي

---

١ في الآية السابقة.

٢ قبيلة كبيرة مِن الأزد، وإنّما قيل لهم "خُزاعة" لأنّهم انقطعوا عن الأزد لمّا تفرّقت الأزد مِن اليمن أيّامَ سَيل العَرِم، وأقاموا بمكّةَ، وسار الآخَرون إلى المدينة والشام وعمّان. انظر: اللباب لابن الأثير، ١/٤٣٩.

٣ السياق: عطفٌ على الصلة... أو على صفة...

مِن قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾... إلخ؛ فإنّه صريح في أنّ كَفّهم عن القتال أحدُ سببَي استحقاقهم لنفي التعرّض لهم. وقُرئ: "جَاءُوكُمْ"[١] بغير عاطف على أنّه صفة بعدَ صفةٍ، أو بيان لـ﴿يَصِلُونَ﴾، أو استئناف.

﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ حال بإضمار "قد" بدليل أنّه قُرئ: "حَصِرَةً صُدُورُهُمْ"،[٢] و"حَصِرَاتٍ صُدُورُهُمْ"،[٣] و"حَاصِرَاتٍ صُدُورُهُمْ".[٤] وقيل: صفة لموصوف محذوف هو[٥] حال مِن فاعل ﴿جَآءُوا﴾، أي: جاءوكم قومًا حصِرت صدورهم. وقيل: هو بيان لـ﴿جَآءُوكُمْ﴾، وهم بنو مُدلِج، جاءوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم غيرَ مقاتِلين. والحَصر: الضِّيق والانقباض. ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي: عن أن يقاتلوكم، أو لأنْ يقاتلوكم، أو كراهةَ أن يقاتلوكم... إلخ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ جملة مبتدأَة جارية مَجرى التعليل لاستثناء الطائفة الأخيرة مِن حكم الأخذ والقتل، ونظمِهم في سِلك الطائفة الأُولى الجارية مَجرى المعاهدين، مع عدم تعلّقهم بنا ولا بمَن عاهدونا / كالطائفة الأُولىٰ، أي: ولو شاء الله لسلّطهم عليكم ببسط صدورهم وتقوية قلوبهم وإزالةِ الرُّعب عنها، ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ عَقيبَ ذلك، ولم يكُفّوا عنكم. و"اللام" جواب ﴿لَوْ﴾ على التكرير، أو الإبدالِ[٦] مِن الأُولى. وقُرئ: "فَلَقتلُوكُمْ" بالتخفيف[٧] والتشديد.[٨] [٦٦ظ]

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ ولم يتعرّضوا لكم، ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ مع ما علمتم مِن تمكّنهم مِن ذلك بمشيئة الله عزّ وجلّ،[٩] ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: الانقياد والاستسلامَ. وقُرئ: بسكون اللام.[١٠] ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طريقًا

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة البيضاوي في أنوار التنزيل، ٢/٨٩.
٢ قرأ بها يعقوب الحضرمي مِن القُرّاء العشرة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥١.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٠.
٤ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة أبو حيّان في البحر المحيط، ٤/١٤.
٥ س: وهو.
٦ س: والإبدال.
٧ أي: "فَلَقَتَلُوكُمْ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٠.
٨ أي: "فَلَقَتّلُوكُمْ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٠.
٩ س: تعالى.
١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن عن الحسن وأبان بن تغلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٠.

بالأسر أو بالقتل؛ فإنّ مُكافّتهم عن قتالكم -وإن لم يقاتِلوا قومهم أيضًا- وإلقاءَهم إليكم السَّلَمَ -وإن لم يعاهدوكم- كافيةٌ في استحقاقهم لعدم تعرّضكم لهم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾ هم قوم مِن أَسَدٍ وغَطَفانَ، كانوا إذا أتَوا المدينةَ أسلموا وعاهَدوا ليَأمَنوا المسلمين، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليَأمَنوا قومَهم. وقيل: هم بنو عبد الدار،[1] وكان دَيْدَنُهم[2] ما ذُكر. ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: دُعُوا إلى الكفر وقتال المسلمين، ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ قُلبوا فيها أقبَحَ قَلْبٍ وأشنَعَه، وكانوا فيها شرًّا مِن كلّ عدوّ شِرّيرٍ.

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ بالكَفّ عن التعرّض لكم بوجهٍ ما ﴿وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: لم يُلقُوا إليكم الصُّلح والعهدَ؛ بل نبَذوه إليكم. ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: لم يكُفّوها عن قتالكم، ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: تمكّنتم منهم.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الموصوفون بما عُدّد مِن الصفات القبيحة ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حُجّةً واضحةً في الإيقاع بهم قتلًا وسَبْيًا، لظهور عداوتهم وانكشاف حالهم في الكفر والغَدْر وإضرارِهم بأهل الإسلام، أو تسلّطًا ظاهرًا؛ حيث أَذِنّا لكم في أخذهم وقتلهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

---

[1] هم بنو عبد الدار بن قُصَيّ، والنسبة إليهم "العبدَرِي" أو "الداري". النظر: اللباب لابن الأثير، ١/٤٨٤.

[2] الدَّيْدَنُ: الدَّأب والعادة. الصحاح للجوهري، «ددن».

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ أي: وما صَحَّ له ولا لَاقَ بحاله ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حقّ؛ فإنّ الإيمان زاجر عن ذلك. ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ فإنّه ربّما يقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلّيّة تحت الطاقة البَشريّة. وانتصابه إمّا على أنّه حال، أي: ما كان له أن يقتل مؤمنًا في حال مِن الأحوال إلّا في حال الخطأ، أو على أنّه المفعول له، أي: ما كان له أن يقتله لعلّة مِن العِلل إلّا للخطأ، أو على أنّه صفة للمصدر، أي: إلّا قتلًا خطأً.

وقيل: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى "ولا"، والتقدير: وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا عَمدًا ولا خطأً. وقيل:[1] ﴿مَا كَانَ﴾ نفيٌ في معنى النهي.[2] والاستثناء منقطِع، أي: لكنْ إن قتله خطأً / فجزاؤه ما يذكَر. والخطأ: ما لا يقارنه القصد إلى الفعل أو إلى [٦٧و] الشخص، أو لا يُقصَد به زهوق الروح غالبًا، أو لا يُقصَد به محظور، كرَمْي مسلم في صَفّ الكُفّار مع الجهل بإسلامه. وقُرئ: "خَطَاءً"[3] بالمدّ، و"خَطًا"[4] -كـ"عَصًا"- بتخفيف الهمزة.

رُوي أنّ عَيّاش بنَ أبي رَبيعةَ -وكان أخَا أبي جهل لأمّه- أسلَمَ، وهاجر إلى المدينة خوفًا مِن أهله -وذلك قبل هجرة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم- فأقسمت أمُّه لا تأكل ولا تشرَب ولا يُأويها سَقف حتّى يرجعَ، فخرج أبو جهل، ومعه الحارث بن زيد ابن أبي أُنَيسةَ، فأتيَاه -وهو في أُطُمٍ-[5] ففتَل منه أبو جهل في الذُّروة والغارب[6] وقال: «أليس محمّد يحُثّك على صلة الرَّحِم؟ انصرِفْ، وبَرَّ أمَّك وأنت على دينك»، حتّى نزل وذهب معهما، فلمّا فسحَا مِن المدينة[7]

---

[1] وفي هامش م: القرطبي. | عبارة القرطبي في مطبوع تفسيره، ٣١١/٥: «ليس على النفي، وإنّما هو على التحريم والنهي».

[2] وفي هامش م: ولو كان بمعنى النفي لَما وُجِد مؤمنٌ قتل مؤمنًا قطّ. لباب. «منه». | اللباب لابن عادل، ٥٦٠/٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤١.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري فيما رواه عنه الوقّاصي. المحتسَب لابن جنّي، ١٩٤/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤١.

[5] وفي هامش م: الأُطُم: القَصر، وكلّ حِصن مبنيّ بالحجارة، وكلّ بيت مربَّع مسطَّح. ق [القاموس]. «منه». | القاموس المحيط للفيروزآبادي، «أطم».

[6] فَتَلَ منه في الذُّروة والغارب: يقال للرجل لا يزال يَخدَع صاحبَه حتّى يَظفَرَ به. جمهرة الأمثال للعسكري، ٩٨/٢.

[7] وفي هامش م: أي: أبعَدَا منها. «منه».

كتَفَاه[١] وجلَدَه كلّ واحد منهما مائةَ جَلدةٍ، فقال للحارث: «هذا أخي؛ فمَن أنت يا حارثُ؟ لله عليَّ إن وجدتُك خاليًا أن أقتلك»، وقَدِمَا به على أمّه، فحلَفتْ لا يُحَلّ كِتافه أو يرتدَّ، ففعل بلسانه، ثمّ هاجر بعد ذلك، وأسلم الحارثُ وهاجر، فلقيه عَيّاش بظهر قُباءَ، ولم يشعر بإسلامه، فأنحى عليه فقتله، ثمّ أُخبرَ بإسلامه، فأتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «قتلتُه، ولم أشعر بإسلامه»، فنزلت.[٢]

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فعليه أو فموجَبه تحرير رَقَبة، أي: إعتاق نَسَمة، عُبّر عنها بها كما يعبَّر عنها بـ"الرأس". ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ محكوم بإسلامها وإن كانت صغيرةً، ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ مُؤدّاة إلى وَرَثته يقتسمونها[٣] كسائر المواريث لقول ضحّاك بنِ سُفيانَ الكِلابي:[٤] «كتب إليَّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم[٥] يأمرني أن أُورِّث امرأةَ أَشْيمَ الضِّبابي مِن عَقْل زوجها».[٦]

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي: يتصدّقَ أهله عليه، سُمّي العَفو عنها صَدَقةً حثًّا عليه وتنبيهًا على فضله. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كلّ معروف صَدَقة».[٧] وقُرئ: "إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّقُوا".[٨] وهو متعلّق بـ"عليه"، أو بـ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، أي: يجب الدِّية،

---

١ كَتَفتُ الرجلَ، إذا شددتَ يدَيه إلى خلف بالكِتاف، وهو حبلٌ. **الصحاح** للجوهري، «كتف».

٢ **الكشّاف** للزمخشري، ١/٥٤٨-٥٤٩. وانظر: **جامع البيان** للطبري، ٧/٣٠٦-٣٠٨؛ **وأسباب النزول** للواحدي، ص ١٧٣-١٧٤.

٣ س: تقتسمونها.

٤ هو الضحّاك بن سفيان بن عوف بن كعب الكِلابي، أبو سعيد (ت. ١١هـ/٦٣٢م [؟]). صحابيّ. كان نازلًا بنجد، وولّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على مَن أسلم هناك مِن قومه. وكان الضحّاك أحد الأبطال، وكان يقوم على رأس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم متوشّحًا سيفه، وكان يُعدّ بمائة فارس وحده. قيل: استشهد في قتال أهل الردّة مِن بني سليم. انظر: **الاستيعاب** للنمري، ٣/٧٤٣-٧٤٤؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٣/٤٧.

٥ س: عليه السلام.

٦ قطعة مِن حديث سعيد بن المسيّب عن عمر. انظر: **موطّأ مالك**، ٥/١٢٧٢ (٦٥٢/٣٢٢٨)؛ **ومسند أحمد**، ٢٥/٢٢ (١٥٧٤٥)؛ **وسنن الترمذي**، ٤/٢٧ (١٤١٥). وفي الأخيرَين: "دية زوجها" بدلَ "عَقل زوجها".

٧ **صحيح البخاري**، ٨/١١ (٦٠٢١)؛ **صحيح مسلم**، ٢/٦٩٧ (١٠٠٥).

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأبيّ بن كعب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٤١.

[٦٧ظ] / أو يسلِّمها إلى أهله إلّا وقتَ تصدّقهم عليه، فهو في محلّ النصب على الظرفيّة، أو إلّا حالَ كونهم متصدِّقين عليه، فهو حال مِن "الأهل" أو "القاتل".

﴿فَإِن كَانَ﴾ أي: المقتول ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ كُفّار محارِبين، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ولم يعلم به القاتلُ لكونه بين أظهُرِ قومه بأنْ أسلم فيما بينهم ولم يفارقهم، أو بأنْ أتاهم بعدما فارقهم لمُهِمٍّ مِن المُهِمّات، ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فعلى قاتله الكفّارةُ دون الدِّية؛ إذ لا وِراثةَ بينه وبين أهله، ولأنّهم محارِبون.

﴿وَإِن كَانَ﴾ أي: المقتول المؤمن ﴿مِن قَوْمٍ﴾ كفَرةٍ ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: عهد مؤقَّت أو مؤبَّد، ﴿فَدِيَةٌ﴾ أي: فعلى قاتله دِية ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ مِن أهل الإسلام إن وُجِدوا. ولعلّ تقديمَ هذا الحُكم ههنا -مع تأخيره فيما سلف- للإشعار بالمسارعة إلى تسليم الدِّية تَحاشيًا عن توهّم نقض الميثاق. ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ كما هو حُكم سائر المسلمين. ولعلّ إفرادَه بالذكر -مع اندراجه في حُكم ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾... إلخ- لبيانِ أنّ كونه فيما بين المعاهِدين لا يمنع وجوب الدِّية كما منعه كونُه فيما بين المحارِبين. وقيل: المراد بالمقتول الذِّمّيّ أو المعاهد، لئلّا يَلزَمَ التكرارُ بلا فائدة، ولا التوريثُ بين المسلم والكافر؛ وقد عرفتَ عدم لزومهما.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: رَقَبةً ليحرّرها بأنْ لم يَملِكها، ولا ما يَتوصّل به[١] إليها مِن الثَّمَن، ﴿فَصِيَامُ﴾ أي: فعليه صيام ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ لم يتخلّل بين يومين مِن أيّامهما إفطار. ﴿تَوْبَةً﴾ نصب على أنّه مفعول له، أي: شُرع لكم ذلك توبةً، أي: قَبولًا لها، مِن "تَابَ اللهُ عليه" إذا قبِل توبته، أو مصدر مؤكِّد لفعل محذوف، أي: تاب عليكم توبةً. وقيل: على أنّه حال مِن الضمير المجرور في "عليه" بحذف المضاف، أي: فعليه صيام شهرين ذا توبة.[٢] وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿تَوْبَةً﴾، أي: كائنةً منه تعالى.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بجميع الأشياء التي مِن جملتها حاله. ﴿حَكِيمًا﴾ في كلّ ما شرَع وقضى مِن الشرائع والأحكام التي مِن جملتها ما شرعه في شأنه.

---

[١] ط س - به.

[٢] أي: حالَ كونِه ذَا توبةٍ.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ لمّا بيّن حكم القتل خطأً / وفُصّل أقسامه الثلاثة، [٦٨و] عُقّب ذلك ببيان القتل عَمدًا؛ خَلَا أنّ حكمه الدنيويّ لمّا بيّن في سورة البقرة،[١] اقتُصِر ههنا على حكمه الأخرويّ.

رُوي أنّ مِقْيَس بنَ ضُبابةَ[٢] الكِنانيّ، وكان قد أسلم هو وأخوه هشام، فوجد أخاه قتيلًا في بني النجّار، فأتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم وذكر له القصّة، فأرسل عليه السلام معه زُبير بنَ عِياض الفِهريَّ -وكان مِن أصحاب بدر- إلى بني النجّار يأمرهم بتسليم القاتل إلى مِقْيَس ليَقتصّ منه إن علموه، وبأداء الدِّية إن لم يعلموه، فقالوا: «سَمْعًا وطاعةً لله تعالى ولرسوله صلّى الله عليه وسلّم، ما نعلم له قاتلًا، ولكنّا نُؤدّي دِيَته»، فأتَوه بمائة مِن الإبل، فانصرفَا راجعَين إلى المدينة، حتّى إذا كانا ببعض الطريق أتى الشيطان مِقْيَسًا، فوسوس إليه فقال: «أتقبل دِية أخيك فيكونَ مَسَبّةً عليك؟ اقتل الذي معك فيكونَ نفسًا بنفس وفضلَ الدِّية»، فتغفَّلَ الفِهريَّ، فرماه بصخرة فشدَخه، ثمّ ركِب بعيرًا مِن الإبل واستاق بَقِيّتَها راجعًا إلى مكّةَ كافرًا وهو يقول:

قتلتُ به فِهرًا وحمّلتُ عَقله ... سَراةَ بني النجّار أصحابَ فارعِ
وأدركتُ ثأري واضطَجعتُ موسَّدًا ... وكنتُ إلى الأوثان أوّلَ راجعِ

فنزلت،[٣] وهو الذي استثناه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومَ الفتح ممّن آمَنه، فقُتل وهو متعلّق بأستار الكعبة.[٤]

وقوله تعالى: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ حال مِن فاعل ﴿يَقْتُلْ﴾. ورُوي عن الكسائي سكون التاء،[٥] كأنّه فرّ مِن تَوالي الحَرَكات.

---

١ البقرة، ١٧٨/٢-١٧٩.
٢ في الأصول الخطّيّة: ضبابة. لعلّه "صبابة" كما ورد في ترجمته في معجم الشعراء للمرزباني، ص ٤٦٧. وكذا ورد في ربيع الأبرار للزمخشري، ٢٤/٥-٢٥، وفي كثير مِن كتب الحديث والتاريخ.
٣ أسباب النزول للواحدي، ١٧٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٣٤١/٧؛ وتفسير السمرقندي، ٣٥٣/١-٣٥٤.
٤ اللباب لابن عادل، ٥٧١/٦.
٥ البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٩/٤.

﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ الذي يستحقّه بجنايته ﴿جَهَنَّمُ﴾. وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ حال مقدَّرة مِن فاعلِ فعل مقدَّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: فجزاؤه أن يدخل جهنّم خالدًا فيها. وقيل: هو حال مِن ضمير "يُجزاها"، وقيل: مِن مفعول "جَازَاه"، وأُيّد ذلك بأنّه أنسَبُ بعطف ما بعده عليه لموافقته له صيغةً، ولا يخفى أنّ ما يقدَّر للحال أو للعطف عليه حقُّه أن يكون ممّا يقتضيه المقام اقتضاءً ظاهرًا ويدلُّ عليه الكلام دلالةً بيّنةً؛ وظاهرٌ أنّ كون جزائه ما ذُكر لا يقتضي وقوع الجزاء البتّةَ -كما ستقف عليه- حتّى يقدَّرَ "يُجزاها" أو "جَازَاه" بطريق الإخبار عن وقوعه.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فعطفٌ على مقدَّرٍ يدلّ عليه الشرطيّة دلالةً واضحةً، كأنّه قيل بطريق الاستئناف تقريرًا وتأكيدًا لمضمونها: حَكَم الله بأنّ جزاءه ذلك وغضِب عليه، أي: انتقم منه. ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ أي: أبعده عن الرحمة بجعل جزائه ما ذُكر. وقيل: هو وما بعده معطوف على الخبر بتقدير "أنْ" وحملِ الماضي على معنى المستقبل كما في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [الكهف، ١٨/٩٩؛ يس، ٣٦/٥١؛ الزمر، ٣٩/٦٨؛ ق، ٥٠/٢٠] ونظائره، / أي: فجزاؤه جهنّم وأن [٦٨ظ]
يغضَب اللهُ عليه... إلخ. ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ﴾ في جهنّمَ ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾ لا يقادَر قدره.

ولِما ترى في الآية الكريمة مِن التهديد الشديد والوعيد الأكيد وفنونِ الإبراق والإرعاد، وقد تأيّدَتْ بما رُوي مِن الأخبار الشِّداد -كقوله صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده، لَزَوال الدنيا أهوَنُ عند الله مِن قتل مؤمن»،[١] وقولِه عليه السلام: «لو أنّ رجلًا قُتل بالمَشرِق وآخَرُ رضي بالمَغرِب، لَأُشرِكَ في دمه»،[٢] وقولِه عليه السلام: «مَن أعان على قتل مؤمن بشَطْر كلمة، جاء يومَ القيامة مكتوبٌ بين عَينَيه: آيِسٌ مِن رحمة الله»،[٣] وبنحو ذلك مِن القوارع- تمسّكت الخوارج والمعتزلة بها في خلود مَن قَتل المؤمن عَمدًا في النار.

---

١ سنن النسائي، ٧/٨٢ (٣٩٨٦)، باختلاف يسير. وقريب منه ما أخرجه ابن ماجة في سننه، ٣/٦٣٩ (٢٦١٩)؛ والترمذي في سننه، ٤/١٦ (١٣٩٥).

٢ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ١/٥٥١. وقال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشّاف، ١/٣٤٥-٣٤٦ (٣٥٤): «غريب جدًّا».

٣ سنن ابن ماجة، ٣/٦٤٠ (٢٦٢٠). وأورده ابن الجوزي في الموضوعات، ٣/١٠٣-١٠٤.

ولا متمسَّكَ لهم فيها، لا لِما قيل مِن أنّها في حقّ المستحِلّ -كما هو رأي عكرمةَ وأضرابِه- بدليل أنّها نزلت في مِقْيَس بنِ ضُبابةَ الكِناني المُرتَدِّ حسبما مرّت حكايته؛ فإنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ بل لأنّ المراد بالخلود هو المَكْث الطويل لا الدوام لتظاهُر النصوص الناطقة بأنّ عُصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم. وما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: «أنّه لا توبةَ لقاتِل المؤمن عَمدًا»،[١] وكذا ما رُوي عن سُفيانَ:[٢] «أنّ أهل العلم كانوا إذا سُئلوا قالوا: لا توبةَ له»[٣] محمولٌ على الاقتداء بسنّة الله تعالى في التشديد والتغليظ. وعليه يحمَل ما رُوي عن أنس رضي الله عنه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «أبَى اللهُ أن يجعل لقاتِل المؤمن توبةً».[٤]

كيف لا، وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ رجلًا سأله: «ألِقَاتل المؤمن توبةٌ؟» قال: «لا»، وسأله آخَرُ: «ألِقَاتل المؤمنِ توبةٌ؟» فقال: «نعم»، فقيل له: «قلتَ لذلك كذا، ولهذا كذا؟»، قال: «كان الأوّل لم يقتُل بَعْدُ؛ فقلتُ ما قلتُ كَيْلَا يقتلَ، وكان هذا قد قَتل؛ فقلتُ له ما قلتُ لئلّا ييْأسَ».[٥] وقد رُوي عنه جواز المغفرة بلا توبة أيضًا؛ حيث قال في قوله تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ الآية: «هي جزاؤه؛ فإن شاء عَذّبه، وإن شاء غفَر له».[٦]

---

[١] صحيح البخاري، ١١٠/٦ (٤٧٦٤)؛ صحيح مسلم، ٢٣١٨/٤ (٣٠٢٣). والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٠/٢.

[٢] هو سفيان بن عُيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمّد (ت. ١٩٨هـ/٨١٤م). محدّث الحرم المكّي. مِن الموالي. وُلد بالكوفة، وسكن مكّة، وتُوفّي بها. كان حافظًا ثقةً واسعَ العلم كبيرَ القدر. روى عن الزهري وعمرو بن دينار ومحمّد بن المنكدر وأبي الزناد وعاصم بن أبي النجود المقرئ والأعمش وعبد الملك بن عمير وغير هؤلاء مِن أعيان العلماء. وروى عنه الإمام الشافعي وشُعبة بن الحجّاج ومحمّد ابن إسحاق وابن جُريج وعبد الرزّاق بن همام الصنعاني ويحيى بن أكثم القاضي، وخلق كثير. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٣٩١/٢-٣٩٣؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٥٤/٨-٤٧٥.

[٣] السنن الكبرى للبيهقي، ٣٠/٨ (١٥٨٣٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٠/١-٥٥١.

[٤] التفسير الوسيط للواحدي، ٩٧/٢. ونحوه مِن حديث عقبة بن مالك رضي الله عنه في مسند أحمد، ٢٢٠/٢٨ (١٧٠٠٨).

[٥] التفسير الوسيط للواحدي، ٩٩/٢. ونحوه في مصنّف ابن أبي شيبة، ٤٣٥/٥ (٢٧٧٥٣).

[٦] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٥/٣؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٠٠/٢.

ورُوي مرفوعًا عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «هو جزاؤه إن جَازَاه».[١] وبه قال عَون بن عبد الله[٢] وبكر بنُ عبد الله[٣] وأبو صالح؛ قالوا: «قد يقول الإنسان لمَن يزجُره عن أمر: إنْ فعلتَه فجزاؤك القتل والضرب، ثمّ إن لم يُجازِه بذلك لم يكن ذلك منه كَذِبًا».[٤] قال الواحدي: «والأصل في ذلك أنّ الله عزّ وجلّ[٥] يَجوزُ أن يُخلِف الوعيدَ، وإن امتنع أن يُخلِف الوعدَ، بهذا وَرَدَت السنّة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حديث أنس رضي الله عنه أنّه عليه السلام قال: "مَن وعده الله على عمله ثوابًا فهو مُنجِزه له، ومَن أوعده على عمله عقابًا فهو بالخِيار"».[٦]

[٦٩و] والتحقيق أنّه لا ضرورةَ / إلى تفريع ما نحن فيه على الأصل المذكور؛ لأنّه إخبار منه تعالى بأنّ جزاءه ذلك، لا بأنّه يَجزيه بذلك. كيف لا، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى، ٤٢/٤٠]، ولو كان هذا إخبارًا بأنّه تعالى يَجزي كلَّ سيّئة بمثلها لَعارضه قولُه تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [المائدة، ١٥/٥؛ الشورى، ٤٢/٣٠].

---

١ الحديث في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣/٣٦٥، مرفوعًا، وفي **جامع البيان** للطبري، ٧/٣٤٠، عن أبي مِجلَز وعن أبي صالح موقوفًا. والألفاظ مِن **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢/٩٩.

٢ هو عون بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود الهُذلي، أبو عبد الله (ت. ١١٠هـ/٧٢٨م). محدّث، عابد، مِن التابعين. سكن الكوفة، فاشتهر فيها بالعبادة والقراءة. وكان مِن آدب أهل المدينة. حدّث عن أبيه وأخيه وابن المسيّب وابن عبّاس وعبد الله بن عمرو، وطائفة. وحدّث عنه إسحاق بن يزيد الهذلي وحنظلة بن أبي سفيان ومالك بن مِغوَل ومحمّد بن عجلان وأبو حنيفة ومِسعَر وصالح بن صالح بن حيّ والمسعودي، وجماعة. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥/١٠٣-١٠٥؛ **والأعلام** للزركلي، ٥/٩٨.

٣ هو بكر بن عبد الله بن عمرو المُزَني، أبو عبد الله (ت. ١٠٨هـ/٧٢٦م). محدّث، فقيه، مِن التابعين. حدّث عن المغيرة بن شُعبة وابن عبّاس وابن عمر وأنس بن مالك وأبي رافع الصائغ، وعِدّة. وحدّث عنه ثابت البُناني وعاصم الأحول وسليمان التَّيمي وحَبيب العَجَمي وحُمَيد الطويل وقتادة وغالب القطّان وأبو عامر صالح الخزّاز ومبارك بن فَضالة وصالح المُرّي وابنه عبد الله بن بكر، وآخرون. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤/٥٣٢-٥٣٦؛ **وتهذيب التهذيب** لابن حجر، ١/٤٨٤-٤٨٥.

٤ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢/١٠٠.

٥ س: تعالى.

٦ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢/١٠٠. وحديث أنس رضي الله عنه في **مسند البزّار**، ١٣/٢٩٧ (٦٨٨٢)؛ **ومسند أبي يعلى الموصلي**، ٦/٦٦ (٣٣١٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ إثرَ ما بيّن حكم القتل بقِسمَيه وأنّ ما يُتصوّر صدوره عن المؤمن إنّما هو القتل خطأً شُرع في التحذير عمّا يُؤدّي إليه مِن قلّة المُبالاة في الأمور. ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: سافرتم للغَزْو. ولِما في ﴿إِذَا﴾ مِن معنى الشرط صُدّر قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ بـ"الفاء"، أي: فاطلبوا بيان الأمر في كلّ ما تأتون وما تذَرون، ولا تَعجَلوا فيه بغير تدبّر ورَوِيّة. وقُرئ: "فَتَثَبَّتُوا"،[1] أي: اطلبوا إثباته.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ نهيٌ عمّا هو نتيجة لترك المأمور به، وتعيين لمادّة مهمّة مِن الموادّ التي يجب فيها التبيّن. وقُرئ: "السِّلْمَ"[2] بغير ألف وبكسر السين وسكون اللام، أي: لا تقولوا بغير تأمّل لمَن حيّاكم بتحيّة الإسلام، أو لمَن ألقى إليكم مقاليد الاستسلام والانقياد: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾؛ وإنّما أظهرتَ ما أظهرتَ متعوِّذًا؛ بل اقبَلوا منه ما أظهره، وعامِلوه بموجَبه. وقُرئ: "مُؤْمَنًا"[3] بالفتح، أي: مبذولًا لك الأمان، وهذا أنسبُ بالقراءتين الأخيرتين. والاقتصار على ذكر تحيّة الإسلام في القراءة الأُولى -مع كونها مقرونةً بكلمتَي الشهادة كما سيأتي في سبب النزول- للمبالغة في النهي والزجر والتنبيهِ على كمال ظهور خطئهم ببيان أنّ تحيّة الإسلام كانت كافيةً في المُكافّة والانزجار عن التعرّض لصاحبها؛ فكيف وهي مقرونة بهما.

وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حال مِن فاعل ﴿لَا تَقُولُوا﴾، مُنبئ عمّا يَحمِلهم على العَجَلة وتركِ التأنّي؛ لكنْ لا على أن يكون النهي راجعًا إلى القيد فقط -كما في قولك: لا تطلب العلم تبتغي به الجَاهَ- بل إليهما جميعًا،

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٥١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤١.

٣ قرأ بها أبو جعفر مِن القُرّاء العشرة. النشر لابن الجزري، ٢٥١/٢.

أي: لا تقولوا له ذلك حالَ كونكم طالبين لماله الذي هو حُطامٌ سريعُ النَّفاد.

وقوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ تعليل للنهي عن ابتغاء ماله بما فيه مِن الوعد الضِّمنيّ، كأنّه قيل: لا تبتَغوا ماله، فعند الله مغانمُ كثيرةٌ يغنِّمكموها، فيُغنيكم عن ارتكاب ما ارتكبتموه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ تعليل للنهي عن القول المذكور. ولعلّ تأخيرَه لِما فيه مِن نوعِ تفصيل، ربّما يُخلّ تقديمُه بتجاوبِ أطراف النظم الكريم، مع ما فيه مِن مراعاة المقارنة بين التعليل السابق وبين ما عُلّل به، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾... إلخ [آل عمران، ٣/١٠٦].

وتقديم خبر "كان" للقَصر المقيَّد لتأكّد المشابهة بين طرفَي التشبيه، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة، و"الفاء" في ﴿فَمَنَّ﴾ للعطف على ﴿كُنتُمْ﴾، أي: مِثلَ ذلك الذي ألقى إليكم السلامَ كنتم أنتم أيضًا في مَبادِئِ إسلامكم، لا يظهر منكم للناس غيرُ ما ظهر منه لكم مِن تحيّة الإسلام ونحوها، فمَنَّ الله عليكم بأنْ قبِل منكم تلك المرتبة، وعَصَم بها دماءكم وأموالَكم، ولم يأمر بالتفحّص عن سرائركم.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فصيحة، أي: إذا كان الأمر كذلك، فاطلبوا بيان هذا الأمر البيّن، وقِيسُوا حالَه بحالكم، وافعلوا به ما فُعل بكم في أوائل أموركم مِن قبول ظاهر الحال مِن غير وقوف على تَواطُؤ الظاهر والباطن.

هذا هو الذي يقتضيه جزالة التنزيل، ويستدعيه فخامة شأنه الجليل. ومَن حسِب[١] أنّ المعنى: أوّل ما دخلتم في الإسلام سُمعت مِن أفواهكم كلمة الشهادة، فحُصّنت دِماؤكم وأموالكم مِن غير انتظار الاطّلاع على مواطأة قلوبكم لألسِنتكم، فمَنَّ الله عليكم بالاستقامة والاشتهار بالإيمان والتقدّمِ فيه، وأَنْ صِرتم أعلامًا فيه، فعليكم أن تفعلوا بالداخلين في الإسلام كما فُعل بكم،

[١] هو الزمخشري في الكشّاف، ٥٥٣/١.

وأن تعتبروا ظاهر الإسلام في المُكافَّة ولا تقولوا... إلى آخِره،[١] فقد أبعَدَ[٢] عن الحقّ؛ لأنّ المراد -كما عرفتَ- بيان أنّ تحصين الدماء والأموال حكمٌ مترتِّب على ما فيه المماثلة / بينه وبينهم مِن مجرَّد التفوُّه بكلمة الشهادة، وإظهارُ أنّ ترتّبه [٦٩ظ] عليه في حقّهم يقتضي ترتّبه عليه في حقّه أيضًا إلزامًا لهم وإظهارًا لخطئهم.

ولا يخفى أنّ ذلك إنّما يتأتّى بتفسير مَنِّه تعالى عليهم المترتِّبِ على كونهم مِثلَه بتحصين دمائهم وأموالهم -حسبما ذُكر- حتّى يظهَرَ عندهم وجوب تحصين دمه وماله أيضًا بحكم المشاركة فيما يوجبه؛ وحيث لم يَفعل ذلك -بل فسّره بما فسّره به- لم يبقَ في النظم الكريم ما يدلّ على ترتّب تحصين دمائهم وأموالهم على ما ذُكر؛ فمِن أين له أن يقول: فحُصّنت دماؤكم وأموالكم حتّى يتأتّى البيان!

وارتكاب تقديره بناءً على اقتضاء ما ذُكر في تفسير المَنّ إيّاه بناءٌ على أساسٍ وَاهٍ. كيف لا، وإنّ ما[٣] ذكره بصدد التفسير، وإن كان أمرًا متفرّعًا على ما فيه المماثلة مبنيًّا عليه في حقّهم؛ لكنّه ليس بحكمٍ أُريدَ إثباته في حقّه بناءً على ثبوته في حقّهم كالتحصين المذكور حتّى يستحقّ أن يُتعرّض له، ولا بأمرٍ له دَخْل في وجوب اعتبار ظاهر الإسلام مِن الداخلين فيه، حتّى يصِحَّ نظمُه في سِلك ما فُرّع عليه قولُه: فعليكم أن تفعلوا... إلخ.

وحملُ الكلام على معنى "أنكم في أوّل الأمر كنتم مِثلَه في قصور الرُّتبة في الإسلام، فمَنَّ الله عليكم، وبلغتم هذه الرتبة العالية منه، فلا تستقصِروا حالته نظرًا إلى حالتكم هذه؛ بل اعتَدُّوا بها نظرًا إلى حالتكم السابقة" يرُدُّه[٤] أنّ قتله لم يكن لاستقصار إسلامه؛ بل لتوهّم عدم مطابقة قلبه للسانه؛ فإنّ الآية الكريمة نزلت في شأن مِرْدَاس بنِ نَهِيكٍ مِن أهل فَدَكٍ،[٥] وكان قد أسلم

---

١ تمامه في هامش م: إنّ تهليل هذا لاتّقاء القتل، لا لصدق النيّة، فتجعلوه سلمًا لاستباحة دمه وماله وقد حرّمهما الله. «منه».

٢ السياق: ومَن حسِب... فقد أبعَدَ...

٣ كذا في الأصول الخطّيّة، وفي مطبوعاته: وإنّما.

٤ السياق: وحملُ الكلام... يرُدّه أنّ...

٥ فَدَك: قرية بالحجاز، أفاءها الله على رسوله صلّى الله عليه وسلّم في سنة سبعٍ صُلحًا. وفي فدكٍ اختلاف كثير في أمره بعد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر وآل رسول الله. انظر: معجم البلدان للحمَوي، ٤/٢٣٨-٢٤٠.

ولم يُسلِم مِن قومه غيرُه، فغزَتْهُم سَرِيّة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، عليهم غالب بنُ فضالةَ الليثيّ، فهربوا، وبقي مِرْدَاس لثِقَته بإسلامه، فلمّا رأى الخيل ألجأ غَنَمَه إلى عَاقُولٍ[1] مِن الجبل وصعِد، فلمّا تلاحَقُوا وكبّروا كَبّر ونزل، وقال: «لا إلٰه إلّا الله محمّد رسول الله، السلام عليكم»، فقتله أسامة بنُ زيد[2] واستاقَ غَنَمَه، فأخبروا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فوجد وجدًا[3] شديدًا وقال:[4] «قتلتموه إرادةَ ما معه!»، فقال أسامةُ: «إنّه قال بلسانه دون قلبه -وفي روايةٍ: إنّما قالها خوفًا مِن السلاح-»، فقال عليه السلام: «هَلّا شققْتَ عن قلبه! -وفي روايةٍ: أفلا شققْتَ عن قلبه!-»، ثمّ قرأ الآية على أسامةَ، فقال: «يا رسولَ الله، استغفِرْ لي»، فقال: «كيف بـ"لا إلٰه إلّا الله"»، قال أسامةُ: «فما زال صلّى الله عليه وسلّم يُعيدها، حتّى وَدِدْتُ أن لم أكنْ أسلمتُ إلّا يومئذ، ثمّ استغفر لي، وقال: أَعتِقْ رَقَبةً».[5]

وقيل: نزلت في رجلٍ قال: «يا رسولَ الله، كنّا نطلب القوم، وقد هزَمَهم الله، فقصدتُ رجلًا، فلمّا أحسَّ بالسيف قال: "إنّي مسلِم"، فقتلتُه»، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أقتلتَ مسلمًا؟»، قال: «إنّه كان متعوِّذًا»، فقال عليه السلام: «أفلا شققْتَ عن قلبه!».[6]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الأعمال الظاهرة والخفيّة وبكيفيّاتها ﴿خَبِيرٗا﴾ فيُجازيكم بحسَبها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ؛ فلا تتهافَتوا في القتل،

---

١ العاقول: نبتٌ له شَوك ترعاه الإبلُ، وله زهرة بَنَفْسَجِيّة. تاج العروس للزبيدي، «عقل».

٢ هو أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، أبو محمّد، وقيل: أبو زيد، وقيل: أبو عبد الله، وقيل: أبو حارثة (ت. ٥٤هـ/٦٧٤م). صحابيّ. وُلد بمكّة، ونشأ على الإسلام؛ لأنّ أباه كان مِن أوّل الناس إسلامًا. وكان شديدَ السواد خفيفَ الروح شاطرًا شجاعًا، ربّاه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأحبّه حبًّا جمًّا. وهاجر مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة. واستعمله النبيّ عليه السلام على جيش لغزو الشام، وفي الجيش عمر والكِبار. انظر: الاستيعاب للنّمري، ١/٧٥-٧٧؛ وسير أعلام النبلاء لابن حجر، ٢/٤٩٦-٥٠٧.

٣ وفي هامش م: غضب.

٤ س: قال.

٥ هو مجمَلًا في صحيح البخاري، ٥/١٤٤ (٤٢٦٩)؛ وصحيح مسلم، ١/٩٦ (٩٦)، ومفصَّلًا في جامع البيان للطبري، ٧/٣٥٦-٣٥٨. والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ١/٥٥٢.

٦ تفسير السمرقندي، ١/٣٥٤.

واحتاطُوا فيه. والجملة تعليل لِما قبلها بطريق الاستئناف. وقُرئ بفتح ﴿إِنَّ﴾[١] على أنّها معمولة لِـ﴿تَبَيَّنُوا﴾، أو على حذف لام التعليل.[٢]

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾

/ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسَب تفاوت [٧٠و] درجات مساعيهم في الجهاد بعد ما مرّ مِن الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ليأنَفَ القاعد عنه ويترفَّعَ بنفسه عن انحطاط رتبته، فيهتزَّ له رغبةً في ارتفاع طبقته. والمراد بهم الذين أُذن لهم في القعود عن الجهاد اكتفاءً بغيرهم. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هم القاعدون عن بَدْر والخارجون إليها»،[٣] وهو الظاهر الموافِق لتاريخ النزول؛ لا ما رُوي عن مقاتل مِن أنّهم الخارجون إلى تَبوك؛[٤] فإنّه ممّا لا يوافقه التاريخ، ولا يساعده الحال؛ إذ لم يكن للمتخلِّفين يومئذ هذه الرُّخصة.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن "القاعدين"، أي: كائنين مِن المؤمنين. وفائدتها الإيذان مِن أوّل الأمر بعدم إخلال وصف القعود بإيمانهم، والإشعارُ / بعلّة استحقاقهم لِما سيأتي مِن الحُسنى. [٧٠ظ]

﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ بالرفع، صفة لـ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ لجرَيانه مَجرى النكِرة؛ حيث لم يقصَد به قوم بأعيانهم، أو بدلٌ منه. وقُرئ بالنصب[٥] على أنّه حال منه أو استثناء، وبالجرّ[٦] على أنّه صفة لـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أو بدل منه. والضَّرَر: المَرَض

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة أبو حيّان في البحر المحيط، ٣٤/٤.

٢ في نسخة م وردت الآية التالية في بداية الصفحة، وفوقها في الهامش: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.

٣ صحيح البخاري، ٤٨/٦ (٤٥٩٥)؛ سنن الترمذي، ٢٤١/٥ (٣٠٣٢). والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٥٥٣/١.

٤ رواه عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٥٣/١. وهو في تفسيره، ٤٠١/١.

٥ قرأ بها نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٥١/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حياة وقرقبي والشامي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤١.

أو العاهة مِن عَمًى أو عَرَجٍ أو زَمانةٍ أو نحوها، وفي معناه العجز عن الأُهْبة.[١]

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنّه قال: كنتُ إلى جَنْب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فغشيته السَّكينة، فوقعتْ فَخِذه على فَخِذي حتّى خَشِيتُ أن ترُضّها، ثمّ سُرِّي عنه فقال: «اكتبْ»، فكتبتُ: "لا يستوي القاعدون مِن المؤمنين والمجاهدون"، فقال ابن أمّ مكتوم[٢] -وكان أعمى-: «يا رسولَ الله، وكيف بمَن لا يستطيع الجهاد مِن المؤمنين؟»، فغشيته السَّكِينة كذلك، ثمّ سُرِّي عنه فقال: «اكتبْ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾».[٣]

﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ إيرادهم بهذا العنوان دون "الخروج" المقابِل لوصف المعطوف عليه كما وقع في عبارة ابن عبّاس رضي الله عنهما، وكذا تقييدُ المجاهدة بكونها ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ لمدحهم بذلك، والإشعارِ بعلّة استحقاقهم لعُلوّ الرتبة، مع ما فيه مِن حسن موقع "السبيل" في مقابلة "القعود".

وتقديم "القاعدين" في الذكر للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ القصور الذي يُنبئ عنه عدمُ الاستواء مِن جهتهم، لا مِن جهة مقابِليهم؛ فإنّ مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادةً ونُقصانًا، وإن جاز اعتباره بحسَب زيادة الزائد، لكنّ المتبادر اعتباره بحسَب قصور القاصر؛ وعليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد، ١٦/١٣]، إلى غير ذلك. وأمّا قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر، ٩/٣٩]، فلعلّ تقديمَ الفاضل فيه لأنّ صِلته مَلَكة لصلة المفضول.

---

١ الأُهْبة: العُدّة، وجمعُها "أُهَب"، وقد تأهَّب الرجل، إذا أخذ أُهبَتَه. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٤٥/٦ «باب الحاء والباء».

٢ هو عمرو -وقيل: عبد الله- بن قيس بن زائدة، ابن أمّ مكتوم (ت. ١٥هـ/٦٣٦م). مؤذّن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. أسلَمَ بمكّة قديمًا، وهاجر إلى المدينة بعد مصعب بن عُمير، وقيل: قدمها بعد بدر بيسير. وكان ضريرَ البصر. واستخلفه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على المدينة ثلاثَ عشرة مرّة. وشهد فتح القادسية ومعه اللواء، وقُتل بالقادسية شهيدًا. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٠٥/٤-٢١٢؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٢٥١/٤-٢٥٢.

٣ **صحيح البخاري**، ٤٧/٦ (٤٥٩٢)؛ **سنن الترمذي**، ٢٤٢/٥ (٣٠٣٣). والألفاظ مِن **الكشّاف** للزمخشري، ٥٥٣/١.

وقوله عزّ وعَلَا:[١] ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ استئناف مَسوق لتفصيل ما بين الفريقين مِن التفاضل المفهوم مِن ذِكر عدم استوائهما إجمالًا ببيان كيفيّته وكمّيّته، مبنيٌّ على سؤال ينساق إليه المقال، كأنّه قيل: كيف وقع ذلك؟ فقيل: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾... إلخ. وأمّا تقدير "ما لهم لا يستَوُون؟" فإنّما يليق بجعل الاستئناف تعليلًا لعدم الاستواء مَسوقًا لإثباته؛ وفيه تعكيس ظاهر؛ فإنّ الذي يَحقّ أن يكون مقصودًا بالذات إنّما هو بيان تفاضل الفريقين على درجات متفاوتة، وأمّا عدم استوائهما فقُصارَى أمره أن يكون تَوطئةً لذِكره.

و"لام" ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ و﴿ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ للعهد، فقيدُ كون الجهاد في سبيل الله معتبَر في الأوّل، كما أنّ قيد عدم الضرر معتبَر في الثاني. و﴿دَرَجَةً﴾ نصب على المصدريّة لوقوعها موقعَ المَرّة مِن التفضيل، أي: فَضّل الله تفضيلةً، أو على نَزْع الخافض، أي: بدرجة، وقيل: على التمييز، وقيل: على الحاليّة مِن ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾، أي: ذَوي درجة. وتنوينها للتفخيم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا﴾ مفعول أوّل لِما يعقُبه، قُدّم عليه لإفادة القَصر تأكيدًا للوعد، أي: كلَّ واحد مِن المجاهدين والقاعدين ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المَثوبةَ الحُسنى، وهي الجنّة؛ لا أحدَهما فقط كما / في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ [٧١و]
رَسُولًا﴾ [النساء، ٧٩/٤] على أنّ "اللام" متعلِّقة بـ﴿رَسُولًا﴾. والجملة اعتراض، جِيءَ به تداركًا لِما عسى يوهمه تفضيلُ أحد الفريقين على الآخَر مِن حِرمان المفضول.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾... إلخ. و"اللام" في الفريقين مُغنية لهما عن ذكر القيود التي تُركت على سبيل التدريج. وقوله تعالى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿فَضَّلَ﴾ على أنّه بمعنى "أَجَرَ"، وإيثاره على ما هو مصدر مِن فعله للإشعار بكون ذلك التفضيل أجرًا لأعمالهم، أو مفعول ثانٍ له بتضمينه معنى الإعطاء، أي: أعطاهم زيادةً على القاعدين أجرًا عظيمًا. وقيل: هو منصوب بنزع الخافض، أي: فضّلهم بأجر عظيم.[٢]

---

[١] س: وجلّ.

[٢] ط س - عظيم.

﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٩٦﴾

وقوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بدل مِن ﴿أَجۡرًا﴾[١] بدلَ الكلّ، مبيِّن لكميّة التفضيل. وقوله تعالى: ﴿مِّنۡهُ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع صفةً لـ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ دالّةً على فخامتها وجلالة قدرها، أي: درجاتٍ كائنةً منه تعالى. قال ابن مُحَيريز:[٢] «هي سبعون درجةً، ما بين كلّ درجتين عَدْوُ الفَرس الجَوَاد المضمَّرِ سبعين خريفًا».[٣] وقال السدّي: «هي سبعمائةِ درجةٍ».[٤] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ في الجنّة مائةَ درجةٍ، أعدَّها الله تعالى للمجاهدين في سبيله، بين الدرجتين كما بين السماء والأرض».[٥] ويجوز أن يكون انتصاب ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ على المصدريّة كما في قولك: "ضربه أسواطًا"، أي: ضَرَباتٍ، كأنّه قيل: فضّلهم تفضيلاتٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَغۡفِرَةٗ﴾ بدل مِن ﴿أَجۡرًا﴾ بدلَ البعض؛ لأنّ بعض الأجر ليس مِن باب المغفرة، أي: مغفرةً لِما يفرُط منهم مِن الذنوب التي لا يكفِّرها سائر الحَسَنات التي يأتي بها القاعدون أيضًا حتّى تُعَدَّ مِن خصائصهم. وقوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ بدلُ الكلّ مِن ﴿أَجۡرًا﴾ مثل ﴿دَرَجَٰتٖ﴾. ويجوز أن يكون انتصابهما بإضمار فعلهما، أي: غفَر لهم مغفرةً، ورحِمهم رحمةً.

هذا، ولعلّ تكريرَ التفضيل بطريق العطف المُنبئ عن المغايرة، وتقييدَه تارةً بـ"درجة" وأخرى بـ"درجات" -مع اتّحاد المفضَّل والمفضَّل عليه حسبما يقتضيه

---

١ في الآية السابقة.

٢ هو عبد الله بن مُحَيريز بن جُنادة بن وهب القُرَشي الجُمَحي المكّي، أبو مُحَيريز. مِن سادة التابعين، وذكره العقيلي في الصحابة. كان مِن العلماء العاملين. حدّث عن عُبادة بن الصامت وأبي محذورة المؤذّن ومعاوية بن أبي سفيان وأبي سعيد الخُدري، وطائفة. وحدّث عنه خالد بن مَعْدان ومكحول وحسّان بن عطيّة والزهري وإبراهيم بن أبي عَبْلة، وآخرون. مات في دولة الوليد بن عبد الملك، وكانت ولاية الوليد مِن سنة ستّ وثمانين إلى سنة تسعين. انظر: الاستيعاب للنُّمري، ٣/٩٨٣-٩٨٥؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/٤٩٤-٤٩٦.

٣ التفسير البسيط للواحدي، ٧/٥٣. وهو باختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٧/٣٧٧.

٤ التفسير البسيط للواحدي، ٧/٥٢.

٥ قطعة مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه. انظر: صحيح البخاري، ٤/١٦ (٢٧٩٠)؛ ومسند أحمد، ١٤/١٤٣ (٨٤١٩).

الكلام ويستدعيه حُسن الانتظام- إمّا لتنزيل الاختلاف العُنوانيّ بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلةَ الاختلاف الذاتيّ، تمهيدًا لسلوك طريق الإبهام ثمّ التفسيرِ رَوْمًا لمزيد التحقيق والتقرير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا[1] جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا / هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود، ٥٨/١١]، [٧١ظ]
كأنّه قيل: فضّل الله المجاهدين على القاعدين درجةً لا يقادَر قدرها ولا يُبلَغ كُنهها. وحيث كان تحقّقُ هذا البَوْن[2] البعيدِ بينهما مُوهِمًا لحِرمان القاعدين قيل: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾،[3] ثمّ أريدَ تفسير ما أفاده التنكير بطريق الإبهام بحيث يقطع احتمالَ كونه للوحدة، فقيل ما قيل. ولله دَرُّ شأن التنزيل.

وإمّا[4] للاختلاف بالذات بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات، على أنّ المراد بالتفضيل الأوّل ما خوّلهم الله تعالى عاجلًا في الدنيا مِن الغنيمة والظَّفَر والذكر الجميل الحقيقِ بكونه درجةً واحدةً، وبالتفضيل الثاني ما أنعم به في الآخرة مِن الدرجات العالية الفائتة للحصر، كما يُنبئ عنه تقديم الأوّل وتأخير الثاني وتوسيط الوعد بالجنّة بينهما. كأنّه قيل: فضّلهم عليهم في الدنيا درجةً واحدةً، وفي الآخرة درجاتٍ لا تُحصَى. وقد وُسّط بينهما في الذكر ما هو متوسِّط بينهما في الوجود -أعني: الوعد بالجنّة- توضيحًا لحالهما ومسارعةً إلى تسلية المفضول. والله سبحانه أعلم.

هذا ما بين المجاهدين وبين القاعدين غيرِ أُولي الضَّرَر. وأمّا أُولو الضَّرَر، فهم مُساوُونَ للمجاهدين عند القائلين بمفهوم الصفة، وبأنّ الاستثناء مِن النفي إثبات، وأمّا عند مَن لا يقول بذلك فلا دلالةَ لعبارة النصّ عليه. وقد رُوي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لقد خَلّفتم في المدينة أقوامًا؛ ما سِرتم مَسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلّا كانوا معكم»،[5] وهُم الذين صحّت نِيّاتهم،

---

[1] م س: فلمّا.

[2] البَوْن: الفضل والمزيّة. يقال: بَانَه يَبُونه ويَبِينه، وبينهما بَوْن بعيد، وبَيْن بعيد، والواو أفصَحُ. الصحاح للجوهري، «بين».

[3] في الآية السابقة.

[4] السياق: إمّا لتنزيل الاختلاف العُنوانيّ... وإمّا للاختلاف بالذات...

[5] أخرجه أحمد مِن حديث جابر في مسنده، ٣٥/٢٣ (١٤٦٧٥).

ونصحتْ جيوبهم، وكانت أفئدتهم تَهوي إلى الجهاد، وبهم ما يمنعهم مِن المَسير مِن ضرر أو غيره. وبعبارة أخرى: «إنّ في المدينة لَأَقوامًا؛ ما سِرتم مِن مَسير، ولا قطعتم مِن وادٍ إلّا كانوا معكم فيه»، قالوا: «يا رسولَ الله، وهم بالمدينة؟»، قال: «نعم، وهم بالمدينة، حبَسهم العُذْرُ».[1]

قالوا: هذه المساواة مشروطة بشريطة أخرى -سِوى الضرر- قد ذُكرت [٧٢و] / في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة، ٩١/٩]. وقيل: القاعدون الأوّل[2] هم الأضِرّاء، والثاني[3] غيرهم؛ وفيه مِن تفكيك النظم الكريم ما لا يخفى، ولا ريبَ في أنّ الأضِرّاء أفضلُ مِن غيرهم درجةً، كما لا ريبَ في أنّهم دون المجاهدين بحسب الدرجة الدنيويّة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ تذييل مقرِّر لِما وُعد مِن المغفرة والرحمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بيان لحال القاعدين عن الهجرة إثْرَ بيان حال القاعدين عن الجهاد. و﴿تَوَفَّىٰهُمۡ﴾ يحتمل أن يكون ماضيًا، ويؤيّده قراءةُ مَن قرأ: "تَوَفَّتْهُمْ"،[4] وأن يكون مضارعًا، قد حُذف منه إحدى التاءين، وأصله: "تَتَوفّاهم" على حكاية الحال الماضية والقصدِ إلى استحضار صورتها، ويعضُده قراءةُ مَن قرأ: "تُوَفَّاهُمْ"[5] على مضارع "وُفِّيَتْ"، بمعنى: أنّ الله تعالى يُوفّي الملائكةَ أنفُسَهم فيتوفَّوْنَها، أي: يمكّنهم مِن استيفائها فيستَوْفونها.

---

[1] أخرجه البخاري مِن حديث أنس بن مالك في صحيحه، ٨/٦ (٤٤٢٣)؛ وكذا مسلم في صحيحه، ١٥١٨/٣ (١٩١١).

[2] وفي هامش م: المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ(١) عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗ﴾ [النساء، ٩٥/٤]. «منه». | (١) هامش م - بأموالهم وأنفسهم.

[3] وفي هامش م: أي: المذكور في قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء، ٩٥/٤]. «منه».

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بن عمران. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم. المحتسَب لابن جنّي، ١٩٤/١.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ حال مِن ضمير ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾. فإنّه، وإن كان مضافًا إلى المعرفة، إلّا أنّه نكِرة في الحقيقة؛ لأنّ المعنى على الانفصال، وإن كان موصولًا في اللفظ كما في قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ [المائدة، ١/٥] و﴿هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾ [المائدة، ٩٥/٥] و﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ [الحج، ٩/٢٢]، أي: مُحلِّين الصَّيدَ، وبالغًا الكعبةَ، وثانيًا عِطفَه، كأنّه قيل: ظالمين أنفسَهم. وذلك بترك الهجرة واختيار مجاورة الكَفَرة الموجِبة للإخلال بأمور الدين. نزلت في ناسٍ مِن مكّةَ قد أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضةً.[1]

﴿قَالُواْ﴾ أي: الملائكة عليهم السلام للمُتَوفَّينَ، تقريرًا لهم بتقصيرهم في إظهار إسلامهم وإقامةِ أحكامه مِن الصلاة ونحوها، وتوبيخًا لهم بذلك: ﴿فِيمَ كُنتُمۡ﴾ أي: في أيّ شيء كنتم مِن أمور دينكم؟

﴿قَالُواْ﴾ استئناف مبنيّ على سؤالٍ نشأ مِن حكاية سؤال الملائكة، كأنّه قيل: فماذا قالوا في الجواب؟ فقيل: قالوا متجانِفين عن الإقرار الصريح / بما هم فيه [٧٢ظ]
مِن التقصير متعلِّلين بما يوجبه على زعمهم: ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أرض مكّةَ، عاجزين عن القيام بمواجب الدين فيما بين أهلها.

﴿قَالُوٓاْ﴾ إبطالًا لتعلُّلهم وتبكيتًا لهم: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ إلى قُطْر آخَرَ منها تقدرون فيه على إقامة أمور الدين كما فعله مَن هاجر إلى المدينة وإلى الحَبَشة. وأمّا حمل تعلّلهم على إظهار العجز عن الهجرة وجعلُ جواب الملائكة تكذيبًا لهم في ذلك، فيَرُدّه أنّ سبب العجز عنها لا ينحصر في فُقدان دار الهجرة؛ بل قد يكون لعدم الاستطاعة للخروج بسبب الفقر أو بعدم تمكين الكَفَرة منه، فلا يكون بيان سعة الأرض تكذيبًا لهم وردًّا عليهم؛ بل لا بدّ مِن بيان استطاعتهم أيضًا حتّى يَتِمّ التبكيتُ.

وقيل: كانت الطائفة المذكورة قد خرجوا مع المشركين إلى بَدْر -منهم قيس بن الفاكِهِ ابنِ[2] المغيرة وقيس بن الوليد بنِ المغيرة وأشباههما- فقُتّلوا فيها،

---

١ انظر: صحيح البخاري، ٤٨/٦ (٤٥٩٦)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ١٨٠.

٢ س: بن.

فضربت الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم، وقالوا لهم ما قالوا؛[١] فيكون ذلك منهم تقريعًا وتوبيخًا لهم بما كانوا فيه مِن مساعدة الكَفَرة بانتظامهم في عسكرهم، ويكون جوابهم بالاستضعاف تعلّلًا بأنّهم كانوا مقهورين تحت أيديهم وأنّهم أخرجوهم كارهين، فرُدَّ عليهم بأنّهم كانوا بسبيل مِن الخلاص عن قهرهم متمكِّنين مِن المهاجرة.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الذين حُكيت أحوالهم الفظيعة ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ كما أنّ مأواهم في الدنيا دار الكفر لتركهم الفريضة المحتومةَ. فـ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ مبتدأ، و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبره، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، وهذه الجملة خبرُ ﴿إِنَّ﴾، و"الفاء" فيه لتضمّن اسمها معنى الشرط. وقوله تعالى: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ حال مِن ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بإضمار "قد" عند مَن يشترطه، أو هو الخبر والعائد منه محذوف، أي: قالوا لهم، والجملة المصدَّرة بـ"الفاء" معطوفة عليه مستنتَجَة منه وممّا في حيّزه.[٢]

[٧٣و] / ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مصيرهم أو جهنّم. وفي الآية الكريمة إرشاد إلى وجوب المهاجرة مِن موضع لا يتمكّن الرجل مِن إقامة أمور دينه بأيّ سبب كان. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن فَرَّ بدِينه مِن أرض إلى أرض، وإن كان شِبْرًا مِن الأرض، استوجبت له الجنّةُ، وكان رفيقَ أبيه[٣] إبراهيمَ ونَبِيّه محمّدٍ عليهما الصلاة والسلام».[٤]

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ استثناء منقطِع لعدم دخولهم في الموصول وضميره والإشارةِ إليه. و﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ متعلِّقة بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، أي: كائنين منهم. وذِكر ﴿ٱلْوِلْدَٰنِ﴾

---

١ انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٤٠١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣/٣٧١.

٢ وفي هامش م: مِن قوله تعالى ﴿قَالُواْ كُنَّا﴾... إلخ، وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾... إلخ. «منه».

٣ س – أبيه.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٣٧٢؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٥٥٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٩٢.

إن أُريدَ بهم المماليك أو المراهِقون ظاهرٌ، وأمّا إن أُريدَ بهم الأطفال فلِلمبالغة فيِ أمر الهجرة، وإيهامِ أنّها بحيث لو استطاعها غيرُ المكلَّفين لَوجبت عليهم، والإشعارِ بأنّه لا مَحيصَ لهم عنها البتّةَ، يجب عليهم كما بلغوا، حتّى كأنّها واجبة عليهم قبل البلوغ لو استطاعوا، وأنّ قُوّامهم يجب عليهم أن يهاجروا بهم متى أمكنتْ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ صفة لـ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾، فإنّ ما فيه مِن "اللام" ليس للتعريف، أو حال منه[1] أو مِن الضمير المستكنّ فيه،[2] وقيل: تفسير لنفس ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ لكثرة وجوه الاستضعاف. واستطاعة الحِيلة: وجدان أسباب الهجرة ومباديها. واهتداء السبيل: معرفة طريق الموضع المهاجَر إليه بنفسه أو بدليل.

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾[3] الموصوفين بما ذُكر مِن صفات العجز. ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ جِيءَ بكلمة الإطماع ولفظ العفو إيذانًا بأنّ الهجرة مِن تأكّد الوجوب، بحيث ينبغي أن يُعَدَّ تركها / ممّن تحقّق عدمُ وجوبها [٧٣ظ]
عليه ذنبًا يجب طلب العفو عنه رَجاءً وطمعًا، لا جزمًا وقطعًا. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ تذييل مقرِّر لِما قبله.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ ترغيب في المهاجرة وتأنيس لها، أي: يجدْ فيها متحوَّلًا ومهاجَرًا. وإنّما عُبّر عنه بذلك تأكيدًا للترغيب لِما فيه مِن الإشعار بكون ذلك المتحوّل بحيث يصل فيه المهاجِر

---

[1] وفي هامش م: على تقدير كون اللام للتعريف. «منه».

[2] وفي هامش م: على تقدير كون اللام بمعنى "الذي"، فإنّه في حكم "الذين استضعفوا"، ويجوز كونه حالًا مِن المستكنّ في الحال الأولى. «منه».

[3] في الآية السابقة.

مِن الخير والنعمة إلى ما يكون سببًا لرَغْم أَنْفِ قومِه[١] الذين هاجرهم. والرَّغْم: الذلّ والهوان، وأصله لُصوق الأنف بالرَّغام، وهو التراب. وقيل: يجدْ فيها طريقًا يراغِم بسلوكه قومَه، أي: يفارقهم على رَغم أُنوفهم. ﴿وَسَعَةً﴾ أي: مِن الرزق.

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: قبل أن يصل إلى المقصد، وإن كان ذلك خارجَ بابه كما يُنبئ عنه إيثار "الخروج مِن بيته" على "المهاجَرة". وهو عطفٌ على فعل الشرط. وقُرئ بالرفع[٢] على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، وقيل: هو حركة "الهاء" نُقلت إلى "الكاف" على نيّة الوقف، كما في قوله:

مِـن عَـنَـزِيّ سَـبَّـنِـي لـم أَضْـرِبُـهْ[٣]

وقُرئ بالنصب[٤] على إضمار "أنْ"، كما في قوله:

وأَلْـحَـقُ بـالـحِـجـاز فـأَسـتَـرِيـحَـا[٥]

﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ثبت ذلك عنده تعالى ثبوتَ الأمر الواجب. رُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا بَعَث بالآيات المتقدِّمة إلى مسلمِي مكّةَ قال جُندب بن ضَمرةَ لبنيه -وكان شيخًا كبيرًا-: «احمِلوني؛ فإنّي لستُ مِن المستضعَفين، وإنّي لَأهتدي الطريق، واللهِ لا أَبِيتُ الليلةَ بمكّةَ»، فحملوه على سرير متوجّهًا إلى المدينة، فلمّا بلغ التنعيمَ أشرَفَ على الموت، فصفّق بيمينه على شِماله، ثمّ قال: «اللّهمّ هذه لك، وهذه لرسولك، أُبايِعك على ما بايعك رسولك»، فمات حميدًا، فبلغ خبره أصحابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،

---

[١] رغم أنفُه رغمًا إذا ساخ في الرغام، وهو التراب، ثمّ استُعمل في الذلّ والعجز عن الانتصاف مِن الظالم. **الفائق** للزمخشري، ٦٨/٢.

[٢] أي: "يُدْرِكُهُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة بن سليمان. **المحتسَب** لابن جنّي، ١٩٥/١.

[٣] عجز بيتٍ، صدره:

عـجِـبـتُ والـدهـر كـثـيرٌ عَـجَـبه

وهو لزِياد الأعجم في ديوانه، ص ٤٥.

[٤] أي: "يُدْرِكَهُ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى وإبراهيم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٤٢.

[٥] عجزُ بيتٍ، صدره:

سـأتـرُكُ مَـنـزلـي لـبـنـي تَـمـيـم

وهو للمغيرة بن حَبناء في **إيضاح شواهد الإيضاح** للقيسي، ٣٤٧/١؛ و**شرح شواهد المغني** للسيوطي، ٤٩٧/١، وبلا نسبة في **كتاب سيبويه**، ٣٩/٣؛ و**أمالي ابن الشجري**، ٤٢٧/١؛ و**خزانة الأدب** للبغدادي، ٥٢٢/٨.

فقالوا: «لو تُوُفِّيَ بالمدينة لكان أتمَّ أجرًا»، فنزلت.[١] قالوا: كلّ هجرة في غرض دينيّ مِن طلب علمٍ أو حجٍّ أو جهادٍ أو نحو ذلك، فهي هجرة إلى الله عزّ وجلّ وإلى رسوله[٢] صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ مبالِغًا في المغفرة، فيغفر له ما فرَط منه / مِن الذنوب [٧٤و]
التي مِن جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج. ﴿رَّحِيمًا﴾ مبالِغًا في الرحمة، فيرحمه بإكمال ثواب هجرته.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ شروع في بيان كيفيّة الصلاة عند الضرورات مِن السفر ولقاء العدوّ والمطر والمرض. وفيه تأكيد لعزيمة المهاجِر على المهاجَرة، وترغيب له فيها لِما فيه مِن تخفيف المُؤْنة. أي: إذا سافرتم، أيَّ مسافَرةٍ كانت -ولذلك لم يقيَّد بما قُيِّد به المهاجرة- ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حَرَج ومَأثم ﴿أَن تَقْصُرُوا﴾ أي: في أن تقصُروا. والقَصر خلاف المدّ، يقال: "قصَرتُ الشيءَ"، أي: جعلته قصيرًا بحذف بعض أجزائه أو أوصافه؛ فمتعلَّق القَصر حقيقةً إنّما هو ذلك الشيء، لا بعضه؛ فإنّه متعلَّق الحذف دون القَصر. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ينبغي أن يكون مفعولًا لـ﴿تَقْصُرُوا﴾ على زيادة ﴿مِنْ﴾، حسبما رآه الأخفش.[٣] وأمّا على تقدير أن تكون تبعيضيّةً ويكونَ المفعول محذوفًا -كما هو رأي سيبويه،[٤] أي: شيئًا مِن الصلاة- فينبغي أن يُصار إلى وصف الجزء بصفة الكلّ، أو يرادَ بالقَصر معنى الحَبس، يقال: "قصَرتُ الشيءَ"

١ التفسير الوسيط للواحدي، ١٠٧/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٥/١. ونحوه في مسند أبي يعلى الموصلي، ٨١/٥ (٢٦٧٩)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٢٧٢/١١-٢٧٣ (١١٧٠٩).

٢ ط س: رسول الله.

٣ لعلّه أشار إلى ما قاله الأخفش في باب "زيادة مِن" في معاني القرآن، ١٠٥/١. وذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩٣/٢؛ وابن عادل في اللباب، ٦/ ٦٠٢.

٤ ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩٣/٢، وابن عادل في اللباب، ٦/ ٦٠٢.

إذا حبَستَه، أو يرادَ بـ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الجنس ليكون المقصور بعضًا منها، وهي الرُّباعيّات، أي: فليس عليكم جُناح في أن تقصُروا بعضَ الصلاة بتنصيفها.

وقُرئ: "تُقْصِرُوا"[1] مِن الإقصار، و"تُقَصِّرُوا"[2] مِن التقصير، والكلّ بمعنًى.

وأدنى مدّة السفر الذي يتعلّق به القَصر عند أبِي حنيفةَ رحمه الله مَسيرةُ ثلاثةِ أيّامٍ ولَياليها بسَيْر الإبل ومَشْيِ الأقدام بالاقتصاد، وعند الشافعي رحمه الله مَسيرة يومين.

وظاهرُ الآية الكريمة التخيير وأفضليّةُ الإتمام؛[3] وبه تعلّق الشافعي رحمه الله، وبما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه أتَمَّ في السفر،[4] وعن عائشةَ رضي الله عنها أنّها أتمَّتْ تارةً، وقصَرتْ أخرى،[5] وعن عثمانَ رضي الله عنه أنّه كان يُتمّ ويقصُر.[6]

وعندنا يجب القَصر لا محالةَ؛ خَلَا أنّ بعض مشايخنا سمّاه "عزيمةً"، وبعضَهم "رُخصةَ إسقاطٍ" بحيث لا مَساغَ للإتمام، لا رُخصةَ ترفيهٍ؛ إذ لا معنى للتخيير بين الأخفّ والأثقل، وهو قول عمرَ وعليّ وابن عبّاس رضي الله عنهما[7] وابنِ عمرَ وجابر رضوان الله تعالى عليهم، وبه قال الحسن وعمر بن عبد العزيز وقتادة، وهو قول مالك.

وقد رُوي عن عمرَ رضي الله عنه: «صلاة السَّفَر ركعتان، تمامٌ غيرُ قَصر على لسان نبيّكم عليه السلام»،[8] وعن أنس: «خرجنا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضَّبّي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٢.

[3] س + به.

[4] قال الشافعي في اختلاف الحديث، ٦٠٢/٨: «فدلّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أنّ القَصر في السفر بلا خوف صدقةٌ مِن الله، والصدقة رخصة لا حتم مِن الله أنْ يقصُروا، ودلّت على أنْ يقصُر في السفر بلا خوف إنْ شاء المسافِر، وإنّ عائشة قالت: "كلُّ ذلك قد فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أتمّ في السفر وقصَرَ"».

[5] سنن الترمذي، ٤٢٨/٢ (٥٤٤)؛ سنن النسائي، ١٢٢/٣ (١٤٥٦)؛ مصنَّف ابن أبي شيبة، ٢٠٦/٢ (٨١٨٧).

[6] صحيح البخاري، ٤٢/٢ (١٠٨٢)؛ صحيح مسلم، ٤٨٢/١ (٦٩٤).

[7] م – رضي الله عنهما.

[8] مسند أحمد، ٣٦٧/١ (٢٥٦)؛ سنن ابن ماجة، ١٧٣/٢ (١٦٠٣)؛ سنن النسائي، ١١١/٣ (١٤٢٠).

مِن المدينة إلى مكّةَ، فكان يُصلّي ركعتين ركعتين حتّى رجعنا إلى المدينة»،[١] وعن عِمرانَ بنِ حُصين رضي الله عنه: «ما رأيتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يُصلّي في السفر إلّا ركعتين، وصلّى بمكّةَ / ركعتين، ثمّ قال: «أَتِمّوا؛ فإنّا قومٌ سَفْرٌ»»،[٢] وحينَ سمع ابن مسعود أنّ عثمانَ رضي الله عنهما صلّى بمِنًى أربعَ ركَعاتٍ استرجع، ثمّ قال: «صَلّيتُ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمِنًى ركعتين، وصَلّيتُ مع أبي بكر رضي الله عنه[٣] بمِنًى ركعتين، وصَلّيتُ مع عمرَ رضي الله عنه[٤] بمِنًى ركعتين؛ فليتَ حظّي مِن أربع ركَعات ركعتان متقبَّلتان»،[٥] وقد اعتذر عثمانُ رضي الله عنه عن إتمامه بأنّه تأهَّلَ بمكّةَ، وعن الزهري أنّه[٦] إنّما أتمَّ؛ لأنّه أزمَعَ[٧] الإقامةَ بمكّةَ،[٨] وعن عائشةَ رضي الله عنها: «أوّل ما فُرضت الصلاة فُرضتْ ركعتين ركعتين؛ فأُقِرّت في السفر، وزِيدَت في الحَضَر»،[٩] وفي صحيح البخاري أنّها قالت: «فرض الله الصلاةَ حينَ فرضها ركعتين ركعتين في الحَضَر والسفر؛ فأُقِرت صلاة السفر، وزِيدَ في صلاة الحَضَر».[١٠] وأمّا ما رُوي عنها مِن الإتمام فقد اعتذرتْ عنه، وقالت: «أنَا أمّ المؤمنين؛ فحيث حلَلتُ فهي دَارِي».[١١] [٧٤ظ]

وإنّما وَرَدَ ذلك بنفي الجُناح لِما أنّهم ألِفوا الإتمامَ، فكانوا مَظنّةَ أن يخطُر ببالهم أنّ عليهم نقصانًا في القَصر، فصُرّح بنفي الجُناح عنهم ليَطِيبَ به نفوسهم ويطمئنّوا إليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ

---

[١] صحيح البخاري، ٤٢/٢ (١٠٨١)؛ صحيح مسلم، ٤٨١/١ (٦٩٣).

[٢] مسند أحمد، ١١٠/٣٣ (١٩٨٧٨)؛ سنن أبي داود، ٤١٧/٢-٤١٨ (١٢٢٨).

[٣] م - رضي الله عنه.

[٤] م - رضي الله عنه.

[٥] صحيح البخاري، ٤٣/٢ (١٠٨٤)؛ صحيح مسلم، ٤٨٣/١ (٦٩٥).

[٦] الضمير يرجع إلى عثمان رضي الله عنه.

[٧] أزمَعَ على أمر، فهو مُزمِع عليه، إذا ثبّت عليه عزمَه وعزم عليه. الصحاح للجوهري، «زمع».

[٨] مستخرج أبي عوانة، ٣٣١/٦ (٢٣٩٨)؛ تأويلات القرآن للماتريدي، ١٠/٤.

[٩] صحيح البخاري، ٤٤/٢ (١٠٩٠)؛ صحيح مسلم، ٤٧٨/١ (٦٨٥). وفيه: «قال الزهري: فقلتُ لعُروةَ: ما بال عائشةَ تُتِمّ؟ قال: تأوّلتْ ما تأوّل عثمان».

[١٠] صحيح البخاري، ٧٩/١ (٣٥٠).

[١١] لم نقف عليه إلّا في المصادر الفقهيّة: شرح مختصر الطحاوي للجصّاص، ٩٦/٢-٩٧؛ التجريد للقدوري، ٨٧٨/٢. وفي الأخير "فأين" بدل "فحيث".

أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة، ١٥٨/٢]، مع أنّ ذلك الطواف واجب عندنا، رُكْن عند الشافعي رحمه الله.[١]

وقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ جوابه محذوف لدلالة ما قبله عليه، أي: إن خِفتم أن يتعرّضوا لكم بما تكرَهونه مِن القتال وغيره، فليس عليكم جناح... إلخ. وهو شرط معتبَر في شرعيّةِ ما يذكَر بعده مِن صلاة الخوف المُؤدّاة بالجماعة. وأمّا في حقّ مطلَق القَصر، فلا اعتبارَ له اتّفاقًا لتظاهر السُّنن على مشروعيّته[٢] حسبما وقفتَ على تفاصيلها. وقد ذكر الطحاوي[٣] في **شرح الآثار** مسندًا إلى يعلى بن أُميّةَ[٤] أنّه قال: قلتُ لعمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه: «إنّما قال الله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وقد أمِن الناسُ؟»، فقال عمرُ رضي الله عنه: «عجِبتُ ممّا عجِبتَ منه، فسألتُ رسول الله / صلّى الله عليه وسلّم، قال: صَدَقةٌ تصدَّقَ الله بها عليكم، فاقبَلوا صَدقته». [٧٥و]
[٥] وفيه دليل على عدم جواز الإكمال؛ لأنّ التصدّق بما لا يحتمل التمليكَ إسقاطٌ محضٌ لا يحتمل الردَّ، كما حُقّق في موضعه.

---

١ م - رحمه الله.

٢ ط س: مشروعيّتها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٣ هو أحمد بن محمّد بن سلامة الأزْدي الحَجْري المصري، أبو جعفر الطحاوي (ت. ٣٢١هـ/٩٣٣م). الفقيه الحنفي، المحدّث. كان ثقةً ثبتًا نبيلًا، انتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة في زمنه. صحب المُزَني الشافعي وتفقّهَ به، ثمّ ترك مذهبه وصار حنفيَّ المذهب. ونسبته إلى طَحا، وهي قرية بصعيد مصر، وإلى الأزْد، وهي قبيلة مشهورة مِن قبائل اليمن، والحَجْر، وهي بطن منهم. وصنّف كتبًا كثيرةً، منها: **العقيدة الطحاويّة، وأحكام القرآن، ومعاني الآثار، ومشكل الآثار، وشرح مشكل الآثار، والمختصر في الفقه، واختلاف العلماء، والشروط**. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خلّكان، ٧١/١-٧٢؛ **والجواهر المُضيّة** لعبد القادر القرشي، ١٠٢/١-١٠٥.

٤ هو في مطبوع **شرح مشكل الآثار**، ٣٣٤/٤ (١٦٤٦): يعلى بن مُنْية. وهو كما أثبته المصنّف في **صحيح مسلم**، ٤٧٨/١ (٦٨٦). وقال ابن حجر في **تهذيب التهذيب**، ٣٩٩/١١: «وهو يعلى بن مُنْية، وهي أمّه، ويقال: جدّته». | وهو يعلى بن أميّة بن أبي عبيدة بن هَمّام التميمي الحنظلي، أبو خالد (ت. ٦٠هـ/٦٧٩-٦٨٠م [؟]). صحابيّ. كان مِن الأغنياء الأسخياء مِن سكّان مكّة. وكان حليفًا لقريش. وأسلم بعد فتح مكّة. وشهد الطائف وحنينًا وتبوكَ مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. واستعمله أبو بكر على حلوان في الردّة، ثمّ استعمله عمر على نجران، واستعمله عثمان على اليمن، فأقام بصنعاء. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٠٠/٣-١٠١؛ **والأعلام** للزركلي، ٢٠٤/٨.

٥ **شرح مشكل الآثار** للطحاوي، ٣٣٤/٤ (١٦٤٦).

ولا يُتوهّمنَّ أنّه مخالِف للكتاب؛ لأنّ التقييد بالشرط عندنا إنّما يدلّ على ثبوت الحكم عند وجود الشرط، وأمّا عدمه عند عدمه، فساكتٌ عنه؛ فإن وُجِد له دليل ثبت عنده أيضًا، وإلّا يبقى على حاله لعدم تحقّق دليله، لا لتحقّق دليل عدمه، ونَاهِيك ما سمعتَ مِن الأدلّة الواضحة. وأمّا عند القائلين بالمفهوم، فلأنّه إنّما يدلّ على نفي الحكم عند عدم الشرط إذا لم يكن له فائدة أخرى، وقد خرج الشرط ههنا مَخرجَ الأغلب كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور، ٢٤/٣٣].

بل نقول: إنّ الآية الكريمة مجمَلة في حقّ مقدار القَصر وكيفيّته، وفي حقّ ما يتعلّق به مِن الصَّلَوات، وفي مقدار مدّة الضرب الذي نِيطَ به القَصر؛ فكلّ ما وَرَدَ منه صلّى الله عليه وسلّم مِن القَصر في حال الأمن وتخصيصِه بالرُباعيّات على وجه التنصيف وبالضرب في المدّة المعيّنة بيانٌ لإجمال الكتاب.

وقد قيل: إنّ قوله تعالى: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾... إلخ متعلِّق بما بعده مِن صلاة الخوف، منفصِلٌ عمّا قبله؛ فإنّه رُوي عن أبي أيّوبَ الأنصاري رضي الله عنه أنّه قال: «نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ثمّ سألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد حَوْلٍ، فنزل: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾... إلخ»،[١] أي: إن خِفتم أن يَفتنكم الذين كفروا، فليس عليكم جُناح... إلخ. وقد قُرِئ: "مِنَ الصَّلَاةِ أَنْ يَفْتِنَكُمْ"[٢] بغير ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ﴾، على أنّه مفعول له لِما دلّ عليه الكلام،[٣] كأنّه قيل: شرع لكم ذلك كراهةَ أن يَفتنكم... إلخ؛ فإنّ استمرار الاشتغال بالصلاة مَظنّة لاقتدارهم على إيقاع الفتنة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ تعليل لذلك باعتبار تعلّله بما ذُكر، أو لِما يُفهَم مِن الكلام مِن كون فتنتهم متوقَّعةً؛ فإنّ كمال عداوتهم للمؤمنين مِن موجِبات التعرّض لهم بسُوء.

---

[١] اللباب لابن عادل، ٦/٦٠٧. وهو في جامع البيان للطبري، ٧/٤٠٦-٤٠٧، إلّا أنّ أبا أيّوبَ رواه عن عليّ رضي الله عنهما.

[٢] قراءة شاذّة، ذكرها الطبري في جامع البيان، ٧/٤٠٨، ونسبها إلى أُبيّ بن كعب.

[٣] وفي هامش م: لا لـ﴿أَن تَقۡصُرُواْ﴾، فتدبّر. «منه».

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ بيان لِما قبله مِن النصّ المجمَل الواردِ في مشروعيّة القَصر بطريق التفريع، وتصوير لكيفيّته عند الضرورة التامّة. وتخصيص البيان بهذه الصورة -مع الاكتفاء فيما عداها بالبيان بطريق السنّة- لمزيد حاجتها إليه لِما فيها مِن كثرة التغيير عن الهيئة الأصليّة. ومِن ههنا ظهر لك أنّ مَورِد النصّ الشريف / هي المقصورة، وحُكم ما عداها مستفاد [٧٥ظ] مِن حكمها.

والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطريق التجريد، وبظاهره يتعلّق مَن لا يرى صلاة الخوف بعده صلّى الله عليه وسلّم. ولا يخفى أنّ الأئمّة بعده نُوّابه عليه السلام قُوّام بما كان يقوم به، فيتناولهم حكمُ الخطاب الوارد له عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة، ١٠٣/٩].

وقد رُوي أنّ سعيد بنَ العاص[١] لمّا أراد أن يُصلّي بطَبَرسْتانَ صلاةَ الخوف قال: «مَن شهِد منكم صلاة الخوف مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟» فقام حذيفة بن اليَمان،[٢] فوصف له ذلك، فصلّى بهم كما وصف،[٣] وكان ذلك بحضرة الصحابة رضي الله تعالى عنهم، فلم يُنكره أحد، فحَلَّ مَحلَّ الإجماع.

---

[١] هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أميّة (ت. ٥٩هـ/٦٧٩م). صحابيّ. كان أحدَ أشراف قريش ممّن جمع السخاء والفصاحة. وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان رضي الله عنه، استعمله عثمان على الكوفة. وغزا بالناس طبرستان، فافتتحها. وقُتل أبوه العاص بن سعيد بن العاص يومَ بدر كافرًا. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٠/٥-٣٥؛ والاستيعاب للنّمري، ٦٢١/٢-٦٢٤.

[٢] سبقت ترجمته.

[٣] مسند أحمد، ٤٠١/٣٨ (٢٣٣٨٩)؛ سنن أبي داود، ٤٣٢/٢ (١٢٤٦)؛ سنن النسائي، ١٦٧/٣ (١٥٢٩).

ورُوي في السُّنَن أنّهم غزَوْا مع عبد الرحمن بنِ سَمُرةَ[١] كَابُلَ، فصلّى بهم صلاة الخوف.[٢]

﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أردتَ أن تُقيم بهم الصلاة، ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ بعد أن جعلتَهم طائفتين، ولتقفْ الطائفة الأخرى بإزاء العدوّ ليحرِسوكم منهم. وإنّما لم يصرّح به لظهوره. ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟﴾ أي: الطائفة القائمة معك ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: لا يضعوها، ولا يُلقوها. وإنّما عبّر عن ذلك بالأخذ للإيذان بالاعتناء باستصحابها، كأنّهم يأخذونها ابتداءً.

﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ أي: القائمون معك، وأتَمّوا الركعة، ﴿فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي: فلينصرفوا إلى مقابلة العدوّ للحِراسة، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟﴾ بعدُ، وهي الطائفة الواقفة تُجَاهَ العدوّ للحِراسة. وإنّما لم تعرَّف لِما أنّها لم تذكَر فيما قبلُ. ﴿فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ الركعة الباقيةَ.

ولم يبيَّن في الآية الكريمة حال الركعة الباقية لكلّ مِن الطائفتين، وقد بُيّن ذلك بالسنّة؛ حيث رُوي عن ابن عمرَ[٣] وابن مسعود رضي الله عنهما[٤] أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم حين صلّى صلاة الخوف صلّى بالطائفة الأولى ركعةً، وبالطائفة الأخرى ركعةً كما في الآية الكريمة، ثمّ جاءت الطائفة الأولى، وذهبت هذه إلى مقابلة العدوّ، حتّى قضت الأولى الركعة الأخيرةَ بلا قراءة، وسلّموا، ثمّ جاءت الطائفة الأخرى، وقضَوا الركعةَ الأولى بقراءة، حتّى صار لكلّ طائفة ركعتان.[٥]

---

[١] هو عبد الرحمن بن سَمُرة بن حَبيب القُرَشي، أبو سعيد (ت. ٥٠هـ/٦٧٠م). صحابيّ. أسلم يوم فتح مكّة، وكان اسمه "عبد الكعبة"، فسمّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "عبد الرحمن"، وصحب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وروى عنه. غزَا خراسان في زمن عثمان، وهو الذي افتتح سجستان وكابل. روى عنه الحسن وابن سِيرين وعمّار بن أبي عمّار مولى بني هاشم وسعيد بن المسيّب، وغيرهم. انظر: **الاستيعاب** للنّمري، ٨٣٥/٢؛ **وأسد الغابة** لابن الأثير، ٤٥٠/٣-٤٥١.

[٢] **مسند أحمد**، ٣٤-٢٢٤-٢٢٥ (٢٠٦١٩)؛ **سنن أبي داود**، ٤٣٢/٢ (١٢٤٥)؛ **السنن الكبرى** للبيهقي، ٣٥٨/٣ (٦٠٠٧).

[٣] س + رضي الله عنه.

[٤] س - رضي الله عنهما.

[٥] حديث ابن عمر في **صحيح البخاري**، ١٤/٢ (٩٤٢)؛ **وصحيح مسلم**، ٥٧٤/١ (٨٣٩). وحديث ابن مسعود في **مسند أحمد**، ٢٦/٦ (٣٦٦١)؛ **وسنن أبي داود**، ٤٣١/٢ (١٢٤٤).

﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ أي: هذه الطائفة ﴿حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾. لعلّ زيادةَ الأمر بالحِذْر في هذه المرّة لكونها مَظنّةً لوقوف الكَفَرة على كون الطائفة القائمة مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في شُغلٍ شاغلٍ، وأمّا قبلها فربّما يظنّونهم قائمين للحراب. وتكليف كلٍّ مِن الطائفتين بما ذُكر لِما أنّ الاشتغال بالصلاة مَظنّة لإلقاء السلاح والإعراضِ عن غيرها، ومَئِنّةٌ لهجوم العدوّ، كما ينطِق به قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ فإنّه استئناف مَسوق لتعليل / الأمر المذكور، والخطاب للفريقين بطريق الالتفات، [٧٦و] أي: تمنَّوْا أن ينالوا منكم غِرّةً، وينتهزوا فُرصةً، فيشدّوا عليكم شدّةً واحدةً. والمراد بـ"الأمتِعة" ما يُتمتّع به في الحرب، لا مطلَقًا.

وهذا الأمر للوجوب لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ حيث رخّص لهم في وضعها إذا ثقُل عليهم استصحابها بسبب مطر أو مرض؛ وأُمروا مع ذلك بالتيقّظ والاحتياط، فقيل: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ لِئلّا يهجُمَ العدوّ عليكم غِيلةً.

رَوى الكلبي عن أبي صالح أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غزا مُحارِبًا[١] وبني أنمارٍ، فنزلوا ولا يرَوْن مِن العدوّ أحدًا، فوضع الناس أسلحتهم، وخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لحاجة له، وقد وضع سلاحَه حتّى قطع الواديَ والسماءُ ترُشّ، فحَالَ الوادي بينه عليه السلام وبين أصحابه، فجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فبصُر به غَوْرَث بنُ الحارث المُحارِبي، فقال: «قتلني الله إن لم أقتلك»، ثمّ انحدر مِن الجبل ومعه السيف، فلم يشعر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلّا وهو قائم على رأسه وقد سَلَّ سيفَه مِن غِمْده، فقال: «يا محمّدُ، مَن يَعصِمك منّي الآنَ؟» فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «اللهُ عزّ وجلّ»، ثمّ قال: «اللّهمّ اكفِنِي غَوْرَث بنَ الحارث بما شِئتَ»، ثمّ أهوَى بالسيف إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليضربه، فأكبَّ لوجهه مِن زَلْخة

---

[١] يعني: بني محارب بن فِهر مِن قبائل قريش.

زُلِخَها[١] بين كَتِفَيه، فبدَرَ سيفَه، فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخذه، ثمّ قال: «يا غَوْرَثُ، مَن يمنعك منّي الآنَ؟»، قال:[٢] «لا أحدَ»، قال عليه السلام: «تشهَد أن لا إلٰه إلّا الله وأنّ محمّدًا عبده ورسوله، وأُعطيك سيفك؟»، قال: «لا؛ ولكنْ أشهد أن لا أُقاتلَك أبدًا، ولا أُعينَ عليك عدوًّا»، فأعطاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سيفه، فقال غَوْرَثُ: «واللهِ، لَأنت خير منّي»، فقال[٣] صلّى الله عليه وسلّم: «أنا أحقّ بذلك منك»، فرجع غَوْرَثُ إلى أصحابه، فقصّ عليهم قِصّته، فآمن بعضهم. قال: «وسكن الواديَ، فقطَع عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى أصحابه، وأخبرهم بالخبر».[٤]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ تعليل للأمر بأخذ الحِذر، أي: أعَدَّ لهم عذابًا مُهينًا / بأنْ يخذُلهم وينصرَكم عليهم؛ فاهتمّوا بأموركم، ولا تُهملوا في مباشرة الأسباب كَيْ يحلَّ بهم عذابُه بأيديكم. وقيل: لمّا كان الأمر بالحِذر مِن العدوّ مُوهِمًا لتوقّع غَلَبته واعتزازِه، نُفي ذلك الإيهام بأنّ الله تعالى ينصرهم ويُهين عدوَّهم لتقوى قلوبهم. [٧٦ظ]

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ صلاةَ الخوف، أي: أدَّيتموها على الوجه المبيَّن وفرغتم منها، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: فداوِموا على ذكره تعالى، وحافِظوا على مراقبته ومناجاته ودعائه في جميع الأحوال، حتّى في حال المسايفة

---

١ وفي هامش م: زلَخه بالرُّمح يَزلِخه: زجّه، أي: رماه أو ضربه بزُجّه، فالمعنى فأكبّ غَورثُ على وجهه مِن ضربة ضُربها، أي: ضُرب غَورثُ تلك الضربة بين كتِفَيه، بتجريد الضرب عن كبته بالزُّج. وفي القاموس [للفيروزآبادي، «غرث»]: «فرماه الله تعالى بزُلْخة بين كتِفَيْه»، وهو وَجَع يأخذ في الظَّهر فيَجسُو ويغلُظ حتّى لا يتحرّكَ معه. وفي نهاية ابن الأثير [٣٠٨/٢ «زلخ»]: «يُقال: رمى الله فلانًا بزُلْخة -بضَم الزاء وتشديدِ اللام وفتحِها- وهو وَجَع يأخذ في الظَّهر لا يتحرّك الإنسان مِن شدّته، ويُروى بتخفيف اللام». «منه».

٢ س: فقال.

٣ ط س + رسول الله.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٨/٣؛ اللباب لابن عادل، ٦١٢/٦.

والقتال كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال، ٨/٤٥].

﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ سكنت قلوبكم مِن الخوف، وأمِنتم بعدما وضعت الحربُ[1] أوزارَها، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: الصلاةَ التي دخل وقتها حينئذ، أي: أَدُّوها بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها. وقيل: المراد بـ"الذِّكر" في الأحوال الثلاثة الصلاة فيها، أي: فإذا أردتم أداء الصلاة، فصَلُّوا قيامًا عند المسايفة، وقُعودًا جاثينَ على الرُّكَب عند المراماة، وعلى جُنوبكم مُثخَنين بالجِراح؛[2] فإذا اطمأننتم في الجملة، فاقضُوا ما صلّيتم في تلك الأحوال التي هي أحوال القَلَق والانزعاج، وهو رأي الشافعي رحمه الله، وفيه مِن البُعد ما لا يخفى.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: فرضًا مُوَقَّتًا، قال مجاهد: «وقّته الله تعالى[3] عليهم»،[4] فلا بدّ مِن إقامتها في حالة الخوف أيضًا على الوجه المشروح؛ وقيل: مفروضًا مقدَّرًا في الحَضَر أربعَ ركَعاتٍ، وفي السفر ركعتين، فلا بدّ أن تؤدَّى في كلّ وقت حسبما قُدِّر فيه.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: لا تضعُفوا، ولا تتوَانَوْا[5] في طلب الكُفّار بالقتال والتعرّض لهم بالحِراب.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ تعليل للنهي وتشجيع لهم، أي: ليس ما تُقاسونه مِن الآلام مختصًّا بكم؛ بل هو مشترَك بينكم وبينهم؛ ثمّ إنّهم يصبرون على ذلك، فما لكم

---

١ س: الحراب.

٢ أثخَنَ في العَدُوّ: بالغ الجِراحة فيهم، وفلانًا: أوْهَنَهُ. و﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ [محمد، ٤٧/٤]، أي: غلَبتموهم، وكثُر فيهم الجِراحُ. القاموس المحيط للفيروزآبادي، «ثخن».

٣ م - تعالى.

٤ معالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٨٢؛ اللباب لابن عادل، ٦/٦١٤.

٥ تَوَانَى في الأمر: قصّر فيه. الصحاح للجوهري، «ونى».

لا تصبرون مع أنكم أَولى به منهم؛ حيث تَرجُون مِن الله مِن إظهار دينكم على سائر الأديان ومِن الثواب في الآخرة ما لا يخطُر ببالهم. وقُرئ: "أَنْ تَكُونُوا"[1] بفتح الهمزة، أي: لا تَهِنوا لِأنْ تكونوا تألَمون. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ تعليل للنهي عن الوهن لأجله. والآية نزلت في بدر الصُّغرى.[2]

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالِغًا في العلم، فيعلم أعمالكم / وضمائركم. ﴿حَكِيمًا﴾ [٧٧و] فيما يأمر ويَنهى؛ فجِدُّوا في الامتثال بذلك، فإنّ فيه عواقبَ حميدةً.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ رُوي أنّ رجلًا مِن الأنصار -يقال له: طِعمة بن أُبَيرِقَ،[3] مِن بني ظَفَر- سرَق دِرعًا مِن جاره قتادة بنِ النعمان[4] في جِرابِ دقيقٍ، فجعل الدقيق ينتثر مِن خَرقٍ فيه، فخبأها عند زيد بن السَّمين اليهودي، فالتُمِست الدِّرع عند طِعمةَ، فلم توجد، وحلَف ما أخذها وما له بها علم، فتركوه واتّبعوا أثر الدقيق حتّى انتهى إلى منزل اليهودي، فأخذوها فقال: «دفعها إليّ طِعمةُ»، وشهد له ناس مِن اليهود، فقالت بنو ظَفَر: «انطلِقوا بنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم»، فسألوه أن يجادِل عن صاحبهم، وشهدوا ببراءته وسَرِقة اليهودي، فهمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يفعل، فنزلت.[5]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الرحمن الأعرج. **المحتسَب** لابن جنّي، ١٩٧/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٤٢.

[2] انظر: **تفسير مقاتل بن سليمان**، ٣١٥/١؛ و**جامع البيان** للطبري، ٤٥٥/٧؛ و**أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٩٥/٢.

[3] هو طِعمة بن أُبَيرِق بن عمرو بن حارثة بن ظفر بن الخزرج بن عمرو. صحابيّ. شهد المشاهد كلّها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلّا بدرًا. وقيل: أبو طعمة: بشير بن أُبَيرِق الأنصاري. **أسد الغابة** لابن الأثير، ٧٣/٣؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٣٩٧/٥.

[4] هو قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر الظَّفَري الأنصاري، أبو عمرو، وقيل: أبو عمر، وقيل: أبو عبد الله (ت. ٢٣هـ/٦٤٣م). صحابيّ. شهد العقبة وبدرًا وأُحدًا والمشاهد كلّها مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وأُصيبت عينه يومَ بدر، وقيل: يومَ أحد، وقيل: يومَ الخندق. وكان قتادة مِن فضلاء الصحابة، وكانت معه راية بني ظَفَر يوم الفتح. انظر: **الاستيعاب** للنَّمري، ١٢٧٤/٣-١٢٧٧؛ و**أسد الغابة** لابن الأثير، ٣٧٠/٤-٣٧٢.

[5] هو باختلاف يسير في **جامع البيان** للطبري، ٤٦٢/٧-٤٦٣؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ١٨٣. ونحوه مفصّلًا في **سنن الترمذي**، ٢٤٤/٥-٢٤٧ (٣٠٣٦).

ورُوي أنّ طِعمةَ هرب إلى مكّةَ، وارتدَّ، ونقَب حائطًا بمكّةَ ليسرِق أهلَه، فسقط الحائط عليه، فقتله.[١] وقيل: نزل على رجل مِن بني سُليم مِن أهل مكّةَ -يقال له: الحجّاج بن علاط- فنقَب بيتَه، فسقط عليه حَجَر، فلم يستطع الدخول ولا الخروجَ، فأخذ ليقتل، فقيل: «دَعْه؛ فإنّه قد لجأ إليك»، فتركه، وأخرجوه مِن مكّةَ، فالتحق بتُجّار مِن قضاعةَ نحوَ الشام، فنزلوا منزلًا، فسرَق بعضَ متاعهم، وهرب، فأخذوه ورمَوه[٢] بالحجارة حتّى قتلوه.[٣] وقيل: إنّه ركِب سفينةً إلى جُدّة،[٤] فسرَق فيها كِيسًا فيه دنانيرُ، فأُخذ وأُلقي في البحر.[٥]

﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: بما عرّفك وأوحَى به إليك.

﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ﴾ أي: لأجلهم والذَّبّ عنهم. وهم[٦] طِعمة ومَن يُعينه مِن قومه، أو هو ومَن يَسير بسِيرته. ﴿خَصِيمٗا﴾ مخاصِمًا لِلبُرَآء، أي: لا تخاصِم اليهودَ لأجلهم. والنهي معطوف على أمر ينسحب عليه النظم الكريم، كأنّه قيل: فاحكمْ به، ولا تكنْ... إلخ.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ ممّا همَمْتَ به تعويلًا على شهادتهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ مبالِغًا في المغفرة والرحمة لمَن يستغفره.

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: يخُونونها بالمعصية، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة، ١٨٧/٢]. جُعلت معصية العُصاة خِيانةً منهم لأنفسهم -كما جُعلت ظلمًا لها- لرجوع ضَرَرها إليهم.

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٦٤/٧-٤٦٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٢.

٢ س: ورموا.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٨٥/٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٧/٢.

٤ الجُدّة: ساحل البحر بحذاء مكّة. تهذيب اللغة للأزهري، ٢٤٧/١٠ «باب الجيم والدال».

٥ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٧/٢؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦٦/٤؛ اللباب لابن عادل، ١٧/٧-١٨.

٦ س: وهي.

والمراد بالموصول إمّا طِعمة وأمثاله، وإمّا هو ومَن عاوَنه وشهد ببراءته مِن قومه؛ فإنّهم شُرَكاءُ له في الإثم والخيانة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ مفرِطًا في الخيانة مُصرًّا عليها. ﴿أَثِيمًا﴾ منهمِكًا فيه. وتعليق عدم المَحبّة الذي هو كناية عن البُغض والسُّخط بالمبالِغ في الخيانة والإثمِ / ليس لتخصيصه به؛ بل لبيان إفراط طِعمةَ وقومه فيهما. [٧٧ظ]

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يستترون منهم حياءً وخوفًا مِن ضررهم. ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يستحيُون منه سبحانه، وهو أحقُّ بأنْ يُستحيا منه ويُخافَ مِن عقابه. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ عالمٌ بهم وبأحوالهم، فلا طريقَ إلى الاستخفاء منه سِوى تركِ ما يستقبحه ويؤاخِذ به. ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبِّرون ويزوِّرون ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ مِن رَمي البريء والحِلْف الكاذب وشهادةِ الزُّور. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مِن الأعمال الظاهرة والخافية ﴿مُحِيطًا﴾ لا يعزُب عنه شيء منها ولا يفوت.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إليهم بطريق الالتفات، إيذانًا بأنّ تعديد جناياتهم يوجِب مشافهتهم بالتوبيخ والتقريع. والجملة مبتدأ وخبر، وقوله تعالى: ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ جملة مبيِّنة لوقوع "أُولَاءِ" خبرًا. ويجوز أن يكون "أُولَاءِ" اسمًا موصولًا بمعنى "الذين"، و﴿جَٰدَلْتُمْ﴾... إلخ صلةً له.

والمجادلة أشدُّ المخاصمة، والمعنى: هَبُوا أنكم خاصمتم عن طِعمةَ وأمثاله في الدنيا، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فمَن يخاصِم عنهم يومئذ عند تعذيبهم وعقابهم، ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حافظًا ومحامِيًا مِن بأس الله تعالى وانتقامه.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا﴾ قبيحًا، ليَسُوءَ به غيرَه كما فعل طِعمة بقتادةَ واليهودي،[1] ﴿أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ بما يختصّ به كالحِلف الكاذب. وقيل: السُّوء ما دون الشرك، والظلم الشرك. وقيل: هما الصغيرة والكبيرة. ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ بالتوبة الصادقة، ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا﴾ لذنوبه كائنةً ما كانت، ﴿رَّحِيمٗا﴾ متفضِّلًا عليه. وفيه مزيدُ ترغيب لطِعمةَ وقومِه في التوبة والاستغفار لِما أنّ مشاهدة التائب لآثار المغفرة والرحمة نعمة زائدة كما مرّ.[2]

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١﴾

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا﴾ مِن الآثام، ﴿فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ بحيث لا يتعدّى ضرره ووبالُه إلى غيره؛ فليحترزْ عن تعريضها للعقاب والعذاب عاجلًا وآجلًا. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالِغًا في العِلم ﴿حَكِيمٗا﴾ مراعِيًا للحكمة في كلّ ما قدّر وقضى؛ ولذلك لا يحمِّل وازرةٌ وِزْرَ أخرى.

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢﴾

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً﴾ صغيرةً / أو ما لا عَمْدَ فيه مِن الذنوب. وقُرئ: "وَمَنْ يَكِسِّبْ"[3] بكسر الكاف وتشديدِ السين، وأصله: "يَكتَسِبْ". ﴿أَوۡ إِثۡمٗا﴾ كبيرةً أو ما كان عن عَمْد. ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ﴾ أي: يَقذِفْ به ويُسنِدْه. وتوحيد الضمير -مع تعدّد المَرجِع- لمكان ﴿أَوۡ﴾، وتذكيره لتغليب الإثم على الخطيئة، كأنّه قيل: ثمّ يرمِ بأحدهما. وقُرئ: "يَرْمِ بِهِمَا".[4] وقيل: الضمير للكسب المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿يَكۡسِبۡ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة. ﴿بَرِيٓـٔٗا﴾ أي: ممّا رماه به ليحمِّلَه عقوبته العاجلةَ كما فعل طِعمة بزيد.[5] [٧٨و]

---

١ انظر: تفسير النساء، ١٠٥/٤.

٢ وفي هامش م: في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء، ٦٤/٤]. «منه».

٣ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٤/١، ونسبها إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه.

٤ لم نقف عليها في كتب القراءات والتفسير.

٥ انظر: تفسير النساء، ١٠٥/٤.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾ أي: بما فعل مِن تحميل جريرته على البريء ﴿بُهْتَٰنًا﴾ وهو الكَذِب على الغير بما يُبهَت منه ويتحيّر عند سَماعه لفظاعته وهَوله. وقيل: هو الكَذِب الذي يُتحيّر في عِظمه. ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: بيّنًا فاحشًا، وهو صفة لـ﴿إِثْمًا﴾. وقد اكتُفي في بيان عِظم البُهتان بالتنكير التفخيميّ، كأنّه قيل: بُهتانًا لا يقادَر قدره وإثمًا مبينًا، على أنّ وصف "الإثم" بما ذُكر بمنزلة وصف "البُهتان" به؛ لأنّهما عبارة عن أمر واحد هو: رمي البريء بجناية نفسه. قد عُبّر عنه بهما تهويلًا لأمره وتفظيعًا لحاله.

فمدار العِظم والفخامة كون المَرميّ به للرامي؛ فإنّ رمي البريء بجناية ما -خطيئةً كانت أو إثمًا- بُهتان وإثم في نفسه؛ أمّا كونه بُهتانًا فظاهرٌ، وأمّا كونه إثمًا، فلأنّ كون الذّنب بالنسبة إلى مَن فعله خطيئةً لا يَلزَم منه كونُه بالنسبة إلى مَن نسَبه إلى البريء منه أيضًا كذلك؛ بل لا يجوز ذلك قطعًا. كيف لا، وهو كَذِب محرَّم في جميع الأديان، فهو في نفسه بُهتان وإثم لا محالةَ.

ويكون تلك الجناية للرامي يتضاعف ذلك شدّةً ويزداد قُبحًا؛ لكنْ لا لانضمام جنايته المكسوبة إلى رمي البريء -وإلّا لَكان الرَّمي بغير جناية مثلَه في العِظم- ولا لمجرَّد اشتماله على تبرئة نفسه الخاطئة -وإلّا لَكان الرَّمي بغير جنايته مع تبرئة نفسه كذلك في العِظم- بل لاشتماله على قصد تحميل جنايته على البريء وإجراء عقوبتها عليه، كما يُنبئ عنه إيثار "الاحتمال" على "الاكتساب" ونحوه، لِما فيه مِن الإيذان بانعكاس تقديره، مع ما فيه مِن الإشعار بثِقل الوِزر وصعوبة الأمر. نعم، بما ذُكر مِن انضمام كسبه وتبرئة نفسه إلى رمي البريء يزداد الجناية قُبحًا؛ لكنّ تلك الزيادةَ وصفٌ للمجموع، لا للإثم.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ / بإعلامك ما هم عليه بالوحي وتنبيهك [٧٨ظ]
على الحقّ، وقيل: بالنبوّة والعصمة. ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: مِن بني ظَفَر،

وهم الذابّون عن طِعمةَ. وقد جُوّز أن يكون المراد بـ"الطائفة" كلَّهم، ويكون الضمير راجعًا إلى الناس. وقيل: هم وفدُ بني ثَقيف، قدِموا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم وقالوا: «جئناك لنُبايِعَك على أن لا تَكسِر أصنامَنا ولا تعشِّرَنا»، فردَّهم صلّى الله عليه وسلّم.[١]

﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ أي: بأنْ يُضلّوك عن القضاء بالحقّ مع علمهم بكُنه الأمر. والجملة جواب ﴿لَوْلَا﴾. وإنّما نُفي هَمّهم -مع أنّ المَنفيّ إنّما هو تأثيره فقط- إيذانًا بانتفاء تأثيره بالكلّيّة. وقيل: المراد هو الهمّ المؤثِّر، ولا ريبَ في انتفائه حقيقةً. وقيل: الجواب محذوف، أي: لَأضَلُّوك، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَهَمَّتْ﴾ جملة مستأنَفة، أي: لقد همّت طائفة... إلخ.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لاقتصار وبال مكرهم عليهم مِن غير أن يُصيبك منه شيء. والجملة اعتراض، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ عطفٌ عليه. ومحلّ الجارّ والمجرور النصبُ على المصدريّة، أي: وما يضُرّونك شيئًا مِن الضَّرَر لِما أنّه تعالى عاصِمُك؛ وأمّا ما خطَر ببالك، فكان عملًا منك بظاهر الحال، ثقةً بأقوال القائلين مِن غير أن يخطُر ببالك أنّ الحقيقة على خلاف ذلك.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: القرآن الجامعَ بين العنوانَين. وقيل: المراد بـ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ السنّة. ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ بالوحي مِن خَفِيّات الأمور التي مِن جملتها وجوه إبطال كيد المنافقين، أو مِن أمور الدين وأحكام الشرع. ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ ذلك إلى وقت التعليم.

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ إذ لا فضلَ أعظَمُ مِن النبوّة العامّة والرياسةِ التامّة.

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ أي: في كثير مِن تناجي الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ إلّا في نجوى مَن أمر ﴿بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وقيل: المراد بـ"النجوى" المتناجُون

---

[١] تفسير السمرقندي، ٣٣٨/١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٨٣/٣.

بطريق المجاز. وقيل: النجوى: جمع "نَجِيّ"، نقله الكرماني.[1] وأيًّا ما كان، فالاستثناء متّصل. ويجوز الانقطاع أيضًا على معنى: لكن مَن أمر بصَدَقة... إلخ؛ ففي نجواه الخيرُ. والمعروف: كلّ ما يستحسنه الشرع، ولا يُنكره العقل؛ فينتظم أصناف الجميل وفنونَ أعمال البِرّ. وقد فسّر ههنا بالقَرْض وإغاثة الملهوف وصدقة التطوّع على أنّ المراد / بـ"الصدقة" الصدقة الواجبة. [٧٩و]

﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ عند وقوع المُشاقّة والمُعاداة بينهم مِن غير أن يجاوز في ذلك حدودَ الشرع الشريف. و﴿بَيۡنَ﴾ إمّا متعلِّق بنفس ﴿إِصۡلَٰحِۭ﴾، يقال: "أصلحت بين القوم"، أو بمحذوفٍ هو صفة له، أي: كائنٍ بين الناس. عن أبي أيّوبَ الأنصاري رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال له: «ألّا أدُلّك على صدقةٍ خيرٍ لك مِن حُمْر النَّعَم؟»،[2] فقال: «بلى يا رسولَ الله»، قال: «تُصلِحُ بين الناس إذا تفاسدوا، وتقرّبُ بينهم إذا تباعدوا».[3] قالوا: ولعلّ السرَّ في إفراد هذه الأقسام الثلاثة بالذكر أنّ عمل الخير المتعدِّي إلى الناس إمّا لإيصال المنفعة أو لدفع المَضرّة. والمنفعة إمّا جُسمانيّة كإعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، وإمّا رُوحانيّة، وإليه الإشارة بالأمر بالمعروف، وإمّا دفعُ الضرر، فقد أشيرَ إليه بقوله تعالى: ﴿أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الأمور المذكورة -أَعني: الصدقة والمعروف والإصلاح- فإنّه يُشار به إلى متعدِّد.[4] وما فيه مِن معنى البُعد -مع قُرب العهد بها- للإيذان ببُعد منزلتها ورفعة شأنها. وترتيب الوعد على فَعْلها إثرَ بيان خيريّة الأمر بها لِما أنّ المقصود الأصليّ هو الترغيب في الفعل؛ وبيان خيريّة الأمر به

---

[1] الظاهر أنّه محمود بن حمزة بن نصر أبو القاسم تاج القرّاء الكرماني (ت. بعد ٥٠٠هـ/١١٠٦م)، مفسّر، نحويّ، قارئ. نقله عنه أبو حيّان في البحر المحيط، ٦٤/٤.

[2] حُمْر النَّعَم: بتسكين الميم، جمع "أحمر"، والنَّعَم: واحد الأنعام، وهي البهائم. وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل، والإبل الحُمْر أعزّ أموال العرب. طِلْبة الطَّلَبة للنسفي، ص ١١.

[3] أورده الواحدي بهذا اللفظ في التفسير الوسيط، ١١٥/٢. وفي مسند أبي داود الطيالسي، ٤٩١/١ (٥٩٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٤٣١/١٣-٤٣٢ (١٠٥٨٣): "على صدقة يرضي الله ورسوله موضِعَها" بدلَ "على صدقة خير لك مِن حُمْر النَّعَم".

[4] وفي هامش م: بتأويل المذكور. «منه».

للدلالة على خيريّته بالطريق الأُولى لِما أنّ مدار حُسن الأمر وقُبحه حسنُ المأمور به وقُبحُه؛ فحيث ثبت خيريّة الأمر بالأمور المذكورة؛ فخيريّة فَعْلها أثبتُ. وفيه تحريض للأمر بها على فَعْلها، أو إشارة إلى الأمر بها، كأنّه قيل: ومَن يأمر بها. والكلام في ترتّب الوعد على فَعْله[1] كالذي مرّ في الخيريّة؛ فإنّ استتباع الأمر بها للأجر العظيم إنّما هو لكونه ذريعةً / إلى فَعْلها، فاستتباعه له أَولى وأحقُّ. [٧٩ظ]

﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ علّة للفعل، والتقييد به؛ لأنّ الأعمال بالنّيّات، وأنّ مَن فعل خيرًا لغير ذلك لم يستحقَّ به غيرَ الحِرمان. ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ بنُون العَظَمة على الالتفات. وقُرئ بالياء.[2] ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يقصُر عنه الوصف.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ التعرّض لعنوان الرسالة لإظهار كمال شناعةِ ما اجترءوا عليه مِن المُشاقّة والمخالفة، وتعليلِ الحُكم الآتي بذلك. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ ظهر له الحقّ بالوقوف على المعجِزات الدالّة على ثبوته. ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: غيرَ ما هم مستمرّون عليه مِن عقد وعمل، وهو الدين القيّم. ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نجعَلْه واليًا لِما تولّاه مِن الضلال، ونخذُلْه بأنْ نخلّي بينه وبين ما اختاره، ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ أي: نُدخِلْه إيّاها. وقُرئ بفتح النون[3] مِن "صَلاه". ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: جهنّم. وفيها دلالة على حُجّيّة الإجماع وحُرمة مخالفته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ قد مرّ تفسيره فيما سبق.[4]

---

١ وفي هامش م: أي: فعل الأمر بها. «منه». | ط س: فعلها.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥١-٢٥٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٣، ولعلّه الجحدري، دون العشرة.

٤ انظر: تفسير النساء، ٤/٤٨.

وهو تكرير للتأكيد والتشديد، أو لقصّة طِعمةَ، وقد مرّ موته كافرًا.[1] ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ شيخًا مِن العرب جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «إنّي شيخ منهمِك في الذنوب، إلّا أنّي لم أشرك بالله شيئًا منذ عرفتُه وآمنتُ به، ولم أتّخذ مِن دونه وليًّا، ولم أُواقِع المعاصي جَراءةً على الله تعالى، وما توهّمتُ طَرْفةَ عَينٍ أنّي أُعجِز الله هَرَبًا، وإنّي لنادم تائب مستغفِر؛ فما تَرى حالي عند الله تعالى؟»، فنزلت.[2]

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ عن الحقّ؛ فإنّ الشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدُها عن الصواب والاستقامة، كما أنّه افتراء وإثم عظيم؛ ولذلك جُعل الجزاء في هذه الشرطيّة ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾... إلخ، وفيما سبق ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء، ٤٨/٤]، حسبما يقتضيه سباق النظم الكريم / وسياقه. [٨٠و]

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾

﴿إِن يَدْعُونَ﴾ أي: ما يعبدون ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ عزّ وجلّ ﴿إِلَّآ إِنَـٰثًا﴾ هي[3] اللات والعُزّى ومَناة ونحوها. عن الحسن رحمه الله:[4] «أنّه لم يكن مِن أحياء العرب حَيٌّ إلّا كان لهم صَنَم يعبدونه، يُسَمُّونه "أُنثى بني فلان"».[5] قيل: لأنّهم كانوا يقولون في أصنامهم: هُنَّ بنات الله. وقيل: لأنّهم كانوا يُلبسونها أنواع الحُلِيّ، ويزيِّنونها على هيئات النِّسوان. وقيل: المراد: الملائكة، لقولهم: "الملائكة بنات الله". وقيل: تَسميتها ﴿إِنَـٰثًا﴾ لتأنيث أسمائها، أو لأنّها في الأصل جَماد، والجمادات تؤنَّث مِن حيث إنّها ضاهت الإناثَ لانفعالها. وإيرادها بهذا الاسم للتنبيه على فَرط حَماقة عَبَدتها وتَناهي جهلهم. و"الإناث" جمعُ "أُنثى"، كـ"رِبَابٍ" و"رُبَّى".

---

١ انظر: تفسير النساء، ١٠٥/٤.

٢ تفسير السمرقندي، ٣٦٤/١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٨٦/٣؛ اللباب لابن عادل، ١٨/٧.

٣ س: وهي.

٤ م – رحمه الله.

٥ التفسير البسيط للواحدي، ٩٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/١. وباختلاف يسير في جامع البيان للطبري، ٤٨٨/٧.

وقُرئ على التوحيد،[١] و"أُنُثًا"[٢] أيضًا على أنّه جمعُ "أَنِيث"، كـ"قَلِيب" و"قُلُب"، أو جمعُ "إناث"، كـ"ثِمار" و"ثُمُر". وقُرئ: "وُثنًا"[٣] و"أُثنًا"[٤] بالتخفيف والتثقيل، جمعُ "وَثَن"، كقولك: أَسَد وأُسْد وأُسُد، على الأصل وقَلبِ الواو ألِفًا، نحو: "أُجُوه" في "وُجُوه".

﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ وما يعبدون بعبادتها ﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ إذ هو الذي أمرهم بعبادتها وأغراهم عليها، فكانت طاعتهم له عبادةً. والمَريد والمارِد: هو الذي لا يَعلَق بخير. وأصل التركيب للمَلاسَة،[٥] ومنه "صَرْح[٦] مُمرَّد"، و"شجرة مَرْدَاءُ" للتي تناثَرَ وَرَقُها.

﴿لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝١١٨﴾

﴿لَعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ صفة ثانية لـ﴿شَيْطَٰنًا﴾.[٧] ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ عطفٌ على الجملة المتقدِّمة، أي: شيطانًا مَريدًا جامعًا بين لعنة الله تعالى وهذا القول الشَّنيع الصادرِ عنه عند اللعن.

ولقد بُرهِنَ على أنّ عبادة الأصنام غاية الضلال بطريق التعليل بأنّ ما يعبدونها ينفعل، ولا يفعل فعلًا اختياريًّا، وذلك ينافي الألوهيّة غايةَ المُنافاة، ثمّ استُدلّ عليه بأنّ ذلك عبادة للشيطان. وهو أفظع الضلال مِن وجوه ثلاثة،

---

١ أي: "إِلَّا أُنْثَى"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن عبّاس. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٤٣.

٢ قرأ بها النبيّ عليه السلام فيما رُوي عن عائشة رضي الله عنها وابنُ عبّاس، ولكنّ قراءة الجمهور: "إِنَاثًا". انظر: **المحتسَب** لابن جنّي، ١٩٨/١؛ و**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٤٣.

٣ حرّكها المصنّف بضمّ الثاء وسكونِها: "وُثُنًا" و"وُثْنًا"، وهما قراءتان شاذّتان، قرأ بالضمّ ابن جندب، وبالسكون ابن عبّاس. **المحتسَب** لابن جنّي، ١٩٨/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٤٣.

٤ حرّكها المصنّف بضمّ الثاء وسكونِها: "أُثُنًا" و"أُثْنًا"، وهما قراءتان شاذّتان، قرأ بالضمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيما رُوي عن عائشة رضي الله عنها وابنُ عبّاس، وبالسكون عطاء بن أبي رباح. **المحتسَب** لابن جنّي، ١٩٨/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٤٣.

٥ المَلاسة: ضِدّ الخُشونة. **الصحاح** للجوهري، «ملس».

٦ الصَّرح: القَصر، وكلّ بناء عالٍ. **الصحاح** للجوهري، «صرح».

٧ في الآية السابقة.

الأوّل: أنّه منهمِك في الغيّ، لا يكاد يَعلَق بشيء مِن الخير والهدى؛ فيكون طاعته ضلالًا بعيدًا مِن الحقّ. **والثاني**: أنّه ملعون لضلاله؛ فلا يستتبع مطاوعته سوى اللعن والضلال. **والثالث**: أنّه في غاية السعي / في إهلاكهم وإضلالهم؛ [٨٠ظ] فموالاة مَن هذا شأنه غاية الضلال، فضلًا عن عبادته. والمفروض: المقطوع، أي: نصيبًا قُدّر لي وفُرض، مِن قولهم: "فَرَضَ له في العطاء".

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ١١٩﴾

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الأمانيَّ الباطلةَ كطُول الحياة وأن لا بَعْثَ ولا عقابَ ونحو ذلك. **﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾** أي: فلَيقطعُنّها بموجَب أمري، ويشُقُّنّها مِن غير تَلَعْثُمٍ[1] في ذلك ولا تأخير. وذلك ما كانت العرب تفعله بالبحائر والسوائب. **﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾** ممتثلين به **﴿خَلْقَ ٱللَّهِ﴾** عن نهجه صورةً أو صفةً. وينتظم فيه ما قيل مِن فَقْءِ[2] عَين الحامي وخِصاءِ[3] العبيد والوَشْمِ[4] والوَشْرِ[5] ونحو ذلك. وعموم اللفظ يمنع الخِصاء مطلَقًا؛ لكنّ الفقهاءَ رخّصوا في البهائم لمكان الحاجة. وهذه الجُمَل المَحكيّة عن اللعين ممّا نطق به لسانه مقالًا أو حالًا، وما فيها مِن "اللّامات" كلّها للقَسم. والمأمور به في المَوضِعَين محذوف ثقةً بدلالة النظم عليه.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بإيثار ما يدعو إليه على ما أمر الله تعالى به ومجاوزته عن طاعة الله تعالى إلى طاعته، **﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾**؛ لأنّه ضيّع رأس ماله بالكلّيّة، واستبدل بمكانه مِن الجنّة مكانَه مِن النار.

---

١ تَلَعْثَمَ الرّجل في الأمر، إذا تمكّث فيه وتأنّى. **الصحاح** للجوهري، «لعثم».

٢ الفَقْء: الشَّقّ والبَخص. **تاج العروس** للزبيدي، «فقأ».

٣ الخِصَاء: أن تُسَلَّ الخُصيتانِ، وقد خصاه يَخصِيه. **المخصّص** لابن سِيده، ٥/٢١.

٤ الوَشْم: وَشَمَ اليدَ وَشْمًا، إذا غرزها بإبرةٍ ثم ذَرَّ عليها النَّؤورَ، وهو النِّيلَج. والاسم أيضًا الوَشْم، والجمع: الوِشام. واستَوْشَمَه، أي سأله أن يَشِمَه. وفي الحديث: «لعن الله الواشمةَ والمستَوشِمةَ». **الصحاح** للجوهري، «وشم».

٥ الوَشْر: أن تحدِّد المرأة أسنانَها وترقّقها. وفي الحديث: «لعن الله الواشرةَ والمؤتَشِرةَ». **الصحاح** للجوهري، «وشر».

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾

﴿يَعِدُهُمْ﴾ أي: ما لا يكاد يُنجزه، ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ أي: الأمانيّ الفارغةَ، أو يفعل لهم الوعد والتَّمنِيةَ، على طريقة "فلان يُعطي ويمنع". والضميران لـ﴿مَنْ﴾،[١] والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في ﴿يَتَّخِذْ﴾ و﴿خَسِرَ﴾[٢] باعتبار لفظها.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر. وهذا الوعد إمّا بإلقاء الخواطر الفاسدة أو بألسنة أوليائه. و﴿غُرُورًا﴾ إمّا مفعول ثانٍ لـ"الوعد"، أو مفعول لأجله، أو نعت لمصدر محذوف، أي: وعدًا ذا غرور، أو مصدر على غير لفظ الصَّدْر؛ لأنّ ﴿يَعِدُهُمْ﴾ في قوّة "يغرّهم بوعده". والجملة اعتراض. وعدم التعرّض للتَّمنِية؛ لأنّها[٣] باب مِن الوعد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝١٢١﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أولياء الشيطان. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد منزلتهم في الخُسران. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾ مبتدأ ثانٍ، وقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمُ﴾ خبر للثاني، والجملة خبر للأوّل.

﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: مَعدِلًا ومَهرَبًا. مِن "حَاصَ الحِمارُ" إذا عدَل.
[٨١و] وقيل: خلص ونجا. وقيل: الحَيْص هو الرَّوَغان[٤] بنفور. / و﴿عَنْهَا﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿مَحِيصًا﴾، أي: كائنًا عنها، ولا مَساغَ لتعلّقه بـ﴿مَحِيصًا﴾؛ أمّا إذا كان اسمَ مكانٍ فظاهر، وأمّا إذا كان مصدرًا فلأنّه لا يعمَل فيما قبله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مبتدأ، خبره قوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ

---

١ في الآية السابقة.
٢ هما في الآية السابقة.
٣ س + مِن.
٤ ورد في الأصول الخطّيّة بإهمال النقطة في الغين، ولم نهتدِ إلى معناها. لعلّها "الروَغان"، مِن راغَ عنّي يروغ رَوْغًا وروَغانًا، وأرَغْتُه. قال صاحب العين: الفَرّ والفِرار: الهَرب والروَغان. المخصّص لابن سِيده، ٣/٣٥٨.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾. قُرن وعيد الكَفَرة بوعد المؤمنين زيادةً لمَسَرّة هؤلاء ومَساءة أولئك.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي: وعده وعدًا وحقَّ ذلك حقًّا؛ فالأوّل مؤكِّد لنفسه؛ لأنّ مضمون الجملة الاسميّة وعد، والثاني مؤكِّد لغيره. ويجوز أن ينتصب الموصول بمضمَرٍ يفسّره ما بعده، وينتصبَ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بقوله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾؛ لأنّه في معنى: نَعِدُهم إدخالَ جنّات... إلخ، و﴿حَقًّا﴾ على أنّه حال مِن المصدر.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ جملة مؤكِّدة بليغة. والمقصود مِن الآية معارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لقُرَنائه بوعد الله تعالى الصادق لأوليائه، والمبالغةُ في تأكيده ترغيبًا للعباد في تحصيله. و"القِيل" مصدر، كـ"القَول" و"القَال". وقال ابن السِّكِّيت:[1] «القِيل والقَال اسمان، لا مصدران».[2] ونصبُه على التمييز. وقُرئ بإشمام الصاد،[3] وكذا كلّ صادٍ ساكنةٍ بعدها دالٌ.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ليس ما وعد الله مِن الثواب يحصل بأمانيّكم[4] -أيها المسلمون- ولا أمانيِّ أهل الكتاب، وإنّما يحصل بالإيمان والعمل الصالح. ولعلّ نظمَ أمانيّ أهل الكتاب في سِلك أمانيّ المسلمين -مع ظهور حالها- للإيذان بعدم إجداء أمانيّ المسلمين أصلًا

---

[1] هو يعقوب بن إسحاق السِّكِّيت، أبو يوسف (ت. ٢٤٤هـ/٨٥٨م). إمام في اللغة والأدب. كان مؤدِّبَ ولد جعفر المتوكّل على الله. أخذ عن أبي عمرو الشيباني والفرّاء وابن الأعرابي، وأخذ عنه أبو سعيد السُّكّري وأبو عكرمة الضبّي. والسِّكِّيت لقبُ أبيه إسحاق. ومِن مصنّفاته الكثيرة: **إصلاح المنطق**، وكتاب **القلب والإبدال**، وكتاب **النوادر**، وكتاب **الألفاظ**، وكتاب **فعل وأفعل**، وكتاب **الأضداد**، وكتاب **الأجناس الكبير**، وكتاب **الأمثال**، وكتاب **البحث**، وكتاب **الأيّام والليالي**، وكتاب **سرقات الشعراء وما تواردوا عليه**. انظر: **نزهة الألبّاء** لابن الأنباري، ص ١٣٨-١٤٠؛ و**معجم الأدباء** للحَمَوي، ٢٨٤٠/٦-٢٨٤١.

[2] **إصلاح المنطق** لابن السكّيت، ص ١٦.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٢٥٠/٢-٢٥١.

[4] وفي هامش م: على أنّ في ﴿لَيْسَ﴾ ضمير ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾. «منه».

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء، ١٨/٤]، كما سلف.

وعن الحسن:[١] «ليس الإيمان بالتمنّي، ولكنْ ما وَقِرَ في القلب وصدّقه العمل؛[٢] إنّ قومًا ألهَتْهم أمانيُّ المغفرة حتّى خرجوا مِن الدنيا -ولا حسنةَ لهم- وقالوا: «نُحسِن الظنَّ بالله»، وكذَبوا؛ لو أحسَنوا الظنّ به لَأحسَنوا العمل».[٣] وقيل: إنّ المسلمين وأهلَ الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: «نبيّنا قبل نبيّكم، وكتابنا قبل كتابكم؛ فنحن أَولى بالله منكم»،[٤] فقال المسلمون: «نحن أَولى منكم؛ نبيّنا خاتَم النبيّين، وكتابنا يَقضي على الكُتب المتقدِّمة» فنزلت.[٥]

وقيل: الخطاب للمشركين، ويؤيّده تقدّم ذِكرهم، أي: ليس الأمر بأمانيّ المشركين، وهو قولهم: لا جنّةَ ولا نارَ، / أو قولهم:[٦] إن كان الأمر كما يزعُم [٨١ظ]
هؤلاء[٧] لنكونَنَّ خيرًا منهم وأحسَنَ حالًا، وقولهم: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم، ٧٧/١٩]، ولا أمانيِّ أهل الكتاب، وهو قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة، ١١١/٢]، أو قولهم[٨] ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة، ٨٠/٢].

ثمّ قُرّر ذلك بقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ عاجلًا أو آجلًا، لِما رُوي أنّه لمّا نزل قال أبو بكر رضي الله عنه: «فمَن يَنجُو مع هذا يا رسولَ الله؟»، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أَمَا تَحزَن أو تَمرَض، أَمَا يُصيبك البلاء؟»، قال: «بلى، يا رسولَ الله»، قال: «هو ذلك».[٩]

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مجاوِزًا لمُوالاة الله ونصرته ﴿وَلِيًّا﴾ يُواليه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصره في دفع العذاب عنه.

---

١ أي: الحسن البصري.
٢ إلى هنا ورد مع زيادة يسيرة في مصنّف ابن أبي شيبة، ١٦٣/٦ (٣٠٣٥١)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ١٥٨/١ (٦٥).
٣ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٨/١؛ تفسير النيسابوري، ٥٠١/٢.
٤ س + بالله.
٥ جامع البيان للطبري، ٥٠٨/٧-٥٠٩؛ أسباب النزول للواحدي، ص ١٨٣-١٨٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٧/١.
٦ ط س: وقولهم.
٧ وفي هامش م: مسلمون.
٨ ط س: وقولهم.
٩ جاء مع زيادات واختلاف يسير في بعض العبارات في مسند أحمد، ٢٢٩/١-٢٣٠ (٦٧)؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٥٢٢/٣ (٦٥٣٦). والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: بعضَها وشيئًا منها؛ فإنّ كلّ أحد لا يتمكّن مِن كلّها، وليس مكلّفًا بها. ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ في موضع الحال مِن المستكنّ في ﴿يَعْمَلْ﴾، و﴿مِنْ﴾ للبيان، أو مِن ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فـ﴿مِنْ﴾ للابتداء، أي: كائنةً مِن ذَكر... إلخ. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حال. شُرط اقتران العمل بها في استدعاء الثواب المذكور تنبيهًا على أنّه لا اعتدادَ به دونه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَنْ﴾ بعُنوان اتّصافه بالإيمان والعمل الصالح. والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد فيما سبق باعتبار لفظها. وما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ غيرَ مرّة مِن الإشعار بعلوّ رُتبة المُشار إليه وبُعدِ منزلته في الشرف. ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقُرئ: "يُدْخَلُونَ"[1] مبنيًّا للمفعول مِن "الإدخال". ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي: لا يُنقَصون شيئًا حقيرًا مِن ثواب أعمالهم، فإنّ النَّقير عَلم في القِلّة والحقارة. وإذا لم يُنقَص ثواب المُطيع، فلَأَنْ لا يُزادَ عقاب العاصي أَولى وأحرَى. كيفَ لا، والمجازِي أرحَمُ الراحمين، وهو السرّ في الاقتصار على ذِكره عَقيبَ الثواب.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: أخلص نفسه له تعالى لا يعرف لها ربًّا سواه، وقيل: بذَلَ وجهه له في السجود،[2] وقيل: أخلص عمله له عزّ وجلّ، وقيل: فوّض أمره إليه تعالى. وهذا إنكار واستبعاد لأنْ يكون أحد أحسنَ دينًا ممّن فعل ذلك أو مساويًا له، وإن لم يكن سَبك التركيب متعرّضًا لإنكار المساواة ونفيها، يُرشِدك إليه العُرف المطّرِد والاستعمالُ الفاشي؛ فإنّه إذا قيل:

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وعاصم مِن رواية أبي بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.

[2] س: بالسجود.

"مَن أكرَمُ مِن فلان" أو "لا أفضَلَ مِن فلان"، فالمراد به حتمًا أنّه أكرمُ مِن كلّ كريم وأفضلُ مِن كلّ فاضل، وعليه مساق قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام، ٦/٢١، ٩٣؛ هود، ١١/١٨؛ العنكبوت، ٢٩/٦٨؛ الصف، ٦١/٧] ونظائره.

و﴿دِينًا﴾ نصب على التمييز مِن ﴿أَحْسَنُ﴾، منقولٌ مِن المبتدأ، والتقدير: ومَن دينه أحسنُ مِن دين مَن أسلم... إلخ، فالتفضيل في الحقيقة جارٍ بين الدينين، / لا بين صاحبَيهما، ففيه تنبيه على أنّ ذلك أقصى ما ينتهي إليه القوّة البشريّة. [٨٢و]

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: آتٍ بالحسَنات تاركٌ للسيّئات، أو آتٍ بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفيّ المستلزِم لحسنها الذاتيّ. وقد فسّره صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[١] والجملة حال مِن فاعل ﴿أَسْلَمَ﴾.

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الموافِقةَ لدين الإسلام المتّفقَ[٢] على صحّتها وقبولها. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلًا عن الأديان الزائغة، وهو حال مِن فاعل ﴿ٱتَّبَعَ﴾ أو مِن ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ اصطفاه وخصّه بكراماتٍ تُشبِه كرامة الخليل عند خليله. وإظهاره عليه السلام في موقع الإضمار لتفخيم شأنه عليه السلام والتنصيصِ على أنّه الممدوح وتأكيدِ استقلال الجملة الاعتراضيّة.

والخُلّة مِن "الخِلال"، فإنّه وُدٌّ تخلّل النفسَ وخالَطَها، وقيل: مِن "الخَلَل"، فإنّ كلّ واحد مِن الخليلَين يسُدّ خلل الآخَر، أو مِن "الخَلّ"، وهو الطريق في الرّمل، فإنّهما يترافقان في الطريقة، أو مِن "الخَلّة" بمعنى الخَصْلة، فإنّهما متوافِقان في الخِصال. وفائدة الاعتراض جَمّة، مِن جملتها: الترغيب في اتّباع ملّته عليه السلام؛ فإنّ مَن بلغ مِن الزُّلفى عند الله عزّ وجلّ مَبلغًا مصحِّحًا لتسميته خليلًا حقيقٌ بأنْ يكون اتّباع طريقته أهمّ ما يمتدّ إليه أعناق الهِمم وأشرَفَ ما يرنو[٣] نحوَه أحداق الأُمم.

---

[١] قطعة مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري في صحيحه، ١/١٩ (٥٠)؛ ومسلم في صحيحه، ١/٣٩ (٩).

[٢] كذا حرّكها المصنّف.

[٣] م ط س: يَرمُق ["صح" في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

قيل: إنّه عليه السلام بعث إلى خليلٍ له بمصرَ في أزمة أصابت الناسَ يمتار منه، فقال خليله: «لو كان إبراهيم يطلب المِيرة[١] لنفسه لفعلتُ، ولكنّه يريدها للأضياف، وقد أصابنا ما أصاب الناس مِن الشدّة»، فرجع غِلمانه عليه السلام، فاجتازوا ببطحاءَ لِينةً، فملئوا منها الغرائر حياءً مِن الناس، وجاءوا بها إلى منزل إبراهيمَ عليه السلام، وألقَوْها فيه، وتفرّقوا، وجاء أحدهم فأخبر إبراهيمَ عليه السلام[٢] بالقصّة، فاغتمّ لذلك غمًّا شديدًا، لاسيّما لاجتماع الناس ببابه رجاءَ الطعام، فغلبتْه عيناه، وعمَدت سارةُ إلى الغرائر، فإذا فيها أجوَدُ ما يكون مِن الحُوَّارَى،[٣] واختبزت -وفي رواية: فأطعمت الناس- واستنبه إبراهيم، فاشتمّ رائحةَ الخُبز، فقال: «مِن أين لكم؟»، فقالت سارة: «مِن خليلك المصريّ»، فقال: «بل مِن عند خليلي الله عزّ وجلّ»، فسمّاه الله تعالى خليلًا.[٤]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ / جملة مبتدأة سِيقت لتقرير وجوب طاعته تعالى على أهل السماوات والأرض ببيان أنّ جميع ما فيهما مِن الموجودات له تعالى خَلقًا ومُلكًا، لا يخرج مِن مَلكوته شيء منها، فيجازي كلًّا بموجَب أعماله خيرًا وشرًّا، وقيل: لبيان أنّ اتّخاذه عزّ وجلّ لإبراهيمَ خليلًا ليس لاحتياجه سبحانه إلى ذلك في شأن مِن شئونه، كما هو دأب الآدميّين؛ فإنّ مدار خُلّتهم افتقار بعضهم إلى بعض في مصالحهم؛ بل لمجرّد تكرِمَته وتشريفه، وقيل: لبيان أنّ الخُلّة لا تُخرجه عن رتبة العُبوديّة، وقيل: لبيان أنّ اصطفاءه عليه السلام للخُلّة بمحض مشيئته تعالى، أي: له تعالى ما فيهما جميعًا يختار منهما ما يشاء لمَن يشاء. [٨٢ظ]

---

١ المِيرة: الطعام يمتاره الإنسان. وقد مارَ أهلَه يَميرُهم مَيْرًا. ومنه قولهم: "ما عنده خيرٌ ولا مَيْرٌ". الصحاح للجوهري، «مير».

٢ م – عليه السلام.

٣ الحُوَّارَى: -بالضمّ وتشديد الواو- مقصورٌ، ما حُوِّر مِن الطعام، أي: بُيِّض. وهذا دقيقٌ حُوَّارَى. وحَوَّرَه فَاحْوَرَّ، أي: بَيَّضه فابيضَّ. مختار الصحاح للرازي، «حور».

٤ الكشّاف للزمخشري، ١/ ٥٦٩. وورد مع زيادات واختلاف يسير في العبارات في الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٣٩٢.

وقوله عزّ وعلا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله على الوجوه المذكورة؛ فإنّ إحاطته تعالى علمًا وقدرةً بجميع الأشياء -التي مِن جملتها ما فيهما مِن المكلَّفين وأعمالهم- ممّا يقرِّر ذلك أكملَ تقرير.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ١٢٧﴾

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: في حقّهنّ على الإطلاق، كما يُنبئ عنه الأحكام الآتية، لا في حقّ ميراثهنّ خاصّةً؛[١] فإنّه صلّى الله عليه وسلّم قد سُئل عن أحوال كثيرة ممّا يتعلّق بهنّ، فما بُيّن حكمه فيما سلف أُحيلَ بيانه على ما ورد في ذلك مِن الكتاب، وما لم يبيَّن حكمه بعدُ بُيّن ههنا، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ بإسناد "الإفتاء" -الذي هو تبيين المبهَم وتوضيحُ المشكِل- إليه تعالى وإلى ما تُلِي مِن الكتاب فيما سبق باعتبارين -على طريقة قولك: "أغناني زيد وعطاؤه"- بعطف ﴿مَا﴾ على المبتدأ أو ضميرِه في الخبر لمكان الفصل بالمفعول والجارّ والمجرور.

وإيثار صيغة المضارع للإيذان باستمرار التلاوة ودوامها. و﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ إمّا متعلِّق بـ﴿يُتْلَىٰ﴾ أو بمحذوفٍ وقع حالًا مِن المستكنّ فيه، أي: يُتلَى كائنًا فيه. ويجوز أن يكون ﴿مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مبتدأً و﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرَه، على أنّ المراد به اللوح المحفوظ. والجملة معترِضة مسوقة لبيان عِظم شأن المَتلوّ عليهم، وأنّ العدل في الحقوق المبيَّنة فيه مِن عظائم الأمور التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها؛ فـ﴿مَا يُتْلَىٰ﴾ حينئذ متناوِل لِما تُلِي وما سيُتلى. ويجوز أن يكون مجرورًا على القَسم المُنبئ عن تعظيم المقسَم به وتفخيمِه، كأنّه قيل: قل: الله يُفتيكم فيهنّ، وأُقسِم بما يُتلَى عليكم في الكتاب، فالمراد بقوله تعالى: ﴿يُفْتِيكُمْ﴾ بيانه السابق واللاحق، ولا مساغَ لعطفه على المجرور في ﴿فِيهِنَّ﴾ لاختلاله لفظًا ومعنًى.

---

١ وفي هامش م: كما قيل. «منه».

وقوله تعالى: ﴿فِي يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ على الوجه الأوّل -وهو الأظهر- متعلّق بـ﴿يُتْلَىٰ﴾، أي: ما يُتلَى عليكم في / شأنهنّ، وعلى الأخيرين بدل مِن ﴿فِيهِنَّ﴾. [٨٣و] وهذه الإضافة بمعنى "مِن"؛ لأنّها إضافة الشيء إلى جنسه. وقُرئ: "يَيَامَى"[١] على قلب همزة "أَيَامَى" ياءً. ﴿ٱلَّـٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ أي: ما فُرض لهنّ مِن الميراث وغيره. ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ عطفٌ على الصلة عطفَ جملة مثبتة على جملة منفيّة، وقيل: حال مِن فاعل ﴿تُؤْتُونَهُنَّ﴾ بتأويل "وأنتم تَرغَبون"، ولا ريبَ في أنّه لا يظهر لتقييد عدم الإيتاء بذلك فائدةٌ إلّا إذا أريدَ بـ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ صَداقُهنّ.

﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أي: في أن تنكحوهنّ؛ لكنْ لا لأجل التمتّع بهنّ، بل لأكل مالهنّ، أو في أن تنكوحهنّ بغير إكمال الصَّداق، وذلك ما رُوي عن عائشةَ رضي الله تعالى عنها مِن أنّها اليتيمة تكون في حَجر وليّها، فيَرغَب في مالها وجمالها، ويريد أن يَنكِحها بأدنى مِن سُنّة نسائها، فنُهُوا أن ينكحوهنّ إلّا أن يُقسِطوا لهنّ في إكمال الصَّداق،[٢] أو عن أن تنكحوهنّ، وذلك ما رُوي عنها رضي الله عنها أنّها يتيمة يَرغَب وليّها عن نكاحها، ولا يُنكِحها، فيعضُلها طمعًا في ميراثها،[٣] وفي رواية عنها رضي الله عنها: هو الرجل يكون عنده يتيمة، هو وليّها ووارثها وشريكها في المال حتّى في العَذْق، فيَرغَب أن يَنكِحها، ويكرَه أن يزوّجها رجلًا فيَشرَكُه في ماله بما شركتْه، فيعضُلها؛[٤] فالمراد بـ﴿مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ على الوجه الأوّل والآخِر ميراثُهنّ، وبـ"ما يُتلَى في حقّهنّ" قولُه تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء، ٢/٤]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾ [النساء، ٦/٤] ونحوُهما مِن النصوص الدالّة على عدم التعرّض لأموالهم، وعلى الوجه الثاني صَداقُهنّ، وبـ"ما يُتلَى فيهنّ" قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ الآية [النساء، ٣/٤].

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي عبد الله المدني. المحتسَب لابن جنّي، ٢٠٠/١.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٧/٢. وبمعناه مع اختلاف بالنقص والزيادة في صحيح البخاري، ٧/٢ (٥٠٦٤)؛ وصحيح مسلم، ٢٣١٣/٤ (٣٠١٨).

٣ التفسير البسيط للواحدي، ١٢٣/٧.

٤ صحيح البخاري، ٤٩/٦ (٤٦٠٠). وهو باختلاف يسير في صحيح مسلم، ٢٣١٥/٤ (٣٠١٨).

﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ عطفٌ على ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، وما يُتلى في حقّهم قولُه تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾... إلخ [النساء، ١١/٤]. وقد كانوا في الجاهليّة لا يورّثونهم كما لا يورّثون النساءَ، وإنّما يورّثون الرجال القُوّامَ بالأمور. رُوي أنّ عُيَينةَ بنَ حِصنٍ الفزاريَّ[١] جاء إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أُخبِرْنا أنّك تُعطي الابنةَ النِّصفَ والأختَ النِّصفَ، وإنّما كنّا نورّث مَن يَشهَد القتال ويحُوز الغنيمةَ»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: / «كذلك أُمِرتُ».[٢] [٨٣ظ]

﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بالجرّ، عطفٌ على ما قبله، وما يُتلَى في حقّهم قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ [النساء، ٢/٤]، ونحوُ ذلك ممّا لا يكاد يُحصَر. هذا على تقدير كون ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ متعلِّقًا بـ﴿يُتۡلَىٰ﴾، وأمّا على تقدير كونه بدلًا مِن ﴿فِيهِنَّ﴾، فالوجه نصبُه عطفًا على موضع ﴿فِيهِنَّ﴾، أي: يُفتيكم أن تقوموا، ويجوز نصبُه بإضمار فعل، أي: ويأمركم. وهو خطاب للوُلاة أو للأولياء والأوصِياء.

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ﴾ في حقوق المذكورِين ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ حسبما أُمرتم به، أو ما تفعلوه مِن خير على الإطلاق، فيندرج فيه ما يتعلّق بهم اندراجًا أوّليًّا. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ فيُجازيكم بحسَبه.

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ﴾ شروع في بيان ما لم يبيَّن فيما سلف مِن الأحكام، أي:

---

١ هو عُيَينة بن حِصن بن حذيفة بن بدر الفَزَاري، أبو مالك (ت. ٣٠هـ/٦٥٠م). مِن المؤلَّفة قلوبهم، ومِن الأعراب الجُفاة. وكان عُيينة في الجاهليّة مِن الجَرّارين، يقود عشرة آلاف. أسلم بعد الفتح، وقيل: قبل الفتح، وشهد الفتح مسلمًا. وقيل: إنّه كان ممّن ارتدّ وتبع طُلَيحة الأسدي وقاتل معه، فأُخذ أسيرًا وحُمل إلى أبي بكر رضي الله عنه، فأسلم، فأطلقه أبو بكر. انظر: الاستيعاب للنّمري، ١٢٤٩/٣-١٢٥١؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٣١٨/٤-٣١٩. وانظر تعليق ابن حجر على قصّة الردّة في الإصابة، ٦٠١/٧.

٢ أورده الراغب في تفسيره، ١١٧٩/٤؛ والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١٠٠/٢. ولم نقف عليه في كتب الحديث التي بين أيدينا.

إن توقّعت امرأة ﴿مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا﴾ أي: تجافيًا عنها وترفّعًا عن صُحبتها كراهةً لها ومنعًا لحقوقها، ﴿أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾ بأنْ يُقِلّ محادثتها ومؤانستها لِما يقتضي ذلك مِن الدواعي والأسباب، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ﴾ حينئذ ﴿أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗا﴾ أي: في أن يُصلحَا بينهما بأنْ تحُطّ له المهر أو بعضَه أو القَسْمَ، كما فعلت سَوْدةُ بنت زَمعة[1] حين كرِهت أن يفارقها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم، فوهَبت يومَها لعائشةَ،[2] أو بأنْ تهَب له شيئًا تستميله.

وقُرئ: "يَصَّالَحَا"[3] مِن "يتصالحا"، و"يَصَّلِحَا"[4] مِن "يصطلحا"، و"يُصَالِحَا"[5] مِن المفاعلة. و﴿صُلۡحٗا﴾ إمّا منصوب بالفعل المذكور على كلّ تقدير على أنّه مصدر منه بحذف الزوائد، وقد يعبَّر عنه باسم المصدر، كأنّه قيل: إصلاحًا أو تَصالحًا أو اصطلاحًا -حسبما قُرئ الفعل- أو بفعل مترتِّب على المذكور، أي: فيُصلِح حالهما صلحًا. و﴿بَيۡنَهُمَا﴾ ظرف للفعل، أو حال مِن ﴿صُلۡحٗا﴾. والتعرّض لنفي الجُناح عنها -مع أنّه ليس مِن جانبها الأخذُ الذي هو المَظنّة للجُناح- لبيان أنّ هذا الصلح ليس مِن قَبيل الرَّشوة المحرَّمة للمُعطي والآخِذ.

﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ أي: مِن الفُرقة، أو مِن سُوء العِشرة، أو مِن الخصومة؛ فـ"اللام" للعهد، أو هو خير مِن الخُيور؛ فـ"اللام" للجنس. والجملة اعتراض مقرِّر لِما قبله، وكذا قوله تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ أي: جُعلت حاضرةً له مطبوعةً عليه، لا تنفكّ عنه أبدًا؛ فلا المرأة تَسمَح بحقوقها مِن الرجل،

---

[1] هي سَوْدة بنت زَمعة بن قيس القُرَشيّة، أمّ الأسْوَد (ت. ٢٣هـ/٦٤٤م). زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، تزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمكّة بعد وفاة خديجة قبل عائشة، وقيل: تزوّجها بعد عائشة. وكانت قبله تحت ابن عمّها السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو، مِن بني عامر بن لُؤيّ، وكان مسلمًا، فتوفّي عنها، فتزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم امرأةً ثقيلةً ثَبطةً، وأسنّتْ عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولم تُصب منه ولدًا إلى أن مات. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥٢٠٥٧/٨؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ١٥٧/٧-١٥٨.

[2] انظر: صحيح البخاري، ١٥٩/٣ (٢٥٩٣)؛ وصحيح مسلم، ١٠٨٥/٢ (١٤٦٣).

[3] قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٥٢/٢.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عاصم الجحدري. المحتسَب لابن جنّي، ٢٠١/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٤.

[5] قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ١١٩/٢، ونسبها إلى عبيدة السلماني.

ولا الرجل يَجُود بحُسن المعاشرة مع دَمامتها؛[١] فإنّ فيه تحقيقًا للصلح وتقريرًا له بحثّ كلّ منهما عليه، لكنْ لا بالنظر إلى حال نفسه -فإنّ ذلك يستدعي التماديَ في المماكسة والشِّقاق- بل بالنظر إلى حال / صاحبه؛ فإنّ شُحّ نفس [٨٤و] الرجل وعدمَ مَيلها عن حالتها الجِبِلّيّة بغير استمالة ممّا يحمِل المرأةَ على بَذل بعض حقوقها إليه لاستمالته، وكذا شُحّ نفسها بحقوقها ممّا يحمل الرجلَ على أن يقتنع مِن قِبلها بشيء يَسير، ولا يكلِّفَها بذل الكثير، فيتحقّق بذلك الصلح.

﴿وَإِن تُحْسِنُوا﴾ في العِشرة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ النشوزَ والإعراضَ -وإن تعاضدت الأسباب الداعية إليهما- وتصبروا على ذلك مراعاةً لحقوق الصُّحبة، ولم تَضطرّوهنّ إلى بذل شيء مِن حقوقهنّ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: مِن الإحسان والتقوى، أو بما تعملون جميعًا -فيدخل فيه ذلك دخولًا أوّليًا- ﴿خَبِيرًا﴾ فيُجازيكم ويُثيبكم على ذلك البتّةَ، لاستحالة أن يُضيع أجر المحسنين. وفي خِطاب الأزواج بطريق الالتفات والتعبيرِ عن رعاية حقوقهنّ بـ"الإحسان" ولفظِ "التقوى" المُنبئ عن كون النشوز والإعراض ممّا يُتوقّى منه وترتيبِ الوعد الكريم عليه مِن[٢] لطف الاستمالة والترغيبِ في حُسن المعاملة ما لا يخفى.

رُوي أنّها نزلت في عمرةَ بنتِ محمّد بنِ مَسلمةَ وزوجِها سعدِ بنِ الربيع، تزوَّجَها وهي شابّة، فلمّا عَلاها الكِبَر تزوّج شابّةً، وآثَرها عليها وجفاها، فأتتْ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، وشَكَت إليه ذلك.[٣] وقيل: نزلت في أبي السائب، كانت له امرأة قد كبِرت، وله منها أولاد، فأراد أن يطلّقها ويتزوّجَ غيرَها، فقالت: «لا تطلِّقني، ودَعني على أولادي؛ فاقسِمْ لي مِن كلّ شهرين إن شئتَ، وإن شئتَ فلا تَقسِمْ لي»، فقال: «إن كان يصلُح ذلك فهو أحبُّ إليّ»، فأتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فذكر له ذلك، فنزلت.[٤]

---

١ الدَّمامَة، بالفتح: القِصَر والقُبح. لسان العرب لابن منظور، «دمم».

٢ السياق: وفي خطاب الأزواج بطريق... مِن لطف الاستمالة...

٣ تفسير السمرقندي، ١/٣٦٩؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٣٩٤، كلاهما باختلاف يسير. وفي مطبوع الأوّل: "سعد بن الزبير" بدلَ "سعد بن الربيع".

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٣٩٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢/٢٩٤. والألفاظ مِن اللباب لابن عادل، ٧/٥٣.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩﴾

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: مُحال أن تقدروا على أن تعدلوا بينهنّ بحيث لا يقع مَيل ما إلى جانب إحداهنّ في شأن مِن الشئون البتّةَ. وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يَقسِم بين نسائه، فيعدل، ثمّ يقول: «اللّهمّ هذا قَسْمي فيما أَملِك، فلا تؤاخِذْني فيما تَملِك ولا أَملِك»،[1] وفي رواية: «وأنت أعلَمُ بما لا أَملِك»،[2] يعني فرطَ مَحبّته لعائشةَ رضي الله عنها. ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أي: على إقامة العدل، وبالغتم في ذلك.

﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ / أي: فلا تَجُوروا على المرغوب عنها كلَّ الجَوْر، [٨٤ظ] واعدِلوا ما استطعتم؛ فإنّ عجزكم عن حقيقة العدل إنّما يصحِّح عدم تكليفكم بها، لا بما دونها مِن المراتب الداخلة تحت استطاعتكم. ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ أي: التي مِلتم عنها ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ التي ليست ذاتَ بَعل أو مطلّقة. وقُرئ: "كَالمَسْجُونَةِ".[3] وفي الحديث: «مَن كانت له امرأتان يَميل مع إحداهما، جاء يوم القيامة وأحد شِقَّيه مائل».[4]

﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ ما كنتم تُفسدون مِن أمورهنّ ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الميلَ فيما يستقبل، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ يغفر لكم ما فرَط منكم مِن الميل ﴿رَّحِيمًا﴾ يتفضّل عليكم برحمته.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ١٣٠﴾

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ وقُرئ: "يَتَفَارَقَا".[5] أي: وإن يفارِق كلّ واحد منهما صاحبَه بأنْ لم يتّفق بينهما وِفاق بوجه ما مِن الصلح وغيره، ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾ منهما، أي:

---

١ هو باختلاف يسير في سنن الدارمي، ١٤١٦/٣ (٢٢٣٥)؛ سنن أبي داود، ٣/ ٤٦٩-٤٧٠ (٢١٣٤). والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠١/٢.

٢ التفسير البسيط للواحدي، ١٣٤/٧، نقلًا عن الشافعي رحمه الله.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري في الكشّاف، ٥٧٢/١، ونسبها إلى أبيّ بن كعب.

٤ سنن النسائي، ٦٣/٧ (٣٩٤٢). وهو باختلاف يسير في سنن الدارمي، ١٤١٥/٣-١٤١٦ (٢٢٥٢)؛ وسنن أبي داود، ٤٦٩/٣ (٢١٣٣).

٥ قراءة شاذّة، ذكرها الكرماني في شواذّ القراءات، ص ١٣٧، ولم ينسبها إلى أحد.

يجعَلْه مستغنيًا عن الآخَر ويَكفِه مُهِمّاتِه. ﴿مِن سَعَتِهِۦ﴾ مِن غِناه وقدرته. وفيه زجر لهما عن المفارقة رغمًا لصاحبه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ مقتدِرًا متقِنًا في أفعاله وأحكامه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِن الموجودات كائنًا ما كان مِن الخلائق وأرزاقهم وغير ذلك، جملة مستأنَفة منبِّهة على كمال سعته وعِظم قدرته.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: أمرناهم في كتابهم، وهم اليهود والنصارى ومَن قبلهم مِن الأُمم. و"اللام" في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للجنس، و﴿مِن﴾ متعلِّقة بـ﴿وَصَّيْنَا﴾ أو بـ﴿أُوتُوا﴾. ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ عطفٌ على الموصول.

﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: وصّينا كلًّا منكم ومنهم بأنْ اتقُوا الله، على أنّ ﴿أَنْ﴾ مصدريّة حُذف عنها الجارّ، ويجوز أن تكون مفسِّرةً؛ لأنّ التوصية في معنى القول، فقوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حينئذ مِن تتمّة القول المَحكيّ، أي: ولقد قلنا لهم ولكم: ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا﴾... إلى آخر الآية. وعلى تقدير كون ﴿أَنْ﴾ مصدريّةً مبنَى الكلام إرادةُ القول، أي: أمرناهم وإيّاكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ الآية. وقيل: هي جملة مستأنَفة خُوطبَ بها هذه الأمّة.

[٨٥و] وأيًا ما كان، / فالمترتِّب على كفرهم ليس مضمونَ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ الآية؛ بل هو الأمر بعلمه، كأنّه قيل: وإن تكفروا فاعلَموا أنّ لله ما في السماوات وما في الأرض مِن الخلائق قاطبةً، مفتقِرون إليه في الوجود وسائر النِّعم المتفرِّعة عليه، لا يستغنون عن فَيضه طَرفةَ عينٍ، فحقُّه أن يُطاع، ولا يُعصَى، ويُتّقى عقابه، ويُرجَى ثوابه. وقد قُرّر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ أي:

عن الخلق وعبادتهم ﴿حَمِيدًا﴾ محمودًا في ذاته -حمِدوه أو لم يحمَدوه- فلا يتضرّر بكفرهم ومعاصيهم، كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم، وإنّما وصّاهم بالتقوى لرحمته، لا لحاجته.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٣٢﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كلام مبتدأ مَسوق للمخاطَبين توطِئةً لِما بعده مِن الشرطيّة، غيرُ داخل تحت القول المَحكيّ، أي: له سبحانه وتعالى ما فيهما مِن الخلائق خَلقًا ومُلكًا، يتصرّف فيهم كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتةً. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ في تدبير أمور الكلّ وكلِّ الأمور؛ فلا بدّ مِن أن يُتوكّل عليه، لا على أحد سِواه.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ۝١٣٣﴾

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: يُفنِكم ويستأصِلْكم بالمرّة ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ أي: ويُوجِدْ دفعةً مكانكم قومًا آخرين مِن البَشر، أو خلقًا آخرين مكانَ الإنس. ومفعول "المشيئة" محذوف لكونه مضمونَ الجزاء، أي: إن يشأ إفناءكم وإيجادَ آخرين يُذهِبْكم... إلخ، يعني: أنّ إبقاءكم على ما أنتم عليه مِن العصيان إنّما هو لكمال غِناه عن طاعتكم، ولعدم تعلّق مشيئته المَبنيّة على الحِكم البالغة بإفنائكم، لا لعجزه، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي: إفنائِكم بالمرّة وإيجادِ آخرين دفعةً مكانكم ﴿قَدِيرًا﴾ بليغَ القدرة. وفيه -لاسيّما في توسيط الخطاب بين الجزاء وما عُطف عليه- مِن تشديد التهديد ما لا يخفى. وقيل: هو خطاب لمَن عادَى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم مِن العرب، أي: إن يشأ يُمِتْكم ويأتِ بناس آخرين يُوالُونه، فمعناه معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن[1] تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد، ٣٨/٤٧]. ويُروى أنّها لمّا نزلت ضرَبَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

---

١ م س: فإن.

بيده على ظهر سلمانَ،[١] وقال: «إنّهم قومُ هذا»،[٢] يريد أبناءَ فارِسَ.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝١٣٤﴾

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمجاهِد يريد بجهاده الغنيمةَ، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا / وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي: فعنده تعالى ثوابهما له إن أراده، فما له يطلب أخسَّهما؟ [٨٥ظ] فليطلُبْهما كمَن يقول: «ربّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً»،[٣] أو لِيطلبْ أشرفَهما، فإنّ مَن جاهد خالصًا لوجه الله لم يُخطِئه الغنيمةُ، وله في الآخرة ما هي في جَنبه كَلَا شيءٍ، أو فعند الله ثواب الدارَين، فيُعطي كلًّا ما يريده، كقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ الآية [الشورى، ٤٢/٢٠].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ عالمًا بجميع المسموعات والمبصَرات، فيندرج فيها ما صدر عنهم مِن الأقوالِ والأعمال المتعلِّقة بمراداتهم اندراجًا أوّليًّا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٣٥﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ مبالِغين في العدل وإقامة القِسط في جميع الأمور، مجتهِدين في ذلك حقَّ الاجتهاد. ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ بالحقّ، تقيمون

---

١ هو أبو عبد الله سلمان الفارسي (ت. ٣٦هـ/٦٥٦م). مولى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وسُئل عن نسبه، فقال: «أنا سلمان بن الإسلام». أصله مِن فارس، مِن رامهُرمز، وقيل: إنّه مِن جَيّ، وهي مدينة أصفهان. وأوّل مشاهده مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الخندقُ، وهو الذي أشار على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحفر الخندق لمّا جاءت الأحزاب، ولم يتخلّف عن مشهد بعد الخندق. وآخَى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين أبي الدرداء. وكان سلمان مِن خِيار الصحابة زهّادهم وفضلائهم وذوي القرب مِن رسول الله. روى عنه ابن عبّاس وأنس وعُقبة بن عامر وأبو سعيد وأبو عثمان النهدي، وغيرهم. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٧٥-٩٣؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ٢/٥١٠-٥١٥.

٢ جامع البيان للطبري، ٧/٥٨٢؛ التفسير البسيط للواحدي، ٧/١٣٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٥٧٤.

٣ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة، ٢/٢٠٠-٢٠٢].

شهاداتِكم لوجه الله تعالى. وهو خبر ثانٍ، وقيل: حال. ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ولو كانت الشهادة على أنفسكم، بأنْ تُقرّوا عليها، على أنّ الشهادة عبارة عن الإخبار بحقّ الغير سواء كان ذلك عليه أو على ثالث، أو بأنْ تكون الشهادة مستتبِعةً لضررٍ ينالكم مِن جهة المشهود عليه. ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي: ولو كانت على والدَيكم وأقاربِكم.

﴿إِن يَكُنْ﴾ أي: المشهودُ عليه ﴿غَنِيًّا﴾ يُبتغى في العادة رضاه ويُتّقى سَخَطه، ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ يُترحّم عليه غالبًا. وقُرئ: "إِنْ يَكُنْ غَنِيٌّ أَوْ فَقِيرٌ"[1] على أنّ "كان" تامّة. وجواب الشرط محذوف لدلالة قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ عليه، أي: فلا تمتنعوا عنها طلبًا لرضا الغنيّ أو ترحّمًا على الفقير، فإنّ الله تعالى أَولى بجنسَي الغنيّ والفقير المدلولِ عليهما بما ذُكر، ولو أنّ الشهادة عليهما مصلحة لهما لِما شرَعها. وقُرئ: "أَوْلَى بِهِمْ".[2] ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ أي: مَخافةَ أن تَعدِلوا عن الحقّ؛ فإنّ اتّباع الهوى مِن مَظانّ الجَوْر الذي حقّه أن يُخاف ويُحذَر، وقيل: كراهةَ أن تَعدِلوا بين الناس، أو إرادةَ أن تَعدِلوا عن الحقّ.

﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ أي: ألسِنتَكم عن شهادة الحقّ أو حكومة العدل بأنْ تأتوا بها لا على وجهها. وقُرئ: "وَإِنْ تَلُوا"[3] مِن الولاية والتصدّي، أي: وإن وَلِيتم إقامةَ الشهادة. ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ / أي: عن إقامتها رأسًا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٨٦و]
مِن لَيّ الألسِنة والإعراضِ بالكلّيّة، أو مِن جميع الأعمال التي مِن جملتها ما ذُكر ﴿خَبِيرًا﴾ فيُجازيكم لا محالةَ على ذلك؛ فهو على القراءة المشهورة وعيد محض، وعلى القراءة الأخيرة متضمِّن للوعد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأبيّ بن كعب وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٥.
٢ قراءة شاذّة، ذكرها الطبري في جامع البيان، ٥٨٨/٧؛ والزمخشري في الكشّاف، ٥٧٥/١، ونسباها إلى أبيّ بن كعب.
٣ قرأ بها ابن عامر وحمزة. النشر لابن الجزري، ٢٥٢/٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خطاب لكافّة المسلمين، فمعنى قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾: اثبُتوا على الإيمان بذلك ودُومُوا عليه، أو ازدادوا فيه طُمَأنِينةً ويقينًا، أو آمِنوا بما ذُكر مفصَّلًا، بناءً على أنّ إيمان بعضهم إجماليّ.

والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ الثاني الجنس المنتظِم لجميع الكُتب السماويّة لقوله تعالى: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾، وبـ"الإيمان به" الإيمانُ بأنّ كلّ كتاب مِن تلك الكُتب منزل منه تعالى على رسول معيَّن لإرشاد أمّته إلى ما شُرع لهم مِن الدين بالأوامر والنواهي؛ لكنْ لا على أنّ مدار الإيمان بكلّ واحد مِن تلك الكُتب خصوصيّةُ ذلك الكتاب، ولا على أنّ أحكام تلك الكُتب وشرائعَها باقية بالكلّيّة، ولا على أنّ الباقيَ منها معتبَر بالإضافة إليها؛ بل على أنّ الإيمان بالكلّ مندرِج تحت الإيمان بالكتاب المنزَّل على رسوله، وأنّ أحكام كلّ منها كانت حَقّةً ثابتةً إلى ورود ما نسَخَها، وأنّ ما لم يُنسَخ منها إلى الآن مِن الشرائع والأحكام ثابتةٌ مِن حيث إنّها مِن أحكام هذا الكتاب الجليل المَصون عن النسخ والتبديل، كما مرَّ في تفسير خاتمة سورة البقرة. وقُرئ: "نُزِّلَ" و"أُنْزِلَ" على البناء للمفعول.[1]

وقيل: هو خطاب لمؤمِني أهل الكتاب لِما أنّ عبد الله بنَ سَلَام وابنَ أخته سَلَامًا وابنَ أخيه سَلَمةَ وأسَدًا وأُسيدًا -ابنَي كعبٍ- وثَعْلبةَ بنَ قيسٍ ويَامِينَ بنَ يَامِينَ أتَوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم وقالوا: «يا رسولَ الله، إنّا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعُزيرٍ، ونكفر بما سِواه مِن الكُتب والرُّسل»، فقال صلّى الله عليه وسلّم: «بل آمِنوا بالله ورسوله محمّدٍ وكتابه القرآن وبكلّ كتاب كان قبله»، فقالوا: «لا نفعل»، فنزلت؛[2] فآمَنوا كلُّهم، فأمرهم بالإيمان بالكتاب المتناوِل للتوراة -مع أنّهم مؤمنون بها مِن قبلُ- ليس لكون المراد بالإيمان

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢-٢٥٣.

[2] هو باختلاف يسير في الكشف والبيان للثعلبي، ٣/٤٠١؛ أسباب النزول للواحدي، ص ١٨٨. والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ١/٥٧٦.

ما يعمّ إنشاءَه والثباتَ عليه، ولا لأنّ متعلّق الأمر حقيقةً هو الإيمان بما عداها -كأنّه قيل: آمِنوا بالكلّ، ولا تخصّوه بالبعض- بل لأنّ المأمور به إنّما هو الإيمان بها في ضِمن الإيمان بالقرآن على الوجه الذي أشيرَ إليه آنفًا، لا إيمانهم السابقُ، ولأنّ فيه حملًا لهم على التسوية بينها وبين سائر الكُتب في التصديق لاشتراك الكلّ فيما يوجبه،[1] وهو النزول مِن عند الله تعالى.

وقيل: خطاب لأهل الكتابين، فالمعنى: آمِنوا بالكلّ، لا ببعض دون بعض. وأمرُ كلّ طائفة بالإيمان بكتابه في ضمن الأمر بالإيمان بجنس الكتاب لِما ذُكر. وقيل: هو للمنافقين، فالمعنى: آمِنوا بقلوبكم، لا بألسِنتكم فقط.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أي: بشيء مِن ذلك، ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ عن المقصد، بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه. وزيادة "الملائكة" و"اليوم الآخِر" في جانب الكفر لِما أنّ بالكفر بأحدهما لا يتحقّق الإيمان أصلًا. وجمعُ "الكُتب" و"الرُّسل" لِما أنّ الكفر بكتاب أو برسول كفرٌ بالكلّ. وتقديم "الرسول" فيما سبق لذِكر "الكتاب" / بعنوان كونه منزَّلًا [٨٦ظ] عليه، وتقديم "الملائكة" و"الكُتب" على "الرُّسل"؛ لأنّهم وسائطُ بين الله عزّ وجلّ وبين الرُّسل في إنزال الكُتب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال قتادة: «هم اليهود آمنوا بموسى، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعبادتهم العِجلَ، ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ﴾ عند عَوده إليهم، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بعيسى والإنجيل، ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ بكفرهم بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم».[2] وقيل: هم قومٌ تكرَّر منهم الارتداد، وأصَرّوا على الكفر، وازدادوا تَماديًا في الغَيّ.

﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ لِما أنّه يُستبعد منهم أن يتوبوا

---

١ أي: فيما يُوجِب التصديق.

٢ جامع البيان للطبري، ٥٩٧/٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٢/٣، كلاهما مع اختلاف بالنقص والزيادة.

عن الكفر، ويثبُتوا على الإيمان؛ فإنّ قلوبهم قد ضَرِيَتْ بالكفر،[١] وتمرّنت على الرِّدّة، وكان الإيمان عندهم أهوَنَ شيء وأدوَنَه؛ لا أنّهم لو أخلصوا الإيمانَ لم يُقبَل منهم ولم يُغفَر لهم. وخبر "كان" محذوف، أي: مريدًا ليغفر لهم.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدلّ على أنّ المراد بالمذكورين الذين آمنوا في الظاهر نِفاقًا وكفروا في السرّ مرّةً بعد أخرى، ثمّ ازدادوا كفرًا ونفاقًا. ووضع ﴿بَشِّرْ﴾ موضعَ "أَنذِرْ" تهكّمًا بهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ في محلّ النصب أو الرفع على الذمّ، بمعنى: أريدُ بهم، الذين أو هم الذين. وقيل: نصب على أنّه صفة لـ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾.[٢] وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَتَّخِذُونَ﴾، أي: يتّخذون الكَفَرة أنصارًا متجاوِزين ولايةَ المؤمنين. وكانوا يُوالُونهم ويقول بعضهم لبعض: «لا يتمُّ أمرُ محمّد صلّى الله عليه وسلّم»، فتولَّوا اليهودَ.

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ إنكار لرأيهم وإبطال له، وبيان لخَيبة رجائهم، وقطعٌ لأطماعهم الفارغة. والجملة معترِضة مقرِّرة لِما قبلها، أي: أيطلبون بموالاة الكَفَرة القوّة والغَلَبةَ؟ قال الواحدي: «أصل العزّة: الشدّة، ومنه قيل للأرض الشديدة الصُّلبة: عَزَاز».[٣]

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ تعليل لِما يفيده الاستفهام الإنكاريّ مِن بُطلان رأيهم وخيبة رجائهم؛ فإنّ انحصار جميع أفراد العزّة في جَنابه عزّ وعَلَا

١ ضَرِيَ بالشيء: إذا اعتاده، فلا يكاد يصبر عنه. وضَرِيَ الكلبُ بالصيد: إذا تطعَّمَ بلَحمه ودمِه. والإناء الضاري بالشراب والبيت الضاري باللحم مِن كثرة الاعتياد حتّى يبقى فيه ريحُه. **تهذيب اللغة للأزهري**، ١٢/٤٠ «باب الضاد والراء».

٢ في الآية السابقة.

٣ **التفسير البسيط** للواحدي، ٧/١٥٣.

-بحيث لا ينالها إلّا أولياؤه الذين كُتب لهم العزّة والغَلَبة، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون، ٦٣/٨]- يقضي ببطلان التعزّز بغيره سبحانه واستحالةِ الانتفاع به. وقيل: هو جواب شرط محذوف، / كأنّه قيل: أن يبتغوا [٨٧و] عندهم عزّةً، فإنّ العزّة لله. و﴿جَمِيعًا﴾ حال مِن المستكنّ في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ لاعتماده على المبتدأ.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب للمنافقين بطريق الالتفات، مفيد لتشديد التوبيخ الذي يستدعيه تَعداد جناياتهم. وقُرئ مبنيًا للمفعول مِن التنزيل[١] والإنزال،[٢] و"نَزَلَ"[٣] أيضًا مخفّفًا. والجملة حال مِن ضمير ﴿يَتَّخِذُونَ﴾ أيضًا مفيدة لكمال قباحة حالهم ونهاية استعصائهم عليه سبحانه، ببيان أنّهم فعلوا ما فعلوا مِن مُوالاة الكَفَرة مع تحقّق ما يمنعهم عن ذلك -وهو وُرود النهي الصريح عن مجالستهم المستلزِمِ للنهي عن موالاتهم على أبلغ وجه وآكَدِه- إثرَ بيان انتفاء ما يدعوهم إليه بالجملة المعترِضة، كأنّه قيل: تتّخذونهم أولياءَ والحالُ أنّه تعالى قد نزّل عليكم قبل هذا بمكّةَ ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ الآية [الأنعام، ٦/٦٨]؛ وهذا يقتضي الانزجار عن مجالستهم في تلك الحالة القبيحة، فكيف بموالاتهم والاعتزازِ بهم؟

و﴿أَنْ﴾ هي المخفَّفة مِن "أنّ"، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف، والجملة الشرطيّة خبرُها. وقوله تعالى: ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ حال مِن ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ عطفٌ عليه داخلٌ في حكم الحاليّة. وإضافة "الآيات" إلى الاسم الجليل لتشريفها وإبانة خطرها وتهويل أمر الكفر بها، أي: نزّل عليكم في الكتاب أنّه إذا سمعتم آياتِ الله مكفورًا بها ومستهزَأً بها... إلخ. وفيه دلالة

---

١ أي: "نُزِّلَ عَلَيْكُمْ"، وهي قراءة السبعة إلّا عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٣.

٢ أي: "أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وحُميد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٥.

على أنّ المنزَّل على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم -وإن خُوطِبَ به خاصّةً- منزَّلٌ على الأمّة، وأنّ مدار الإعراض عنهم هو العلم بخَوضهم في الآيات؛ ولذلك عبّر عن ذلك تارةً بالرؤية وأخرى بالسّماع، وأنّ المرادَ بـ"الإعراض" إظهار المخالفة بالقيام عن مجالسهم، لا الإعراضُ بالقلب أو بالوجه فقط. والضمير في ﴿مَعَهُمْ﴾ للكَفَرة المدلولِ عليهم بقوله تعالى: ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾.

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ جملة مستأنَفة سِيقت لتعليل النهي، غيرُ داخلة تحت التنزيل، و﴿إِذًا﴾ مُلغاة عن العمل لوقوعها بين المبتدأ والخبر، أي: لا تقعُدوا معهم في ذلك الوقت، إنكم إن فعلتموه كنتم مثلَهم في الكفر واستتباع العذاب. وإفراد "المِثل" لأنّه كالمصدر، أو للاستغناء بالإضافة إلى الجمع. وقُرئ شاذًّا: "مِثْلَهُمْ" بالفتح، لإضافته إلى غير متمكِّن، كما في قوله تعالى: ﴿مِثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات، ٥١/٢٣]، وقيل: هو منصوب على الظرفيّة، أي: في مِثل حالهم.

[٨٧ظ] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ / تعليل لكونهم مثلَهم في الكفر ببيان ما يستلزمه مِن شِركتهم لهم في العذاب. والمراد بـ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ إمّا المخاطَبون، وقد وُضع موضعَ ضميرهم المظهَر تسجيلًا بنفاقهم وتعليلًا للحكم بمأخذ الاشتقاق، وإمّا الجنسُ، وهم داخلون تحته دخولًا أوّليًا. وتقديمهم على ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لتشديد الوعيد على المخاطبين. ونصبُ ﴿جَمِيعًا﴾ مثلُ ما قبله.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى المؤمنين بتعديد بعضٍ آخرَ مِن جنايات المنافقين وقبائحهم. وهو إمّا بدل مِن ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ﴾،[١]

---

١ النساء، ١٣٩/٤.

أو صفة لـ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[1] فقط؛ إذ هم المتربِّصون دون الكافرين، أو مرفوع أو منصوب على الذمّ. أي: ينتظرون أمركم وما يحدُث لكم مِن ظَفَر أو إخفاق.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لترتيب مضمونه على ما قبلها؛ فإنّ حكاية تربّصهم مستتبِعة لحكاية ما يقع بعد ذلك، كما أنّ نفس التربّص يستدعي شيئًا ينتظر المتربِّص وقوعَه. ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: لكم ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: مظاهِرين لكم؛ فأسهِموا لنا في الغنيمة.

﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ مِن الحرب -فإنّها سِجال-[2] ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: للكَفَرة: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ألم نَغلِبكم ونتمكّنْ مِن قتلكم وأسركم، فأبقَينا عليكم، ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنْ ثَبّطناهم[3] عنكم، وخَيّلنا لهم ما ضعُفت به قلوبهم، ومَرَّضوا في قتالكم، وتَوانَينا[4] في مظاهرتهم، وإلّا لَكنتم نُهبةً للنوائب؛ فهاتوا نصيبًا لنا ممّا أصبتم. وتسمية ظَفَر المسلمين "فتحًا" وما للكافرين "نصيبًا" لتعظيم شأن المسلمين وتخسيس حظّ الكافرين. وقُرِئ: "وَنَمْنَعَكُمْ"[5] بإضمار "أنْ".

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حكمًا يليق بشأن كلّ منكم مِن الثواب والعقاب. وأمّا في الدنيا فقد أُجريَ على مَن تفوَّهَ بكلمة الإسلام حكمُه،[6] ولم يُضَع السيف على مَن تكلّم بها نفاقًا. ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ حينئذ، كما قد يجعل ذلك في الدنيا بطريق الابتلاء والاستدراج، أو في الدنيا، على أنّ المراد بـ"السبيل" الحُجّة.

---

١ في الآية السابقة.

٢ السَّجْل: أعظمُ ما يكون مِن الدِّلاء، وجمعه: سِجال. الحربُ بيننا سِجالٌ، معناه: أنّا نُدالُ عليه مرّةً، ويُدالُ علينا أخرى. وأصله أنّ المستَقِيَين بسَجْلَين مِن البئر يكون لكلّ واحد منهما سَجْلٌ، أي دَلْوٌ. تهذيب اللغة للأزهري، ٣١٠/١٠ «أبواب الجيم والسين».

٣ ثَبّطه عن الأمر تثبيطًا، إذا شَغَلَه عنه. كتاب العين للخليل بن أحمد، ٤١٢/٧ «باب الطاء والثاء والباء».

٤ تَوانى في حاجته: قصَّر. الصحاح للجوهري، «ونى».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٥.

٦ أي: حكم الإسلام.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ كلام مبتدأ سِيقَ لبيان طرفٍ آخَرَ مِن قبائح أعمالهم، أي: يفعلون ما يفعل المخادِع مِن إظهار الإيمان وإبطان نقيضه، واللهُ فاعلٌ بهم ما يفعل الغالبُ في الخِداع؛ حيث تركهم في الدنيا معصومِي الدِّماء والأموال، وأعدَّ لهم في الآخرة الدَّرْك الأسفل مِن النار. وقد مرّ التحقيق في صدر سورة البقرة.[١] وقيل: يُعطَوْن على الصراط نورًا كما يُعطَى المؤمنون، فيَمضُون / بنورهم، ثمّ يُطفَأ نورهم، ويبقى نور المؤمنين، فيُنادون: [٨٨و] انظرونا نقتبِسْ مِن نوركم![٢]

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقِلين كالمكرَه على الفعل. وقُرئ بفتح الكاف،[٣] وهما جَمْعَا "كَسْلانَ". ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ليحسَبوهم مؤمنين. والمُراءاة مفاعلة بمعنى التفعيل، كـ"نعّم" و"ناعم"، أو للمقابلة؛ فإنّ المُرائيَ يُرِي غيرَه عملَه، وهو يُرِيه استحسانه. والجملة إمّا استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن الكلام، كأنّه قيل: فماذا يريدون بقيامهم إليها كُسالى؟ فقيل: ﴿يُرَآءُونَ﴾... إلخ، أو حال مِن ضمير ﴿قَامُوا﴾.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عطفٌ على ﴿يُـرَآءُونَ﴾، أي: لا يذكرونه سبحانه إلّا ذكرًا قليلًا، وهو ذكرهم باللسان، فإنّه بالإضافة إلى الذكر بالقلب قليل، أو إلّا زمانًا قليلًا، أو لا يُصلُّون إلّا قليلًا؛ لأنّهم لا يُصلُّون إلّا بمَرأى مِن الناس، وذلك قليل، وقيل: لا يذكرونه تعالى في الصلاة إلّا قليلًا عند التكبير والتسليم.

---

١ انظر: تفسير البقرة، ٢/٩.

٢ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد، ٥٧/١٢-١٣].

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن هرمز. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٥.

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ١٤٣﴾

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُرَآءُونَ﴾،[1] أو منصوب على الذمّ، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإيمان والكفر المدلول عليهما بمَعونة المقام، أي: مُردَّدين بينهما متحيِّرين قد ذَبذَبهم الشيطان. وحقيقة المُذَبذَب: ما يُذَبّ ويُدفَع عن كِلا الجانبَين مرّةً بعد أخرى. وقُرئ بكسر الذال،[2] أي: مُذَبذِبين قلوبهم أو دينهم أو رأيَهم، أو هو بمعنى مُتذَبذِبين، كما جاء "صلصَلَ" بمعنى "تصلصَلَ". وفي **مصحف ابن مسعود** رضي الله عنه: "مُتَذَبْذِبِينَ".[3] وقُرئ: "مُدَبْدَبِينَ"[4] بالدال غيرِ المعجَمة، وكأنّ المعنى: أُخذ بهم تارةً في دُبّةٍ -أي: طريقةٍ- وأخرى في أخرى.

﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: لا منسوبِين إلى المؤمنين، ولا منسوبِين إلى الكافرين، أو: لا صائرين إلى الأوّلِين، ولا إلى الآخِرِين. فمحلّه النصب على أنّه حال مِن ضمير ﴿مُذَبْذَبِينَ﴾، أو على أنّه بدل منه، أو بيان وتفسير له.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ لعدم استعداده للهداية والتوفيق، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ موصِلًا إلى الحقّ والصواب، فضلًا عن أن تَهديَه إليه. والخطاب لكلّ مَن يصلُح له كائنًا مَن كان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ١٤٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نُهوا عن موالاة الكَفَرة صريحًا -وإن كان في / بيان حال المنافقين مَزجرة عن ذلك- [٨٨ظ] مبالغةً في الزجر والتحذير. ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: أتريدون بذلك أن تجعلوا لله عليكم حجّةً بيّنةً على أنّكم منافقون، فإنّ موالاتهم

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعمرو بن فائد. المحتسَب لابن جنّي، ١/٢٠٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٦.

٣ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٦؛ تفسير الرازي، ١١/٢٤٩.

٤ أوردها الزمخشري في الكشّاف، ١/٥٨٠؛ وأبو حيّان في البحر المحيط، ٤/١١١، ونسباها إلى أبي جعفر. ولم يذكرها ابن الجزري في النشر عنه.

أوضحُ أدّلة النفاق، أو سلطانًا يسلّط عليكم عقابه. وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلّقها -بأنْ يقال: أتجعلون... إلخ- للمبالغة في إنكاره وتهويل أمره ببيان أنّه ممّا لا يصدر عن العاقل إرادته، فضلًا عن صدور نفسه، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ﴾ [البقرة، ١٠٨/٢].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهو الطبقة التى في قَعر جهنّمَ، وإنّما كان كذلك لأنّهم أخبثُ الكَفَرة؛ حيث ضَمُّوا إلى الكفر الاستهزاءَ بالإسلام وأهلِه وخِداعَهم. وأمّا قوله عليه السلام «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه فهو منافِقٌ، وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم: مَن إذا حَدّث كذَب، وإذا وعَد أخلَفَ، وإذا ائتُمنَ خانَ»[١] ونحوُه، فمِن باب التشديد والتغليظ مبالغةً في الزجر. وتسمية طبقاتها السبعِ "دَرَكاتٍ" لكونها متدارِكةً متتابِعةً بعضُها تحت بعض. وقُرئ بفتح الراء،[٢] وهو لغة، كـ"السَّطْر" و"السَّطَر"، ويعضُده أنّ جمعه "أدراك". ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ يخلّصهم منه. والخطاب كما سبق.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ أي: عن النفاق. وهو استثناء مِن ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾،[٣] بل مِن ضميرهم في الخبر. ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما أفسَدوا مِن أحوالهم في حال النفاق، ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي: وَثِقوا به وتمسّكوا بدِينه، ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ﴾ أي: جعلوه خالصًا ﴿لِلَّهِ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلّا وجهه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة. وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد المنزلة وعُلوّ الطبقة. ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي:

---

١ مسند أحمد، ٥٣٩/١٦ (١٠٩٢٤)؛ مصنّف ابن أبي شيبة، ٢٣٧/٥ (٢٥٦١٣)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ١٩٩/٧ (٤٨٧٤).

٢ قرأ بها ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٥٣/٢.

٣ في الآية السابقة.

المؤمنين المعهودين الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلًا منذ آمنوا، وإلّا فهم أيضًا مؤمنون، أي: معهم في الدّرَجات العالية مِن الجنّة. وقد بيّن ذلك بقوله تعالى ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقادَر قدره، فيُساهمونهم فيه.

﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

﴿مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ استئناف مَسوق لبيان أنّ مدار تعذيبهم وجودًا وعدمًا إنّما هو كفرهم، لا شيء آخر، فيكون مقرّرًا لِما قبله مِن إثابتهم عند توبتهم. و﴿مَا﴾ استفهاميّة مفيدة للنفي على أبلغ وجه وآكَدِه، أي: / أيَّ شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم؛ أيتشفّى به مِن الغَيظ، أم يُدرك به [٨٩و]
الثّأرَ، أم يستجلب به نفعًا، أو يستدفع به ضررًا كما هو شأن الملوك، وهو الغنيّ المتعالي عن أمثال ذلك! وإنّما هو أمر يقتضيه كفركم؛ فإذا زال ذلك بالإيمان والشكر، انتفى التعذيب لا محالةَ. وتقديم الشكر على الإيمان لِما أنّه طريق موصِل إليه؛ فإنّ الناظر يُدرك أوّلًا ما عليه مِن النِّعم الأنفسيّة والآفاقيّة، فيشكر شكرًا مبهَمًا، ثمّ يترقّى إلى معرفة المنعِم، فيؤمن به. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ الشكر مِن الله سبحانه هو الرضا باليَسير مِن طاعة عباده وإضعافُ الثواب بمقابلته. ﴿عَلِيمًا﴾ مبالِغًا في العلم بجميع المعلومات التي مِن جملتها شكركم وإيمانكم، فيستحيل أن لا يُوفّيَكم أجورَكم.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ عدمُ محبّته تعالى لشيء كناية عن سَخَطه. و"الباء" متعلّقة بـ﴿ٱلْجَهْرَ﴾، و﴿مِنَ﴾ بمحذوفٍ وقع حالًا مِن ﴿ٱلسُّوٓءِ﴾، أي: لا يُحبّ الله تعالى أن يجهَر أحد بالسُّوء كائنًا مِن القول ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي: إلّا جهرَ مَن ظُلم بأنْ يدعوَ على ظالمه، أو يتظلّمَ منه ويذكرَه بما فيه مِن السُّوء، فإنّ ذلك غير مسخوط عنده سبحانه. وقيل: هو أن يُبدَأ بالشّتيمة، فيُرَدُّ على الشاتم: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ الآية [الشورى، ٤١/٤٢]. وقيل: ضافَ رجل قومًا، فلم يُطعموه،

فاشتكاهم، فعُوتِبَ على الشكاية، فنزلت.[١] وقُرئ: "إِلَّا مَنْ ظَلَمَ"[٢] على البناء للفاعل، فالاستثناء منقطِع، أي: ولكنّ الظالمَ يرتكب ما لا يُحبّه الله تعالى، فيجهَر بالسُّوء.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ بجميع المسموعات، فيندرج فيها كلام المظلوم والظالم. ﴿عَلِيمًا﴾ بجميع المعلومات التي مِن جملتها حالُ المظلوم والظالم. فالجملة تذييل مقرِّر لِما يفيده الاستثناء.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا﴾ أيَّ خير كان مِن الأقوال والأفعال، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾ مع ما سُوّغ لكم مِن مؤاخذة المُسيء. والتنصيص عليه -مع اندراجه في إبداء الخير وإخفائه- لِما أنّه الحقيق بالبيان. وإنّما ذُكر إبداء الخير وإخفاؤه بطريق التسبيب له، كما يُنبئ عنه قوله عزّ وجلّ:[٣] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ فإنّ إيراده في معرض جواب الشرط يدلّ على أنّ العُمدة هو العفو مع القدرة، أي: كان مبالِغًا في العفو / مع كمال قدرته على المؤاخذة. وقال الحسن:[٤] «يَعفو عن الجانِينَ[٥] مع قدرته على الانتقام؛ فعليكم أن تقتدوا بسنّة الله تعالى».[٦] وقال الكلبي: «هو أقدَرُ على عفو ذنوبكم منكم على عفو ذنوب مَن ظلمكم».[٧] وقيل: عفوًّا عمّن عفَا، قديرًا على إيصال الثواب إليه. [٨٩ظ]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾

---

١ **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ١٠٥/٢. ونحوه في **جامع البيان** للطبري، ٦٢٩/٧؛ **وأسباب النزول** للواحدي، ص ١٨٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير والضحّاك وعطاء. **المحتسَب** لابن جنّي، ٢٠٣/١؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ١٤٦.

٣ س: تعالى.

٤ أي: الحسن البصري.

٥ ط س: جانبين. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٦ **تفسير الرازي**، ٢٥٤/١١؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ١١٩/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ١٠١/٧. وفي مطبوع الأوّل والأخير: "الجانبَين" بدلَ "الجانين".

٧ **التفسير البسيط** للواحدي، ١٧٣/٧؛ **تفسير الرازي**، ٢٥٤/١١؛ **اللباب** لابن عادل، ١٠١/٧. وفي مطبوع الأخير: "على عفو صاحبك" بدلَ "على عفو ذنوب مَن ظلمكم".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: يؤدِّي إليه مذهبهم ويقتضيه رأيهم؛ لا أنّهم يصرِّحون بذلك كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: بأنْ يؤمنوا به تعالى ويكفروا بهم، لكنْ لا بأنْ يصرِّحوا بالإيمان به تعالى وبالكفر بهم قاطبةً؛ بل بطريق الالتزام، كما يَحكيه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ أي: نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم، كما قالت اليهود: نؤمن بموسى والتوراة وعُزير، ونكفر بما وراءَ ذلك، وما ذلك إلّا كفر بالله تعالى ورُسله، وتفريق بين الله تعالى ورُسله في الإيمان؛ لأنّه تعالى قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء، وما مِن نبيّ مِن الأنبياء إلّا وقد أخبَرَ قومه بحقّيّة دين نبيّنا صلّى الله عليه وعليهم أجمعين؛ فمَن كفر بواحد منهم، فقد كفر بالكلّ وبالله تعالى أيضًا مِن حيث لا يحتسب.

﴿وَيُرِيدُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الإيمان والكفر ﴿سَبِيلًا﴾ يسلُكونه، مع أنّه لا واسطةَ بينهما قطعًا؛ إذ الحقُّ لا يختلف، وماذا بعد الحقّ إلّا الضلال!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة ﴿هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ الكاملون في الكفر، لا عِبرةَ بما يدّعونه ويُسَمُّونه إيمانًا أصلًا. ﴿حَقّٗا﴾ مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة، أي: حَقَّ ذلك -أي: كونُهم كاملين في الكفر- حقًّا، أو صفة لمصدر "الكافرين"، أي: هم الذين كفروا كفرًا حقًّا، أي: ثابتًا يقينًا لا ريب فيه. ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهم، وإنّما وُضع المظهَر مكانَ المضمَر ذمًّا لهم وتذكيرًا لوصفهم، أو لجميع الكافرين، وهم داخلون في زُمرتهم دخولًا أوّليًا. ﴿عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ سيذُوقونه عند حلوله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ على الوجه الذي بيِّن في تفسير قوله تعالى:

﴿أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية [النساء، ١٣٦/٤]. ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بأنْ يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بآخَرين كما فعله الكَفَرة. ودخول ﴿بَيْنَ﴾ على ﴿أَحَدٍ﴾ قد مرَّ تحقيقه في سورة البقرة[١] بما لا مزيدَ عليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة / ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [٩٠و] الموعودةَ لهم. وتصديره بـ﴿سَوْفَ﴾ لتأكيد الوعد والدلالة على أنّه كائن لا محالةَ وإن تَراخَى. وقُرئ: "نُؤْتِيهِمْ"[٢] بنُون العَظَمة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِما فرَط منهم ﴿رَّحِيمًا﴾ مبالِغًا في الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ نزلت في أحبار اليهود حين قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن كنتَ نبيًّا فأتِنا بكتاب مِن السماء جملةً كما أتَى به موسى عليه السلام».[٣] وقيل: كتابًا محرَّرًا بخطّ سَماويّ على اللوح كما نزلت التوراة، أو كتابًا نُعاينه حين ينزل، أو كتابًا إلينا بأعياننا بأنّك رسول الله. وما كان مقصدهم بهذه العظيمة إلّا التحكّم والتعنّت. قال الحسن:[٤] «ولو سألوه لكَيْ يتبيّنوا الحقَّ لَأعطاهم، وفيما آتاهم كفاية».[٥]

﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ جواب شرط مقدَّر، أي: إن استكبرتَ ما سألوه منك، فقد سألوا موسى شيئًا أكبرَ منه. وقيل: تعليل للجواب، أي: فلا تُبالِ بسؤالهم، فقد سألوا موسى أكبرَ منه. وهذه المسألة، وإن صدَرت عن أسلافهم، لكنّهم لمّا كانوا مُقتَدِين بهم في كلّ ما يأتون وما يذَرون، أُسنِدت إليهم، والمعنى: أنّ لهم في ذلك عِرْقًا راسخًا، وأنّ ما اقترحوا عليك ليس أوّلَ جهالاتهم.

---

١ انظر: تفسير البقرة، ٢٨٥/٢.
٢ قرأ بها السبعة إلّا عاصمًا مِن رواية حفص. النشر لابن الجزري، ٢٥٣/٢.
٣ أسباب النزول للواحدي، ص ١٨٩؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٦/٢.
٤ أي: الحسن البصري.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/١؛ اللباب لابن عادل، ٥٢٤/٢.

﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ أي: أَرِناه نَرَهُ جَهرةً، أي: عِيانًا، أو مجاهرين معاينين له. و"الفاء" تفسيريّة. ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: النار التي جاءت مِن السماء، فأهلكتْهم. وقُرئ: "الصَّعِقَةُ".[1] ﴿بِظُلۡمِهِمۡ﴾ أي: بسبب ظلمهم، وهو تعنّتهم وسؤالهم لِما يستحيل في تلك الحال التي كانوا عليها، وذلك لا يقتضي امتناعَ الرؤية مطلقًا. ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي: المعجِزات التي أظهَرَها لفرعونَ مِن العصا واليد البَيضاء وفَلْقِ البحر وغيرها، لا التوراة؛ لأنّها لم تنزل عليهم بعدُ.

﴿فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ ولم نستأصلهم، وكانوا أحِقّاءَ به. قيل: هذا استدعاء لهم إلى التوبة، كأنّه قيل: إنّ أولئك الذين أجرموا تابوا، فعفَونا عنهم؛ فتُوبُوا أنتم أيضًا حتّى نعفُوَ عنكم. ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ سلطانًا ظاهرًا عليهم؛ حيث أمرهم بأنْ يقتلوا أنفسهم توبةً عن معصيتهم.

﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾

﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ / ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾ أي: بسبب ميثاقهم ليُعطُوه، على ما رُوي [٩٠ظ] أنّهم امتنعوا عن قبول شريعة التوراة، فرفع الله تعالى عليهم الطُّور، فقبِلوها،[2] أو ليخافوا فلا ينقُضوه، على ما رُوي أنّهم همّوا بنقضه، فرفع الله تعالى عليهم الجبل، فخافوا، وأقلَعوا عن النقض،[3] وهو الأنسبُ بما سيأتي مِن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾.

﴿وَقُلۡنَا لَهُمُ﴾ على لسان موسى عليه السلام، والطور مُطلّ[4] عليهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾ قال قتادة: «كُنّا نحدَّث أنّه باب مِن أبواب بيت المقدِس».[5] وقيل: هو إيليا.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي والنخَعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٦.

٢ التفسير البسيط للواحدي، ١٧٦/٧. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٦٤٤/٧.

٣ اللباب لابن عادل، ١٠٦/٧. وفيه: "فلم ينقضوه" مكان "وأقلَعوا عن النقض".

٤ س: مظلّ.

٥ جامع البيان للطبري، ٦٤٤/٧؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٩/٣.

وقيل: هو أريحا. وقيل: هو اسم قرية. وقيل: باب القُبّة التي كانوا يُصلُّون إليها؛ فإنّهم لم يدخلوا بيت المقدس في حياة موسى عليه السلام. ﴿سُجَّدًا﴾ أي: متطامِنين خاضعين. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا﴾ أي: لا تظلِموا باصطياد الحِيتان ﴿فِي السَّبْتِ﴾. وقُرئ: "لَا تَعْتَدُوا"،[1] و"لَا تَعَدُّوا"[2] بفتح العين وتشديد الدال، على أنّ أصله "تعتدوا"، فأُدغمت التاء في الدال لتقاربهما في المَخرَج بعد نقل حركتها إلى العين.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ﴾ على الامتثال بما كُلّفوه ﴿مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ مؤكّدًا. وهو العهد الذي أخذه الله عليهم في التوراة. قيل: إنّهم أعطَوا الميثاقَ على أنّهم إن همّوا بالرجوع عن الدين، فالله تعالى يعذِّبهم بأيّ أنواع العذاب أراد.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ ﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد، أو نكِرة تامّة، و﴿نَقْضِهِمْ﴾ بدل منها. و"الباء" متعلِّقة بفعل محذوف، أي: فبسبب نقضهم ميثاقَهم ذلك فعلنا بهم ما فعلنا مِن اللعن والمَسخ وغيرهما مِن العقوبات النازلة عليهم وعلى أعقابهم.[3] رُوي أنّهم اعتدَوا في السبت في عهد داودَ عليه السلام، فلُعنوا، ومُسخوا قِرَدةً.[4] وقيل: متعلِّقةٌ بـ﴿حَرَّمْنَا﴾[5] على أنّ قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾[6] بدل مِن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا﴾ وما عُطف عليه؛ فيكون التحريم معلَّلًا بالكلّ. ولا يخفى أنّ قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ﴾[7] وقولَهم على مريمَ "البهتان"[8] متأخِّرٌ عن التحريم. ولا مساغَ لتعلّقها[9] بما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾؛

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٦.

٢ قرأ بها نافع مِن رواية وَرْش، واختلف في رواية قالون عنه. انظر: النشر لابن الجزري، ٢٥٣/٢.

٣ م س – وغيرِهما مِن العقوبات النازلةِ عليهم وعلى أعقابهم ["صح" في هامش م س].

٤ انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ٤٩٦/١ (المائدة ٧٧/٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٦٣/٢-٦٤ (البقرة ٦٤/٢)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٤٩٠/٧ (المائدة ٧٩/٥).

٥ النساء، ١٦٠/٤.

٦ النساء، ١٦٠/٤.

٧ النساء، ١٥٧/٤.

٨ في: النساء، ١٥٦/٤.

٩ أي: "الباء" في (فبما).

لأنّه ردٌّ لقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾،[١] فيكون مِن صلة قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ المعطوفِ على المجرور، فلا يعمَل في جارّه.

﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالقرآن أو بما في كتابهم، ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمعُ "أغلَف"، أي: هي مُغشّاة بأغشِية جِبِلّية، لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمّد عليه السلام، أو هو تخفيفُ "غُلُف" جمع "غِلاف"، أي: هي أوعِية للعلوم، فنحن مستَغنُون بما عندنا عن غيره، / قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما وعطاء.[٢] وقال الكلبي: [٩١و]
«يَعنُون: إنّ قلوبنا بحيث لا يصل إليها حديث إلّا وَعَتْه، ولو كان في حديثك خيرٌ لَوعته أيضًا».[٣]

﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ كلام معترِض بين المعطوفَين، جِيءَ به على وجه الاستطراد مسارعةً إلى ردّ زعمهم الفاسد، أي: ليس كفرهم وعدمُ وصول الحقّ إلى قلوبهم لكونها غُلْفًا بحسَب الجِبِلّة؛ بل الأمر بالعكس، حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم، أو ليست قلوبهم كما زعموا؛ بل هي مطبوع عليها بسبب كفرهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم، كعبد الله بن سَلَام وأضرابه، أو إلّا إيمانًا قليلًا لا يُعبَأ به.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بعيسى عليه السلام. وهو عطفٌ على ﴿قَوْلِهِمْ﴾،[٤] وإعادة الجارّ لطول ما بينهما بالاستطراد. وقد جُوّز عطفه على ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾،[٥] فيكون هو وما عُطف عليه مِن أسباب الطبع. وقيل: هذا المجموع معطوف على مجموع ما قبله، وتكرير ذكر الكفر للإيذان بتكرّر كفرهم؛ حيث كفروا بموسى،

---

[١] وفي هامش م: وكذا كفرهم بالقرآن وقولهم "قلوبنا غلف". «منه».

[٢] جامع البيان للطبري، ٢/٢٣١ (البقرة ٢/٨٨)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١/٢٣٣ (البقرة ٢/٨٨).

[٣] هو بمعناه في الكشف والبيان للثعلبي، ١/٢٣٤ (البقرة ٢/٨٨)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٧/٤٩٠ (البقرة ٢/٨٨).

[٤] في الآية السابقة.

[٥] في الآية السابقة.

ثمّ بعيسى، ثمّ بمحمّد عليهم الصلاة والسلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ لا يقادَر قدره؛ حيث نَسَبوها إلى ما هي عنه بألف منزلٍ.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ نظمُ قولهم هذا في سِلك سائر جناياتهم التي نُعِيت عليهم ليس بمجرَّد كونه كذِبًا؛ بل لتضمُّنه لابتهاجهم بقتل النبيّ والاستهزاءِ به، فإنّ وصفهم له عليه السلام بعُنوان الرسالة إنّما هو بطريق التهكّم به كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾... إلخ [الحجر، ٦/١٥]، ولإنبائه[١] عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح على ما قيل مِن أنّ ذلك وضع للذكر الجميل مِن جهته تعالى مكانَ ذكرهم القبيح. وقيل: هو نعت له عليه السلام مِن جهته تعالى مدحًا له عليه السلام ورفعًا لمَحلّه، وإظهارًا لغاية جُرأتهم في تَصدِّيهم لقتله ونهاية وقاحتهم في افتخارهم بذلك.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ حال أو اعتراض. ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رُوي أنّ رَهْطًا مِن اليهود سَبُّوه عليه السلام وأُمَّه، فدعا عليهم، فمسَخهم الله تعالى قِرَدةً وخنازيرَ، فاجتمعت[٢] اليهود على قتله، فأخبره الله تعالى بأنّه يرفعه إلى السماء، فقال لأصحابه: «أيّكم يرضى بأنْ يُلقَى عليه شَبَهِي فيُقتَلَ ويُصلَبَ ويدخلَ الجنّة؟»، فقال رجل منهم: «أنا»، فألقى الله تعالى عليه شَبَهَه، فقُتل وصُلب.[٣]

[٩١ظ] / وقيل: كان رجل ينافِق عيسى عليه السلام،[٤] فلمّا أرادوا قتْله قال: «أنا أدُلُّكم عليه»، فدخل بيت عيسى عليه السلام، فرُفع عليه السلام، وأُلقيَ شَبَهه على المنافق، فدخلوا عليه، وقتلوه، وهم يظُنّون أنّه عيسى عليه السلام.[٥]

---

[١] وفي هامش م: عطفٌ على "لتضمّنه".
[٢] م س: فأجمعت [ِ"صح" في هامش م].
[٣] أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٧/٢. انظر لتفصيله: جامع البيان للطبري، ٧/٦٥٤-٦٥٨.
[٤] س: صلّى الله عليه وسلّم.
[٥] م - عليه السلام. | الكشّاف للزمخشري، ٥٨٧/١.

وقيل: إنّ ططيانوس اليهودي دخل بيتًا كان هو فيه، فلم يجده، وألقى الله تعالى عليه شَبَهه، فلمّا خرج ظُنَّ أنّه عيسى، فأُخذ[١] وقُتل.[٢] وأمثال هذه الخوارق لا تُستبعد[٣] في عصر النبوّة.

وقيل: إنّ اليهود لمّا هَمُّوا بقتله عليه السلام فرفعه الله تعالى إلى السماء خافَ رُؤساء اليهود مِن وقوع الفتنة بين عوامّهم، فأخذوا إنسانًا، وقتلوه، وصلَبوه، ولبّسوا على الناس، وأظهروا لهم أنّه هو المسيح، وما كانوا يعرفونه إلّا بالاسم لعدم مخالطته عليه السلام لهم إلّا قليلًا.[٤]

و﴿شُبِّهَ﴾ مُسنَد إلى الجارّ والمجرور، كأنّه قيل: ولكن وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتولِ، أو في الأمر، على قول مَن قال: لم يُقتَل أحد، ولكن أُرجفَ بقتله، فشاع بين الناس، أو إلى ضمير المقتول لدلالة ﴿إِنَّا قَتَلْنَا﴾ على أنّ ثمّةَ مقتولًا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي: في شأن عيسى عليه السلام؛ فإنّه لمّا وقعت تلك الواقعة اختَلف الناس، فقال بعض اليهود: «إنّه كان كاذبًا، فقتلناه حقًّا»، وتردَّدَ آخَرون، فقال بعضهم: «إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟»، وقال بعضهم: «الوجه وجهُ عيسى، والبَدن بدنُ صاحبنا»، وقال مَن سمع منه "إنّ الله يرفَعُني إلى السماء": «إنّه رُفع إلى السماء»، وقال قوم: «صُلب الناسوت، وصعِد اللاهوت».

﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ لفي تردّد. والشكّ كما يطلَق على ما لم يترجّح أحدُ طرفَيه يطلَق على مطلَق التردّد، وعلى ما يقابِل العلم؛ ولذلك أُكّد بقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ استثناء منقطِع، أي: لكنّهم يتّبعون الظنَّ. ويجوز أن يفسَّر "الشكّ" بالجهل، و"العلمُ" بالاعتقاد الذي يسكُن إليه النفس، جزمًا كان أو غيرَه، فالاستثناء حينئذ متّصل.

---

١ س - فأخذ.

٢ س: فقتل. | الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٩/٣؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٨/٢.

٣ س: يستبعد.

٤ اللباب لابن عادل، ١١٢/٧.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي: قتلًا يقينًا، كما زعموا بقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾. وقيل: معناه: ما علموه يقينًا، كما في قول مَن قال:

كـذاك تُـخبِرُ عنها العـالمـاتُ بها وقـد قَـتَـلْـتُ بعِلمي ذلكـم يقينا[١]

مِن قولهم: "قتلتُ الشيءَ علمًا" و"نحَرتُه علمًا"، إذا تبالَغَ علمُك فيه. وفيه تهكّم بهم لإشعاره بعلمهم في الجملة، وقد نُفي ذلك عنهم بالكلّيّة.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨﴾

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ردٌّ وإنكار لقتله، وإثبات لرفعه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغالَب فيما يريده. ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله، فيدخل فيها تدبيراته تعالى في أمر عيسى عليه السلام دخولًا أوّليًّا.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ١٥٩﴾

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: مِن اليهود والنصارى. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ جملة قَسَميّة وقعت صفةً لموصوف محذوف، إليه يرجِع الضمير الثاني، والأوّلُ لعيسى عليه السلام، / أي: وما مِن أهل الكتاب أحدٌ إلّا لَيؤمننَّ [٩٢و]
بعيسى عليه السلام[٢] قبل أن تَزهَق روحُه بأنّه عبد الله ورسوله؛ ولَاتَ حينَ إيمانٍ لانقطاع وقت التكليف. ويعضُده أنّه قُرئ: "لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ"[٣] بضمّ النون، لِما أنّ "أحدًا" في معنى الجمع.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه فسّره كذلك، فقال له عكرمةُ: «فإن أتاه رجل، فضرب عُنُقَه؟»، قال: «لا تخرج نفسُه حتّى يحرّكَ بها شفتَيه»، قال: «فإن خرَّ مِن فوق بيت، أو احترق، أو أكله سَبُع؟»، قال: «يتكلّم بها في الهواء، ولا يخرج روحه حتّى يؤمنَ به».[٤] وعن شهر بن حَوْشَب:

---

١ لم نقف على قائله. ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٠٨/٢، ولم ينسبه إلى أحد.

٢ م – عليه السلام.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والضحّاك وأبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٧.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٨/١؛ تفسير الرازي، ٢٦٣/١١. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٦٧١/٧، بمعناه عن السدّي عن ابن عبّاس.

قال لي الحجّاج: «آيةٌ ما قرأتُها إلّا تخالَجَ في نفسي شيء منها» -يعني هذه الآيةَ- وقال: «إنّي أُوتَى بالأسير مِن اليهود والنصارى، فأضرب عُنُقَه، فلا أسمع منه ذلك»، فقلتُ: «إنّ اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دُبُرَه ووجهَه، وقالوا: "يا عدوَّ الله، أتاك عيسى نبيًّا، فكذّبتَ به"، فيقول: "آمنتُ أنّه عبد نبيّ"، وتقول للنصراني: "أتاك عيسى نبيًّا، فزعمتَ أنّه الله، أو ابنُ الله"، فيؤمن أنّه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه»، قال: وكان مُتّكِئًا، فاستوى جالسًا، فنظر إليَّ وقال: «ممّن؟»، قلتُ: «حدّثني محمّد بن[1] عليّ ابن[2] الحنفيّة»، فأخذ ينكُث الأرضَ بقَضِيبه، ثمّ قال: «لقد أخذتها مِن عَينٍ صافيةٍ».[3]

والإخبار بحالهم هذه وعيدٌ لهم وتحريضٌ على المسارعة إلى الإيمان به قبل أن يُضطرّوا إليه مع انتفاء جَدواه. وقيل: كِلا الضميرَين لـ﴿عِيسَى﴾، والمعنى: وما مِن أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى أحدٌ إلّا لَيؤمنَنَّ به قبل موته. رُوي: أنّه عليه السلام ينزل مِن السماء في آخر الزمان، فلا يبقى أحد مِن أهل الكتاب إلّا يؤمن به، حتّى يكونَ المِلّة واحدةً، وهي ملّة الإسلام، ويُهلك الله تعالى في زمانه الدَّجّالَ، ويقع الأمَنة حتّى تَرتَعَ[4] الأُسُود مع الإبل، والنُّمورُ مع البقر، والذِّئابُ مع الغَنَم، ويلعبُ الصِّبيان مع الحيّات، ويلبَثُ في الأرض أربعين سنةً، ثمّ يُتوفّى، ويصلّي عليه المسلمون، ويَدفِنونه.[5] وقيل: الضمير الأوّل يرجع إلى الله تعالى، وقيل: إلى محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

/ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ﴾ أي: عيسى عليه السلام ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على أهل الكتاب ﴿شَهِيدٗا﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب، وعلى النصارى بأنّهم دعَوْه "ابن الله"؛ تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا. [٩٢ظ]

---

١ س - محمّد بن.

٢ س: بن.

٣ هو مفصّلًا في الكشف والبيان للثعلبي، ٤١٢/٣، وباختلاف يسير في تفسير السمرقندي، ٣٨٠/١. والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ٥٨٨/١.

٤ رتَعت الماشية تَرتَع رتوعًا، أي: أكلت ما شاءت. الصحاح للجوهري، «رتع».

٥ مسند أحمد، ٣٩٨/١٥ (٩٦٣٢)؛ جامع البيان للطبري، ٦٧٤/٧-٦٧٥، كلاهما بمعناه. والألفاظ مِن أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٨/٢.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠﴾

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ لعلّ ذِكرَهم بهذا العنوان للإيذان بكمال عِظم ظلمهم بتذكير وقوعه بعد ما هادوا -أي: تابوا مِن عبادة العِجل مثلَ تلك التوبة الهائلة المشروطة ببُخع النفوس- إثرَ بيان عِظمه في حدّ ذاته بالتنوين التفخيميّ، أي: بسبب ظلم عظيم خارج عن حدود الأشباه والأشكال صادرٍ عنهم ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ ولِمن قبلهم، لا بشيء غيرِه كما زعموا؛ فإنّهم كانوا كلّما ارتكبوا معصيةً مِن المعاصي التي اقترفوها يحرَّم عليهم نوعٌ مِن الطيّبات التي كانت محلَّلةً لهم، ولِمن تقدَّمهم مِن أسلافهم عقوبةً لهم، وكانوا مع ذلك يَفتَرون على الله سبحانه، ويقولون: «لسنا بأوّل مَن حُرّمت عليه، وإنّما كانت محرَّمةً على نوح وإبراهيمَ ومَن بعدهما حتّى انتهى الأمر إلينا»، فكذّبهم الله عزّ وجلّ في مواقعَ كثيرةٍ، وبكّتهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران، ٩٣/٣]، أي: في ادّعائكم أنّه تحريم قديم.

رُوي أنّه عليه السلام لمّا كلّفهم إخراجَ التوراة، لم يجسُر أحد على إخراجها لِما أنّ كون التحريم بظلمهم كان مسطورًا فيها، فبُهِتوا، وانقلبوا صاغرين.[١]

﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: ناسًا كثيرًا، أو صدًّا كثيرًا.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ فإنّ الربا كان محرَّمًا عليهم، كما هو محرَّم علينا. وفيه دليل على أنّ النهي يدلّ على حُرمة المنهيّ عنه. ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بالرّشوة وسائرِ الوجوه المحرَّمة.

---

١ هو بمعناه في الكشف والبيان للثعلبي، ١١٣/٣-١١٤ (آل عمران ٩٣/٣)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢٨/٢ (آل عمران ٩٣/٣).

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ﴾ أي: للمُصرّين على الكفر، لا لِمَن تاب وآمن مِن بينهم. ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ سيذُوقونه في الآخرة، كما ذاقوا في الدنيا عقوبةَ التحريم.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ﴾ استدراك مِن قوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾... إلخ، وبيان لكون بعضهم على خلاف حالهم عاجلًا وآجلًا، أي: لكن الثابتون في العلم منهم المُتقِنون المستبصِرون فيه غيرُ التابعين للظنّ كأولئك الجَهَلة. والمراد به عبد الله بن سَلَام وأصحابه. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: منهم. وُصفوا بـ"الإيمان" بعدما وُصفوا بما يوجبه مِن "الرسوخ في العلم" بطريق العطف المنبِئ على المغايرة بين المعطوفَين تنزيلًا للاختلاف العُنوانيّ منزلةَ الاختلاف الذاتيّ. وقوله تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ حال مِن ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، / مبيِّنة لكيفيّة [٩٣و]
إيمانهم، وقيل: اعتراض مؤكِّد لِما قبله.

وقوله عزّ وعَلَا: ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قيل: نصب بإضمار فعل، تقديره: وأَعني المُقيمِين الصلاةَ، على أنّ الجملة معترِضة بين المبتدأ والخبر. وقيل: هو عطفٌ على ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ على أنّ المراد بهم الأنبياء، أي: يؤمنون بالكُتب وبالأنبياء، أو الملائكةُ، قال مكّي:[1] «أي: ويؤمنون بالملائكة الذين صفتهم إقامة الصلاة لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء، ٢١/٢٠]».[2]

---

١ هو مكّيّ بن أبي طالب حَمُّوش بن محمّد الأندلسي القيسي، أبو محمّد (ت. ٤٣٧هـ/١٠٤٥م). مُقرئ، عالم بالتفسير والعربيّة. مِن أهل القيروان، وُلد فيها، وطاف في بعض بلاد المشرق، وعاد إلى بلده وأقرأ بها، ثمّ سكن قرطبة وخطب وأقرأ بجامعها وتُوفّي فيها. وكان خيّرًا متديّنًا مشهورًا بالصلاح وإجابة الدعوة. له كتب كثيرة، منها: مشكل إعراب القرآن، والهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن وتفسيره، والتبصرة في القراءات السبع، والكشف عن وجوه القراءات وعللها، والإبانة عن معاني القراءات، والإيضاح للناسخ والمنسوخ. انظر: غاية النهاية لابن الجزري، ٢/٣٠٩-٣١٠؛ والأعلام للزركلي، ٧/٢٨٦.

٢ هو بمعناه في مشكل إعراب القرآن لمكّيّ بن أبي طالب، ١/٢١٢.

وقيل: عطفٌ على "الكاف" في ﴿إِلَيْكَ﴾، أي: يؤمنون بما أنزِلَ إليك وإلى المُقيمين الصلاةَ، وهم الأنبياء، وقيل: على الضمير المجرور في ﴿مِنْهُمْ﴾، أي: لكن الراسخون في العلم منهم ومِن المُقيمين الصلاةَ. وقُرئ بالرفع[١] على أنّه معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بناءً على ما مرَّ مِن تنزيل التغاير العنوانيّ منزلةَ التغاير الذاتيّ.

وكذا الحال فيما سيأتي مِن المعطوفَين؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مع اتّحاد الكلّ ذاتًا، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ فإنّ المراد بالكلّ مؤمنوا أهلِ الكتاب، قد وُصفوا أوّلًا بكونهم راسخين في علم الكتاب إيذانًا بأنّ ذلك موجِب للإيمان حتمًا، وأنّ مَن عداهم إنّما بَقُوا مُصرّين على الكفر لعدم رسوخهم فيه، ثمّ بكونهم مؤمنين بجميع الكُتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، ثمّ بكونهم عالمين بما فيها مِن الشرائع والأحكام، واكتُفيَ مِن بينها بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المستتبِعتَين لسائر العبادات البدنيّة والماليّة، ثمّ بكونهم مؤمنين بالمَبدَأ والمَعاد تحقيقًا لحِيازتهم الإيمانَ بقُطرَيه وإحاطتِهم به مِن طرفَيه، وتعريضًا بأنّ مَن عداهم مِن أهل الكتاب ليسوا بمؤمنين بواحد منهما حقيقةً؛ فإنّهم بقولهم ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة، ٣٠/٩] مشركون بالله سبحانه، وبقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة، ٨٠/٢] كافرون باليوم الآخر.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتّصافهم بما عُدِّد مِن الصفات الجميلة. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار بعُلوّ درجتهم وبُعدِ منزلتهم في الفضل. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ خبره، والجملة خبر للمبتدأ الذي هو ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ وما عُطف عليه، و"السين" لتأكيد الوعد، وتنكير "الأجر" للتفخيم.

هذا أنسَبُ بتجاوب طرفَي الاستدراك؛ حيث أُوعِدَ الأوّلون بالعذاب الأليم، ووُعد الآخِرون بالأجر العظيم، كأنّه قيل إثرَ قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا

---

١ أي: "وَالْمُقِيمُونَ"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن مالك بن دينار وعيسى الثقفي وعاصم الجحدري. المحتسَب لابن جنّي، ٢٠٣/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٧.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:[١] لكن المؤمنون منهم سنؤتيهم أجرًا عظيمًا. وأمّا ما جنَح إليه الجمهور مِن جعل قوله تعالىٰ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾... إلخ خبرًا للمبتدأ، ففي كمال السَّداد؛ خلَا أنّه غير متعرِّض لتقابُل الطرفَين.

/ وقُرئ: "سَيُؤْتِيهِمْ"[٢] بالياء مراعاةً لظاهر قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾. [٩٣ظ]

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أن ينزِّل عليهم كتابًا مِن السماء، واحتجاج عليهم بأنّه ليس بِدْعًا مِن الرُّسل، وإنّما شأنه في حقيقة الإرسال وأصل الوحي كشأن سائر مشاهير الأنبياء الذين لا ريبَ لأحد في نبوّتهم.

و"الكاف" في محلّ النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف، أي: إيحاءً مثلَ إيحائنا إلى نوح، أو على أنّه حال مِن ذلك المصدر المقدَّر معرَّفًا، كما هو رأي سيبويه، أي: أوحينا الايحاءَ حالَ كونه مُشبِهًا لإيحائنا... إلخ. و﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ متعلِّق بـ﴿أَوْحَيْنَآ﴾. وإنّما بُدئ بذكر نوح؛ لأنّه أبو البَشر، وأوّلُ نبيّ شرع الله تعالى على لسانه الشرائع والأحكامَ، وأوّلُ نبيّ عُذِّبت أمّته لردّهم دعوتَه، وقد أهلك الله تعالى[٣] بدعائه أهلَ الأرض.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطفٌ على ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾، داخل معه في حكم التشبيه، أي: وكما أوحينا إلى إبراهيمَ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وهُم[٤] أولاد يعقوبَ عليهم السلام ﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾.

---

١ في الآية السابقة.
٢ قرأ بها حمزة وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٥٣/٢.
٣ س - تعالى.
٤ س: هم.

خُصُّوا بالذكر مع ظهور انتظامهم في سِلك النبيّين تشريفًا لهم وإظهارًا لفضلهم، كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ[1] وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة، ٩٨/٢]، وتصريحًا بمَن ينتمي إليهم اليهود مِن الأنبياء. وتكرير الفعل لمزيد تقرير الإيحاء والتنبيه على أنّهم طائفة خاصّة مستقلّة بنوع مخصوص مِن الوحي.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ قال القرطبي: «كان فيه مائة وخمسون سورةً ليس فيها حُكم مِن الأحكام، وإنّما هي حِكَم ومواعظُ والتحميد والتمجيد والثناء على الله عزّ وجلّ».[2] وقُرئ بضمّ الزاء، وهو جمعُ "زِبْر" بمعنى "مزبور". والجملة عطفٌ على ﴿أَوْحَيْنَا﴾، داخل في حكمه؛ لأنّ إيتاء الزَّبور مِن باب الإيحاء، أي: وكما آتينا داودَ زبورًا. وإيثاره على "وأوحينا إلى داودَ" لتحقيق المماثلة في أمر خاصّ -هو إيتاء الكتاب- بعد تحقيقها في مطلَق الإيحاء.

ثمّ أشيرَ إلى تحقيقها في أمر لازم لهما لزومًا كلّيًا، وهو الإرسال. فإنّ قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا﴾ نصب بمضمَرٍ يدلّ عليه ﴿أَوْحَيْنَا﴾ معطوفٍ عليه داخلٍ معه في حكم التشبيه كما قبله، أي: وكما أرسلنا رُسلًا؛ لا بما يفسّره قوله تعالى: ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي: وقصصنا رُسلًا، كما قالوا، وفرّعوا عليه أنّ قوله تعالى: ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ﴾ على الوجه الأوّل منصوب على أنّه صفة لـ﴿رُسُلًا﴾، وعلى الوجه الثاني لا محلَّ له مِن الإعراب؛ فإنّه ممّا لا سبيلَ إليه كما ستقف عليه. وقُرئ برفع "رُسُل".[3] وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلّق بـ﴿قَصَصْنَا﴾، أي: قصصنا مِن قبل هذه السورة أو اليوم. ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ عطفٌ على ﴿رُسُلًا﴾ منصوب بناصبه. وقيل:[4] كلاهما منصوب بنزع الخافض، والتقدير: كما أوحينا إلى نوح وإلى رُسل... إلخ.

والحقّ أن يكون انتصابهما بـ"أرسلنا"؛ فإنّ فيه تحقيقًا للمماثلة بين شأنه صلّى الله عليه وسلّم وبين شئون مَن يعترفون بنبوّته مِن الأنبياء عليهم السلام

---

١ م س - ورسله.

٢ تفسير القرطبي، ١٧/٦، بختلاف يسير وبدون "والتحميد والتمجيد والثناء على الله عزّ وجلّ".

٣ قراءة شاذّة، ذكرها ابن عطيّة في المحرّر الوجيز، ١٣٧/٢، ونسبها إلى أبيّ بن كعب.

٤ وفي هامش م: ابن العادل. | اللباب لابن عادل، ١٣٤/٧.

في مطلَق الإيحاء، ثمّ في إيتاء الكتاب، ثمّ في الإرسال؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ منتظِم لمعنى[١] "آتيناك" و"أرسلناك" حتمًا، كأنّه قيل: إنّا أوحينا إليك إيحاءً مثلَ ما أوحينا إلى نوح ومثلَ ما أوحينا إلى إبراهيمَ ومَن بعده، وآتيناك الفرقان إيتاءً مثلَ ما آتينا داودَ زَبورًا، وأرسلناك إرسالًا مثلَ ما أرسلنا رُسلًا قد قصصناهم عليك مِن قبلُ، ورُسلًا آخَرين لم نقصُصهم عليك، مِن غير تفاوُت بينك وبينهم في حقيقة الإيحاء وأصل الإرسال؛ فما للكَفَرة يسألونك شيئًا لم يُعطَه أحد مِن هؤلاء الرُّسل عليهم السلام؟

ومِن ههنا اتّضح أنّ ﴿رُسُلًا﴾ لا يمكن نصبُه بـ﴿قَصَصْنَا﴾؛ فإنّ ناصِبه يجب أن يكون معطوفًا على ﴿أَوْحَيْنَا﴾ داخلًا معه في حكم التشبيه / الذي عليه يدور [٩٤و] فَلَكُ الاحتجاج على الكَفَرة؛ ولا ريبَ في أنّ ﴿قَصَصْنَا﴾ لا تعلُّقَ له بشيء مِن الإيحاء والإيتاء حتّى يمكنَ اعتبارُه في ضِمن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، ثمّ يُعتبرَ بينه وبين المذكور مماثلةٌ مصحِّحة للتشبيه، على أنّ تقديره في ﴿رُسُلًا﴾ الأوّلِ يقتضي تقديرَ نفيه في الثاني، وذلك أشدُّ استحالةً وأظهرُ بُطلانًا.

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ﴾ برفع الجلالة ونصب ﴿مُوسَىٰ﴾. وقُرئ على القلب.[٢] وقوله تعالى: ﴿تَكْلِيمًا﴾ مصدر مؤكِّد رافع لاحتمال المجاز. قال الفرّاء: «العرب تسمِّي ما وصل إلى الإنسان كلامًا -بأيّ طريق وصل- ما لم يؤكَّد بالمصدر؛ فإذا أُكّد به لم يكن إلّا حقيقة الكلام».[٣]

والجملة إمّا معطوفة على قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ عطفَ القصّة على القصّة، لا على ﴿ءَاتَيْنَا﴾ وما عُطف عليه، وإمّا حال بتقدير "قد" كما يُنبئ عنه تغيير الأسلوب بالالتفات، والمعنى: أنّ التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحي، خُصّ به موسى مِن بينهم، فلم يكن ذلك قادحًا في نبوّة سائر الأنبياء، فكيف يُتوهّم كون نزول التوراة عليه عليه السلام جملةً قادحًا في صحّة نبوّة

---

١ س: بمعنى.

٢ أي: "وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى"، وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيم. المحتسَب لابن جنّي، ٢٠٤/١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٨.

٣ لم نقف عليه في معاني القرآن للفرّاء. ذكره السمعاني في تفسيره، ٥٠٣/١؛ وابن عادل في اللباب، ١٣٥/٧.

مَن أُنزلَ عليه الكتاب مفصَّلًا، مع ظهور أنّ نزولها كذلك لحِكَم مقتضية لذلك، مِن جملتها أنّ بني إسرائيلَ كانوا في العناد وشدّة الشكيمة بحيث لو لم يكن نزولها كذلك لَمَا آمنوا بها، ومع ذلك ما آمنوا بها إلّا بعد اللَّتيّا والتي. وقد فضّل الله تعالى نبيَّنا محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم[1] بأنْ أعطاه مثلَ ما أعطى كلَّ واحد منهم صلّى الله عليهم وسلّم تسليمًا كثيرًا.[2]

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ نصب على المدح، أو بإضمار "أرسلنا"، أو على الحال بأنْ يكون ﴿رُسُلًا﴾ مُوَطِّئًا لِما بعده، أو على البدليّة مِن ﴿رُسُلًا﴾[3] الأوّلِ، أي: مبشِّرين لأهل الطاعة بالجنّة ومنذِرين للعُصاة بالنار.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾ أي: مَعذِرة يعتذرون بها، قائلين: لولا أرسلتَ إلينا رسولًا، فيبيِّنَ لنا شرائعك، ويعلِّمَنا ما لم نكن نعلم مِن أحكامك لقصور القوّة البَشريّة عن إدراك جزئيّات المصالح وعجزِ أكثر الناس عن إدراك كلّيّاتها، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الآية [طه، ٢٠/١٣٤].

وإنّما سُمّيت حجّةً -مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجّةٌ في فعل مِن أفعاله؛ بل له أن يفعل ما يشاء كما يشاء- للتنبيه على أنّ المعذرة في القبول عنده تعالى بمقتضى كرمه ورحمته لعباده بمنزلة الحجّة القاطعة التي لا مردَّ لها؛ ولذلك قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٧/١٥]. قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «ما أحد أغيَرُ مِن الله عزّ وجلّ؛ لذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطَن، وما أحد أحبُّ إليه المدحُ مِن الله تعالى؛

---

[1] م - صلّى الله عليه وسلّم.

[2] وفي هامش م: وأيًّا ما كان، فالتعرّض لوصفَي التبشير والإنذار لتحقيق المماثلة بينهم وبينه عليهم الصلاة والسلام. «منه».

[3] في الآية السابقة.

لذلك مدح نفسَه، وما أحد أحبُّ إليه العُذرُ مِن الله تعالى؛ لذلك أرسل الرُّسل وأنزل الكُتب».[١]

فـ"اللام" متعلِّقة بـ"أرسلنا"، وقيل: بقوله تعالى: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، و﴿حُجَّةٌ﴾ اسمُ "كان"، و﴿لِلنَّاسِ﴾ خبرُها، و﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿حُجَّةٌ﴾، أي: كائنةً على الله، أو هو الخبر، و﴿لِلنَّاسِ﴾ حال على الوجه المذكور. ويجوز أن يتعلّق كلٌّ منهما بما تعلَّق به الآخَر الذي هو الخبر، ولا يجوز التعلّق بـ﴿حُجَّةٌ﴾؛ لأنّ معمول المصدر لا يتقدّم عليه.[٢] وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: بعد إرسالهم وتبليغ الشرائع إلى الأُمم على ألسِنتهم، متعلِّقٌ بـ﴿حُجَّةٌ﴾، أو بمحذوف وقع صفةً لها؛ لأنّ الظروف يوصَف بها الأحداث، كما يخبَر بها عنها، نحو: "القِتال يوم الجمُعة".

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغالَب في أمر مِن أموره، ومِن قضيّته الامتناع عن الإجابة إلى مسألة المتعنِّتين. ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله التي مِن جملتها إرسال الرُّسل وإنزالُ الكُتب؛ فإنّ تعدّد الرُّسل والكُتب واختلافَها في كيفيّة النزول وتغايرَها في بعض الشرائع والأحكام إنّما هو لتفاوُت طبقات الأُمم في الأحوال التي عليها يدور فَلَكُ التكليف؛ فكما أنّه سبحانه وتعالى / بَرَأَهم على أنحاءٍ شتّى [٩٤ظ] وأطوار متباينة حسبما يقتضيه الحكمة التكوينيّة، كذلك تعبَّدهم بما يَليق بشأنهم ويقتضيه أحوالهم المتخالِفة واستعداداتُهم المتغايِرة مِن الشرائع والأحكام حسبما يستدعيه الحكمة التشريعيّة، وراعَى في إرسال الرُّسل وإنزالِ الكُتب

---

١ وفي هامش م: ثعلبي. | هو أحمد بن محمّد بن إبراهيم، أبو إسحاق الثعلبي (ت. ٤٢٧هـ/١٠٣٥م). المفسّر المشهور. كان صادقًا موثقًا بصيرًا بالعربيّة، طويلَ الباع في الوعظ. حدّث عن أبي بكر بن مهران المُقرئ وأبي طاهر محمّد بن الفضل بن خُزيمة والحسن بن أحمد المَخلدي وأبي الحسين الخفّاف وأبي بكر بن هانئ وأبي محمّد بن الرومي. وسمع منه أبو الحسن الواحدي التفسيرَ وأخذه عنه وأثنى عليه. مِن كتبه: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، وعرائس المجالس، والكامل في القرآن. انظر: معجم الأدباء للحَمَوي، ٥٠٧/٢؛ وطبقات المفسّرين للداوودي، ٦٦/١-٦٧. والحديث باختلاف يسير في تفسيره الكشف والبيان، ٤١٧/٣، وبمعناه في صحيح البخاري، ١٢٣/٩ (٧٤١٦)؛ وصحيح مسلم، ١١٣٦/٢ (١٤٩٩).

٢ وفي هامش م: لباب. | اللباب لابن عادل، ١٣٧/٧.

وغيرِ ذلك مِن الأمور المتعلِّقة بمَعاشهم ومَعادهم ما فيه مَصلحتهم؛ فسؤال تنزيل الكتاب جملةً اقتراحٌ فاسدٌ؛ إذ حينئذ يتفاقَمُ التكاليف، فيثقُل على المكلَّف قبولها والخروجُ عن عُهدتها، وأمّا التنزيل المنجَّم الواقعُ حسب الأمور الداعية إليه، فهو أيسَرُ قبولًا وأسهَلُ امتثالًا.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾ بتخفيف النون ورفع الجلالة، وقُرئ بتشديد النون ونصب الجلالة.[1] وهو استدراك عمّا يُفهَم ممّا قبله، كأنّهم لمّا تعنّتوا عليه بما سبق مِن السؤال واحتجّ عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَا﴾... إلخ [النساء، ٤/١٦٣] قيل: إنّهم لا يشهدون بذلك، لكن اللهُ يشهَد ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ﴾، على البناء للفاعل، وقُرئ على بناء المفعول.[2] و"الباء" صلة للشهادة، أي: يشهد بحقّيّة ما أنزل إليك مِن القرآن المعجِز الناطقِ بنبوّتك. وقيل: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [النساء، ٤/١٦٣] قالوا: «ما نشهد لك بهذا»، فنزل ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾.[3]

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي: ملتبِسًا بعلمه الخاصّ الذي لا يعلمه غيره، وهو تأليفه على نمَط بديع يَعجِز عنه كلّ بليغ، أو بعلمه بحال مَن أنزله عليه واستعداده لاقتباس الأنوار القُدسيّة، أو بعلمه الذي يحتاج إليه الناس في مَعاشهم ومَعادهم؛ فالجارّ والمجرور على الأوّلَين حال مِن الفاعل، وعلى الثالث مِن المفعول، والجملة في موقع التفسير لِما قبلها. وقُرئ: "نَزَّلَهُ".[4]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ أي: بذلك، مبتدأ وخبر، والجملة عطفٌ على ما قبلها، وقيل: حال مِن مفعول ﴿أَنزَلَهُ﴾، أي: أنزله والملائكةُ يشهدون

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي ونبيح والجرّاح. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٨.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٨.

٣ هو بمعناه في جامع البيان للطبري، ٧/٦٩٤؛ وتفسير السمرقندي، ١/٣٨٣. والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ١/٥٩٢.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها أبو حيّان في البحر المحيط، ٤/١٤٠، ونسبها إلى السُلمي.

بصدقه وحقّيّته. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على صحّة نبوّتك؛ حيث نصَب لها معجِزاتٍ باهرةً وحُجَجًا ظاهرةً مغنيةً عن الاستشهاد بغيرها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بما أنزل الله تعالى وشهِد به، أو بكلّ ما يجب الإيمان به، وهو داخل فيه دخولًا أوّليًا. والمراد بهم اليهود؛ حيث كفروا به ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ -وهو دين الإسلام- مَن أراد سلوكه، بقولهم: «ما نعرف صفة محمّد في كتابنا». وقُرئ: "صُدُّوا"[١] مبنيًا للمفعول. ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ بما فعلوا مِن الكفر والصدّ عن طريق الحقّ ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾؛ لأنّهم جمعوا بين الضلال والإضلال، ولأنّ المُضلّ يكون أعرقَ في الضلال وأبعدَ مِن الإقلاع عنه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٦٩﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بما ذُكر آنفًا ﴿وَظَلَمُوا﴾ أي: محمّدًا صلّى الله عليه وسلّم بإنكار نبوّته وكِتمان نعوته الجليلة ووضعِ غيرها مكانَها، أو الناسَ بصدّهم عمّا فيه صلاحهم في المعاش والمعاد. ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ لاستحالة تعلّق المغفرة بالكافر ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۞ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ لعدم استعدادهم للهداية إلى الحقّ والأعمال / الصالحةِ التي هي طريق الجنّة. والمراد بالهداية المفهومة [٩٥و] مِن الاستثناء بطريق الإشارة خلقُه تعالى لأعمالهم السيّئة المؤدّية بهم إلى جهنّمَ عند صرف قدرتهم واختيارِهم إلى اكتسابها، أو سَوقُهم إليها يومَ القيامة بواسطة الملائكة. و"الطريق" على عمومه، والاستثناء متّصل، وقيل: خاصّ بطريق الحقّ، والاستثناء منقطِع.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مقدَّرة مِن الضمير المنصوب، والعامل فيها ما دلّ عليه الاستثناء دلالةً واضحةً، كأنّه قيل: يُدخلهم جهنّمَ خالدين فيها... إلخ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والأعرج وأبي واقد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٨.

وقوله: ﴿أَبَدًا﴾ نصب على الظرفيّة، رافع لاحتمال حمل الخلود على المَكث الطويل. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: جعلُهم خالدين في جهنّمَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لاستحالة أن يتعذّر عليه شيء مِن مراداته تعالى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧٠﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بعد ما حُكي لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم تعلُّلُ اليهود بالأباطيل واقتراحُهم الباطلَ تعنّتًا، ورُدَّ عليهم ذلك بتحقيق نبوّته عليه السلام وتقريرِ رسالته ببيان أنّ شأنه عليه السلام في أمر الوحي والإرسال كشئون مَن يعترفون بنبوّته مِن مشاهير الأنبياء عليهم السلام، وأُكّد ذلك بشهادته سبحانه وشهادة الملائكة، أُمِرَ المكلَّفون كافّةً على طريق تلوين الخطاب بالإيمان بذلك، أمرًا مشفوعًا بالوعد بالإجابة والوعيد على الردّ، تنبيهًا على أنّ الحجّة قد لزِمت، ولم يبقَ بعد ذلك لأحد عُذرٌ في عدم القبول.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ تكرير للشهادة، وتقرير لحقّيّة المشهود به، وتمهيد لِما يعقُبه مِن الأمر بالإيمان. وإيراده صلّى الله عليه وسلّم بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته. والمراد بـ﴿ٱلْحَقِّ﴾ هو القرآن الكريم. و"الباء" متعلِّقة بـ﴿جَآءَكُمْ﴾، فهي للتعدية، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، أي: ملتبِسًا بالحقّ. و﴿مِنْ﴾ أيضًا متعلِّقة إمّا بالفعل، وإمّا بمحذوفٍ هو حال مِن ﴿ٱلْحَقِّ﴾، أي: جاءكم به مِن عنده تعالى، أو جاءكم بالحقّ كائنًا مِن عنده تعالى. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين للإيذان بأنّ ذلك لتربيتهم وتبليغهم إلى كمالهم اللائق بهم، ترغيبًا لهم في الامتثال بما بعده مِن الأمر.

و"الفاء" في قوله عزّ وعَلَا:[1] ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ للدلالة على إيجاب ما قبلها لِما بعدها، أي: فآمِنوا به وبما جاءكم به مِن الحقّ. وقوله تعالى: ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ منصوب على أنّه مفعول لفعل واجبِ الإضمار، كما هو رأي الخليل وسيبويه،

---

[1] س: تعالى.

أي: اقصِدوا، أو ائتُوا أمرًا خيرًا لكم ممّا أنتم فيه مِن الكفر، أو على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف، كما هو رأي الفرّاء، أي: آمِنوا إيمانًا خيرًا لكم، أو على أنّه خبر "كان" المضمَرة الواقعة جوابًا للأمر، لا جزاءً للشرط الصِّناعيّ، وهو رأي الكسائي وأبي عبيدةَ، أي: يكن الإيمانُ خيرًا لكم.

﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ أي: إن تُصرّوا وتستمِرّوا على الكفر به، ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن الموجودات، سواء كانت داخلةً في حقيقتهما -وبذلك يُعلَم حال أنفسهما على أبلغ وجه وآكَدِه- أو خارجةً عنهما مستقرّةً فيهما مِن العقلاء وغيرهم، فيدخل في جملتهم المخاطَبون دخولًا أوّليًا، أي: كلُّها له عزّ وجلّ خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، لا يخرج مِن ملَكوته وقهره شيءٌ منها؛ فمَن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبكم بكفركم لا محالةَ، أو فمَن كان كذلك فهو غنيّ عنكم / وعن غيركم، لا يتضرّر بكفركم، [٩٥ظ] ولا ينتفع بإيمانكم. وقيل: فمَن كان كذلك فله عَبيد يعبدونه، وينقادون لأمره.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالِغًا في العلم، فهو عالم بأحوال الكلّ، فيدخل في ذلك علمه تعالى بكفرهم دخولًا أوّليًا. ﴿حَكِيمًا﴾ مراعيًا للحكمة في جميع أفعاله التي مِن جملتها تعذيبه تعالى إيّاهم بكفرهم.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٧١﴾

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تجريد للخطاب وتخصيص له بالنصارى زجرًا لهم عمّا هم عليه مِن الكفر والضلال. ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ بالإفراط في رفع شأن عيسى عليه السلام وادّعاءِ ألوهيّته. وأمّا غُلوّ اليهود في حطّ رُتبته عليه السلام ورَمْيُهم بأنّه وُلد لغير رِشْدة،[1] فقد نُعِي عليهم ذلك فيما سبق. ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي:

---

[1] يقال: هو لِرِشدة: إذا كان صحيحَ النَّسب، وهو نقيض قولهم: هو لِرِيبة. شمس العلوم للحِميري، ٢٥٠٣/٤.

لا تصِفوه بما يستحيل اتّصافُه به مِن الحلول والاتّحاد واتّخاذِ الصاحبة والولد؛ بل نَزِّهوه عن جميع ذلك.

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ﴾ قد مرَّ تفسيره في سورة آل عمرانَ.[١] وقُرئ بكسر الميم وتشديد السين،[٢] كـ"السِّكِّيت"، على صيغة المبالغة. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿عِيسَى﴾ بدل منه، أو عطفُ بيان له، وقوله تعالى: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة له، مفيدة لبُطلان ما وصفوه عليه السلام به مِن بُنُوّته تعالى.[٣]

وقوله تعالى: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ خبر للمبتدأ، والجملة مستأنَفة مَسوقة لتعليل النهي عن القول الباطل المستلزِم للأمر بضِدّه -أَعني: الحقَّ- أي: إنّه مقصور على رُتبة الرسالة، لا يتخطّاها. ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ عطفٌ على ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، أي: مكوَّن بكلمته وأمره -الذي هو "كُنْ"- مِن غير واسطةِ أبٍ ولا نُطفة.

﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أي: أوصَلَها إليها وحصَّلها فيها بنفخ جبريلَ عليه السلام. وقيل: أعلمَها إيّاها وأخبرها بها بطريق البِشارة، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران، ٣/٤٥]. قيل: الجملة حال مِن ضميره عليه السلام المستكنِّ فيما دلَّ عليه ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ مِن معنى المشتَقّ[٤] الذي هو العامل فيها، و"قد" مقدَّرة معها.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ قيل: هو الذي نفَخ جبريل عليه السلام في دِرْع مريمَ، فحملت بإذن الله تعالى. سُمّي النفخ روحًا؛ لأنّه رِيح تخرج مِن الروح. و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية مجازًا، لا تبعيضيّة كما زعمت النصارى.

---

[١] انظر: تفسير آل عمران، ٣/٤٥-٥٠.

[٢] لم نقف عليه في كتب القراءات والتفسير. نقل الثعلبي في الكشف والبيان، ٣/٦٨، عن أبي تميم النُّخَعي: «إنّ المِسّيح -بكسر الميم وتشديدِ السين- هو الدجّال». وقال الألوسي في روح المعاني، ٤/١٩٦: «وفرّق النُّخَعي بين لقب روح الله وعَدُوّه، بأنّ الأوّل بفتح الميم والتخفيف، والثاني بكسر الميم وتشديدِ السين كـ"شِرّير". وأنكره غيرُه، وهو المعروف».

[٣] كذا في الأصول الخطّيّة، على معنى: قولهم لعيسى عليه السلام: ابن الله تعالى. وفي مطبوعاته بزيادة "لله": بُنُوّة عيسى عليه السلام لله تعالى.

[٤] وفي هامش م: كأنّه قيل: ومنشؤه ومُبتدَعه. «منه».

يُحكى أنّ طبيبًا حاذقًا نصرانيًا للرشيد[١] ناظَرَ عليّ بنَ حسين الواقديَّ المَرْوزيَّ[٢] ذاتَ يوم، فقال له: «إنّ في كتابكم ما يدلّ على أنّ عيسى عليه السلام جزء منه تعالى»، وتلَا هذه الآيةَ، فقرأ الواقدي: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ [الجاثية، ١٣/٤٥]، فقال: «إذن، يَلزَم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءًا منه، سبحانه وتعالى عُلوًّا كبيرًا»، فانقطع النصراني، فأسلَمَ، وفرِح الرشيد فرَحًا شديدًا، ووصل الواقديَّ بصِلة فاخرة.[٣]

وهي متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿رُوحٌ﴾، أي: كائنة مِن جهته تعالى، جُعلت منه تعالى -وإن كانت بنفخ جبريلَ عليه السلام- لكون النفخ بأمره سبحانه. وقيل: سُمّي روحًا لإحيائه الأمواتَ، وقيل: لإحيائه القلوبَ، كما سُمّي بها القرآن لذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى، ٥٢/٤٢].

وقيل: أُريدَ بـ"الروح" الوحي الذي أُوحيَ إلى مريمَ بالبِشارة. وقيل: جرت العادة بأنّهم إذا أرادوا وصفَ شيء بغاية الطهارة والنظافة قالوا: «إنّه روح»، فلمّا كان عيسى / عليه السلام متكوِّنًا مِن النفخ -لا مِن النُّطفة- وُصِف بالروح. [٩٦و]

---

١ هو هارون الرشيد ابن محمّد المَهدي ابن المنصور العبّاسي، أبو جعفر (ت. ١٩٣هـ/٨٠٩م). خامس خلفاء الدولة العبّاسيّة في العراق وأشهرُهم. وُلد بالري لمّا كان أبوه أميرًا عليها وعلى خراسان. ونشأ في دار الخلافة ببغداد. وولّاه أبوه غزو الروم في القسطنطينيّة، فصالحته الملكة إيريني وافتدت منه مملكتها بسبعين ألف دينار تبعث له إلى خزانة الخليفة في كلّ عام. وبُويعَ بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي. وازدهرت الدولة في أيّامه. وكان الرشيد عالمًا بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحًا، له شعر ومحاضرات مع علماء عصره، شجاعًا كثيرَ الغزوات، حازمًا كريمًا متواضعًا. انظر: **الأعلام** للزركلي، ٦٢/٨.

٢ هو عليّ بن الحُسين بن واقِد المَروزي، أبو الحسن (ت. ٢١١هـ/٨٢٦-٨٢٧م). الإمام، المحدّث الصدوق. كان مولى الأمير فاتح خراسان عبد الله بن عامر القرشي. كان عليٌّ عالمًا صاحبَ حديث كأبيه. حدّث عن أبيه وأبي حمزة السُّكّري وسليم مولى الشعبي وهشام بن سعد المدني وخارجة بن مصعب وعبد الله بن عمر العُمَري، وطبقتهم. وحدّث عنه إسحاق بن راهَويه ومحمود بن غَيلان وعليّ بن خَشْرَم ورجاء بن مُرجّى ومحمّد بن عَقيل بن خُوَيلد ومحمّد بن رافع وأبو الدرداء عبد العزيز بن مُنيب، وآخرون. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢١١/١٠-٢١٢.

٣ نقله الثعلبي عن أستاذه سمعًا. انظر: **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤١٩/٣-٤٢٠.

وتقديم كونه عليه السلام رسولَ الله تعالى في الذكر -مع تأخّره عن كونه كلمتَه تعالى وروحًا منه في الوجود- لتحقيق الحقّ مِن أوّل الأمر بما هو نصٌّ فيه غيرُ محتمِل للتأويل وتعيينِ مَآل ما يحتمله وسَدِّ باب التأويل الزائغ.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ وخُصُّوه بالألوهيّة، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ أجمعين، وصِفُوهم بالرسالة، ولا تُخرِجوا بعضهم عن سِلكهم بوصفه بالألوهيّة، ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ أي: «الآلهة ثلاثة: الله والمسيح ومريمُ»، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة، ١١٦/٥]، أو «الله ثلاثة»، إن صَحَّ أنّهم يقولون: «الله جوهرٌ واحدٌ ثلاثةُ أقانيمَ: أُقنُوم الأب وأُقنُوم الابن وأُقنُوم روح القُدس»، وأنّهم يريدون بالأوّل الذاتَ، وقيل: الوجودَ، وبالثاني العلمَ، وبالثالث الحياةَ. ﴿ٱنتَهُواْ﴾ أي: عن التثليث ﴿خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾ قد مرَّ وجوه انتصابه.[1]

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: بالذات منزَّه عن التعدّد بوجه مِن الوجوه. فـ﴿ٱللَّهِ﴾ مبتدأ، و﴿إِلَٰهٌ﴾ خبره، و﴿وَٰحِدٌ﴾ نعتٌ، أي: منفرِد في ألوهيّته. ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: أُسبّحه تسبيحًا مِن أن يكون له ولد، أو: سَبِّحوه تسبيحًا مِن ذلك؛ فإنّه إنّما يُتصوّر فيمَن يماثله شيء ويتطرّق إليه فَناء، والله سبحانه منزَّه عن أمثاله. وقُرئ: "إِنْ يَكُونُ"،[2] أي: سبحانه ما يكون له ولد.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لتعليل التنزيه وتقريره، أي: له ما فيهما مِن الموجودات خلقًا ومُلكًا وتصرّفًا، لا يخرج مِن ملَكوته شيء مِن الأشياء التي مِن جملتها عيسى عليه السلام؛ فكيف يُتوهَّم كونه ولدًا له تعالى!

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ إليه يَكِلُ كلُّ الخلق أمورَهم، وهو غنيّ عن العالَمين؛ فأنّى يُتصوّر في حقّه اتّخاذُ الولد الذي هو شأن العَجَزة المحتاجين في تدبير أمورهم إلى مَن يخلُفهم ويقوم مَقامهم.

---

[1] في تفسير الآية السابقة.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. **المحتسَب** لابن جنّي، ٢٠٤/١.

﴿لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾

﴿لَن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ استئناف مقرّر لِما سبق مِن التنزيه. والاستنكاف:[1] الأَنَفة والترفّع، مِن "نكَفتُ الدمعَ" إذا نَحَّيْتَه عن وجهك بالأُصبُع، أي: لن يأنَف، ولن يترفّع ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي: عن أن يكون عبدًا له تعالى مستمرًّا على عبادته وطاعته حسبما هو وظيفة العبوديّة؛ كيف، وإنّ ذلك أقصى مراتب الشرف. والاقتصار[2] على ذكر عدم استنكافه عليه السلام عنه -مع أنّ شأنه عليه السلام المباهاة به كما يدلّ عليه أحواله، ويُفصح عنه أقواله؛ أَوَلا يُرَى أنّ أوّل مقالة قالها للناس قولُه: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم، ٣٠/١٩]- لوقوعه[3] في موقع الجواب عمّا قاله الكَفَرة.

رُوي أنّ وفد نجرانَ قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «لِمَ تَعِيبُ صاحبَنا؟»، قال: «ومَن صاحبُكم؟»، قالوا: «عيسى»، قال: «وأيّ شيء أقول؟»، قالوا: «تقول إنّه / عبد الله»، قال: «إنّه ليس بعارٍ أن يكون عبدًا لله»، قالوا: «بلى»، فنزلت.[4] وهو السرّ [٩٦ظ] في جعل المستنكَف عنه كونَه عليه السلام عبدًا له تعالى -دون أن يقال "عن عبادة الله" ونحو ذلك- مع إفادة فائدة جليلة: هي كمال نزاهته عليه السلام عن الاستنكاف بالكلّيّة؛ فإنّ كونه عبدًا له تعالى حالة مستمِرّة مستتبِعة لدوام العبادة قطعًا، فعدم الاستنكاف عنه مستلزِم لعدم الاستنكاف عن عبادته تعالى كما أشيرَ إليه، بخلاف عبادته تعالى؛ فإنّها حالة متجدِّدة غيرُ مستلزِمة للدوام، يكفي في اتّصاف موصوفها بها تحقّقُها مرّةً، فعدم الاستنكاف عنها لا يستلزم عدمَ الاستنكاف عن دوامها.

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾، أي: ولا يستنكِف الملائكة المقرَّبون أن يكونوا عَبيدًا لله. وقيل: إن أريدَ بـ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كلّ واحد منهم لم يُحتجْ إلى التقدير.

---

[1] وفي هامش م: في القاموس [للفيروزآبادي، «نكف»]: «نكَف عنه، كـ"فرِح" و"نصَر": أنِف منه، وامتنَع، وهو ناكِف، ومنه، كـ"فرِح": تبرّأ». والأوّل هو الأنسَبُ بالمقام. «منه».

[2] وفي هامش م: مبتدأ.

[3] وفي هامش م: خبر.

[4] الكشف والبيان للثعلبي، ٤٢٠/٣؛ أسباب النزول للواحدي، ص ١٩٠.

واحتَجَّ بالآية مَن زعم[١] فضلَ الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة السلام، وقال: مَساقه لردّ النصارى في رفع المسيح عن مقام العبوديّة، وذلك يقتضي أن يكون المعطوف أعلى درجةً مِن المعطوف عليه حتّى يكون عدم استنكافهم مستلزِمًا لعدم استنكافه عليهم السلام.

وأُجيبَ بأنّ مَناط كفر النصارى ورفعِهم له عليه السلام عن رتبة العبوديّة لمّا كان اختصاصَه عليه السلام وامتيازَه عن سائر أفراد البَشر بالوِلادة مِن غير أبٍ وبالعلم بالمُغيّبات وبالرفع إلى السماء، عُطِف على عدم استنكافه عن عبوديّته تعالى عدمُ استنكاف مَن هو أعلى درجةً منه فيما ذُكر؛ فإنّ الملائكة مخلوقون مِن غير أب ولا أمّ، وعالِمون بما لا يعلمه البَشر مِن المغيّبات، ومَقارُّهم السماوات العُلَا؛ ولا نزاعَ لأحد في عُلوّ درجتهم مِن هذه الحيثيّة، وإنّما النزاع في عُلوّها مِن حيث كثرةُ الثواب على الطاعات، وبأنّ الآية[٢] ليست للردّ على النصارى فقط؛ بل على عَبَدة الملائكة أيضًا، فلا اتّجاهَ لِما قالوا حينئذ. وإن سُلّم اختصاصها بالردّ على النصارى، فلعلّه أُريدَ بالعطف المبالغة باعتبار التكثير والتفصيل، لا باعتبار التكبير والتفضيل، كما في قولك: "أصبَحَ الأميرُ لا يخالفه رئيس ولا مَرءُوسٌ". ولَئِنْ سُلّم إرادة التفضيل، فغاية الأمر
[٩٧و] / الدلالة على أفضليّة المقرَّبين منهم -وهم الكَرُوبيّون[٣] الذين حول العرش أو مَن هو أعلى منهم رتبةً مِن الملائكة عليهم السلام- على المسيح مِن الأنبياء عليهم السلام، وليس يلزَم مِن ذلك فضل أحد الجنسين على الآخَر مطلَقًا؛ وهل التشاجرُ إلّا فيه؟

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أي: عن طاعته، فيشمُل جميعَ الكَفَرة لعدم طاعتهم له تعالى. وإنّما جُعل المستنكَف عنه ههنا عبادتَه تعالى -لا ما سبق- لتعليق الوعيد بوصفِ ظاهرِ الثبوت للكَفَرة؛ فإنّ عدم طاعتهم له تعالى ممّا لا سبيلَ لهم إلى إنكار اتّصافهم به.

---

١ هو الزمخشري في الكشّاف، ١/٥٩٦-٥٩٧.

٢ السياق: وأجيبَ بأنّ مَناط كفر النصارى... وبأنّ الآية...

٣ وفي هامش م: خفّ. | يعني تخفيف الراء.

إن قيل: لِمَ عُبّر عن عدم طاعتهم له تعالى بـ"الاستنكاف" عنها، مع أنّ ذلك منهم[1] كان بطريق إنكار كون الأمر مِن جهته تعالى، لا بطريق الاستنكاف؛ **قلنا**: لأنّهم كانوا يستنكِفون عن طاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهل هو إلّا استنكاف عن طاعة الله عزّ وجلّ؟ إذ لا أَمْرَ له عليه السلام سِوى أمره تعالى ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء، ٨٠/٤].

﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ الاستكبار: الأَنَفة عمّا لا ينبغي أن يُؤنَف عنه، وأصله طلب الكِبر لنفسه بغير استحقاق له، لا بمعنى طلب تحصيله مع اعتقاد عدم حصوله فيه؛ بل بمعنى عدّ نفسه كبيرًا واعتقادِه كذلك. وإنّما عُبّر عنه بما يدلّ على الطلب للإيذان بأنّ مآله محض الطلب بدون حصول المطلوب. وقد عُبّر عن مثل ذلك بنفس الطلب في قوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف، ٤٥/٧؛ هود، ١٩/١١؛ إبراهيم، ٣/١٤]، فإنّهم ما كانوا يطلبون ثبوت العِوَج لسبيل الله مع اعتقادهم لاستقامتها؛ بل كانوا يعُدّونها ويعتقدونها مُعْوَجّةً ويحكمون بذلك؛ ولكنْ عُبّر عن ذلك بالطلب لِما ذُكر مِن الإشعار بأنْ ليس هناك شيء سِوى الطلب. والاستكبار دون الاستنكاف المنبئ عن توهّم لُحوق العار والنقصِ مِن المستنكَف عنه.

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: المستنكِفين ومقابِليهم المدلولَ عليهم بذكر عدم استنكاف المسيح والملائكة عليهم السلام. وقد تُرك ذكر أحد الفريقين في المفصَّل تعويلًا على إنباء التفصيل عنه وثقةً بظهور اقتضاء حشر أحدهما لحشر الآخَر، ضرورةَ عموم الحشر للخلائق كافّةً، كما تُرك ذكر أحد الفريقين في التفصيل عند قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ الآية [النساء، ١٧٥/٤] -مع عموم الخطاب لهما- اعتمادًا على ظهور اقتضاء إثابة أحدهما لعقاب الآخَر، ضرورةَ شمول الجزاء للكلّ.

وقيل: الضمير للمستنكِفين، وهناك مقدَّر معطوف عليه، والتقدير: فسيحشُرهم وغيرَهم. وقيل: المعنى: فسيحشُرهم إليه يومَ يحشر العباد لمُجازاتهم؛ وفيه أنّ الأنسب بالتفصيل الآتي اعتبارُ حشر الكلّ في الإجمال على نهج واحد. وقُرئ:

---

[1] س: عنهم.

"فَسَيَحْشِرُهُمْ"[1] بكسر الشين، وهي لغة. وقُرِئَ: "فَسَنَحْشُرُهُمْ"[2] بنُون العَظَمة بطريق الالتفات.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لحال الفريق المَطويّ ذكرُه في الإجمال. قُدّم على بيان حال ما يقابله إبانةً لفضله، ومسارعةً إلى بيان كون حشره أيضًا معتبَرًا في الإجمال. وإيراده بعُنوان الإيمان والعمل الصالح -لا بوصف عدم الاستنكاف المناسِب لِما قبله وما بعده- للتنبيه على أنّه المستتبع لِما يعقُبه مِن الثمرات. ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ مِن غير أن ينقُص منها شيئًا أصلًا، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ / بتضعيفها أضعافًا مضاعَفةً، وبإيعطاء ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطَرَ على قلب بَشرٍ. [٩٧ظ]

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ﴾ أي: عن عبادته عزّ وجلّ، ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لا يُحيط به الوصف، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يَلِي أمورَهم ويدبِّر مصالحهم، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم مِن بأسه تعالى ويُنجيهم مِن عذابه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى كافّة المكلَّفين إثرَ بيان بُطلان ما عليه الكَفَرة مِن فنون الكفر والضلال وإلزامِهم بالبراهين القاطعة التي تَخِرّ لها صُمُّ الجبال وإزاحةِ شُبَههم الواهية بالبيّنات الواضحة، وتنبيهٌ لهم على أنّ الحجّة قد تمّت، فلم يبقَ بعد ذلك علّة لمتعلّل، ولا عُذر لمعتذِر.

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها بلا نسبة السمين في الدرّ المصون، ٤/١٧٠؛ وابن عادل في اللباب، ٧/١٥٠، وقالا: «وهي لغةٌ في مضارع "حَشَر"».

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ١٤٨.

﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ أي: وصل إليكم وتقرَّر في قلوبكم بحيث لا سبيلَ لكم إلى الإنكار[١] ﴿بُرْهَٰنٌ﴾ البرهان: ما يُبرهَن به على المطلوب، والمراد به القرآن الدالّ على صحّة نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المثبِتُ لِما فيه مِن الأحكام التي مِن جملتها ما أشيرَ إليه ممّا أثبتَتْه الآيات الكريمة مِن حقّيّة الحقّ وبطلان الباطل. ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما أنّه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم،[٢] عُبّر عنه به لِما معه مِن المعجِزات التي تشهَد بصدقه. وقيل: هي المعجِزات التي أظهرها. وقيل: هو دين الحقّ الذي أتى به.

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ إمّا متعلِّق بـ﴿جَآءَكُمْ﴾، أو بمحذوف وقع صفةً مشرِّفةً لـ﴿بُرْهَٰنٌ﴾ مؤكِّدةً لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: كائن منه تعالى، على أنّ ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية مجازًا، وقد جُوّز على الثاني كونها تبعيضيّةً بحذف المضاف، أي: كائن مِن براهين ربّكم. والتعرّض لعُنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين لإظهار اللطف بهم والإيذانِ بأنّ مجيئه لهم لتربيتهم وتكميلهم.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ أريدَ به أيضًا القرآن الكريم، عُبّر عنه تارةً بالبرهان لِما أشيرَ إليه آنفًا، وأخرى بالنور النَّيِّر بنفسه المنوِّرِ لغيره إيذانًا بأنّه بيِّنٌ بنفسه، مُستغنٍ في ثبوت حقّيّته وكونِه مِن عند الله عزّ وجلّ بإعجازه، غيرُ محتاج إلى غيره، مبيِّنٌ لغيره / مِن الأمور المذكورة، وإشعارًا بهدايته للخلق [٩٨و]
وإخراجِهم مِن ظُلُمات الكفر إلى نور الإيمان. وقد سُلك به مسلَكُ العطف المبنيّ على تغاير الطرفين تنزيلًا للمغايرة العُنوانيّة منزلةَ المغايرة الذاتيّة. وعُبّر عن ملابسته للمخاطبين تارةً بـ"المَجيء" المسنَدِ إليه المنبِئِ عن كمال قوّته في البرهانيّة -كأنّه يجيء بنفسه، فيُثبِت أحكامَه مِن غير أن يجيء به أحد، ويُنحِي على شُبَه الكَفَرة بالإبطال- وأخرى بـ"الإنزال" المُوَقِّعِ عليه الملائمِ لحيثيّة كونه نورًا توفيرًا له -باعتبار كلّ واحد مِن عُنوانَيه- حظَّه اللائقَ به.

---

[١] وفي هامش م: [illegible].

[٢] التفسير البسيط للواحدي، ٢٠٩/٧.

وإسناد إنزاله إليه تعالى بطريق الالتفات لكمال تشريفه. هذا على تقدير كون "البرهان" عبارةً عن القرآن العظيم. وأمّا على تقدير كونه عبارةً عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم أو عن المعجِزات الظاهرة على يده أو عن الدين الحقّ، فالأمر هيّنٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ متعلِّق بـ﴿وَأَنزَلْنَا﴾؛ فإنّ إنزاله بالذات، وإن كان إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لكنّه منزَل إليهم أيضًا بواسطته عليه السلام؛ وإنّما اعتُبر حاله بالواسطة، دون حاله بالذات كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ[1] لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء، ١٠٥/٤] ونظائرِه لإظهار كمال اللطف بهم والتصريحِ بوصوله إليهم مبالغةً في الإعذار. وتقديمه على المفعول الصريح -مع أنّ حقّه التأخّر عنه- لِما مرّ غيرَ مرّة مِن الاهتمام بما قُدّم والتشويق إلى ما أُخّر، وللمحافظة على فواصل الآي الكريمة.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ١٧٥﴾

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ حسبما يوجبه البرهان الذي أتاهم، ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: عصَموا به أنفسَهم ممّا يُرديها مِن زَيغ الشيطان وغيره، ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: «هي الجنّة وما يتفضّل عليهم ممّا لا عينٌ رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطَرَ على قلب بَشر».[2] وعُبّر عن إفاضة الفضل بـ"الإدخال" على طريقة قوله:

وعَـلَـفْـتُـهـا تِـبْـنًـا ومـاءً بـاردًا[3]

---

[1] م س - بالحقّ.

[2] تفسير الرازي، ٢٧٤/١١؛ اللباب لابن عادل، ١٥٢/٧.

[3] وفي هامش م: تمامه:
حتّى غَـدَتْ هَـمّـالـةً عَيْناها
| البيت منسوب إلى بعض بني أسدٍ يصف فرَسَه في معاني القرآن للفرّاء، ١٤/١، وبلا نسبة في جامع البيان للطبري، ١٠٩/٩ (المائدة، ١٠٩/٥)؛ وشرح كتاب سيبويه للسيرافي، ٧٠/١؛ والصحاح للجوهري، «علف»؛ ولسان العرب لابن منظور، «علف»؛ وشرح شواهد المغني للسيوطي، ٩٢٩/٢، وفي بعضها: "شَتَتْ" بدلَ "غَدَتْ".

وتنوين ﴿رَحْمَةٍ﴾ و﴿فَضْلٍ﴾ تفخيميٌّ. و﴿مِنْهُ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ وقع صفةً مشرِّفةً لـ﴿رَحْمَةٍ﴾.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله عزّ وجلّ، وقيل: إلى الموعود، وقيل: إلى عبادته. ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هو الإسلام والطاعة في الدينا وطريق الجنّة في الآخرة. وتقديم ذكر الوعد بإدخال الجنّة على الوعد بالهداية إليها على خلاف الترتيب في الوجود بين الموعودَين للمسارعة إلى التبشير بما هو المقصد الأصليّ. قيل: انتصابُ ﴿صِرَاطًا﴾ / على أنّه مفعول لفعل محذوفٍ يُنبئ عنه [٩٨ظ] ﴿يَهْدِيهِمْ﴾، أي: يعرّفهم صراطًا مستقيمًا.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي: في الكلالة، استُغنيَ عن ذكره بوروده في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ وقد مرّ تفسيرها في مطلَع السورة الكريمة.[1] والمستفتي جابر بن عبد الله[2] رضي الله عنه، يُروى أنّه أتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم في طريق مكّةَ عامَ حجّة الوداع، فقال: «إنّ لي أختًا، فكم آخُذُ مِن ميراثها إن ماتت؟»،[3] وقيل: كان مريضًا، فعاده رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «إنّي كلالة، فكيف أصنع في مالي؟»،[4] ورُوي عنه رضي الله عنه

١ انظر: تفسير النساء، ١٢/٤.

٢ هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، أبو عبد الله، وقيل: أبو عبد الرحمن (ت. ٧٨هـ/٦٩٧م). صحابيّ، مِن المكثِرين في الحديث الحافظين للسُّنن. شهد العقبة الثانية مع أبيه وهو صبيّ، وقال بعضهم: شهد بدرًا، وقيل: لم يشهدها. روى عنه محمّد بن عليّ بن الحسين وعمرو بن دِينار وأبو الزبير المكّي وعطاء ومجاهد، وغيرهم. انظر: الاستيعاب للنّمري، ١/٢١٩-٢٢٠؛ وأسد الغابة لابن الأثير، ١/٤٩٢-٤٩٤.

٣ الكشّاف للزمخشري، ١/٥٩٨؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٤/١٤٩.

٤ تفسير مقاتل بن سليمان، ١/٤٢٦؛ التفسير البسيط للواحدي، ٧/٢١١، كلاهما بختلاف يسير. والألفاظ مِن الكشّاف للزمخشري، ١/٥٩٨.

أنّه قال: دعاني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأنا مريض لا أَعقِل، فتوضّأ، وصبَّ مِن وَضُوئه عليَّ، فعقَلتُ، فقلتُ: «يا رسولَ الله، لمَن الميراثُ؟ وإنّما يرِثُني كلالةٌ»، فنزلت.[١]

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ استئناف مبيِّن للفُتْيا، وارتفَعَ ﴿ٱمْرُؤٌا۟﴾ بفعلٍ يفسِّره المذكور، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ صفة له، وقيل: أو حال مِن الضمير في ﴿هَلَكَ﴾، ورُدَّ بأنّه مفسِّر للمحذوف غيرُ مقصود في الكلام، أي: إن هلَك امرُؤٌ غيرُ ذي ولد ذَكرًا كان أو أنثى. واقتُصِر على ذِكر عدم الولد -مع أنّ عدم الوالد أيضًا معتبَر في الكلالة- ثقةً بظهور الأمر ودلالة تفضيل الوَرَثة عليه. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أو حال. والمراد بـ"الأخت" مَن ليست لأمّ فقط؛ فإنّ فرضها السُّدُس، وقد مرّ بيانه في صدر السورة الكريمة.[٢]

﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: بالفرض، والباقي للعَصَبة، أو لها بالردّ إن لم يكن له عَصَبة. ﴿وَهُوَ﴾ أي: المرء المفروض ﴿يَرِثُهَآ﴾ أي: أخته المفروضةَ إن فُرض هلاكها مع بقائه. ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ ذَكرًا كان أو أنثى. فالمراد بإرثه لها إحرازُ جميع ما لها؛ إذ هو المشروط بانتفاء الولد بالكلّيّة، لا إرثُه لها في الجملة؛ فإنّه يتحقّق مع وجود بنتها، وليس في الآية ما يدلّ على سقوط الإخوة بغير الولد، ولا على عدم / سقوطهم، وإنّما دلّت على سقوطهم مع الأب السنّة الشريفةُ. [٩٩و]

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ عطفٌ على الشرطيّة الأولى، أي: اثنتين فصاعِدًا. ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الضمير[٣] لمَن يرِث بالأخُوّة، والتأنيث والتثنية باعتبار المعنى. قيل: وفائدة الإخبار عنها بـ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ -مع دلالة أَلِف التثنية على الاثنَينيّة- التنبيهُ على أنّ المعتبَر في اختلاف الحُكم هو العدد، دون الصِّغر والكِبر وغيرهما.

---

[١] الحديث بمعناه مع اختلاف بالنقص والزيادة في صحيح البخاري، ٩/١٠٠-١٠١ (٧٣٠٩)، إلّا أنّه لم يصرّح فيه الآية المنزلة. وجاء في صحيح مسلم، ٣/١٢٣٤ (١٦١٦)، مصرّحًا بأنّها هذه الآية. والألفاظ مِن اللباب لابن عادل، ٧/١٥٣ (النساء ٤/١٧٢).

[٢] انظر: تفسير النساء، ٤/١١-١٢.

[٣] س: والضمير.

﴿وَإِن كَانُوٓا﴾ أي: مَن يرث بطريق الأخُوّة ﴿إِخْوَةً﴾ أي: مختلِطةً ﴿رِجَالًا وَنِسَآءً﴾ بدل مِن «إِخْوَةً»، والأصل: وإن كانوا إخوةً وأخَواتٍ، فغلّب المذكّر على المؤنّث. ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾ أي: فللذّكر منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يقتسمون التَّرِكة على طريقة التعصيب. وهذا آخِر ما نزل مِن كتاب الله تعالى في الأحكام.

رُوي أنّ الصدّيق رضي الله عنه قال في خُطبته: «إنّ الآية التي أنزلها الله تعالى في سورة النساء في الفرائض، فأوّلُها في الولد والوالد، وثانيها في الزوج والزوجة والإخوة مِن الأمّ، والآيةَ التي ختَم بها السورةَ في الإخوة والأخَوات لأبوَين أو لأب، والآيةَ التي ختَم بها سورةَ الأنفال أنزلها في أُولي الأرحام».[١]

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: حُكمَ الكلالة، أو أحكامه وشرائعَه التي مِن جملتها حكمها. ﴿أَن تَضِلُّوا﴾ أي: كراهةَ أن تَضلّوا في ذلك، وهذا رأيُ البصريّين، صرّح به المبرّد.[٢] وذهب الكسائي والفرّاء وغيرُهما مِن الكوفيّين إلى تقدير "اللام" و"لا" في طرفَي «أَنْ»، أي: لئلّا تَضلّوا.[٣] وقال الزجّاج: «هو مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر، ٤١/٣٥]، أي: لئلّا تَزُولَا».[٤] وقال أبو عُبيد:[٥] «رَوَيتُ للكسائي حديثَ ابن عمرَ رضي الله عنهما، وهو: "لا يدعُوَنّ أحدُكم على ولده أن يوافق مِن الله إجابةً"، أي: لئلّا يوافقَ، فاستحسنه».[٦] وليس ما ذكرَا مِن الآية والحديث نصًّا فيما ذهب إليه الكسائي وأضرابُه؛ فإنّ التقدير فيهما عند البصريّين: كراهةَ أن تَزُولَا، وكراهةَ أن يوافِق... إلخ.

---

١ جامع البيان للطبري، ٧١٤/٧؛ التفسير البسيط للواحدي، ٢١٣/٧. وهو في السنن الكبرى للبيهقي، ٣٧٩/٦ (١٢٣٢٣)، بدون عبارة: "والآيةَ التي ختَم بها سورةَ الأنفال أنزلها في أولي الأرحام".

٢ انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٤٥٦/١.

٣ انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢٩٧/١؛ وتفسير الرازي، ١٨٧/١٤.

٤ كلام الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه، ١٣٦/٢-١٣٨، إلّا أنه لم يستشهد بهذه الآية. لعلّ المصنّف نقل كلامه مِن اللباب لابن عادل، ١٥٨/٧.

٥ هو القاسم بن سلّام أبو عُبيد الهروي (ت. ٢٢٤هـ/٨٣٨م).

٦ انظر: اللباب لابن عادل، ١٥٨/٧. وأورده أبو حيّان في البحر المحيط، ١٥٣/٤، ونسبه إلى أبي عبيدة، لعلّه مَعمَر المثنّى، ولكن لم نقف عليه في معاني القرآن له.

[٩٩ظ] وقيل: ليس هناك حذف ولا تقدير، / وإنّما هو مفعول ﴿يُبَيِّنُ﴾، أي: يبيّن لكم ضلالكم الذي هو مِن شأنكم إذا خُلّيتم وطباعَكم لتحترزوا عنه وتتحرّوْا خلافَه. وأنت خبير بأنّ ذلك إنّما يَليق بما إذا كان بيانه تعالى على طريقة تعيين مواقع الخطأ والضلال، مِن غير تصريح بما هو الحقّ والصواب؛ وليس كذلك.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها أحوالكم المتعلِّقة بمَحياكم ومَماتكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالِغ في العلم، فيبيّن لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم.

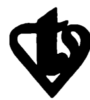
عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة النساء فكأنّه تصدَّقَ على كلّ مؤمن ومؤمنة، وورث ميراثًا، وأُعطيَ مِن الأجر كمَن اشترى محرَّرًا، وبرِئ مِن الشرك، وكان في مشيئة الله تعالى مِن الذين يُتجاوز عنهم».[١]

الحمد لله سبحانه على الإتمام.[٢]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣/١٤٢٤؛ الكشّاف للزمخشري، ١/٥٩٩. أخرج مطلعَه ابن الجوزي في الموضوعات، ١/٢٣٩.

٢ س - الحمد لله سبحانه على الإتمام. | وفي هامش م: إلى هنا انتهى التسويد بفضل الله سبحانه وتعالى وتقدّس، في عاشرِ رجبَ الفرد مِن شهور سنة أربعٍ وستّينَ وتسعمائة. ختمها الله تعالى بالخير والحُسنى. آمين.



Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları
Yayın No. 1000-1
İSAM Yayınları 236
Klasik Eserler Dizisi 46

İRŞÂDÜ'l-AKLİ's-SELÎM ilâ MEZÂYA'l-KİTÂBİ'l-KERÎM
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
Cilt 2

Tahkik
Mehmet Taha Boyalık - Ahmet Aytep [Mukaddime - Bakara 98; Nisâ - Tevbe]
Ziyaüddin el-Kaliş [Bakara 99 - Âl-i İmrân 32; Yûnus - Hûd; Hicr - Tâhâ; Zâriyât - Nâs]
Muhammed İmâd el-Nabulsî [Âl-i İmrân 33-200; Yûsuf - İbrâhim; Enbiyâ - Kâf]



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.

İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
İnceleme kısmı üslup okuma (Türkçe) Metin Karabaşoğlu
Tercüme (Arapçaya) Merve Dağıstanlı Barsik
Tashih (Arapça) Said Kayacı, Münzir Şeyhhasan, Mohamed Shahin
(Türkçe) İsa Kayaalp, Abdülkadir Şenel, İnayet Bebek
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, İbrahim Dervişmüezzin (Uygulama),
Hasan Hüseyin Can (Kapak), Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Münzir Şeyhhasan, Sema Doğan



Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayınlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
01/06/2020 tarihli ve 2020/05 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: Ankara, Temmuz 2021 m. / 1442 h.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.)
978-625-7581-33-2 (2. Cilt)



Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] / Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî ; tahkik Mehmet Taha Boyalık , Ahmet Aytep , Ziyaüddin el-Kaliş , Muhammed İmâd el-Nabulsî. – Ankara : Türkiye Diyanet Vakfı, 2021. 2. c. , 560 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 1000-1. İSAM Yayınları ; 236. Klasik Eserler Dizisi ; 46)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.) 978-625-7581-33-2 (2. Cilt)



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm

Ebussuûd Tefsiri

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
(ö. 982 h. / 1574 m.)

Kendisine ait notlarla (minhüvât) birlikte
müellif nüshasından ilk neşir

Tahkik

Mehmet Taha Boyalık — Ahmet Aytep
Ziyaüddin el-Kaliş — Muhammed İmâd el-Nabulsî

Proje Yürütme ve İlmî Kontrol
Mehmet Taha Boyalık

İkinci Cilt



İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamıştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahrâaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlükler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usûlünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkādir-i Geylânî ve Kādirîlik*, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ, Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kādî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kāsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Tahrîri'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr*, (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsir Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akāid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkîtî), 2020
Siğnâkî, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Alî Kuşçu, *Hâşiyetü Alî el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep, Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî), I-IX, 2021



İrşâdü'l-akli's-selîm
ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm